قراءة في كتاب البديع لابن المعتز
دراسة وتقويم

الدكتور جليل رشيد فالح
كلية الآداب – جامعة الموصل

١ – توطئة : ظاهرة البديع بين الاتجاه الشعري والدرس البلاغي :

حين يذكر البديع تنصرف اذهان الدارسين إلى العلم الثالث من علوم البلاغة العربية ، ذلك العلم الذي اجتمعت في رحابه فنون معينة معروفة استقرت في مضمار الدرس البلاغي بأسمائها وتعريفاتها وأمثلتها متميزة عن موضوعات العلمين الآخرين : المعاني والبيان ،

ويشير مؤرخو البلاغة العربية إلى ان المصطلحات البلاغية كانت ترد في دراسة الظواهر الأسلوبية من غير تحديد علمي دقيق لمدلولاتها الاصطلاحية ، حتى جاء ابو يعقوب السكاكي (٦٢٦هـ) فتم على يديه تقسيم البلاغة العربية إلى علومها الثلاثة المعروفة ، كما يشير إلى ذلك الدكتور احمد مطلوب في قوله :

«ولم تزل البلاغة تكمل شيئاً فشيئاً إلى ان مخض السكاكي زبدتها وهذّب مسائلها ورتب ابوابها ، فكان بذلك اول من قسم البلاغة إلى علمين متميزين علم يتعلق بالنظم سماه علم المعاني ، وعلم يتعلق بالتشبيه والمجاز والكناية او بالصورة سماه علم البيان ،ولم يسم القسم الثالث بديعاً ،وانما هو عنده وجوه مخصوصة كثيراً ما يؤتى بها لتحسين الكلام» (١)

(١) البلاغة عند السكاكي : ١١٧

«وقسمها إلى قسمين : قسم يرجع إلى المعنى ... وقسم يرجع إلى اللفظ» (٢)

وهو في هذا التقسيم ينحو منحى الفخر الرازي (٦٠٦هـ) الذي تكلم على المحسنات البديعية ولكنه لم يجمعها في بحث واحد . ويميزه عن السكاكي انه «قسم المحسنات إلى قسمين : قسم بحثه في الجملة الاولى الخاصة بالمفردات ، والآخر بحثه في الجملة الثانية الخاصة بالنظم» (٣) .

ولم يكن صنيع البلاغيين من لدن الرازي والسكاكي في تحديد معالم شخصية هذا العلم وافراده عن صنويه : المعاني والبيان جديداً مبتدعاً ، فان هؤلاء المتأخرين نظروا إلى البديع كما نظر اليه السابقون عليهم. بل انهم استمدوا رؤيتهم من اهتمامهم الخاص بالبديع تياراً شعرياً له مميزاته وسماته وفنونه . فقد ذهب الاصبهاني – صاحب الاغاني ، إلى ان مسلم بن الوليد – صريع الغواني – كان اول من اطلق تسمية البديع على هذا التيار الجديد الذي كان استجابة لدواعي الحياة الحضارية في العصر الاسلامي .

قال : «وهو – اي مسلم – فيما زعموا اول من قال الشعر المعروف بالبديع ، وهو لقب هذا الجنس البديع واللطيف وتبعه فيه جماعة واشهرهم فيه ابو تمام الطائي فانه جعل شعره كله مذهباً واحداً فيه» (٤)

الا ان صاحب الاغاني يذكر كذلك ان محمد بن القاسم بن مهرويه ينسب تسمية البديع إلى ناس ذلك العصر ويثبت لمسلم انه اول من نظم فيه معتداً ذلك من المآخذ عليه ، فقال : «اول من أفسد الشعر مسلم بن الوليد جاء بهذا الذي سماه الناس البديع» (٥)

ويتحدث الجاحظ عن هذا الاتجاه ورواده فيقول :

«ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة

(٢) م : ن ١٢٢ – ١٢٣

(٣) م . ن ٢٥٨

(٤) الاغاني ٣١/١٩ (الهيئة المصرية العامة للكتاب) .

(٥) الاغاني : ١٩/ ٣١ .

مع البيان الحسن : كلثوم بن عمرو العتابي وكنيته ابو عمرو ، وعلى الفاظه وحذوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين كنحو منصور النمري ومسلم بن الوليد الأنصاري واشباههما ، وكان العتابي يحذو حذو بشار في البديع ، ولم يكن من المولدين اصوب بديعاً من بشار وابن هرمة» (٦)

وقال في موضع آخر :

«والراعي كثير البديع ، وبشار حسن البديع ، والعتابي يذهب شعره في البديع مذهب بشار» (٧)

ولست اذهب إلى ما ذهب اليه الدارسون المحدثون من ان البديع قبل التقسيم الثلاثي لعلوم البلاغة كان يقصد به البلاغة عامة ،

من مثل ما ذهب اليه الدكتور بدوي طبانة في قوله :

«ولم يكن ابن المعتز يعني من البديع او يفهم منه ما فهمه منه البلاغيون المتأخرون من انه العلم الذي يبحث في وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة على المعنى المراد» (٨)

واحتج على ذلك بوجود الاستعارة والتشبيه والكناية فيما اورد ابن المعتز من فنون البديع ، وكذلك وجود الالتفات - وهو من اساليب المعاني .

وفي ذلك يسعنا القول : إنه على الرغم من وجود هذه الظواهر الفنية فيما ذكر ابن المعتز فان الغلبة لتلك الفنون التي استقرت في مضمار علم البديع .

---

(٦) البيان والتبيين : ١ / ٥١ .

(٧) البيان والتبيين : ٥٦/٤

(٨) البيان العربي : ٩٩ ، وذهب الى الرأي نفسه الدكتور مازن المبارك في قوله : « ولم يكن البديع عنده يعني مايعنيه اليوم من فنون بديعية ، وانما هوعنده فنون بلاغية متنوعة» -الموجز في تأريخ البلاغة - ٦٩ .
ولكنه في موضع آخر يعود ليقول : « ولكن ابن المعتز كان اول من افرد للبديع كتاباً وخصه بالتأليف ، وكان اول من حاول جمع فنون البديع في كتاب واحد » .
الموجز : ٦٩ وكذلك يرى الدكتور ، كامل حسن البصير أن أبن المعتز أدار مصطلح البديع تسمية شاملة للفنون البلاغية على عهده- بناء الصورة الفنية في البيان العربي - ٢٩.

ولم يكن اخراج الاستعارة والتشبيه والكناية من هذا المضمار الا لاعتبارات دلالية حكمتها معايير التعبير المجازي مقارنة بمعايير التعبير الحقيقي (المباشر) اما السمة البديعية باعتبارها سمة جمالية عبر عنها بمحاسن الكلام فهي من ابرز ما تتحلى به فنون التعبير المجازي ، ومن ثمة فان لهذه الفنون اعتبارين يلحظان عند التعامل معها :

اولهما : اعتبار دلالي تولى علم البيان تحديد مساره الاسلوبي ووظيفته المعنوية ، وثانيهما : اعتبار تولى علم البديع ابراز ملامحه وخصائصه .

وتبقى بعد ذلك فنون بديعية لم تستطع الدائرة المجازية احتواءها لتفردها بالخصائص الجمالية فضلاً عن دلالتها المعنوية ، وهي فنون متعددة بالقياس إلى ماخرج من هذه الدائرة وانضم إلى مباحث علم البيان،ثم استقرت هذه الفنون في مباحث البلاغيين على انها من فنون العلم الثالث (البديع) .

ولا يخامرنا شك في ان الباحثين الذين رصدوا تيار البديع فانما رصدوه انطلاقاً من رؤية ثابتة لظاهرة لها جذورها القديمة، ثم كان الوعي الحضاري باعثاً رئيساً من بواعث التنبه لها واصطناعها نهجاً له دعاته وحماته،ولا مناص من القول إن لكل نهج اسسه وبواعثه ورسومه الواضحة المعالم .

وقد تنبه الدكتور طه حسين إلى هذا الاتجاه المتميز وقدمه في الشعر العربي حيث قال :

« ان صناعة الفن البياني الخالص وتعمده والالحاح فيه ليست – كما نظن–من مظاهر الحياة الأدبية الجديدة ايام بني العباس وبخاصة اوس وزهير وليس مسلم بن الوليد هو مبتكرها أو منميها –كما كنا نظن – وليست هذه المدرسة البيانية في الشعر – هذه المدرسة التي تعنى بالفن للفن – عباسية النشأة او عباسية النمو والنهضة،وانما هي اقدم من ذلك وأبعد في تأريخ الشعر العربي اثراً ، نشأت في العصر الجاهلي وانشأها اوس بن حجر ونماها زهير ،

والحطيئة. وكان لهم تمثلون في العصر الأموي منهم جميل وكثير، واتصلت سنتها الى ايام بني العباس فتناولها مسلم ثم ابو تمام وابن المعتز ثم المتنبي»(٩)

ومما يعزز رأينا في ان الاتجاه البديعي تجاه محدد السمات معـــروف الملامح أن الجاحظ يعرض له بما يؤكد هذا التحديد، اذ يقول:

« وهذا الذي تسمية الرواة بالبديع » (١٠)

أليس قوله(هذا الذي) اشارة صريحة الى حالة او مذهب او تجاه يتميز بسمات وخصائص فنية لها وقعها في النفس كما لها موقعها في مفاصل العمل الابداعي، وفي موضع آخر يؤكد الجاحظ هذا التحديد حين يتحدث عـــن العتابي فيقول: « وعلى الفاظه وحذوه ومثاله في البديع يقـول جميع مـــن تكلف ذلك من شعراء المولدين، كالنمري ومسلم واشباههما، وكان العتابي يحتذي حذو بشار في البديع » (١١)

وفضلا عن ان ذلك يشير الى تجاه فني او مذهب شعري جديد محـــــدد السمات والخصائص فان ذلك يعني ايضاً التفنن في عراض المعني في صـورة جديدة تحققها فنون عرفت في العربية قديماً من مضمار محدود وتنبه لها في العصر العباسي فاتسع نطاق استخدامها وذاع امرها في اوساط الناس ـولاسيما الشعراء منهم .

ثم تبلورت مذهباً شعرياً تبناه الشعراء المحدثون اذ وجدوا فيه روحاً حضارية جديدة تمنح الشعر العربي حياة ونماء وقوة، وتنآى به عن ميادين التقليـــد والاحتذاء للقديم، وتكرار مااستهلك من الصور والتعابير .

---

(٩) في الأدب الجاهلي : ٢٧٢
(١٠) البيان والتبيين : ٤/ ٥٥ .
(١١) البيان والتبيين : ١/ ٥١

٢ – ابن المعتز وكتاب البديع

في ضوء ماسلف نقول : « اذا كان الأمر كذلك عند القدامى الذين نظروا الى العمل الابداعي فناً له خصائصه ومناهجه ومدارسه فان ابن المعتز حيـــن الف كتابه(البديع) فانما كان يصدر عن ذات الرؤية والتصور ، وقد نظر اليه فنوناً ولدت في احضان تجاه شعري كانت له جذوره في القديـم (١٢) ثم نما في العصر العباسي نمواً واضح السمات مكتمل الملامح ، كما نظر اليه فنوناً ذات خصائص اسلوبية محددة يجدر بالباحث ان يعرضها بـأسلـوب منهجي ييسر على الدارسين الرجوع اليها للالمام بها ومعرفة حدودها ووظائفها وقيمتها في مضمار التعبير الأدبي شعراً ونثراً . لتصبح من بعد مادة بلاغيـــة متميزة تدرس الى جانب موضوعات اخرى تتصل بأساليب القول المختلفـة وانماط التعبير الفنية المتنوعة . وقد عرض الباحثون القدامى والمحدثون الـى المنهج التعليمي لكتاب البديع .

يقول بهاء الدين السبكي (٧٧٣ هـ) : « اعلم ان انواع البديع كثيرة ، وقد صنف فيها ، واول من اخترع ذلك عبد الله بن المعتز وجمع منها سبعة عشر نوعاً » (١٣) .

ويقول الدكتور بدوي طبانة :

« وعلم البديع كان اول من الف فيه عبد الله بن المعتز وجمع في مؤلفـــه ماوقع من ضروب تحسين الكلام في كتاب الله وحديث الرسول وكلام بلغاء العرب وأطلق على كل ضرب منها اسماً خاصاً » (١٤) .

---

(١٢) احصى الدكتور احمد ابراهيم موسى ٢٦ نوعاً من انواع البديع المعنوية وستة مـــن الانواع اللفظية في الشعر القديم – ينظر الصبغ البديعي في اللغة العربية ٢٦ – ٤١ .

(١٣) [عروس الافراح : ٤/ ٤٦٧

(١٤) ابو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية : ٢١٦

ويذهب الدكتور عبد العزيز عتيق المذهب نفسه في ان ابن المعتز انما كان تأليفه لكتابه ضرباً من ضروب التأليف المنهجي لعلم البديع ، اذ يقول :

« ان ابن المعتز اول من وضع كتاباً في البديع ضمنه ماتوصل اليه من فنون بديعية ، وبذلك يعد المؤسس الاول لعلم البديع » (١٥) .

وكذلك يرى الدكتور عبد القادر حسين« ان هذا الكتاب يعد اول محاولة علمية جادة في تدوين علم البديع ،بل في علوم البلاغة التي كان يطلق عليها في عصره كلمة البديع احياناً وكلمة البيان احياناً اخرى كما في كتاب البيان والتبيين للجاحظ .... وانما قيمة الكتاب أنه ضم الوان البديع التي كانت سائدة في عصره بين دفتي كتاب واحد » (١٦) .

ويجعل الدكتور علي عشري زايد كتاب البديع بداية لمرحلة الاستقرار في التأليف البلاغي او مايسميه ببداية استقلال البلاغة .

يقول : « فهذا الكتاب هو أول كتاب في تأريخ البلاغة العربية معروف لنا يرصد بأكمله القضايا والمباحث البلاغية » (١٧) .

وعلى الرغم من ان الدكتور علي عشري زايد يرى « ان ابن المعتز يستخدم مصطلح البديع بمدلوله العام .... وليس بمدلوله الخاص الذي تحدد فيما بعد على يد مدرسة السكاكي» (١٨) .

فان اشارته السابقة تحدد الصفة المنهجية التعليمية لكتاب البديع ، اي ان رصد التيار الشعري تحول الى مادة علمية لها فنونها وعنواناتها المحددة ، وتعاريف لتلك الفنون تهدي الدارسين الى حقيقة ما ينطوي عليه هذا العلم من دلالات ومفاهيم .

(١٥) تأريخ النقد الا دبي : ٣٩٨ .
(١٦) المختصر في تأريخ البلاغة : ٩٨ .
(١٧) البلاغة العربية وتأريخها مصادرها – مناهجها – ١٠٨ – ١٠٩
(١٨) م . ن – ١٠٩

وفي سبيل تحديد هذا الاتجاه المنهجي التعليمي نجد الدكتور احمد ابراهيم موسى يضع اصابعنا بدقة ووضوح على معالم هذا النهج الذي من أجله وضع ابن المعتز كتابه ، حيث يقول : عن ابن المعتز أنه « يضع بين يدي الناشئين دستوراً يمدهم بمقومات هذه الصنعة التي اباحها الذوق العربي ويعصمهم من الوقوع في محرماتها التي تسلمهم الى الاسترذال وتنزل بأشعارهم الى الحضيض » (١٩) .

وثقف النقاد والبلاغيون من بعده مهمة هذا النهج ، فألفوا في البديع وتوسعوا في اختراع فنونه وزيادة عددها .

فأسامة بن منقذ (٥٨٤ هـ) يسمى كتابه (البديع في نقد الشعر) ويورد فيه ٢٩٥ فناً بديعياً ، وقد استقى مادة الكتاب من بديع ابن المعتز وكتابي الحالي وحلية المحاضرة للحاتمي والصناعتين للعسكري والعمدة لابن رشيق (٢٠) .

وثمة غاية مثلى كانت قد استحثت ابن المعتز على تأليف كتابه ، وقد أعلن عنها في مستهل الكتاب ، وهي اثبات اصالة هذه الظاهرة وقدمها في الشعر العربي ، وذلك اظهاراً لحقيقة تأريخية موضوعية ، ولا أحسب ان الخلاف في هذه المسألة حول دعاوي المحدثين من الشعراء من انهم اصحاب هذا المذهب ومبتكروه شيء يتصل بالشعوبية او الرغبة في انكار فضل العرب الاوائل في اصطناع البديع او معرفتهم له في اشعارهم ، فليس ثمة ما يشير الى وجود هذه النزعة او الرغبة في الكيد للعرب ، فضلا عن ان ابن المعتز عرض للأمر بعيداً عن الاشارة الى وجود هذه الرغبة او تلك النزعة ، ولذلك فانه ضرب من التوهم ان يقول الدكتور مازن مبارك « وهكذا يقضي ابن المعتز على آمال المدعين والشعوبيين حتى لايفتخر احد منهم بابتكار فن جديد او يفاخر احدهم العرب باختراع فن في كلامهم لم يكونوا السباقين اليه» (٢١).

(١٩) الصبغ البديعي في اللغة العربية – ١٣٠
(٢٠) ينظر البديعي في نقد الشعر – ٨
(٢١) الموجز في تأريخ البلاغة :

وكل ماذكره ابن المعتز في هذا الصدد اثبات حقيقة السبق حسب ، ويتضح ذلك في قوله .

« وانما غرضنا في هذا الكتاب تعريف الناس ان المحدثين لم يسبقوا المتقدمين الى شيء من ابواب البديع » (٢٢) .

ولو كان ثمة ملامح تشي بكيد او سوء منزع فان ابن المعتز اولى النـــاس بأن يتحدث عن ذلك بصريح القول ، ويتصدى لهذا الضرب من المحاولات بالدفاع المستميت ، فهو الخليفة العربي الذي يحمي بيضة العربية ويرد غوائل الكيد عن تراث العرب وحضارتهم وعقيدتهم .

واذا ماكان اسم بشار وابي نواس يرد في سياق الشعراء المحدثين وهمــا من يرميان بالشعوبية فأن ثمة شعراء آخرين هم عرب خلص لم يؤثر عنهــم ما يصل اسبابهم بأسباب الشعوبية ولاسيما الشاعر العربي الكبير ابو تمام الطائي

حتى ان خصوم هذا التيار لم يقفوا من رواده إلا الموقف النقدي المحض ، يقول المرزباني (ت ٣٨٤هـ) : « سمعت ابن الاعرابي يقول : ان اشعار هؤلاء المحدثين مثل ابي نواس وغيره مثل الريحان يشم يوماً ويذوي فيرمى به ، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيباً » (٢٣)

وكل ماورد في مصادرنا النقدية من مقولات تقف موقفاً رافضاً اومتحفظاً انما يجري في مجرى نقدي بحت لايلمح فيه مايشير الى شعوبية او موقــف مناهض فيه كيد وازدراء .

وثمة أمر آخر يبعد الظن ان يكون ابن المعتز قد اثبت اصالة البديع للعرب بدافع منازعة المحدثين او الوقوف في وجه اتجاههم الجديد انه هو نفسه كان يجري في مضمار الحداثة شاعراً وناقداً ، وفي سياق هذا الوعــي الشعري والنقدي يخضع هذا التيار لرؤية حصيفة مدركة توخت الاعتدال والموازنة

(٢٢) البديع : ٣
(٢٣) الموشح : ٣٨٤

والتثبت، فضلا عن ترحيبه لنزعة التجديد الحضاري والفني للشعر وهو تجديد لروحه وحيويته وشبابه، فقد رأى ان المحدثين كثر في اشعارهم هذا اللون البديعي وشاع امره « فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه » (٢٤) .

ولكنه يعود ليسجل على هذا التيار مأخذا على قدر وافر من الأهمية والأنصاف وهو انكاره هذا الاسراف في حشد الألوان البديعية في الأثر الابداعي واثقاله بها على نحو يكد الذهن ويبهظ الخاطر ، يقول :

« ثم ان حبيب بن اوس الطائي من بعدهم شغف به حتى غلب عليه وتفرع فيه واكثر منه فأحسن في بعض وأساء في بعض، وتلك عقبى الافراط وثمرة الاسراف » (٢٥) .

تتضح لنا فيما اوردنا تلك الغاية الرئيسة لتأليف كتاب البديع ، ولكنني أزعم ان ثمة غاية اخرى لم يعلن عنها ابن المعتز بالقول الصريح ، ولكن وجود الكتاب بهذه الصيغة المنهجية يدلنا على تلك الغاية غير المصرح بها.

بعد ان مهد ابن المعتز لكتابه ببيان بواعث تأليفه عمد الى نهج تعليمي في ترتيب الفنون البديعية ترتيباً توخى فيه التحديد والايجاز وضرب الأمثلة المنتقاة التي تحقق للقارىء غايتين اثنتين :

١ – اصالة الفن البديعي من خلال الشواهد الأصيلة من قرآن وحديث وشعر قديم .

٢ – الشواهد الشائقة التي تعبر عن الفن البديعي وتكشف عن مواطن الجمال الذاتي فيه بحيث اوحى الى البلاغيين من بعده ان يقسموا الفنون البديعية الى ذاتي وعرضي.

(٢٤) البديع : ١
(٢٥) البديع : ١

لقد كانت شواهد الكتاب عربية اصيلة دلت على المنزع الذاتي عند الشاعر بحيث يكون ورود الفن البديعي من دواعي السياق ومقتضى الحال ، أمـــا العرضي فكانت شواهده من الأمثلة المصنوعة التي يخضع فيها الشاعر في نظمه لدواعي التيار نفسه على سبيل المفاخرة والمباهاة او قل المباراة مع الشعراء الذين رأوا ان حشد العدد الكبير من فنون البديع هو محك الابداع ومجلى التفـوق ضمن سياقات العصر وأعرافه الفنية .

ويرى الدكتور احمد مطلوب أن ابن المعتز قد سعى في كتابه هذا الى تحقيق هدفين .

« الأول : نقدي للشعراء يوازن بين ماقالوه ويستحسن ويرفض مالايسرى ويرجعهم عن صلفهم بأن ما اخترعوه من اللطيف او البديع انما كان من لطيف حسن الأقدمين وبديع تصورهم .

الثاني : تقنيني قاعدي ، فقد جمع صنوف البديع المعروفة وزاد عليها ووضع لها تسميتها وأغرى من بعده ليحذو حذوه ويسلك سبيله » (٢٦) .

ان اول مايبدهنا به ابن المعتز — ضمن هذا الاطار المنهجي — تحديده مفهوم البديع بأنه « اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقـاد المتأدبين منهم ، فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ماهو » (٢٧) .

نستخلص من هذه المقولة الوجيزة مسائل عدة اهمها .

١ — حداثة هذا المصطلح حيث ان القدماء لم يعرفوا هذا الاسم ، وهذا امر بديهي يخضع لمبدأ ظهور المصطلحات العلمية التي تحدد المفاهيم والاتجاهات والمذاهب .

(٢٦) مناهج بلاغية : ١٢٥ — ١٢٦
(٢٧) البديع : ٥٨

وظاهرة الاصطلاح تنبع من الوعي الحضاري للأمة ، إذ تبدأ بتدوين معارفها وعلومها ، ويضع رجالها المؤلفات والمصنفات التي تخضع لمنهجية محددة المعالم ، ومما يؤكد علمية المنهج الذي اتبعه ابن المعتز في وضع كتابه ماقاله أبو بكر الصولي : « اجتمعت مع جماعة من الشعراء عند ابي العباس عبد الله بن المعتز وكان يتحقق بعلم البديع تحققاً ينصر دعواه فيه لسان . فذاكرته فلم يبق مسلك من مسالك الشعراء الا سلك بنا شعباً من شعابه » (٢٨) .

وحين يتحدث محمد مندور عن اثر ابن المعتز في من بعده يرى ان فضله كبير في تحديد الاصطلاحات ، يقول :

« ولو لم يكن له من فضل غير تحديد الأصطلاحات لكفاه ذلك ، ليتمتع في تأريخ النقد العربي بمكانة هامة ، وذلك لأن كل دراسة لابد لها من اصطلاحات .... ففي الأصطلاحات عادة تستر كنز مبادىء كل علم وفن » (٢٩) .

٢ — ومما يلحظ — في اطار المنهج الذي اصطنعه ابن المعتز لدراسته البديعية هذه — انه وزع فنون البديع على محورين : محور سماه البديع : ويشتمل على خمسة فنون ، وهي : الأستعارة والتجنيس والمطابقة ورد اعجاز الكلام على ماتقدمها والمذهب الكلامي .

وفي المحور الثاني اورد ثلاثة عشر فناً وصفها بأنها من محاسن الكلام والشعر ، وهي : الالتفات والأعتراض والرجوع وحسن الخروج وتأكيد المدح وتجاهل العارف والهزل يراد به الجد وحسن التضمين والتعريض والكناية والأفراط في الصفة وحسن التشبيه ولزوم مالايلزم وحسن الابتداء واعنات الشاعر نفسه في القوافي (٣٠) .

(٢٨) زهر الاداب ٢ / ١٧٧
(٢٩) النقد المنهجي عند العرب : ٦١ .
(٣٠) البديع : ٥٧ وما بعدها .

ولقد ذهب الباحثون مذاهب شتى في تعليل توزيع الفنون على هذين المحورين ، فالدكتور بدوي طبانة ينفي ماذهب اليه بعض الباحثين من ان سبب الفصل بين البديع ومحاسن الكلام هو ان فنون البديع اكثر دوراناً في الادب من محاسن الكلام وأقدم استعمالا او استخراجاً ، ويذهب الى ان في البديع فنوناً قد تقل أهمية عند الأدباء من بعض فنون محاسن الكلام (٣١) .

ولذلك فان الدكتور بدوي طبانة يعرض لنا علة اخرى فيقول : « وسنجد هذه العلة في ان ابن المعتز لم يؤلف كتابه في وقت واحد بل ألفه على مرحلتين » (٣٢) .

الا ان الدكتور طبانة — وهو يورد علته هذه — لم يشفعها بدليل منطقي يجعلنا نطمئن الى ماذهب اليه ، ولعله نفسه لم يكن مطمئناً الى ماذهب اليه بدليل انه رأى في هذا الفصل رأياً آخر يقول فيه :

« ولعل ابن المعتز سمع بعد ذلك من بعض النقاد والمتتبعين اعتراضاً على قصر البديع على دعواهم ، وكتب بقية المحاسن وضمها الى الفنون الخمسة لينفي عن نفسه مظنة الجهل بتلك البقية » (٣٣) .

واستخلص الدكتور طبانة هذا الرأي من مقولة لابن المعتز نفسه يقول فيها : « ونحن الان نذكر بعض محاسن الكلام والشعر : ومحاسنهما كثيرة لاينبغي للعالم ان يدعي الاحاطة بها حتى يتبرأ من شذوذ بعضها عن علمه وذكره ، وأحببنا لذلك ان تكثر فوائد كتابنا للمتأدبين ، ويعلم الناظر انا اقتصرنا بالبديع على تلك الخمسة اختياراً من غير جهل بمحاسن الكلام ولأضيق في المعرفة » (٣٤) .

---

(٣١) البيان العربي : ٩٨ .
(٣٢) البيان العربي : ٩٨
(٣٣) البيان العربي : ٩٩ .
(٣٤) البديع ٥٨ .

اما الدكتور شوقي ضيف فقد اراد ان يوضح موضوع الفصل بين فنون البديع فذهب الى الاعتقاد بأن « ابن المعتز انما اكتفى بفنون خمسة من محاسن الكلام رأى ان يخصها باسم البديع لانها فعلا الفنون التي كانت موضع أخذ ورد بين اصحاب البلاغة العربية الخالصة وبين طوائف الفلسفة ومن ينزعون نحو التجديد المسرف » (٣٥) .

وما ذهب اليه الدكتور شوقي ضيف يمثل نظرة أحادية الى الفنون الخمسة المسماة بالبديع، معتداً اياها من محاسن الكلام ، وكأننا نفهم من قوله ذاك ان ليس ثمة فرق بين القسمين .

ولقد عزا الدكتور ابراهيم سلامة تقسيم الفنون البديعية الى كثرة النوع الاول - اي البديع - في الشعر ، وان النوع الثاني - محاسن الكلام - هو عام بين الشعر والنثر ، وذهب الى ان الاصناف الخمسة عرفها الشعراء كما عرفها الجاحظ قبل أن يعرفها ابن المعتز ، اما بقية المحسنات فأنها - فيما يرى الدكتور سلامة - من اختراع ابن المعتز (٣٦) .

وما ذهب اليه الدكتور سلامة لايثبت امام المنهج العلمي لأنه دعوى لادليل عليها وغير معززة بسند علمي .

وقد رد الدكتور احمد مطلوب على ماذهب اليه بقوله :

« وماذكره الدكتور سلامة لايقنع الباحث ، لأن القسم الاول والثاني يأتيان في النثر والشعر كثيراً ، ولانستطيع ان نقرر ان هذا النوع اكثر استعمالا ، وذلك اللون أقل شيوعاً الا بعد استقراء شامل للفنين ، ونظرة واحدة الى الشواهد التي اوردها في القسمين لاتؤيد ما ذهب اليه .

اما الشطر الثاني من التعليل فالأول لايمكن التسليم به ، لأن المحسنات التي ذكرها ابن المعتز لم تكن كلها من اختراعه ، فقد ذكر بعضها ابن قتيبة

(٣٥) البلاغة تطور وتاريخ : ٦٩ - ٧٠ .
(٣٦) بلاغة ارسطو بين العرب واليونان - ١٣٤ وما بعدها .

والمبرد كالتشبيه والالتفات . وذكر ثعلب حسن الخروج والافراط والكناية والتعريض » (٣٧) .

وفيما سلف من الآراء حول تقسيم ابن المعتز للفنون البديعية الى بديع ومحسنات لم نجد مانطمئن اليه من الآراء الحاسمة الواضحة ليكون مسوغاً لهذا التقسيم ، ولذلك فاني اذهب الى القول إن ابن المعتز حين سمى القسم الثاني محسنات اباح في الوقت ذاته أن تسمى هذه المحسنات بديعاً ، يدلنا على ذلك بعض ماأشار اليه ابن المعتز نفسه في كتابه .

ومن ذلك قوله :

« ولعل بعض من قصر عن السبق الى تأليف هذا الكتاب ستحدثه نفسه وتمنيه مشاركتنا في فضيلته فيسمي فناً من فنون البديع بغير ماسميناه به ، او يزيد في الباب من ابوابه كلاماً منثوراً ... » (٣٨) .

فهو حين يشير الى فنون البديع لايخص قسماً بعينه وانما هو يشير الى الظاهرة كلا دون تجزئة ، فبذلك يشمل مصطلح البديع محسنات الكلام ، وكذلك أباح لمن يأتي من بعده أن يزيد في الباب من ابوابه ،وكل زيادة لم تقيد بأنها تندرج في البديع او في محاسن الكلام ،وانما عد كل ما سيحدث في هذا الباب بديعاً .

وكذلك قوله :

«قد قدمنا ابواب البديع الخمسة وكمل عندنا ، وكأني بالمعاند المغرم بالاعتراض على الفضائل قد قال : البديع اكثر من هذا ، وقال : البديع باب او بابان من الفنون الخمسة التي قدمناها فيقل من يحكم عليه ، لأن البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين ... » (٣٩) .

(٣٧) البلاغة عند السكاكي – ٨٩ .
(٣٨) البديع : ٢ – ٣ .
(٣٩) البديع : ٥٧ – ٥٨ .

فمن هذا النص يستخلص انه اختار هذه الخمسة لتكون مدخلا منهجياً لدراسة أشمل ، ثم جاء بالمحسنات رداً على المعاند المغرم بالاعتراض على الفضائل وتأكيداً لسعة هذا الاتجاه الفني ، وحرصاً منه على ان تظل الابواب مشرعة مفتوحة أمام التالين له لأن يضيفوا الى هذا الحقل ماشاءت لهم قدراتهم أن يضيفوا ، وتتمثل سعة هذا الحقل في قوله :لأن البديع اسم موضوع لفنون من الشعر ، ولم يقل :انه اسم موضوع يقتصر على فنون خمسة بذاتها.

واما قوله : (عند الشعراء ، ونقاد المتأدبين) فهو غير محدد الدلالة وغير منحصر في فنون بعينيها ، ولذلك ازعم ان ابن المعتز لم يكن ليذهب الى هذا التقسيم ليجعل كل واحد من هذين القسمين قسيماً للاخر قدر ماأراد ان يضع عنواناً كبيراً لهذه المحسنات وهو العنوان الذي شاع في عصره واستخدمه رجال هذا الاتجاه الفني التجديدي من قبل ، واعني بذلك مصطلح (البديع) وما يندرج تحت هذا البديع هو محسن ، وهو بهذا المعنى بديع يؤدي وظيفة التحسين ويضفي على النص جمالية تدركها الحواس وتستلذها المشاعر ، واحسب ان الخصومة التي قادها الرواة واللغويون في وجه هذا التيار لم تكن خصومة ذوق او احساس ، بل كانت خصومة تحفظ وحرص وتمحيص كان من بواعثها ان تصان اللغة من العبث والضعف ، «وكان اصحاب هذه الطائفة بجانب قيامهم بتعليم اللغة والتعريف بمقاييسها واشتقاقاتها كانوا يجمعون إلى ذلك معرفة بالشعر العربي وشعرائه ويحفظون هذا الشعر ويروونه ويعرفون معانيه التي كادت تصبح غريبة بعد ان اضناها السير في دروب الزمن فتفقدت دلالتها وكادت تصبح غريبة على هذا العصر المتأنق المتحضر» (٤٠)

ويتحدث الدكتور شوقي ضيف عن هذه الخصومة التي نجمت بين الرواة واللغويين واصحاب الاتجاه البديعي المحدث بقوله :

---

(٤٠) المذهب البديعي في الشعر والنقد : ٣٢٩

«ونحن لا نصل إلى القرن الثالث حتى يختل التوازن بين النقاد والشعراء . فقد كان اكثر النقاد من الرواة واللغويين الذين لا يتصلون بالثقافة الحديثة فكرهوا الحديث على هذا الاحساس وأحبوا ما اتصل بعمود الشعر العربي وآثروه على ما يتصل بعمود الفلسفة والثقافة الحديثة» (٤١)

ويلتمس الدكتور احمد ابراهيم موسى لنزعة التعصب مسوّغات فيقول : «كان العلماء حريصين على اللغة ، وكانت همتهم منجهة إلى استقائها من منابعها الخالصة التي لم تكدر بلحن ولم تشب بخطأ حتى تتربى الملكات على الأساليب الصحيحة ... وقد نمى هذه العصبية وأفسح لها مجال الظهور جنوح كثير من الشعراء المحدثين عن طوابع الشعر القديم وانحرافهم عن عموده ومجانبتهم لكثير من طرقه وخطوهم في المعاني ... والغرام بأصباغ البديع وايثار الزخرف والتنميق في العبارة على جودة المعنى وسلامة الغرض» (٤٢)

وأحسب أن هذا الاتجاه المتحفظ ازاء هذا التيار الجديد لم يكن خصومة حقيقية بمعنى العداء والتصدي والحيلولة دون ان تؤدي اللغة وظيفتها الحضارية ، وانما هي — كما اسلفت — اتجاه يضع في حسبانه ان لا يمس كيان اللغة الشامخ بسوء ، وقد املى على حفظة اللغة وروادها ان يقفوا هذا الموقف المتحفظ احساسهم بثقل الامانة التي ندبوا انفسهم لصيانتها واستشعارهم لقدسية لغة القرآن .

وثمة روايات تدل على اغتباطهم بأن يثمر الاتجاه البديعي شعراً تهش له القلوب وتأنس بها النفوس ، ولكن كبرياء الامانة اللغوية كانت تحول بينهم وبين التعبير عن هذا الاعجاب ، «حكي عن اسحق بن ابراهيم الموصلي انه قال: انشدت الاصمعي :

---

(٤١) الفن ومذاهب في الشعر العربي : ٣٣١.
(٤٢) الصبغ البديعي في اللغة العربية : ١٢٢ — ١٢٣

هـل الى نظرة اليك سبيـل ... فقبيل الصدى وتشفـي الغليـل

ان ما قل منك عنـدي كثيـر ... وكثيـر مـن تحـب القليـل

فقال : والله هذا الديباج الخسرواني، لمن تنشدني ؟ فقلت : انهما لليلتهما، قال : لا جرم والله إن اثر التكلف فيهما ظاهر» (٤٣)

ويحكى المرزباني ويقول : «كنا عند ابن الأعرابي فأنشد رجل شعراً لأبي نواس احسن فيه فسكت ، فقال الرجل : اما هذا من احسن الشعر ، فقال : بلى ولكن القديم احب اليّ » (٤٤)

ولعل ابن المعتز يقف حالة وسطاً بين الحالتين ، فهو تارة يعجب بهذا التيار الجديد ويصبح واحداً من دعاته ورادته ، واخرى توجهه ثقافته الأصيلة إلى شيء من التحفظ فينكر على بعض الشعراء إسرافهم الذي يصل بهم إلى الاساءة والاحالة ، على نحو ما رأينا من موقفه من بديع ابي تمام .

ففي الوقت الذي يشير بعض الباحثين إلى انه كان «علماً من اعلام الصنعة البديعية .... وان كان الطفهم صنعة واحلاهم بديعاً ... (٤٥)

وأنه «من انصار مذهب المحدثين واولع بالبديع» (٤٦) فان ثمة من يرى انه «قد وضع كتابه البديع دفاعاً عن القدماء » (٤٧)

٣ — خصائص منهجه في الكتاب

من خلال وقوفنا على الكتاب رأينا تميزه بخصائص نوجزها في ما يأتي :

١ — كان لابن المعتز فضل في استقرار مصطلحات البديع بحيث ان هذه

(٤٣) الوساطة : ٥٠

(٤٤) الموشح : ٣٨٤

(٤٥) الصبغ البديعي في اللغة العربية : ١٢٩

(٤٦) تأريخ النقد الادبي والبلاغة ، حتى القرن الرابع الهجري : ١٥٣

(٤٧) تأريخ النقد الأدبي عند العرب ٣٩٦ .

المصطلحات بقيت دائرة في ماتلا كتاب (البديع) من مؤلفات ومباحث في هذا المضمار .

٢ – اختياره للشواهد والأمثلة في القرآن والحديث ومن التراث العربي الأصيل وفر الثقة من ان هذه الفنون ليست محسنات عرضية في اصل وضعها . وان استحالت فيما بعد في العصور المتأخرة إلى فنون عرضية مقحمة على النص واتخاذ الاكثار منها مظهراً من مظاهر الابداع والتفوق . فاختلط الجيد منها بالرديء

ومحاولة ابن المعتز هذه كانت نواة لظهور مقياس جديد في النقد الأدبي هو (المقياس البديعي)الذي يقيس الادب بما يرد فيه من بديع لا يكتسب صفة القبول والحسف حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساقه اليه...«فما طابق هذا المقياس منه فحسن مقبول ، وما شذ عنه فقبيح مرفوض » (٤٨)

٣ – أرسى كتابه في ضوء رؤية خاصة ترى في فنون البديع طاقات جمالية ذاتية يستطيع المبدع ان يكشف عنها بعيداً عن مفهوم الصنعة .

ولذلك لا نتفق مع الدكتور عبدالقادر الرباعي حين ذكر ان ابن المعتز انزلق إلى المصطلح البلاغي فربط واعياً اوغير واع البديع بالصنعة الشكلية»(٤٩) فالبديع عند ابن المعتز هو الأسلوب الجديد الطريف المتمثل في هذه الفنون، وهذا هو ذات التصور الذي وصف به ابن قتيبة بديع ابن المعتز اذ يقول :

.«مسلم هو اول من الطف في المعاني ودقق في القول ، وعليه يعوّل الطائي في ذلك» (٥٠)

---

(٤٨) تأريخ النقد الأدبي عند العرب : ٣٩٩

(٤٩) البديع الشعري بين الصنعة والخيال . مجلة ابحاث اليرموك : مجلة ٣ الدد : ٢ – السنة ١٩٨٦ . ص ٢٠

(٥٠) الشعر الشعراء : ٢/ ٨٠٨

٤ – ربط بين الجانب النظري والجانب التطبيقي مؤكداً أن الاسراف في استخدام الفنون البديعية يفضي إلى السوء والاحالة .

٥ – ترسيخ الانصاف في تنبيه القارىء والمتعلم إلى الامثلة المعيبة التي تمثل فناً بذاته مشعراً بأن النص هو معيار المحاكمة النقدية وليس الفن البديعي ، فثمة يمنح الفكرة والصياغة العامة للنص روحاً جديدة لموقعه الأصيل فيه إلى جانب فن لم يحسن وضعه في موضعه المطلوب فبدا متخلخلاً قلقاً نابياً عن سياقه الفني والمعنوي

٦ – ثمة ميزة لهذا الكتاب لم يعرض له باحث من قبل – فيما اعلم – وهي التزامه بالفكرة التي كان رائدها ابن قتيبة وهي الغاء عامل الزمن في التفاضل بين نص وآخر .

فقد تنوعت شواهده بين قديم ومحدث مما ساغه ذوقه دون ان يخص القديم بثناء لقدمه ، او ان يزري بمحدث لحداثته .

وبعد : فان هذه الجولة مع كتاب (البديع) لابن المعتز تنتهي بنا إلى اهم نتيجة توخيناها وآثرنا التنبيه عليها وهي ان كتاب البديع بصورته التي بين ايدينا هو اللبنة الاولى في بناء علم البديع مستقلاً عن علمي البيان والمعاني ؛ وعلى حذوه حذا الخالفون المتأخرون في التقسيم الثلاثي لعلوم البلاغة العربية ؛ حيث يلتقي تصور هؤلاء المتأخرين ومنهجهم بتصور ابن المعتز ومنهجه ، يدلنا إلى ذلك ان البديعيين – على مستوى الابداع او التنظير – لم يتطرقوا إلى شيء من موضوعات المعاني كالخبر والانشاء والتقديم والتأخير والفصل والوصل والذكر والحذف والقصر .

كما ان وقوفهم عند الاستعارة والتشبيه كان وقوفاً مبعثه الملمح الجمالي – وهو يدخل في باب التحسين البديعي ، دون الوقوف عند الملمح الدلالي الذي يختص به علم البيان .

هذا ما اردنا بيانه في مطاف قراءتنا لكتاب البديع لابن المعتز . اول كتاب مستقل يرسي اسس علم البديع علماً ثالثاً من علوم البلاغة العربية

والله ولي التوفيق .

المصادر والمراجع

١ – ابو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية . د. بدوي طبانة – مكتبة الانجلو المصرية ط ٢ – ١٩٦٠ القاهرة

٢ – الأغاني – ابو الفرج الاصبهاني – تح : عبدالكريم ابراهيم العزباوي – مؤسسة جمال للطباعة والنشر – بيروت .

٣ – البديع – عبدالله بن المعتز – نشرة كراتشوفسكي .

٤ – البديع الشعري بين الصنعة والخيال – د. عبدالقادر الرباعي – مجلة ابحاث اليرموك . المجلد ٣ – العدد : ٢ – سنة ١٩٨٦ .

٥ – البديع في نقد الشعر : اسامة بن منقذ . تح : احمد احمد بدوي – حامد عبدالمجيد – وزارة الثقافة والارشاد القومي – مصر – ط – البابي الحلبي – ١٩٦٠ .

٦ – بلاغة ارسطو بين العرب واليونان – د. ابراهيم سلامة . القاهرة – ط ٢ – ١٩٥٢ .

٧ – البلاغة تطور وتاريخ – د. شوقي ضيف . دار المعارف بمصر – ط ٢ .

٨ – البلاغة العربية – تأريخها – مصادرها – مناهجها – د. علي عشري زايد – مكتبة الشباب – القاهرة – ١٩٨٢ .

٩ – البلاغة عند السكاكي – د. احمد مطلوب . مكتبة النهضة – بغداد – ١٩٦٤ .

١٠ – بناء الصورة الفنية في البيان العربي – د. كامل حسن البصير – مطبوعات المجمع العلمي العراقي . ١٩٨٧ .

١١ — البيان العربي — دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب — د. بدوي طبانة — دار العودة — بيروت — ط ٥ — ١٩٧٢ .
١٢ — البيان والتبيين — الجاحظ تح : عبدالسلام هرون — مكتبة الخانجي ط ٥ — ١٩٨٥ .
١٣ — تاريخ النقد الأدبي عند العرب — د. عبدالعزيز عتيق . دار النهضة العربية — بيروت ، ط ٣ — ١٩٨٠ .
١٤ — تاريخ النقد الادبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري د. محمد زغلول سلام . منشأة المعارف — الاسكندرية ، د.ت .
١٥ — زهر الآداب وثمر الألباب — الحصري القيرواني . تح : د. زكي مبارك — القاهرة — ط ٣ — ١٩٥٣ .
١٦ — الشعر والشعراء — ابن قتيبة . تح : محمود محمد شاكر — القاهرة ١٩٦٦ .
١٧ — الصبغ البديعي في اللغة العربية — د. احمد ابراهيم مرسي — وزارة الثقافة والارشاد القومي — مصر — المكتبة العربية — ١٩٦٩ .
١٨ — عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح — بهاءالدين السبكي (ضمن شروح التلخيص) مطبعة البابي الحلبي — القاهرة .
١٩ — الفن ومذاهبه في الشعر العربي — د. شوقي ضيف — دار المعارف بمصر — ط ٤ — ١٩٦٠ .
٢٠ — في الأدب الجاهلي : طه حسين — دار المعارف بمصر — ط ٩ .
٢١ — المختصر في تاريخ البلاغة : د. عبدالقادر حسين . دار الشروق — بيروت — ط ١ /١٩٨٢ .
٢٢ — المذهب البديعي في الشعر والنقد — د. رجاء محمد عبد. مطبعة قاصد خير — القاهرة — ١٩٧٨ .

٢٣ – مناهج بلاغية – د. احمد مطلوب – وكالة المطبوعات – الكويت – ط ١ /١٩٧٣ .

٢٤ – الموجز في تاريخ البلاغة : د. مازن المبارك.دار الفكر – بيروت – ١٩٦٨ .

٢٥ – الموشح : ابو عبدالله المرزباني – تح : علي محمد البجاوي – دار نهضة مصر – ١٩٦٥ .

٢٦ – النقد المنهجي عند العرب – د. محمد مندور – دار نهضة مصر – القاهرة – ١٩٤٨ .

٢٧ – الوساطة بين المتنبي وخصومه – القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني – (ت ٣٩٢) تح : محمد ابو الفضل ابراهيم – علي محمد البجاوي ١٩٦٦ .

جهود ياقوت الحموي اللغوية في معجم البلدان(*)

الدكتور عبدالوهاب محمدعلي العدواني   ليلى محمد علي جمعة

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـد

لا ينتظر القارىء من هذا البحث أن يُقدّم له ياقوتاً من خلال «معجـم البلدان(**)»لغوياً من الطبقة المحتفة الممتازة،لأننا لاندّعي القدرة على منحه مثل هذا الامتياز العلمي على الرغم مما بثّه في هذا الكتاب من مادة لغوية ونحوية، تفسح له مكاناً بين اللغويين ، ولكنّه — في أحسن أحواله — مكان محدود بحدود طاقاته العلمية التي استنفدتها المحاولات الموسوعية التي قام بها في حقل التأليف،ولم تترك له — فيما نقدّر — فرصة التبحّر في علم العربية.ومن هنا جاءت نقدات القفطي (ت ٦٤٧هـ) القاسية الموجّهة اليه ،فضلاً عما كان يتجشمه في حياته من السفر المستمر ، والاتجار بالكتب المخطوطة التي كان ينسخها او يشتريها ويبيعها، وحياة على أوفاز مثل حياته،وثقافة ورّاق كثقافته لم تُتح له سعة التحصيل المنظم ولقاء الشيوخ في الحواضر التي ينزل فيهـا اليوم ، ليرحل عنها غداً ، بل ان حياة قليلة الاستقرار كحياته لم تسلبه متعة التخصص العلمي الدقيق فقط ، ولكنها — فيما يبدو لنا — قد سلبته حياة الأسرة والزوج والولد ايضاً ، فنحن نجهل كل شيء عن هذا الجانب من شخصيته ، وقد اهتدينا إلى هذا التصور من إشارة للقفطي إلى أنّه حبن مرض ومات في خان بظاهر حلب سنة (٦٢٦هـ) كان قد اوصى بأوراقه ومجموعاته

(*)دراسة مستلة من رسالة ماجستير مقدمة الى قسم اللغة العربية في كلية الاداب بجامعة الموصل سنة ١٤٠٨ هـ /١٩٨٨ م

(**) سيكون الأعتماد في كل الاحالات القادمة على نشرة هذا الكتاب في دار صادر بيروت، سنة ١٩٥٥ — ١٩٥٧ ، وسيجري التصريح بالعلم البلداني في الهامش لدى الحاجة الى ذلك ، والا فسيكتفى بذكره أو بالاشارة اليه في المتن فقط .

إلى عز الدين بن الأثير ، لينقلها من بعده إلى بغداد وقفاً على احد مساجدها ، وقد احتاط نواب الأيتام على ماله إلى ان حضر ولد سيّده عسكر الحموي من بغداد بكتاب حكمي ، وتسلم ما خلفه (١) .

وفي ضوء هذه الأفكار الموجزة عن حياته الشخصية والعلمية يمكن النظر إلى جهوده اللغوية والنحوية في «معجم البلدان» بوصفها همّاً فرعياً من هموم كتابه ، وهو في حقيقته عطاء المقل بين العطاءات البلدانية والأخبارية والأدبية العريضة في مادة الكتاب . وليس غريباً — فيما نزعم — ان يميل الدارس إلى مثل هذا التصور ، وهو يرى المادة اللغوية مكنونة في الكتاب المذكور ، لا تكاد تبين بين الحشد الحاشد من المعلومات المشار اليها ، ذلك أنّ مقتضى مادة «معجم البلدان» معروف ، والجهد الذي سيبرز لياقوت في معالجة هذا المقتضى معروف ايضاً ، واذا كان ثمة من جهد لغوي ، فقد انماث في اثناء الكتاب ، ولم يسترع نظرنا إلا بعد القراءة والفحص قبل الالتقاط ، وربما التفت القارىء إلى سؤال عن المادة النحوية في الكتاب ، فيكون الجواب لدينا : انها لم تجاوز خمسة مباحث لخمس قضايا غير اساسية في الدرس النحوي ، لانها من فروعه لا من اصوله ، وهي : إعراب : «أبر (٢)» و «بيعلبك (٣)» و «صريفون (٤)» ، وتذكير : «أجأ» وصرفه (٥) ، وتوجيه : «أبانان (٦)» ، مما اعتمد فيه على النقل الطويل من بعض مصادره ، ولم ينكشف فيه عن فكر نحوي خاص به ، كما انكشف عن شيء من فكر لغوي في المادة اللغوية الواسعة

---

(١) انباه الرواة على أنباه النحاة : ٧٦/٤ — ٧٨ .

(٢) معجم البلدان : ٨١/١ .

(٣) م . ن : ٤٥٣/١ — ٤٥٤ .

(٤) م . ن : ٤٠٣/٣ ، وينظر : ٥٣٥/١ ، ١٩٩/٢ ، ٤٢/٥ ، «يبنون» و «يجرون» (٤٦/٢) والمارون .

(٥) م . ن : ٩٤/١ .

(٦) م . ن : ٦٢/١ .

التي بثها في كتابه، لأسباب منهجية ترجع إلى طبيعة هذا الكتاب وغايته العلمية مما نلخصه في ثلاث نقاط :

١ — حاجة الاعلام البلدانية إلى تفسير لغوي دقيق ، استمد ياقوت مادته من مصادر مختلفة، منها : المعجمات اللغوية ، وكتب الجغرافية العربية ، ودواوين الشعراء وشروحها ، وكتب الأمالي والنوادر .

٢ — اختلاف النسخ المتوافرة لديه من بعض مصادره ، واختلاف ما فيها من روايات في ضبط المفردات وشواهدها، مما كان يحمله احياناً على تكرار النقل الواحد بالصيغ المختلفة (٧).

٣ — ولعه بتفسير المفردات البلدانية ، ومفردات الشواهد ، وربما كان من مظاهر هذا الولع انشغاله بالشرح اللغوي عن تحديد جنس المكان او موقعه، فنحن لم نجد في كلامه على: «عُرْفَةُ الأملَح(٨)» و «عُرُفَة الثَّمَد (٩)» و «عُرْفَة المُصرِم(١٠)» «عُرْفَةُ نِبَاط (١١)» غير التفسير اللغوي ، وقد يكون الكلام على جغرافية المكان لبعض الأعلام ذيلا للتفسير اللغوي ، كما في «رثم (١٢)» و«الرِّجازُ(١٣)» و «رُمَاعٌ (١٤)» و «الرَّواحُ (١٥)»، وفي بعض الأحيان كان يعجزه تفسير المفردة مباشرة او بالدقة المطلوبة ، فيلجأ إلى الاحتمال المعنوي كما فعل مع تفسير «طِحالٌ (١٦)» بقوله : «يجوز ان يكون جمع طُحَلة ، وهو لون بين

---

(٧) م . ن : ٣٥٠/٣ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ : شعفين ، شمام ، شمطة ، ٤٤٢/٤ كراء .
(٨) م . ن : ٤/ ١٠٦ .
(٩) م . ن : ١٠٦/٤ .
(١٠) م . ن : ١٠٧/٤ .
(١١) م . ن : ٤/ ١٠٧ .
(١٢) م . ن : ٣ / ١١٤ .
(١٣) م . ن : ٣/ ٢٧ .
(١٤) م . ن : ٦٦/٣ .
(١٥) م . ن : ٣ / ٧٤ .
(١٦) م . ن : ٢٢/٤ .

الغبرة والبياض في سواد قليل كسواد الرماد ، مثل : بُرمة وبرام ، وبُرقة براق ، قال ابن الاعرابي : الطّحِلُ : الأسود ، الطحل : الماء عنيزة المطحلب ، والطّحل : الغضبان ، والطّحل : الملآن (١٧)» ، وتفسير بقوله «عنيزة يجوز ان يكون تصغير اشياء منها : العَنَزة ، وهو رمح قصير قدر نصف الرمح او اكثر شيئاً ، وفيها زُجّ كزُج الرمح ، والعَنَزَة : وهو دُوَيبة من السباع تكون بالبادية ، دقيقة الخطم ، تأخذ البعير من قبل دُبره ، وقلّ ما تُرى ، ويزعمون أنّه شيطان فلا يُرى البعير فيه الا مأكولا ، والعنزة من الظباء والشاء ، زيدت الهاء فيه لتأنيث البقعة او الركيّة ، او البئر ، فأما العنز فهو بغير هاء ، او العنز من الأرض ، وهوما فيه حُزُونة من أكمَة او تلّ او حجارة ، والهاء فيه ايضاً لتأنيث البقعة (١٨)» .

وقبل ان نبسط المسائل التي عني بها او اشار اليها في اثناء درسه اللغوي ، وقبل ان نعرض لمباحثه النحوية ، لابد من الاشارة إلى ان المفردات لم تحظ عنده بنصيب متساو من الاهتمام ، ففي الوقت الذي يكتفي فيه بايراد معنى واحد او معنيين للمفردة (١٩) ، نراه يورد لمفردة اخرى معاني متعددة (٢٠) كثيرة ، وحين ترد عنده في بعض المواضع من كتابه مفردات مكررة يمسك عن اعادة تفسيرها ، ويحيل إلى المواضع التي فيها الشرح كما فعل في «مَآبُ» بقوله : «وقد ذكرت في اشتقاق هذا الموضع في عَمّان ما اذا نظرته عجبت به (٢١)» ؛ وقال في كلامه على «مَعَرّة النعمان» : «ذكر اشتقاق المعرّة

---

(١٧) م . ن : ١٦٣/٤ .
(١٨) م.ن : ١٦٣/٤ .
(١٩) م.ن : ٨٢/١ ، ٨٩ ، ١٤٧ : ابهر ، أثال ، الأردن ، ٣٨٢/٥ ، ٤٣٢ وكسراء، يحموم .
(٢٠) م . ن : ٢٥١/٢ : الحزم ، ١٨٣/٣ : الرياض ، ٧٦/٤ ، ١٠٦ : عباقر ، عرفه الأملح ، ٢٧٥/٥ : نحيزه .
(٢١) م . ن : ٣١/٥ .

في الذي قبله (٢٢)» ، وقال في «النَّجَيل» : «وقد ذكرت في معنى النُّجْيل اثني عشر وجها قبل هذا (٢٣)» ، وهذا ملحظ منهجي بدا لنا بوضوح في عمله الكبير المبسوط ، والمادة اللغوية فيه من ضروب مختلفة ، يطبعها — في الأعم الأغلب — طابع الاشارات المقتضبة ، فقلّما نجد فيها عرضاً مبسوطاً ، كالذي وجدناه في المباحث النحوية الخمسة المتقدمة لأن كثيراً من دواعيها لم يقتض التوسع في المعالجة ، لذا كان ياقوت يكتفي بما يسد حاجته العلمية الخاصة فيه من نقوله اللغوية ، وهي نُقول فيها من علم العربية مايدل على غناء ما كان يتصل به من أصول لغوية ، رفدته بمادة كبيرة لايتأتى للباحث ان يعرضها عرضاً شاملا ، لأن فيها من الأشباه والنظائر ما يكفي بعضه عن أكثره وكل ماقدمه من درس لغوي لايعدو ان يكون درساً من انواع متعددة في المفردات البلدانية ، تتجلى من خلاله رسوم ياقوت وتقاليده في المعالجة اللغوية التي شق علينا تقسيمها — أول الأمر — في محاور عامة ، ثم اهتدينا إلى ان يكون عرضها على وفق المحاور الآتية :

• — ضبط العلم البلداني

مما يذكر لياقوت في هذا المجال حرصه البالغ على الضبط الدقيق للعلم البلداني ، وهو بهذا الحرص قد أعطى الدليل على أن تحريّه لايختلف عن تحري اللغويين الذين عرفنا جهودهم الباهرة في معجماتنا اللغوية المعروفة ، لأن من وظيفة المعجم الدلالي أن يقدم المبنى والمعنى محرريّن مدقّقَين، ليصح الأعتماد عليهما ، والاستئناس بهما ،ومما نراه أن ياقوتاً قد وَعى هذه الحقيقة العلمية قبل شروعه بعمله في « معجم البلدان » ، ورأى ان من شرط عمله فيه ان يحرر مبنى العلم البلداني من الوهم الذي يمكن ان يحدث في نسق اصواته ونسق حركاته فشق لنفسه منهجاً مركباً في تحقيق ضبطه ، ليتسنى له تقديمه الى طالبه مضبوطاً محققاً .

(٢٢) م . ن : ١٥٦/٥ .
(٢٣) م . ن : ٥/ ٢٧٤

وحين نقول « الضبط » لايفوتنا ان لهذا المذهب العلمي – لامحالة – مبادىء علمية ، يمكن التقاط الأفكار الأساسية عنها من اثارنا التراثّية القديمة ومايتصل بها من الاعمال العلمية في هذا العصر ، بيد أننا لانريد الابتعاد عن الدائــرة اللغوية في تحديد مفهوم الضبط ، الذي يختصره الرازي اللغوي (ت ٦٦٦هـ) بقوله : « ضبط الشيء : حفظه (٢٤) » ، يعني : من كلّ مايمس سلامته ، فاذا انتقلنا إلى « ضبط الكلام » وجدنا السيد الجرجاني (ت ٧٤٠ هـ) يقول : «الضبط : اسماع الكلام كما يحق سماعه ، ثم فهم معناه الذي أريد به ، ثم حفظه ببذل مجهوده (يعني : مجهود الحافظ) ، والثبات عليه بمذاكرته الى حين ادائه إلى غيره (٢٥) » ، ولم يزِد التهانوي (ت ١١٥٨ هـ) شيئاً على هذه العبارة : بل نقلها حرفاً بحرف (٢٦) .

ولايخفى علينا مافي هذا التعريف من تأكيد على الناحية **الصوتية فقط** ، واهمال الناحية الكتابية التي يدخل فيها الضبط التدويني ، وهو **الضبط الـذي** يحدده رجلان من اللغويين المتأخرين بقولهما : « ضبط الكتاب ، ونحــوه **يضبطه ضبطاً** ، حدّد النّطق الصحيح لألفاظه ، بما يدفع **اللبس فيه ، وذلك** بشكل حروفه بوسائل الضبط (٢٧) » .

وقد تميزت المعجمات من بين كتب اللغة بعنايتها بضبط المفردات ، لأنها مرجع الناس في البحث عن المعاني المستخدمة في الحياة ، وعلى الرغم من ان كتاب ياقوت لم يكن لغوياً بالدرجة الأولى ، إلا أن مؤلفه قد أولى الضبط فيه عناية خاصة ، وألفيناه ينعى في مقدمته على الرواة ، وأصحاب الكتــب ، إهمالهم وتحريفهم أسماء البقاع والأماكن ، ولا عجب في هذا ، وقد كان دافعه الرئيس إلى تأليف معجمه الوظيفي خلافا دار بينه وبين احد الحاضرين

(٢٤) مختار الصحاح : ٣٧٦
(٢٥) التعريفات : ٧٨ .
(٢٦) كشاف اصطلاحات الفنون : ٨٨٦/١ .
(٢٧) عبدالفتاح الصعيدي ، وحسين يوسف موسى ، الإفصاح في فقه اللغة ٢١٧/١ .

في مجلس أبي سعد السمعاني (ت ٩١٧ هـ) في ضبط مفردة من المفردات وقد كان يغشى هذا المجلس بمرو ، وفي يوم من أيام سنة خمس عشرة وستمئة سئل عن اسم « حُباشَة » ، فأبدى رأيه بأن هذا الأسم يُضبط بضم حائه معتمداً على أصل هذه ، المفردة في اللغة ، فعارضة الآخر ، وأصر من غير دليل على أنها بالفتح ، فما كان من ياقوت الا قطع الحجاج بمراجعة مصادره المختلفة ، وبعد لأي وجد ضالته فيها على وفق ظنه (٢٨) ، ثم بلغ من اهتمامه بعد ذلك بالضبط حدا تنوعت فيه وسائله وطرقه تنوعاً قد لانجد له نظيراً في كثير من الأعمال المعجمية الأخرى ، فهو لم يكتف بضبط الحركات بقلمه ، بل ضبطها بالتنصيص أيضاً ، كما فعل من سبقه من سبقه من أصحاب المعجمات اللغوية كالأزهري والجوهري والقالي ، ويبدو أن الضبط بالتنصيص راجع — كما ذكر احد الباحثين (٢٩) — إلى خشية أولئك من تصحيف او تحريف قد يحدث أحدهما سهوا من الضابط ، أو من النساخ الذين يمكن ان تختلط عليهم الحروف لتشابه صورها المعروفة واشكالها ، وقد جرت تآليف ياقوت في هذا الاتجاه على خمسة أنماط :

• **تسمية الحرف** :

وقد جرى هذا العمل في كتابه في ثلاثة مجار :

١ — مجرى الحرف الواحد : نحو قوله : « الأعْزَلان : بالزاي (٣٠) » ، و «أعشار» : بالشين المعجمة (٣١) » و « سقَايَةُ رَيْدانَ : بالراء (٣٢) و« قيظ : بالظاء المعجمة (٣٣)» .

(٢٨) معجم البلدان : ١/١٠ ، ٣/٢١٠ .
(٢٩) هاشم طه شلاش : الزبيدي في كتابه : تاج العروس ، ٥٦٧ .
(٣٠) معجم البلدان : ١/٢٢١ .
(٣١) م.ن : ١/٢٢١ .
(٣٢) م.ن : ٣/٢٢٦ .
(٣٣) م.ن : ٤/٤٢٣ .

٢ — مجرى الحرفين : نحو « ربَبُ » : بباءين موحدتين (٣٤) » ، و«روضة خاخ : خاء معجمة مكرّرة (٣٥)» ، و « الطائف : بعد الألف همزة في صورة الياء » (٣٦) .

٣ — مجرى الثلاثة : نحو « نائِنُ » : بعد الالف ياء مهموزة وآخره نون »(٣٧) و« واران » : بعد الألف راء ، وآخره نون (٣٨) » .

وقلما نلمسح عنده تسمية في أربعة حروف أو أكثر من المفردة الواحدة مجردة ، بل تأتي هذه الحروف مسماة مع ذكر حركاتها وسكناتها، وستعرض لهذه الطريقة فيما نستقبل .

• تسمية الحركة

وقد جرت هذه التسمية على ثلاثة مجار ايضاً :

١ — مجرى الحركة الواحدة : ضمة اوفتحة او كسرة ، ولايعنى بذكر السكون ، لأنه لايريد بتسمية الحركة الواحدة الا حركة الحرف الأول من العلم ، فيضبط على سبيل المثال : « الإصادُ » : بالكسر (٣٩) » «وبنانُ » : بالضم (٤٠)» و « النملا : بالفتح (٤١)» .

٢ — مجرى الحركتين والثلاث فقط : يستخدم مصطلح « التحريك » وهو اشارة الى حركتي فتح متواليتين اوثلاث حركات متواليات ، فيقول

---

(٣٤) م.ن : ٣٤/٣ .
(٣٥) م.ن : ٨٨/٣ .
(٣٦) م.ن : ٨/٤ .
(٣٧) م.ن : ٩٥٥/٥ .
(٣٨) م.ن : ٣٤٧/٥ .
(٣٩) م.ن : ٢٠٥/١ .
(٤٠) م.ن : ٤٩٧/١ .
(٤١) م.ن : ٢٧٠/٤ .

«جرش بالتحريك (٤٢) و «حلب : بالتحريك (٤٣)» و «كَنَنُ : بالتحريك (٤٤)» ويقصد فتح الأول والثاني ويقول ايضاً : «أنَقَسَةَ : بالتحريك (٤٥)» و «رَكَبَان : بالتحريك (٤٦)» وسوقُ حَكَمَسَةَ : بالتحريك (٤٧)، ويعني توالي الفتحات الثلاث .

وهو لايعنى بتسمية الحركات الأربع اوالخمس المتواليات ، مجردة ، بل يسمى معها الحروف التي تحملها ايضاً .

• **التنصيص :**

وهو ان ينص باسم الحركة على الحرف المسمى ، وأمثله ذلك كثيرة : منها أقواله : «الأعبُدَةُ : بضم الباء الموحدة (٤٨)» و «رَوْضَةُ الرُبابِ» : بضم الراء (٤٩)» و «كاظِم : بكسر النون (٥٠)» و «كَشْبُ : بفتح الكاف وسكون الشين (٥١)» و «كِنَاوة : بالكسر وفتح الواو (٥٢)» و «ذَفِرَانُ : بفتح أوله وكسر ثانيه ، ثم راء مهملة وآخره نون (٥٣)» و «كُنْكُوَر : بكسر الكافين وسكون النون وفتح الواو (٥٤)» .

---

(٤٢) م.ن : ١٢٧/٢ .
(٤٣) م.ن : ٢٨٢/٢ .
(٤٤) م.ن : ٤٨٥/٤ .
(٤٥) م.ن : ٢٧١/١ .
(٤٦) م.ن : ٦٣/٣ .
(٤٧) م.ن : ٢٨٣/٣ .
(٤٨) م.ن : ٢٢٠/١ .
(٤٩) م.ن : ٩٠/٣ .
(٥٠) م.ن : ٤٣٢/٤ .
(٥١) م.ن : ٤٦٢/٤ .
(٥٢) م.ن : ٤٨١/٤ .
(٥٣) م.ن : ٦/٣ .
(٥٤) م.ن : ٤٨٤/٤ .

* **الاشارة الصرفية :**

ويمكن ان ندرج تحت هذه الاشارة من طرقه في الضبط ثلاثة مجار ايضاً : وهي :

١ — **الوزن** : فهو قد يحقق ضبط المفردة لقارئه بذكر المشهور في وزنها ، فيقول مثلا « ألالَةُ : بوزن علاله (٥٥) » و« ثُعلُ : بوزن جُرذ (٥٦) و « كَلْفى : بوزن حُبلى (٥٧) » .

٢ — **الصيغة** : وينبه بها الى ان المفردة تضبط بوصفها تصغيراً ، لمفردة معروفة أو تثنية ، أو جمعا لها ، او منسوبة إليها ، ويقول مثلا : « أسيلة : بلفظ التصغير (٥٨) » و « الجُوَيّ : تصغير الجو (٥٩) » و «اللّبنَتان : تثنيه لبنة (٦٠)» و« خِيَام : بلفظ جمع خيمة (٦١) »و« اللّجُمُ : جمع لجـام (٦٢) » و « اليَهُوديه : نسبة الى اليهـــــود (٦٣)

وقد لايقطع بذكر الصيغة ، ليشعر قارئه انه غير متثبت منها ، فيأتي بهـا على وجه التشبيه ، او الجواز ، او الاحتمال ، ويقول « آلات : كأنه جمع آلة (٦٤) » و« الجرَّباء : كأنه تأنيث الأجرب (٦٥)» و« الغَمْرِيَّةُ : كأنها

---

(٥٥) م.ن : ٢٤٣/١ .
(٥٦) م.ن : ٧٩/٢ .
(٥٧) م.ن : ٤٧٦/٤ .
(٥٨) م.ن : ١٩٣/١. .
(٥٩) م.ن : ١٩٣/٢ .
(٦٠) م.ن : ١١/٥ .
(٦١) م.ن : ٤٠٩/٢ .
(٦٢) م.ن : ١٣/٥ .
(٦٣) م.ن : ٤٥٢/٥ .
(٦٤) م.ن : ٢٤٢/١ .
(٦٥) م.ن : ١١٨/٢ .

منسوبة الى رجل اسمه غمر » (٦٦) و« حاربٌ : يجوز ان يكون فاعلا من الحرب او ان يكون سمي به الأمر من الحرب ، ثم اعرب (٦٧)» .

٣ – النظير : ويوطىء له بما يؤكد التماثل بينَهُ وبين نظيره بكاف التشبيه ، ومثل ، ومثال ، ويقول : « الظّهار : ككتاب (٦٨) » و« ظَلاّمَةُ : مثل علاّمة ونسابة (٦٩) » و« عَظَام : مثل قطام (٧٠)» و « تُرَف : مثال زُفر (٧١) » .

• **العلاقة الاتباعية** : وهي لاتختلف عن طريقة الضبط بالنظير ، ولكن العلاقة بين المتناظرين فيها ليست مظهراً صرفياً ، بل اتباعا تأليفيا ، وذلك بأن يحقق ضبط المفردة الثانية وفق ماجرى عليه من ضبط المفردة التي سبقتها في ترتيب الكتاب فـ « الجُرّجانيّةُ » – كما قال – « مثل الذي قبله منسوب (٧٢) يعني « جُرْجانُ» المتقدمة ، و« الجَوةُ : بزيادة الهاء (٧٣) : بعد « الجَو » و« الحالَةُ » : واحدة الحال المذكور قبله (٧٤) » .

• **تداخل الطرق** :

وياقوت قد لايكتفي مبالغة منه في تحري التدقيق والضبط ، بتسمية الحرف ، أو الحركة ، او بتسمية الحرف والحركة معا ، اوبأعتماد الوزن والصيغة والنظير ، فيقول : « الجِفَارُ : بالكسر وهو جمع جَفر نحو فَرخ

---

(٦٦) م.ن : ٢١٣/٤ .
(٦٧) م.ن : ٢٠٤/٢ .
(٦٨) م.ن : ٦٣/٤ .
(٦٩) م.ن : ٦٢/٤ .
(٧٠) م.ن : ١٣٠/٤ .
(٧١) م.ن : ٢٣/٢ .
(٧٢) م.ن : ١٢٢/٢ .
(٧٣) م.ن : ١٩١/٢ .
(٧٤) م.ن : ٢٠٧/٢ .

وفراخ (٧٥) » و« القَيَّارةُ : بالفتح ثم التشديد ، وهو تأنيث الذي قبله (٧٦) والذي قبله هو « القَيَّار ُ (٧٧) » .

ومع كل ما تقدم من عناية ياقوت بالضبط في متن كتابه ، فان هذه العناية لم تغط كل الاعلام البلدانية التي جمعها ورتبها ، فقد بقي عدد غير قليل من المفردات ناقص الضبط ، نذكر منه من مادة الجزء الثاني من الكتاب ما يأتي على سبيل المثال لا الحصر : تَعَشُر ، جدرين ، حُراضَان ، حَزْمُ عيصان حلوان ، حُواطب ، خاوص ، الخطط ، خلاطا ، دارجين (٧٨) .

• – تحقيق العلم البلداني

أشرنا – فيما سبق – الى عناية ياقوت بضبط العلم البلداني ، وحاولنـــا تحديد الطرق التي اتبعها في ذلك مدفوعاً بدوافع كثيرة ، يمكن اجمالها بمـا يأتي :

١ – اختلاف ضبط المفردة : وما يؤدي إليه – لامحالة – من الاختلاف في تفسيرها اللغوي ، وقد أعطى ياقوت أمثلة كثيرة على أثر اختـــلاف الحركة في تحديد المعنى ، في « البِطاحُ » – بكسر أوله – ، جمع : بطحاء ، والبطحاء في اللغة : مسيل فيه دقائق الحصى ، والجمع الأباطح والبطاح على غير قياس(٧٩) ، و« البُطاح» – بالضم – مرض يأخذ من الحُمّى ، والبُطاحيّ : مأخوذ منه (٨٠) .

---

(٧٥) م.ن : ١٤٤/٢ .
(٧٦) م.ن : ٤١٩/٤ .
(٧٧) م.ن : ٤١٩/٤ .
(٧٨) م.ن : ٣٤/٢ ، ١١٤ ، ٢٣٤ ، ٢٥٣ ، ٢٩٤ ، ٣١٦ ، ٣٤٢،٣٧٨،٣٨٠، ٤١٩ .
(٧٩) م.ن : ٤٤٦/١ .
(٨٠) م.ن : ٤٤٥/١ .

و«الحُبّس» – بالضم – : جمع الحبيس ، ويقع على كل شيء ، وقفه صاحبه وقفاً محرّما(٨١) .

و«الحبس» – بالكسر – الماء المستنقع ، وقيل : حجارة تبنى على مجرى الماء ، لتحبسه للسارية (٨٢) .

و«السِّرّ» – بكسر السين – : الكتمان ، وبالضم : الذي تقطعة القابلة من السُّرّة (٨٣) .

ولايصعب على المتتبع الوقوف على هذا التحقيق الدلالي الذي قام به ياقوت في المعجمات العربية ، التي سبقت عصره بسهولة .

٢ – اشتراك كثير من الاعلام البلدانية في الأصوات دون الحركـسات ، فـ«ريمَةُ»(٨٤) بكسر الراء – غير «رَيمَة»(٨٥) «بفتحها و كل مـن «صور (٨٦) » و«صُوَرُ (٨٧)» و«الصَّوَر» (٨٨) و«الصوْرُ (٨٩)» علم لموضع مستقل عن غيره ، وقد وعى ياقوت أن من واجبه ان يحقق الضبط ليدفع شبهة الخلط .

٣ – احتمال وقوع التصحيف والتحريف في رسم الأعلام البلدانية ، فقد يؤدي تغير أحد الأحرف في المفردة إلى الأشتباه بعلم بلداني آخر يختلف

---

(٨١) م.ن : ٢١٣/٢ .
(٨٢) م.ن : ٢١٣/٢ .
(٨٣) م.ن : ٢١١/٣ .
(٨٤) م.ن : ١١٤/٣ .
(٨٥) م.ن : ١١٤/٣ .
(٨٦) م.ن : ٤٣٣/٣ .
(٨٧) م.ن : ٤٣٤/٣ .
(٨٨) م.ن : ٤٣٤/٣ .
(٨٩) م.ن : ٤٣٤/٣ .
(٩٠) م.ن : ٤٣٤/٣ .

عن المقصود ، ففي « عَرَبات » (٩١) يحتمل ان تصبح التاء نونا ، فتصير « عَرَبانُ (٩٢) » ، وقد يقترب رسم اللام في « نُخال (٩٣) » من النون ، فتصير « نُخَان (٩٤) » ، وقد يتوهم في « يَثْرَبٌ (٩٥) » أنها « يَتْرَبٌ (٩٦) » .

ومن وجوه عناية ياقوت التحقيقية بالمفردة البلدانية ايراده الأوجه المختلفة لرواياتها ، فهو ينقل لنا — على سبيل المثال — رواية السكرى في «الأبواص» انها : « الأنْواصُ (٩٧) ويقول في «أثافَت» : « قال الهمداني [ابن الحائك] وتسمى : اثافــه بالهاء ، والتاء أكثر ، وأهل اليمن يسمونها ، ثافــت بغير همــز (٩٨) » ، ويقول في « تخاوَةُ : كذا ضبطه الأمير [أبــو ماكولا] بالفتح ، وضبطه ابو سعد (النعماني) بالضم (٩٩) » . ولكنه لايأخذ مايرد : المفردة من روايات مسلما بها ، بل يؤكد في ذلك نزعته التحقيقية ، فيعمد احياناً الى تخطئة سابقية ، ويحتمل وقوعهم في التصحيف والتحريف لدى ذكر الروايات ، فقد قال في « تَيَرْبُ » : قال الزمخشري وتلميــذه العمراني : تَيْرب .... ذكره في باب التاء ، وأخاف ان يكون يترب ، أوله ياء فصحفاه (١٠٠) » ، وقال في « تَيدُ » انها : «وردت بخط ابن الاعرابي

---

(٩١) م.ن : ٩٦/٤ .

(٩٢) م.ن : ٩٦/٤ .

(٩٣) م.ن : ٢٧٥/٥ .

(٩٤) م.ن : ٢٧٥/٥ .

(٩٥) م.ن : ٤٢٩/٥ .

(٩٦) م.ن : ٤٣٠/٥ .

(٩٧) م.ن : ٢٧٣/١ .

(٩٨) م.ن : ٨٩/١ .

(٩٩) م.ن : ١٦/٢ .

(١٠٠) م.ن : ٦٥/٢ .

فيدر وتيدر ، وهما تصحيف (١٠١)» ، وقال في «جَيْدَة»: » وقد قـال بعضهم ، حيدة ، وهو تصحيف (١٠٢) .

ولم يفته وهو يقدم وجوها من التحقيق في الأعلام البلدانية — الاشارة الى ان بعض ابنيتها ليس من كلام العرب ، معتمداً في ذلك على ماقدمه اللغويون السابقون من متابعات في هذا المجال، كثعلب ، وابن خالويه ، ومن ذلك قوله في « طرَسُوس » : « ولايجوز سكون الراء إلا في ضرورة الشعر ، لان فعلول ليس من ابنيتهم(١٠٣)»، ونقل في « صعفوق» عن ثعلب قوله : « كل اسم على فعلول فهو مضموم الأول الا حرفا واحداً ، وهو صعفوق بفتح أولـه وسكون ثانية ، والفاء المضمومة والواو والقاف (١٠٤)» ، وقد أكد هـذه المعلومة كثير من الدارسين قبل ياقوت كالمبرد (١٠٥) ، وبعده كعبد القادر بن عمر البغدادي (١٠٦) .

ومن الطريف ان يقول ياقوت : « نطح على وزن بقّم ، ولم يجيء على هذا الوزن إلا عثر موضع ، وخَوَّد موضع وقيل فرس ، وبذر موضع وشَلَّم بيت المقدس ، وشَمَّر فرس ، وخَضَّم : اسم العنبر بن عمرو بن زيد مناة بن تميم ، وسدَّر لعبة للصبيان ، ونطَّح اسم موضع لم يجيء غيره على هذا الوزن (١٠٧) » ، ثم نجد ابن خالويه الذي اشتهر له مؤلف خاص في بـاب « ليس في كلام العرب » قد أخل بلفظتي سدَّر ونَطَّح ، وبذلك يكون ياقوت قد استدرك عليه في هذا الباب العصي الصعب من العربية بذكر لفظتين جديدتين

---

(١٠١) م.ن : ٦٥/٢ .

(١٠٢) م.ن : ١٩٧/٢ .

(١٠٣) م.ن : ٢٨/٤ ، وينظر : ثعلب : كتاب الفصيح /٢٩١ ،ابن خالويه : ليس في كلام العرب /٢٥٣ .

(١٠٤) م.ن : ٤٠٧/٣ .

(١٠٥) المقتضب : ١٢٥/١ .

(١٠٦) خزانة الأدب : ١٤٠/١ .

(١٠٧) معجم البلدان : ٢٩١/٥ .

بيد ان يقول في « بَذَّرُ » انها وزن عزيز لم تستعمل العرب منه في الأسماء الا عشرة (١٠٨)» ثم يذكر ثمانية منها نطّح ، وينسى اثنين ، فينتبه الى ذلك محقق كتاب ابن خالويه فيأخذ عليه هذا المأخذ اللغوي (١٠٩) مع ان منهجه ليس منهج الاستقصاء اللغوي ، كما أخذ هو من طرفه على النحويين في هذا الموضوع مستدركاً عليهم لفظة « رئم » التي سبقت في معجمه لفظتي : «سدّر ونّطح» وقد قال عنها في موضعها : « انها بوزن : دُئل ، وان النحويين يقولون : « لم يجيء على فُعِل اسم غير دُئل ، وهذا ان صحّ [يعني : رئم] فهو آخر مستدرك عليهم (١١٠)» .

ومن مذاهبه في تحقيق المفردة البلدانية التقاط النظائر التي تحقق له هذه الغاية ، وقد أشرنا فيما سبق الى « الخصاصةُ — الموضع » محمولة في ضبطها على « خصاصة في قوله — تعالى — : ٥(ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة //سورة الحشر — الآية ٩ (١١١) ه .

ويفهم من هذا أنه يضبط المجهول بالمشهور ، ومن أمثلة هذا المذهب لديه ايضاً ضبطه . « شِجْنَةُ — الموضع» كشجنة الواردة في قوله — صلى الله عليه وسلم — : « الرحم شجنة من الله ، أي : قرابة مشتبكة كاشتباك العروق(١١٢) » وضبط هذه عند اللغويين بكسر أولها وسكون ثانيها (١١٣) .

وهو لايقتصر على المقايسة اللفظية بين المتناظرين في الضبط فقط . فقد وجدناه يقيس اللفظ على اللفظ في طبيعة الاستعمال ؛ فحين عرض لمادة «الحامرةُ — وهي مسجد بالبصرة ؛ سمي بذلك لأنّ الحُتات المجاشعي مرّ

---

(١٠٨) م.ن : ١/٣٦١ .
(١٠٩) ليس في كلام العرب — تعليقات المحقق /٢٩١ — ٢٩٢ .
(١١٠) معجم البلدان : ٣/١١٤ .
(١١١) م.ن : ٢/٣٧٥ .
(١١٢) م.ن : ٣/٣٢٦ .
(١١٣) اللسان — شجن .

ثمّ ، فرأى حميراً وأربابها ، فقال ما هذه الحامرة (١١٤) ؟ ففهم ياقوت من هذا النص ان الحتات اشتق وصفاً من مجمل الصورة التي رآها ، فحاول ان يمثل — من طرفه — لهذه الحالة اللغوية فقال : «وهذا مثل قولهم : الجنّةُ تحت البارقة ، يريدون به : السيوف ، والمراد به الحث على الغزو (١١٥)» .

ولكنه عاد إلى المقايسة اللفظية ثانية ، فقال : «ومن يخطىء يقل: الأبارقة» ، ونقل من ابي احمد [العسكري ، صاحب كتاب لحن الخاصة] قوله : والعامة تقول : الأحامرة ، وهو خطأ (١١٦) .

ومع حرص ياقوت البالغ على تحقيق المفردة البلدانية ، فقد تبدو منه ملاحظة عجلى تؤخذ عليه في هذا الجانب ، فحين عرض لمادة «الثأى» استشهد بقول جرير :

عطفت تُيوس بني طُهَيَّةَ بعدما رويَتْ وما نَهِلَتْ لقاحُ الأعلم
صدرت مُحَلَّأةَ الجواز فأصبحت بالثائيين حنينُها كالمأتـــم

قال : «لا اعرف الثأي مهموزاً في اللغة ، وانما الثاوية ، مأوى الابل والغنم ، والثاية حجارة ترفع فتكون علماً بالليل ، والله اعلم بحقائق الأمور (١١٧)» . وانتهاؤه بهذا الاعتذار : — فيما نقدر — له دلالة على شكّه في دقة ما قاله ، ومن الغريب ان ياقوتاً — المطلع على آثار ابن جني ، ونوادر ابي زيد ، وصحاح الجوهري — يمكن ان يطلق حكماً قاطعاً ينفي «الثأى» مهموزاً مسن كسلام العرب ، فقد وجدنا ابن منظور — وهو من تابعيه المتأخرين عنه — يقول : «نقلا عن مصادره إن الثأى والثأى : الإفساد ، وقيل : الجراحات والقتل ونحوه من الإفساد ، وخرم خرز الأديم (١١٨)» ، ثم ينقل قول ابن جني :

---

(١١٤) معجم البلدان : ٢٠٨/٢ .
(١١٥) م.ن : ٢٠٨/٢ .
(١١٦) م.ن : ٢٠٨/٢ .
(١١٧) م.ن : ٧٢/٢ .
(١١٨) اللسان — ثأى .

«وهو [يعني : حرم خرز الأديم] ان تغلظ الاشفى ويدق السير ، وقد ثئي بثاى ، وثأى بثاى ، وأثأيته اناء وقول ابي زيد : «أثأيت الخرز اثئاءاً : خرمته وقد ثئي الخرز يثأى تأياً شديداً» وقول الليث : «اذا وقع بين القوم جراحات ، قيل : عظم الثأي بينهم (١١٩)» ، ومع هذه النصوص — ولا عبرة بالمعنى والدلالة المختلفة — لا يتأتى لأحد ان يقبل من ياقوت النفي القاطع لوجود «الثأي» مهموزاً في كلام العرب .

• — **تأصيل العلم البلداني**

وقد اتخذت هذه العناية لدى ياقوت مجاري مختلفة ، منها الرجوع بالمفردة البلدانية إلى اصولها الاشتقاقية ان كانت عربية من ذلك قوله ان عاذباً من قولهم : «عذب الرجل ، فهو عاذب ، إذا ترك الأكل ، فهو لا مفطر ولا صائم ، ويجوز ان يكون فاعلا من عذب الماء فهو عذب (١٢٠)» و «اللُّقاظ» :

«اصله على الروايتين [يعني : تشديد اللام ، وضمها او كسرها] من : لقطت الشيء اذا القيته من فيك كلاماً كان او غيره (١٢١)» و «لوذُ الحَصى» «كأنه من: لاذ به يلوذ ، اذا لجأ اليه (١٢٢)» ويجد القارىء ملاحظات شبيهه لماقدمنا في «عابدٌ(١٢٣)»و«عاذٌ(١٢٤)»و«عارضٌ(١٢٥)»و«القطين(١٢٦)» مواضع كثيرة اخرى .

ومن مجاري التأصيل تعليل التسمية بالعلم البلداني ، فياقوت كثيراً ما يربط بين العلم وبين الأحداث ، والمناسبات التي اقتضت التسمية به ، فقد حكى

(١١٩) اللسان — ثأي .
(١٢٠) معجم البلدان : ٦٥/٤ .
(١٢١) م.ن : ١٩/٥ .
(١٢٢) م.ن : ٢٥/٥ .
(١٢٣) م.ن : ٦٤/٤ .
(١٢٤) م.ن : ٦٥/٤ .
(١٢٥) م.ن : ٦٥/٤ .
(١٢٦) م.ن : ٣٧٨/٤ .

في «أَبْرَقُ الحَنَّان» أنه سمي بهذا : «لأنه يسمع فيه الحنين» ، ويقال : «ان الجن تحن إلى من قفل عنها (١٢٧) » ، وقال في : «الأَحْصُ» : «قال ابو زيد [يعني : الأنصاري] : رجل أحص اذا كان نكداً مشؤوماً وكأن هذا المكان لقلة خيره ، وعدم نباته سمّي بذلك (١٢٨)» واشار إلى أن «الظّاهر» سمي بهذا الاسم . «لأن عمرو بن العاص ، لما رجع من الإسكندرية ، واختط الفسطاط تأخر عنه جماعة من القبائل بالإسكندرية ، ثم لحقوا بالفسطاط ، وقد اختلط الناس ولم يبق لهم موضع ، فشكوا ذلك إلى عمرو ابن العاص ، وكان قد ولى الخطط معاوية بن حديج ، فأمره بالنظر لهم ، فقال للقادمين : أرى لكم ان تظهروا على القبائل ، وتتخذوا منزلا ظاهراً ففعلوا ، ونزلوا هذا الموضع وسمي الظاهر (١٢٩)» .

ولياقوت عروض من هذا القبيل في مواضع من كتابه منها ما قاله في «إصْمِت (١٣٠)» و«خُوارِزْم (١٣١)» و«قُعَيْقِعَانُ (١٣٢)» و «مكة (١٣٣)» بيد انه قد يعترض عن تبيان سبب التسمية لبعض الأعلام التي يجهل اية معلومة عنها فيقول : «لا ادري لم سمّي بذلك كما قال : في «مُظْلِمُ (١٣٤)» و «مَقَابِرُ الشهداء (١٣٥)» .

ويفهم من هذا ان تأصيل التسمية عنده لا يقوم على معلومات وثيقة ، يكون هو اول الواثقين بصحتها قبل ان يقدمها إلى القارىء محفوفة بالشكوك .

(١٢٧) م.ن : ٦٧/١ .
(١٢٨) م.ن : ١١٢/١ .
(١٢٩) م.ن : ٥٧/٤ .
(١٣٠) م.ن : ٢١٢/١ .
(١٣١) م.ن : ٣٩٥/٢ .
(١٣٢) م.ن : ٣٧٩/٤ .
(١٣٣) م.ن : ١٨١/٥ .
(١٣٤) م.ن : ١٥٢/٥ .
(١٣٥) م.ن : ١٦٣/٥ .

وهو قد ينزع في التأصيل نزعة لغوية فيقدم مباحث لغوية على جانب كبير من الأهمية ، وتأتي اهميتها من دخولها في دائرة فقه اللغة العربية ، وبمقدور الباحث ان يجعل منها مجتمعة فكراً لغوياً ، امتاز ياقوت بتقديمه على غيره من البلدانيين ، الا انه قد نحا بالعمل البلداني منحى كثير التشعب .

ومن تشعبه غلبة النزعة اللغوية الأدبية المتداخلة فيه على النزعة الخططية الجغرافية ، ولا يغير ياقوتاً ان الفكر اللغوي الذي يتحصل لنا من كتابه مقتبس عن غيره في أعمه وأغلبه اذا نظرنا إلى نقوله من زاوية قيمتها التاريخية ، لما حفظته لنا من نصوص علمية مفقودة الأصول في مكتبتنا اللغوية المعاصرة ولو تهيأ لجامع حديث ان يلتقطها ويؤلف بينها في محاولة علمية اجمالية ، لكان له من ذلك كتاب مهم ، فيه كثير من الفقه التاريخي للغة العربية باقوال اصحابه ونصوصهم.ومشاركة ياقوت في التنظيم والعرض والعمارة ، وحسب ياقوت ان يكون له مثل هذا الجهد التأصيلي في الدرس اللغوي ، مدفوعاً فيه برغبة الباحث المتتبع ،ويجمل بنا — ونحن نجتهد في تصوير العناية التأصيلية من عناياته اللغوية الثلاثة التحقيقية ، والتأصيلية ، والتفسيرية — ان نعرض مباحثه في الفقه اللغوي للاعلام البلدانية على النحو الآتي :

المهمل من الأعلام البلدانية

فقد التقطنا من كلامه اشارات إلى بعض هذه الأعلام غير مستعمل في كلام العرب ، بلفظه او بأصله الاشتقاقي ، فقد وصف «الزّواخي» — بوزن القوافي — بأنه «مهمل في استعمالهم (١٣٦) » وقال في «طحَابٌ» «وهو مرتجل ، علم مهمل في لغة العرب (١٣٧)» وفي «مهْسَاعٌ» «وهو مهمل عند اللغويين (١٣٨)» ، ويؤخذ عليه — لدى الجمع بين هذه الاشارات — ان

---

(١٣٦) م.ن : ١٥٥/٣ .
(١٣٧) م.ن : ٢٢/٤ .
(١٣٨) م.ن : ٢٣٥/٥ .

الخلل قد قع لديه في تحديد جهة الاهمال ، لأن الضمير في الاشارة الأولى منصرف إلى العرب ، بقرينة الاشارة الثانية ، وهذا امر معروف لا سبيل إلى الاعتراض عليه ، لأن العرب هم اهل اللغة واصحاب التصرف في استعمال الفاظها او اهمالها ، وقد اخل ياقوت في الاشارة الثالثة بدقة هذه المعلومة ، فأوهم قارئه بأن اللغويين ، قد اهملوا العلم البلداني المشار اليه ، وليس هذا صحيحاً ، لأن اللغوي ليس من شأنه ان يستعمل بعض المفردات ويهمل بعضها ، لأن من وظيفته تصنيفها إلى مستعمل ومهمل ، كما فعل «الخليل بن احمد» في أساس رئيس من اسس تصنيفه للمادة اللغوية في «العين» .

وكما ذكر ياقوت «المهمل» في وصف بعض الأعلام البلدانية ، فقد استعمل «المُمات» في موضع واحد من كتابه وهو موضع الكلام على «المَذَارُ» فقد حرص على تأصيل هذا العلم فردّه إلى جذر (و. ذ. ر) واشار إلى ان العلم المذكور من قولهم : ذره ، وهو يذره ، ولا يقال وذرته ، لأن العرب اماتت ماضيه (١٣٩)» ، ويفهم من هذا انه من قبيل المهمل في استعمالهم وهذه المعلومة مذكورة في كتب اللغة (١٤٠) ، وكتب الفاظ القرآن لدى الحديث على تفسير قوله — تعالى — : (٥)(لا تبقي ولا تذر//سورة المدثر — الآية ٣٨ (٥) وقوله : (٥) ما ودعك ربك وما قلى //سورة الضحى — الآية ٣ (١٤١) ، وقد يعني بذكرها بعض مؤلفي كتب فقه اللغة في هذه الأيام ايضاً (١٤٢) .

وقد بدا ياقوت في موضع من مواضع الاشارة إلى المهمل من الأعلام البلدانية غير دقيق ، فقد قال في اثناء كلامه على «غَزْنَةُ» أن «غزن في وجوهه الستة مهمل في كلام العرب (١٤٣)» ، يعني في تقليباته الستة المحصلة من

---

(١٣٩) م.ن : ٨٨/٥ .
(١٤٠) ينظر : اللسان — وذر .
(١٤١) ينظر : الراغب الأصفهاني : المفردات في غريب القرآن — ودع ، وذر .
(١٤٢) فصول في فقه العربية : ٣١٧ .
(١٤٣) معجم البلدان : ٢٠١/٤ .

تقديم اصواته وتأخيرها والمداخلة بينها ، وهي : غزن ، غنز ، نزغ ، نغز ، زغن ، زنغ .

وينبني على هذا الذكر التنبيه على ان انتفاعه من بعض مصادره في النقل اللغوي لم يكن كافياً ، لأن «العين — للخليل» — وهو احد مصادره — قد ذكر هذه التقليبات ، وذكر ان «نزغ» من المستعمل (١٤٤) ، والنزغ بين القوم : هو ان تحمل بعضهم على بعض بالافساد بينهم ، ومنه قوله — تعالى — (ه) (اما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله //سورة الاعراف — الآية ٢٠٠ . وسورة فصلت — الآية ٣٦) .

وكان يكفي ياقوتاً ان يتذكر هذه الآية ، فيتوقى بها من اطلاق كلامه على علّته ، وقد ورد بالمعنى المشار اليه ايضاً : «النغز (١٤٥)» وما زال مستعملا في كلام يومنا هذا وبيئتنا هذه بمعنى : الوخز .

* **التحليل اللهجي**

وهو نمط من التأصيل اللغوي للأصول الاشتقاقية لبعض الأعلام البلدانية ، فكثيراً ما اشار ياقوت في كلامه إلى اللهجات العربية ، او إلى «اللغات» كما يسميها ، بيد انه غالباً ما اغفل عزو اللهجة او اللغة إلى اصحابها في اثناء ذكره لها ، ولكنه عالج مجموعة من الظواهر اللغوية ذات المساس بالأصول اللهجية ، وهي :

الابدال بين الأصوات اللغوية :

وقد اشار إلى حالات منه ، وقعت في الأصول الاشتقاقية لبعض الأعلام البلدانية ، او في الأعلام نفسها او فيما يعرض من المفردات في اثناء الكلام عليها .

---

(١٤٤) العين : ٣٨٤/٤ .

(١٤٥) اللسان — نغز .

ومن النوع الأول : ابدال الثاء والفاء ، فقد قال في «غثثت»: غثثت الخيل واغتفت ، اذا اصابت شيئاً من الربيع ، وهي الغُثّة والغُفّة (١٤٦) ».

ومن الثاني : ابدال السين والصاد ، فقد قال في «القُفُص» (١٤٧) انه لغة في «التفقص (١٤٨)» .

ومن الثالث : ابدال النون واللام ، فقد قال في «جِبْرين» انه لغة في «جبريل (١٤٩)» .

ومن الجدير بالذكر ان الجندي في دراسته الشاملة عن «اللهجات العربية في التراث» قد افرد كلاماً على صيغ لهجية ، عدّها اللغويون ابدالا ، الا انه لم يشر إلى الألفاظ التي يرد فيها ابدال الهمزة والياء (١٥٠) ، ثم وجدنا ياقوتاً يذكر اعلاماً بلدانية حدثت بينهما مثل هذه الظاهرة ، فقد ذكر ان الياء في «يَلَمْلَم» مبدلة من الهمزة في «المَلَمُ» وليست مزيدة (١٥١) وأن الهمزة في «أَمْنٌ» تقلب ياء فيقال : «يَمْنٌ (١٥٢)» :

وقد بدا لنا ان هذا ليس ابدالا بل تخالف لهجي ، لأن الابدال الصوتي مقتض ان يكون له اساس من تقارب بين الصوتين في المخرج او الصفة (١٥٣)، وياقوت نفسه قد اورد ما يماثل المفردتين المذكورتين ، مشيراً إلى ان ما حدث فيها رواية كما في «أَبنْبَم (١٥٤)» او قول كما في «أَبْيَن (١٥٥)» و «أَلْيَل

(١٤٦) معجم البلدان : ١٨٧/٤ .
(١٤٧) م.ن : ٣٨٠/٤ .
(١٤٨) م.ن : ٣٨٠/٤ .
(١٤٩) م.ن : ١٠١/٢ .
(١٥٠) اللهجات العربية في التراث – القسم الثاني : ٤٧١ – ٤٧٧ .
(١٥١) معجم البلدان : ٢٤٦/١ .
(١٥٢) م.ن : ٢٥٥/١ .
(١٥٣) ينظر : سر الصناعة : ١٩٧/١ ، الخصائص : ١٤٦/٢ – ١٤٩ ، الخصائص : ٢٢٠/٢ ، ٢٧٢ ، وعبدالصبور شاهين : المنهج الصوتي للبنية العربية /١٦٧ .
(١٥٤) معجم البلدان : ٧٨/١ .
(١٥٥) م.ن : ٨٦/١ .

«أَلْيَلُ (١٥٦)» او لغة كما في «أبْرين (١٥٧)» و «أثرب (١٥٨)» و «أَذْبُلُ (١٥٩)» .

تحقيق الهمز وتخفيفه

والتحقيق والتخفيف مظهران لهجيان معروفان لدى الدارسين ، وقد التقطنا من امثلتهما في الاعلام البلدانية التي ذكرها ياقوت مفردات منها :

— رَأْلانُ : رالان (١٦٠) .
— رَأْمٌ : رام (١٦١) .
— زِئْنَةُ : زينة (١٦٢) .
— الشَأمُ : شام (١٦٣) .
— مُؤْتَةُ : موتة (١٦٤) .

التذكير والتأنيث

ولم نلتقط من المعجم الا مثالاً واحداً ورد ذكره في «الزُّقَاقُ» الذي قال فيه ياقوت : «اهل الحجاز يؤنثونه ، وبنو تميم يذكرونه (١٦٥) ، وهو سالم يُذكر في كتب التذكير والتأنيث .

---

(١٥٦) م.ن : ٢٤٨/١ .
(١٥٧) م.ن : ٧١/١ .
(١٥٨) م.ن : ٩١/١ .
(١٥٩) م.ن : ١٢٨/١ .
(١٦٠) م.ن : ١٦/٣ .
(١٦١) م.ن : ١٦/٣ .
(١٦٢) م.ن : ١٦٥/٣ .
(١٦٣) م.ن : ٣١١/٣ .
(١٦٤) م.ن : ٢١٩/٥ .
(١٦٥) م.ن : ١٤٤/٣ ، وينظر : المزهر : ٢٢٥/٢ .

الفعل الأجوف

وذكر مسألتين في هذا الصدد :

– اشارته في «طوخ» إلى مضارع «طاخ» : يطوخ ويطيخ (١٦٦) ، وقد بدا لنا ان هذه الثنائية مظهر لهجي يشبه ما عرف في «جاب : يجوب ويجيب» فقد قال ابن القوطية : «جاب الفلاة والثوب وكل شيء جوبا ، ويجيب جيباً بالياء (١٦٧) .

– إشارته في «المُنيفّ» و «المُنيفَة» إلى ان الأول مأخوذ من «ناف» والثانية من «أناف (١٦٨)» ، وهذا الفرق فيما نظن – جد غريب – لأننا لا نقدر على تعليله ، وما يتصل بالمظهر اللهجي من القضية في كلام ياقوت متصل بالأصل الفعلي لهذين الوصفين وهو الفعل الأجوف ، ذهب كلامه عليه في اتجاه بعيد عن الدقة اللغوية ، ويتخلص بما نقله عن الجوهري من ان مضارع «ناف» «يَنيف» (١٦٩)» ، وقد تفرد الجوهري بهذا الرأي وكان مُنتظراً من ياقوت ان يشير إلى ان «ينيف» لغة في «ينإف» لتشبه القضية ما لمحنا اليه في «طا خ» «جاب» ، ولكنه لم يذكر غير الوجه الواحد الذي ذكره الجوهري فقط ، وكان منتظراً منه ايضاً – وهو يعزو «المنف» إلى «ناف» ، و «المنيفة» إلى «أناف» ان يلحظ التجرد والزيدة من كينونة الوصف من المجرد «ناف» :

«نايف» ، ومن المزيد «اناف» : «منيف ومنيفة» ولو عدّ ياقوت الفرق بين «ناف» و «أناف» مظهراً لهجياً لاقترب من الحقيقة ، لأن اللغويين المتقدمين قد نظروا كثيراً في صيغتي «فعل» و «افعل» ، وتحصّل لنا من كلامهم انها تفسّر بواحد من ثلاثة اسباب :

---

(١٦٦) م.ن : ٤٦/٤ .

(١٦٧) الأفعال /٥١ .

(١٦٨) معجم البلدان : ٢١٧/٥ .

(١٦٩) م.ن : ٢١٧/٥ ، وينظر : الصحاح – نيف .

ـ اختلاف لغات العرب (١٧٠) .
ـ لحن العامة (١٧١) .
ـ ما جرت به السنة المولدين (١٧٢) .

الفعل الناقص :

وقد التقطنا ملحظا واحداً من كلام ياقوت في هذا الصدد ، وهو تعليقه في « طحا» بقوله » والطحو والدحو بمعنى (واحد)،وهو البسط . وفيه لغتان طحا يطحو ويطحي (١٧٣)» وأمثلة هذه الثنائية اللهجية ، كثيرة في متن اللغة ، منها ماقاله ابوزيد في « محا» : ان العرب تقول : محا يمحو ويمحا ، وقد جاء يمحي (١٧٤)» ونقل السيوطي عن اليزيدي » أن أهل الحجاز يقولون : قَلَوْتَ البرُ وكل شيء يقلى فأنا أقلوه قلوا ، وتميم : قليت البر وكل شيء يقلى ، فأنا أقليه قليا (١٧٥) .

• ـ تاريخ العلم البلداني :

وهو ملحظ نادر ، له علاقة بعناية ياقوت بالتأصيل اللغوي للعلم البلداني ، بيد انه لم يقدم شيئاً واسعاً في هذا المجال ، فنحن لم نلتقط من كتابه الا اشارات قليلة لاتجاوز الأربع :

١ ـ أن : «أثافتُ» كان يسمى : « درنا» في عصر ما قبل الاسلام (١٧٦) .
٢ ـ أن : « الأهْوازَ» اسم عربي ، سمي به في الأسلام ، وكان اسم المنطقة في أيام الفرس : » خوز ستان « (١٧٧) » .

---

(١٧٠) ينظر : السجستاني : فعلت وأفعلت ، مقدمة المحقق .
(١٧١) ينظر : اللسان وعد .
(١٧٢) المزهر ٢٦١/١
(١٧٣) معجم البلدان : ٢٢/٤ .
(١٧٤) النوادر /٢٠٦ .
(١٧٥) المزهر : ٢٧٧/٢ .
(١٧٦) معجم البلدان : ٨٩/١ .
(١٧٧) م.ن : ٢٨٤/١ .

٣ ـ ان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو أول من استخدم كلمة « وطيس» في قوله : « الآن حَمِيَ الوطيس (١٧٨) » .

٤ ـ أن « دَيْر أُرْوَى» لم يجد ياقوت ذكره إلا في شعر جرير (١٧٩)».

٥ ـ أن « الأنْدُلُس» لم تستعملها العرب في القديم ، وانما عرفت في الاسلام(١٨٠)، وهذه مسألة معروفة ، كثيراً ما قرأنا عنها في المقدمات التي يعدها الدارسون المعاصرون للتأريخ والأدب الأندلسيين (١٨١) ، غير أن ياقوتا لم يكتف بالتأصيل التأريخي للفظة ، بل علق عليه تحقيقاً لغوياً مهماً في بنيتها ، قال فيه :« الأندلس : هي كلمة عجمية لم تستعملها العرب في القديم .... وقد جرى على الألسن ان تلزم الالف واللام ، وقد استعمل حذفها في شعر ينسب الى بعض العرب ، فقال عند ذلك :

سألت القوم عن أنس فقالوا بأندلس وأندلس بعيد

وأندلس : بناء مستنكر فتحت الدال او ضمت ، فاذا حملت على قياس التصريف وأجريت مجرى غيرها من العربي فوزنها : فَعْلُلُ او فَعْلَلُلُ وهما بناءان مستنكران ليس في كلامهم مثل سَفَرْجَل ولا مثل : سَفرجُل فأن أدعى مدع أنها فَنْفَعْلُل، فليس في أبنيتهم ايضاً، ويخرج عن حكم التصريف ،لأن الهمزة اذا كانت بعدها ثلاثة أحرف من الأصل لم تكن الا زائدة ، وعند سيبويه أنها اذا كان بعد أربعة أخرى فهي من الأصل كهمزة أصطبل واصطخر ، ولو كانت عربية لجاز ان يدعى لها أنها أنفُعُل ، وان لم يكن له نظير في كلامهم فيكون من الدَّلَس والتدليس وأن الهمزة والنون زائدتان كما زيدنا في انقَحْل وهو الشيخ المسن (١٨٢)» .

---

(١٧٨) م.ن : ٢٨١/١ . الأوطاس .
(١٧٩) م.ن : ٤٩٧/٢ .
(١٨٠) م.ن : ٢٦٢/١ .
(١٨١) ينظر على سبيل المثال : عبدالرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي : ٣٧ .
(١٨٢) معجم البلدان : ٢٦٢/١ .

٥ - بناء العلم البلداني :

ونعقب بهذا الموضوع لما له من صلة منهجية بكلام ياقوت على مـادة «الأندلس» التي أصل لها في التاريخ ، واللغة ، وهو كثير العناية بالتأصيـل اللغوي لأبنية الأعلام البلدانية ، لتقديم معرفة دقيقة عنها ، وهي معرفة تأتي على مستويين :

مستوى الصيغة :

من ذلك ماقاله في « مَاوان » : « يجوز ان يكون تثنية الماء ،قلبت همزة الماء واوا ، وكان القياس فأن تقلب هاء ، فيقال : ماهان ولكن شبهـوه بما الهمزة فيه منقلبة عن ياء او واو ، ولما كان بحكم الهاء ، ألا تهمز في هـذا الموضع بل اشتبهت بحروف المد واللين ، فهمزوه ، لذلك أطرد فيها ذلك لشبهه ، وعندي أنه من أوى اليه يأوى فوزنه : مفعان وأصله : مفعلان وحقه على ذلك ان يكون مأووان على مثال مكرمان ، وملكعان ، وملأمان ، الا ان لام مفعلان في مأوان ساكنة : فأجتمع ساكناه ، فاستثقل فلم يمكن النطـق به ، فأسقطت لام الفعل وبقيت ألف مفعلان تدل على الوزن (١٨٣)» .

وقد بدا لنا - ونحن نقرأ تأصيله للصيغ - منتفعاً انتفاعاً كبيراً من الأبنيـة التي ذكرها اللغويون المتقدمون ، ومن الطريف أن يأخذ من ابنية سيبويه ، ومما استدركه عليه الزبيدي ايضاً ، بيد انه يشير الى ابنية ذكرها سيبويه ، ولايهدينا البحث الى الوقوف عليها في النسخة التي بين ايدينا من كتابه ، ومن ذلك :

- إبْرَمُ (١٨٤) : ليست في الكتاب .
- أَبْيَن (١٨٥) : ليست في الكتاب .
- إمِّدانُ (١٨٦) : الكتاب ٤ / ٢٤٨ .

---

(١٨٣) م.ن : ٥/٥٤ .
(١٨٤)م.ن : ١/٧٠ .
(١٨٥) م.ن : ١٠/٨٦ .
(١٨٦) م.ن : ١/٢٥١ .

ــ بَرَدَيَا(١٨٧) : الكتاب ٤ /٢٦٥ .
ــ جَنَفَاءُ (١٨٨) : الكتاب : ٤/٢٥٨ .
ــ عِرِفَانُ (١٨٩) : ليست في الكتاب .
ــ عُنْبُبُ (١٩٠) : ليست في الكتاب .
ــ قلهى (١٩١) : الكتاب ٤ /٢٦٥ .
ــ مرَحَيَا (١٩٢) : ليست في الكتاب .
ــ يَبَنْبَمُ (١٩٣) : ليست في الكتاب .

وكان الزبيدي قد ذكر في استدراكه على سيبويه ايضاً بردَيا (١٩٤) . وقلهى (١٩٥) ، ومرَحَيَا (١٩٦) .ونقل عنه ياقوت من استدراكه عليه ايضاً

ــ الأَرْبَعَاءُ (١٩٧) : الاستدراك /٨ .
ــ حَوْصَلاءُ (١٩٨) : الاستدراك /١٣ .
ــ مَسُولا (١٩٩) : وقد فاتنا الاهتداء الى هذه النقطة في « الاستدراك » واذا صحّ فذى فائدة تأريخية لها قيمتها في نقد النسخة التي بين ايدينا من كتاب الزبيدي .

---

(١٨٧) م.ن : ٣٧٨/١ .
(١٨٨) م.ن : ١٧٢/٢ .
(١٨٩) م.ن : ١٠٥/٤ .
(١٩٠) م.ن : ١٦١/٤ .
(١٩١) م.ن : ٣٩٣/٤ .
(١٩٢) م.ن : ١٠٣/٥ .
(١٩٣) م.ن : ٤٢٨/٥ .
(١٩٤) الاستدراك : ١٤ ، ١٩ .
(١٩٥) م.ن : ٣٧٨/١ .
(١٩٦) م.ن : ١٠٣/٥ .
(١٩٧) معجم البلدان : ١٣٦/١ .
(١٩٨) م.ن : ٣١٩/٢ .
(١٩٩) م.ن : ١٣٠/٥ .

وقد لمحنا عناية لياقوت بصلة الوزن بالمعنى أحياناً ، وهي منحى تأصيلـي لبنية العلم البلداني ، من ذلك ماقاله في « طَلُوب » انه فَعول من الطاسب ، وهو من أبنية المبالغة يشترك فيها المذكر والمؤنث ،ويقال : بئر طَلُوب ،بعيدة الماء (٢٠٠) .

وما قاله في « الغَرّاف » _ إنه « فعّال من أبنية التكثير (٢٠١) ». ولياقوت في دراسة هذه الصيغة ملحظ مهم في دراسة فقه اللغة ،فقد استثنى قوله — تعالى — : «(وما ربك بظلاّم للعبيد //سورة فصلت — الاية ٤٦) .
وقول طرفة :

ولست بحَلاّل التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد

من دلالة الصيغة فيهما على التكثير ،وعلل استثناءه بالاشارة الى ان امتناع الكثير لايعني وقوع القليل ، فالله — عزّ وجلّ — مُنَزّه — من قليل الظلـم وكثيره،وطرفة لم يرد أنه يحل التلاع مخافة من الرفد ،ولكنه اراد الامتناع عن ذلك بالكلية (٢٠٢) .

وأساس ماقاله ياقوت في تفسير الآية معروف في كلام المفسرين ، يسهل الوقوف عليه في متقدم التفاسير ومتأخرها ، صغيرها وكبيرها (٢٠٣) .

وكلام ياقوت فيه دلالة على ان ابنية المبالغة لايشترط ، فيها من الناحية الالية ان تكون للتكثير دائماً . وينبني على هذا ان يتكلف الدارس معرفة احوال الموصوف ليتبين من خلاله صحة ان يحمل معنى الصيغة على التكثير او خلافه .

ومن اشارات ياقوت الى صلة معنى التكثير بوزن المبالغة قوله في « غَلاّس »

---

(٢٠٠) م.ن : ٣٩/٤ .
(٢٠١) م.ن : ١٩٠/٤ .
(٢٠٢) م.ن : ١٩٠/٤ .
(٢٠٣) ينظر على سبيل المثال : الجامع لاحكام القرآن : ٣٧٠/١٨ ، تفسير الجلالين /٦٣٦ .

هو فعّال من الغلس ، كأنه كثير التغليس (٢٠٤)» وقوله في «المُحَمَّدِيَّة» انه اسم المفعول للتكثير والمبالغة من الحمد ، ومعناه انه يحمد كثيراً (٢٠٥)» ولكن الدلالة على التفسير ليست في صيغة اسم المفعول نفسها ، بل في الفعل الذي بني منه هذا الوصف ، وهو « حمَّد » والمضعف للتكثير .

الفصيح والعامي :

لاتساع الرقعة الجغرافية التي بنى ياقوت كلامه على بلدانها ، من الثابت ان تصادف القاريء في معجمه أعلام بلدانية ،منها ماهو عربي فصيح ، ومنها ماهو محال عن العربية والفصاحة ، ومن الثابت ايضاً ان يعمد ياقوت الى محاولة أخرى للتأصيل اللغوي في هذا المجال ،وقد قدم في هذا الباب وجهات نظر ونقولا مهمة لايستهان بها ، من ذلك ماقاله في « آرة » : « وقرأت بخط ابي بكر طرخان بن بجكم ، قال « قال لي الشيخ ابو الأصبح الأندلسي ، المشهور عند العامة : وادى بارة بالباء ، وآرةُ بلد بالبحرين(٢٠٦) » وما قاله في « تَكريتُ » : « بفتح التاء ، والعامة يكسرونها (٢٠٧) » ؛ويعني : عامة القرنين السادس والسابع الهجريين ، وقد استطال هذا الوضع ، حتى اتصل بعامة العصر وخاصته ايضاً فاصبحنا لانسمع هذا الاسم الا مكسورا التاء ، ومن ذلك ايضاً ماقاله في « تلّ أعفَرَ » : هكذا تقول عامة الناس ، واما خواصهم فيقولون : تل يعفر ، وقيل : انما أصله : التل الا عفر للونه ، فغير بكثرة الاستعمال وطلب الخفة (٢٠٨) » ، وهذا التعليل مقبول في اطار مانعرفه من نزعة العامة الى الاقتصاد في جهد اوائهم اللغوي ، وياقوت لايحمل كل مقولات العامة في احالة الأعلام البلدانية على اللحن مكتفياً

(٢٠٤) معجم البلدان : ٢٠٧/٤ .
(٢٠٥) م.ن : ٦٤/٥ .
(٢٠٦) م.ن : ٥٢/١ .
(٢٠٧) م.ن : ٣٨/٢ .
(٢٠٨) م.ن : ٣٩/٢ .

بالاشارة الى مايجتحرونه فيها من ذلك فقط ، ولكنه قد يصرح بغلطهم ، ومن ذلك اشارته الى انها تغلط في «اللآنُ» فتقول « علاّن» (٢٠٩) » ومن مفارقاته المنهجية في ذكر الاعلام البلدانية الفصيحة والملحونة ، البدء بالفصيح مرة ، وبالعامي مرة أخرى ، ونحسب ان ملاحظة الشهرة هي التي دفعته في هذين المجريين المختلفين .

ومن فوائده عنايته بالفصيح والعامي في الأعلام البلدانية الشائعة بلغـات اوعلى ألسنة غير العرب . فقد قال في « آمو» «هكذا يقولها العجـم على الاختصار والعجمة (٢١٠)» .

وقال في « جيرِه» : « والعامة تقول » كسره (٢١١) «وقال في «جَماجِمو كذا يتلفظ بها أهل خراسان، ويكتبونها جماجم (٢١٢)» .

المعرّب

للسبب نفسه الذي أشرنا اليه في مستهل الفقرة السابقة كثرت الأعـلام البلدانية المعربة في معجم ياقوت ،وقد منح ياقوت هذه الاعلام عناية ملحوظة وقدم محاولات تأصيلية لطيفة في اثناء كلامه عليها ، وهو لم يستعمل البتـة مصطلح « الدخيل» ، والدخيل — كما نعرف — هو ، مادخل الى العربية من لغة أخرى ، وبني على أوزان تخالف اوزانها (٢١٣) ؛ ولكنه استعمـــل مصطلح « المولّد» مرة واحدة في كلامه على « تَرَيْدُ» بقوله : « وهو وزن غريب ، ليس له نظير ولعله مولد (٢١٤) .

والمعرب كما نعرف ايضاً: هو مانقل الى العربية من لغة أخرى نقلا ينسجم

---

(٢٠٩) م.ن : د/٨ .
(٢١٠) م.ن : ٥٩/١ .
(٢١١) م.ن : ١٣١/٢ .
(٢١٢) م.ن : ١٥٩/٢ .
(٢١٣) ينظر : حسن ظاظا : كلام العرب /٦٨ ، هنري فليش : العربية الفصحى /٣٨
(٢١٤) معجم البلدان : ٧٨/٢ .

مع المفردة العربية في اوزانها وأصواتها (٢١٥) ،ومن واجب درسه التأصيلي أن يذكره مقروناً بأصله لتحقيق معرفة كافية عنه،ولكن ياقوتا قد يذكر الأصل او يخل به ، فقد قال في :« تُستَر» :« تعريب شوشتر (٢١٦)» وقال في «طِهران » : وهي عجمية ، وهم يقولون : تِهْران ، لأن الطاء ليست في لغتهم (٢١٧)» وقال في «دَهْلَك » : « اسم اعجمي معرب (٢١٨)» فقط ولم يذكر اصله .

وقد يذكر ما يوافق المفردات الأعجمية من العربية كما قال في «الطَرْم: « وهي فيما أحسب فارسية وافقت من كلام العرب: الطِّرْم مثله سواء الزبد، وفي لغة لبعض العرب : العسل (٢١٩) » ،وقال في طوخ : « اسم اعجمي ومدخله في العربية من: طاخه يطوخه،ويطيخه، اذا رماه بقبيح (٢٢٠)»،ولايخفى مافي هذين النصين من نظر تأصيلي يحاول الاقتراب بالمفردة الأعجمية من العربية التي سادت في الأمصار المستضيئة بالشمس العربية الاسلامية ، بيد ان ياقوتا لايكشف في هذا المجال عن معرفة بلغات امم المنطقة ، فهو يكتفي في اشاراته بالنقل . . المحفوظ الذي حصله في اثناء الرحلة الطويلة التي استنفدت

و«مَيدان» (٢٢٦) أو يصرح بأنه لايدري بما أصلها كما فعل في «طَفَرُجيل (٢٢٧)» و «عَمّلَة (٢٢٨)» ، او يضعف معلوماته عنها بقوله : «أحسبها وأظنها» ولكنه لايخلي كلامه على بعض الأعلام البلدانية غير العربية من محاولات تحليلية كما فعل في اوريشَلَم» وفي إيلياء« فقد قال في الأول : « هو اسم للبيت المقدس بالعبرانية ، إلا أنهم يسكنون اللام فيقولون أوريشلم ، وقد قال الأعشى :

وطوّفْتُ للمال آفاقَهُ ... عُمَانَ فحمص فاوريشلم

أتيت النجاشي في داره ، ... وأرض النبيط وأرض العجم

وحكي عن رؤبة اوريسلم ، بالسين المهملة ، وروى اوريشلم ، وأوريشلم بتشديد اللام ، وأوراسلم ، بفتح الراء والسين ، كذا حكاه ابو علي الفسوى [الفارسي النحوي] وأنشد عليه بيت الأعشى ، فقال : فأوري سلم بكسر اللام ، قال : وقال ابو عبيدة : وهو عبراني معرب ، والقياس في الهمزة اذا كانت في أسم أن تكون فاء مثل بهمى والألف للتأنيث ، ولا تكون للالحاق في قياس قول سيبويه ، واذا كان كذلك لم ينصرف في معرفة ولا نكرة ، وجاء من هذه الحروف في كلام العرب : الأوار فقال :

كأن اوارهن أجيج نار

وقالوا في اسم موضع اواره ، وأنشد ابو زيد [الأنصاري] :

عداوية هيهات منك محلها ... اذا ماهي احتلت بقدس وآرت

وهذا من لفظه الأول اذا قدرت الألف منقلبة عن الواو ، قال الاعشى

هما إنَّ عَجِزَةَ أمّه ... بالسفح أسفل من أواره

فان قلت : فهل يجوز أن يكون أورى أفعل فتكون الهمزة زائدة من أوريت

---

(٢٢٦) م.ن : ٥/٢٤١ .
(٢٢٧) م.ن : ٤/٣٥ .
(٢٢٨) م.ن : ٤/١٥٧ .

النار وما في التنزيل من قوله – تعالى – «(أفرأيتم النار التي تورون // سورة الواقعة – الاية ٧١) » ، قلت ذلك لايمتنع في القياس لأن الأعلام قد تسمى بما لايكون الا فعلا نحو خضم وبذر ألا ترى أنه ليس في العربية شيء على وزن فعل (٢٢٩)» .

وفي الثاني :« إيلياء : ... اسم مدينة بيت المقدس،قيل : معناه : بيت الله وحكى الحفصي [مروان بن محمد بن ابي حفصة – صاحب كتاب مناهل اليمامة] : فيه القصر وفيه لغة ثالثة، حذف الياء الأولى فيقال : الياء بسكون اللام والمد ، وقال ، وقال ابو علي : وقد سمي البيت المقدس ايلياء بقول الفرزدق :

وبَيْتان ، بَيْتُ الله نحن ولاتُه   وقصر بأعلى إيلياء مُشْرِفُ

فايلياء : الهمزة في أولها فاء لتكون بمنزلة الجربياء ، والكبرياء، وتكون الكلمة ملحقة بطرمساء ، وجلخطاء ، وهي الأرض الحزن ، والياء التي بعد الهمزة لاتخلو من أن تكون منقلبة من الهمزة او من الواو،وقياس قول سيبويه أن تكون من الواو ولا تكون منقلبة من الهمزة على هذا القول ، لأن الهمزتين اذا لم تجتمعا حيث يكثر التضعيف نحو شددت ، ورددت ، فان لم تجتمعا حيث يقل التضعيف أجدر ،ألا ترى أن باب ددن وكوكب من القلة بحيث لانسبة له الى باب رددت ، ولم تجتمع الهمزتان فيه ، كما اجتمع سائر حروف الحلق في هذا الباب في قلة مهاه والبعاع والبعة ، ولجّ وسجّ ونجّ ؛ وان جعلتهما من الياء كان من لفظة قولهم في اسم البلد أيلة،هذا ان كان فعلة وان كان مثل ميتة أمكن ان تكون من الواو ، ومما جاء على لفظة من الفاظ العرب الأيل : وهو فعل مثل الهيج في الزنه ، وكون العين ياء ، ومن بنائه الأمر ، ولد الأمر ، ولد الضائن ، والقنّف ، وقالوا للبراق الألق ، وللقصير دنّب ، ومجيء البناء في الاسم والصفة يدل على قوته ، فان قيل : هل يجوز

(٢٢٩) م.ن : ١/٢٧٩ : اوريشلم .

أن تكون ايلياء افعلاء فتكون الهمزة ليست بأصل كما كانت أصلا في الوجه الأول ، فالقول في ذلك : انا لانعلم هذا الوزن جاء في شيء واذا لم يجيء في شيء لم يمنع حمل الكلمة عليه ، ولو جاء منه شيء لامكن أن تكون الياء الأولى منقلبة عن الواو او منقلبة عن الهمزة كالايمان ونحوه ، ولم يجز أن يكون انقلابها عن الياء لأنه لم يجيء من نحو سلس في الياء الا يديت وأنديت وقيل : انما سميت ايلياء باسم بانيها وهو : ايلياء بن ارم بن سام بن نوح — عليه السلام — (٢٣٠)» .

• **القراءات القرآنية :**

وقد أفاد منها في التأصيل اللغوي لبعض الأعلام البلدانية ، من ذلك مانقله من قراءة الأعمش في تخفيف ياء « الجودى » في قوله — تعالى — : • (واستوت على الجودي //سورة هود — الاية ٤٤» ، **وما نقله عن القراء من تنوين « طوى» وعدم تنوينه ، بقوله :** « وقرأ ابن كثير ونافع وابو عمرو طوى ، وأنا بغير تنوين ، وطوى اذهب بغير تنوين ، وقرأ الكسائي وحمزة وعاصم وابن عامر منونا في الصورتين (٢٣١) » .

وما قاله في « طور سيناء » بفتح العين وكسرها مستدرك بقول **« الأخفش :** « وقرىء : طور سيناء — بالفتح والكسر (٢٣٢) » .

ومن مباحثه النقلية التي انتفع فيها بعلم القراءات القرآنية مانقله من الزجاج في قراءة« النبيّين » بقوله « القراءة المجتمع عليها في النبيين والأنبياء طرح الهمزة ،وقد همز جماعة من أهل المدينة جميع ماجاء في القرآن من هذا واشتقاقه من نبأ أي أخبر ، قال : والأجود ترك الهمزة لأن الاستعمال يوجب

---

(٢٣٠) م.ن : ٢٩٣/١.

(٢٣١) م.ن : ٤٤/٤ — ٤٥ : طوى ، ويعني:• (اني انا ربك فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى // سورة طه — الآية ١٢ • و • (اذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى // سورة النازعات — الآية ١٦) .

(٢٣٢) م.ن : ٤٨/٤ .

ان ما كان مهموزاً من فعيل فجمعه فعلاء مثل ظريف وظرفاء فاذا كان من ذوات الياء فجمعه أفعلاء نحو غني وأغنياء ونبي وانبياء بغير همز ، فـــاذا همزت قلت نبيء وأنباء كما تقول في الصحيح وهو قليل : خميس وأخمساء ونصيب وأنصباء ، فيجوز أن يكون نبي من أنبأت فما ترك همزه الا لكثرة الاستعمال ، ويجـوز ان يكـون من نبا ينبـو اذا ارتفع فيكون فعيلا من الرفعة (٢٢٣) » .

* الضرورات الشعرية :

وهي ظاهرة لغوية في الشعر أولاها اللغويون والنحاة عناية كبيرة ، فكتبوا في تعريفها وتصنيفها، وألفوا فيها الكتب المستقلة والفصول الكبيرة ، وأعطوا الملاحظ والاشارات التي حاول الدارسون المعاصرون تتبعها ودراستها ، ومن ذلك فصل مبسوط كتبه الدكتور عبد الوهاب العدواني بعنوان: « الضرورة في آثار الدارسين — قديماً وحديثاً (٢٣٤) » ، وأشار فيه الى مشاركة ياقوت بالتأليف الخاص في هذه الظاهرة ، ثم قال : « ومن طريف ياقوت ان صرح باختصار اسم بلدة اعجمية قديمة ليستقيم له وزن بيت ذكره فيها ، ولعل مستقرى كتابه : معجم البلدان واجد فيه اشارات يمكن ان تسعف في اعطاء صورة محددة عن طبيعة فهمه للضرورة بعد ضياع كتابه الخاص فيها (٢٣٥) » وهو كتاب أسلفنا ذكره في كلامنا عن آثار ياقوت في الفصل الأول مـن هذه الدراسة ؛ ويحسن بنا — ونحن نعالج عنايته التأصيلية بالأعلام البلدانية — ان نلتقط بعض ملاحظه عن الضرورات التي عرضت فيما استشهد به من نصوص شعرية ، والضرورة — كما نعلم — هي مايضطر اليه الشاعر من حذف أو

---

(٢٣٣) م.ن : ٢٥٩/٥ .

(٢٣٤) تنظر : رسالته للدكتوراه : الضرورة الشعرية — دراسة نقدية — ١٥٩ — ٢٩٧ .

(٢٣٥) م.ن : ١٦٢ ، وينظر : معجم البلدان : ١٤١/١ : ارثخشيش .

زيادة او تقديم أو تأخير او ابدال او تغيير في غير موضعه (٢٣٦) ، ومـــن ذلك :

١ – الاشارة الى اسقاط النابغة الذبياني الهمزة من أول« أباغ» في قوله يمدح آل غسان :

يوما حليمة كانا من قديمهم   وعينُ باغَ فكان الأمرُ ما ائتمرا(٢٣٧)

٢ – الاشارة الى ان لبيدا اقتطع شطراً من « المنازل » في قوله :

درس المنـا بمتـالع فـأبـان   فتقادمت فـالحبس فالصوبان

ونبه ياقوت على ان هذا « من اقبح الضرورات (٢٣٨)» .

٣ – الاشارة الى ان المتنبي حذف راء « جان/أرَّ » في قوله :

أرجانَ أيتها الجيادُ فـإنـه   عزمي الذي يدعُ الوشيجَ مكسرا(٢٣٩)

٤ – الاشارة الى ان الشاعر قد ثنى وجمع لاقامة الوزن فقال :

الا حبذا بَرْدُ الخيام وظلُّها   وقَوْلٌ على ماء التُلَيَّيْن أمرْشُ(٢٤٠)

وقال : « قال مطير بن أشيم الأسدي :

ينتسابُ مـاءَ قَطيّـات فأخلفه   كأنّ مَوردَه ماء بحوران (٢٤١)

والاشارة في هذين البيتين الى« التلي» و« قطية» ومن المعروف – كمـا قال ياقوت – « ان العرب تحرف المفرد (في الشعر) ليستقيم الوزن (٢٤٢)».

ولابد من التنبيه هاهنا الى ان معظم الضرورات الشعرية التي ورد ذكرها في المعجم ضرورات زيادة ونقص في المفردة البلدانية فقط ،وقد خلا الكتاب من

(٢٣٦) ابن السراج : الأصول : ٤٣٥/٣ ، وينظر : رشيد العبيدي : معجم مصطلحات العروض والقوافي : ١٥٣ .

(٢٣٧) معجم البلدان : ٦١/١ .

(٢٣٨) م.ن : ٦٢/٤ .

(٢٣٩) م.ن : ١٤٢/١ .

(٢٤٠) م.ن : ٤٥/٢ .

(٢٤١) م.ن : ٣٧٨/٤ .

(٢٤٢) م.ن : ٣٧٨/٤ .

اي ملحظ يجاوز هذين النوعين الى اي نوع آخر من انواع الضرورات في الشعر العربي .

ه – تفسير العلم البلداني :

فقد أولى ياقوت معاني الأعلام البلدانية اهتماماً ملحوظاً وقد تهيأ لنا ان اللغوي المعاصر بمقدوره ان يستخرج من كلام ياقوت عملا دلاليا ، يشبه ان يكون معجماً ، ولكنه سيكون – بالضرورة – معجماً ناقصاً ، لايتوفر الا على المفردات التي اقتضت الكلام التفسيري المناسب عليها ، وقد تكون جهده التفسيري ، واغتنى بالنقول المهمة ، والتحقيقات العلمية النافعة والشواهد المختلفة ، ولكنه لم يخل من بعض الهنات القليلة ايضاً .

ومن طبيعة عمل ياقوت التفسيري ان يعزز كلامه بكلام اللغويين والجغرافيين ، وشراح الشعر ، ويحيل النقل الى حد يخرج عن الحاجة كما فعل في كلامه على « العبلاء » و« النحيزة » ، فقد فسر الأولى بقوله : « قال الأصمعي : الأعبل والعبلاء حجارة بيض ، وقال الليث : صخرة عبلاء بيضاء ، وقال ابن السكيت : القِنانُ جبالٌ صغار سود لا تكون القُنّة إلا سوداء ، ولا الظراب الا سوداء ، ولا الأعبل والعبلاء الا بيضاء ، ولا الهضبة الا حمراء وقال ابو عمر : العبلاء معدن الصفر في بلاد قيس ، وقال النضر العبلاء الطريدة في سواد الأرض حجارتها بيض كأنها حجارة القداح ، وربما قدحوا ببعضها وليس بالمرو كأنها البلور ، وقيل العبلاء اسم علم لصخرة الى جنب عكاظ قال خداش بن زهير : وعندما كانت الوقعة الثانية من وقعات الفجار :

ألـم يبلغْكُمُ أنّـا جدعنـا لـدى العبـلاء خِندِفَ بالعَيّادِ

وقال ايضاً خداش بن زهير :

ألم يبلغك بالعبـلاء أنـا ضربنا خندفا حتى استقـادوا ؟
ثُبُنّي بالمنـازل عزّ قيـس وودّوا لو تسيـخ بنا البـلادُ

وقال ابن الفقيه : عبلاء البياض موضعان من اعمال المدينة أو عبلاء الهرد والهرد نبت به يصبغ أصفر ، والطريدة : أرض طويلة لاعرض لها ، والعبلاء: قسيل العبلات بلدة كانت لخثعم بها كان ذو الخلصة بيت صنم ، وهي من أرض تبالة ، وعبلاء زهو،ذكرت في زهو : وهي في ديار بني عامر (٢٤٣) وفسر الثانية بقوله :« ولها في اللغة معان كثيرة ، نحيزه الرجل طبيعته ، والنحيزة ، طرة تنسج ثم تخاط على الفساطيط شبه الشقة ، والنحيـــزة : الَعْرقة ، قال ابن شميل : والنحيزة طريقة سوداء كأنها خط مستوية مـــع الأرض ، خشنة لايكون عرضها ذراعين ، وانما هي علامة في الأرض مـــن حجارة أو طين أسود ، قال الأصمعي : النحيزة : الطريق بعينه شبه بخطوط الثوب،قال ابو زيد : النحيزة من الشعر يكون عرضها شبرا تعلق على الهودج يزينونه بها وربما رقموها بالعهن ، قال ابو عمرو : النحيزة النسيجة شبـــه الحزام يكون على الفساطيط التي تكون على البيوت تنسج وحدها ، وكـــأن النحائز من الطرق مشبهة بها ، قال ابو خيرة النحيزة جبل منقاد في الأرض، والأصل في جميع ماذكر واحد وهو الطريقة المستدقة ، والنحيزة : واد في ديار غطفان (٢٤٤)» .

وهو في كثير من المواضيع يرص النصوص المختلفة شواهد على المعانـــي التي يذكرها،آيات وأحاديث وأشعاراً وأمثالا،واقوالا سائرة ومن ذلك على سبيل المثال —

١ — الأب : الزرع في قوله — تعالى — : « (وفاكهة وأبا (٢٤٥) //سورة عبس — الاية ٣١ .

٢ — الحصير : المحبس في قوله — تعالى — : « (وجعلنا جهنم للكـافرين حصيرا (٢٦٤) //سورة الأسراء — الاية ٨ .

---

(٢٤٣) م.ن : ٨٠/٤ .
(٢٤٤) م.ن : ٢٧٥/٥ .
(٢٤٥) م.ن : ٦٤/١ .
(٢٤٦) م.ن : ٢٦٧/٢ .

٣ ـ الوطيس : وذكر ان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو اول من قال : حمي الوطيس ـ كما أسلفنا ـ وذلك حين استعرت الحرب في وقعة حنين بينه وبين هوازن في وادي أوطاس في ديار هوازن (٢٤٧) ، ويتخايل لنا في هذا الموضوع ملحظ مهم نصورة بالاشارة الى العلاقة التوليدية بين «الوطيس» و «أوطاس» وكأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد ولد «الوطيس» من اسم الموضع الذي شهد المعركة المستعرة .

٤ ـ اللأي : البطء في قول زهير :

وقفت بها من بعد عشرين حجة فلأيا عرفْت الدار بعد توهم (٢٤٨)

٥ ـ الفاق : الزيت المطبوخ في قول الشماع :

قامت تريك أثيث النبت منسدلا مثل الأساود قد مسحن بالفاق (٢٤٩)

٦ ـ **الحور** : النقصان ، والكور : الزيادة ، كما في المثل : «نعوذ بالله من الحوَر بعدَ الكوَر (٢٥٠)» ، وقد سبقت لنا اشارة الى ان ياقوتا قد قدم بهذا المثل اضافة علمية على ماذكره الأمثاليون من المعنى المذكور :

فالميداني قد ذكر المثل بلفظ «نعوذ بالله من القل بعد الكثر (٢٥١)» .

وتفاسير ياقوت المعنوية أوسع من احصائنا ووصفنا في هذا الموضع : وحسبنا التنبيه على ان ياقوتا لم يكتف من المفردة البلدانية ، التي يشرحها بوضعهـا الظاهر الذي يقع تحت النظر ، لأنه قد يفسرها باختلاف الظاهر الذي يقـع تحت النظر ، لأنه قد يفسرها بأختلاف الروايات اللفظية الواردة فيها كما في «لفت : المثلثة الفاء» مشيراً الى ان القاضي عياض قد قيده على ثلاثة أوجه :

ـ لَفُت : بفتح اللام وسكون الفاء .

ـ لَفَتُ : بالتحريك .

---

(٢٤٧) م.ن : ٢٨١/١ .
(٢٤٨) م.ن : ٩/٥ .
(٢٤٩) م.ن : ٢٣٢/٤ .
(٢٥٠) م.ن : ٣١٧/٢ . حوران .
(٢٥١) مجمع الأمثال : ٣٤١/٢ ، ٤٧٤ .

ـ لِفْتُ : بكسر اللام وسكون الفاء .

ثم قال : « ولكل معنى في كلامهم ، أما : لَفْت بالفتح ثم السكون ، فهي الصرف تقول : مالفتك عن فلان ، أي ماصرفك ، وقيل اللفت : اللي عن جهته ومنه الالتفات ، وأما اللفت فيقال : لفت فلان مع فلان ، كقولك صفاه ، ولفتاه : شقاه ، وأما المحرك فيجوز أن يكون منقولا عن الفعل ، من قولهم : لفت فلان فلاناً ، أي صرفه ثم استعمل اسما (٢٥٢) .

وقد ينبه على المعاني الضدية كما قال في « الجون : انه من الأضداد (٢٥٣) وقال في « طُوَيْلِعُ » تفسيراً للطالع « يقال طلعت على القوم ، أطلع طلوعاً ، فأنا طالع ، اذا غبت عنهم حتى لايروك ، أو أقبلت اليهم حتى يروك (٢٥٤) » وقال في : ‹عَيْمَرْ انه › اذا اقبل واذا ادبر (٢٥٥) » ، وفي « القشيب » انه : الجديد من كل شيء والخلق (٢٥٦) » ايضاً .

وعلى المعاني كذلك ، فقد ذكر ان « الأجر » : «بلغة أهل مصر : الطُّوب : وبلغة أهل الشام : القرميد (٢٥٧) » ، وذكر ان « كَبَر » في اللغة : الطبل الذي له وجه واحد في لغة أهل الكوفة (٢٥٨) » .

ومن هناته في التفسير ـ فيما نزعم ـ :

١ ـ أبهر : وقد ذكر انه من « أبهر » بمعنى : الغلبة بقرينة قول عمر بن ربيعة :

ثم قالوا تحبها ، قلت بهـراً   عدد القطر والحصى والتراب

(٢٥٢) معجم البلدان : ٢٠/٥ .

(٢٥٣) م.ن : ١٨٩/٢ ، وينظر : ابو الطيب اللغوي : الأضداد في كلام العرب : ١٥١/١ – ١٦١ .

(٢٥٤) م.ن : ٥١/٤ ، وينظر : ابن السكيت : اصلاح المنطق: ٢٦٠ ، الأضداد: ٤٥٨/١.

(٢٥٥) م.ن : ١٢١/٤ ، وينظر : الأضداد : ٤٨٨/١ – ٤٩١ .

(٢٥٦) م.ن : ٣٥٢/٤ ، وينظر : الأضداد : ٥٨٨/٢ – ٥٨٩ .

(٢٥٧) م.ن : ٥١/١ .

(٢٥٨) م.ن : ٤٣٤/٤ .

وفسر : « ابتهر فلان بفلانة» بمعنى اشتهر ، وأورد قول الشاعر :

تهيم حين تختلف العوالي ومالي ان مدحتهم ابتهار (٢٥٩)

والبادي لنا انه قد سها في فهم المفردتين في الشاهدين ، لأن « بهرا » في الأول بمعنى « جما» أو « عجبا» ، و «الابتهار » في الثاني بمعنى ادعاء الشيء كذبا (٢٦٠) .

٢ ـ الأحور : وقد ذكر أنه « سواد العين (٢٦١) وليس الأمر كما قال ،لأن الأحور هو « العقل » وقد قيل : « وما يعيش فلان بأحور » ، أي ما يعيش بعقل يرجع اليه (٢٦٢) .



---

(٢٥٩) م.ن : ٨٣/١ .
(٢٦٠) ينظر : اللسان – بهر .
(٢٦١) معجم البلدان : ١١٨/١ .
(٢٦٢) ينظر : اللسان – حور .

قاموس المورد
ملاحظات على المادة والمنهج

الدكتور : طالب عبدالرحمن
استاذ مساعد — كلية الآداب
جامعة الموصل

الخلاصة

يهدف هذا البحث إلى ذكر الميزات التي يتحلى بها قاموس «المورد» الانكليزي العربي لمنير بعلبكي ، والتي جعلته واحداً من افضل معجماتنا الانكليزية العربية إن لم يكن افضلها جميعاً ، ثم يشير بعد ذلك إلى اخطاء المصنف فيما يخص جوانب متعددة ، وخاصة في النطق ، والمعاني العربية ، وعدم احتوائه بعض الالفاظ المهمة ، وعدم وضوح التفرقة بين الانكليزية البريطانية والانكليزية الامريكية .

١ — اهمية قاموس المورد

يجدر بنا ان نبدأ بذكر اهمية المورد ، واسبابها ، وصدى هذا القاموس على العربية الحديثة ، قبل ان نشرع في ذكر ملاحظاتنا عليه . ونبدأ اولاً بذكر مختصر لاهم القواميس الانكليزية العربية الشاملة (•) التي سبقت المورد ، كيما نتبين مكانة المورد بين تلك المعاجم .

آ — القاموس العصري — الياس انطوان الياس

وقد ظهرت طبعته الاولى سنة ١٩١٣ ،ولذا لا عجب ان تسيطر على القاموس انكليزية القرن التاسع عشر ، وإنْ حاولت طبعاته اللاحقة اضافة مفردات

(•) يقصد بالقواميس الشاملة : غير المتخصصة ، وقد استبعدنا من مفهوم الشمول ايضاً القواميس المختصرة (مثل الكنز الوجيز لجروان السابق ، وقاموس القارىء ... الخ) .

حديثة (١) . وقد حوى القاموس زهاء (٥٠) الف مادة ، وهو خال من التلفظ

ب — المنار — حسن سعيد الكرمي

وقد ظهرت طبعته الاولى سنة ١٩٧١ ، وطُبع ثلاث مرات بعد ذلك . وهو يحوي زهاء (٣٣) الف مدخل ، ولا يذكر التلفظ الا بطريقة الخطوط فوق الكلمات ، ويميل إلى استخدام مقابلات عربية قديمة للكلمات الانكليزية ، كاستخدامه كلمة سعيف مقابلاً لكلمة heipmate .

ج — قاموس اوكسفورد The Oxford English- Arabic Dictionary نشره ن . اس. دونيــاك N.S. Doniach وقــد ظهر اول مرة سنة ١٩٧٢ ، وطُبع بعد ذلك خمس مرات . والعمل نتيجة تضافر جهود ما يقرب من اربعين شخصاً . ويحوي (٣٩) الف مدخل ، مع ملاحظة انه يكثر من ذكر التعابير expressions والمصطلحات (٢) idioms ويضع المعنى ضمن جملة عادة (عربية او انكليزية) بما يضع الكلمة ضمن مساقها وظلها المعنوي (٣) .ويتميز القاموس ايضاً بذكر الالفاظ الخاصة بالحضارة العربية ، كذكره معنى مولى (القبيلة من القبائل) كأحد معاني كلمة client . ويشير اثناء شرحه إلى اللهجات العامية (وخاصة العراقية والمصرية والسورية) . والقاموس خال من التلفظ والصور الايضاحية وهو — كما ذكر «دونياك» — اقرب ما يكون ترجمة لقاموس اوكسفورد الانكليزي — الانكليزي .

د — الكنز — جروان السابق

وقد ظهرت طبعته الاولى سنة ١٩٧٤ ، ويحوي زهاء (٥١) الف مدخل ،

(١) انظر مثلا مقدمة ادوار الياس الياس للطبعة الثالثة والعشرين من قاموس الياس العصري ، الصادرة سنة ١٩٧٩ .

(٢) انظر مثلا مادة break (ص١٥٠ – ١٥٢)

(٣) انظر مثلا balance of trade, to bag, so bail for.

ويذكر التلفظ متبعاً نظام دانيال جونز . ويكثر المصنّف من ايراد المترادفات العربية في مقابل المفردة الانكليزية الواحدة .

• • • •

يلاحظ ان السنوات ١٩٧١ — ١٩٧٤ شهدت ظهور ثلاثة قواميس عامة كبيرة ، هي : المنار ، وأوكسفورد ، والكنز ، مما يعني استشعار اصحاب هذه القواميس ،لسنوات قبل ذلك ، حاجة المكتبة العربية إلى قاموس انكليزي — عربي عام حديث . غير ان الظاهر هو ان منير البعلبكي ، كان ابكر من زملائه في ادراك تلك الحاجة . ويلاحظ ايضاً ان قاموس «الكنز» كان الوحيد من بين القواميس الثلاثة المذكورة ، الذي اشار إلى التلفظ .

فاذا ما جئنا إلى «المورد» فسنرى انه ظهر اول ما ظهر سنة ١٩٦٧ ، وهذا يعني ان توقيت ظهوره كان موائماً كل المواءمة اذ ان المكتبة العربية خلت وقتها ، كما قلنا ، من قاموس انكليزي عربي حديث وعام وشامل . علاوة على هذا ، ساهمت شهرة المؤلف في عالم الترجمة في شهرة قاموسه ، حيث كان قد ترجم اعمالاً كثيرة قبل ذلك .

على ان هذا لا يعني ان شهرة القاموس نبعت من النقطتين السابقتين فقط ، اذ ان المورد يمتلك ميزات خاصة به ، ولعل اهمها :

١ — الشمولية ، حيث فاق في عدد مداخله القواميس التي سبقته والتي تلته ، حيث بلغ عدد مواده في طبعته الاولى (١٩٦٧) زهاء (٦٥) الف مادة .

٢ — الحداثة ، اي احتواء القاموس على مواد اللغة الانكليزية الحديثة ، فضلاً عن الكلمات القديمة archaic والمهجورة obsolete ، مع التنبيه على قدم الكلمة .

٣ — التلفظ ، حيث يذكر في اول القاموس مفاتيح التلفظ التي استخدمها في تضاعيف قاموسه .

٤ – محاولة اعطاء المقابل العربي الدقيق ، وتوضيح المعنى السياقي contextual meaning للكلمة ، وقد يكون ذلك بوضع الكلمة في جملة انكليزية او التعقيب على المقابل العربي بشرح يوضح سياقه الذي تستعمل الكلمة الانكليزية بموجبه ، مثل قوله في كلمة velocity : سرعة (الضوء الخ) .

٥ – ادخال ما اقرته المجامع (وخاصة مجمع اللغة المصري) من مصطلحات علمية وفنية في قاموسه .

٦ – تطويره سنوياً باضافة كلمات جديدة من دون تغيير لبنيته او عدد صفحاته

٧ – وجود صور ايضاحية .

جعلت الخصائص السابقة قاموس «المورد» يحظى بشهرة وذيوع ، بحيث يمكن القول ان اكثرية الذين يرجعون إلى القواميس الانكليزية العربية يفضلون «المورد» على غيره ، وبدليل ظهور (٢٤) طبعة له ما بين (١٩٦٧ – ١٩٩٠) ، وبدليل شيوع الفاظ «موردية» في وسائل الاعلام ، كشيوع كلمة الاصوليين ترجمة لكلمة fund amentalists (بدلا من السلفيين) وكلمة الاحفوريات ترجمة لكلمة fossils (بدلاً من متحجرات) وكلمة تجوية ترجمة لكلمة weathering ... الخ . وقد لا نبعد اذا ما قلنا ان الكلمة العربية الاولى التي يذكرها «المورد» في مقابل الكلمة الانكليزية قد تسيطر على المقابل العربي الذي يسود في اجهزة الاعلام ، ولعل هذا ما يفسر شيوع كلمة الاصوليين السابقة ، وشيوع ترجمة invoive بـ: «تورط» (في مثل : تورط دولة في عملية انقلاب في دولة اخرى ، مع ان العملية قد لا تكون «تورطاً» فعلا) . وقد لا نبالغ اذا ما ذهبنا إلى ان «المورد» ، بوصفه مرجعاً ترجمياً مهماً ، يمثل رافداً من روافد تشكيل العربية الفصحى المعاصرة .

ويتوجب القول ، قبل البدء بنقد القاموس ، انه ما زال ، إلى يومنا هذا ، افضل قاموس انكليزي عربي ، او في الاقل اكثر القواميس تداولاً بين المعنيين بهذا النوع من المعرفة .

٢ ـ ملاحظات نقدية : مدخل

يتقرر علم المعاجم lexicography مبدءاً عاماً وهو ان هناك انواعاً من المعاجم الثنائية اللغة bilingual dictionaries . فهناك النوع الذي يهدف فيه مصنفه إلى مساعدة القارىء على «استخدام» اللغة الاجنبية (ولذا تكثر فيه الجمل والامثلة المأخوذة من تلك اللغة الاجنبية) ، وهناك النوع الذي يرمي اساساً إلى ان يعين قراءه على فهم النصوص في اللغة الاجنبية (ومن ثم استقصاء لمعاني المفردات ، والاكثار من عدد المداخل ، والتركيز على الاستعمالات الفنية وغير الفنية ... الخ) علاوة على نوع القارىء فهل يفترض في القارىء ان يكون متقدماً في مستواه في اللغة الاجنبية (وبالتالي يتسم القاموس المقدم اليه بالشمول والسعة) ام مبتدئاً (ولذا يحرص القاموس على انتقاء الالفاظ المهمة والمعاني الشائعة) ام غير ذلك ،وفيما اذا كان القاموس موجهاً إلى الناطقين باللغة المصدر source language ام إلى الناطقين الاصليين باللغة الهدف trarget language ومن ثم تختلف مناحي تركيز القاموس حسب الاعتبارات السابقة ،من حيث طبيعة الشرح ، والمادة ، ... (٤) الخ . ونحن لا نجد في مقدمة مؤلف «المورد» اجابة دقيقة على تلك الاسئلة ، وان كان بوسعنا ان نستنتج ان المعجم يهدف إلى مساعدة القارىء العربي على فهم ما يواجهه من نصوص انكليزية . غير اننا اذا سلمنا بوجود هذا الهدف عند المؤلف ، فان ما يبرز امامنا هو السبب الذي حداه إلى يذكر جملة او عبارة انكليزية توضيحية واحدة في كل ٩,٨٦٩ مدلول sense (٥). وبالرغم من ذلك : فسيتبين لنا ان في «المورد» قصوراً حتى في تلبية هذه الحاجة ، اعني : حاجة القارىء العربي إلى فهم النصوص الانكليزية .

---

(٤) ينظر Ladislav Zusta, manual of Lexicography ص ٣٠٠ وما بعدها .

(٥) هذه النسبة من احصائية اجراها صاحب البحث على عشر صفحات من المورد(من التي تحمل رقم ١٠٠ ومضاعفاتها) . ولذا فهي عينة اعتباطية .

٣ – النظام الصوتي

يذكر البعلبكي في مقدمته انه اعتمد الرموز الصوتية الموجودة في قاموس «ويبستر» webster وفي قاموس The American College Dictionary . وبطبيعة الحال ، فان له الحق في اختيار اي من الرموز الصوتية التي تتبناها المعاجم المعتمدة ، وان كنت اظن ان هذا النظام الصوتي الذي تبناه ليس بالضرورة هو اسهل النظم واكثرها شهرة بين القراء العرب .

واذا تجاوزنا هذه المسألة ، فاننا سنجد ضمن رموزه الرمز Kh حيث قال انه يلفظ «كما في كلمة buch الالمانية».ولا شك انه يشير بذلك إلى صوت الخاء في بعض اللهجات ، كاللهجة الاسكتلندية . غير ان من الغريب حقاً ان يمثل لهذا الصوت بكلمة buch الالمانية ،في حين ان هذا الصوت موجود في العربية . اي كأن البعلبكي يطلب من القارىء العربي معرفة كيفية تلفظ كلمة المانية ليكون بوسعه معرفة كيفية نطقه بصوت عربي !

٤ – الانكليزية البريطانية والانكليزية الامريكية

يلاحظ ان المورد » لم يعر الفروق بين الانكليزية البريطانية والانكليزية الامريكية اهتماماً كبيراً ، ويتجلى ، ذلك في المظاهر الاتية :

آ – الرسم Spelling

يذكر البعلبكي في النقطة الثانية من « ارشادات عامة» في مقدمة المعجم أنه «اذا كان للمادة الواحدة اكثر من رسم واحد ... وورد الرسمان في السطر نفسه على غير مايقتضيه الترتيب الابجدي مفصولا مابينهما بلفظه or ، فمعنى ذلك ان طريقة الرسم الاولي قد تكون اكثر شيوعاً من طريقة الرسم الثانية ، وان لم تكن بالضرورة مفضلة عليها » . ومن امثلة ذلك honor or honour, harbor or harbour .. الخ مع .

ان المعروف ان الرسم بدون (u) في هذه الكلمات وعشرات غيرها ، رسم امريكي ، والرسم بها بريطاني ، ونجد أغفال هذا التمييز ،والاكتفاء بأستخدام كلمة or في كلمات اخرى كثيرة مثل toeater or theatre traveler'or troveller, wagon' or waggon .... الخ . ومع انه هذه الفروق مذكورة في كثير من القواميس الانكليزية البريطانية ، فان هورنبي Hornby في الاول في قاموسه Advanced Learner's Dictionary ذكرهذه الفروق ،وهو واحد من مراجع المورد المذكورة في قائمةمصادره .

ب — التلفظ

نجد في « المورد» اهمالا عاماً للتلفظ البريطاني للكلمات . ويشمل هذا الاهمالا صامتاً vowel كاملا ، مثل الفونيم الذي رمز اليه «المورد» بـ ô ، مثل lot,bond holiday, pot .... الخ .

علاوة على ذلك ، لانجد ذكراً للنطق البريطاني في كلمات عدة مثل tomato ,comrade وقد يذكر النطقين ، من غير تحديد لهوية الناطق ، ففي كلمات مثل lieutenant futile, reptile, نجد النطقين الامريكي ثم البريطاني ، من غير الاشارة الى هوية الناطقين .

وعلى عكس ماسلف ، فاننا نجد « المورد» يذكر الرمز (U) »ويمثل له بـ unity, acute وجرياً على ذلك فانه يشير الى تلفظ كلمات مثل tune, tube, duke,new على النحو الاتي [tūn], [tūb], [dūk], [nū] وهذا في واقع الحال هو التلفظ البريطاني لهذا الصوت ، في حين ان التلفظ الامريكي له هو نفس تلفظ الصوت الذي رمز له المورد ، نفسه بـ oo ، مثل boot, cool ، أي ان التلفظ الامريكي للكلمات ،

السابقة هو (مستخدمين رموز « المورد» نفسها) كان يجب ان يكون [toob] و [toon], [noo] ، [dook], . وهذا مايخالف التوجه الامريكي المهيمن على « المورد» .

ج — المعنى

قد يهمل «المورد» خلافاً لما وعدنا به في المقدمة ، الاشارة الى كون المعنى بريطانياً او امريكياً ، ففي المدخلين autem, fall مثلا
يذكر معنى الخريف في كل منهما ، من غير الاشارة الى بريطانية الاولى وامريكية الثانية . والامر نفسه ينطبق على (graduate, postgraduate) و (sweets, candy) و (flat, apartment) .... الخ .

٥ — الخلل في المقابل العربي

لاشك ان اعطاء المقابل الدقيق هو صلب مهمة المعجم الثنائي اللغة . ومع ان « المورد» أشار في مقدمته الى الاحتفاء بهذا الجانب ، فان الواقع يثبت انه زل في مواطن كثيرة ، ويمكن اجمال تلك المواطن بما يأتي :

آ — اختراع الكلمات

حاول صاحب « المورد» ، في عدة مواطن ، تقديم كلمة عربية واحدة مقابلا للكلمة الانكليزية الواحدة . وهذا جهد محمود ، اذا مانجح ، غير ان صاحب « المورد» مضي في محاولته الى مدى ابعد مما تحتمله اللغة العربية ، فصار ينحت ، باجتهاده هو ، كلمات من كلمتين او اكثر ، ويشيع اسلوبه هذا في حالة تكون الكلمة الأنكليزية من مورفيمين او اكثر ، وخاصة عندما يكون المورفيم الاول سابقة prefix للدلالة على النفي : والمورفيم

الثالث لاحقة Suffix للدلالة على تحويل الصيغة الى فعل . وهكذا نجد البعلبكي يخترع مثل الكلمات الاتية : يُنَزْرِق (= ينزع الرقابة عن) مقابل decontrol ويزأكج (= يزيل الاوكسجين من) مقابل deoxidize ويُزْنتر (= يزيل النتروجين من) مقابل denitrify .... الخ، بل انه قد يشتق من الكلمة التي اخترعها تصريفاً آخر ، فهو يقول في مقابل كلمة decorticate : يُنَزْلح : ينزع اللحاء ، ثم يقول في مقابل decorticator المنزلح ، فاشتق اسم فاعل من ينزلح السابق .

ولابد ههنا من الاشارة الى امرين ، الاول : هو ان البعلبكي حاول فرض منطق او طريقة لغة في التطور (وهي هنا اللغة الأنكليزية) على منطق وطريقة لغة اخرى في التطور ، وقد بات من المسلم خطأ هذا الأسلوب ، وقد نبه عليه من قبل الباحثين (٦) ، ومن المعروف في هذا الخصوص ان العربية لاتميل الى النحت (٧) ، الذي حاول البعلبكي توظيفه ، والامر الثاني : إنه لم يراع ماتقبله العربية وما لاتقبله في اجتماع الاصوات في الكلمة الواحدة ، فالعربية مثلا لاتقبل زأكج من غير ان يكون احد الاصوات الاربعة واحداً من حروف الذلاقة (٨) (وهي الراء واللام والنون والفاء والباء والميم) .

ب ـ الخطأ في المقابل العربي

وامثلة هذا النوع كثيرة لايمكن ان يحصيها هذا البحث ، غير ان بإمكاننا الاشارة الى بعض النماذج. يقول مثلا في تفسيره لمصطلح camp follower اللامنضوي: تابع او مريد غير منتسب رسمياً الى المنظمة التي يناصرها» ، والذي يفهم من هذا الكلام هو ان الشخص الذي يوصف بهذه الصفة

---

(٦) انظر مثلا Eugene A Nida, and Charles R Taber: The Tyeor and Practice of Translation PP. 34.

(٧) انظر تفصيل هذه المسألة في كتاب : فقه اللغة العربية ، د. كاصد ياسر الزيدي، ص ص ٣٣٠ - ٣٤٤ .

(٨) انظر : دراسة الصوت اللغوي ، د. احمد مختار عمر ، ص ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .

١ — يناصر منظمة ما٢ — غير منتم اليها رسمياً، ونجد في قاموس «لونكمن» للانكليزية المعاصرة Longman Dictrionary of Contemporary English ماترجمته « سياسي ينضم الى حزب او حركة لمنافع شخصية » ومعنى هذا ان الدلالة المركزية للكلمة، وهي عدم الانضواء، غير صحيحة، فضلا عن اغفال « المورد» لجانب الهدف من الانتهاء، فالمقابل العربي اذا هو : مصلحي .

ويقول « المورد» في معنى henchmon «تابع او، امين او موثوق »في حين يقول معجم « لونكمن » المذكور سابقاً «تستخدم بمعنى الاستخفاف عادة : مناصر مخلص ، وخاصة لزعيم سياسي ، يطيع بدون سؤال، وقد يستخدم اساليب عنيفة وغير شريفة » .وبالتالي فان اقرب مقابل عربي هو : ذنب او «من أزلام » .

ويقول في معنى التعبير neither here nor there لافي العير ولافي النفير » و المعروف ان معنى هذا المثل في العربية هو تافه ، عديم القيمة في حين نجد في معجم هورنبي ماترجمته « ليس في صلب الموضوع ، غير ذي صلة بالموضوع » ونجد في قاموس « لونكمن » مانصه : غير ذي صلة بالموضوع الذي يجري الحديث فيه ويضرب المثال الاتي

I know many people like the idea, but that's neither here mor there: we just can't afford it.

والنموذج الاخير الذي نذكره هو كلمة militant التي يفسرها « المورد» على انها « (١) مقاتل ،محارب، مشتبك في حرب او قتال (٢) مناضل « في حين يقول معجم « لونكمن » « تقال للاستهجان او التقدير ذو استعداد ،او يعبر عن استعداد للقتال او استخدام القوة ، يتخذ دوراً نشطاً

في حرب او معركة او نضال ، ولذا فربما كانت كلمة صدامي هي اوق مقابل.

ويدخل ضمن الأطار في المقابل العربي اجتهاده في وضع مقابل من عنده، وترك المقابل المشهور الذي يعطي المعنى المراد ، ويفهمه القارىء مباشـــرة . كقوله في مقابل bantamweight « ملاكم من وزن البنظم » والصواب هو : ملاكم من وزن الديك ، ويقول في مقابل التعبير tabula rasa « اللوح الاملس ، العقل قبـــل تلقيه ايةانطباعات خارجيـــه » والشائـــع في الأدبيات الفلسفية هو : صفحة بيضاء (٩) ، بدل اللوح الاملس .

ج — عدم استقصاء المعاني

ويقصد بذلك عدم ذكر كل معاني الكلمة ، وانما يهمل (وحتى طبعة ١٩٩٠) بعضها بالرغم من اهمية وشيوع المعاني المهملة .فنجده مثلا في ذكره معنـــى التعبيـــر all in all يقـــول « (١) الكل في الكل كل شيء (٢) تماماً » . واذا تركنا جانباً عدم دقة المدلول الثاني ، فان من الملاحظ انه لم يذكر المعنى الاخر المهم لهذا التعبير : وهو : اجمالا ، على العموم.

كمافاته ان يذكر معنى تحقيق النص القديـــم ضمـــن معانـــي كلمـــة edit ، ومعنى الذات (في الفلسفة) ضمن معاني كلمة subject و ـــى يتاخم او يجاور ضمن معاني الفعل fringe وغير ذلك .

د — اهمال الفروق الدقيقة

والمقصود بذلك ان المقابل العربي عند صاحب « المورد » لايكشف ، كلياً عن جوانب الكلمة الأنكليزية في مسائل تلعب دوراً في تميزها عن نظائرها من الكلمات ، ولعل اول مسألة يمكن ان نعرض لها هي عدم تمييز مقابلاته العربية في كثير من الكلمات ، للمكونات الدلالية semantic component

(٩) انظر مثلا : المعجم الفلسفي ، مجمع اللغة العربية ، ص ١٠٦ .

للكلمات ، فالمورد لا يفرق في شرحه العربي بين كلمتي bring /fetch ولا بيـــن wound/injure ولا بين edible/ eatadle ..... »).
مع ان القواميس المخصصة للاجانب (مثل معجـم هوربني) عنيت بهذا الجانب فضلا من وجود قواميس مفصلة للمترادفـات الانكليزية والفروق بين كل لفظة واخرى .

المسألة الاخرى التي لم يولها صاحب « المورد» اهمية كبيرة هي الجانب الاسلوبي ، من حيث رسمية formal او عـــدم رسميـــة informal الكلمة مثـــلا . فهو يذكر متقابلا لكلمة deem « ، يعتبر ، يعتقـد ، يحسب » ، في حين ان « يعد » هي المقابل الافضل(deem ويعتبر هـي المقابل الافضـــــل) consider ، لان الاولى رسميـــة والثانية اقل رسمية . والامر نفسه ينطبق علـــى كلمـــة exegesis ، حيث قال فيها ، تفسير ، تأويل ، والواقع ان العكس هو الصحيح اي تقديم التأويل على التفسيـــر ، فـــي حيـــن ان commentary ، مثـــلا ، هي التي تقابل « تفسير » لأن الكلمة الأولى رسميـــة فنيـــة technical والثانية معروفة . ومن الملاحظ ان صاحب المورد اورد ذكـــر كلمـــة exegesis في « المورد الصغير » مما يفهم منه عدم استشعاره لفنيتها ، الامر نفسه ينطبق على كلمات مثل commence, betake, bestow ... الخ .

ومن الجلي من هذا الاهمال ، ان القارىء لنص انكليزي المستعين بالمورد سيفهم النص الانكليزي فهماً قاصراً ، بسبب ما في «المورد » من قصور في هذا الميدان .

٦ — النقص

لاشك ان عدد المداخل التي يتضمنها معجم مايعتمدعلى الهدف الـــذي يصنف المعجم من اجله ، ولذا لانتوقع من معجم عام ، بحجم «المورد » ، ان يضم « كل » كلمة في اللغة الانكليزية. وربما كانت افضل طريقة للحكم

على مدى استيعاب ، او عدم استيعاب « المورد» للكلمات التي تدخل ضمن خطته وهدفه ، هي مقارنته بمعجم يمتلك خطوطاً مشتركة معه يمكن الحكم من خلالها بمدى تقصير «المورد » او تفوقه .

الامر الأخر الذي لابد ان نضعه في حسباننا ، عند تقويم المورد في هـذا الخصوص ، هو ان اختيار المداخل في المعجم الحديث لم تعد مسألة ذوقية اواختياراً فردياً ، بل ، أوكل الامر الى الحاسبات الألية والاحصاءات والاستقراء .

الأمر الثالث الذي لانستطيع اغفاله هو ان صاحب «المورد» يضيف كل سنة كلمات جديدة الى معجمه ، ومن ثم يصعب الحكم على « المورد »بأنه يفتقد ذكر هذه الكلمة او تلك ، اذ من غير المستبعد ان تظهر في السنة اللاحقة لهذا الحكم طبعة جديدة تتضمن الكلمات المفقودة .

وبناء على ماسبق ، وبغية اعطاء الفاصل الزمني المطلوب بين صدور المعجم الأنكليزي — الانكليزي (المقارب للمورد في الحجم والمماثل له في الهدف) وبين طبعة «المورد» المراد مقارنتها ، فقد اخترنا عدداً من القواميس الأنكليزية — الانكليزية التي صدرت سنة ١٩٧٨ أو قبلها ، وقارنتها بطبعة ١٩٩٠ من «المورد » (اي بفاصل زمني لايقل من ١٣ سنة) . وهذه القواميس الأنكليزية — الأنكليزية هي

— معجم اوكسفورد الوجيز The Concise oxford Dictionary (طبعة ١٩٦٥) .

— قاموس اوكسفورد للمتعلم المتقدم للانكليزية الجارية Oxford Advanced Learner's Dictionary of Current English تأليف أ . أ س . هوربني ، طبعة ١٩٧٥ .

— قاموس لونكمن للانكليزية المعاصرة Longman Dictionary of Contemporary English طبعة ١٩٧٨ .

وبمقارنه هذه المعاجم (التي تساوي المورد مادة ، او تقل عنه) ظهر ان «المورد » (وحتى طبعة ١٩٩٠) اهمل مواد بكاملها مثل .

. Upgrade, wadge, desalinize, Parameter, Palestine

علاوة على ماسبق ، نجد « المورد » يهمل اشتقاقات لكلمات كثيرة ،فهو لايذكر مجيء ، legion ،terrorist صفتين ، ولم يذكر الظرف steadily او الصفة Pervasive منpervade او المصدر reification من الفعل reify او implementation من الفعل implement.

ومما يمكن ان يدخل في باب النقص هو اننا نادراً مانجد ذكراً لحروف الجر التي تستخدم مع الأفعال او الصفات . والمعروف ان حروف الجر من المشكلات الصعبة في تعلم اللغات الأجنبية.فضلا عن ذلك فان اختلاف حروف الجر قد يؤدي الى اختلاف المعنى ، ف care for غير care about ، و angry with غير angry about كما ان معاني agree تختلف حسب مايليها فيما اذا كان with ،أم about أم on ، أم to . وهذه الأمثلة السابقة كلها (وغيرها كثير) لانجد لها اثراً في « المورد» ، في حين نجد المعجمات التي ذكرناها (وهي معاجم عامة مثل المورد ، وغير متخصصة ب phrasal verbs)) تنبه الى ذلك .

ومما يدخل ضمن الاطار السابق ان البعلبكي قد يذكر فعلا انكليزياً لازماً ولكنه يعطيه مقابلا عربياً متعديا ، مثل jink : يتفادى ، و jitter : ينرفز مما يعطي انطباعاً خاطئاً في هذه الناحية ،ففي الفعل equip يقول « المورد» :يزود او يكسو ب،مع ان المقابل الدقيق هو فعل متعد الى فعل واحد ، بدون ذكر حرف الجر . لان الفعل الانكليزي يأخذ مفعولا واحداً

من غير حرف جر ،ثم مفعولا ثانياً بحرف جر . وهو with ، ولذا لاداعي لذكر الباء في المقابل العربي ،الا اذا ذكرنا with. مع الفعل الأنكليزي .

٧ — التأصيل etymology

وعد المؤلف ، في المقدمة ،بتقديم اصول الكلمات الأنكليزية التي يذكرها في قاموسه . ونلاحظ في هذا الخصوص ان القواميس الأنكليزية — الأنكليزية التي تشير الى اصول الكلمات ، تلتزم عادة بثلاثة اشياء .

١ — الاشارة الى اصل الكلمة ، سواء أكان اصلا اجنبياً (كالهندية واللاتينية. ..الخ) أم غير اجنبي (انكليزية قديمة ..... الخ) .

٢ — ذكر الكلمة في اللغة الاقدم .

٣ — ذكر معنى الكلمة في اللغة الاقدم .

وحينما ننظر الى المورد لانجده يفي بما وعدنا في المقدمة ،اذ انه اقتصر على ذكر الأصول العربية للالفاظ ،والاصول غير العربية اذا كانت الاخيرة تفضح ،بتلفظها ،اصلها الاجنبي (كاللاتينية واليونانية والفرنسية بشكل خاص) وقد وازنا الكلمات التي جاءت في ص ٤٩٩ من حرف K في «المورد» والكلمات نفسها في قاموس كولنز للغة الانكليزية Collins English Dictionary فظهر ان « المورد» ذكر لغة اجنبية واحدة هي اليابانية في صفحة ضمت (٣١) مدخلا، ولم يشر الى اي اصل آخر ،في حين اشار قاموس كولنز السابق ذكره الى الأصل الأجنبي لـ (١٦) مدخلا ، والأصل الأنكليزي القديم والوسيط لخمسة مداخل اما البقية فكانت كلمات مركبة من كلمات ذكرت اصولها .

٨ — ملاحظات اضافية ونتائج

بوسعنا في ختام هذا البحث ، ان نشير الى الملاحظات والنتائج الاتية :

١ — يفيد « المورد » مستعمليه في الترجمة من الانكليزية الى العربية ، وفهم النصوص الانكليزية ، ولكنه قد لاينقل الصورة نقلاً واضحاً وكاملا ودقيقاً كما ينبغي .

٢ ــ لايسعف « المورد» من يريد ان ينتقي اللفظة الانكليزية المناسبة للتعبيـر عما يريد باللغة الانكليزية ــ ولابد للمترجم في هذه الحالة من الاستعانه بقاموس انكليزي ــ انكليزي بالاضافة الى المورد .

٣ ــ يتحمل « المورد» تبعات لغة عربية غير مخدومة ، بحيث لاتتوفر لـه السبل الكفيلة لسد النقص الذي وجدناه ، وخاصة في الانتقاء من بيـن المترادفات العربية. ويفترض ان يقوم المختصون باللغة العربية (لامصنفو المعاجم الانكليزية العربية) بهذا العمل .

٤ ــ ظهرت بعد صدور المورد العشرات من القواميس المتخصصة ،ويتوجب عليه ان يراجعها ليصحح الكثير من المقابلات العربية .

٥ ــ ينبغي على المؤلف الرجوع فعلا ، لا الأكتفاء وبمجرد الذكر في قائمة المصادر ، الى القواميس الأنكليزية البريطانية ، والقواميس الأنكليزية التي خصصت للاجانب .



المراجع

آ — العربية

— دراسة الصوت اللغوي؛ د .احمد مختار عمر ، ط ١ ، القاهرة ١٩٧٦.
— فقه اللغة العربية : د.كاصد ياسر الزيدي ،مطبعة جامعة الموصل ١٩٨٧.
— قاموس الياس العصري ،الياس انطوان الياس ، ط ٢٣ ، بيروت ١٩٧٩.
— الكنز — جروان سابق ، بيروت ١٩٧٤ .
— المعجم الفلسفي . مجمع اللغة العربية ، القاهرة ١٩٧٩ .
— المنار ، حسن سعيد الكرمي ، لونكمن ، ومكتبة لبنان ، ١٩٨١ .
— المورد . منير البعلبكي ،دار العلم للملايين ، بيروت ، ط١٩٦٧ ، ١٩٧٩ ، ١٩٨٢ ، ١٩٩٠ .

ب — الانكليزية

- Collins English Dictionary, collins, 1980.
- The Concise Oxford Dictio3avy, O.U.P.) 1965.
- Doniach, N.S —., The Oxford English-Arabic Dictionary, O.U:P.,1983.
- Hornby, A.S., Oxford Advanced Learner's Dictionary of Current Eng-ıish, O.U.P. 1975.
- Longman Dictionary of contemporary English, Longman, 1978.
- Nida, Eugen, and Taber, charle, R., The Theory and Practice of Trans-lation, Brill, Leiden, 1974.
- Zgusta, Ladislav, Manual of Lexicography, Monton, the Hague' Paris 1971.

صراع الشخصية بين القناع والواقع
في موسم الهجرة الى الشمال للطيب صالح

الدكتور
حسين يوسف
استاذ مساعد
كلية الاداب
قسم اللغة العربية

درست رواية موسم الهجرة الى الشمال للطيب الصالح من زوايا مختلفة ، عبرت عن وجهات نظر متباينة ، إلا اننا سنقتصر في هذا البحث على تناول عوالم مصطفى سعيد بطل هذه الرواية ،الذي وقع في شبكة من الظروف لم يستطع التخلص بها ، وعاش اسير عالمين في كل مرحلة من مراحل حياته سواء في لندن او في السودان . مما جعل منه شخصية روائية مركبة الى حد التناقض وقد نبهنا مصطفى سعيد نفسه الى تعدد العناصر التي تتكون منهـا شخصيته ، وحذرنا من النظر اليه بعين واحدة (١) . لذا فهو يعيش فـي عالمين دائماً ، عالم القناع يعيش فيه ويتكيف له ، وعالم اخر هو عالـم الواقع الذي يجد فيه نفسه ، ونرى مصطفى سعيد على حقيقته .

لقد صور الطيب صالح « مصطفى سعيد » ومنذ البداية بأنه يختلف عـن الاخرين ، فهو يتمتع بذكاء متقد ، وتفوق مستمر ، وتميز عن الاخريـن وطموح لامحدود ، واحساس بتفوقه الفردي . فقد تهيأت له اجواء قد تصل احياناً الى حد عدم التصديق ،فرحلته من السودان الى القاهرة ثم الى لندن ، وتجاوزه مختلف الظروف بسير وسهولة متناهية وكأن القدر وضع نفسه في خدمته ، وكل ذلك يوحي بأن لدينا وصفاً غير عادي لنشأة البطل و وشخصه (٢) .

(١) موسم الهجرة إلى الشمال ، الطيب صالح ، ص ٦٥ .
(٢) وهم العلاقة بين الشرق والغرب ،د. افنان القاسم ، مجلة الاقلام،عدد ١١ - ١٢،ص٩٢.

فقد دفع الى السير في هذا العالم دفعاً ولم يكن مختاراً ، وهو يدرك ذلك تماماً، فيتعجب من حياته قائلا « هل كان من الممكن تلافي شيء مما حدث»(٢)

(١)

تجسد حياة مصطفى سعيد في لندن جانبين يختلفان عن بعضهما كثيراً لم يتمكن من عقد الصلح او التآلف بينهما اطلاقاً ، ولو ان الروائي لايكشف عنهما امام القارىء في تسلسل زمني متعاقب .

ففي عالمه الاول « عالم الاقناع » نرى مصطفى سعيد شخصاً ذا عقلية متميزة ، وعقله المتميز هذا وضعه في الرابعة والعشرين من عمره في مركز استاذ للاقتصاد في جامعة لندن —وهو منصب ليس من السهل الحصول عليه سيما اذا كان الفرد اجنبياً — وعضو في جمعيات ونواد تخص بريطانيا وافريقيا معاً ، فقد امتلك قدرات علمية هائلة ، وادرك اهمية هذه القدرات إدراكاً عميقاً ، فحاول الاستفادة منها دائماً ، فضلا عن تمتعه بذكاء . مفرط مكنه من ان يرسم حول نفسه هالة من الاعجاب ، وهكذا تسلق بسهولة السلم الطبقي في المجتمع البريطاني ، وكون علاقات مع افراد الطبقة الأرستقراطية ، وشغل حيزاً بينهم « الرجل الأسود الوسيم المدلل لدى الأوساط ، المختلفة ، كان ، كما يبدو ، واجهة يعرضها افراد الطبقة الأرستقراطية للذين كانوا في العشرينات واوائل الثلاثينات يتظاهرون بالتحرر يقال انه كان صديقاً للورد فلان ولورد علان ، وكان ايضاً من الاثيريين عند اليسار الانكليزي » (٢٢) .

فقد استطاع بعبقريته ان يخضع لنفسه الناس بأسم الأفكار . والمعاني العامة ، وكان له بحق تأثير قوي على الكثيرين ، فالفلسفة ، والعلم والحياة نفسها

(١) الرواية ، ص ٣٢ ، ملاحظة : سنكتفي بكلمة «رواية» للاشارة الى موسم الهجرة الى الشمال من الصفحات التالية» .

(٢) الرواية ، ص ٦٢

لها النسبة له معان مغرية ، فهو ينمو امامنا كبنيان جمع كل شيء «عرفت أندية هامستد ، ومنتديات بلومزبري ، اقرأ الشعر ، واتحدث في الدين والفلسفة ، وانقد الرسم ، واقول كلاماً من روحانيات الشرق » (١) ، فهو متعدد المواهب ، له امكانات عقلية وثقافية كبيرة . وكان متحدثاً رائعاً وخطيباً مفوهماً«قلت لهم ان عمر الخيام لايساوي شيئاً الى جانب ابي نواس. وقرأت لهم من شعر ابي نواس في الخمر بطريقة خطابية مضحكة ،زاعماً أن تلك هي الطريقة التي كان الشعر العربي يلقى بها في العصر العباسي ،وقلت في المحاضرة ان ابا نواس كان متصوفاً ...... احس بالكلمات تتدفق على لساني كأنها معان سامية ،وكنت احس بالنشوة تسري مني الى الجمهور» (٢)

عاش مصطفى سعيد في قلب الحضارة آنذاك ، وكان جزءاً منها ، فيتحدث عن نفسه « ثلاثون عاماً وقاعة البرت تغص كل ليلة بعشاق بيتهوفن وباخ ، والمطابع تخرج آلاف الكتب في الفن والفكر ،مسرحيات برنارد شو تمثل في الرويال كورت والهيماركت ، كانت اديث ستول تغرد بالشعر ومسرح البرنس أوف ويلز يفيض بالشباب والألق ، الجزيرة مثل لحن عذب ، سعيد حزين ،في تحول سرابي مع تحول الفصول، ثلاثون عاماً وانا جزء من كل هذا » (٣) .واكثر من ذلك فهو لم يتمكن من التعايش مع هذا الواقع فحسب ، بل تمكن من التغلغل في بنيته الفكرية والعلمية (٤) . فبين رئيس لجمعية الكفاح لتحرير افريقيا ، الى مدرس في واحدة من ارقى الجامعات ، ومحاضر في الأقتصاد المبنى على الحب لا على الأرقام ، حيث اقام—في هذا المجال — على هذه الدعوة، هذا ما ورد على لسان آرثر هيغنز الاستار الذي درسه القانون في اكسفورد ، فضلا عن مؤلفاته الأقتصادية

(١) نفسه ، ص ٣٣ .
(٢) نفسه ، ص ١٤٤ .
(٣) نفسه ، ص ٤٠ .
(٤) البحث عن الشخصية الجديدة ، على الشرع ، ابحاث اليرموك ، عدد (٢) ، ص ١١.

العديدة «اقتصاد الأستعمار ، الأستعمار والاحتكار ، اغتصاب افريقيـــا ... الخ» ..

ويبدو ان هذه الكتب لقيت صدىً كبيراً بين اوساط المهتمين لهذا الموضوع ، لذا نجد ان بعضهم اعجب لها اعجاباً شديداً ، في الوقت الذي حاول الاخرون التقليل من شأنها وشأن افكار ودعوات مصطفى سعيـــد الأقتصادية ، فيقول احدهم معلقاً على ارائه ونظرياته « انني قرأت بعـــض ماكتب عما اسماه اقتصاد الأستعمار ،الصفة الغالبة على كتاباته ان احصائياته لم يكن يوثق بها . كان ينتمي الى المدرسة التي تختفي وراء ستار التعميـــم هروباً من مواجهة الحقائق المدعومة بارقام . العدالة ، المساواة ، الأشتراكية مجرد كلمات رجل الأقتصاد ليس كاتباً كتشارلز ديكنز » (١) . وذهـــب بعضهم الى ابعد من هذا النقد « انك يامستر سعيد رغم تفوقك العلمي، رجل غبي » (٢) .

ويبدو . انه كان يعلم ان طريقه هذا صعب ووعر ، اذ اراد ان يحقـــق لنفسه وجوداً في لندن ، فقرأ كل شيء يقع تحت يده ، ومكتبته التي تضم اعداداً هائلة من الكتب توحي بسعة معينه ، وعمق ثقافته ، وكثرة مطالعاته. فنجد من المجموعة الضخمه التي جمعها كتب في الأقتصاد والتأريخ والأدب وين ، جيبون ، ماكولي ، توينتي اعمال برناردشو هبسن ، توماس هاردي اي ، جي . مور ، فرجينيا وولف ، اينشتاين ، رحلات عليفرز ، تأريخ الثورة الفرنسية .... الخ ، كل ذلك يوحي بأن هذه الشخصية حاولت جاهدة استيعاب مايمكن استيعابه من ثقافة الغرب ، وهكذا بتجربته في هذا المجال كانت غنية ولها امتداد زمني دام ثلاثين عاماً ، تعامل مصطفى سعيد في هذا

(١) الرواية ، ص ٦١

(٢) نفسه ، ص ٦١

المجال بذكاء مفرط وسعي دؤوب اثار اعجاب اصدقائه واعدائه ، فاصبح جزءاً من عالم الفكر والثقافة ، واسماً لامعاً ذائع الصيت ، كل ذلك كان قناعاً تمكن من نسجه حول نفسه بدقة متناهية ، ولكن ماذا كان وراء كل ذلك القناع ؟ . مصطفى سعيد نفسه يحدد قائلا « انا لا اطلب المجد ، فمثلي لايطلب المجد » عبارة يكررها في ثنايا الروية اكثر من مرة ، اذن اين مصطفى سعيد الحقيقي عالمه الذي كان يجد فيه نفسه ، إن هذا يؤدي بنا الى ان ننظر الى الجانب الاخر من شخصيه الى عالمه الاخر الذي اسميناه عالم الواقع » ويقول مصطفى سعيد » كنت اعيش مع نظريات كينز و في النهار وبالليل اواصل الحرب بالقوس والسيف والرمح والنشاب » .

إن تشكيل عالمه هذا يختلف تماماً عن تشكيل عالمه الاول ، فهو يؤدي دوراً اخر بطريقة مختلفة ، فحين يتكلم عن الحياة الفكرية والفنية المسرح والشعر والموسيقى التي كان جزء منها ، يعيشها ولكنه لايحس بجمالها الحقيقي (١) ، لان ذلك لم يكن يعبر عن ذاته ، فاين يجد مصطفى سعيد الجمال الحقيقي ؟ . يحاول الطيب صالح القاء الضوء على عالم مصطفى سعيد الاخر من خلال علاقاته مع عدد من الشخصيات التي اراد البطل ان يخرجها من عالمها الخاص وادخالها الى عالمه هو بشتى الطرق ومختلف الوسائل .

فقد جعل من بيته الذي اقامه في قلب لندن جزءاً من العالم المفقود الذي يضع مصطفى سعيد نفسه فيه ، وكأنه بيت امير شرفي (٢) ، اجيد ترتيبه وتكوينه وزخرفته وتنظيمه ، فيه الكثير من سحر اجواء ليالي الف ليلة « الصندل والند — وريش النعام ، وتماثيل العاج والانبوس والصور والرسوم لغابات النخيل على النيل ، وقوارب على صفحة الماء اشرعتها كاجنحة

(١) الرواية ، ص ٤٠
(٢) ابطال في الصيرورة ، محيالدين صبحي ، ص ١٧

الحمام (١) » .وبيته بهذه المواصفات هو تارة مسرح يؤدي فيه ادواراً مختلفة ، وتارة وسيلة لخلق التأثير المطلوب على مشاعر وعواطف نسائه « غرفة نومي مخدعه من ريش النعام ، واضواء كهربائية صغيرة ، صفراء زرقاء ، وبنفسجية موضوعة في زوايا معينة » (٢) .

وهذه الأوصاف تتكرر في الرواية مرات عديدة ، مما يدل على انهـا تجسيد لدلالات رمزية اكثر من الوصف الواقعي ، فهو يقيم في عالمة هـذا بعيداً عن عالمه الاول وتبدأ انطلاقة مصطفى سعيد من خلال هذا المكـان الى فضاء عالمه الحقيقي ،فهو في علاقته مع شخصيات هذا العالم كان شغوفاً بالكذب واختلاق الاقاصيص بدرجه تمكنه من اختراع شتى تفاصيلهـا بحيث تبدو حقيقية .

« آن همند» طالبة من جامعة اكسفورد ، تدرس اللغات الشرقية ، تعرف عليها عندما كان يلقي محاضرة عن ابي نواس ، وكان منتشياً بالأكاذيـب تتدفق على لسانه ، وكان يحس بالنشوة تسري فيه الى الجمهور «وآن همند» واحدة منهم وقلت في المحاضرة ان ابا نواس كان متصوفاً ، وانه جعل من الخمر رمزاً حمله جميع اشواقه الروحية ، وان توقه الى الخمر في شعـره كان في الواقع توقاً الى الغناء في ذات الله .... لكني كنت ملهماً في تـلك الليلة ، احس بالاكاذيب تتدفق على لساني كأنها معان سامية » (٣) . وليس غريباً أنا تنجذب » أن همند» الى هذه الشخصية انجذاباً شديداً ، وهي فتاة مهتمة بالفلسفات الشرقية،وقد وقعت تحت تأثير هذه الفلسفات بشكل كبير ، ومترددة بين اعتناق الاسلام والبوذية ، فقد سحرت تماماً — بأجواء العالم الذي هيأه لها مصطفى سعيد ، لذلك نجدها تصور نفسها وكأنها تعيش

(١) المصدر السابق ، ص ١٤٧ .
(٢) نفسه ، ص ١٤٧ .
(٣) الرواية ، ص ١٤٤ .

عالم الف ليلة ، وتتصرف وكأنها جارية بحق «ركعت وقبلت قدمي وقالت : انت مصطفى مولاي وسيدي وانا سوسن جاريتك... قلت لها بصوت آمر : تعالي ، فاجابت بصوت خفيض : سمعاً وطاعة يامولاي (١) .

مصطفى سعيد يدرك ادراكاً عميقاً كيف يتبع طرقاً ملتوية مع شخصيات عالمه هذا فهو يعبر عن نفسه بهذا الشكل (٢).لذلك فهو تعامل معهم جميعاً بشكل واحد .

«فايزآبيلا سيمور» وجدت فيه الرجولة البدائية والبس لقاءه معها ثوباً مزرشاً كأنه بذلك وضع تحتها بساطاً طائراً يجوب بها افريقيا وصحراء العرب لتتخلص من زحام النفس (٣) » رويت لها حكايات ملفقه عن صحاري ذهبية الرمال ، وادغال تتصايح فيها حيوانات لاوجود لها ، قلت لها ان شوارع عاصمة بلادي تعج بالافيال والاسود ، وتزحف عليها التماسيح عند القيلولة ... وجاءت لحظة احسست فيها انني انقلبت في نظرها مخلوقاً بدائياً عارياً» (٤). بهذه الطريقة كان يحاول دائماً التعامل مع شخصيات عالمه ، وسرعان ما كن يضعفن حيال ذلك الشيء الغامض الذي يحاول ان يبنيه في داخلهن بحس إنسان فنان مجرب ، فيقعن اسرى لعالمه هذا ،ويؤخذن بسيل جارف من الأقوال التي لا اساس لها من الصحة (٥) ، ففي كل مرة كان يعزف المقطوعة التي تثير ، واللحن الذي يسحر المقابل ، فيقول «لايزابيلا سيمور »التي كانت من اصل اسباني« لابد ان جدي كان جندياً في جيش طارق بن زياد.......ولابد انه قابل جدتك وهي تجني العنب

(١) نفسه ، ص ١٤٨
(٢) في معرفة النص ، يمنى العيد ، ص ٢٦٥
(٣) مغزى الموت ، ابراهيم عبدالله ، الطليعة الادبية ، عدد (٢) ١٩٨٠ ، ص ٢٨
(٤) شرق وغرب ، جورج طرابيشي ، ص ١٥٨

في بستان اشبيلية وعاش معها فترة ، ثم تركها وذهب إلى افريقيا ....
وخرجت انا من سلالته في أفريقيا ،وانت جئت من سلالته في اسبانيا» (١)

ولم يختلف لقاؤه «بشيلا غرينوود» كثيراً عن لقاءاته السابقة ، فهي فتاة في مقتبل الشباب ،جذبها إلى عالمه واغراها بالهدايا والكلام المعسول ،والنظرة التي ترى الشيء فلا تخطئه «وقفت وقتاً تضحك لخيالها في المرآة ، وتعبث بعقد العاج الذي وضعته كانشوطة حول جيدها الجميل» (٢).

وتستمر اللعبة ، ومصطفى سعيد يعيش عالم واقعه إلى ان يلتقي بـ (جين مورس) او حسب تعبيره بـ (عالم جين مورس)الاسم الذي يشار اليه طول الرواية من بدايتها حتى نهايتها ، فهي امرأة التقاها صدفة في حفلة وكأنها سراب لمع فجأة في صحرائه ، او انها قدر كان مصطفى سعيد على موعد معه منذ فترة طويلة . وبلقائها تبدأ حياته تأخذ طابعاً اخر ، اذ تبدأ معاناته وعذابه معها ، فبعد مطاردة طويلة لها دامت ثلاث سنوات دون كلل ... يبدأ صراع حياته ، صراع عالمه القناع والواقع ، وتبدأ مأساته الحقيقية . وكان يدرك ذلك بنفسه «كل شيء حدث قبل لقائي اياها ، كان ارهاصاً ، وكل شيء فعلته بعد ان قتلتها كان اعتذاراً لا لقتلها ، بل لاكذوبة حياتي» (٣) ، فهي ترفض ان تنجر إلى عالمه ، إلا انه لم يستطع ان يتركها او يتخلى عنها ،على الرغم من عدم قناعته بسلامة موقفه هذا «وما اكثر ما سألت نفسي ما الذي يربطني بها . لماذا لاتركها وانجو بنفسي؟ولكنني كنت اعلم ان لا حيلة لي وان لا مفر من وقوع المأساة» (٤) .

ويبدو ان «جين مورس»نفسها كانت من طينة تشبه بشكل ما مصطفى سعيد

(١) الرواية ، ص ٤٦
(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٨
(٣) نفسه ، ص ٣٣
(٢) نفسه ، ص ١٦٤

نفسه، من حياتها الخاصة وسلوكها وفي خلق اشياء غير حقيقية، كانت تكذب حتى في ابسط الاشياء، تعود إلى البيت بقصص غريبة عن اشياء حدثت لها، واناس قابلتهم لا يمكن ان يصدقها العقل، ولا استبعد انها كانت عديمة الاهل كانت شهرزاد متسولة» (١).

فلم تفلح اساليب مصطفى سعيد معها، بل ان ارتباطه بها بهذه الصورة هيأ الساحة لصدام لا مفر منه، فالمأساة واقعة لا محالة، كان هناك قدراً مسبقاً وتوجيهاً. فبدأت هي اولاً في دكه معنوياً، والتلاعب باعصابه وتحطيم ثقته بنفسه (٢)، علاوة على تحطيم عالمه مادياً «فأشارت إلى مزهرية ثمينة من الموجودة على الرف، قالت تعطيني هذا .... اشرت موافقاً، اخذت المزهرية وهشمتها على الارض...اشارت إلى مخطوط عربي نادر على المنضدة .... قالت تعطيني هذا ايضاً .... اخذت المخطوط القديم النادر ومزقته وملأت فمها بقطع الورق ومضغتها وبصقتها. كأنها مضغت كبدي، اشارت إلى مصلاة من حرير اصفهان. أثمن شيء عندي اعز هدية على قلبي .. فأخذت المصلاة ورمتها في نار المدفأة، ووقفت تنظر بتلذذ إلى النار تلتهمها» (٣) كل هذا مقابل وعد بالاستسلام له، بيد ان الوعد لم يتحقق. لم يكن صراعه معها سهلاً، فقد خنقت حياته، بل خنقت كل شيء في داخله مما اضطره اخيراً إلى الموافقة على الزواج منها املاً في انهاء هذا الصراع ... الا ان ذلك كان بداية نهايته الحقيقية ولو ان الخيار لم يكن سهلاً، فلم يكن هناك امامه اي خيار على الاطلاق، ولم يكن بمقدوره الانفلات من اسرها. بل كانت تتحكم فيه كيفما تشاء. إلا انه لم يعد بمقدوره ايضاً تحمل طيشها ونزقها، وخداع نفسه وعدم القدرة على فهم الذات واتخاذ القرار. فاصبحت حياته

(١) نفسه، ص ١٠
(٢) نفسه، ص ١٥٩

(3) Tayed salh' mustapa saecd, m.shaheen Arab– Jourral for Humeures No. 16. vol. 184 p. 286

معها دون جدوى . وكلما ادرك ذلك اصبحت موضع ازدرائه بل احتقاره وكراهيته .وصمم ان ينتصر عليها وان تنال العقاب المناسب ،فانتهى به الامر إلى قتلها .

وسوضح عوالم مصطفى سعيد في هذه المرحلة من حياته بشكل اكبر اثناء المحاكمة فهناك لمحات كثيرة تلقي الضوء على ذلك ، ونستشف من تحقيق احد المحامين «اليس صحيحاً انك ... كنت تعيش مع خمس نساء في آن واحد؟ وانك كنت تعدهم كلاً منهن بالزواج ؟ ...وانك انتحلت اسماً مختلف مع كل منهن ؟ ... انك كنت حسن،وتشارلز،وامين ، ومصطفى ، ورتشاردز ومع ذلك كنت تكتب وتحاضرعن الاقتصاد المبني على الحب لا على الارقام؟ اليس صحيحاً انك اقمت شهرتك بدعوتك الانسانية من الاقتصاد؟» (١) . فعالماه موضحان هنا بشكل لا يقبل الشك ، وقد ادرك بنفسه لذا نجده يحاوره نفسه اثناء المحاكمة ويتمنى التخلص من هذه الازدواجية ويتخلص من معاناته فيقول : «ومرة خطر لي ... ان اقف واصرخ في المحكمة : «هذا المصطفى سعيد لا وجود له ، انه وهم اكذوبة ، وانني اطلب منكم ان تحكموا بقتل الاكذوبة» (٢) ويبدو هنا وكأننا امام شخصين ، احدهما يتكلم عن الاخر ولا علاقة بينهما ، وكأن احد عالميه يحاول اغتيال او التخلص من الاخر الذي اصبح ثقلا كبيراً عليه.وللدفاع نفس التصور عندما يحاول ان ينقذه من حبل المشنقة فيؤكد بانه انسان نبيل ، استوعب عقله حضارة الغرب،ولكنها حطمت قلبه» (٣) فقد استطاع ان يمتلك الحضارة بعقله ، لكن هذه الحضارة نفسها حطمت قلبه ، وهي المسؤولة عن ذلك ،فهو لم يكن جانياً بل مجنياً عليه ايضاً ولكن مصطفى سعيد يعلم بانهم لن يمنحوه الفرصة ، فرصة الخلاص ، فهو يحس بالصراع الذي يعانيه ولم يتمكن من ايقافه بل ادرك تماماً بان عالميه إنهارا كلياًلذا اراد ان يجدوا له سبيل الخلاص ويوفروا على انفسهم الجهد --

---

(١) نفسه ، ص ٣٨ - ٣٩ .

وهو غير قادر على الاستمرار في لعبة القناع والواقع بعد ... ويحكم عليه بالسجن سبع سنوات ، يغادر بعدها ، ويستقر في السودان ... في قرية من قراها وتبدأ مرحلة ثانية من حياته .

(٢)

يبدأ الطيب صالح روايته بهذه المرحلة من حياة مصطفى سعيد ، التي تجسد ايضاً عالمين مختلفين خلقهما لنفسه ، «عالم القناع» وهو عالم مجتمع القرية ، وعالمه الاخر «عالم الواقع» كما فعل في لندن تماماً .

سلك مصطفى سعيد السبيل نفسه في ان يكون جزءاً هاماً من هذا المجتمع ، وان يضع لنفسه بداية جديدة لحياته في هذه القرية ، بمنأى عن مظاهر الحضارة ، ويعيش الحياة هنا منسجماً مع اساطيرها وقصصها ومعتقداتها . فينصرف إلى حياة العمل التي تعيشها مثل هذه القرية النائية وكأنه واحد منهم فاشترى ارضاً وتزوج من احدى بنات القرية ، فاراد ان يحقق لنفسه وجوداً مادياً يرتبط به بين هؤلاء الناس، لذا لعبت شخصيته القوية دورها هنا ايضاً في رسم وتجسيد نمط حياته الجديدة ، واستطاع ان يستوعب طريقة تفكيرهم واسلوب معيشتهم وطبيعة مشاكلهم ، التي تبرز في ارتباط شديد بالبيئة المعيشية ، لذا فيرسم له احد افراد القرية صورة توحي بالرضا عنه وقبوله «إن مصطفى طوال اقامته في البلد ، لم يبدُ منه شيء منفر ، وانه يحضر صلاة الجمعة في المسجد بانتظام وانه يسارع بذراعه وقدمه في الافراح والاتراح» (١) .وفي حوار مع الراوي يبين مصطفى سعيد بأن هناك انسجاماً وتآلفاً بينه وبين هذا المكان فهذا هو العالم الذي كان يبحث عنه «كنت طوال حياتي اشتاق للاستقرار في هذا الجزء من القطر ، لا اعلم السبب ، وركبت الباخرة ، وانا لا اعلم وجهتي ، ولما رست في هذا البلد ، اعجبتني هيئتها وهجس هاجس في قلبي ، هذا هو المكان ، وهكذا كان ، كما ترى ، لم يخب ظني في البلد واهله» (٢) .

---

(١) الرواية ، ص ١٠
(٢) نفسه ، ص ١٤

واستطاع ان يعمل في اطار علاقة عادية مباشرة مع الناس والارض والحياة في بلده(١)، ولكي يغطي على شخصيته الحقيقية، بدأ بتحقيق وجود اجتماعي بينهم، وتمكن بطبيعته القوية العميقة والراغبة ان يحقق هذا الوجود، فاشترك في نشاطاتهم، وعمل على تغيير الاسس المادية للحياة عن طريق تطوير علاقات الانتاج (٢). وفعلاً اصبح عضواً في اللجنة الزراعية، واحتل موقعاً مهماً فيها وساهم في حل مشاكلها «إحتد النقاش وتصايحوا بعضهم على بعض .... رأيت مصطفى يهب واقفاً ... ولما فرغ من كلامه هز اغلب اعضاء الجمعية رؤوسهم استحساناً» (٣) ان هذا المقطع يوضح موقع ومكانة مصطفى سعيد وتأثيره على مجتمع القرية، المتكون من عمدة وتاجر واعضاء وكلهم من اولي الامر، وهذا حال مصطفى سعيد عليه ان يكون ذا جدارة، شخصاً من عجينة اخرى (٤). واسهم ايضاً بخبراته السابقة في تنظيم الجمعية، واستغلال موارد الجمعية المادية في تطوير جوانب عديدة من حياتهم «لقد ساعدنامساعدة قيمة في تنظيم الجمعية، كان يتولى الحسابات ... هو الذي اشار باستغلال ارباح المشروع في اقامة طاحونة للدقيق .. وهو الذي اشار علينا ايضاً بفتح وكان تعاوني» (٥). لقد اجاد مصطفى سعيد هنا ايضاً في اداء دوره اجادة تامة، فقد كان غريباً عنهم الا انه تمكن بفترة قصيرة ان يصبح جزءاً منهم، قبلوا به شخصاً جاء وتعاملوا معه حسب القوانين والمراسيم المعهودة، اشترى الارض فباعوه الارض، يريد ان يتزوج فزوجوه (٦). فاستطاع ان يحقق كل ما يصبو اليه، فعاش في تناسق وتواز عجيبين مع عالمه هنا، وكأنه قد

---

(١) في معرفة النص، ص ٢٥٧
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٥٨
(٣)
(٤) وهم اللاقة بين الشرق والغرب، ص ٩١
(٥) الرواية، ص
(٦) الطيب صالح عبقرية الرواية العربية، ص ١٣٤

عاش في هذه البيئة طول حياته ، وهذا ما يذكرنا «بعالم القناع» في لندن ، فقد أحسن في خلق كل شيىء هنا ايضاً .

الا انه لم يتمكن من الاستمرار في اللعبة ، فالانعطاف الكبير في مسيرة حياته في هذه المرحلة جاء بعد ان تعرف على الراوي(١) .فيحدث ذلك تحولاً كبيراً في حياته ، فهذا اللقاء يكشف لنا عن عالمه الحقيقي او ما نسميه «عالم الواقع »الذي كان قد اجاد في اخفائه عن المجتمع هنا . فقد احس الراوي ومنذ لقائه الاول به انه ليس شخصاً عادياً فيقول «لم يكن ثمة ادنى شك في ان الرجل من عجينة اخرى» (٢) .فسلوك مصطفى سعيد اثار الراوي في اكثر من لقاء بينهما«لم يغب‌عني ادبه الجم،فاهل بلدنا لا يبالون بعبارات المجاملة ، يدخلون في الموضوع دفعة واحدة» (٣) . وتتوثق العلاقة بينهما ، ويضطر مصطفى سعيد إلى ان يزيح القناع عن شخصه ، ويكشف عن حقيقته للراوي ، ففي مجلس شراب يتلو مصطفى سعيد وهو في حالة سكر شعراً بلغة انكليزية تحدث تأثيراً صاعقاً على الراوي ، فيتحول كل شيىء هناك في نظره إلى وهم من شدة الدهشة «اقول لكم لو ان عفريتاً انشقت عنه الارض فجأة ، ووقف امامي ، عيناه تقدحان اللهب ، لما ذعرت اكثر مما ذعرت ، وخامرني بغتة . شعور فضيع ، شيىء مثل الكابوس ، كأننا نحن الرجال المجتمعين في تلك الغرفة ، لم تكن حقيقة ، انما وهماً من الاوهام» (٤) .

ومن هنا يبدأ التصادم بين عالمي مصطفى سعيد، فمهما يحاول مراوغة الراوي الا ان الامور لا تسير كما يحلو له ، فوجوده هنا اصبح امام تساؤل كبير ، فليس بامكانه ابداً الجمع بين عالميه اكثر من ذلك ، وان الصدام بينهما قد بدأ فعلاً وانهما سينهاران لا محالة . لذلك يختار طريق الاختفاء من على هذا

(١) (الراوي) هو احد افراد ، درس في لندن لسبع سنوات ، رجع اليها حديثاً .
(٢) الرواية ، ص ١٦
(٣) نفسه ، ص ١١
(٤) نفسه ، ص ١٨

المسرح ويفعل ذلك. فمنذ استقراره في هذا البلد تراوح بين صورتين ويحصل اخفاء موقت لاحداهما على حساب الاخرى (١) . ففي الصورة الاولى لا نجد حضور هوية المثقف في تعامله اليومي مع الحياة ، بل يصر مصطفى سعيد على العمل على اخفاء هويته هذه ، ويحاول الغاءها من فعله اليومي (٢) . ونبدأ بالتعرف على عالمه الحقيقي «عالم الواقع» الذي كان قد حجبه بستار كبير عن اقرب الناس له .. ففي حوار بين الراوي وزوجة مصطفى سعيد نجدها تجهل عالمه هذا تماماً. «قلت : لماذا جاء هنا ؟. قالت : الله اعلم .... اظنه كان يخفي شيئاً . لاحقتها بالسؤال لماذا ؟. قالت : كان يقضي وقتاً طويلاً بالليل في تلك الغرفة .. وازددت ملاحظة : ماذا في تلك الغرفة ؟ قالت : لا ادري ، انا لم ادخله قط ، المفتاح معك لماذا لا تتحقق بنفسك» (٣) .

كان «عالم الواقع» هنا عالماً محدداً جداً يتناسب مع طبيعة هذا المجتمع ، فغرفته هذه جعل منها ميداناً لعالمه الخاص هو ، حتى انها تحولت إلى لغز من نظر الاخرين «قال لي محجوب بصوته المخمور: هل تدري ما بداخلها ، قلت له : (نعم) قال : ماذا؟ فقلت وانا اضحك تحت وطأة الخمر : لا شيىء لا شيىء اطلاقاً ، هذه الغرفة نكتة كبيرة كالحياة ، تحسب فيها سراً وليس فيها شيىء . قال محجوب : انت سكران هذه الغرفة مليئة من ارضها إلى سقفها بالكنوز ذهب وجواهر ودرر ولآلىء» (٤)، هذا هو انطباع الاخرين، ومنهم الراوي ، عن غرفة مصطفى سعيد المقفلة وعالمه الذي لم يره احد بعد . الا ان الحوار يستمر بين الشخصيتين في ربط واضح من قبل الروائي بين مصطفى سعيد وعالمه هذا «هل تعلم من هو مصطفى سعيد ؟ قلت له ان مصطفى سعيد اكذوبة ، وضحكت مرة اخرى ضحكة مخمور وقلت له : هل تريد ان

(١) وهم العلاقة ، افنان القاسم ، ص ٩٢
(٢) يمنى العيد ، ٢٥٦
(٣) الرواية : ص ٩٤
(٤) نفسه ، ص ١١٠

تعرف حقيقة مصطفى سعيد ؟ فقال محجوب : انت لست سكران بل مجنون ايضاً . مصطفى سعيد هو في الحقيقة نبي الله خضر ، يظهر فجأة ، ويغيب فجأة» (١) . ولم يستطع الراوي ان يستمر في مثل هذه الحالة من الترقب والحيرة ، فيقرر ولوج الغرفة «ادرت مفتاح الباب ، استقبلتني رطوبة من الداخل ورائحة مثل ذكرى قديمة — انني اعرف هذه الرائحة، ورائحة الصندل والند» (٢) . ان هذا الوصف يذكر القارىء بشكل لا يقبل الشك بغرفته في لندن فالمقارنة واضحة جداً تدل على تشابههما ، «فعالم الواقع» عند مصطفى سعيد هو واحد سوى ان المعادلة هنا مقلوبة. «عالم الواقع» عنده له خصوصيته تحمل سماته شخصيته دائماً : «مدفأة انكليزية بكامل هيئتها وعدّتها ، فوقها مظلة من النحاس وامامها مربع مبلط بالرخام الاخضر، ورف المدفأة من رخام ازرق ، وعلى جانبي المدفأة كرسيان فكتوريان مكسوان بقماش من حرير المشجر بينهما منضدة مستديرة عليها كتب ودفاتر» (٣) .

فالمكان والاثاث هنا لا يختلفان عن اية غرفة انكليزية في وسط لندن بكل ظلاله والوانه ، الغرب كله بكل ملامح الحياة فيه اودعها مصطفى سعيد غرفته اللغز (٤) .

وينتقل الراوي إلى ذكر كل ما احتفظ به مصطفى سعيد هنا من صور ولوحات مختلفة كل واحدة منها تمثل جانباً من جوانب تجاربه الفنية والمثيرة كأنه اراد ان يوثق كل شيء في حياته . فكل شيء هنا له معنى ، وكل شيء مرتبط بصميم شخصيته. وليس هناك اي شيء دون دلالة «ذهبت إلى الصور المصفوفة على الرف . مصطفى سعيد يضحك ، مصطفى سعيد يكتب ، مصطفى سعيد يسبح ، مصطفى سعيد في مكان من الريف، مصطفى سعيد في الزي الجامعي

---

(١) نفسه

(٢) نفسه ، ص

(٣) نفسه ، ص ١٣٧

(٤) البحث عن الشخصية ، علي الشرع ص ١٣

مصطفى سعيد لم يترك اية لحظة تمر الا وسجلها للذكرى والتاريخ» (١) . ثم يفصل الراوي في ذكر اهم ما في عالم مصطفى سعيد هنا رفوف كتبه وكأنه جمع كل ثقافة الغرب ، وما كتب في الفكر والفن والسياسة والاقتصاد اضافة إلى مؤلفاته هو : «علم الاجناس ، علم الاجتماع . علم النفس ، طوماس هاردي ، طوماس مان ، براولي ، دواوين شعر . يوميات غوردون ، طوماس كرلايل ، لورد اكتن ، كتب مجلدة بالجلدة ، كتب من اغلفة من الورق كتب مهلهلة قديمة ، كتب كأنها خرجت من المطبعة لتوها ... مجلدات ضخمة من حجم شواهد القبور .. كتب في صناديق ، كتب على الكراسي ، كتب على الارض ، اية دعاية هذه ؟ اودن ، فورد ، ستيفان زفايغ ، اي .جي . برادن ، لاسكي ، هازلت ، أليس في ارض العجائب ، رتشاردز ، القرآن بالانكلزية ، الانجيل بالانجليزية ، غلبرت مري ، افلاطون ، اقتصاد الاستعمار ....» (٢) اعداد هائلة من الكتب والمؤلفات لا حصر لها ، اضافة إلى اعماله العلمية الخاصة ، وكأنه اراد ان يجمع «كل تجاربه مع الحضارة الغربية ، الغرب كله : ثقافته ، انجازاته الفكرية العلمية ، معايير الحرية في الفكر والسلوك .. فنونه ، الحوار بين الاتجاهات الفكرية المتعارضة» (٣) ، الانسان هنا في عالم دون حدود ، عالم غرفة بينه وبين مجتمع القرية في السودان فارق ثقافي هائل ، وفجوة ليس بالامكان ردمها بسهولة ، عاش فيها بل وصنعها مصطفى سعيد ووجد نفسه فيها .

ويبدو مما سبق ان مصطفى سعيد كان يعاني في مرحلتي حياته بـ « عـدم شعوره بالانتماء » اي عدم تمكنه من تحقيق انتماء متكامل ، وربما كان من مدعاة ذلك هو عدم توحده مع اي من المجتمعين ، وعدم النظر الى نفسه بوصفه جزءاً من المجتمع ، سواءاً في بريطانيا او في السودان ، ان عدم التوحد مـع

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٤٠.

(٢) الرواية ، ص ٣٨ – ٣٩.

(٣) البحث عن الشخصية ، على الشرع ، ص ١٤.

المجتمع ،ومن ثم شعوره بعدم الأنتماء الى اي من المجتمعين ، ادى به الى قطع روابطه وشعوره بانعدام المعنى في وجوده ، بدليل هروبه في الحالة الاولى واختفائه في الحالة الثانية .

ففي لندن نجد بانه بذل جهوداً كبيرة موظفاً كل قدراته الذهنية ليكون جزءاً من المجتمع هناك ، فمع انه تمكن من تحقيق طموحه الفكري والعلمي ، إلا أنه لم ينجح في الوصول الى «انتماء اجتماعي » حقيقي ، فهو لم يتمكن من خلق وحدة بين عالم القناع وعالم الواقع ،وهذا يمثل الأشكال الذي تمركز فيه الصراع الذي عاشه مصطفى سعيد فنحن نتعرف على ملامح هذه الشخصية في الطفولة والصبا واهم ذكرياته في السودان والقاهرة في بداية حياته ، نستكشف منها حشاشة تركيبه الروحي والنفسي (١) على الرغم من مقدرات عقلية متميزة منذ الصغر ، لكن لم يتمكن فيما بعد من تشكيل شخصيته اجتماعية طبيعية قابلة للتكيف مع الظروف ، وتحويل معرفته العقلية الى نمط سلوك اجتماعي متسق (٢) . ورغم استمرار الحنين الى اقامة العلاقات والرغبة في ان يحقق نفسه اجتماعياً ،ولكنه لم يفلح في كل مرة. ولهذا بقي عالماه بعيدين عن بعضهما ولم يتمكن من توحيدها ، وكانت استجابته عالم لندن الكبير بذوات متباينة ،غير ملتزم تجاه المجتمع بأي شكل ، وليس لديه – وحسب قناعته – اي سبب في الحفاظ على شخصية فكان لـه السبب الواضح في اتخاذ اي دور يشاء ،ودفعه هذا الشعور على فعل مايقوم به في كل الأحوال ، هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى كان مصطفى سعيد يعي جيداً وضعه ، ويعرف تماماً طبيعـة المجتمع المحيط به ، وكان يحس بالضعف حياله.وبعدم قدرته على تحقيق وجود متكامل فيه ، والرواية تشير الى هذا الامر بشكل واضح وعلى لسان اكثر من شخصية ،ويدركه هو

---

(١) المصدر نفسه ،ص١٠-١١ .
(٢) نفسه ص ١١

نفسه ادراكاً كبيراً، فقد كانتذكيره بأنه افريقي يعزز نظرتهبأنه ليس بأمكانه أن يأخذ مكانه الصحيح في هذا المجتمع ، فيقول له كبير المحامين « انــت يامستر سعيد خير مثال على ان مهمتنا الحضارية في افريقيا عديمة الجدوى فانت بعد كل المجهودات التي بذلناها في تثقيفك تخرج من الغابـــة لاول مرة » (١) ، ويعلق مصطفى سعيد على مجموعة المحلفين اثناء محاكمتــه «اشتات من الناس،منهم العامل والطبيب والمزارع والمعلم والتاجر والحانوتي، لاتجمع بيني وبينهم صلة .لو اني طلبت استئجار غرفة في بيت احدهــم . فأغلب الظن انه سيرفض ، واذا جاءت ابنة احدهم تقول اني سأتزوج هـذا الرجل .... فيحس حتماً بأن العالم سينهار تحت رجليه »(٢) .

وتقول له شيلا كرينوود ، امي ستجن وابي سيقتلني اذا علما انني احبك او انني على علاقة بشخص مثلك (٣) . فلم يتمكن من التجاوب لمثل هذه الاعتبارات التي كان يحس بها احساساً عميقاً ، فهو حتى حين يكون ، صادقاً مع نفسه في«عالم الواقع » يكون مجبراًان يكون كاذباً مع الاخريــن فيلجأ الى المراءاة والمخادعة ، معتمداً على ألاعيب كلامية وادوار مستعارة ، مما ادى الى توسيع الفجوة بين عالم القناع وعالم الواقع .ويضيق عالم الواقع بحيث لانتخطى بيئه ،والصراع الذي تجسد بعد ذلك نتيجة محاولته ردم هذه الفجوة بين هذين العالمين كان سبب انهيارها ، ومن ثم نهايته هو .

اما في السودان فالمعادلة كانت مقلوبة فقد تمكن من تحقيق ، انتمـــاء اجتماعي إلا أنه لم يتمكن من تحقيق انتماء فكري .فالحياة من تلك القرية المزريه ، ونمط العيشة،وما ينطوي عليه من تفاهة وخواء وركود ولاحركة كل ذلك كانفي تناقض مباشر مع الثقافة العصرية التي يمتلكها مصطفى سعيد صحيح انه كان يبحث عن بداية جديدة،وقد يكون قد وجدها فعلا ، إلا انه لم

---

(١) الرويه ، ص ٧٢ .
(٢) الرواية ، ص ١٤٠.
(٣) الرواية ، ص ٩٦ — ٩٧.

يستطع ان يتواصل مع ذلك فكرياً فهو هنا لايعـيش مع الناس ولايعايشهم يختلط بهم ولافي لطهم وليعامل منهم من خلال قناع مزارع قدماه من الطين ومن عقوبة ارقى الثقافات » (١) . لذا فبنى لنفسه عالماً خاصاً يكون فيه هو نفسـه دون قناع .

ولكنه لم يستطع ان يستمر على هذا المنوال لأن نداءاً بعيداً يتردد من اذنـه « ظننت ان حياتي وزواجي هنا سيسكتانه ، ولكني لعلي خلقت هكذا ، او مصيري هكذا ، لا ادري، انني اعرف بعقلي مايجب فعله ..... ولكن اشياء مبهمة في روحي وفي دمي تدفعني الى مناطق بعيدة تتراءى لي ولايمكن تجاهلها» (٢) ففضل الرحيل او الأختفاء .

فمصطفى سعيد في مرحلتي حياته كان يمتلك القدرة الشخصية الكبيـرة القابلة على الخلق لا تضاهى ، فقد اجاد في خلق عوالمه سواءاً في لندن اوفي السودان اجادة رائعة، إلا انه لم يتمكن من خلق انسجام وتوافق بينهما ، ونتيجة لتصادم عالميه ، وتعقد موقفه يقع من تناقض شديد مع المجتمع ومع نفسـه مهما اجادت نسج خيوط بنائه في الحالتين ، فينهار العالمان معاً بسبب هـذا التصادم . وقد شغل موضوع الصدام هذا حيزاً في الرواية ، واولاه الروائي اهمية كبيرة ، لانه يمثل نقطة اللقاء بين قناع البطل وواقعه ، ونقطة النهايـة من مسيرة حياته ، ولم يكن بمقدر مصطفى سعيد تحاشي هذا الصدام في كلتا الحالتين ، بل كان يحاول التخلص منه بشتى السبل فلم يفلح .

وكان رد فعله في الحلقة الاولى قوياً عنيفاً ، ادى الا ارتكابه جريمة قتل رد فعل مواز لقوة الصدام، بينما نجد في المرة الثانية اختار الأختفاء ، فتأتي في كل مرة اللحظة الحاسمة، عندما يقف وسطاً بين عالمين المتناقضين «القناع والواقع » للذين سرعان مايصطدمان فتكون نهاية درامية له .

---

(١) الطيب صالح عبقرية الرواية العربية ، ص ١٤٩.
(٢) الرواية ، ص ٧٠ - ٧١.

المصادر

١ ــ ابطال في الصيرورة ، دراسات في الرواية العربية والمعربة ،
محيي الدين صبحي ، بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٨٠ م ــ.
٢ ــ البحث عن الشخصية الجديدة في موسم الهجرة الى الشمال ،
علي الشرع ، ابحاث اليرموك ، المجلد الخامس ، العدد الثاني ،
١٩٨٧ م .
٣ ــ شرق وغرب ،
جورج طرابيش ، ط٣ ، بيروت : دار الطليعة للطباعة والنشر ،١٩٧٩ .
٤ ــ الطيب صالح ، عبقرية الرواية العربية ،
احمد سعيد محمدية (واخرون) ، بيروت ،دار العودة ، ١٩٨١ .
٥ ــ في مغرفة النص (دراسات في النقد الأدبي)
حكمت صباح الخطيب (يُمنى العيد) ، بيروت ، دار الافاق الجديدة ،
ب ت .
٦ ــ مغزى الموت في ادب الطيب صالح الروائي
عبد الله ابراهيم ، الطليعة الأدبية ، وزارة الثقافة ، بغداد ، العـــدد
الثاني ، السنة السادسة ، شباط ١٩٨٠ م .
٧ ــ موسم الهجرة الى الشمال ،
الطيب صالح ، بيروت ، دار العودة ، ١٩٧٢ م.
٨ ــ موسم الهجرة الى الشمال او وهم العلاقة بين الشرق والغرب ،
افنان القاسم ، مجلة الاقلام،وزارة الثقافة ، بغداد ، العدد ١١ ــ١٢،
كانون الأول ــ ١٩٨٦ .

المصادر الانكليزية

9– **Toyeb Salih's Mustafa Sa'eed: The Southern Invader in Icy Battlefield,** Mohamed Shaheen, Arab Journal For the Humanities, No. 10. Vol. 14. Autumn, 1984.

النقد الأدبي بين الفن والعلم

د. جهاد المجالي
قسم اللغة العربية
كلية الاداب
جامعة مؤته

ملخص

يعرض هذا البحث لموضوع الامر من حيث كونه علماً او فناً . ولقد توصل إلى ان النقد الأدبي عمل إبداعي كاي نوع من أنواع الفنون الأخرى وإن اشترك مع العلم في بعض السمات ، فهو فن قائم بذاته ولا يحرمه ارتباطه بالفنون الأخرى من ان يكون عملا إبداعياً . والأهم من ذلك ان النقد الأدبي يستند إلى ملكة الذوق ، فالشاعر او الأديب يخلق ليتذوق ، أما الناقد فيتذوق ليخلق . وهذه الملكة الفطرية (الذوق) لايمكن ان تتحقق بالأكتساب مـــن خلال الدراسة والممارسة ، والاهتداء بالمعايير والقواعد الموضوعة ، مما يجعل الناقد ولادة ، أي انه يولد كما يولد اي فنان .

Abstract

This paper investigates the nature of literary criticism,whether it is a science or an art.The researcher concluded that literary criticism is an art and a creative process, though it carries some scientific trait. The most significant reason for regarding literary criticism as an art is its reliance on thecritic's faculty that cannot learned or acquired.

تقديم

شغل موضوع النقد الأدبي من حيث كونه علماً او فناً لكثيرين من النقاد، فمنهم من كان ينظر إلى النقد الأدبي على أنه علم كبقية العلوم له منهجه وتجاربه وادواته، ومنهم من ذهب إلى انه موضوع ذاتي يستند الى ملكة الذوق في المقام الأول وماتبعثه النصوص في نفس الناقد من انفعالات ، ومنهم من كان يراوح بين العلم والفن في نظرته لهذا الموضوع .

ويجب ان نقرر منذ البداية ان الفصل في هذه القضية ليس بالأمر اليسير بسبب تشابك الخيوط واختلاط الحدود ما بين النقد الأدبي والعلم من جهة ، وما بين النقد الأدبي والفن من جهة اخرى . وعلى الرغم من صعوبة الفصل في هذا الموضوع إلا أننا نستطيع القول بأن النقد الأدبي عمل إبداعي كأي نوع من انواع الفنون الأخرى ، وإن كانت النظرة العاجلة تدفع الى الظن بأن سمات العلم هي الغالبة عليه ، ونحن لاننكر ان بعض سمات النقد هي أقرب إلى العلم منها إلى الفن ، فالنقد يعتمد على قواعد ومعايير ، وهو يستند إلى التسلسل المنطقي ، ويقوم إلى حد كبير على الوعي ، لأن هدفه توضيح الأثارة الفنية ولفت الوعي إلى مواطن الجمال في الاثر الفني ولكن على الرغم من هذه السمات التي تقرب النقد من دائرة البحث العلمي فإن فيه من السمات مايقربه من الأنتاج الابداعي ، ولايعني اشتراكه مع العلم في بعض السمات ان ننفيه من دائرة الإبداع الفني ، فحتى الفنون على اختلاف أنواعها فيها من سمات العلم الكثير ، ومع ذلك فإنها لاتستبعد من دائرة الفن ، فالشعر على سبيل المثال هو خلقٌ فني ، اساسه القدرة المتميزة في التعبير عن خلجات النفس ونقل الإحساس بها إلى الآخرين . والإبداع في النقد هو القدرة الفائقة على تقدير هذا الخلق الفني ، سواء أكان هذا التقدير مستنداً الى منهج ذاتي قوامه التذوق أم اعتمد معايير موضوعية تبني عليها أحكام محددة تؤدي الى مثل ذلك التقدير ،

فالادب يستند إلى ملكة الخلق بينما يستند النقد إلى ملكة الذوق. وبعبارة اخرى فإن الشاعر او الأديب يخلق ليتذوق، اما الناقد فيتذوق ليخلق. فطريق النقد الحقيقي هو طريق الابداع ولكن مع الأختلاف في نقطة الأنطلاق، فبينما يكون الفراغ من القصيدة عند الشاعر هو نقطة النهاية، فإنه عند الناقد نقطة البداية (١). وللفصل في هذه القضية كان لابد من اتباع منهج يعتمد الإجابة عن الأسئلة الثلاثة التالية:

هل النقد الأدبي فن قائم بذاته أم أنه تابع يعيش على هامش الادب؟
هل النقد الأدبي طبع موهبة أم اكتساب؟
هل يخضع النقد الأدبي لموضوعية العلم وقواعده الثابتة ام أنه فن ذاتي يعتمد على الإحساس والتأثر قبل التحليل والتفكير؟

استقلالية النقد الأدبي

إن النقد الأدبي فن قائم بذاته وإن كان هناك من ينظر إليه على انه تابع يعيش على هامش الأدب ولايستطيع الأستقلال عن الفنون التي يتعامل معها كما اشار إلى ذلك إليوت T.S.Eliot (٢). وقد ذهب وردزورث W. Wordsworth إلى ابعد من ذلك حينما عد النقد ملكة من ملكات العقل أقل شأناً من ملكة الأبداع والابتكار، وتمنى على النقاد ان يصرفوا اوقاتهم فيما هو اجدى عليهم من النقد (٣). ونحن إذ نستغرب صدور مثل هذا الرأي عن أناس لايفتقرون إلى الفطنة والتمرس في مجال النقد لنتذكر ذلك النفور القديم الجديد بين النقاد والشعراء. وتبرم الشعراء بالوصاية التي يدعيها النقاد عليهم (٤).

وللرد على مثل تلك الدعوى التي تجرد النقد من اهميته، وتنظر إليه على أنه تابع يعيش على هامش الفنون الأخرى نقول إن ارتباط النقد بالفنون الأخرى لايحرمه ابداً ان يكون عملا ابداعياً مثل الشعر والموسيقى وسائر

انواع الفنون الأخرى . وهذا الأرتباط لايفترق عن ارتباط الفنون بموادها ، كارتباط الشعر باللغة ،والرسم بالأصباغ ، وهذا لايسلب هذه الفنون استقلالها ولايطمس شخصيتها . واوضح دليل على استقلالية النقد في العصر الحديث عن الفنون التي تشكل مادته أنه يضطر في كثير من الأحيان إلى الخروج من إسار هذه الفنون الى افاق الفنون والعلوم الأخرى مثل علم اللغة والمنطق،وعلم النفس ، وعلوم الانثروبولوجيا . والعلوم الرياضية والطبيعية ليتخذ منهـا وسائل تعينه ، على النفاذ إلى صميم العمل الفني وتحليل المادة الفنية واستيعاب طرق تشكيلها (٥) ونحن نقر مع من يقول ان النقد يقوم على الأعمال الفنية . وانه لو لم تكن هذه الأعمال لما كان النقد ، ولكننا لانتفق مع من يقـول ان النقد عبث لا طائل منه ولا غناء فيه ، اللهم إلا إذا كان المقصود ذلك النقـد السطحي الذي يتناوله غير الأكفاء ، اما النقد الحقيقي فهو من حق الناقد كما ان الكتابة من حق الكاتب ، ونتساءل : ما حال الفنون فيما لو يكن النقد ؟ إن نظرة متفحصة للأمر تقود الى الأستنتاج بأن الفنون تتكيء على النقد تماماً كما يتكيء النقد على هذه الفنون ، فالمبدعون يستمدون عزمهم من الجمهور الذي يبدعون فنونهم من اجله ، وبالتحديد من النقاد الذين يوجهونهم ويـزنـون اعمالهم الفنية،فلو لم يقبل عليهم الجمهور ، ولو لم يجدوا من بينه من يصغي إليهم ويتعهدهم بالتوجيه والتشجيع لما واصلوا طريقهم ،ولما كان لأصواتهم صدى ، وصدى أصوات المبدعين هو الجمهور ، والنقاد بالتحديد ، وصدى الفنون بالتالي هو النقد ، ولعل حال المبدع مع الناقد كحال صاحب المصنـع الذي إذا لم يجد من يقبل على مايصنع اضطر الى اغلاق مصنعه ، وكما يقول طه حسين ، والمهم ان الأديب مهما يكن امره كائن اجتماعي لايستطيع ان ينفرد ولا ان يستقل بحياته الأدبية ولايستقيم له امر إلا إذا اشتدت الصلة بينه وبين الناس فكان صدى لحياتهم وكانوا صدى لانتاجه (٦) .

والنقد في كثير من الأحيان يرسم للأدباء طريقهم ، ويمدهم بموضوعاتهم فإذا كان الأديب يرسم صورة الحياة بما يسلطه من ضوء على زواياها المعتمة ، فإن الناقد مكمل لهذه الصورة بأكتشافه لأبعادها وتوضيحه لجوانبها وتوجيهه لمنشئها ، وكثيراً ما نجد بعض الأدباء يتحولون عن منهجهم الفني بسبب توجيه النقاد لهم (٧) .

وأبعد من ذلك فالناقد هو العين التي نرى من خلالها ما لاتصل إليه ابصارنا ، وهو كثيراً مايجسد بتعبيره أحساسيسنا التي نحاول التعبير عنها دون جدوى فهو كمن يكتشف ارضاً بكرا لم تطئها قبله قدم ، او كما يقول سكوت جيمس Scott James فإنه كالمراقب الأول الذي يسير على سكة الحديد المنجزة لفحصها ، فيختبر دقة صنعها ومدى تحملها إلى غير ذلك ، قبل ان يزدحم السير عليها فينكشف عيبها (٨) ، ولهذا فلا عجب ان لازم النقد الأدب منذ طفولته ، فمنذ قيل اول عمل ادبي وجد النقد ، وربما ظهر اول ناقد بعد أول شاعر .

وهكذا فإن النقد ضرورة ملحة للأدب في كل وقت ، وكل منهما مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالاخر ، ولو اعترضنا غياب النقد عن الساحة الأدبية في اي مجتمع لما استطعنا تصور حالة التخبط والضياع التي سوف يعاني منها ، ولان الادب أكثر اتصالا بجوانب حياة الإنسان وتأثيراً فيها كان احوج الى النقد ، ومن انطباعات النقاد وملاحظاتهم على الادباء يمكن التعرف على الأنسان اكثر مما يتيحه الادب نفسه ، لان النقاد قد يدركون مالايدركه الأديب ، فتكون اراؤهم اكثر دقة واقرب الى الصواب لان الحياة الأجتماعية لامة من الامم تعرف من اراء النقاد اكثر مما تعرف من الأدب نفسه (٩) .

النقد الأدبي وذاتية الفن

إن الاصل في النقد الادبي هو التجربة الشخصية مع النص الادبي ومـا

يحدثه من أثر في نفس الناقد ، وهكذا فإن ذوق الناقد هو العامل الشخصي الذي يكشف عن قيمة النص ، فالناقد لايعطي النص قيمته ، وإنما مهمته في الكشف عن هذه القيمة وتقديرها واستخراج قيم جديدة . وبهذا فهو كالفنان في توتر متصل للابداع ، وكما يقول ميخائيل نعيمة إذا كان الفنان او الشاعر مبدع الاثر الفني ، فإن الناقد مبدع قيمة هذا الاثر . تماماً مثل الصائغ الذي لم يخلق الذهب والماس ولكنه خلقهما لكل من لايعرف قيمتهما ، فلولاه لما عرفنا الذهب من النحاس او الزجاج من الماس (١٠) .

ولايدرك قيمة الاثر الفني إلا من امتلك الحس المرهف والقريحة المتوقدة التي تمكنه من الغوص على أعماق النص واستشفاف ابعاده وقيمه ، فهو إنسان يختلف عن غيره من حيث الدرجة لا النوع ، إذ يمتلك قدراً من الحساسية الحية اكثر من غيره . ودراية اشمل بطبيعة الخلق الفني ، وروحاً اقدر على النفاذ إلى جوهر الأشياء فالناقد المتميز هو الذي يجعل من النقد شكلا من الحس خاصاً به . فيكون مبدعاً عندما يسبق الى الكشف عن روح جديدة في النص لم يصل إليها ناقد قبله ، ولاحتى مبدع النص نفسه (١١) ، وقد يغيب عن اذهان كثير من الناس ان الناقد قد يصل في القصيدة إلى اكثر مما أودعه مبدعها فيها ، فعجز الناقد عن قرض الشعر لا يحول بينه وبين إدراك ما في كنهه من خبايا النفس ومكنوناتها ، وإلا فإنه لايكون ناقداً متميزاً ، وهو إن استطاع ذلك فإنه يمر بمرحلة المخاض التي مر بها الشاعر ، فيتمثل الحالة النفسية التي عانى لواعجها ، وعندها يستطيع النفاذ إلى روح الشاعر ، فيصبح كأنه الشاعر - مبدع القصيدة - فكما ان الشاعر يعد مبدعاً لأن روحه تستطيع اختراق حدود العالم المحسوس فتنفذ إلى ماوراء العالم المادي الظاهر فإن الناقد كذلك مبدع لأن روحه تتمكن من النفاذ خلف روح الشاعر فترصدها في حركاتها وسكناتها (١٢) ولايمكن ان يتاح له ذلك إلا اذا عرف الحياة معرفة لا تقل عن معرفة الفنان، وامتلك بعضاً من إحساساته تجاه ذلك الجانب

من الحياة الذي يمثله ، وعندها فقط يستطيع الولوج إلى عالم الفنان (١٣) ، ويساوي نعيمة بين روح الخلق الأدبي وروح النقد الأدبي ، مبيناً انه لاقيمة مطلقاً للتفريق بين المبدعين والناقدين إلا إذا كانوا من ناقدي الدرجة الثانية .
يقول :وفي اعتقادي ان الروح التي تتمكن من اللحاق بروح كبيرة في كل نزعاتها وتجوالها ، فتسلك مسالكها وتستوحي موحياتها ، وتصعد وتهبط صعودها وهبوطها هي روح كبيرة مثلها (١٤) فالنقاد الذين اكتشفوا شكسبير وغيره من اصحاب العبقريات الخالدة لم يكونوا اقل منهم ، إذ لولاهم لما عرفنا شكسبير ولااستوقفتنا عبقريته (١٥).

صحيح ان الفنان هو القائد الذي يختار موضوعه من الحياة ويشخصه بطريقته التي يراها ، ولكن قد يخالفه الناقد الرأي فيحاول أخذ القيادة منه : لان الناقد الحق ، الذي يتسع الوجود البشري لنظرته المدققة مثلما اتسع للفنان قد يعلن رفضه قائلا : لا ، فلتبدأ من حيث تبدأ ولكن الحياة يجب ان تكون هكذا أو كذاك وليس كما اردت ان تعرضها» وعندها يتحول الناقد الى فنان مبدع عندما يختطف القلم من يد الفنان ليريه ماعليه ان يكتب .

وهكذا فإن عمل الناقد قريب جداً من عمل الكاتب المبدع، وإذا كان النقد علماً بمعنى معين فهو كما يقول سينت بيف Sainte Beuve فن يتطلب فناناً ذكياً -« والشعر لايقترب منه الإشاعر - » وذلك لأن عملية إعادة البناء التي يقوم بها الناقد تحمله فوق الأرض التي سار عليها الفنان بالأصل ، غير أنها ليست الأرض نفسها تماماً . ونحن إذ نتحدث هنا عن الناقد إنما نعني الناقد الفنان ، لأنه قد يكون الناقد شارحاً لغوياً او شارحاً ادبياً ، وقد يكون مؤرخاً يعالج أثر المجتمع في الفنون ، او تأثير الفنون في تغيير المجتمع ، او قد يكون غير ذلك ، ولكنه إذا اراد ان يكون فناناً ، كما نريد له ، فعليه الا يبتعد عن وجهة نظر الفنان هذه ابداً (١٦) .

وهكذا فإن الناقد ولادة ، يولد كما يولد الشاعر او اي فنان ، فهو ينطلق مبدعاً ويحيا كذلك ، ولذلك فإنه لايمكن ان ينظر إليه خارج دائرة الإبداع . ومن هنا فإننا نجد قلة من الناس يستطيعون ان يكونوا نقاداً حقيقيين (١٧) ، لأن الناقد الحقيقي هو الذي يتجاوز حدود التفسير والشرح ، وبيان المآخذ والمحاسن ، والتقيد بالقواعد المفروضة إلى استخراج القيم الجديدة (١٨) .

والنقد لايمكن ان يكون هو والعلم سواء بسواء ، إذ لابد من تدخل العنصر الشخصي فيه ، سواء أكان هذا النقد ذاتياً ام موضوعياً ، فكل ما في الأمر ان درجات الموضوعية والذاتية تتباين من ناقد لاخر . فاختفاء العنصر الشخصي اختفاءً تاماً أمر غير مرغوب فيه وغير ممكن ما دام إنكار الحقيقة لايلغي وجودها إذ ان هذا العنصر الشخصي الذي نحاول التغاضي عن دوره سرعان مايتسلل إلى اعمالنا ويعمل غير خاضع لقاعدة : لأن الأنطباعية اساس عمل الناقد (١٩) . فالعنصر الشخصي هذا هو الذي يعطي لكل ناقد سماته الخاصة وشخصيته المستقلة ، وإلا فإنه لو اختفى هذا العنصر لما كانت هناك فروق ملحوظة بين ناقد وآخر ، ولما استقل كل ناقد بشخصيته الخاصة ، فخطر اختفاء الجانب الشخصي من الذوق على النقد وعلى شخصية الناقد لايقل بحال من الأحوال عن بقاء هذا الذوق في مجاله المحدود الخاص ، فالمهم ان يستند الذوق الخاص إلى الفكر المشترك فيهذب بالثقافة ويشذب بالممارسة ليصبح ما يصدر عنه من اراء اكثر قبولا وفهما ، فينتقل بذلك من مجاله المحدود الخاص إلى المجال الواسع العام (٢٠) .

النقد وثقافة الناقد

ولمن ينظر إلى النقد على انه اقرب الى العلم بسبب اعتماده على الثقافة والفكر والجهد نقول إن الفن ايضاً جهد وفكر وثقافة تسند الملكة الفطرية لدى الفنان ، ولولا هذا الجانب الواعي في العمل الفني لما استثيرت الموهبة الفنية . ولما استطاع الفنان ان يكون مبدعاً ، ولعل في قول الأصمعي دليلا على

مايتطلبه الشعر من ثقافة وخبره لايصير الشاعر من غيرها شاعرا يقول لايصير الشاعر في قريض الشعر فحلا حتى يروي اشعار العرب ، ويسمع الاخبـــار ، و يعرف المعاني ، وأول ذلك ان يعلم العروض ، ليكون ميزاناً له على قوله : والنحو ليصلح به لسانه وليقيم به إعرابه ،والنسب وايام الناس ،ليستعين بذلك على معرفة المناقب والمثالب وذكرهم بمدح أو ذم ، (٢١) ولعل فـــي مدرسة المنقحين للشعر والمحككين له مثل زهير ، صاحب الحوليات ، والنابغة وطفيل الغنوي ، والحطيئة ، والنمر بن تولب وغيرهم خير مثال على مايتطلبه الشعر من فكر وجهد وعرق ، إذ كانت القصيدة تمكث حولا كريتاً عنـــد زهير قبل ان يذيعها بين الناس وهو يهذب فيها ويصلح من شأنها حتى اطلق الاصمعي عليه وعلى النابغة لقب « عبيد الشعر» (٢٢) .

وهكذا فإن الشعر يعتمد على الفكر والثقافة والخبرة ، ولكنها مجتمعـــة لاتعني شيئاً من غير الموهبة او الطبع الذي هو الأصل ، فالموهبة في الشعـــر تبقى قاصرة من غير ان تستند الى العناصر الاخرى التي تصقلها وتهذبها .

والنقد لايقل عن الشعر بحال في اعتماده على المعرفة . يقول سهل بـــن هارون : وليس يعرف حقائق مقادير المعاني : ومحصول حدود لطائـــف الامور ، إلا عالم حكيم ، ومعتدل الأخلاط عليم «(٢٣) فالنقد من حيـــث هو علم – إن جاز التعبير – لابد وان يعين النقاد على تقدير الادب بما يثريهـــم به من معارف وعلوم ، وبما يكسبهم من خبرة ودراية . فالناقد يتعلم اصـــول مهنته كما يتعلم كل إنسان أصول مهنته من خلال المدارسة والممارسة الطويلة وبما يبذل من جهد دائب ، وكلما اتسعت ثقافة الناقد أو الاديب أتسع امامــه مجال البيان والقدرة على التصوير » فمن أوتى طبعاً دراكاً مبيناً وضاقت معارفه فهو ضيق المجال لايرتقي عن العامة واشباه العامة » (٢٤) .

ولكن الناقد الحقيقي لايمكن ان يبرز من خلال القراءة وحدها ، فالقـراءة والمتابعة قد تخلق دارساً ، ولكن أنى لها ان تخلق ناقداً : لان الناقد ولادة كما

اسلفنا ، فسعة الثقافة وغزارة المعرفة لايمكن بحال من الاحوال ان تغني عن الطبع ، أو توجد الذوق عند من لاذوق عنده » فمن أوتي معرفة ولم يرزق الطبع المبين المصور فهو عالم ليس له في الأدب مجال« (٢٥) . وقديماً ادرك النقاد العرب هذه الحقيقة فنجد ان ابن الاثير ينبه على ذلك قائلاً : «واعلم ايها الناظر في كتابي ان مدار علم البيان على حكم الذوق السليم ، الذي هو انفع من ذوق التعليم» (٢٦) فتلك امور نظرية تنير العقل ولكنها لا تكسب الذوق او الطبع مرانة وابتكاراً ، وقد ادرك الجاحظ ايضاً هذه الحقيقة عندما قال : «طلبت علم الشعر عند الاصمعي فوجدته لا يعرف إلا غريبه ، فرجعت إلى الاخفش فألفيته لا يتقن الا اعرابه ، فعطفت على ابي عبيدة فرأيته لا ينقد إلا ما اتصل بالاخبار ،وتعلق بالايام والانساب ، فلم اظفر بما اردت الا عند ادباء الكتاب كالحسن بن وهب (٢٧) . ويعلق الصاحب بن عباد على ذلك قائلاً : «فلله ابوعثمان لقد غاص على سر الشعر ، فاستخرج ما هو ادق من الشعر (٢٨) وقد اكد الصاحب نفسه ما ذهب اليه الجاحظ حين روى انه لا يستطيع نقد الشعر إلا من دُفع في مضايقه ، واما العلماء واللغويون فإنهم يدركون الخطأ والصواب الصحيح والمعتل ، واما البصر بمواضع القبح والجمال ، او مجاوزة استقامة الكلام إلى نقد جودته فليس من عملهم (٢٩) وهكذا فإن تقدير الشعر ليس نشاطاً نقدياً في المقام الأول ،وانما هو نشاط ابداعي (٣٠) وليس الناقد ، كما يقول اناتول فرانس ، قاضياً يصدر الاحكام على العمل وفق خطأ لفظي او استحالة في المعنى ، وإنما هو روح حساسة تفصل مخاطراتها في دنيا الاعمال الفنية العظيمة (٣١) .

النقد الأدبي بين موضوعية العلم وذاتية الفن

والنقد يعتمد على القواعد والاصول المقررة ، ولكن هل تصنع هذه العناصر وحدها ناقداً ؟ وهل يصح ان نعد النقد علماً بسبب اعتماده على هذه القواعد والاصول ؟

إن قواعد النقد الادبي واصوله ليست كافية وحدها لتصنع ناقداً لا يملك قابلية ادبية ، ولا يمكن لها ان توجد الذوق الادبي عند من لا يمتلكه ، فهي قوة تمييز فطرية لا يمكن ان تتحقق بالاكتساب من خلال المدارسة والممارسة ، والاهتداء بالمعايير والقواعد الموضوعة ، فهي التي توجد القواعد والمعايير ، وليس العكس . فلا يوجد ثمة وصف في قائمة او تحليل فني يستطيع ان يحل محل احساس العين امام لوحة فنية او احساس الاذن عند الاستماع إلى قطعة موسيقية، وهكذا فإننا لن نستطيع تقييم اثر فني دون ان نعرض انفسنا تعريضاً مباشراً لتأثيره (٣٢) ، او ليس هذا ما كان يقصده الآمدي بقوله : «ويبقى ما لم يمكن اخراجه إلى البيان ، ولا إظهاره إلى الاحتجاج ، وهو علة ما لا يعرف الا بالدربة ودائم التجربة وطول الملابسة (٣٣) . فالجمال بكل اشكاله ليس اموراً حسية ذات قياسات واطوال يستطاع قياسها بالادوات الحسية، بل هو قيم معنوية لا تستجلى بغير الاذواق السليمة، تلك الأذواق التي لا تخضع للقواعد والمقاييس الجامدة كما هو الحال في الامور العلمية : فلو كان اساس النقد قواعد واصول يكتفي الناقد تعلمها والتدرب عليها لكان حاله حال من يتمرن على السباحة دون ان يلقي بنفسه في اليم (٣٤) .

والنقد من حيث هو فن دراسة النصوص وتمييز الاساليب لا بد له من الاستعانة بضروب من المعارف تكمن ضرورتها في شحذ طبع الناقد وإثراء عقله، ولكن ليس لاستخدامها في وضع قواعد وقوانين عامة للأدب، فما وافق من الأدب تلك القوانين كان جيداً ، وما خرج عنها كان رديئاً ، فمثل هذه القواعد والقوانين او ما قد يسمى بـ «علم الأدب» امر ثبت فشله ، لأنه يتعارض مع الاصالة التي تميز اديباً عن اديب ، فالاصالة شيء ذاتي يعسر رده إلى غيره ؛ فهي مجموعة الخصائص التي تميز روحاً عن روح ، ولم يوجد بعد العلم الذي يستطيع ان يصل إلى ذلك السر الذي يميز روحاً عن روح . او الذي يستطيع ان يعلل لنا التفاوت بين كبار الأدباء ، وإلا فلماذا لم يكن كل شاعر المتنبي او

شكسبير؟فلا المكان ولا الزمان ولا البيئة يمكن ان تفسر لنا التفاوت الكبير بين بيير كورني واخيه توما كورني او بين ابي تمام والبحتري او الفرزدق وجرير (٣٥) .

وحتى مبادىء علم الجمال وعلم النفس وغيرها من القواعد والمقاييس يمكن ان تفتح افاقاً للتفكير ولكنها غير قادرة على ان تبصرنا بجمال موضعي نتوق إلى تبينه في هذا البيت او ذاك(٣٦) ثم ان علم النفس لا يزال غير قادر على سَبْرُ غور عملية الابداع الفني وفهم شخصية المبدع كما اعترف بذلك بعض كبار علماء النفس (٣٧)؛وذلك لأن نفوس خالقي الادب نفوس اصيلة ولكل منها سمات ونزعات مختلفة وتطابقها مع غيرها امر اقرب إلى الاستحالة فكيف يصدق تطبيق قوانين علم النفس العامة عليها؛ التي يشك ابلغ الشك في تطبيقها على العاديين من الناس؛وحتى عندما يحدثنا الاديب او الفنان عن نفسه الخاصة ؛فإنما يحدثنا عن اسرار فنه هو مما لا يدع مجالاً لتعميمات العلم (٣٨). يقول نعيمة : «والعمل الفني عملية معقدة لأنه عمل نفساني ، وليس حديثنا عن تكوينه ونموه في نفس الفنان ؛ ثم عن ولادته ؛ غير ضرب من الرجـم بالغيب ، فكيف بتذوقه وتفهمه من قبل الذين لم يحبلوا به ولم يلدوه ؟ انه لأمر يعود في النهاية إلى فطرة المتذوق والمتفهم ، وإلى مزاجه وميله وثقافته ومجمل تركيبه الجسداني والعقلاني والروحاني . لذلك لم يخضع تقدير الفن ولن يخضع لقياسات «علمية» وسيبقى عملية فردية لا تنقاد إلى التصنيـف العلمي» (٣٩) . ويستشهد مندور بـــرأي سانت بـــيف "Sainte Beuev" الذي يؤكد على ان النقد فن،ولا يجوز ان يمارسه غير الفنان: «إن النقد لا يمكن ان يصبح علماً وضعياً ، وسيبقى دائماً فناً دقيقاً في يد من يحاولون استخدامه وإن يكن قد اخذ يستفيد ؛ واستفاد بالفعل من كل ما انتهى اليه العلم ، او كشف عنه التاريخ من حقائق» (٤٠) . فالنقد الادبي قبل كل شيء يقوم على

تحليل النص ذاته في القراءة الثانية تحليلا متكاملا لتلم بكل ما يتعلق به ، وهي الطريقة التي تخلص لغايتها إخلاصاً يمكنها من البقاء في ميدانها دون التطفل على ميادين اخرى ؛ لأن الناقد الذي يعالج النص المنقود من خلال التحليل النفسي يجوز عده من علماء النفس بقدر ما يعد من نقاد الأدب ، والناقد الذي ينظر إلى النص المنقود من خلال رؤية اجتماعية يسعى من خلالها لاعتبار النص وثيقة تدل على اوضاع اجتماعية معينة يمكن تصنيفه في عداد علماء الاجتماع بقدر ما يصنف ضمن نقاد الأدب ، ولكن الناقد الحقيقي هو الذي يركز كل جهده على تحليل النص الأدبي نفسه (٤١) . فخير له ان يناقش نصاً ادبياً مناقشة مستفيضة ، يقف عند ادق دقائقه من ان يصرف جهده ووقته في تحليل نظريات علم النفس وعلم الجمال التي لن تصل إلى صقل ذوق او تشكيل إدراك أدبي ، فقد يكون من المفيد ان يمزج الناقد الأدبي بين الجانب الذوقي ونتائج الدراسات النفسية ، ولكن مايخشى منه هو ان يغرق الناقد نفسه في مثل هذه النظريات ويسرف في استخدام مصطلحات علم النفس إلى الحد الذي ينسى معه ان تقويم العمل الأدبي فنياً هو من شأن النقد الأدبي ، فيتحول التحليل النفسي الى مناقشات جافة خالية من الجمال ، أقرب ما تكون إلى علم النفس منها إلى الأدب(٤٢) ، والواقع ان علم النفس كما يقول ستانلي هايمن لم يستطع تفسير جمال الاثر الفني ، ولذا فان كل هذه الدراسات المتكئة على علم النفس بقيت نظرية محضة لم تستطع سبر غور النص الأدبي وتبين مافيه من الإبداع او إشراقة الجمال (٤٢) وهكذا فقد ظلت المواجهة المباشرة للنص هي الأساس في تبين جمال الأثر الفني .

ولقد اشتط بعضهم في الدعوة إلى محاولة الاستفادة في دراسة الأدب من الأبحاث والتجارب العلمية داعين إلى ان يكون النقد علماً له معادلاته الخاصة في سبيل إكسابه ثبات المعرفة العلمية وتفادي تأثرية الذوق ، وهنا يقول لانسون واستخدام المعادلات العلمية في اعمالنا بعيد عن ان يزيد من قيمتها العلمية .

هو على العكس ينقص منها إذ ان تلك المعادلات ليست في الحقيقة إلا سراباً باطلا عندما تعبر في دقة حاسمة عن معارف غير دقيقة بطبيعتها .ومن ثـــم تفسدها » (٤٤).ويرى لانسون ان الأصطلاح العلمي حينما يستخدم في الأدب لايلقي غير ضوء كاذب ،بل قد يلقي ظلمة :ولذلك فإن ما يجب ان نفكر في اخذه من العلم هو روحه التي تكمن في النزوع نحو المعرفة والأمانة العقليـة القاسية والصبر الدؤوب ، ويضيف بأننا إذا فكرنا في مناهج العلوم فيجب أن يتجه تفكيرنا نحو اكثرها عموماً من أجل إثارة ضمائرنا اكثر من ان يكـون لبناء معارفنا (٤٥) .

فالخطر في محاولة إخضاع النقد الأدبي لقواعد العلم واساليبه الصرفـة يكمن في ان العلم يتطور على ارض ممهدة ومن خلال حقائق ثابتة افرزهـا التمحيص واكدتها التجارب ، اما النقد الأدبي فإنه يتعامل مع العواطف التي لاتتبدل اسسها في النفس الأنسانية والتي لاتحتمل حدية العلم ولاتطيق قسوة التجارب ؛ بل يهدينا فيه الإحساس قبل التفكير المنطقي والبحث العلمي ،فنحن إذ نميل الى رأي معين فإننا نميل إليه لأنه يتفق وأذواقنا :ولهذا كان التقديـر والإعجاب يسبق النقد والتحليل(٤٦) ،وبالإضافة الى ذلك فإن الذوق مختلف باختلاف الأفراد حتى الأكفاء منهم ؛ متغير بتغير الزمان والمكان وليس هذا من طبيعة العلم ذي القوانين العامة الثابتة الذي لايتأثر بالملاحظات الفردية ولا الزمان أو المكان ، ثم ان عالم الأدب عالم عريض وفنونه كثيرة ، وخواصه البيـانية والأسلوبية غير محدودة مما يؤدي الى استحالة إخضاعه لقواعد وقـوانيـن ثابتة (٤٧) ؛ وقد اشار سينتسبري Saintsbury إلى انه ليس من الممكن ان يكون النقد الأدبي علماً إلا في حالة استخدام كلمة« علمـي» في غير معناها الحقيقي : لأن الخواص الجوهرية للأدب والفن ذاتية تستنـد إلى الذوق الخاص مما ينافي طبيعة العلم (٤٨) ، وهكذا يبرز أمام جمهـور الناقدين عسر تطبيق القواعد والمقاييس العامة او الصيغ المشتركة على جميع الأدباء :

خاتمة

يحاول هذا البحث الأجابة عن السؤال التالي : هل النقد الأدبي فن ام علم ؟ وعلى الرغم من صعوبة التفصل في هذه القضية بسبب اختلاط الحدود ما بين النقد الأدبي والعلم من جهة ، وما بين النقد الأدبي والفن من جهة اخـــرى توصل هذا البحث إلى ان النقد الأدبي عمل إبداعي كأي نوع من أنواع الفنون الأخرى بالرغم من اشتراكه مع العلم في بعض السمات ، فهو فن قائم بذاته وارتباطه بالفنون الأخرى لايحرمه من ان يكون عملا ابداعياً مثل الشعـــر والموسيقى وغير ذلك، وهذا الأرتباط لا يفترق بحال من الأحوال عن ارتباط الفنون بموادها كأرتباط الشعر باللغة ، والرسم بالأصباغ وبالأضافة الى ذلك فإن النقد الأدبي يستند الى ملكة الذوق، تلك الملكة الفطرية التي لايمكن ان تتحقق بالأكتساب من خلال الدراسة والممارسة . والأهتداء بمقاييس العلم وقواعده الموضوعة . فإذا كان الفنان او الشاعر مبدع الاثر الفني ، فإن الناقد مبدع قيمة هذا الأثر ، فيكون مبدعاً عندما يسبق الى الكشف عن روح جديدة في النص لم يصل إليها ناقد قبله، حينما تتمكن روحه من النفاذ خلف روح الشاعر فترصدها في كل حركاتها وسكناتها ، وهكذا فإن تقدير الشعر ليس نشاطاً نقدياً في المقام الأول، وإنما هو نشاط إبداعي ، فلا قيمة مطلقاً للتفريق بين المبدعين والناقدين إلا اذا كانوا من ناقدي الدرجة الثانية .

ومن هنا فإن النقد الأدبي ابداع فني عماده ذوق الناقد وحسه الخاص ، ولايمكن ان يصبح علماً وضعياً ، او ان يخضع لقياسات العلم وقواعده العامة وإن يكن قد استفاد ويستفيد مما ينتهي إليه العلم في بعض الأحيان .

المراجع

(1) Paul Vallery: "The Course in Poetics: First Lesson:" *In The Creative Process* ed. Brewster Ghiselin, Univ of California Press, 1985, 95–96.

(2) T.S. Eliot: "The Function of Criticism": In *20th Century Criticism*, ed. David Lodge, 1st ed, Longman, London, 1972, 78.

وانظر ايضاً علي أسعد : « النقد والعملية الإبداعية » ، مجلة الآداب ، عدد كانون ثاني ١٩٦١ : ١٠٧ وما بعدها .

(٣) انظر :

Mathew Arnold: "The Function of Criticism at the Present Time", In *Critical Theory Since Plato*, ed. Hazard Adams, Harcourt Brace Jovanovich, U.S.A., 1971, 583

(٤) انظر في ذلك الجمحي : محمد بن سلام (ت.٢٣٢ د/ ٨٤٦م) : طبقات فحول الشعراء تحقيق محمود شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ١/٧ : وانظر ايضاً الصاحب إبن عباد (ت ٣٨٥ د/٩٩٥م) : الكشف عن مساويء المتنبي – ضمن كتاب العميدي الابانة عن سرقات المتنبي ، تحقيق ابراهيم الدسوقي ، دار المعارف ، القاهرة ، ٢٤٤ – ٢٤٥ .

(٥) انظر علي أسعد : « النقد والعملية الإبداعية » ، ١٠٨ – ١٠٩ .

(٦) طه حسين : « مع ادبائنا المعاصرين » ، مجلة الثقافة ، عدد ١ ، ١٩٣٩ ، ٥

(٧) انظر ميخائيل نعيمة : الغربال (المجموعة الكاملة) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٩ م ٣ ، ٣٥١ – ٣٥٢ وانظر ايضاً مناف منصور : « ميخائيل نعيمة ناقداً وأديباً » ، عالم الفكر م ٤ ، عدد ٧ ، ١٩٧٩ ، ٢١٧ – ٢٢٠ .

Scott: James, R. A: The Making of Literature, 1st ed, Mercury Books, London, 1939: 375–376.

وانظر ايضاً احمد امين : النقد الادبي ، ط ٤ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ١٩٣ .

(٩) احمد الشايب ، أصول النقد الأدبي ، ط ٨ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ١٦٩ .

(١٠) ميخائيل نعيمة : الغربال ، ٣٥٠ – ٣٥١ : وانظر ايضاً أحمد أمين : النقد الأدبي ، ١٩٣ .

(١١) انظر ميخائيل نعيمة : الغربال ، ٣٥١ : مناف منصور : ميخائيل نعيمة ناقداً واديباً ، ٢١٧ .

(١٢) انظر ميخائيل نعيمة : الغربال ، ٣٥٢ – ٣٥٣ .

(١٣) انظر Scott-James, R.A: The Making of Literature, 377

(١٤) الغربال : ٣٥١ .
(١٥) نفسه
(١٦) انظر : Scott James, R.A: The Making of Literature, 380, 385, 387.
(١٧) محسن الموسوي : « الناقد والا دة والنقد عملية إبداعية» مجلة الأقلام ، السنة التاسعة عشرة عدد ٩ ، بغداد ، ١٩٨٤ ، ١٠٧ – ١٠٨ .
(١٨) مناف منصور : ميخائيل نعيمة ناقداً وادبياً ، – ٢١٧ – ٢٢٠ .
(١٩) انظر لا نسون : « منهج البحث في تأريخ الآداب » ، ترجمة محمد مندور ضمن كتابه : النقد المنهجي عند العرب ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ؟ ٤٠٤
(٢٠) انظر شكري عياد : دائرة الإبداع، دار الياس العصرية ، القاهرة ١٩٨٦ ، ٣٣٠، ٣٤
(٢١) ابن رشيق ، أبو علي الحسن القيرواني ، (ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م) : العمده في محاسن الشعر وآدابه ، تحقيق محمد قرقزان ، ط ١ ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٨٨ ، ٢٦٢/١ – ٢٦٣ .
(٢٢) نفسه ١/ ٢٦٦ .
(٢٣) الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، (ت ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م) : البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط ٤ ، دار الفكر ، بيروت ، ١/ ٩٠ .
(٢٤) عبد الواحد عزام : « مكانة الأدب العربي بين اداب الأمم » مجلة الثقافة ، عدد ٢٠٠ ، ١٩٤٢ ، ١٢ .
(٢٥) نفسه .
(٢٦) ابن الأثير ، ضياء الدين (ت ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م) : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، قدمه وعلق عليه احمد الحوفي وبدوي طبانه ، دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة ، ؟ ، ١/ ٣٥ .
(٢٧) الصاحب بن عباد : الكشف عن مساوىء المتنبي ، ٢٤٣ – ٢٤٤ .
(٢٨) نفسه : ٢٤٤ .
(٢٩) انظر نفسه : ٢٤٤ – ٢٤٥ .
(٣٠) انظر :
Gurrey, P: The Appreciation of Poetry, London, 1955, 10.
(٣١) انظر :
Spingarn, J.E: "Creative Criticism" 1st ed., 1931.
نقلا عن محمد خلف الله : من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٧٠ ، ٤١ .
(٣٢) انظر : لا نسون : « منهج البحث في تأريخ الآداب » ، ٤٠٢ : وانظر محمد مندور : في الميزان الجديد ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ، ؟ . ١٥٧
(٣٣) الآمدي ، ابو القاسم الحسن بن بشر (ت ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م) : الموازنة بين شعر ابي تمام والبحتري ، تحقيق السيد احمد صقر ، ط٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ٤١٣/١ .

(٣٤) انظر محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، ط١ ، دار العودة ، بيروت، ١٩٨٢، ١٨ .

(٣٥) انظر محمد مندور : في الميزان الجديد ، ١٦٥ – ١٦٦ .

(٣٦) انظر محمد مندور . النقد المنهجي عند العرب ، ٢٧٥ – ٢٧٦ .

(٣٧) انظر :

Freud, S: "Totem & Taboo" in: The Basic Writings of Sigmund Freud, tr.A.A. Brill, New York, 1938, 877.

وانظر أيضاً :

Jung, C.G: Modern Man in Search of a Soul London, 1951, 166.

(٣٨) انظر محمد مندور : في الميزان الجديد ، ١٦٦ .

(٣٩) من رسالة الى رضوان الشهال بتأريخ ١٠ كانون ثاني ١٩٦٢ ، نقلا عن مناف منصور ميخائيل نعيمة ناقداً وأديباً ، ٢٣٠ .

(٤٠) محمد مندور : في الأدب والنقد ، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ٨٥ .

(٤١) انظر زكي نجيب محمود ، في فلسفة النقد ، ط١ ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٧٩، ١٢٢ – ١٢٣ .

(٤٢) انظر محمد مندور ، في الميزان الجديد ، ١٦١ : وماهر فهمي : المذاهب النقدية ، دار قطري بن الفجاءة للنشر والتوزيع ، الدوحة – قطر : ١٩٨٣ ، ١٧١ ، ١٨١ ، ١٩٠.

(٤٣) ستانلي هايمن : النقد الأدبي ومدارسه الحديثة ، ترجمة إحسان عباس ، ١/ ٢٨٣ : وانظر أيضاً ماهر فهمي : المذاهب النقدية ، ١٩٠ .

(٤٤) لانسون : « منهج البحث في تاريخ الأدب » ، ٤٠٦ .

(٤٥) انظر نفسه : ٤٠٦ – ٤٠٨ .

(٤٦) انظر علي ادهم : على هامش الأدب والنقد ، دار الفكر العربي ، ٣ – ٤ .

(٤٧) انظر احمد الشايب : أصول النقد الأدبي ، ١٥٦ – ١٥٧ ، ١٦٢ ، ١٦٤ .

(٤٨) انظر

Winchester: Principles of Literary Criticism, 27.

نقلا عن احمد الشايب : اصول النقد الأدبي ، ١٦٤ .

قراءة في قصيدة بشر بن ابي خازم في رثاء نفسه

إعداد

الدكتور محمود درابسة

قسم اللغة العربية / جامعة اليرموك

اربد — الأردن

الملخص

تتناول هذه الدراسة قراءة لنص شعري جاهلي في رثاء النفس للشاعر بشر بن ابي خازم وتتجاوز هذه القراءة النظريات والأشكال النقدية التي يطبقها الدارسون المحدثون على الشعر العربي القديم لتترك للنص حرية الحركة والسلطة الكاملة النابعة من داخله. ولهذا فهذه القراءة تمتد في معاينتها للنص من كل عناصر الابداع الشعري مثل اللغة والايقاع والصورة. وكذلك الجوانب الأسلوبية التي تشكل الطاقة الفنية التي تمنح النص الحياة والحركة.

«قراءة في قصيدة بشر بن ابي خازم في رثاء نفسه»

تتناول هذه القراءة معالجة لنص شعري جاهلي يعود للشاعر بشر بن ابي خازم الأسدي (١).وتنظر هذه القراءة إلى النص نظرة متعمقة في بنيته الأسلوبية والموضوعية بعيداً عن الأشكال والقوالب الجاهزة التي جاء بها الدارسون العرب ليتناولوا من خلالها شعرنا العربي القديم فز ادته هذه الأشكال والنظريات غربة و تعقيداً . ولذلك فإن هذه القراءة سوف تستغل كل عناصر الإبداع في العمل الشعري لمعالجة هذا النص الذي رثى فيه الشاعر نفسه . وذلك على غير ما هو مألوف في فن الرثاء العربي . حيث يرثي الانسان عادة صديقاً او قريباً له . ولهذا فإنه لم يعد بإمكان الدارس العربي اليوم ان ينظر ايضاً إلى النص الشعري

من خلال البيت او المقطع وإنما عليه ان ينظر إلى النص الشعري كبنية كلية موحدة دون تفكيك لأوصاله، ومع هذا الأمر فإن القراءة هنا لا تغفل عن عناصر الإبداع التي يتشكل منها النص وهي المعجم الشعري والصورة والايقاع والأشكال البلاغية والأسلوبية (٢) التي تشكل المادة الأولية التي تمنح النص الحياة والسمة الشعرية وبدون هذه العناصر يبقى النص عبارة عن شكل لغوي دون حياة وبدون قدرة على التأثير بالمتلقي فالنص الشعري الذي يتكون من لوحات شعرية كنص بشر بن ابي خازم . فإن كل لوحة او موضوع فيه يقود إلى الموضوع الذي يليه ليصنع معاً موضوعاً واحداً هو تلك الثنائية التي شكلت النص عند بشر وهي ثنائية الحياة والموت او الحضور والغياب .

فالقصيدة تدور حول غرض واحد هو الرثاء النفس بوصفه هذا اللون من الرثاء لوناً متميزاً لأنه يعبر عن حالة الشعور الانساني ازاء ثنائية غير قابلة للتوحد او الانفصال في صورة واحدة وهي ثنائية الحياة والموت او الحضور والغياب او الحركة والسكون . كما يجسد هذا اللون من الرثاء موضوعاً جديداً لم يقف عنده الدارسون العرب القدماء بما يستحق من طول التأمل والتفكير ، فهذا الموضوع يشكل فلسفة معينة نشأت مع الخليقة منذ بداية هذه الدنيا، هذه الفلسفة تتمثل في التفكير والتأمل بقضية خلق الانسان وفنائه ، وهذا ما دأبت تعالجه الكتب السماوية فيما بعد ، ومثال ذلك قوله تعالى . ﴿وكل نفس ذائقة الموت﴾ (العنكبوت ٥٧) ولذلك فإن رثاء الشاعر لصديق او لخ له يعبر عن نوع من الشعور الانساني الصادق تجاه فقيد قضى نحبه بعد ان رافق الشاعر في هذه الحياة ردحاً من الزمن ولكن عندما يرثي الانسان نفسه فإن ذلك يجسد حالة من العاطفة او الخوف والرهبة من ذلك المصير المجهول وهو الموت إذ إنها رحلة لا عودة منها كما يمثل هذا الحدث مواجهة حتمية لا ريب فيها مع الموت او صراعاً بين البقاء والمطامحة وهذا الشيء لا يمكن التعبير عنه إلا من خلال رثاء

الشاعر لصديق او اخ مثلما يتصوره الانسان ويواجهه عندما يرثي المرء نفسه ووجوده ويضع نفسه في دائرة الموت . ذلك المصير المجهول الذي تعددت صوره في ذهن الانسان القديم (٣) .

ولذا فإن قراءة النص هنا سوف تستغل كل الإشارات الأسلوبية التي تخدم النص وتمنحه الحياة ، فضلا عن اللغة التي تضيء عالم النص المغلق لتوضح التجربة الشعرية التي تختبيء خلف اللغة الشعرية (٤) . فالنص الشعري هنا يشكل نوعاً من الرسالة او الوصية التي يكتبها الشخص في لحظة احتضاره أو يبعث بها من عالم الموت والسكون إلى عالم الحركة والحياة ليشرح لهم تجربته الحزينة في مواجهة الموت ، وهذا ما فعله شاعرنا الأسدي عندما شعر بدنو أجله بعد ان اصيب بسهم قاتل فأستذكر عندئذ ابنته «عميرة» التي تعطي هنا في النص أكثر من دلالة ومعنى ، يقول بشر بن ابي خازم الأسدي :

١ ــ أسائلةٌ عميرةُ عن ابيها … خلال الجيش تعترفُ الرّكابا
٢ ــ تُؤمّلُ ان اؤوبَ لها بنهب … ولم تعلم بأنّ السهمَ صابا
٣ ــ فإن اباكِ قد لاقى غلاماً … من الأبناء يلتهبُ التهابا
٤ ــ وإنّ الوائليّ أصابَ قلبي … بسهم لم يكن يُكْسى لُغابا (٥)
٥ ــ فرجّي الخيرَ وانتظري إيابي … إذا ما القارظُ العنزيُّ آبا (٦)
٦ ــ فمَنْ يكُ سائلا عن بيت بشر … فإن له بجنب الرّدْه بابا (٧)
٧ ــ ثوى في مُلْحَد لابدّ منه … كفى بالموت نأياً واغترابا
٨ ــ رهين بلىً، وكلُّ فتىً سيَبْلى … فأذْري الدّمْعَ وانتحبي انتحاباً
٩ ــ مَضى قصدَ السبيل، وكلّ حيّ … إذا يُدْعى لميتته آجابا
١٠ ــ فإن أهلكْ عميرُ فربُّ زحف … يشبه نقعهُ عدْوا ضبابا
١١ ــ سموتُ لهُ لألبسهُ بزحف … كما لفّتْ شاميةُ سحابا (٨)
١٢ ــ على ربذ قوائمهُ إذا ما … شأته الخيلُ ينسربُ انسرابا (٩)

١٣ – شديد الأسر يحمل أريحياً ... أخا ثقة إذا الحدثان نابا (١٠)
١٤ – صبوراً عند مختلف العوالي ... إذا ما الحرب أبرزت الكعابا (١١)
١٥ – وطال تشاجر الأبطال فيها ... وأبدت ناجذا منها ونابا
١٦ – فعزّ عليّ أن عجل المنايا ... ولما ألق كعبا أو كلابا (١٢)
١٧ – ولما ألق خيلا من نمير ... تضبّ لثاتها ترجو النهابا (١٣)
١٨ – ولما تلتبس خيل بخيل ... فيطّعنوا ويضطربوا اضطرابا
١٩ – فيا للناس إنّ قناة قومي ... أبت بثقافها إلا انقلابا
٢٠ – «هم» جدعوا الأنوف فأوعبوها ... وهم تركوا بني سعد يبابا (١٤)

تتضمن القصيدة اربع لوحات شعرية تنصهر معا لتشكل لوحة واحدة هي النص الذي ندرسه في هذا البحث . واللوحات الأربع هي : لوحة المفتاح التي تمثل الابنة «عميرة» التي تسأل عن ابيها المفتقد والذي ذهب ولم يعد ، ولوحة بشر الشاعر القتيل . واللوحة الثالثة هي لوحة بشر الفارس المحارب ثم أخيرا لوحة الجماعة او نداء الأهل والعودة من دنيا العزلة ومواجهة المصير وحيداً إلى محاولة العيش مع الأهل . وذلك رفضاً للموت والأنفراد في مواجهته .

وقد بدأ الشاعر لوحته الأولى بصيغة التساؤل .ولعل هذه الصيغة تعكس حالة القلق والتوجس الذي استمطها الشاعر على ابنته التي قلقت على مصير والدها فأخذت في حيرة واضطراب تسأل عنه وسط جيش كبير ، يقول :

أسائلة عميرة عن أبيها ... خلال الجيش تعترف الركابا

لقد حاول الشاعر من خلال تساؤل ابنته عنه ان يعطي نفسه منزلة بين الأحياء يهتمون به . ويبحثون عنه ،وهو نوع من الربط بين عالم الموت الذي يتصور الشاعر مواجهته من خلال رثائه لنفسه وبين الحياة الدنيا من خلال ابنته التي شغلت نفسها بأمره ، وقد استعمل الشاعر صيغة التصغير « عميرة » لتدل على

التذلل والتحبب وربما ترمز إلى العمر والبناء والحياة ومن ثم نوع من التمرد على ذلك المصير المرعب وهو الموت . [illegible] على الصورة الطبيعية لحالة القلق والخوف والتوجس من الأقتراب من دائرة المجهول والمصير المزعج وهو الموت والفناء والأنتهاء . فالشخص القلق هو الذي يتوقع الشر (١٥) : وهذه سمة الحياة في المجتمع الجاهلي ذلك المجتمع الذي صدم اول مرة بطبيعة الحياة و كنه الوجود ولذلك يرى الدارس في الشعر الجاهلي نغمة حزن وحيرة وتساؤل واضحة تعبر عن حالة القلق والترجس والتأمل في مظاهر الكون و بخاصة من ذلك المصير المجهول الذي لا يفكر فيه الانسان إلا لحظة وقوعه وهو الموت (١٦) . وانما [illegible] الثنائية التي تشكل النص وهي ثنائية الموت والحياة او الحضور والغياب . وبذلك يكون التساؤل في اللوحة الأولى في قصيدة بشر قد طرح الرؤية المستقبلية لما بعد الحياة وبعد رحيل الشاعر من هذه الدنيا . وهذا استشراف لمرحلة ما بعد الحياة ، ولذلك فإن الحزن والرعب الذي يداهم الانسان عند احتضاره ، وكذلك الخوف الذي يخشاه من قدوم الموت هو نفسه ما يصيب الأحياء ايضاً بفقدهم لأحبائهم ولهذا فإن تعلق الشاعر بابنته عميرة يعود بالنسبة له لانها تشكل الأمتداد الطبيعي لماضي الشاعر ومستقبله بعد رحيله ، حيث يبقى في ذاكرة احبته ، وهذا تمرد ورفض لفكرة الفناء والسكون والانتهاء

ويتابع الشاعر وصف هذه اللحظات التراجيدية في اللوحة الأولى المتمثلة بحالة الذهول والدهشة وقسوة الأنتظار التي اصابت ابنته عميرة وهي تبحث في وسط الجيش الضخم العائد عن ابيها . وقد كانت تبحث مع الأمل في عودة هذا الأب لتحظى بالغنيمة والنهب الذي [illegible]

تأمل [illegible]

فالنهب والكسب هو ديدن الحياة الجاهلية وهو وسيلة [illegible] والفروسية والحضور في الحياة ، [illegible] ان بشر بن ابي خازم قد [illegible]

الثاني في بيته صورة اللحظة الحاسمة في حياته والتي كانت سبب موته والمتمثلة بالسهم القاتل الذي اصابه ، وبذلك فقد انهى السهم الآمال وميل العيش وسلامة العودة(١٧)

وقد كشف البيتان الثالث والرابع من اللوحة الاولى عن معضلة الشاعر الحقيقية التي تتمثل في صراعه بين الحياة والموت او القوة والضعف ، فقد استعمل الشاعر كلمة الأب مقابل الأبنة ثم الغلام الوائلي الذي يلتهب التهاباً كما وصفه ، وهذه اشارة الى تبرير عجزه عن مواجهة هذا الغلام . فالصراع بينهما هو صراع القوة والضعف او الفتوة والشيخوخة . ولعل تكرار الفعل « يلتهب » مايضفي على اللوحة وعلى هذا المشهد من التأثير والعنف في ايقاع الكلمة ومضمونها الشيء الكثير ، ويجسد جانباً من حدة الصراع الذي يواجهه الشاعر

ويبدو ان الشاعر قد فقد امله بامكانية العودة الى الحياة والبقاء ازاء ذلك الكابوس المرعب الذي لم يجاوله تفسيرا وهو الموت ، ولذا فقد ختم الشاعر لوحته الأولى بالسخرية المريرة ازاء فقدان الأمل بالحياة (١٨) . يقول مخاطباً ابنته :

فرجي الخير وانتظري ايابي إذا ما القارظ العنزي آبا

وقد ارتبطت سخرية الشاعر في هذا البيت باستعماله للفعل « فرجي » الذي جاء مشدد ، وهو ما يدل على التهكم والمرارة التي تعتمل في قلبه ، وكذلك في استعماله للقارظ العنزي كناية عن فقدان الأمل بالاياب ثانية الى الحياة الدنيا والى اهله وابنته . ولعل الايقاع الموسيقي في هذا النص والمتمثل بالبحر الوافر قد ساعد على نقل مشاعر الشاعر الانسانية والحزن الذي يعانيه في مواجهته لرحلة اللاعودة وازاء انقطاع الأمل برؤية ابنته ثانية فالبحر الوافر من أكثر البحور مرونة وقدرة على نقل الأحاسيس والمشاعر في كل المواقف(١٩)

وبخاصة القافية التي شكلت نهايات الأبيات والمتمثلة بحرف الباء ثم ألف الأطلاق الذي جاء لينفث الشاعر من خلاله ما يحتبس في صدره من حزن وألم وتفجع من صدمة الفراق .

ويتنامى فقدان الأمل عند الشاعر برسمه اللوحة الثانية والتي تمثل الأبيات من السادس حتى البيت العاشر من النص . تلك اللوحة التي تجسد صورة بشر القتيل أو صورة بشر في داخل القبر ، حيث اللوحة المأساوية التي انتهى اليها الشاعر ، وقد بدأ الشاعر لوحته بالتساؤل كما هو الحال في البيت المفتاح في بداية النص ، أذ حدد شاعرنا مكان قبره ليرشد السائلين عنه ، وقد سمى الشاعر قبره بالبيت وهذا نوع من السخرية في الحالة التي وصل إليها ؛ وربما تعكس تمسكه ببعض مظاهر الحياة المتمثلة بالبيت رمز الحركة والوجود ، يقول :

فمن يك سائلا عن بيت بشر ... فإن له بجنب الردة بابا

وقد أكد الشاعر مفهومه للموت الذي يقلقه كثيراً كغيره من ابناء زمانه بأنه يشكل الغربة والبعد واللاعودة إلى الأهل والأصدقاء والحياة . يقول :

ثوى في ملحد لابد منه ... كفى بالموت نأيا واغترابا

وازاء هذه الحقيقة التي حطمت كل آماله وأمانيه فقد استسلم الشاعر للموت الذي لابد ان يصيب كل انسان يدعى إليه . ولهذا فإن العزاء الوحيد له هو بكاء ابنته عليه ، وقد كرر شاعرنا فعل النحب وهو البكاء الشديد لمالهذا الفعل من تأثير صوتي وحركة يعطي اللوحة تأثيراً قوياً في نفس المتلقي ، يقول

رهين بلى ، وكل فتى سبيلي ... فأذري الدمع وانتحبي انتحابا
مضى قصد السبيل ، وكل حي ... إذا يدعى لميتته أجابا

من خلال هذا العرض يتضح استسلام الشاعر إلى حقيقة تقادم العمر والموت ولهذا فإن الأنسان عبارة عن رهينة للموت ، وهذه الحقيقة سوف تصيب

كل فتى او شيخ ، ولعل اللغة السهلة وانسياب المعاني وهو من سمات فن الرثاء (٢٠) قد جعل من الحكمة التي قدمها في هذه اللوحة اكثر تأثيراً وإقناعاً . وقد أنهى الشاعر هذه اللوحة باستعمال ضمير الأنا ، وهو يمثل حالة التمرد على الضعف والقلق للخروج إلى موقف التحدي والمواجهة لهذا الوضع والصحو من حلمه في عالم الموت ولذا فقد عد هلاكه بسبب مواجهته زحف جيش صعب المراس لا بسبب جبن أو خوف يقول :

فان أهلك عُمير فرب زحف يشبه نقعه عدوا ضبابا

وازاء تجربته في اللوحة السابقة مع الموت فقد انتقل في لوحته الثالثة لوحة الفروسية إلى مرحلة الصحوة من غفوة الموت التي اصابته ليستعيد ذاكرته مع واقعه فسيرى نفسه فارساً محارباً يمتطي صهوة جواده الأصيل في مقارعة الأعداء يقول :

سموت له لالبسه بزحف [illegible] حابا

على ربذ قوائمه إذا ما [illegible] رابا

وقد أطال الشاعر في هذه اللوحة وصف صحوته ولقائه العدو . إذ يعسر عليه ان يصيبه الموت قبل ان يشفي غليله من اعدائه . ولذا فقد جسد الشاعر هذا الموقف في صورة حركيه حيث تحتدم فيها المواجهة وتلتقي فيها الخيول (انظر الأبيات ١٣ — ١٤) . كما رسم الشاعر صورة جميلة للحرب مشبهاً إياها في قوتها ونضارتها بالفتاة الكاعب ، يقول :

صبوراً عند مختلف العوالي إذا ما الحرب ابرزت الكعابا

وقد وظف بشر بن ابي خازم في هذه اللوحة التكرار توظيفاً قوياً بحيث ركز فيه على حرف النفي « لما » والذي يفيد وقوع الشيء ، كما كرر الشاعر الفعل « الق » والذي يفيد ايضاً المستقبل ، اذ اصبح حديث الشاعر عن الزمن الحاضر والمستقبل بعيداً عن دائرة الموت والزمن الماضي . ولعل التكرار هنا .

قد اضفى بعداً موسيقياً جميلاً، فالشعر إضاءة جمراء من صور الكلام (٢١) إذ أن تكرار الفعل او الحرف يعطي ايقاعاً موسيقياً جميلاً، فضلاً عن تأثيره المضموني في نفس المتلقي، فاللغة طاقة تكمن فيها المشاعر والأفكار معاً؛ يقول الشاعر :

فعز علي أن عجل المنايا ولما ألتي كعبا او كلابا
ولما ألق خيلا من نمير تضب لثاتها ترجو النهابا
ولما تلتبس خيلٌ بخيل فيطعنوا ويضطربوا اضطرابا

لقد كانت لوحة الفروسية هنا من أكثر اللوحات في أميز قوة وحركية وذلك لأن الشاعر قد اراد ان يعوض من خلالها عن موقف الانكسار النفسي والمعنوي في مواجهة الموت، وذلك باستعادته مجده التليد وقوته في مواجهة مخاطر الموت. ولهذا فقد انتقل الشاعر من هذه اللوحة التي يجسد فيها قوته واعتزازه بنفسه إلى لوحة اخيرة هي لوحة نداء الأهل والناس أي العودة إلى عالمه الأنسي بعيداً عن عالم الموت وقلقه وهواجسه فإن اسلوب النداء والاستغاثة من أكثر الأساليب حضوراً في فن الرثاء (٢٢) يقول :

فيا للناس ان قناة قومي أبيت بثقافتها الا انسلابا
هم جدعوا الأنوف فأوعبوها وهم تركوا بني سعد يبابا

وقد ظهر الانفعال والتوتر جلياً في اللوحة الأخيرة وهي لوحة الافتخار بقومه واهله، وقد وظف التكرار هنا بشكل جيد وبخاصة تكرار الضمير «هم» الذي يبرز نزعة الاعتزاز بأهله وجماعته، فالتكرار سواء أكان لفظياً كما هو الحال هنا او معنوياً فإنه يؤكد ما في نفس الشاعر من حزن وألم وهم في البعد عن الأهل وترك الأصدقاء (٢٣)» فهناك لتتابع التكرار فيغني خلال الضمير «هم» او تكرار الأفعال او الأسماء مشكلاً تبليغ فيغيب يحلم نمطاً موسيقياً مؤثراً في نفس المتلقي وهذه سمة اساسية اعتمد عليها الشعر (٢٤).

ولذا فإن قصيدة بشر بن ابي خازم الأسدي وعلى الرغم من قلة عدد ابياتها تجسد حالة من الشعور الانساني ، ونوعاً من الصراع الذي تعانيه النفس الأنسانية ازاء موقفها الحاد من قضيتي الحياة والموت او الحضور والغياب ثم الحركة والجمود . ولعل هذه الاشكالية قد شغلت الانسان منذ بدء الخليقة وإلى اليوم الحاضر حيث تشغل قضية الموت وحتميته ذهن الانسان ومشاعره . ولذا فإن هاجس الموت وقلقه قد سيطر على الشاعر ، فبدت قصيدته مقسمة إلى لوحة مرحلة ما قبل الموت وذلك في عيشه مع ابنته ، ولوحة الموت وهي القاسم المشترك في القصيدة . ثم لوحة التمرد على هذه الحركة الدرامية التي عاشها مع الموت وتمرده . حيث اخذ يستعيد فيها صور البطولة والاعتزاز بالأهل وبالحديث بأسلوب زمن الحاضر والمستقبل وترك أسلوب زمن الفعل الماضي . كما ساعد على نقل تجربة الشاعر اللغة الشعرية السهلة والإيقاع الحزين الذي نفث الشاعر احزانه من خلاله ، ولذا فإن انشغال الشاعر بالموت قد ابعده عن العناية بالزخرفة اللفظية والتعقيد في اللغة ، ولعل هذا ما يساعد على بروز العاطفة الصادقة عنده بشكل واضح ومؤثر في النفس الانسانية .

Abstract

"A reading of one of Bishr Ibn Abi Khazim's poems bewailing himself"

This paper deals with a reading of a pre-Islamic poetic text in which the poet, Bishr Ibn Abi Khazim bewails himself. This reading overcomes theories and critical form that modern scholars usually apply to ancient Arabic poetry; it gives this very text freedom from all authorities except that which emerges from inside. Hence, this reading gets advantage from. Language, rhythm, pictures, and stylistic aspects; all these elements of poetic creation naturally constitute the technical energy by means of which a text can enjoy life and motion.

التعليقات

١ – الشاعر بشر بن ابي خازم شاعر جاهلي بقي حياً حتى زمن قريب من ظهور الإسلام، وقد كان فارساً شجاعاً وشاعراً معروفاً من شعراء بني اسد وقد خاض غمار معارك كثيرة حتى اصيب بسهم قاتل من غلام وائلي إسمه عمرو بن حذار وذلك في موقع يقال له الردة من بلاد قيس ، وقال بشر هذه القصيدة بعد اصابته بالسهم ، وفي لحظة الاحتضار تذكر ابنته عميرة وأخذ يتصور حالها بعد فراقه الحياة. وبشر يرثي نفسه بهذه القصيدة باسلوب يتميز بالفخر والاعتداد بالنفس امام رهبة الموت. انظر ، ديوان بشر بن ابي خازم ، تحقيق عزة حسن (دمشق ، ط٢ ، ١٩٧٢) . ص ١٦ – ٢٤ .

٢ – يمنى العيد في معرفة النص، (بيروت ، دار الآفاق الجديدة ، ١٩٨٥) ، ص ٩١ .

٣ – انظر معالجة هذه القضية في الفكر الانساني منذ نشأت الخليقة ومروراً بعصور الفلاسفة والعلم وانتهاء بعصر الديانات السماوية في كتاب: شورون، جاك: الموت في الفكر الغربي: ترجمة كامل يوسف حسين ، (عالم المعرفة ، العدد رقم ٧٦ ، الكويت ١٩٨٤)، ص ١٦ .

٤ – رجاء عيد : دراسة في لغة الشعر (رؤية نقدية) ، ا(الاسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٧٩) ، ص ٢٠ .

٥ – الوائلي : هو قاتل الشاعر واسمه عمرو بن حذار، لغابا : الريش الرديء يكسى به السهم فلا يعتدل ولا يلتئم ، فإذا رمي به لم يذهب بعيداً ولم يصب . انظر ديوان بشر بن ابي خازم ، ص ٢٤ – ٣٠ .

٦ – القارظ العنزي: رجل من عنزة خرج يطلب القرظ، وهو شجر يدبغ بورقه وثمره، فمات ولم يرجع إلى اهله ، فضربته العرب للمفقود الذي يفوت فلا يرجع. انظر ديوان بشر بن ابي خازم ، ص ٢٦ .

٧ – الردة : موضع في بلاد قيس قتل فيه الشاعر .

٨ – شآمية : ريح شآمية .

٩ – ربذ قوائمه: اي فرس ربذ قوائمه، والفرس الربذ الخفيف القوائم في المشي ، وشأته الخيل اي سبقته .

١٠ – الأسر : الخلق . حدثان الدهر : نوبه ومصائبه .

١١ – العوالي : الرماح ، الكعاب : الجارية التي كعب ثديها اي نهد .

١٢ – كعب وكلاب : من احياء بني عامر . انظر ديوان بشر بن ابي خازم ، ص ٢٨ .

١٣ – نمير : حي مشهور من احياء بني عامر ، النهاب : الغنيمة .

١٤ – اوعبوها : استأصلوها بالجدع ، بنو سعد هم سعد بن زيد من احياء تميم ، اليباب : الخراب .

١٥ – انظر ، عفيف عبدالرحمن : ظاهرة التشاؤم في الشعر العربي ، الرياض ، دار العلوم للطباعة والنشر ، ط ١ ، ١٩٨٣) ، ص ٢٧ .

١٦ – المرجع نفسه ، ص ٤٩ .

انظر ، احمد محمد عبدالخالق : قلق الموت ،(عالم المعرفة ، العدد رقم ١١١ ، الكويت ١٩٨٧) ، ص ٢٥ .

مصطفى ناصف قراءة ثانية لشعرنا القديم ، (بيروت، دار الاندلس،ط ٢ ، ١٩٨١) ، ص ٤٩ - ٥٠ .

١٧ - انظر ، عبدالله احمد باقازي : رثاء النفس في الشعر العربي ،(مكة المكرمة ، المكتبة الفيصلية ، ١٩٨٧) ، ص ٢٣٤ .

١٨ - انظر ، المرجع نفسه ، ص ٢٩٦ .

١٩ - صفاء خلوصي : فن التقطيع الشعري والقافية ، (بغداد،مكتبة المثنى ، ١٩٧٧) ، ص ٨٤ .

٢٠ - انظر،ابراهيم الحاوي: رثاء النفس بين عبد يغوث بن وقاص الحارثي ومالك بن الريب التميمي ، (بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٨) ، ص ٢٦ .

٢١ - انظر ، ابراهيم انيس : موسيقى الشعر ،(القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ط ٦ ، ١٩٨٨) ، ص ٧ ، ٤٣ .

(22) Rhodokanakis, N.: AL-Hansa und Ihre Trauerlieder, Wien 1904.p.60.

٢٣ - انظر ، بشرى محمد الخطيب الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الاسلام ، (بغداد ، ١٩٧٧)، ص ٢٣٧ .

٢٤ - إ. ا. رتشاردز : مبادىء النقد الأدبي ، ترجمة مصطفى بدوي ،(القاهرة،المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، ١٩٦١) ، ص ١٨٨ .

المصادر والمراجع العربية

١ - احمد محمد عبدالخالق : قلق الموت ، عالم المعرفة ، العدد رقم ١١١ ، الكويت ، ١٩٨٧م .

٢ - باقازي ، عبدالله احمد : رثاء النفس في الشعر العربي ، مكة المكرمة ، المكتبة الفيصلية ، ١٩٨٧م .

٣ - بشر بن ابي خازم الأسدي ، الديوان ، تحقيق عزة حسن ، دمشق ، ط ٢ ، ١٩٧٢م .

٤ - بشرى محمد الخطيب : الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام ، بغداد ، ١٩٧٧م .

٥ - حاوي ، ابراهيم : رثاء النفس بين عبد يغوث بن وقاص الحارثي ومالك بن الريب التميمي ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٨م .

٦ — خلوصي ، صفاء ، فن التقطيع الشعري والقافية ، بغداد ، مكتبة المثنى ، ١٩٧٧م .

٧ — رتشاردز ، إ.ا : مبادىء النقد الأدبي ، ترجمة مصطفى بدوي ، القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، ١٩٦١م .

٨ — رجاء عيد : دراسة في لغة الشعر (رؤية نقدية) ، الاسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٧٩م .

٩ — شورون ، جاك : الموت في الفكر الغربي ، ترجمة كامل يوسف حسين ، عالم المعرفة ، العدد رقم ٧٦ . الكويت ١٩٨٤م

١٠ — عفيف عبدالرحمن ظاهرة التشاؤم في الشعر العربي ، الرياض . دار المعارف للطباعة والنشر ، ط١ ، ١٩٨٣م .

١١ — مصطفى ناصف : قراءة ثانية لشعرنا القديم ، بيروت ، دار الأندلس . ط٢ ، ١٩٨١م .

١٢ — يمنى العيد : في معرفة النص ، بيروت ، دار الآفاق الجديدة ، ١٩٨٥م .

المراجع الأجنبية

1 – Rhodokanakis, N. : AL –Hansa und ihre Trauerlieder ,Wien 1904 .

«المنظور الروائي بين النظرية والتطبيق»

د. ابراهيم جنداري
كلية الآداب – جامعة الموصل

١ – في النظرية :

مع محاولات الرواية التخلص من هيمنة السرد الخارجي، والاستدارة إلى منطق صيرورتها الداخلية، بدأ الاهتمام بعنصر جديد في النقد الادبي، اطلقت عليه تسميات واصطلاحات مختلفة، لكنها ظلت متقاربة في دلالاتها. فكانت تسمية (وجهة النظر) أو (الرؤية السردية) او (المنظور الروائي) وغيرها.

وثمة اتفاق بين معظم النقاد والباحثين على ان هذا المفهوم من استحداثات (هنري جيمس) فهو الذي اطلق طريقته تكشف الحياة للقصة القائمة على إنارة الموقف والشخصيات القصصية عن طريق عقل احدى الشخصيات، او عقول عدة شخصيات باسم (وجهة النظر) (١) وذلك في المقدمات التي كتبها لرواياته التي ظهرت في السنوات ١٩٠٧–١٩٠٩.

والاتفاق على ان (جيمس) من استحداثات لهذا المفهوم يخرج عنه صاحبا كتاب (عالم الرواية) [illegible] كما [illegible] الرومنتيكي والشاعر في احداثها الا قليلاً وتاركاً الوصف للاشخاص اما (فلوبير) فإن (جيمس) استوحى منه هذا المفهوم بعد اطلاعه على مراسلاته التي يتحدث في إحداها عن الراوي، وعن الراوي الذي يجب ان يكون في عمله كالإله في عملية الخلق فهو لامرئي وعظيم القدرة ونحس به، دون ان نراه (٢)

وقد رافق ظهور كتابات (جيمس) هجوم كبير على الروايات الواقعية بما

---

(١) القصة السيكولوجية – ليون ايدل / ٧٨. ترجمة محمود السمرة – المكتبة الأهلية – بيروت ١٩٥٩.

(٢) تحليل الخطاب الروائي – سعيد يقطين / ٢٨٥ – منشورات المركز الثقافي العربي بيروت / الدار البيضاء ١٩٨٩

فيها روايات (تولستوي) ، ووصفوها بأنها «الوحوش الحقيقية المضمخمة» (٣).
وعلى هدى (جيمس) يميّز (بيرسي لوبوك) (٤) بين العرض والسرد موضحاً لنا اننا امام تقديمين للاحداث . الاول : تقديم مشهدي ذو بعد درامي ، والثاني : بانورامي ذو طبيعة تصورية ، وينحاز لوبوك إلى جانب (الراوي الممسرح) والمدمج في القصة شأنه في ذلك شأن (جيمس) .

وقد حدّد (لوبوك) (وجهات النظر) على الشكل التالي :

١ — في التقديم البانورامي : نجد الراوي مطلق المعرفة يتجاوز موضوعه ويلخصه للقارىء .

٢ — في التقديم المشهدي كما في الدرامي : نجد الراوي غائباً والاحداث تقدم مباشرة للمتلقي .

٣ — في اللوحات : تتركز الاحداث اما على ذهن الراوي او على احدى الشخصيات .

ومع ان (لوبوك) حاول استيعاب مختلف وجهات النظر التي تقدم لنا من خلالها احداث القصة فانه يظل منحازاً إلى تصورات (هنري جيمس) سواء على مستوى تحديد وجهات النظر او الحكم عليها ، ويظل تصوره بأن «صنعة الرواية محكومة بالسؤال عن وجهة النظر ، السؤال عن علاقة راوية القصة بها (٥) .

ولقد اثارت علاقة الراوي بالاحداث والشخصيات اسئلة عديدة تبحث عن ماهية العلاقة بينهما ، وقد بدأ النقاد مناقشة ادق المسائل الداخلية التي تتحكم في

---

(٣) وجهة النظر في الرواية المصرية – انجيل بطرس سمعان ١٠٤ مجلة فصول العدد ٢ لسنة ١٩٨٢ .

(٤) صنعة الرواية – بيرسي لوبوك / ٦٣ – ٩٣ . ترجمة – عبد الستار جواد – دار الرشيد للنشر – المركز العربي للطباعة ١٩٨١ .

(٥) صنعة الرواية – بيرسي لوبوك / ٢٢٥ .

المسار السردي للكون الروائي ، واستئثار (الرؤى) بأهميتها الكبيرة في مجال دراسات الفن الروائي ، فـ (البيرس) يرى ان « جدة الرواية تقوم أساساً على قوة الرؤية التي تقدمها واقناعها ، وقوة هذا الصوت الذي يتكلم ، أو علـــى ذلك البيان الهندسي الذي يفرض نفسه بنفسه ، ويكشف عن بعض خصائص المدى الخيالي » (٦) .

ولقد أوجز (نورمان فريدمان) تلك الاسئلة المثارة ضمن محاور أساسيـة هي (٧) :

١ — من يتحدث الى القاريء ؟ هل هو الروائي مستعيناً بضمير الغائب او ضمير المتكلم ؟

٢ — ما الموقع الذي يحتله الراوي بالنسبة للاحداث ؟ هل يقف خلفها ، فيدفعها الى القاريء ؟ هل يقودها ؟ ام هل يكون في مركزها ؟

٣ — ماالوسائل التي يستعين بها الراوي لايصال المعلومات الى القاريء ؟ هل يستعين بكلمات المؤلف وافكاره ومشاعره ؟ ام هل يستخدم كلمـــات الشخصية وافكارها ومشاعرها ؟

٤ — ماالمسافة التي يضعها الراوي بين القاريء واحداث الرواية ؟ هل يكونان متقاربين ؟ أم يكون القاريء بعيداً عن تلك الاحداث ؟

وكانت هذه التساؤلات مثار تساؤلات أخرى وتفريعات تنطلق من موضوعة (الرؤية) وتحديد علاقاتها مع بقية العناصر الفنية للرواية ، فتعددت الرؤى ، وتعددت معها تلك العناصر ، ومثلما تعددت الرؤى تعدد الرواة .

ومن هنا بدأت ادق المساءلات النقدية للتعرف على المنظور الروائي الـــذي يستنطق مختلف المراجع ، وبالتالي فان الرواية لاتقدم بشكل حيادي مجـرد ،

(٦) تأريخ الرواية الحديثة — البيريس / ٤٦٠ . ترجمة جورج سالم — منشورات عويدات بيروت ١٩٦٧ .

(٧) عن : البناء الفني لرواية الحرب في العراق — دراسة لنظم السرد والبناء في الروايـة العراقية المعاصرة . عبد الله ابراهيم / ١٦٢ دار الشؤون الثقافية العامة — بغداد / ١٩٨٨ .

ولكنها تخضع لزاوية الرؤية التي تقدم من خلالها
واضحاً لوجهات النظر من خلال هذه الاشكال (٨)

١ – المعرفة المطلقة للراوي – المرسل : وهنا نجد انفسنا امام وجهة نظر – المؤلف غير المحدودة وغير المراقبة ، وهنا يتدخل سواء اتصلت تدخلاته بالقصة واحداثها او لم تتصل . فهو (الراوي العليم ذو الرأي).

٢ – المعرفة المحايدة او (الراوي العليم المحايد) . والراوي يتكلم هنا بضمير الغائب ولايتدخل ضمناً ، ولكن الأحداث لاتقدم لنا الا كما يراها هو لاكما تراها الشخصيات .

ولقد قدم (جان بويون) تكثيفاً مختزلا لهذه الرؤى ، اذ جعلها لاتتجاوز الثلاث وكان لتصنيفه هذا أثره الكبير في ماتبعه من تصنيفات اذ لايكاد يخلو كتاب او مقال لباحث او مهتم بالتحليل الروائي من الاشارة اليه او الأستفادة منه بشكل مباشر او غير مباشر . وهو يعالج الشخصيات واحداث الرواية من منطلق سيكولوجي ، ويرى ان على العمل الروائي « ان يتوفر على طابعين رئيسيين : يتمثل الطابع الأول في كثافة سيكولوجية للحكي، يفترض رؤية واقعية للشخصيات . ومن خلال ذلك يعالج ماأسماه بأنماط الفهم ومن خلالها يحلل الرؤى (من الخلف – مع – من الخارج) (٩)

ويقسم العلاقة بين الراوي والشخصية الى ثلاثة اقسام أوضحها (تودوروف) (١٠) مفصلا اياها ومؤكداً على ان وجود السارد وحضوره لايتحقق الا من خلالها وهي :

١ – الراوي من الشخصية (الراوي يعلم اكثر مما تعلم الشخصية) أو (الرؤية من الخلف او الرؤية الخلفية) وهي المستعملة في الحكاية

(٨) للمزيد من التفاصيل : ينظر ، تحليل الخطاب الروائي – سعيد يقطين / ٢٨٦ . والبناء الفني – عبدالله ابراهيم / ١٦٤ .
(٩) تحليل الخطاب الروائي – سعيد يقطين / ٨١ – ٨٢ .
(١٠) مستويات الحكي الأدبي – تودوروف . عن : السرد في روايات محمد زفزاف – محمد عز الدين التازي / ٢٣ • دار الشؤون الثقافية، بغداد وينظر كذلك : البنية والدلالة – عبد الفتاح ابراهيم / ١٣٠ – الدار التونسية للنشر / ١٩٨٦ . وغيرها .

الكلاسيكية ، حيث يكون الراوي اكثر معرفة من الشخصيات التي تستحيل ببادق على رقعة الرواية دون الاخبار عن الكيفية التي حصل بها على هذه المعرفة .

٢ - الراوي = الشخصية (الراوي يعلم ماتعلمه الشخصية) او (الرؤية مع) اي الرؤية المشاركة .

٣ - الراوي < الشخصية (الراوي يعلم أقل مماتعلم الشخصية) او (الرؤية من الخارج او الرؤية الخارجية) .

ان طبيعة كل علاقة تؤدي الى انتاج صياغة روائية مختلفة على مختلف المستويات الزمانية والمكانية والتشخيصية والتعبيرية ، ومن حيث منظورها الروائي ورؤيتها الفنية .

أصناف الرؤية

تظل للروائي - حسب مهارته - القدرة على التخفي وراء رواية سواء كان راوياً عليماً اومحدود المعرفة ، فهو يوجه شخصياته ويحدد مواقفها وافكارها ورؤاها وان«مايثير اهتمام المؤلف في الرواية»ليس فقط اسلوبه النموذجي والفردي في التفكير ، والمعاناة والحديث ، بل بالدرجة الاولى اسلوبه في الرؤية والتصوير : هنا تكمن وظيفته المباشرة بوصفه راوية ينوب عن المؤلف ، ولهذا فأن موقف المؤلف ، مثلما يحدث في تقاليد الاساليب يتغلغل داخل كلمته ويجعلها نسبية بدرجة اكبر او اقل .

ان المؤلف لايعرض علينا كلمة الرواية (بوصفها كلمة موضوعية خاصة بالبطل)بل يوظفها من الداخل لخدمة اهدافه ،اضافة الى انه يجبرنا على ان نحس بجلاء ، بالمسافة القائمة بينه وبين هذه الكلمة الغيرية » (١١) .

ومع (تودوروف) بدأ مفهوم (الرؤية) يأخذ ابعاداً متكاملة في تحليل الخطاب الروائي . اذ شدد على هذا العنصر وبين اهميته في التحليل وقيمته

(١١) قضايا الفن الابداعي عند دويستوفسكي - باختين / ٢٧٨ . ترجمة د. جميل نصيف التكريتي . دار الشؤون الثقافية العامة ،سلسلة المائة كتاب . بغداد ١٩٨٦ .

الابداعية ، فلقد استعاد تصنيف (بويون) للروايات مع ادخال تعديلات طفيفة معتبراً اياها اطاراً اكثر تعميقاً ، اذ يمكن التمييز ضمن كل منها بين انواع فرعية ، كما يمكن ان تتداخل او تتعدد حول الحدث الواحد وقد تختزل ، ذلك «اننا نرى بعداً آخر له مدلوله في شبكة الرؤى . وذلك في العلاقة القائمة بين الراوي وشخصياته ، ويمكن ان ننعت النظامين المتضادين (بالرؤية من الداخل) و (الرؤية من الخارج) ففي الحالة الأولى لاتخفي الشخصية شيئاً عن الراوي. وفي الحالة الثانية فأن هذا الأخير يستطيع ان يصف لنا افعال الشخصية ولكنه يجهل افكارها ولايحاول ان يتنبأ بها » (١٢) .

وهذه التعددية والتفريعات تؤكد اهمية (الرؤية) ودورها في تحديد الشكل الذي تتخذه الرواية . ويمكننا ان نوجز أصناف الرؤية بما يلي :

الرؤية من الخلف

ويكون الراوي عالماً بكل الاحداث ، ملماً بنفسية الشخصيات ، خبيراً بما يجري في ضمائرهم ، فكأن الراوي إله عليم بكل شيء ، بل انه يعلم عن شخوص الرواية أكثر مما تعلم هي عن نفسها ، ويتراءى لنا وجود الراوي من خلال التعليقات التي يقدمها هنا او يبديها هنالك ، فهو البؤرة السردية المركزية التي تنطلق منها الاشعاعات المختلفة او تنعكس عليها . فكأنه «يتنقل في الزمان والمكان دون معاناة ويرفع أسقف المنازل فيرى مابداخلها ومافي خارجها ويشق قلوب الشخصيات ويغوص فيها ويتعرف على أخفى الدوافع وأعمق الخلجات » (١٣) .

والراوي من خلق الكاتب أي ان الكاتب هو الباعث له في ساحة الوجود ومن ثم فالراوي يخفي الكاتب ، يتضمنه ويحتويه ، وقد يطل عليه احياناً

---

(١٢) اشكال الرواية الحديثة – تحرير او كونور / ٢٣٩ . ترجمة نجيب المانع . منشورات وزارة الاعلام – دار الرشيد للنشر – دار الحرية للطباعة – بغداد ١٩٨٠ .

(١٣) بناء الرواية – د . سيزا قاسم / ١٣٢ . الهيئة المصرية العامة للكتاب / ١٩٨٤ .

فتبدو المسافة شاسعة بينه وبين الراوي ، كما ان من الممكن ان يظل مختفياً على امتداد المسافة الإبداعية .

الرؤية مع

وقد ظهرت هذه الرؤية في القص الحديث وتهدف الى تحطيم الوهية الراوي ، حيث ان الراوي يترك الأحداث تسير شيئاً فشيئاً ، وهو في هذا يتساوى مع القارىء لانه حاضر معه . يشاركه الرؤية ، ويكون الراوي في هذا النمط مساوياً في علمه للشخصية ، لايتقدم عليها ولايتجاوزها . وهو لايقدم لنا اي تفسير للاحداث ، كما ان الراوي يستطيع ان يتتبع شخصية واحدة او عدة شخصيات.

ويمكن ان تتم الرواية في هذه الحال عبر منظور شخصية واحدة . وتستخدم هذه الرؤية الاسلوب المباشر والمناجاة الداخلية والمذكرات والرسائل واليوميات ، زد على ذلك « ان العلاقة التي تقوم بين الراوي وشخصياته تقوم ايضاً بين القارىء وتلك الشخصيات بالذات .. وتسهل الرؤية المشاركة تشبه القارىء بالشخصية » (١٤) .

وقد اطلقت الناقدة البلجيكية (فرنسواز فان روسوم جويون)(١٥) على هذا النوع من القص اسم (الواقعية الفينومينولوجية /الظاهرية ، والعالم التخييلي الذي يتمثل في هذا النوع من القص يرتبط بشخص ما ومكان ما.وهو عالم ليس له حقيقة موضوعية ولانراه في حقيقته المجردة ، بل يتبنى الراوي منظور الشخصية ويرى معها .

الرؤية من الخارج

والسارد هنا يعرف اقل مما تعرفه اية شخصية ، وهو يكتفي فقط بأن يصف لنا مايرى ويسمع ، اي انه لايستطيع ان يلج الى قرارة نفس شخصياته .

(١٤) دليل الدراسات الاسلوبية – جوزيف ميشال شريم / ١٧ . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – بيروت – ١٩٨٤ .
(١٥) بناء الرواية – د. سيزا قاسم / ١٣٣ .

فالراوي لايعرف شيئاً عن افكار الشخصية او يتظاهر بذلك . وتتبدى الرؤية الخارجية في مظاهر الادراك الخارجي للمواضيع المتلقاة ، وهي لاتهتم سوى باعمال المنظور الروائي وبالتالي فهي السلوك في ما نشاهد من مظاهر مادية ، مظاهر للشخصية وللوسط الذي تعيش فيه .

«وترتبط الرؤية الخارجية بصيغة التصوير التمثيلي عامة وبالحوار في المسرح وفي الروايات التي يغلب عليها طابع الحوار» (١٦) .

ويكيف (جيرارجينات) (١٧) الانجازات النظرية التي توصل اليها (بويون) وفقاً لمصطلحاته ، فهو يرى ان الرؤية من الخلف تجعل التبئير في درجة الصفر لأن الراوي يتقمص افكار الشخوص ويهيمين على كل شيء ولايتيح المجال للحركة التلقائية الحرة ، أي (غياب التبئير) . وبموازاة (الرؤية مع) يضع (جيرار جينات) مصطلح (التبئير الداخلي) الذي يقدم وجهة نظر الشخصية البؤرية ، وان المنظور الروائي يعتبر داخلياً لانه ينطلق من الشخصية الفاعلة داخل النسيج القصصي ، وهو يشي في ذات الوقت بعمق المنظور الروائي لأن الوضعية (الادراكية) تكون من داخل الشخصية المركزية اما الرؤية من الخارج فيقابله مصطلح (التبئير الخارجي) الذي يشي بالشخص المدرك ولكنه يركز على موضوع الادراك .

مستويات بناء المنظور

سعياً لتوسيع هذا المفهوم وعدم التقيد ببعض تحديدات الدارسين ، يميز الناقد الروسي بوريس اوسبنسكي بين عدة مستويات للمنظور في البناء القصصي وهي :

١ — المستوى الايديولوجي

٢ — المستوى النفسي

---

(١٦) دليل الدراسات الأسلوبية — جوزيف ميشال شريم / ١٨ .

(١٧) تحليل الخطاب الروائي — سعيد يقطين / ٢٩٧ .

٣ — مستوى الزمان والمكان

٤ — المستوى التعبيري (١٨)

ويمثل المنظور الايديولوجي « بناء القيم التحتي الشامل للعمل الأدبـــي الذي يبرز من خلال مستويات القيم المختلفة التي تطرح فيه » (١٩). ويحدد او سبنسكي هذه الايديولوجية العامة او وجهة النظر الأساسية التقييمية التـــي تحكم العمل الادبي بأنها «منظومة القيم العامة لرؤية العالم ذهنياً» (٢٠) ويتخلل هذا المستوى اجزاء العمل الأدبي ولايظهر منفصلا في بناء النص، بل يتخفى وراء مهارة الكاتب، واصبح بعيداً عن التحديد القاطع واحتماله لتأويلات شتى. و« عندما نتحدث عن المنظور الايديولوجي لانعني منظور الكاتـــب بصفة عامة منفصلا عن عمله ولكن نعني المنظور الذي يتبناه في صياغة عمل محدد، وبالاضافة الى هذه الحقيقة يجب ان نذكر ان الكاتب قد يختار ان يتحدث بصوت مخالف لصوته، وقد يغير منظوره — في عمل واحد — اكثر من مرة، وقد يقيم من خلال أكثر من منظور » (٢١).

وعلى هذا الصعيد يجري التركيز على التقويم (الايديولوجي) من خلال (مواقع) مجردة تقع في الخارج او حسب رؤية شخصية موجودة في العمل المحلل.

في الحالة الاولى نجد انفسنا «امام وجهة نظر ايديولوجية خارجية حيث الراوي خارج القصة. اما في الحالة الثانية فالوجهة داخلية لأن الراوي شخصية مشاركة » (٢٢) فعلى اساس التقابل بين داخل العالـــم الروائي وخارجه تتم عملية التمييز.

---

(١٨) و(١٩) و(٢٠) بناء الرواية — سيزا قاسم / ١٣٤،

(٢١) بناء الرواية — سيزا قاسم / ١٣٦.

(٢٢) تحليل الخطاب الروائي — سعيد يقطين / ٢٩٤.

اما المستوى النفسي فيشتمل على المنظورين : الذاتي والموضوعي ، حيث يقدم المنظور من خلال تجليات شخصية من الشخصيات او (عدة شخوص) وفق المظاهر السلوكية المختلفة . فعندما «يصوغ الكاتب بناءه القصصي يختار بين طريقتين : فهو يستطيع ان يبني احداثه وشخصياته من منظور ذاتي ، من خلال وعي شخص ما (او عدة شخوص) او ان يعرض الاحداث والشخصيات من منظور موضوعي ، او بمعنى آخر يستطيع ان يستخدم معطيات ادراك وعي او (اكثر) او يستطيع ان يستخدم الوقائع كما هي معروفة له هو ، وقد يذهب إلى استخدام الطريقتين في توافق او توال» (٢٣) .

ان الاحداث والشخصيات والحالة هذه يمكن ان تقدم من منظورين : موضوعي وذاتي وكلاهما قد يكون خارجياً او داخلياً . فالذوات المدركة للعالم هي ذوات الشخصيات التي تتفاعل مع الاحداث تفاعلاً مباشراً ، وقد يظل الراوي خارج نطاق هذا العالم او في صميمه اذا كان هو نفسه شخصية من الشخصيات .

ويقدم (أوسبنسكي) (٢٤) تقسيماً رباعياً لهذا المستوى :

١ – المنظور الموضوعي الخارجي

٢ – المنظور الموضوعي الداخلي

٣ – المنظور الذاتي الخارجي

٤ – المنظور الذاتي الداخلي

وتقوم هذه الانماط على : آ – وجهة نظر ثابتة او متحولة

ب – وجهة نظر داخلية او خارجية .

فقد تقدم الاحداث كلها بشكل موضوعي مما يجعلنا امام وجهة نظر ثابتة وبتقديم خارجي ثابت . او يقدم كل حدث من وجهة النظر نفسها بواسطة

---

(٢٣) بناء الرواية – سيزا قاسم / ١٤٠.

(٢٤) بناء الرواية – سيزا قاسم / ١٤١.

شكل ادراك الشخصية الوحيدة . لذلك فان وصف الحالات الداخلية لا يمكن ان يكون الا في تعالقه بهذه الشخصية ، بينما لا ترى الشخصيات الاخرى الا من الخارج . ان سلوك الشخصية آ يوصف من خلال ادراكه شخصية ب . وان الشخصية ب ذات ادراك خارجي في علاقتها بالشخصية آ وذات ادراك داخلي في علاقتها بنفسها (٢٥) .

ومن خلال هذا المستوى النفسي يلخص (لينتفلت) (٢٦) . الاشكال التالية :

١ — وجهة نظر ثابتة + إدراك خارجي

٢ — وجهة نظر ثابتة + استبطان شخصية + استظهار الشخصيات الأخرى .

٣ — وجهة نظرمتحولة متتابعة + استبطان شخصية متحولة + استظهار باقي الشخصيات .

٤ — وجهة نظر متحولة آنية + ادراك آني لشخصيات عديدة .

اما المستوى المكاني — الزماني فهو نتاج تفاعل عنصري الزمان والمكان وتأثيراتهما المتبادلة وارتباطهما بالطبيعة التخييلية للعمل الفني . وفي هذا المستوى يتحدد موقع الراوي — زمانياً ومكانياً — من القصة وشخصياتها . مع التذكير بأن زمن الرواية ليس هو زمن الساعة ، وان مكانها ليس المكان الجغرافي .

اما الاسلوب التعبيري فهو صياغة العمل الروائي بحيث تبرز من خلاله الشخصية ذاتها وهو يشتمل على عدة مستويات منها : السردي والحواري والكيفيات والتقنيات التي ينسج بها الروائي كلام الشخصية ، وتحولات وجهة النظر والانتقال من وجهة نظر إلى اخرى ، كما يبحث في العلاقات التي يقيمها الراوي مع خطاب الشخصيات ويحددها (أوسبنسكي) (٢٧) في وجهتي نظر :

---

(٢٥) بناء الرواية — سيزا قاسم / ١٤١ وينظر كذلك : تحليل الخطاب الروائي — سعيد يقطين / ٢٩٥ .

(٢٦) تحليل الخطاب الروائي — سعيد يقطين / ٢٩٦ .

(٢٧) تحليل الخطاب الروائي — سعيد يقطين / ٢٩٥ .

يأخذ الراوي وضع الملاحظ الموضوعي فينقل خطاب شخصياته بكل جزئياته حتى الصوتية منها . وفي الثانية يأخذ وضع المقرر الذي يتبنى وجهة نظر داخلية لأن الراوي هنا لا يركز على جزئيات الخطاب ولكنه يتدخل فيه عن طريق التفسير والتوضيح .

وظل النقاد يواصلون مناقشة المسائل الداخلية التي تتحكم في المسار السردي للكون الروائي ، وطرحت تساؤلات شتى : من الذي يتكلم داخل النص ؟ هل الراوي هو الكاتب نفسه ؟ ومن هو صاحب وجهة النظر في الرواية ؟ .

يقول رولان بارت : «ان الذي يتكلم في القصة ليس الذي يكتب ، والذي يكتب ليس هو الكائن الحي» (٢٨) ان المنظور الروائي يستنطق مختلف المراجع ، والرواية لا تقدم بشكل حيادي مجرد ، بل تخضع لزاوية الرؤية التي تقدم من خلالها ، بالاضافة إلى المرتكزات الجمالية . بحواملها الوجدانية والذهنية التي تؤسس للرواية تعبيرها الفني وللكاتب عمله الروائي . مع ضرورة التمييز بين الراوي والكاتب «فالروائي هو خالق العالم التخييلي وهو الذي اختار الاحداث والشخصيات والبدايات والنهايات — كما اختار الراوي — لكنه لا يظهر ظهوراً مباشراً في النص القصصي ، فالراوي في الحقيقة هو اسلوب صياغة ، او بنية من بنيات القص ، شأنه شأن الشخصية والزمان والمكان وهو اسلوب تقديم المادة القصصية . فلاشك ان هناك مسافة تفصل بين الروائي والراوي ، فهذا لا يساوي ذاك إذ أن الراوي قناع من الاقنعة العديدة التي يتستر وراءها الروائي لتقديم عمله» (٢٩) وهذا ما اشار اليه رولان بارت اذ قال : «ان الراوي والشخوص كائنات من ورق!» (٣٠) وان الراوي ليس وسيطاً

---

(٢٨) التحليل البنيوي للسرد — رولان بارت ، ترجمة حسن بحراوي واخرون . مجلة آفاق ، العدد ٨—٩ لسنة ١٩٨٨ .

(٢٩) بناء الرواية — سيزا قاسم / ١٣١ .

(٣٠) التحليل البنيوي للسرد — رولان بارت ، ترجمة : حسن بحراوي واخرون . مجلة آفاق العدد ٨ — ٩ لسنة ١٩٨٨ وينظر كذلك . محافل النص السردي الادبي ، جيب لنتفلت ترجمة : د. رشيد منجدو ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، العدد ٥٤ — ٥٥ ص ٣٤ .

بل قد ينصهر او ينفصل او يتداخل في بعض الحالات مع شخص المؤلف وصوته السردي .

٢ – في التطبيق

ان النص الأدبي يعبر عن نفسه ويبدع توازنه الخاص به . ومن هنا فاننا سنقدم تحليلاً لرواية (عرس بغل) (٣١) للطاهر وطار معتمدين على تلك التلميحات النقدية المتعلقة (بالمنظور الروائي) محاولين ان نضع حيز التطبيق واحدة من اهم النظريات في النقد المعاصر . وستكون شخصية (الحاج كيان) محور التمركز ، مطاردين منظورها وزاوية نظرها إلى الوجود والحياة ، دون ان ندخل في متاهات (الجدولة) والتقنين لمختلف المستويات . وشخصية (الحاج كيان) تمثل ايديولوجية النص الروائي ولا نقول ايديولوجية الكاتب ذلك أننا «ننظر إلى العمل الأدبي ككائن له استقلاله عن مؤلفه ونحرص على عدم الخلط بينهما . ويجب ان ينسب المنظور الأيديولوجي هنا إلى العمل نفسه لا إلى المؤلف سواء وافقه في الواقع ام خالفه» (٣٢) .

و (الطاهر وطار) لا يتدخل ليدلي بوجهة نظره بشكل مباشر ، ولكنه يترك وعينا ومن خلال السرد ، يستقبل الحدث الذي تعبر عنه الحركات والايماءات والاشارات قبل الملفوظ اللغوي ، وفي عملية انتاجه للنص الروائي ثمة لحظتين :
لحظة تمتلك لمواد شكلية وموضوعية ومفهومية متراكمة عبر تاريخه الأدبي ، تدفعه لاستثمارها عن طريق ممارسة اختيارات شكلية وموضوعية عليها .

ولحظة يقوم فيها الكاتب بتدمير تلك المواد الأدبية وتراثه الجمالي الابداعي وتشويهها ، ومن شظاياه وعناصره المفككة يشكل ويبني نظاماً معيناً قد يؤدي إلى احداث تغييرات ايديولوجية عن طريق التمثيل الروائي .

---

(٣١) منشورات دار ابن رشد للطباعة والنشر / بيروت ، لبنان . الطبعة الثانية / ١٩٨٣ .
(٣٢) بناء الرواية – سيزا قاسم / ١٣٦ .

«عندما اجتاز الحاج كيان ، سياج الصبار المحيط بالمقبرة ، ووجد نفسه ، يتسلل بين القبور في دربه المعتاد» (٣٣) .

بهذه الجملة الحالية تبدأ الرواية ، ومنها ندرك ان المفتاح الاول الذي ندخل به إلى عالم الرواية اعتماد الكاتب على تقنية (ضمير الغائب) . وضمير الغائب هذا (المروي عنه) ليس(الا قناعاً بالغ الشفافية لضمير المتكلم - الراوي) (٣٤) و (وطار) يولي اهتمامه بمسألة الشكل والبناء والأيهام ، ويتبع أسلوب (الرؤية مع) ، ويعتمد احياناً على(الرؤية من الخارج) اي الاعتماد على (التبئير الداخلي والخارجي) . ومن هنا تكمن صعوبة تحديد (المنظور الروائي) للرواية ، لأن هذه التقنية تحيل إلى (الأيهام) بتداخل شخصية المؤلف مع الراوي الذي يُعدّ بمثابة (الوعي المركزي) الذي يحرك مركبة السرد القصصي .

والخطاب الروائي في (عرس بغل) يسعى لأن يرسل خطاباً متميزاً وان يحقق ل (قوله) بعداً ذاتياً وجمالياً ، والعلاقة بينهما علاقة ترابط وانفصام في الوقت ذاته . ويبدو «الترابط في كون الخطاب الروائي يمكنه ان يضع نصب عينيه انتاج خطاب يرمي إلى الاحالة على مرجع ، ومن خلال ذلك يحقق البعد الجمالي المقصود . ويبدو الانفصام في كون الخطاب ذاته يبغي الاحالة على مرجع ، وفي الوقت نفسه يريد التركيز على جانبه الذاتي فقط» (٣٥) .

(الحاج كيان) يتقاسم الادوار مع شخصيات اخرى : العنابية ، وحياة النفوس ، وخاتم ، وحمود الجيدوكا ، فهم يتبادلون الادوار ، لتتمحور المواقف الفكرية والجمالية، وتتهيكل مختلف الجوانب النصيّة للعمل الابداعي الذي لا تخضع قوانينه لسيطرة الذات المبدعة. بل يظل العمل الابداعي الروائي مكتنزاً بمختلف التناقضات في مستوياتها المتداخلة بما يعكس الاهتمامات الفنية

---

(٣٣) عرس بغل / ٥ .

(٣٤) بحوث في الرواية الجديدة - ميشال بوتور / ٦٤ ، ترجمة فريد انطونيوس، منشورات عويدات، الطبعة الثانية، بيروت / ١٩٨٢ .

(٣٥) القراءة والتجربة (حول التجريب في الخطاب الروائي الجديد بالمغرب) ، سعيد يقطين ١١٩ . دار الثقافة ، سلسلة الدراسات النقدية - الدار البيضاء - المغرب /١٩٨٥.

والانساق الجمالية والقيم الثقافية التي تشكل حصيلة المؤلف المعرفية . وتهيمن روح (الحاج كيان) على الاحداث الروائية ، طاقة معنوية هائلة . لكن من هو (الحاج كيان) هذا ؟

« — لا احد يعلم من امره سوى انه حج إلى كيان» .
قرأ في جامع الزيتونة ، وعاش بأكبر ماخور في تونس ، وخالط كبار المجرمين بكيان ..

رجل شريف ونبيل وشهم . كان عالماً في جامع الزيتونة» (٣٦) .
لقد اعتمد (الطاهر وطار) على كل ما يمكن ان يمنحه «الاسلوب الحديث من طرق تعبيرية ايصالية : التداعي ، الارتداد الحدث النفسي ، التأزم الموقفي ، واضافة إلى ذلك فتيار الوعي غير منفصل ابداً عن الحدث الآني ، المعيش حتى العمق .» (٣٧) .

والبطولة لا تستمد قيمتها بما تقدمه للمجتمع من جدوى ، ولكن بما تعنيه بالنسبة للبطل من وعي ذاتي ، والبطولة التي يتمنطق بها (الحاج كيان) هي نوع من «البطولة المميزة على المستوى الفردي والنمطية الصارمة على المستوى الاجتماعي» (٣٨) .

وتظل تقنية (ضمير الغائب) تلازم شخصية (الحاج كيان) الذي يتحول إلى قناع من اقنعة الكاتب ، والشخصية الرئيسة في الرواية ، ومن خلال عيني هذه الشخصية نرى الاخرين ، ومن خلال وجدانها نحيا الاحداث المروية ، وفي هذا السياق يعلم الراوي بقدر ما تعلم الشخصية ويتبنى منظورها .

---

(٣٦) الرواية / ١٧ ، ١٣٩ ، ١٤٧ .
(٣٧) الطاهر وطار وتجربة الكتابة الواقعية — واسيني الاعرج / ١٠٠ — المؤسسة الوطنية للكتاب — الجزائر / ١٩٨٨ .
(٣٨) قضايا الفن الابداعي عند دستويفسكي — ميخائيل باختين — ترجمة د. جميل نصيف التكريتي / ٦٧ . منشورات وزارة الاعلام العراقية، بغداد / ١٩٨٦ .

ويهيمن المنظور الروائي الذي يمثله (الحاج كيان) من خلال توظيف الرواية (ضمير الغائب) بشكل اساسي في كل الفصول عند الحديث عن **تلك الشخصية**. و (ضمير الغائب) هو صورة اخرى لأنا المتكلم ، وهو ضمير بشكل خاص مع ضرب المونولوج المروي (٣٩) . واستخدام هذا الضمير هو محاولة من الروائي لأن «يتركنا خارجاً» كما يقول بوتور (٤٠) .

ومع حرص الطاهر وطار على عدم اقحام وجوده داخل المنظور الروائي وترك الاحداث هي التي تروي نفسها عن طريق استبطان وعي الشخصيات الروائية التي تقدم المنظور الروائي فانه ينحاز إلى(الحاج كيان) مع الحرص على عدم الانحياز لصوت روائي معين . بل الانحياز إلى جميع البؤر والزوايا السردية. فالى جانب (الحاج كيان) الذي ظل يرافق مركبة السرد بظلاله واشعاعاته ويحدد العلاقة بين الراوي والمؤلف وموضوع الرواية هنالك الشخصيات الاخرى . ويظل (الراوي الغائب) ليسعى لأن يكون عاكساً للاحداث والافعال التي تقوم بها بقية الشخصيات .

وهذا النمط من القص يتميز «بهيمنة موقع الراوي البطل الذي يحكم منطق بنية القص .

ان اصوات الشخصيات على تنوعها واختلافها ، ورغم الحوار والصراع بينها، تبقى في هذا النمط محكومة بموقع هذا الراوي البطل القابع خلف شخصية او خلف قضية» (٤١) .

وتقدم رواية (عرس بغل) عالماً غنياً منفتح الدلالات ، ومتعدد الشخصيات التي تكون عالم الرواية ، لا بمجرد اجتماعها وحضورها فيه ، بل بكونها محكومة بعلاقات معينة تمارسها وتحاول في الوقت نفسه ان تفهمها وتغيرها في

---

(٣٩) عن اللغة والتكنيك في القصة والرواية –حسن البنا، مجلة فصول، العدد الأول لسنة ١٩٨٤
(٤٠) بحوث في الرواية الجديدة – ميشال بوتور / ١٠٤ .
(٤١) الراوي : الموقع والشكل (بحث في السرد الروائي) يمنى العيد / ٨٢ . مؤسسة الابحاث العربية / بيروت ١٩٨٦ .

الممارسة وفي محاولة الفهم والتغيير ينبثق الفعل الروائي الذي يمتلك قدرته على ان ينتج لغته ويشدّ اليه مختلف عناصر الرواية .

كل هذه الشخصيات تخضع لتسلط مأساوي واحد الغالب والمغلوب فيها سيّان كلاهما واقع تحت رحمة زائلة في مجتمع منخور الاساس ، حتى المنتصر انتصاره آني لايدوم .

ويلجأ (وطار) إلى استعمال الحوار السردي والتناوبي مع ابراز العوالم الداخلية للشخوص :

«كان الحاج كيان ،يلمح بين عينيه ،تارة ابا الطيب المتنبي ،وتارة حمدان قرمط ، وتارة زكرويه الدنداني ، وكانت العنابية ترى غيمة تمطر اطفالاً ضامئين ، وكانت حياة النفوس ترى صدراً في طول الارض وعرضها ، اما الوهرانية ، فليس بين عينيها المغمضتين سوى بسمة الحاج كيان الوقورة . وكانت علجية ، ترى نبع ماء بين نخلتين منفردتين في صحراء لا اول ولا آخر لها جمود الجيدوكا كان يرى حزاماً اصفر ، يتلولب في الأفق . باي تونس واحوازها ، يرى عنترة في مراح ، امام خيمة شعر ، وسط مرج اخضر» (٤٢).

ويعتمد (الطاهر وطار) على الوصف ليؤدي دور الموحد بين وجهة نظر المحمولات والموضوعات ، فمع الحرص على نقل (المنظور الخارجي) نقلاً دقيقاً ، فإن الوصف يعكس (نظرة) شخصية او شخصيات الراوي وتطور هذه النظرة إلى الموصوفات بوصفها حاملة سر او رسالة او علامة مفيدة في مرحلة لاحقة من السرد .

ثمة معارف عديدة يتكون منها الكون الروائي لـ (عرس بغل) الذي يتلون بين الثقافة التاريخية واسقاطاتها إلى الثقافة الشعبية بكل تنويعاتها المحلية :اغان

---

(٤٢) الرواية / ١٣٣ .

شعبية، عادات وتقاليد، تنقل المتلقي إلى العوالم الداخلية لاسرار النفس الانسانية بكل تناقضاتها وتقلباتها وضياعها في متاهات التهميش والقلق :

«.. ملايين الاجرف، ملايين البشر يقفون على حافات الأجرف، الأجرف تهوي. هم ايضاً يهوون. المواقع تختلف بعضهم يغمره التراب، بعضهم في اسفل سافلين.. الجميع في الهاوية، والجميع ضد الهاوية. الجميع يسعون إلى فوق. الفوق كله اجرف» (٤٣).

وتمتلك الرواية قدرتها على استعمال الاشكال الحوارية الأكثر تنوعاً، استعمالاً مزدوجاً لنقل كلام الآخرين والتي تتشكل داخل الحياة العادية وفي العلائق الايديولوجية غير الأدبية ومنهاجميع تلك الاشكال التي تقدم وتستنسخ داخل الملفوظات المألوفة والايديولوجية لشخصيات الرواية، وللاجناس المتخللة ايضاً، مذكرات واعترافات، ويمكن لجميع اشكال النقل الحواري لخطابات الآخرين ان تكون تابعة ايضاً وبكيفية مباشرة لمعضلات التشخيص الأدبي للمتكلم ولكلامه، مع توجه نحو صورة الكلام والتعرض لتحول ادبي محدد.

«ان فعل الشخصية وسلوكها في الرواية لازمان، سواء لكشف وضعهما الايديولوجي وكلامها، او لاختبارهما» (٤٤).

والبطولة لا تستمد قيمتها من جدوى ما تقدمه للمجتمع، ولكن بما تعنيه بالنسبة للبطل من وعي ذاتي، ذلك ان «الرواية موت، انها تصنع من الحياة مصيراً، ومن الذكرى فعلاً مفيداً، ومن الديمومة زمناً موجهاً ودالا : لكن هذا التحويل لا يمكن ان ينجز الا في عيون المجتمع. فالمجتمع هو الذي يفرض الرواية، اي يفرض مجموعة من الاشارات باعتبارها تعالياً لديمومة وتاريخاً لها» (٤٥).

---

(٤٣) الرواية / ٦٤.

(٤٤) الخطاب الروائي – ميخائيل باختين – ترجمة وتقديم محمد برادة / ٩٠. دار الامان للنشر والتوزيع – الرباط – المغرب / ١٩٨٧.

(٤٥) الدرجة الصفر للكتابة – رولان بارت – ترجمة محمد برادة / ٥٦. الطبعة الثانية. دار الطليعة / بيروت / ١٩٨٢.

ويظل بطل الرواية منخرطاً في البحث عن زمن يوازي به زمنه ويعطي به معنى لوجوده . وان الانتقال إلى الماضي لا يعني الاستغراق فيه لذاته ، ولكنه وظف لينقل للقارىء حسا مأساوياً ممزوجاً بالسخرية ازاء الحاضر ونكساته : «مسكين المستعين بالله ، قتلوه في طريقه إلى واسط . احمد بن طولون الذي سلمه للقتل مع انه اختاره لصحبته إلى المنفى ، يجب ان يُبعد .. ها ايها العرب . هاكم ما كنتم طيلة حياتكم تلومون العباسيين عليه ، تعالوا احموا الخليفة فأنني لا خاف أن ينزل على بغا من السماء او يخرج علي من الارض» .. الوضع كله فاسد ، لن يصلحه خليفة ، لن يصلحه دين ، ليتني مارضيت بمزاحمة المستعين ، اذ ماالذي يدفع إلى البكاء من لم يحن دوره في ذلك» (٤٦) .

ان (الحاج كيان) قد يكون هو الذات الثانية للمؤلف ، او هو المؤلف الضمني المبثوث داخل العمل الروائي عبر هواجس وحالات ومنولوجات هذا البطل النامي الذي عجنته سلسلة من التحولات والتجارب المركبة فهو طالب زيتوني ، جزائري الاصل ، ينتمي إلى احد الأحزاب ويكرس حياته (للجهاد) ويقرر : «ابدأ التجربة من دار البغاء . يجب ان اقهر ذاتي ، قبل ان اقهر غيري ، من لم ينتصر على نفسه ، لن ينتصر على غيره . كل واحدة تتوب اجندها ونضيفها في قائمة الاخوان» (٤٧) .

ويظل المنظور الروائي عبر شخصية (الحاج كيان) والتي كثيراً ما تمتزج مع ذات الراوي عبر تهويماتها وهذيانها ورؤاها الكابوسية ، ليتشكل الموقف الفلسفي والاجتماعي والايديولوجي الذي يكون وعي النص بكل غناه المضموني. «انه يبشر المؤمنين بالحور العين والكواعب الاتراب ، ولا يبشر المؤمنات الا بقطع السكر . كل ما يتعلق بهن يأتي دائماً مرتبطاً بالرجل . وقد يكون بضاعة بائرة ، لان بعض المؤمنين ينشغلون بالولدان المخلدين .

---

(٤٦) الرواية / ١٦٠ – ١٦١ .
(٤٧) الرواية / ٤٣ .

ايها الخوني ، ايها الزيتوني . لقد بدأت تنحرف عن الطريق ، قبل ان تشرع في سلوكه . انك تجندت للدعوة إلى اقامة دولة الكتاب والسنة ، وليس إلى تقويض اركان الدين ، او إلى مناقشة اصوله» ..

لا تكن معتزلياً قبل ان تكون مسلماً..» (٤٨) .

ان النفاذ إلى النص الروائي يمر عبر هاتين القناتين : (الراوي) و (البطل) واحياناً عبر زاوية نظر متعددة الاصوات لتسلط الضوء على باقي الشخوص . لقد كون البطل مادة وعيه الذاتي عبر انتقالاته ورؤاه التي اخرجته عن حدود شخصيته ومزاجه ليحدق في مرايا الاخرين ويرى صورته تنعكس فوقها فيجمع عندئذ شتات ذاته ليكون صورته عنها وما يحيط بها .

ويذكر الكاتب بالمواقف التي يمر بها (الحاج كيان) على طريقة استدعاء الماضي ، ليعمق قسمات الشخصية وليبرر تصرفاته ، بل ويلقي الضوء على مكوناته الفكرية الاولى . بالاضافة إلى عزلته الروحية المثيرة للتساؤل ، تلك العزلة التي تدفعه للعيش وسط القبور ..

«.. انت هيكل عظمي بين الهياكل ، في جب عظيم وسط المقبرة المهجورة .. الدوي بدأ بعيداً ثم اخذ يقترب شيئاً فشيئاً ، انه هو ، عزرائيل يتفقد زبائنه ، انه غاضب اليوم اكثر مما يجب على ما يبدو . ضربات عصاه السريعة تهتز لها الأرض ... كل شيء الان سحري ، كل شيء الآن يحتمل الشك واليقين . كائن وغير كائن . الظلال والثمار ، الحرائر والغيد الاماليد والولدان المخلدون. بيادر الحشيش ، وودبان العسل .

— من اكون ؟ .

فكر ان يتساءل ، الا ان مرآة كبرى وضعت امامه ، فراح يتأملها في كسل وخدر..» (٤٩) .

---

(٤٨) الرواية / ٤٥

(٤٩) الرواية / ١٠ - ١٢ .

ان مركبة العالم الخارجي هي التي تتحكم بحركة العالم الداخلي للشخصيات ، بمفاجآته وتناحراته القاسية ، وغالباً ما تعصف تلك الاحداث العنيفة بالعلاقات القديمة لتفسح المجال لعلاقات اخرى جديدة تؤول بدورها إلى الاندثار ، الجميع داخل تلك العلبة البشرية اليوم يكمل الأمس :

«حمود الجيدوكا فاته الركب ، ولن يثبت في الميدان يومين ، انهزم قبله ، ومن اجل هذه البنت بالذات ، اربعة هزية . (اكحل الرأس) وما ادراك ، انهزم بوهسراوة وما ادراك اختفى امام (حميد الترسيتي) ، حميد الترسيتي وشطارتـه اكلها امام (باباي البوكسور) وتنازل له عنها ،ودخل في خدمته ، حتى جاءهما هذا اللعين (خاتم)» (٥٠).

وبعدهم القروي وهكذا تدور الحياة ؛ وهم جميعاً في مستوى مأساوي واحد تحت وطأة مجتمع معطوب من الداخل . ولعل علاقات شخصيات (المؤسسة) او الماخور بالحاج كيان تظل الاكثر ثباتاً ، ويظل مزاجها يتلون بالاعجاب والتقدير والاستفهام المتواصل عنه : اين يذهب ، واين يختفي .

ولما كان المونولوج الداخلي تقنية لتقديم المحتوى النفسي للشخصية دون التكلم بذلك على نحو جزئي او كلي في اللحظة التي توجد فيها هـذه العمليات في ا لمستويات المختلفة للانضباط الواعي قبل ان تتشكل للتعبير عنها بالكلام على نحو مقصود (٥١) . فأن المونولوج عند(الحاج كيان) مضمخ برائحة مأساوية حزينة ، ومحصن باطار تعبيري متماسك «لقد قنعت بها طيفاً ، خولة اخست خير أخ وابنة خير أب . لقد تقوقعت على نفسك مرة أخرى . الاشعري وحسن والمتنبي ، وطالب التجويد ، ينبعثون فيك من جديد . لا . لقد ماتوا جميعاً . ماتوا في كيان ، بل في الطريق اليه » (٥٢) .

---

(٥٠) الرواية / ٣٦

(٥١) تيار الوعي في الرواية الحديثة . روبرت همفري/ ٤٢ . ترجمة د . محمود الربيعي ، دار المعارف بمصر . الطبعة الثانية / ١٩٧٥ .

(٥٢) الرواية / ٩٩

يعلن البطل موت (مثله) التي تصدعت فوق صخرة المنفى بل وفي بداية الطريق . وينكفيء على ذاته المقهورة ليمارس تجربة الامتصاص اللـــذيـــذ للتأملات المشعة ، بالكشوفات والشعر والتصوف .

«ينـزل زمـان الأزمنـة ، وتنزل ابدية الابد ، تتحول الجبة الى حلاج ويتحول الحلاج الى جبة ، انها مرحلة التمثل ، مرحلة المرور الـــى خاتمة المطاف في الرحلة » (٥٣) .

ويمثل (الحاج كيان) قمة الوعي الانساني في فهمه لاليات القهر والبؤس التي تتحكم في المجتمع الذي يشييء الانسان ويحوله الى سلعة رخيصة تبـاع بالتقسيط الى ان تنفذ او تصاب بالكساد « فليس هناك سوى الرحـــى ، ذات الفكين المتعاكسي الدوران ، تطحن القلوب وتفرز الألم » (٥٤) .

ان اشاعة الروح المأساوية المتغلغلة في المنظور الروائي العام قد اعطاها بعداً انسانياً عميقاً ومنحها قوة هائلة في مجرى عملية التحول والتناوب والتدرج داخل بناء حلزوني لايمنح نفسه بسهولة للقاريء غير المحترف :

« ـ يابنت الناس ، اذا كان النبع واحداً ، فلم الجري وراء طعم مغايــر للماء . انت تاجرة . هنا او هناك ، وانا هامشي هنا او هناك ، فلم الخـوف والجري والجشع ... انت جزء من بضاعة كبيرة تباع بالتقسيط ، من كدس ينقص ويكبر ، وانت في الدار ، وفي غمرة الحياة الزوجية مريض بالسرطان محكوم عليه ، بالسير نحو نهايته ، خطوة فخطوة ، وبدون أية مقاومة ، حتى يفتقد الخطوات ، وينتهي سيره » (٥٥) .

ويصل الى ذروة الوصف والتصعيد لتلك المواقف الانسانية المأساوية ، ولعل الموقف الذي يقفه (الحاج كيان) في آخر الرواية يمثل ظاهرة فنية وبنائيـــة

---

(٥٣) الرواية / ٧٧ .
(٥٤) الرواية / ٤٢ .
(٥٥) الرواية / ١٥٢ .

ذات صلة وثيقة بالمنظور الروائي الذي يرسمه (الطاهر وطار) : «عندما وجد الحاج كيان نفسه خارج الباب ، بصق خلفه ، كان الشعور بالتفاهة والحقارة يملأ قلبه . البضاعة في الداخل ، مكدسة ، شرائح شرائح ، لأحد يشعر بعفونتها ولابنتانتها ؛ مادامت تدر نقوداً فهي جيدة ، لاشيء رديء في هذا العالم الاماليس له قيمه تجارية .

تفوه ، تفوه » (٥٦) .

ويتغلغل المنظور الروائي عبر الحاج كيان في أعماق التأريخ العربي الأسلامي القديم لاستعادة بعض الملامح والوجوة المستنيرة ، وذلك عبر التناص التأريخي لحركة القرامطة واسقاطها على الحركات الثورية المغدورة — ضمناً ورمزاً — في عصرنا الحديث .

« ايها الجائع لك ان تأكل .

أكل الجائعون جميعاً . الا ان الاتباع لم يكونوا صادقين .

ايها الجائع لك ان تأكل .

اكل الجائع ممتناً ، الا ان الجائعين يتكاثرون .. احفظ الرأس ولاتخشى على الجسد ، جسد الجياع اكبر من ان يقضي عليه الاثرياء .اذا ما تمكنت منها (الخلافة) فابدأ بعلماء السوء ، اجبرهم على العيش من عرق جبينهم .. »(٥٧).

ان توهجات وعي الحاج كيان تمتد عميقاً لترسم تلوينا تها عبر النسيج القصصي العام الذي تتداخل فيه كل تساؤلات الفنان الفكرية والفنية تداخلا فذاً ، ويختلط الداخل بالخارج في حوار صامت صريح . وهو عندما يستعير التأريخ في عقل هذه الشخصية الرئيسة أي (الحاج كيان) فان لاستعارته معنى اكثر حميمية وان كان التأريخ ليس سوى ما يكتبه الاعداء المنتصرون عن الخصوم المنهزمين « انقضت السنة الدراسية الفارطة في ابراز مآثر ابي الحسن

(٥٦) الرواية / ١٩١ .

(٥٧) الرواية / ١٠٧

الأشعري واياديه البيضاء على الاسلام وفي ذم خصومه الكفرة الملحدين المعتزلة اصحاب الأفكار المستوردة في الاسلام» (٥٨) .

ويظل المونولوج المتناغم مع ايقاع الحياة في تفاصيلها اليومية التي تعانق التراث المحلي ، والغناء الشعبي الذي توشيه الفجيعة والألم .

«عينيك والشمس ، بي الاثنين طلبوا هلاكي .

أنا قليلة الوالي ..

احبابنا ياعيني . رحنا وراحوا عنا ، ولاحد منا اتهنا ...» (٥٩)

واحياناً أخرى تخلق بأسلوب فنطازي صوفي يعانق الانعطاف الداخلي لنفسية الحاج كيان المكلومة ، كي يقدم منظوره الروائي للكون والوجود عبر انساق لغوية شفافة كأنما البطل يحاول ان يتصالح مع ذاته ويتطابق مع نفسه في لحظات التشكل والاشراق والمصارحة :

« غرباء وسط الفراغ والعدم

تلتقي الابعاد كلها ، ويتشكل البعد الكلي في الزمن الكلي وفي الكائن الكلي مااليوم والليلة ؟ ماالشهر والسنة ؟ ماالقرن والدهر ؟ لولا خدعة الموت لما كان لذلك معنى ، الموت نفسه ، لولا خدعة الرؤية الفردية ، لما كان له أي معنى .في آخر البعد ، ليس هنالك سوى الكائن الكلي» (٦٠) .

---

(٥٨) الرواية / ٢٩ .
(٥٩) الرواية / ١٩٦ ، ١٦ ، ١٨
(٦٠) الرواية / ١٠٢ .

جدل اللون في شعر خليل حاوي

د. بشرى حمدي البستاني
كلية الاداب / جامعة الموصل
قسم اللغة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

— ١ —

الشعر « جنس من التصوير »(١) هذا ماقاله الجاحظ في تعريف الشعر قبل اكثر من احد عشر قرناً ، وحينما تناول الناقد الفرنسي سي — دي لويس الصورة الشعرية عرفها بأنها «رسم قوامه الكلمات» (٢) ، وفي ميدان الكلام عن الرسم قال المحدثون : « الرسم هو الشعر ، وهو دائماً يكتب على شكل قصيدة ذات قافية تشكيلية ... وعلى الرسم ان يفعل بالعين مايفعله الشعر بالأذن » (٣) ويستحضر اللون عادة من خلال ذكر المفردات الدالة على الألوان ، إذ يستثير ذكر اللون « حاسة البصر الخاصة والمكلفة بتوصيل ذبذبات اللون الايقاعية الى المخ ، وذلك من جراء استثارة المراكز العصبية وتحريكها بواسطة التخييل لا التشكيل المباشر» (٤) واللون « وسيلة هامة من وسائل التعبير والفهم ، وقد دلت الابحاث والتجارب على انه لايزال كنزاً مخبوءاً لم يستطع الانسان اته يصل الى قراره ... انه قوة موجبة جذابة تؤثر في جهازنا العصبي ... (٥) واثره لايقل عن أثر الموسيقى والغناء في النفس ، وربما فاقهما بعض الأحيان .. حتى عده بعضهم حاسة في نفسه كالحواس الاخرى ...» (٦) وهذا مادفع بعض النقاد الى ان « يضيف عنصر اللون الى

(١) الحيوان — الجاحظ ، ٣ / ١٣٢ .
(٢) الصورة الشعرية — سي— دي لويس، ترجمة د. احمد نصيف الجنابي واخرون ص٢٢.
(٣) الشعر والرسم — فرانكلين ر . روجرز ، ترجمة ، مي مظفر (ومصادره) . ص٤٥.
(٤) ايقاع اللون في القصيدة العربية الحديثة — د. علوي الهاشمي (مهرجان المربد التاسع ١٩٨٨) ص٣ .
(٥) اللون — محمد يوسف همام ص ١ .
(٦) نفسه ص ٥ .

عناصر بناء النص الشعري الاساسية وهو الموسيقى والعاطفة والخيال ، ومن شأن تلك العلاقة الاشكالية المتلابسة بين موسيقى اللغة وموسيقى اللون إن جاز التعبير ان تنتج ايقاعاً داخلياً اكثر التصاقاً بحركة الذات يمثل جوهر الموسيقى الاصل وجذرها الجامع الذي لاشكل له سوى شكل الذات الغامض وحركتها الحية » (٧) فردود الفعل النفسية تتباين لدى استقبالها الالوان تباينها وهي تصغي الى الموسيقى ، واللون قديم قدم الانسان ذاته » وله مدلول عام عند الشعوب ومدلول خاص عند الافراد ، فالشعوب اتخذت الالوان رمزاً عاطفياً لكيانها اوسياسياً كالاعلام » (٨) لذلك كان لوجوده في الشعر أهمية في تلوين الصورة ودور في تحريك أجواء القصيدة ، منذ عصر ماقبل الاسلام وحتى اليوم (٩) .

وانطلاقاً من أهمية اللون في تشكيل الشعر يحاول هذا البحث المتواضع دراسة الألوان في شعر خليل حاوي مقتصراً على مجاميعه الثلاثة المنشورة في « ديوان خليل حاوي » (١٠) مؤكداً على القصائد المهمة في كل مجموعة ، على ان المجموعة الثانية قد احتوت اربع قصائد ، بينما ضمت المجموعة الثالثة ثلاث قصائد حسب ، ولذلك اقتصر كل مبحث على قصيدة اوقصيدتين استطاعت ان تبلور موضوع البحث بجلاء ..

— ٢ —

من قرية الشوير الجبلية اللبنانية طلع صوت الشاعر خليل حاوي مفعماً بمكابدات الانسان العربي المحاصر بعذابات أمة تعاني شرطها التاريخي والحضاري ، وتناضل ضد استلاباتها المعاصرة ، فقد « عانى الشاعر المسألة الحضارية معاناة شخصية ويومية ، واصبحت قضية الانبعاث الحضاري الذي

---

(٧) ايقاع اللون في القصيدة العربية الحديثة ص ٤ — ٥
(٨) علم عناصر اللون — فرج عبو ص ١٣٥ .
(٩) ينظر مثلاً : التعبير عن اللون في الشعر العربي القديم — د. وولف دتريش فيشر ، مجلة التربية والعلم ١٩٨٩/٨ ص١١ — ٢٢ .
(١٠) ديوان خليل حاوي ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٢ م .

يخص الامة العربية بأسرها هاجساً ذاتياً بالنسبة له فاتحد لديه العام والخاص في تجربة شعرية عبرت عن ذاتها بالرمز » (١١) .

وفي بحثه عن طريقه النضالي انخرط الشاعر في صفوف الحزب القومي السوري لكنه لم يلبث ان انفصل عنه حينما وجد ان معالجاته لاتلبي ماكان يطمح اليه مما « قاده الى اكتشاف قيم الحضارة العربية من جديد ، فسرفض المبادىء التي قام عليها الحزب القومي السوري ، وادرك ان الدعوة للوحدة يجب ان تكون بأسم العروبة لانها السمة الجوهرية التي يتسم بها تراث هذه المنطقة » (١٢) .

ومضى الشاعر في طريق المعاناة ، حتى نهايته ، فقد عاش فرحة وحدة مصروسوريا عام ١٩٥٨ وذبح بالانفصال عام ١٩٦١ فكتب قصيدة (لعازر عام ١٩٦٢) حيث كان الحدث ردة نحو الانحطاط ونفياً لحالة الابداع التي كان يمكن للعربي ان ينطلق من خلالها نحو بناء الشخصية العربية القادرة على التطهر من أدران واورام الماضي ، وحفر اليأس في أغوار الشاعر مالـم يستطع معالجته عبر الاحداث التالية ، فقد كانت خيوط الامل ماتلبث ان تتلاشى ليحل في الجو العربي ظلام دامس حتى وقعت كارثة لبنان ، ثـم الاجتياح الاسرائيلي لوطنه ، فلم يجد له خلاصاً إلا في الانتحار حيث وضع حداً لازمة القهر والمكابدة الانسانية الجارحة ليلة السادس من حـزيران عام ١٩٨٢ .

لقد اتسم شعر خليل حاوي بتلازم الكلمة والفعل والحياة والقصيدة ، كما اتسم بأنكاره الاساليب الجاهزة ، وتعامل مع الكون وفقاً ليقينه وقدرته فكان اداته الحقيقية الوحيدة في استشراف الحاضر والماضي والمستقبل ، ذلك الشعر الذي عرف بكلية التجربة وأهمية الفكر ودور الثقافة التي تهدىء أوار النفس، وتكشف أبعاد الروح ، فضلا عن اهتمامه بالايقاع الذي كان يعده ضروريا

(١١) خليل حاوي – ريتا عوض ص٢٥ .
(١٢) نفسه ص٢٣ .

لاكتناز الشعر وخلق وحدته العضوية التي تحفظه من التشتت والأنفراط . (١٣).

واذا كان اللون في الشعر العربي لم يدرس الدراسة الكافية التي تكشف عن دوره المهم في تشكيل الصورة (١٤) فأن حركة اللون المركزة في شعر خليل حاوي تدعونا بألحاح الى تأشير ودراسة هذه الظاهرة .

واذا كان بعضهم قد عد حضور اللون في الشعر « تعبيراً حسياً عن جمال مظاهر الاشياء بأعتبارها وسيطاً معبراً عنه بالكلمات لوصف الالوان النابعة من الطبيعة وصفاً حسياً يقترن بحاسة البصر » (١٥) فان مايقوله اللون في شعر حاوي اكبر من ذلك بكثير ، إنه جزء فاعل في تلك المكابدة المريرة التي قدر للشاعر ان يعانيها بوجد إنساني عميق ، وهوهم مضاف الى هموم الكبيرة في ازمته التي تداخلت فيها وألهبت عروقها مواجع الامة العربية ، فنرى اللون يتشظى ويتحول ، يتلوى بكنوزه ثم ينبثق ملحاً وكبريتاً ، وهكذا تواصل الالوان رحلتها في شعر خليل حاوي حتى النهاية ..

– ٣ –

يتسم (نهر الرماد) بالتداخل ما بين الخاص والعام ، وبالحضور الملح للموت ، كما تتسم معظم استشرافاته بالخراب الشامل ، حتى أن عنوان الديوان يكاد ينسحب على كل القصائد ، ولاتنجو من السقوط في براثن

---

(١٣) ينظر : خليل حاوي : ملامح وثوابت في سيرته وشعره – ايليا حاوي ، مجلة الأداب العدد ٦ لسنة ١٩٩٢ ص ٤٢ – ٥٠ وخليل حاوي . الشاعر الناقد . الفيلسوف – د. ريتا عوض ، الا داب ٩٢/٦ ص٢٨ – ٣٦ .

(١٤) ننظر مثلا : اللون في الا دب العربي القديم – علي الشوك ، مجلة الاديب العراقي ١٩٦١/٢ ، ص ١٦ – ٣١ ، والتعبير عن اللون في الشعر العربي القديم وجماليات اللون في القصيدة العربية – محرر حافظ ذياب ، مجلة فصول ١٩٨٥/٢ .

وشاعرية الا لوان عند امرىء القيس، محمد عبد المطلب فصول ١٩٨٥/٢ ص ٤٠ – ٦٠ والتشكيل اللوني في الشعر العراقي الحديث – محمد صابر عبيد ، مجلة الا قلام ١١/ ١٩٨٩ ص ١٦٩ – ١٧٩ .

(١٥) الا دراك اللوني في شعر شاذل طاقة – قيس كاظم الجنابي ص١ ندوة(شاذل طاقة ، شاعراً وانساناً) ، كلية الا داب ١٩٨٩، جامعة الموصل .

الموت غير قصيدتين اثنتين من خمس عشرة قصيدة اي بنسبة ٨٧ ٪ . (١٦).
فكيف تعاملت هذه الرحلة الكآبية مع اللون في الديوان ؟

في القصيدة الاولى (البحار والدرويش) يطالعنا استهلال يعمل بقوة على نفي بهجة اللون : دوار البحر ، الضوء المداجي ، عتمات الطريق ، ينشـــر الاكفان زرقاً ، في فراغ الافق اشداق كهوف ، وهج الحريق ، فالبهجـــة المحتملة في ألوان ، مفردات : البحر ،الضوء ،الطريق ، زرقاً ،الافق ، وهج سلط عليها الشاعر سلطته الرمادية فأحالها الى الضد من خلال علاقاتها التـــي تشكلت في التركيب : (١٧).

بعد ان عاني دوار البحر
والضوء المداجي عبر عتمات الطريق
ومدى المجهول ينشق عن المجهول
عن موت محيق
ينشر الأكفان زرقاً للغريق
وتمطت في فراغ الافق اشداق كهوف

لفها وهج الحريق /بعد ان راوغه الريح رماه / الريح للشرق العريق .
وتنتهي القصيدة بأعلان الموت الكامل لاية بهجة لونية متوقعة ، حيـــث يعلن الشاعر موت الضوء ،وبموته يسود الظلام وينسدل لون أسود على الأشياء جميعها : (١٨) .

مبحر ماتت بعينيه منارات الطريق
مات ذاك الضوء في عينيه مات !

---

(١٦) ينظر : بذور الموت في شعر خليل حاوي – شوقي بغدادي ، مجلة الا دا ب ، العدد ٦ ١٩٩٢ ص ٥٨ .
(١٧) ديوان خليل حاوي ص ١١ .
(١٨) ديوان خليل حاوي ص ١٩.

إن الشاعر يعطي اللون اهمية خاصة في تشكيل صوره الشعرية ، لكـــن تشكيله الصوري لايعتمد مفردات اللون المباشرة عبر مجاميعه الثلاثة لانـــه يعطي الأهمية القصوى لرموز اللون وإشاراته، فالمنارات تبعث الضوء بألوان متفاوتة تميل الى الصفرة أوالحمرة، كما تشير الموانيء النائية الى ألوان ضوئية تتلألأ، وللطين المحمى لون يختلف عن لون الطين الموات ، وعملية الاحتراق تتم عبر لوني الأحمر والأزرق ؛ والبحر يكثف الزرقة بينما تحمل امــواجه الابيض اللجيني ، وألاكفان تغادر لونها ألابيض حينما تمتص الازرق من البيئة البحرية حولها ، وهكذا تواصل الالوان تحولاتها لتنسجم مع مزاج الشاعر وحالاته النفسية .

في ليالي بيروت (١٩) تسيطر العتمة على أجواء القصيدة حيث تكـــرر مفردات : الليل ، العتمة ، الكهوف ، واشباهها ، مما يدعو الشاعر الى الأستغاثة بالصبح كي يساعده على الهرب من واقع أسود ، ففي الصبح يستطيع الشاعر ان يواصل حالة الهرب من مواجهة الذات واحباطاتها إذ يضيع فـــي الزحام ، وفي الصبح يعاود التلاحم مع وجهه المستعار :

ردّ لي ياصبح وجهي المستعار

إن الصبح إذ يمثل خيط نور للآخرين يتحول إلى الضد في تجربة الشاعر لأنه يصير حالة سلب جديدة فمصادر العذاب ذاتية تطلع من دمه :

ردّ لي .. لا ايّ وجه ؟

وجحيمي في دمي .. كيف الفرار !

ان ازمة خليل حاوي لا تكمن في الظلمة التي تنشر حوله كوابيسها، وليس خلاصه من هذه الأزمة يكمن في حلول النهار ، ذلك لان حالة النور الكوني

---

(١٩) نفسه ص٢٢.

هي الاخرى تنفي انسانيته ، وتسيء إلى ذاته وكينونته ، فحركة القصيدة إذن لا تتجلى من خلال الحضور اللوني المركز في هذه الاسطر ، وانما يكمن عنفوان الفن الشعري في صميم حركة اللون المأزومة التي تشكل نبضاً فاعلاً في ازمة القصيدة ذاتها، لانها ازمة تنسحب جذورها لتمتد في اغوار امة كاملة محكومة بالقهر والتسلط .

إن الصبح هنا مجرد ظرف يحمل في ثناياه مخاض صراع بين الثورة وعوامل الضد، وتعبيراً عن حالة العجز امام جبروت الطغاة يعلو صوت الشاعر منكراً ، مجابهاً ازمة الصراع اللوني باللون :

أتجرّ العمر مشلولاً مدمّى ..

دون جدوى ، دون ايمان بفردوس قريب

وبذلك تنفي الحالة اي امل بفردوس قريب ، لتكون الحميم حالة شاملة ، وخليل حاوي قد عرف جحيم المسلمين والنصارى كليهما؛ وهو يدرك تفاصيل ذلك الواقع المرعب ، انها في الاسلام الوان من العذاب : « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها» «في سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم» وهي «ترمي بشرر كالقصر ، كانه جمالة صفر» (٢٠) وهي في المسيحية «حفرة في عمق اعماق الارض ، ما وراء الهاوية حيث يخيم ظلام دامس ، وحيث اشراقها كالظلام الحالك ، وهناك ليس بمقدور البشر ان يسبحوا الله او يرجوا عدالته او امانته ، إنه التخلي التام ..» (٢١) وهي «مظلمة وبدون فرح ... بعيداً عن الله وعن الحياة الحقيقية» (٢٢)

والجحيم عقاب على الخطيئة ؛ وخطيئة خليل حاوي هي خطيئة امة كاملة حيث تضرى مكابدتها في دمه: انها غياب الانسجام والتوازن وفقدان الأمن ،

---

(٢٠) سورة النساء آية ٥٥ ، والواقعة آية ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ والمرسلات ٣١ ، ٣٢

(٢١) معجم اللاهوت الكتابي .

(٢٢) معجم اللاهوت الكاثوليكي .

وهي التشتت والضياع والبحث عن الاوصال الممزقة ، والرعب من الآتي ..

وجحيمي في دمي .. جملة اسمية توحي بالثبوت والاستقرار (٢٣) وهذا تعبير عن ذروة الصراع ودوامه ، فالأحمر لون النار والدم وهو اكثر الالوان إثارة للبصر وللتشكيلات الصورية ، انه لون الجراح والاستشهاد ولون الحرية التي تنتزع بالدم لذلك كان لهذا اللون ومشتقاته نصيب وافر في شعر حاوي ، ومفردة (فردوس) توحي بأعذب الالوان ، إشراقاً وتنوعاً ، إنها باختصار تفتح افقاً واسعاً ، لاحتمالات تشكيل لوني يمنح حرية كافية للذوق المتلقي كي يتحرك بفاعلية داخل النص الشعري فيرسم كما يشاء صورة فردوسه كما يتخيله هو ، دون ان تسيطر عليه ادوات الشاعر اللونية فالمتلقي هو الذي يخطط الوان فردوسه ، وهو الذي يشكل درجاتها صعوداً وهبوطاً ، وهو الذي يتحكم في تشكيلاتها بعيداً عن سلطة الشاعر ، وهكذا تكثر مفردات اللون الاحتمالية في الديوان ، إنها ثمر وكنوز ورياحين ، وهي ظلال وارجوان ونضارة ، وهي حقول وغلة وعصافير ، وهي ورد وزنبق ومروج وشباب وصبايا وكل ما يلون الحياة ، بمباهج الروح ويعبر عن عواطفها (٢٤).

في قصيدة (سدوم) تتشكل الصور عبر تحولات لونية وصوتية واضحة وإن بدت متداخلة إلى حدّ ما ، فالجزء الأول من الصورة يسوده اللونان الرمادي والاسود عبر مفردات : الرماد ، رماداً اسودا ، ليل ، اما الصبح فقد ورد في المقطع على انه حالة ماضية : ذكرى ذلك الصبح ، كان صبحاً ، فضلاً عن السكون السائد مع العتمة والشحوب .

ويدخل الصوت عنصراً محركاً للصورة إذ كثيراً ما يلعب اللون دوراً مهماً في تقرير قضية التطابق بين الصورة والصوت سواء كان هذا التطابق مطلقاً

---

(٢٣) ينظر : بنية الخطاب الشعري - د . عبد الملك مرتاض.ص ٥٥

(٢٤) الاحساس السينمائي - سيرجي م . ايزنشتاين ، تعريب سهيل جبر ، مراجعة إبراهيم فتحي ص ٨٠ .

او نسبياً (٢٥) كما في الافعال : صاحت ، هاجت ، حيث تتم بانبثاق الصوت سيطرة اللون الاسود بالتكرار : دجا ، اكفهرا ، وتدخل حركة صوتيـة اخرى لتحدث تحولاً لونياً من الاسود إلى الرعد الذي يخترق السحب الحمراء، وإلى مطر من حجر وكبريت وملح ، وإذ يتداخل ايقاع الصوت باللون يتم لأدوات الفن الشعري انسجامها من خلال هذا التوازن الذي يتحدّى الرتابة ، فبعد سلبية وسكون الجزء الاول من المقطع المتمثلة في مسحت ، اضمحلت ، خلفت طعم الرماد — يتصاعد الفعل الشعري ليحدث تحولاً حركياً في ميدان الايقاع الصوتي واللوني : إذ تعلو حركة الافعال الايجابية : صاحت ، هاجت دجا ، اكفهرا ، دوّت : شقت ، امطرت ، جرى ، احرق ، طوى ، وتجلو الالوان عن نفسها فتبدو متداخلة تصارع عدواً موحداً صعوداً وهبوطاً حتى لتذكر المتلقي بمثار نقع بشار وأسيافه وليله الذي تهادت كواكبه :

صوت		لون	حركة
صاحت		بومة	ضمة
هاجت		خفافيش	=
دوت	جلجلة	الرعد	=
شقت		سحباً حمراءَ	فتحة
أمطرت		جمراً وكبريتاً	=
جرى	السيلُ	براكينَ	=

ان قواعد الرفع والنصب تتضافر هي الاخرى لتشكل حركات متقابلة داخل الايقاع الصوتي ، ومع التأثير اللوني لتخلق في القصيدة انسجاماً لا يؤطر بناءها فحسب وانما ينبثق من داخلها ليضمها في غلالة شفافة متماسكة ، ان تداخل الصوت باللون يؤشر تقنية مهمة من تقنيات النص الشعري تلويناً وغنىً وعمق.

(٢٥) نفسه ص ٧٧ .

اتسمت البيئة الطبيعية التي عاش فيها حاوي بذلك التشكيل اللوني الذي قلما اجتمع لبقعة واحدة من الارض ، فمن الجبل بثلوجه وخضرته إلى البحر والسماء ، إلى السهل بمروجه المتناغمة مع سمرة الشواطىء إلى ضوء الشمس الساطع ، في هذه البيئة عاش الشاعر ، وعانى من الامه حتى لنحس في كثير من مقاطع شعره انه تمكن من التعبير عن مواجده باللون خير تعبير ، فقد استطاع اللون أن يحمل رسالة الشاعر ، كما تمكن من ان يكون رمزاً يعبر عن مراده ، فكان الاحباط وعوامل الردة ، كما كان بذور الثورة والامل ، وكان إشارة لعوامل الجدب والفقر والانفصال ، يصارعه في المقابل لون يمثل عوامل الخصب والتواصل الانساني ، لذلك فإن خليل حاوي لا يستمد الوانه من الطبيعة فحسب بل يعكس مواجعه الواناً تنبع من داخله ، حيث المشاعر المفعمة الصادية ، الآملة ، اليائسة ، لذلك تتردد في شعره مفردات : الدهاليز ، الكهوف ، المغاور ، المتاهة كما تتردد مفردات مثل : زهو ، وهج ، مرجان ، ياقوت .. الخ ..

ان الوان الطبيعة ورموزها في صراع دائم ، النور مع الظلمة ، الخصب مع الجدب ، الحياة مع الموت ، العطاء ضد الشحة ، والجمال ضد القبح ، وبالتالي : كل عوامل الامل تصارع كل عوامل اليأس ..

في مجموعة (الناي والريح) يواصل الصراع بين الاسود والابيض احتدامه إذ ارتفعت نسبة حضور اللونين إلى ٥٦ ، ٧٨ عما كانت عليه في نهر الرماد إذ كان الاسود حاضراً في (٤٩) مفردة ، والابيض في (٦٦) وظل الاحمر عالي الحضور إذ مثلته (٥٠) مفردة بينما تجلى في نهر الرماد من خلال (٥٢) مفردة مما يدل على حدة ازمة المجابهة ، كما تزداد نسبة حضور الازرق من (١٦) في نهر الرماد إلى (٢٧) في الناي والريح مما يدل على محاولة إحلال بعض عناصر التوازن ، (تنظر احصائية الألوان) .

يتجلى في المقطع الثالث من(وجوه السندباد)تداخل لوني أخاذ فبعد السكينة اللونية التي سيطرت على مقطعي القصيدة السابقين ينبثق هذا المقطع عن رموز اللون الاحمر التي ترد اثنتي عشرة مرة متمثلة في : محرقة ، لهب ، لهب المحرقة ، دم ، نار ، دم ، البركان ، وهج ، دم ، نار ، نار ، بينما ترد رموز الابيض طالعة من الموج ثلاث مرات ومن الشمس رابعة ، اما الاسود فيتخفى آثاره الداكنة في مفردة (دمغة) كما يرد لون (المعدن المصهور) تقابله الوان الثمر والمرج والبهار والفراشات والصور التي توحي بالزهو والاشراق(٢٦).

عاد من عرس الغجر
دمغة في وجهه
في دمه شلال نار
وعلى قمصانه ألف أثر
موجة واحدة في دمه
في روعة الشمس
وحمى المعدن المصهور
في البركان ، في وهج الثمار
موجة تغزل في المرج فراشات
وتغفو في خوابي الخمر
تغفو في قوارير البهار
موجة فورها في دمه عرس الغجر

فاللون الأحمر الذي يسود اللوحة يرمز للقوة والمخاطر والعواطف المشبوبة، انه احد الألوان الاساسية (الكروماتيك) وهو اشد الالوان الحارة سيطرة على الاجواء التي يوجد فيها ، لانه لون يقدم شكله إلى امام ، بينما تدفع الألوان الباردة نفسها لتغوص في خلفية الاشياء .. (٢٧) فالصورة الشعرية هنا ترتكز

(٢٦) ديوان خليل حاوي ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .
(٢٧) ينظر : علم عناصر الفن - فرج عبو ص ١٢٠.

على مستويين : الاول قريب يطفو على سطح اللوحة ويتمثل بدمغة الوجـه وآثار القميص ، فالصورة إذن لا تخضع لسلطة الالوان الطبيعية وانما تتحرك هي من خلال تشكيلها لتصنع سلطتها الخاصة ، اما المستوى الثاني فيتموج في عروقها ، ويتمثل بالموجة التي يوحي تكرارها ثلاث مرات بسيطرة حركة بركانية على المقطع ، يؤكدها حضور المفردات : شلال نار ، حمى المعدن المصهور ، في البركان ، في وهج ، فوّرها .. هذه الصورة المتأججة ما تلبث الوانها العدوانية ان تهبط إلى درجات اهدأ لوناً وأخف وقعاً ، إذ يبدأ انعطاف الصورة نحو الهدوء والتوازن من قمة تأججها : في البركان ، في وهج الثمار .. إن الثمار هنا تعد بداية استرخاء عمد النص من خلالها إلى تغيير اتجاه الرؤية بحثاً عن مزيد من البلورة والوضوح للتصور (٢٨) حيث يبدأ اللون الابيض يفعل فعله فيغزل عناصره فراشات ويختمر في خوابي الخمر والبهار : إنه لون حيادي يوحي بالهدوء والرصانة ، وهو رمز النصر والطهر والسلم ، ولقد اصطلحوا على أن يجعلوه الرمز الاعلى لقوة السماء ، كونه مبدد الظلمة ، وفي اللغةاليونانية يدل على السعادة معاكساً للاسود الذي يرمز للبؤس والاحزان (٢٩).

وفي المرج يشيع اللون الأخضر ، وهو لون بارد يرمز للخير والخصب والنبل ، والألوان الباردة اقل عاطفة من الحارة لكنها «اكثر سحراً ، وأبعد عمقاً في تقبلها وتأثيرها» (٣٠) .

يضاف إلى تلك الالوان الوان اخرى تداخلت في اللوحة الشعرية لتزيدها ثراء ولتؤشرحضورها وسط توتر الحالة الشعورية واشتدادها من خلال سيطرة اللون الأحمر الذي يرفض السكونية والضياع هرباً من نار التمزق لكن إلى نار اخرى ، فالاحمر هنا قتال ضد التشتت ، وضد الدوامة التي تلف الانسان المعاصر دون ان تدفعه إلى قرار ، بينما يمتد فعل الأبيض ليغزل فراشات في

---

(٢٨) ينظر : العملية الابداعية في فن بالتصوير – د. شاكر عبد الحميد ص ١٢٥ .
(٢٩) ينظر : اللون – محسن يوسف همام ص ٧ – ٨ .
(٣٠) علم عناصر اللون – فرج عبو ص ١٣٦ .

المرج، ذلك ان اللون الأبيض في حتميته «مكون من جميع الألوان الأخرى..»(٣١).
هذه الالوان الزاهية التي تختزل الفعل لتغفو في خوابي الخمر، رمز التحول من السكون والثبوت إلى الحركة والجدل، فالموجة دلالة ولوناً تشيع في النص فعل التغيير، لكن مرج السندباد الذي(اخضرّ)بفعل (الأحمر) لم يكن ليمتلك القدرة على التواصل والاستمرار وتحويل فعل الغجر الآني إلى فعل إنساني متحضّر وخلاق ولذلك كانت حاله:

وجه من يتعب من نارٍ
فيرتاح لنـــار

ونار الشاعر وان اختلفت وقودها إلا ان محصلتها النهائية واحدة: فعل التدمير والفناء، وليس فعل الضوء وتبديد الظلمة، وهكذا يجهض المقطع بالافتقار إلى ارادة الفعل والنضال كما حدث في نهاية المقطع الأخير حيث يستسلم المتلقي لفرحة نمو (الأخضر) (٣٢):

أستدي الانقاض بالأنقاض،
شدّيها إلى صدري اطمئني
سوف تخضر
غداً تخضرُ في أعضاء طفلٍ
عمره منك ومني
دمنا في دمه يسترجع الخصب المغنّي
حلمه ذكرى لنا، رجع لما كنا وكان
ويمرّ العمرُ مهزوماً،
ويعوي عند رجليه، ورجلينا الزمان!

---

(٣١) اللون – محسن يوسف همام ص ٨.
(٣٢) ديوان خليل حاوي ص ٢٢٣.

ان تكرار فعل اللون (تخضر) في سطرين متتاليين «دليل على الوعي الحسّي والفكري باستخدامه ... فاستخدام اللون لم يعد مقتصراً على صفته الطبيعية المرتبطة بموصوف واقعي ملازم له ومقترن به اساساً كالدم الاحمر والزرع الاخضر والبحر الازرق قبل ان تلعب المخيلة التصويرية دورها الفعال في ربط الواقعي بالمجرد وتغييب ملامحه المحسوسة عن طريق الاستعارة، بل اتجه الوعي هنا إلى اللون مباشرة كطاقة تشكيلية ذات خصائص نفسية وبصرية متميزة ومستقلة عن قوانين وجودها الخارجي المتلابسة مع عناصر الطبيعة المرئية..»(٣٣).

النص لا يستسلم لهذا التجريد الواقعي، بل يستدرك مباشرة ليتحول نحو الرمز ، فمن الاخضر وما يكتنفه من شعور بالتنامي والتجدد يمتد النص الشعري نحو الدم الذي يديم الحياة ويواصل عطاءها ، ويستمر الاخضر في امتداده نحو الأزرق المبيض .. الحلم ، حيث ينجح الشاعر في إقناعنا بالانبعاث من خلال حركة لونية متصاعدة ، لكن ذلك ما يلبث ان يتهاوى إذ تنجلي نهاية القصيدة عن نكوص وهزيمة ..

إن الصورة الشعرية هنا صورة تشكيلية ، قاعدتها انقاض تتراكم ما بين فعلين إنسانيين : فعل الرجل — مصدر الأمر — وفعل المرأة — رمز الخصب ، فاللوحة توحي بلحظات بناء نفسي يحاول ان يغلّب الحالة الايجابية لكن هذه الحالة تفاجئنا وتهوي عند نقطة النهاية ، وهكذا يظل الشعر والرسم في حالة جدل اوصى بها انطوان كوبيل منذ عام ١٩٤١ حيث قال : «على الرسام في اسلوبه الراقي ان يكون شاعراً، لا اقول إن عليه ان يكتب شعراً .. ولكنني اقول انه يجب ان لا يمتلىء بالروح ذاتها التي تحرك الحياة في الشعر فحسب ، بل عليه ايضاً ان يعرف بالضرورة قوانينه التي هي قوانين الرسم ذاتها» (٣٤) .

---

(٣٣) ايقاع اللون في القصيدة العربية الحديثة ص ١٦ .
(٣٤) الشعر والرسم — فرانكلين روجرز ، ترجمة مي مظفر ص ٤٥.

في قصيدة (السندباد في رحلته الثامنة) (٣٥) نجد الصراع بين الظلمة والنور، بين الخير والشر يجري من خلال قوىً متعادلة، كما نجد حضور اللون الأحمر ومشتقاته مطابقاً لحضور الاخضر ومشتقاته، وهذا التلاؤم في الحضور ينسجم وما تشيعه التجربة الشعورية من ايمان بحتمية انتصار قضية الشاعر الذي رأى كل شيء، وتعذب حتى لاح له اليقين فأشاع في نصه هذا الانسجام الذي يرى الامور بعين بصيرة :

في شاطىء من جزر الصقيع
كنت ارى فيما يرى المبنج الصريع
صحراء كلس مالح بوار
تمرج بالثلج وبالزهر وبالثمار

هكذا يتحول اللون بشكل انبثاق ثوري من صحراء كلس حيث تقفر الحياة وتغيب إلى لون يزدهر فيه الخصب حيث تشرق الالوان بالأبيض ارضية وبالزهر والثمر والبعث صوراً، ويُواصل النص عملية الانبعاث :

داري التي تحطمت / تنهض من أنقاضها
تختلج الاعشابُ
تلتمّ وتحيا قبةً خضراء في الربيع
لن أدعي ان ملاك الربّ
القى خمرة بكراً وجمراً أخضرا
في جسدي المغلول بالصقيع
صفّى عروقي من دمٍ
محتقن بالغاز والسموم
عن لوح صدري / مسح الدمغات والرسوم

(٣٥) ديوان خليل حاوي. ص ٢٢٧ .

هكذا تقوم قيامة الشعر ، وتنهض الانقاض وتختلج لتغادر شحوب لونها وتلتم قبة تضج بالخضرة «فالكلمة يمكن لها ان تكون علاقة ، او عملية كما وصفها أمبسون ، والمعنى حدثاً كما قال شورت ، والعمل الشعري كله علاقات صورية كما قال هربرت ريد ، فأحداث العلاقات المتنوعة هو السمة المميزة لعملية التركيب الشعري التي ينشغل فيها الشاعر وهو يشكل المعنى في القصيدة»(٣٦).

ان فكرة البعث والتحول هي الفكرة المسيطرة على كل قصائد الديوان ، وهي الفكرة التي انبثقت عنها الالوان التي شكلت الصور الشعرية للنصوص ، وفكرة التحول والرفض المطلق للثبات العربي هي التي حركت صميم القصائد ودفعت بأكثر من نبي ورسول إلى الاعلان عن ثورته عبر المقاطع لتكتمل عوامل الانبعاث حتى يتحول الكفن الابيض من كونه علامة للموت والانقطاع عن الحياة إلى درع يختمر تحته الربيع ، ويواصل الاخضر امتداده حتى يشمل المقطع بأكمله خصباً واملاءً من خلال فعلين مضارعين نلتم ، ونحيا ، فجمع الاشتات في نلتم تعقبه إشاعة الحياة الكامنة في الفعل والممتدة نحو الآتي لان (لن ادعي) تعني إقرار اليقين في فعل ملاك الرب ، وان الجمر الاخضر هو الذي استباح الصقيع وفجر كوامن الخصب فيه ..

في ديوان (يبادر الجوع) يشتد الصراع حدة ، ويتداخل اعتراك الالوان حتى تصل نسبة حضور الاحمر في قصيدة (لعازر ١٩٦٢) وحدها (٤٨) ، والابيض (٤٥) والاسود (٤٠) ، ففي هذه القصيدة تنفجر المأساة العربية في روح الشاعر فيصيبها حمماً تعلن بجرأة نكوص الثورة وارتداد القيم التي ملأت النفس بيقين البعث في (الجسر) و (السندباد في رحلته الثامنة) ، فقد ماتت البشارة في فم الشاعر ولم يكن في رحم الفصول غير الريح ...

---

(٣٦) تشكيل المعنى الشعري ونماذج من القديم - عبد القادر الرباعي ، مجلة فصول ، مجلد ٤ العدد الثاني لعام ١٩٨٥ ص ٥٥ .

وهكذا تنهض عوامل الموت والافقار والصراع الدامي الذي لايحطـــم قوى الخير فحسب ، بل ينقض على الذات التي كانت بالامس نابضة بالحياة ليوقع فيها التنكيل والدمار ، لقد هوى الضوء الى الأسفل حيث قوى الظـــلام الشيطانية تصرع كل خير :(٣٧) .

عمق الحفرة ياحفار /عمقها لقاع لاقرار

يرتمي خلف مدار الشمس /ليلا من رماد

وبقايا نجمة مدفونة خلف المدار .

وهكذا يرتد الشاعر من الثورة الى النكوص ، ومن الأمل الى اليــأس ، وإذا به يرفض النور ويصر على تعميق مهاوي الظلام حيث تغيب الالوان فلا يواجه أساه ، ولايجابه ظلمة الاهداف ، وزيف حملة المبادىء، وبـــؤس الملايين العربية ، فيصر على الحفار ان يعمق الحفرة ليتسع الحاجز الفاصـــل بينه وبين الواقع ، هذا الواقع الذي يشهد ارتداد كل عوامل الخير :

لم يزل ما كان من قبل و كان

لم يزل ما كان :

برق فوق رأسي يتلوى أفعوان

مارد هشم وجه الشمس

عرّى زهوها عن جمجمة

وتستمد الصور الشعرية الوانها من أقسى العناصر تعبيراً عن الحالة :

لف جسمي ، لفه ، حنطه ، واطمره

بكلس مالح ، صخر من الكبريت ،

فحم حجري

إمعاناً في البعد عن كل مايمت الى الحياة بصلة ، فالكلس مادة لاتخصب والملح واحد من عوامل قتل البذرة ، والصخر من كبريت رمز الاحتراق والتدمير والخيبة :

---

(٣٧) ديوان خليل حاوي ص ٣١٣ .

عتمة تنزف من وهج الثمار
الجماهير التي يعلكها دولاب نار
وتموت النار في العتمة
والعتمة تنحل لنار ..

ان الفعل المضارع هنا يديم حركة العذاب، ويثير صورها، فتنزف ويعلك وتموت وتنحل كلها أفعال تملأ الحاضر بحركة دائبة من أجل استلاب كل ماهو انساني وجميل، فهي أفعال تعمل في الضد لتحول الصور الشعرية بألوانها المشرقة الى الوان ضدية، فالثمار لاتتوهج إلا في حالة النضج والضياء لكن هذا النضج يفاجئنا بحالة مرضية هي التزف، عتمة حيث تمحي فرحة الخصب وتستبدل ببؤس المرض والظلام، والنار لاتضيء العتمة كما هي في حالتها الطبيعية، بل راح لون الضياء يموت ليسيطر السواد، ولاتكتفي الصورة بسيادة الظلام، وانما تعاود دورتها لتنحل العتمة الى نار، وليس المقصود بالنار هنا نورها، بل المراد فعلها ومابنتج عن ذلك الفعل من تنكيل.

وهكذا تنقلب عناصر العطاء الى أدوات موت وارتداد، لكن قيم الجماعة بالرغم من تنكيلها بالشاعر لم تستطع ان تسلمه الى فردية منعزلة، فهو يدرك بعمق ان الخلاص لايصنعه فرد مهما اوتي من قوة :

الجماهير التي يعلكها دولاب نار
من أنا حتى أرد النار عنها والدوار
عمق الحفرة باحفار، عمقها لقاع لاقرار

ان الالوان تتركب وتتشكل في هيأة يتمنى لها ان تخوض معركة، فالنار التي كانت اداة صراع بيد الجماهير، صارت اليوم دولاباً يعلك المناضلين، إن توالي الاستعارات التصريحية في المقطع، استطاع ان يشكل صورة في غاية الكثافة التعبيرية حيث تحولت النار الى كيان تدميري عملاق يسحق كل

من يعترض طريقه كما تمكن الشاعر من تحقيق حركة فاعلة في صميم التركيب العضوي للصورة :

الجماهير التي يعلكها دولاب نار

هكذا يصور النص تواصل جريمة سحق الجماهير ، واستمرار اضطهاد الانسان بين فكي رحى رهيبة : الاستعمار والتخلف ، انه بأختصار مسلسل العذاب العربي الذي لاينتهي ، يليه هذا الاستفهام الانكاري الذي يؤكد دوام الحال ، كما يؤكد حضور النار وتواصلها .

من أنا حتى ارد النار عنها والدوار ؟ !

ويواصل نكوص الألوان في القصيدة رحلته :

كان ظلا اسوداً
يغفو على مرآة صدري
زورقاً ميتاً ،
على زوبعة من وهج نهدي وشعري
....
امسحي الخصب الذي ينبت
في السنبل أضراس الجراد
امسحيه ثمراً من سمرة الشمس على طعم الرماد

كل الألوان الزاهية تفضي في نهاية المقطع الى لوعة يائسة تفاجيء المتلقي بعد هزة النشوة التي ضربت على أوتار القصيدة اكثر من مرة ، فحجر الدار تغني وكذلك العتبة والخمر ... انها الحالة الجديدة إذ يخضر ستار الحزن ويخضر الجدار ويتحول كل شيء من سكونه المنكوب الى التطلع والأمل وتواصل حركة الأخضر ومشتقاته هيمنتها على أجواء المقطع حتى يضرب

الشاعر ضربته الاخيرة ، فالحبيب ميت كئيب والوانه تنزف الكبريـت واللهب الاسود ، فالاشراق اللوني الذي سيطر على المقطع إذن كان خداعاً ولم يكن ليعكس الحقيقة كلها ، ذلك ان الآمال الكبيرة لقوى الثورة العربية قد انتكست ، وآلت وحدة ١٩٥٨ إلى انفصال عام ١٩٦١ ، ان حضـور اللون من خلال الفعل المضارع يعني نموه وامتداده نحو المستقبل والاشياء فالاصفر رمز المرض والخيانة والسقم الدائم ... (٣٨).

في المقطع السابع من (لعازر ١٩٦٢) يسيطر الأحمر المخذول ، فهو لون جرح لن يطيب ، وداخل الدائرة الحمراء تطلع الوان متعددة ، إذ يجابهنا الأبيض والأزرق والأخضر ، كما تبدو الالوان الزاهية من خلال الغار وزهو الارجوان ،حتى ان المقطع ليضج بحركة لونية صاخبة . يبدو النص مـن خلالها في « علاقة إشكالية متلابسة بين موسيقى اللغة وموسيقى اللون إن جاز التعبير ، إذ تنتج ايقاعاً داخلياً اكثر التصاقاً بحركة الذات يمثل جوهر الموسيقى و جذرها الجامع ، وأثيرها الأنقى الذي لاشكل له سوى شكل الذات الغامض، وحركتها الحية ، وهذا ماداعا الموسيقيين العظماء الى الربط بين السلالـم الموسيقية (المقامات) وبين الألوان من الناحية الوجدانية » (٣٩) فالألوان « كالموسيقى ، وحروفها لها مدلولات متعددة جداً ، وكلما ازدادت خبرتنا في تطبيقها ارتفع بنا الذوق اللوني موسيقياً لينسجم مع الذوق الأنساني، والأمر ليس بالعمل السهل لانه يحتاج الى حس موسيقي مرهف وذاتي ، في نفـس الوقت الذي يجب ان يكون فيه معبراً عن رؤية واضحة ذات موضوعية» (٤٠).

ان حركة الالوان في هذه القصيدة المهمة تنبض داخل ايقاع حركة بحر الرمل بتفعيلته النشطة ، لكن هذا النشاط مايلبث ان يتلاشى من خلال أزمـة اليأس التي يبوح بها النص تدريجياً :

(٣٨) ينظر علم عناصر الفن – فرج عبو ص ١٣٦ .
(٣٩) ايقاع اللون في القصيدة العربية الحديثة – ص ٤ – ٥ .
(٤٠) علم عناصر الفن ص ١٣٧ .

جرح لن يطيب ، جريح يتلاشى ، عرس المغيب ، أشداق جان ، صمت مأتمي ، كابوس الليالي ،جريح لايبالي بدم ينزف مجنوناً سخيا ، وتكـرار الفعل الناقص (كان) تأكيد على انقضاء الماضي المشرق واحتراقه ..

إن تفاقم حالة السلب في القصيدة يقترن بأشتداد نكوص اللون ، و كـلا الحالتين تتمخضان عن ألوان صديئة ، وذل هو تكريس لحالة الموت والفقر وانعدام معالم الحياة الايجابية ..

وتواصل المقاطع بثها المأزوم ، وتواصل الالوان نكوصها وضديتها وتتشكل الصور الشعرية بعنف أليم يمتلك قدرة تعبيرية تتمكن من ملامسة جـروح المتلقي فيطاوع ويستجيب : (٤١) .

امسحي برقاً اداريه
اداري حية تزهر في جرحي وترغي

. . .

امسحي الخصب الذي ينبت
في السنبل أضراس الجراد
امسحي الميت الذي مابرحت
تخضر فيه لحية ، فخد ، وامعاء تطول
جاءت الأرض الى شلال أدغال
من الفرسان : فرسان المغول

. . . . .

الدخان الموحل المحرور
يجري في غصوني وثماري

. . . .

جسد رصعه السوط

---

(٤١) ديوان خليل حاوي ص ٣٣٤ - ٣٥٥ .

ومحمر الحديد
بالورود السود والحمر
وغدران الصديد
وبروق في دمي تزرعها شمس الجحيم

وهكذا يواصل النص نقضه للحالة الطبيعية لوناً وفعلا، فيحول الايجابي بطبيعته الى سلبي مناقض لحالته، ونافٍ لها، فأية طبيعة تلك التي تدع الحية بكل ماتنفث من سموم الغدر تزهر ...؟ واية طبيعة تلك التي تعقد مشابهة استعارية بين الحية والغصن.. ؟وانها لحالة شاذة تلك التي تنبت في السنبل أضراس الجراد ليحمل في داخله عوامل موته وأدوات فنائه اما الميت الذي تخضر في جثته لحيته، وتطول أفخاده وأمعاؤه فكناية عن الموتى الذين تزخر بهم الحياة، يأكلون ويشربون وتكبر جثثهم لكنهم يقفون مسلوبي الارادة.. تجاه اي فعل يتسم بالحركة والحيوية والتغيير.

— ٦ —

وإذ تنهي الالوان رحلتها في هذه الدراسة، فانها تظل تتوهج في ديوان حاوي.. في كل سطر من الشعر لون او لونان يصطرعان أو يتواءمان، ومعظم الصور الشعرية التي شكلت قصائد الديوان تطفح بصراع الألوان وتداخلها مرة وانسجامها وتوازنها اخرى، ألوان تعطي نفسها بانسياب مرة، وتسلبها المعاناة طبيعتها واشراقها فتتحول من الشفافية الى الصلابة والسيولة أو العكس:

كانت خطاها تكسر الشمس
على البلور تسقيه الظلال
الخضر والسكينة

فشعاع الشمس يتحول من شفافيته الى مادة صلبة تكسر والظلال تغادر حيرتها اللونية الى السيولة، والجمر يكتسب خضرة تضفيها عليه أماني الشاعر بالخصب والتجدد :

لو كان فينا جمرة خضرا
من لهب أخضر في الجروح
. . .
لن أدعي ان ملاك الرب
ألقى خمرة بكرا ، وجمرا أخضرا

كثيراً ما تعطي الألوان مدلولات ترابطية غير مندمجة، بمعنى ان ادراك اللون لايندمج او يذوب بالموضوع الذي ارتبط به في تجربة ماضية، فأستجابة المتلقي لألوان حاوي من ذلك النوع الترابطي غير المندمج، الذي لاينفصل فيه الترابط عن إدراك اللون، وهذا مايجعل نغمة الاحساس به تقوى ويجعل متلقيه يحافظ عليه بحرص ، بل يضفي عليه حيوية ودلالة ..(٤٢) فألوان حاوي كانت على علاقة جدلية مع مضامين ودلالات ارتباطاتها الشرطية ، كما كانت نشطة بذاتها ، وفاعلة بمد لولها معاً ....

كثيراً ما عمد النص الى مزج ألوان متعددة ، سواء أكان تعدد التشكيل اللوني يوحي بالانسجام والتلاؤم ، أو التنافر والتضاد ،وقد استطاع في الحالين ان يعبر تعبيراً فاعلا ومتألقاً ، كما تضمن النص الشعري على أفعال لونية استطاعت ان تحقق جملة إحالات اشاعت الحركة والنشاط في تشكيل الصور تخضر ، تنمو ، تعشب ، تتوهج ... الخ

استطاعت قدرة الشاعر الفنية ان تحول الالوان المفردة والمتعددة الى نبض يشيع الحيوية داخل التشكيل الصوري في الشعر ،فهو لايتعامل مع اللون على انه قيمة ذات اثر مباشر ،وانما تخضبت الوانه بدم مكابدته وبلوعة الامة التي احبها ، ومن هنا فلم يقتصر التشكيل اللوني للشاعر على عكس دلالات اللون الرمزية الواضحة ؛ بل تضادت الالوان مع نفسها احياناً ، واتخذت تشكيلات لونية متشابكة ومعقدة احياناً اخرى .

(٤٢) جماليات اللون في القصيدة العربية ص ٤١ .

إذا كانت الالوان هنا لم تستطع ان تتحرر كلياً من أجواء مدلولاتها السلفية فان ذلك لايعني خلوها من روح الاحتجاج على نمطية التشكيل، ذلك ان خليل حاوي استطاع ان ينتقل باللون من الاستعمال المباشر المسطح الى تعامل تركيبي حركي احتمالي ، نعم إنه أفاد من الوان الطبيعة ، لكنه لم ينقل ولم يصور بشكل آلي ، بل تداخلت الالوان في حسه الخيالي والعاطفي التركيبي فكانت في شعره تمثل شخصية واسلوب اللون الذي تعامل معه وبه ، بوصفه جزء مكملا لاسلوبه الفني العام ، (٣٤) فلم تعد الالوان لديه ذات مدلولات ثابتة وانما صارت مدلولاتها تنفجر في كل اتجاه ، وتنفتح على كثير من الاحتمالات والاحالات التي يسمح بها التركيب التشكيلي والبيئة اللغوية في النص الشعري ، كما تضمنت التشكيلات اللونية قدراً مهماً من الدرامية التي تحرك النص ، وتتحرك داخله ، من هنا فقد تفاعل العنصر اللوني مع الصوتي تفاعلا أضفى على الشعر كثيراً من الغنى والفاعلية .

من احصائية الالوان المرفقة بالبحث يمكن تسجيل الملاحظات التالية :

ـ كانت ألوان الابيض والاسود والاحمر والأخضر هي الالوان التي احتلت المراتب الاربعة الاولى في المجموعات الثلاثة ، مما يؤكد شدة اصطراع القيم في الديوان : الخير والشر ، الكفاح الدامي ضد عوامل القهر ، الخصب ضد القفر والجدب .

ـ يمثل اللون الأخضر المرتبة الرابعة في المجاميع الثلاثة مما يدلل على ثبوت نسبة حضور الهدف ، بينما يتراوح الاحمر من المرتبة الاولى في المجموعة الثالثة (بيادر الجوع) الى المرتبة الثانية في (نهر الرماد) ، الى الثالثة في المجموعة الثانية (الناي والريح) مما يسجل صعوداً دائماً لعوامل الرفض والنضال .

---

(٤٣) ينظر علم عناصر الفن ص ١٢٠ — ١٢١ .

- أما الأزرق الذي يمثل الحلم والرصانة، كما يمثل عاملا من عوامل إشاعة التوازن والأنسجام، فانه يحتل المرتبة السادسة في المجموعتين الاولى والثانية، بينما يتأخر الى المرتبة التاسعة في بيادر الجوع مما يدل على هبوط العوامل التي تعمل على إشاعة التوازن في الأجواء النفسية للقصائد.

- تنحسر الالوان الزاهية الى (٤) في نهر الرماد، ويرتفع حضور الرمادي عما هو في المجموعتين الاخريين، وذلك لسيطرة عوامل اليأس والأقفار، بينما ترتفع نسبة حضور الالوان الزاهية الى (٢٦) في الناي والريح، و (٢٥) في بيادر الجوع لنهوض عوامل الصراع في المجموعتين اكثر مما هي عليه في المجموعة الاولى، ويمثل الاصفر الخيبة والخذلان بالتضافر مع نكوص الالوان الاخرى.

اما الالوان المتحولة فيشير حضورها في المجاميع الى الضبابية والأضطراب مما يجعل الحسم اكثر الاحيان لصالح الضد اللوني، وحضور اللون الأسمر إشارة الى حضور الارض العربية، والى حضور الامة بكل مافيها من أصالة.

إن نكوص الالوان وانتصار عوامل الظلمة والقهر في شعر خليل حاوي يعني انتصار حزنه الكاسر، كما يعني انفصاله عن عوامل الأمل وسيادة الخيبة وعوامل الجدب في الحياة العربية التي عاشها الشاعر بصدق وتضحية ولاعجب فقد كان يريد ان يرفع البؤس عن امته ويمسح عذاب تخلفها وغيبوبتها الحضارية، فأثقل كاهله بحزنها وكان الفادي الذي لم يشفع له كل ذلك الوعي وكل ذلك الوجد بعقد مصالحة نسبية مع الواقع فلم يتحمل عبء التواصل مع حياة يصرع فيها الشر الخير، وتنتكس القيم، وتضرب المبادىء، فقرر ان يرحل بصمت وكان قراره قوياً نافذاً كشعره وأحزانه الكبيرة..

إحصائية بألوان مجموعات الديوان

١ – نهر الرماد :

القصيدة	رمادي	اسود لفظاً	اسود رمزاً	ابيض لفظاً	ابيض رمزاً	احمر لفظاً	احمر رمزاً	اخضر لفظاً	اخضر رمزاً	ازرق لفظاً	ازرق رمزاً	اصفر لفظاً	اصفر رمزاً	متحولة	زاهية	اسمر
١ – البحار والدرويش ٢			٣		٧		٤		٦	٣	٤			١		٦
٢ – ليالي بيروت					٨		٧						٣	٥		
٣ – دعوى قديمة			١		٣	١	٢		٢					٥		
٤ – نعش السكارى			١								٢			٣		
٥ – جحيم بارد		٢	٤													
٦ – بلا عنوان			٦		١				١	١						
٧ – الجروح السود		٢					٥	٢	١	١				١		
٨ – في جوف الحوت			١	٣			٤					١	١			
٩ – السجين		١	٣		٤			١	١					١		
١٠ – سدوم	٢	١	٦	٧		٢										١
١١ – بعد الجليد	١		٢		١٠		٩	٢	١١		١		١	١		٢
١٢ – حب وجلجلة			٣		٣		٣		٣					٢		
١٣ – المجوس في اوربا			٨		٨	١	٤			١	٢		١	٣		١
١٤ – عودة الى سدوم ٢	٣		٢		٧	٩			٣		١		١	٥	٤	٤
١٥ – الجسر	٢		٦		٦		٢		٣		٢		٢	٥		١
المجموع	١٠	٦	٤٤	١٠	٥٧	١٣	٤٠	٥	٣١	٦	١٢	١	٩	٣٢	٤	١٥

٢ـ الناي والريح

١- عند البصارة		٢	٧	١	١٨	١	٩	١	١	١		١		٥		٢
٢- الناي والريح			٦	٢	١٢		٦		٦		٤		٤	١	٥	٨
٣- وجوه السندباد			٨		١١		١٢		٧		٧			١٠	٤	٤
٤- السندباد في رحلته الثامنة			٣٤	٢	٣٠	١	٢٠	٤	١٧		١٥		٢	١٠	١٧	١٦
المجموع		٢	٥٥	٦	٧٢	٢	٤٨	٥	٣١	١	٢٦	١	٦	٢٦	٠٦	٣٠

٣ـ يادر الجوع

الكهف			٦		٢	١	٧	١			٣		١	٣	٢	٥
جنة الأطفال	١	١	٦	١	٧	٤	٧	١	١١		٢	١	١	٤	٥	٥
لعازر عام ١٩٦٢	١	٧	٣٠	١	٤٥	٢	٣٨	١	٢٠	١	٢	١	٦	١٣	١٨	٩
المجموع	٢	٨	٤٢	٢	٥٤	٧	٥٢	٣	٣١	١	٨	٢	٨	٢٠	٢٥	١٩

تسلسل إحصائية الالوان في المجاميع

١ – نهر الرماد

١ – ابيض رمزاً	٥٧
٢ – اسود رمزاً	٤٤
٣ – احمر رمزاً	٤٠
٤ – الوان متحولة	٣٢
٥ – اخضر رمزاً	٣١
٦ – اسمر	١٥
٧ – احمر لفظاً	١٣
٨ – ازرق رمزاً	١٢
٩ – ابيض لفظاً	١٠
١٠ – رمادي	١٠
١١ – أصفر رمزاً	٩
١٢ – ازرق لفظاً	٦
١٣ – اسود لفظاً	٦
١٤ – اخضر رمزاً	٥
١٥ – الوان زاهية	٤
١٦ – اصفر لفظاً	١

٢ – الناي والريح

١ – ابيض رمزاً	٧٢
٢ – اسود رمزاً	٥٥
٣ – احمر رمزاً	٤٨
٤ – اخضر رمزاً	٣١
٥ – أسمر	٣٠
٦ – ازرق رمزا	٢٦
٧ – الوان متحولة	٢٦
٨ – الوان زاهية	٢٦
٩ – ابيض لفظاً	٦
١٠ – اصفر رمزاً	٦
١١ – اخضر لفظاً	٥
١٢ – احمر لفظاً	٢
١٣ – اسود لفظاً	٢
١٤ – ازرق لفظاً	١
١٥ – أصفر لفظاً	١

٣ – بيادر الجوع

١ – ابيض رمزاً	٥٤
٢ – احمر رمزاً	٥٢
٣ – اسود رمزاً	٤٢
٤ – اخضر رمزاً	٣١

٥ — الوان زاهية ٢٥
٦ — الوان متحولة ٢٠
٧ — اسمر ١٩
٨ — اصفر رمزاً ٨
٩ — ازرق رمزاً ٨
١٠ — اسود لفظاً ٨
١١ — احمر لفظاً ٧
١٢ — اخضر لوناً ٣
١٣ — رمادي ٢
١٤ — ابيض لفظاً ٢
١٥ — اصفر لفظاً ٢
١٦ — ازرق لفظاً ١

تسلسل الاحصائية الكلية لمجمل دلالات الالوان

١ — نهر الرماد

١ — ابيض ٦٧
٢ — احمر ٥٣
٣ — اسود ٥٠
٤ — اخضر ٣٦
٥ — متحولة ٣٢
٦ — ازرق ١٨
٧ — اسمر ١٥
٨ — رمادي ١٠
٩ — اصفر ١٠
١٠ — زاهية ٤

٢ – الناي والريح

١ –	ابيض	٧٨
٢ –	اسود	٥٧
٣ –	احمر	٥٠
٤ –	اخضر	٣٦
٥ –	اسمر	٣١
٦ –	ازرق	٢٧
٧ –	متحولة	٢٦
٨ –	زاهية	٢٦
٩ –	اصفر	٧

٣ – بيادر الجوع

١ –	احمر	٥٩
٢ –	ابيض	٥٦
٣ –	اسود	٥٠
٤ –	اخضر	٣٤
٥ –	زاهية	٢٥
٦ –	متحولة	٢٠
٧ –	اسمر	١٩
٨ –	اصفر	١٠
٩ –	ازرق	٩
١٠ –	رمادي	٢

المصادر

١ — القرآن الكريم

٢ — الاحساس السينمائي — سيرجي م — ايزنشتاين تعريب سهيل جبسر مراجعة ابراهيم فتحي ، دار الفارابي ، بيروت ١٩٧٥ .

٣ — بنية الخطاب الشعري — د . عبد الملك مرتاض ، دار الحداثة للطباعة والنشر ، الطبعة الاولى ، بيروت ١٩٨٦ .

٤ — الحيوان — ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هرون ، منشورات المجمع العلمي العربي الاسلامي ، الطبعة الثالثة ، بيروت ١٩٨٩ .

٥ — خليل حاوي — ريتا عوض ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الثانية ، بغداد ١٩٨٤ .

٦ — ديوان خليل حاوي ، دار العودة ، بيروت ١٩٧٢ .

٧ — الشعر والرسم — فرانكلين ر . روجوز ، ترجمة مي مظفر ، دار المأمون للترجمة والنشر ، بغداد ١٩٩٠ .

٨ — الصورة الشعرية — سي — دي لويس — ، ترجمة الدكتور احمد نصيف الجنابي وآخرون ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ١٩٨٢ .

٩ — علم عناصر الفن — فرج عبو ، دار دلفين للنشر ، ايطاليا ، ميلانو ١٩٨٢.

١٠ — العملية الابداعية في فن التصوير — د . شاكر عبد المجيد ، مطابع الرسالة ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٨٧ .

١١ — اللون — محمد يوسف همام ، مطبعة الاعتماد ، الطبعة الاولى ، مصر ١٣٤٨ هـ ، ١٩٣٠ م.

١٢ — معجم اللاهوت الكاثوليكي — كارل راهنر وهربرت فورغريمر ، ترجمة المطران عبدة خليفة ، دار المشرق ، بيروت ١٩٨٦.

١٣ — معجم اللاهوت الكتابي ، اشرف على الترجمة ونظمها علمياً المطران انطونيوس نجيب ، دار المشرق ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٨٨ .

الدوريات

١ ــ بذور الموت في شعر خليل حاوي ــ شوقي بغدادي ، مجلة الاداب ٦ / ١٩٩٢ .

٢ ــ التشكيل اللوني في الشعر العراقي الحديث ــ محمد صابر عبيد ، مجلة الاقلام العدد ١١ / ١٩٨٩ .

٣ ــ تشكيل المعنى الشعري ونماذج من القديم ــ د. عبد القادر الرباعي مجلة فصول ــ مجلد ٤ ــ العدد K ١٩٨٥ .

٤ ــ التعبير عن اللون في الشعر العربي القديم ــ د. وولف دتريش فيشر ، مجلة التربية والعلم ٨ / ١٩٨٩ .

٥ ــ جماليات اللون في القصيدة العربية ــ محمد حافظ ذياب ، مجلة فصول ٢ /١٩٨٥ .

٦ ــ خليل حاوي: الشاعر . الناقد . الفيلسوف ــ د. ريتا عوض ، الاداب ٦ /٩٢ .

٧ ــ خليل حاوي : ملامح وثوابت في سيرته وشعره ــ ايليا حاوي ، الاداب ٦ /١٩٩٢ .

٨ ــ شاعرية الألوان عند امرىء القيس ــ محمد عبد المطلب ، مجلة فصول ٢ /١٩٨٥ .

٩ ــ اللون في الأدب العربي القديم وملاحظات اخرى ــ علي الشوك ،مجلة الأديب العراقي ، ٢ /١٩٦١ .

الوثائق

١ ــ الادراك اللوني في شعر شاذل طاقة ــ قيس كاظم الجنابي،ندوة (شاذل طاقة شاعراً وانساناً) جامعة الموصل ، كلية الأداب ١٩٨٩ .

٢ ــ ايقاع اللون في القصيدة العربية الحديثة ــ د. علوي الهاشمي (مهرجان المربد التاسع)بغداد ١٩٨٨ .

القراءات في تفسير النسفي

عبدالستار فاضل خضر النعيمي

كلية الآداب / جامعة الموصل

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على النبيّ الأمين محمّد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد ،

فإنّ نسبة علم القراءات إلى علم التفسير انّ الأوّل من علوم الآلة والثاني من علوم الغاية ، فعلم القراءات من جملة العلوم التي اشترط العلماء الإلمام بها لمن اراد التصدّي لتفسير القرآن الكريم تفسيراً مقبولاً ، وقد جعله الشيخ محمد حسين الذهبي (رحمه الله) العلم الثامن من العلوم الخمسة عشر التي يحتاج اليها المفسر(إذ بمعرفة القراءة يمكن ترجيح بعض الوجوه المحتملة على بعض) (١) وفي ذلك يقول الدمياطي البنّاء المتوفى سنة ١١١٧هـ : (ولم تزل العلماء تستنبط من كلّ حرف يقرأ به قارئ معنى لا يوجد في قراءة الآخر) (٢) .

ولبيان نوع من اهمية علم القراءات لدى المفسر ، يقول المقرئُ والمفسر التابعي المعروف مجاهد بن جبر المتوفى سنة ١٠٤هـ : (لو كنت قرأت قراءةَ ابنِ مسعود [قبل ان أسأل ابن عباس] ما احتجت ان اسأله عن كثير مما سألته عنه) (٣) . ومن ذلك ان قراءة ابن مسعود (رضي الله عنه) : «او يكون لك بيت من ذهب» تفسر لفظ الزخرف في القراءة المعروفة : «او يكون لك بيت من زخرف» (٤) . وقراءة «فامضوا إلى ذكر الله» عيّنت المراد من السعي في

(١) التفسير والمفسرون ١ / ٢٦٧ .

(٢) اتحاف فضلاء البشر / ٥ .

(٣) رواه الترمذي الحديث رقم ٤٠٢٦ وتراجع تحفة الأحوذي : ٢٨٢/٨ ، ونقطة الداودي في طبقات المفسرين ٣٠٦/٢ وينظر التفسير والمفسرون ١/ ٤١.

(٤) الإسراء / ٣ .

قوله تعالى : «فاسعوا إلى ذكر الله» (١) ؛ لأن السعي هو المشي السريع وليس هو المراد في الآية .

ويدخل في هذا المجال القراءات التفسيرية ، وهي ما كان يثبته قسم من الصحابة رضي الله عنهم في مصاحفهم الشخصية من تفسير او ايضاح سمعوه من النبي صلى الله عليه وسلم فظنه من اتى بعدهم من اوجه القراءات وهي في الحقيقة تفسيرات (٢) . مثال ذلك قوله تعالى : «ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلامن ربكم» فقد قرأ أبن مسعود واثبت في مصحفه « ليس عليكم جناحٌ ان تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج» ولا ريب ان هذه الزيادة الاخيرة للتفسير والإيضاح (٣) . وفي ذلك يقول ابن الجزري المتوفى سنة ٨٣٣هـ : (وربما كانوا يُدخلون التفسير في القراءات ايضاحاً وبياناً ؛ لأنهم محققون لما تلقوه عن النبي صلى الله عليه وسلم قرآناً فهم آمنون من الالتباس) (٤)وقد جعل هذا نوعاً سادساً للقراءات فقال — بعد ان ذكر خمسة انواع للقراءات — : (وظهر لي سادس يشبه من انواع الحديث المدرج ، وهو ما زيد في القراءات على وجه التفسير ، كقراءة سعد ابن ابي وقاص «وله اخ او اخت من ام» (٥) بزيادة لفظة من ام (فهذه الحروف وما شاكلها قد صارت مفسرة للقرآن) (٦) كما يقول الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤هـ، ويضيف : (فأدنى ما يُستنبط من هذه الحروف صحة التأويل) (٧) .

ولمكانة القراءات هذه في علم التفسير نجد المفسرين لا يستغنون في تفاسيرهم عن الاستعانة بها في كشف معاني كتاب الله تبارك وتعالى ، وإن كانوا في ذلك متفاوتين بين مكثر ومقل ، ومن يعتمد على القراءات المتواترة ، ومن يستعين بأية قراءة تحقق غايته ، متواترة كانت او غير متواترة .

---

(١) الجمعة /٩

(٢) التفسير والمفسرون ١/ ٤٠ و ٤١ .

(٣) البقرة / ١٩٨ .

(٤) مباحث في علوم القرآن ، د. صبحي الصالح / ٨٥ ، وينظر /٢٥٢ .

(٥) الإتقان ٧٩/١ ، وينظر ، مباحث في علوم القرآن : ٨٥ .

(٦) الا تقان ٧٩/١ ، وينظر ، مباحث في علوم القرآن : ٢٥٧ .

(٧) البرهان : ٤١٣/١ ، وينظر مباحث في علوم القرآن ؛ ٢٥٣ .

ومن امهات كتب التفسير التي اهتمت بالقراءات في الكشف عن معاني القرآن تفسير النسفي المسمى بـ(مدارك التنزيل وحقائق التأويل) لمؤلفه ابي البركات عبدالله بن احمد بن محمود النسفي المتوفى سنة ٧٠١هـ الذي اختصره من تفسير الكشاف للزمخشري ؛ المتوفى سنة ٥٣٨هـ ومن تفسير البيضاوي المتوفى سنة ٦٩١هـ وقيل ٦٨٥هـ . وقد اوضح النسفي في مقدمة تفسيره الطريقة التي سلكها في تأليفه ، وبين ان من جملة مااهتم به هو القراءات فقال : (وقد سألني من تتعين إجابته كتاباً وسطاً في التأويلات جامعاً لوجوه الإعراب والقراءات) (١)

ويحاول هذا البحث الكشف عن القراءات في تفسير النسفي من حيث مدى دقته : فيما أورده منها ، ومصطلحاته في القراءات ، وأنواعها ، وتوجيهه لها ، وغير ذلك ، ونسأل الله السداد التوفيق في القول والعمل .

(١)

القراءات في كتب التفسير

إن القراءات لدى المفسر — كما ذكرنا — آلة لاغاية ، فهو يأخذ منها القدر الذي يحقق بغيته في كشف معاني آي القرآن ، لذا فمن مجانبة الصواب إن يعول كلياً على كتب التفسير في معرفة مذاهب القراء ، لاسيما أن علماء الفن قد الفوا في القرآءات ماعليه يعتمد في معرفة القراءة الصحيحة من سواها (٢) . بل إن المؤلف الواحد قد يؤلف في التفسير وفي القراءات فيكون مايذكره في مؤلف القراءات — عن القراءات — أولى بالصواب مما يذكره في مؤلف التفسير ، فالإمام الطبري مثلا (رحمه الله) المتوفى سنة ٣١٠هـ الذي يعد أباً للتفسير والمرجع الأول عند أكثر المفسرين نقلا وعقلا (٣) ، ذكر في

---

(١) تفسير النسفي

(٢) ففي السبعة مثلا السبعة لابن مجاهد والتيسير ، للداني وغيث النفع للصفاقسي ، وفي العشر : النشر لابن الجزري ، وفي الأربع عشر : إتحاف فضلاء البشر ، للبناء الدمياطي . وغيرها من الكتب المعتمدة .

(٣) التفسير والمفسرون : ٢٠٦/١ و ٢٠٧ .

تفسيره رأيا في القراءات ناقضه بما ذكره في كتابه الذي ألفه في القراءات ، وكان ماذكره في كتاب القراءات أولى بالصواب ، فقد رأى في تفسيره أن الأحرف السبعة التي وردت في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ستة منها قد ذهبت ، وان الباقي منها حرف واحد هو الحرف الذي جمعهم عليه الخليفة عثمان (رضي الله عنه) ، وأما صور اختلاف القراءات من رفع حرف وجره ونصبه ، وتسكين حرف وتحريكه ، ونقل حرف إلى آخر مع اتفاق الصورة (اي الخط) فإنه عن معنى حديث الأحرف السبعة بمعزل (١).
أي أن يعد كل ماخالف خط المصحف من القراءات التي ثبتت روايتها من الأحرف السبعة ، دون ماسوى ذلك من القراءات التي يحملها خط المصحف فإنها راجعة الى حرف واحد هو الحرف الذي جمعهم عليه عثمان (رضي الله عنه) (٢). هذا ماذكره في تفسيره إلا أنه في كتابه عن القراءات ناقض هذا الرأي بما ذكره من أن كل ماصح من القراءات فهو من الأحرف السبعة وليس لنا أن نخطيء من قرأ به إذا كان ذلك موافقاً لخط المصحف ، فإن كان مخالفاً لخط المصحف لم يقرأ به ووقفنا عنه وعن الكلام فيه (٣) . وهذا هو الصواب الذي يذهب إليه مكي بن أبي طالب المتوفى سنة ٤٣٧ هـ فيقول عن رأي الطبري هذا الذي في كتاب القراءات (فهذا إقرار منه [أي الطبري] أن ماوافق خط المصحف مما اختلف فيه فهو من الأحرف السبعة على مثل ماذهبنا إليه [أي مكي]وقد تقدم في قوله[أي الطبري في تفسيره] أن جميع ما أختلف فيه مما يوافق خط المصحف فهو حرف واحد ،وأن الأحرف الستة ترك العمل بها ، وهذا مذهب متناقض) (٤) .

---

(١) تفسير الطبري : ١ /٢٢ و ٢٣ وينظر رسم المصحف : غانم قدوري : ١٣٩ .
(٢) رسم المصحف : ١٣٩ . وتفسير الطبري ١ / ٢٢ و ٢٣ .
(٣) الإبانة : لمكي : ٣٤ وما بعدها ، وينظر : رسم المصحف : ١٤٠ .
(٤) الإبانة : ٢٠ ، وينظر ، رسم المصاحف ، ١٤٠ .

ونجد الطبري – رحمه الله – يفضل في تفسيره قراءة على أخرى ويـرد قراءة ويقبل أخرى مع أن كلتا القراءتين ثابتة ، من ذلك ترجيحه قـراءة « ملك يوم الدين »[1] على « مالك » حيث ذكر في تفسيره أن أولى القراءتين بالصواب وأحق التأويلين بالكتاب قراءة من قرأ « ملك يوم الدين »دون قراءة « مالك » [2] ،ويرمي الطبري من لم يؤثر معه قراء « ملك » على مالك بأنـه (أغفل وظن خطأ) [3] وأنه (ذوغباء) [4] و (فاسد التأويل)[5] .

وقد تولى الرد على ذلك الشيخ شهاب الدين أبو شامة (رحمه الله) المتوفى سنة ٦٦٥ هـ فقال : (قد أكثر المصنفون في القراءات والتفاسير من الترجيح بين قراءة « ملك » و« مالك » حتى إن بعضهم يبالغ إلى حد يكاد يسقط وجه القراءة الاخرى ، وليس هذا بمحمود بعد ثبوت القراءتين ، واتصاف الرب تعالى بها ، ثم قال : حتى إني اصلي بهذه في ركعة وبهذه في ركعة)) [6].

وقد ترك الطبري رحمه الله أثره فيمن جاء بعده من المفسرين فـأخذوا يطعنون ويرجحون نقلا عنه وتأثراً به ، ولاسيما الزمخشري رحمه الله ، وقد تولى العلماء الرد عليهم كما فعل الصفاقسي [7] المتوفى سنة ١١١٨ هـ وابـن المنير المالكي [8] المتوفى ٦٨٣ هـ في ردهما على الزمخشري .

القراءات في تفسير النسفي

وبعد هذا الذي قررنا لنعد إلى الإمام النسفي –رحمه الله تعالى – ليقـف شاهداً عليه ، فقد اهتم – رحمه الله – بالقراءات بقدر مايحقق غايته مـن

---

(١) الفاتحة / ٣ .
(٢) تفسير الطبري١/٥٠، وينظر ، دفاع عن القراءات المتواترة ، د. لبيب السعيد : ٣٥.
(٣ ، ٤ ، ٥) تفسير الطبري ١ / ٥١ ، وينظر ، دفاع عن القراءات المتواترة : ٣٥ .
(٦) البرهان ، للزركشي : ٤١٦/١ ،وقد جمع د. لبيب السعيد القراءات المتواترة التي طعن فيها الطبري ورد عليه في كتابه:(دفاع عن القراءات المتواترة ، في مواجهة الطبري المفسر) ، فليرجع اليه .
(٧) غيث النفع ، للصفاقسي : ٧٩
(٨) الإنصاف (بذيل الكشاف) : ٥٣/٢ ، وينظر ، دفاع عن القراءات المتواترة : ٧٥

تفسير القرآن ، لذا فإنه (رحمه الله) لم يكن دقيقاً في ايراده قسماً من القراءات في تفسيره ، ففي قوله تعالى : « وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل » (١) ورد في تفسيره أن قراءة « صد » (بفتح الصاد كوفي ويعقوب) (٢) ، وهذا وهم؛ فإن الكوفيين ويعقوب يقرأون « صد » هنا و « صدوا عن السبيل » (٣) في الرعد بضم الصاد فيهما وقرأهما الباقون بالفتح (٤) .

وفي قوله تعالى : « وأرنا منا سكنا » أغفل إسكان ابي عمرو للراء في «أرنا » ناهيك عن اسكان يعقوب لها وموافقة ابن محيصن لمن أسكنها (٥) فقال : (« وأرنا » مكي، قاسه على فخد في فخِد) ثم قال : (وابو عمر يشم الكسرة) (٦)في حين أن أبا عمرو له الاختلاس والاسكان (٧) .وهناك فرق بين الإشمام والأختلاس في اصطلاح القراء (٨) بل هو نفسه رحمه الله يذكر في موضع آخر الاختلاس لأبي عمرو وهو الصواب ، وذلك في قوله تعالى : « ارنا الذين » (٩) ، فقد ذكر الأختلاس لأبي عمرو وأغفل إسكانه فقال : (وبسكون الراء لثقل الكسرة ، كما قالوا في فخِذ فخْذ ، مكي وشامي وأبو بكر ،وبالاختلاس أبو عمرو) (١٠) ،في حين أن أبا عمرو له الإسكان والأختلاس كما ذكرنا .

---

(١) المؤمن : ٣٧

(٢) تفسير النسفي : ٢٥١/٣ .

(٣) الرعد : ٣٣ .

(٤) النشر : ٢٩٨/٢ ، وينظر البدور الزاهرة : ١٧١ و ٢٨٠ .

(ه) البقرة : ١٢٨ .

(٥) اتحاف فضلاء البشر : ١٤٨

(٦) تفسير النسفي : ٨٨/١

(٧) غيث النفع : ١٣٨ .

(٨) فالإشمام ان تشم حرفاً رائحة حرف آخر كإشمام الصاد الزاي لخلف في (الصراط) ، والاختلاس هو الاتيان ببعض الحركة ، كأختلاس كسرة الراء في (أرنا) لأبي عمرو.

(٩) فصلت : ٢٩

(١٠) تفسير النسفي : ٢٧٣/٣ .

ويبدو أنه (رحمه الله) لم يكن مقرئا ، ولكن ناقلا عمن سبقه من المفسرين كالإمام الزمخشري ؛ ومن قبله الطبري (رحمهما الله) ، ولذا وقع فيما وقعوا فيه ؛ ولاسيما تخطئة قسم من القراءات المتواترة ، من ذلك مانقله عن الزمخشري من ان ادغام الراء في اللام في قوله تعالى : « فيغفر لمن » (١) لحن ؛ لأن الراء حرف مكرر فيصير بمنزلة المضاعف ولايجوز ادغام المضاعف ، حيث قال : (وقال صاحب الكشاف : مدغم الراء في اللام لاحن مخطىء ؛ لأن الراء حرف مكرر فيصير بمنزلة المضاعف ، ولايجوز إدغام المضاعف وراويه عن أبي عمرو مخطىء مرتين ، لانه يلحن وينسب إلى أعلم الناس في العربية مايؤذن بجهل عظيم) (٢) ، والنسفي (رحمه الله) ينحو بهذامنحى النحاة الذين ينقدون القراءات ؛ فينقد قراءة ما ويصفهابالضعف ، وهذا يرجع إلى أن له نفساً نحوياً .

وهذا التضعيف لقراءة أبي عمرو الذي ينقله النسفي عن الزمخشري ليس له محل عند أهل العلم ؛ لأن القراءة ثابتة ، وقد أجمع القراء على الإخذ بالأثبت في الأثر والأصح في النقل ، وليس الأفشى في اللغة والأقيس في العربية ، وكم من قراءة أنكرها بعض أهل النحو او كثير منهم ولم يعتبر إنكارهم ، كإسكان « بارئكم » و « يأمركم » وخفض « الأرحام » وغير ذلك (٣) . وفي هذا يقول الزركشي – بعد أن بين أن القراءات توقيفية وليست اختيارية – : (وكذا أنكروا على أبي عمرو إدغامه الراء في اللام في « يغفلكم » وقال الزجاج : إنه خطأ فاحش ، ولاتدغم الراء في اللام إذا قلت « مرلي بكذا » لأن الراء حرف مكرر ولايدغم الزائد في الناقص للإخلال به ، فأما اللام فيجوز إدغامه في الراء ، ولو أدغمت اللام في الراء لزم التكرير من

(١) البقرة : ٢٨٤
(٢) تفسير النسفي : ١٩٢/١ ، وينظر الكشاف : ٤٠٧/١ .
(٣) الاتقان : ٧٧/١ ، وينظر اتحاف فضلاء البشر : ١٨٥/ و٢١٧ كيف يوجه الدمياطي قراءة حمزة (والارحام) وقراءة ابن عامر (قتل اولادهم شركائهم) ، وأشار الى ذلك الدكتور صبحي الصالح في : مباحث في علوم القرآن : ٢٥١ هامش ٣ .

الراء وهذا إجماع النحويين . أنتهى) (١) . قال الزركشي بعد نقله كـلام الزجاج : (وهذا تحامل ، وقد انعقد الإجماع على صحة قراءة هؤلاء الأئمة وأنها سنة متبعة ولامجال للاجتهاد فيها ، ولهذا قال سيبويه في كتابه في قوله تعالى : « هذا بشراً » (٢): « وبنو تميم يرفعونه إلا من درى كيف هي في المصحف » وإنما كان كذلك ؛لأن القراءة سنة مروية عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولاتكون القراءة بغير ماروي عنه انتهى) (٣) .

مصطلحه في القراءات

إن اغلب ماأورده النسفي (رحمه الله) في تفسيره هو عن القراء السبعة كما سيأتي ، فضلا على ما اورده عن غيرهم ، وهو أحياناً يصرح بـأسم القاريء ، وأحياناً يستغني عن ذكر أسمه بالمصطلح الذي يدل عليه كما ورد عند أئمة هذا الفن ومن ألفوا فيه . فاذا قال « كوفي» فالمراد به عاصم وحمزة والكسائي ، كما في قوله تعالى « سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم » (٤) فقد قال عن « ءأنذرتهم » . (بهمزتين كوفي) (٥) ،أي قرأ بتحقيق الهمزتين من غير إدخال ألف بينهما عاصم وحمزة والكسائي (٥) . وهو إذ يذكر هذا المصطلح فإنه قد يستثني منه قسماً من رواة الثلاثة ، ففي قوله تعالى : « قل من كان عدواً لجبريل » (٦) قال عن « لجبريل » : (وبفتح الراء والجيم والهمز مشبعاً كوفي غير حفص)(٧) فاستثنى حفصاً وهو أحد راويي عاصم لأنه يقرأ بكسر الراء والجيم بلاهمز (٨)(وفي قوله تعالى « ويتخذها هزواً » (٩).

---

(١) البرهان : ٣٩٩/١ و٤٠٠ .
(٢) يوسف /٣١ .
(٣) البرهان : ٤٠٠/١ وقارن بكتاب سيبويه ٢٨/١ .
(٤) البقرة /٦ .
(٥) تفسير النسفي : ١٤/١ .
(٦) البقرة /٩٧ .
(٥) غيث النفع : ٧٧ .
(٧) تفسير النسفي : ٧٣/١ .
(٨) غيث النفع : ١٢٦ .
(٩) لقمان /٦ .

قال : (بالنصب كوفي غير أبي بكر (١) فأستثنى أبابكر وهو شعبة أحمد راوييي عاصم أيضاً ، وإذا قال : « مدني» فالمراد به نافع ، كما في قوله تعالى :« وميكائل » (٢) حيث قال (وميكائيل ، باختلاس الهمزة كميكاعل مدني) (٣) ، وهي قراءة نافع (٤) ، واراد بالاختلاس هنا الكسرة الخالصة وليس المعنى المعروف للاختلاس الذي هو الاتيان ببعض الحركة ، وفي قوله تعالى : « وإني أعيذها « (٥) قال : (واني مدني) (٦) بفتح الياء وهي قراءة نافع (٧) .

وإذا قال « مكي» فالمراد به ابن كثير ، كما في قوله تعالى : « وما اللهُ بغافل عما تعملون» (٨) حيث قال عن « تعملون » (وبالياء مكي) (٩) وهي قراءة ابن كثير (١٠)،وفي قوله تعالى « لاريب فيه»(١١) قال : (فيه بإشباع كل هاء مكي) (١٢) وهو أصل من أصول ابن كثير (١٣) .

وإذا قال « بصري» فالمراد به أبو عمرو بن العلاء ، كما في قوله تعالى « فمن آضطر » (١٤)حيث قال :(بكسر النون بصري وحمزة وعاصم)(١٥) والمراد به أبو عمرو(١٦) .

---

(١) تفسير النسفي : ٢٥/٣ .
(٢) البقرة /٩٨ .
(٣) تفسير النسفي : ٧٤/١ .
(٤) غيث النفع : ١٢٧ .
(٥) آل عمران /٣٦ .
(٦) تفسير النسفي : ٢١١/١ .
(٧) غيث النفع : ١٧٥ .
(٨) البقرة /٧٤ .
(٩) تفسير النسفي : ٦٣/١ .
(١٠) غيث النفع : ١٢٠ .
(١١) البقرة /٢ .
(١٢) تفسير النسفي : ٩/١ .
(١٣) غيث النفع : ٦٩ .
(١٤) البقرة /١٧٢ .
(١٥) تفسير النسفي : ١١٥/١ .
(١٦) غيث النفع : ١٤٥ .

وإذا قال «الشامي» «فالمراد به ابن عامر ، كما في قوله تعالى : « وقالوا أتخذ الله ولداً » (١) ،حيث قال : (قالوا ، شامي) (٢) أي قرأ ابن عامر بحذف واو العطف .

وإذا قال : « حجازي » فالمراد به الحرميان نافع وابن كثير ، كما في قوله تعالى « فأنت له تصدى» (٣) حيث قال (تصدى ، بإدغام التاء في الصاد ، حجازي) (٤)وهي قراءة نافع وابن كثير . (٥)

وإذا قال « عراقي » فالمراد قراءة البصرة والكوفة ، كما في قوله تعالى : « إذ تبرأ » (٦) حيث قال :(مدغمة الذال في التاء حيث وقعت عراقي غير عاصم) (٧) ، وهي قراءة أبى عمرو وحمزة والكسائي (٨) .

أنواع القراءات :

إن اكثر ماأورده النسفي (رحمه الله) في تفسيره من القراءات هو عن السبعة (نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي) . وهو في ذلك قد يذكرهم جميعاً كما في قوله تعالى : « فيضاعفه له اضعافاً كثيرة » (٩) فقد بين قراءاتهم جميعاً في « فيضاعفه » حيث قال :(فيضاعفه بالنصب عاصم على جواب الاستفهام ، وبالرفع أبو عمرو ونافع وحمزة وعلي عطفاً على يعرض ، أو هو مستأنف ، أي فهو يضاعفه ، فيضعفه شامي فيضعفه مكي) (١٠) . وكما في قوله تعالى « ويكفر عنكم من سيئاتكم» (١١)

(١) البقرة : ١١٦ .
(٢) تفسير النسفي : ٨٢/١ .
(٣) عبس /٦ .
(٤) تفسير النسفي : ٦٥٢/٣ .
(٥) غيث النفع : ٣٨٠ .
(٦) البقرة /١٦٦ .
(٧) تفسير النسفي : ١٠٧/١ .
(٨) غيث النفع : ١٤٦ .
(٩) البقرة /٢٤٥ .
(١٠) تفسير النسفي : ١٦١/١ .
(١١) البقرة/٢٧١

حيث قال عن « ويكفر » : (بالنون وجزم الراء مدني وحمزة وعلي ، وبالياء ورفع الراء شامي وحفص ، وبالنون والرفع غيرهم) (١) أي بقية السبعة وهم ابن كثير وأبو عمرو وشعبة . وخرج قراءاتهم جميعاً أيضاً في قوله تعالى : « إن تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لايؤده اليك » (٢) مثال : (يؤده ولايؤده بكسر الهاء مشبعة مكي وشامي ونافع وعلي وحفص ، واختلس أبو عمرو في رواية ، غيرهم بسكون الهاء) (٣) إلا أنه هنا لم يفصل فإن ماذكره لنافع من كسر الهاء مشبعة إنما هو برواية ورش عنه، إذ ان قالونا عن نافع بكسر الهاء من غير صلة وهو المراد بالاختلاس هنا . وماذكر من كسر الهاء مشبعة لشامي فإن لهشام عنه طريقين الأولى هذه ، والثانية الكسر من غير صلة ، فضلا عن أنه لم يذكر ابدال الهمزة واواً لورش مطلقاً ولحمزة لدى الوقف (٤) .

وأكثر مايذكره عنهم فهو من الفرش (٥) ، ولكنه قد يذكر شيئاً من الأصول (٦) عنهم ، من ذلك ماذكره من أصلهم في قراءة الهاء التي قبلهما ياء ساكنة فقال : (عليهم الذلة ، حمزة وعلي وكذا كل ماكان قبل الهاء ياء ساكنة [أي بالضم] وبكسر الهاء والميم أبو عمرو ، وبكسر الهاء وضم الميم غيرهم) (٧) وذلك وصلا ، أما وقفاً فالميم ساكنة للجميع ، ومنه أيضاً ماذكره من أصل أبي عمرو وحمزة وعلي في إدغام الدال في الجيم حيث كان ، فقال في قوله تعالى : « ولقد جاءكم موسى بالبينات » (٨) :

---

(١) تفسير النسفي : ١٨١/١ .
(٢) آل عمران /٧٥ .
(٣) تفسير النسفي : ٢٢٦/١ .
(٤) غيث النفع : ١٧٨ .
(٥) الفرش : هو الجزئيات المختلف فيها التي لا يقاس عليها ، كقراءة ملك ومالك .
(٦) الأصل : هو الكليات التي تضم الجزئيات المتماثلة كقواعد المد والقصر والامالة والفتح...الخ.
(٧) تفسير النسفي : ٥٦/١ .
(٨) البقرة /٩٢ .

(وأدغم الدال في الجيم حيث كان أبو عمرو وحمزة وعلي) [١] . ومنه أصل ابن كثير في هاء الضمير ، كما في قوله تعالى « لاريب فيه هدى للمتقين » [٢] حيث قال : (فيه ، باشباع كل هاء مكي) [٣] . وغير ذلك .

وهو قد ينقل عن غير السبعة ، فقد نقل عن يعقوب وخلف وهما من العشرة ، من ذلك ماذكره من أصل يعقوب في إثبات كل ياء محذوفة في رسم المصحف في مثل : (فارهبون ، وآتقون) فقال : (فارهبوني فآتقوني بالياء في الحالتين ، وكذلك كل ياء محذوفة في الخط يعقوب) [٤] : وفي قوله تعالى : « وكذلك تخرجون » [٥] ذكر قراءة خلف التي وافق فيها حمزة وعلياً فقال : (تخرجون حمزة وعلي وخلف) [٦] .

ويذكر قراءات للحسن والأعمش ، وأبي حنيفة [٧] وغيرهم ، ويذكر قراءات قسم من الصحابة رضي الله عنهم ، ففي قوله تعالى : « وإذ ابتلى ابراهيم ربه» [٨] نقل قراءة لأبي حنيفة وذكر أنها قراءة ابن عباس فقال : (وقرأ ابو حنيفة رضي الله عنه إبراهيم ربه برفع إبراهيم وهي قراءة ابن عباس) [٩] . وفي قوله تعالى : « ولايضار كاتب ولاشهيد » [١٠] نقل قراءة لعمروابن عباس رضي الله عنهما ثم أعرب على حسب القراءتين فقال : (ولايضار يحتمل البناء للفاعل لقراءة عمر رضي الله عنه ولايضارر)

---

(١) تفسير النسفي : ٧١/١ .
(٢) البقرة /٢ .
(٣) تفسير النسفي : ٨/١ .
(٤) نفسه : ٤٦/١ .
(٥) الروم /١٩ .
(٦) تفسير النسفي : ٧/٣ .
(٧) تفسير النسفي : ٤/١ ، ٦٣ ، ١١٢ .
(٨) البقرة /١٢٤ .
(٩) تفسير النسفي : ٨٥/١ و٨٦ .
(١٠) البقرة /٢٨٢ .

وللمفعول لقراءة ابن عباس رضي الله عنهما : ولايضارَرْ) (١). وفي قوله تعالى: « فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به » (٢) أيد تفسير الاية بقراءة ابن مسعود وأخرى لابي رضي الله عنهما فقال : (وقيل : المثل للزيادة ، أي : فإن آمنوا بما آمنتم به يؤيده قراءة ابن مسعود رضي الله عنه « بما أمنتم به » ، وما بمعنى الذي بدليل قراءة أبي « بالذي أمنتم به ») (٣) .

توجيه القراءات

اهتم النسفي (رحمه الله) بتوجيه القراءات التي اوردها في تفسيره مقيماً توجيهاته على اسس مختلفة : إلا أنه لم يلتزم بتوجيه جميع القراءات في تفسيره ، فوجه ماشاء منها وترك توجيه ماشاء ، .

ومن توجيهاته ماهو نحوي يتناول فيه الوجوه الإعرابية التي تحتملها الاية بتعدد قراءاتها ، من ذلك ما ذكره في رفع « البر » بلاخلاف قوله تعالى «وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها » (٤) وجواز الرفع والنصب في قوله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم » (٥) مبيناً السر في ذلك فقال : (وليس البر ... ولاخلاف في رفع البر هنا ؛ لأن الاية ثمة [يعني : ليس البر أن] تحتمل الوجهين كما بينا فجاز الرفع والنصب ثمة ، وهذه [يعني : وليس البر بأن] لاتحتمل الاوجهاً واحداً وهو الرفع إذ الباء لاتدخل إلا على خبر ليس)(٦) . ومن ذلك ماذكره في قراءتي الجزم والرفع في « ويكفر» من قوله تعالى : « ويكفر عنكم من سيئاتكم » (٧) حيث قال : (فمن جزم فقد

---

(١) تفسير النسفي : ١٨٩/١ و١٩٠ .
(٢) البقرة /١٣٧ .
(٣) تفسير النسفي : ٩٢/١ .
(٤) البقرة /١٨٩ .
(٥) البقرة /١٧٧ .
(٦) تفسير النسفي : ١٢٢/١ .
(٧) البقرة /٢٧١ .

عطف على محل الفاء ومابعده لأنه جواب الشرط ، ومن رفع فعلى الاستئناف) (١) .

ويبني النسفي (رحمه الله) قسماً من توجيهاته للقراءات على اسس صوتية تعتمد على مايقوم بين الأصوات اللغوية من علاقات وتغيرات نتيجة تركيبها في الكلام ، كالإدغام والابدال والقلب الذي ينتج من تقارب مخارج الحروف من ذلك ماذكره في قراءتي ، التخفيف والتشديد في « تظاهرون » من قوله تعالى : « تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان » (٢) فقال : (بالتخفيف كوفي اي تتعاونون ، وبالتشديد غيرهم ، فمن خفف فقد حذف إحدى التاءين ، ثم قيل هي الثانية ؛ لأن الثقل بها ، وقيل : الأولى ، ومن شدد قلب التاء الثانية ظاء وادغم) (٣) . ومنه ماورد في قوله تعالى : « ومن تطوع خيراً »(٤) حيث قال : (ومن يطوع حمزة وعلي ، أي يتطوع فأدغم التاء في الطاء) (٥) ،ومن توجيهاته الصوتية ماذكره في قراءة الصراط بالسين ، وبإشمام الصاد الزاي فقال: (والصراط من قلب السين صاداً لتجانس الطاء في الإطباق ، لأن الصاد والضاد والطاء والظاء من حروف الإطباق.وقد تشم الصاد صوت الزاي ؛ لأن الزاي الى الطاء أقرب لأنهما مجهورتان ، وهي قراءة حمزة . والسين قراءة ابن كثير في كل القرآن ، وهي الأصل في الكلمة ، والباقون بالصاد الخالصة وهي لغة قريش وهي الثابتة في المصحف الإمامي) (٦) .

ويوجه قسماً من القراءات توجيها معنوياً اذ يشير إلى المعاني التي تحتملها الاية بتعدد قراءاتها ،من ذلك ماذكره في قوله تعالى : « فلا رفث ولافسوق

---

(١) تفسير النسفي : ١٨١/١ .
(٢) البقرة /٨٥ .
(٣) تفسير النسفي : ٦٧/١ .
(٤) البقرة /١٥٨ .
(٥) تفسير النسفي ١٠٤/١ .
(٦) تفسير النسفي : ٥/١ و ٦ .

ولاجدال في الحج » (١)حيث وجه قراءة البصري والمكي في قراءة « رفث وفسوق » بالرفع ، و « جدال » بالنصب فقال : (وقرأ أبو عمرو ومكي الأولين بالرفع فحملاهما على معنى النهي ، كأنه قيل : فلايكونن رفث ولافسوق والثالث بالنصب على معنى الإخبار بانتفاء الجدال ، كأنه قيل : ولاشك ولاخلاف في الحج) (٢) .

ومن توجيهاته ما هو لغوي يبين فيه ان القراءات التي في الاية انما هي لغات ،من ذلك ماذكره في قوله تعالى :« فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً »(٣) حيث قال : (وقرىء بكسر الشين وفتحها ، وهما لغتان) (٤) .

ومنها ماهو صرفي كالذي ذكره في قوله تعالى : « فرهن مقبوضة » (٥) حيث قال : (فرهن ،مكي وأبو عمرو، أي فالذي يستوثق به رهن ، وكلاهما [أي رهان ، ورهن] جمع رهن ، كسقف وسقُف، وبغل وبغال ورهن في الأصل مصدر سمي به ثم كسر تكسير الأسماء (٦). وغير ذلك في تفسيره كثير .

(١) البقرة /١٩٧ .
(٢) تفسير النسفي : ١٢٨/١ .
(٣) البقرة /٦٠ .
(٤) تفسير النسفي : ٥٥/١ .
(٥) البقرة /٢٨٣ .
(٦) تفسير النسفي : ١٩٠/١ .

« المصادر والمراجع »

- الابانة عن معاني القراءات ، مكي بن ابي طالب القيسي (٣٥٥ - ٤٣٧هـ) تحقيق د. عبد الفتاح اسماعيل شلبي ، مصر ١٩٦٠ ،
- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر ، أحمد بن عبد الغني الدمياطي الشامي الشهير بالبناء (ت ١١١٧ هـ) ، رواه وعلق عليه علي محمد الضباع ، نسخة مصورة عن طبعة عبد الحميد أحمد حنفي . بمصر ١٣٥٩ هـ .
- الأتقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) ، مطبعة حجازي، القاهرة ، د.ت .
- الأنصاف فيما تضمنه الكشاف من الأعتزال ، أحمد بن محمد بن المنير الاسكندري المالكي (ت ٦٨٣ هـ) مطبوع مع الكشاف للزمخشري ، دار الفكر ، الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .
- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدرى ، عبد الفتاح القاضي ، الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .
- البرهان في علـــوم القرآن ، ، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت٧٩٤ هـ)،خرج حديثه وقدم له وعلق عليه مصطفى عبد القادر عطا ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م .
- التفسير والمفسرون ، الدكتور محمد حسين الذهبي، الطبعة الثانية ١٣٩٦ هـ ١٩٧٦ م ، دار الكتب الحديثة .
- تفسير النسفي المسمى ، بمدارك التنزيل وحقائق التأويل ، عبد الله بن أحمد إبن محـــمود النسفي (ت ٧٠١ هـ) منشورات دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، د. ت .

- جامع البيان في تفسير القرآن ، محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) . الطبعة الرابعة، أعيد طبعة بالأوفسيت ١٤٠٠ هـ ، ١٩٨٠ م ، دار المعرفة بيروت - لبنان ، عن الطبعة الأولى ، بالمطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر ١٣٢٣ هـ .
- دفاع عن القراءات المتواترة ، في مواجهة الطبري المفسر ، د. لبيب السعيد دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٨ م .
- رسم المصحف دراسة لغوية تأريخية ، غانم قدوري الحمد ، الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس الهجري ، بغداد
- غيث النفع في القراءات السبع ، علي النوري الصفاقسي (ت ١١١٨ هـ) مطبوع بهامش سراج القاري لابن القاصح ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثالثة ١٣٧٣ هـ ١٩٥٤ م . مراجعة الشيخ علي محمد الضباع
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، ابو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨ هـ) ، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .
- مباحث في علوم القرآن ، د. صبحي الصالح ، الطبعة العاشرة ١٩٧٧ م دار العلم للملايين ، بيروت .
- النشر في القراءات العشر ، محمد بن محمد المعروف بابن الجزري (ت٨٣٣ هـ) مطبعة مصطفى محمد بمصر ، أشرف على تصحيحه ومراجعته علي محمد الضباع ، أعادت طبعه بالأوفسيت مكتبة المثنى بغداد .

الجملة الاعتراضية في القرآن الكريم

طلال يحيى ابراهيم الطوبجي
جامعة الموصل – كلية الاداب
قسم اللغة العربية

الحمد لله حمد الشاكرين ، والصلاة والسلام على نبيه الأمين ، وبعـــد :
فهذا بحث تناولت فيه الجملة الاعتراضية في القرآن الكريم مبيناً مواقعها في كلام الله تعالى ، عارضاً لفائدتها وتركيبها ، بعد أن سبقت هذا الكلام ببيان معنى الاعتراض ، وتحديد الجملة المعترضة ،لتتماز من غيرهـــــا مستعيناً في ذلك بما أورده علماء النحو والبلاغة في هذا المجال .

إن الجملة القرآنية مازالت بحاجة الى كثير من الجهد والدراسة للكشـــف عن طريقه استخدام القرآن للجمل ، وعن تركيبها في أبلغ الكلام – كـــلام الله الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه – ولاسيما اذا عرفنا أن الجملة لم تلق الاهتمام الذي حظيت به المفردة في كتب النحاة القدامى .

ولم يكن البحث في هذا المجال سهل القياد ، بل كانت طريقة صعبـــة تحتاج إلى عناء وترو ومزيد قراءة وبحث ، فاضطررت الى قراءات مكثفـة في كتب التفسير للوقوف على مواطن هذا النوع من الجمل في القرآن ، إذ لايمكن التعويل على الذاكرة والحفظ في معالجة موضوع كهذا خوفـاً أن تند آية عن مجال الذاكرة ، أو يسهو الحفظ عن استرجاع موطن شاهـد . مع مراجعات لكتب والنحو والبلاغة ليستقيم البحث على صورة آمل أن تكون مقبولة .

ولكن بعد الجمع والاستقصاء ظهر أن ثمة عدداً من الايات المباركـــة التي تضم في ثنايا تركيبها جملا معترضة (١) ، يتعذر معه دراسة هذه الايات جميعها في بحث صغير كهذا ، لذا ارتأيت ان اعرض لنماذج منها فاتحـاً الباب لجهد علمي اكبر يقوم باستقصاء الايات جميعها في كتاب الله تعالى .

(١) مما تجدر الإشارة اليه ان الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة أشار الى قسم من الجمل المعترضة في كتابه : دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، القسم الثالث ، الجزء الرابع : ص ٤٠٩ – ٤٢١ .

معالم الجملة الاعتراضية

لقد تنازعت كتب النحو والبلاغة موضوع الاعتراض مما يدل على خصوبة هذا المبحث واهميته لدى علمائنا الأوائل ، لذا سأحاول الإفادة من جهود السابقين في تحديد معالم الجملة المعترضة .

ولعل خير مانبدأ به في تحديد هذه المعالم أن نحدد مفهوم الاعتراض لغة ، إذ يقال : اعترض بمعنى انتصب ومنع ، وصار عارضاً كالخشبة المنتصبة في النهر والطريق ونحوها تمنع السالكين سلوكها ، ويقال : اعترض الشيء دون الشيء ، أي حال دونه . واعترض الفرس في رسنه : لم يستقم لقائده (١) .

ويقال :سرت فعرض لي في الطريق عارض من جبل ونحوه ، أي : مانع يمنع من المضي ، واعترض لي بمعناه ، ومنه اعتراضات الفقهاء ؛ لأنها تمنع من التمسك بالدليل . (٢)

وفي الحديث : لاجلب ولاجنب ولا اعتراض ، أي أن يعترض رجل بفرسه في السباق فيدخل مع الخيل (٣) .

أما الاعتراض مصطلحاً ° فقد كان معروفاً عند المتقدمين وإن اختلط أحياناً بمصطلح الالتفات (٤) ، إلا ان ابن المعتز (ت ٢٩٦ هـ) حدد هذا المصطلح

---

(١) اللسان : مادة (عرض) ١٦٨/٧ — ١٦٩

(٢) خزانة الأدب ٨ / ٤٤٤ — ٤٤٥ .

(٣) اللسان ١٦٧/٧ ، والحديث عند أبي عبيد في غريبه : (لا جلب ولا جنب ولا شغار في الأسلام . غريب الحديث ١٢٧/٣ .
يلحظ في الأصطلاح أن المعنى الأصطلاحي للكلمة لم يبتعد كثيراً عن الأصل الحسي لها .

(٤) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ٢٤٣/١ ، ومازال هذا النفس عند بعض المحدثين فهناك من يدعو الى «أن الأعتراض يمكن ان يكون من الأساليب التي تنضوي تحت مفهوم الالتفات». ينظر : فن الالتفات في البلاغة العربية ص١٧٦ . وهذا رأي يحتمل النقاش ، ولكن لا مجال لمناقشته هنا .

بما يبعد التداخل بين المصطلحين إذ قال : « ومن محاسن الكلام ايضاً والشعر اعتراض كلام في كلام لم يتمم معناه ، ثم يعود إليه فيتممه في بيت واحد » (١) .

وإذ يباين الاعتراض الالتفات ، فهو كذلك يباين التتميم والتكميل والايغال (٢) برغم اشتراك الجميع في أنها من ضروب الإطناب في العربية (٣) .

ومهما يكن من أمر فمصطلح الاعتراض قد عرف في الأوساط العلمية في نهاية القرن الثالث من الهجرة ، أما ماذهب إليه الدكتور عبد الفتاح لاشين عند كلامه على الاعتراض عند القاضي عبد الجبار (ت ٤١٥ هـ) بقوله : (وقد ذكر القاضي الاعتراض بقريب من أسمه الذي عرف به أخيراً) (٤) وقوله في موضع آخر : (وهذا ماسماه المتأخرون بالاعتراض » (٥) ، فكلام غير دقيق ، إذ أنه يوحي أن مصطلح الاعتراض لم يكن معروفاً في زمن القاضي ، والصحيح أنه معروف ومتداول بين معاصريه ، مثل ابن جني (ت٣٩٢ هـ) وابن فارس (ت٣٩٥ هـ) وابي هلال العسكري(ت٣٩٥ هـ)فضلا عمن سبقهم .

هذا ماتعلق بالاعتراض ، أما الجملة المعترضة (٦) فهي ، عبارة عن جملة تعترض بين كلامين تفيد زيادة في معنى غرض المتكلم (٧) .

---

(١) البديع : ص ٥٩ .
(٢) معجم البلاغة العربية : بدوي طبانة ٥٢٥/٢ .
(٣) الخواطر الحسان : ص ٢٢٨ .
(٤) بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار : ص ٢١١
(٥) نفسه : ص ٢١٢ .
(٦) نقل الشنواني (ت ١٠١٩ هـ) جواز القول : الجملة المعترضة بفتح الراء – على أنه من باب الحذف والايصال، أي المعترض بها ، والمعترضة – بكسر الراء – مسندة الى الضمير المستتر فيها إسناداً مجازياً . تنظر : حاشية الشنواني ٩٣/١ .
(٧) خزانة الأدب وغاية الأرب : ص ٣٦٦ ، واخترنا هذا التعريف على غيره ؛ لأنه لم يحصر الأعتراض بأغراض معينة ، وهو مانميل اليه .

وعند النحاة : جملة صغرى تتخلل جملة كبرى على جهة التأكيد (١) .

وليست الجملة المعترضة من حشو الكلام في شيء ، برغم ان أبا هلال العسكري قد عدها من الحشو المحمود في كتابه الصناعتين (٢) ، إلا أنه عاد فعقد للاعتراض باباً قائماً برأسه (٣) ، فكأنه رأى أن فصل الاعتراض عن الحشو أفضل ، وكذلك قال السكاكي (ت ٦٢٦ هـ) عن الاعتراض : ويسمى الحشو) (٤) ، إلا أن الفرق بين الحشو والاعتراض واضح ، إذ ان الأعتراض يخدم المعنى ويفيد زيادة في غرض المتكلم والناظم ، في حين يؤتى بالحشو لإقامة الوزن لا غير (٥). وفي هذا الصدد يقول ابن معصوم المدني (ت ١١٢٠هـ) إن الاعتراض « متى خلا عن نكتة سمي حشواً ، فلا يعد حينئذ من البديع » (٦) .

ومن معالم الجملة الاعتراضية اختلافها عن الجملة الحالية برغم وجود الشبه بينهما ، إذ يقول أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ) عند كلامه على الجملة الحالية : « وجرت عادة بعض النحاة أن يذكر هنا مايشبه جملة الحال وهي جملة الاعتراض وجملة التفسير» (٧) إلا أن النحاة ميزوا الجملة المعترضة بأمتناع قيام المفرد مقامها ، وجواز اقترانها بالفاء – ولن – وحرف التنفيس، وكونها طلبية (٨) .

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٥٦/٣ .
(٢) الصناعتين : ص ٤٨ – ٤٩ .
(٣) نفسه : ص ٣٩٤ .
(٤) مفتاح العلوم : ص ٢٠٢ .
(٥) ينظر : خزانة الأدب وغاية الأرب : ص ٣٦٦ .
(٦) انوار الربيع ١٣٦/٥ .
(٧) ارتشاف الضرب ٣٧١/٢ – ٣٧٢ .
(٨) ينظر : تسهيل الفوائد : ص ١١٣ ، وارتشاف الضرب ٣٧٤/٢ ، ومغني اللبيب ٤٤١/٢ والجمل التي لها محل من الاعراب والتي لا محل لها ، نص محقق لابن ام قاسم ، منشور في مجلة آداب الرافدين ، العدد السابع لسنة ١٩٧٦ : ص ٤١٥ .

ومن معالم الجملة الاعتراضية أيضاً أنه قد تتصل بها أحرف الاعتـــراض ، وهي الفاء ، والواو ، وإذ ، وحتى (١) .

ولعل مما تجدر الإشارة إليه ان الدكتور فخر الدين قباوة قال عن هـــذه الأحرف : لقد « جمعت أحرف الاعتراض ، وهي مما أغفله القدماء والمعاصرون » (٢) ، والحق أن هذا الكلام لايمكن أخذه على إطلاقه ، إذ ان الشنواني قد أشار إلى عدد من هذه الأحرف في حاشيته على شرح مقدمة الإعراب (٣) .

والجملة المعترضة لامحل لها من الإعراب (٤) ؛ لأنها لاتؤول بمفرد ، إذ من المعلوم أن « كل جملة يسد المفرد مسدها فلها موضع من الإعراب ، وكل جملة لايسد المفرد مسدها فلا موضع لها من الإعراب » (٥) .

ويترتب على هذا ان لاتكون الجملة المعترضة معمولة لكلام مبقها (٦) ، بل لها الاستقلالية في التوجيه الإعرابي لمفرداتها ، على ان هذا لايعني إمكان إسقاط الاعتراض من الجملة بدعوى أن وجوده وعدمه لايؤثر في إعراب الجملة الأصلية او الجملة الكبرى كما سماها الزركشي (٧) ، لأن القيمة البلاغيـــة للاعتراض تعطي الجملة بعداً دلالياً لايمكننا الحصول عليه لو أسقطنا الأعتراض من الجملة ،إذ كل زيادة في مبنى الجملة العربية لابد ان يقابل بزيادة فـــي دلالتها.

وقبل ان أنهي الكلام على معالم الجملة الاعتراضية اود التوقف هنا للإجابة عن تساؤل يفرض نفسه ، وهو ما فائدة الاعتراض ؟ أو حسبما يقول القدماء:

---

(١) ينظر : إعراب الجمل وأشباه الجمل : ص ٧٣ – ٧٤ .
(٢) نفسه : ص ٧ .
(٣) حاشية الشنواني ٩٤/١ .
(٤) اي : لا تتحمل حركة إعرابية ، وهو المصطلح الذي يحبذه الدكتور علي المنصوري ينظر : الدلالة الزمنية في الجملة العربية : ص ٣٢ .
(٥) الجمل التي لها محل من الإعراب والتي لا محل لها : ص ٤٠٥ .
(٦) ينظر : الخصائص ٣٣٧/١ .
(٧) البرهان في علوم القرآن ٥٦/٣ .

ماالنكتة في الاعتراض ؟ والجواب . إن أغلب الذين عالجوا هذا الموضوع حاولوا أن يحددوا فائدة الاعتراض بحصر النكت التي يأتي من أجلها (١) ، ولكني أرجح ما ذهب إليه الدكتور منير سلطان من أن غرض الاعتـراض « يستقى من السياق » (٢) إذ لاحاجة في حصر أغراض الاعتراض بنكت معينة ثم نقوم بعد ذلك بقسر النصوص لتدخل تحت هذا الغرض أو ذاك بل نبقـي لكل نص خصوصيته ، وندعه يفصح عن نفسه وعما أسداه له الأعتـراض من فائدة .

(٢)

الجملة الاعتراضية في القرآن الكريم

أنزل القرآن الكريم على المصطفى – صلى الله عليه وسلم – بلسان عربي مبين ؛ فخاطب العرب بما ألفوا من أساليب الخطاب ، وكان الأعتـراض من سنن العرب في كلامها (٣) ، إذ الأعتراض « في شعر العرب ومنثورها كثير وحسن ودال على فصاحة المتكلم وقوة نفسه وامتداد نفسه » (٤) ، فلا غرو أن وقع هذا الأسلوب في القرآن ، فجاء روعة في البيان وآية في جمال النظم .

وليست الجملة المعترضة قليلة في القرآن ، بل « ورد الاعتراض في القرآن كثيراً ، وذلك في كل موضوع يتعلق بنوع من خصوصيته المبالغة في المعنى المقصود » (٥) . ولنقف الان عند أنماط الجمـل الاعتراضية ومقاصدها فـي القرآن ، مستشفين ذلك من عدد من الايات المباركة :

(١) ينظر مثلا : البرهان ٥٧/٣ ، وحاشية الشنواني ٩٤/١ ، وأنوار الربيع ١٣٦/٥
(٢) بلاغة الكلمة والجملة والجمل : ص ٢٣٨ .
(٣) ينظر : الصاحبي في فقه اللغة : ص ٢٤٧ .
(٤) الخصائص ٣٤١/١ ، وحسبنا نص ابن جني هذا في الرد على الدكتور شوقي ضيف إذ قال : إن الجملة الاعتراضية (كانت قليلة قديماً) : ينظر : تجديد النحو : ص ٢٥٧.
(٥) المثل السائر ٤٢/٣ .

١ – **الوعيد في الجملة الخبرية المثبتة** : ويتضح هذا المقصد بهذا النمط الخاص من التركيب في قوله تعالى : ﴿ يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت – والله محيط بالكافرين – يكاد البرق يخطف أبصارهم ﴾ (١) فالآية في وصف المنافقين تبين حيرتهم في أمر دينهم كحيرة من باغتته السماء في ليلة ظلماء بمطر كثيف ورعد وبرق ، فهم يجعلون أصابعهم في آذانهم لشدة الصواعق وهول وقوعها على الأسماع خشية الموت أما البرق فيوشك ان يخطف أبصارهم لشدته وقوته ، فأبصارهم كانت مهيأة للرؤية في الظلام ، فأذا بها تفاجأ بضوء شديد خاطف ، يضطرب له البصر وتختل معه الرؤية ، فتجتمع عليهم « ظلمات متراكمة : ظلمة الغمام وظلمة الليل ، وظلمة المناخ » (٢) .

ويلاحظ أن جملة – والله محيط بالكافرين – جاءت معترضة (٣) في وسط المثل القرآني ، في وقت يكون فيه المخاطب قد شنف سمعه وتشوق لاستكمال الصورة ، ولكنه يعترض بهذه الجملة ليعلم أن لاعاصم من عذاب الله ، وأن قدرته سبحانه محيطة بالجميع إحاطة السور بالدار .

ولم تقتصر فائدة هذه الجملة المعترضة على ماسبق ، بل « فيها تتميم للمقصود من التمثيل بما تفيده من المبالغة ، لأن الكافرين وضع موضع الضمير وعبر به إشعاراً باستحقاق ذوي الصيب ذلك العذاب لكفرهم » (٤) .

وإذا بحثنا جملة – والله محيط بالكافرين – تركيباً فسنجدها جملة اسمية بسيطة مكونة من مبتدأ وخبر (٥) ، ولكنها في غاية الدقة في التعبير ، إذ ان

---

(١) البقرة : ١٩ – ٢٠ .
(٢) الصورة الفنية في المثل القرآني : ص ٢٩٣ .
(٣) ينظر : الكشاف ٦٥/١ ، والبحر المحيط ٨٧/١ ، وتفسير البيضاوي ١٠٠/١ ، وروح المعاني ١٤٧/١ .
(٤) روح المعاني ١٤٧/١ .
(٥) ينظر : إعراب القرآن للنحاس ١٤٤/١ ، والجامع لأحكام القرآن ٢٢١/١

كلمة (محيط) لفظ مشترك يحمل دلالات متنوعة ، منها الإحاطة بالعلم وبالقدرة وبالإهلاك وكلها دلالات توحي بالتمكن والسيطرة ، فحينما يسمع العربي : أحاط السلطان بفلان ، فإنه يفهم : أن السلطان أخذه أخذاً حاصراً من كل جهة ، قال الشاعر :

أحطنا بهم حتى إذا ماتيقنوا بما قد رأوا مالوا جميعاً الى السلم(١)

هذا في إحاطة البشر ، فما قولك بإحاطة الله خالق البشر ؟ ! !

٢ — التحدي والتعجيز في الجملة الفعلية المنفية نفي تأكيد في سياق تركيب شرطي :

ويتضح هذا المقصد بهذا النمط التركيبي في قوله تعالى : (وإنْ كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إنْ كنتم صادقين فإن لم تفعلوا — ولن تفعلوا — فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة) (٢) ويُلحظ ان المقام مقام تحدٍّ للبشر في معارضة القرآن ، ليجتمع كل البشر ، وليستعينوا بمن شاءوا سوى الله ، ثم ليجمعوا امرهم وليوحدوا صفوفهم ، فهل يستطيعون أن يأتوا بسورة قصيرة واحدة من مثل القرآن ؟ كلا إنكم إذ (لم تفعلوا) اذاً (فاتقوا النار) . وبين هاتين الجملتين اللتين هما جملة الشرط وجزائه جاء الاعتراض : (لن تفعلوا) الذي فيه «من تأكيد المعنى مالا يخفى» (٣) . فالله سبحانه وتعالى يستفزّ الهمم ويحركها ليكون العجز «بعد ذلك ابدع» (٤) .

إنّ جملة الاعتراض (لن تفعلوا) المكونة من حرف النفي (لن) الذي يفيد التأكيد الشديد وإن شئت أن تقول التأبيد، جاءت بعد جملة الشرط (لم تفعلوا)

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٢١/١ .
(٢) البقرة : ٢٣ — ٢٤ .
(٣) البحر المحيط ١٠٧/١ .
(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٣٤/١ .

المكوّنة من الفعل المضارع المسبوق بـ (لم) التي «يجوز ان يكون معنى الفعل المضارع المنتفي بها كان قد انتهى وانقطع امده قبل الكلام بوقت قصير ، او طويل، او ان يكون الفعل مستمراً متصلاً بالحال ، اي : بوقت الكلام ، ولكن يستحيل ان يكون للمستقبل او متصلاً به» (١) لذا جاءت الجملة الاعتراضية مُصدَّرة بـ (لن) للدلالة على النفي المؤكد للمستقبل ، وهذا من الغيب الذي اطلعنا عليه القرآن قبل وقوعه .

واذا أُريد معرفة حسن موقع هذه الجملة المعترضة فليُنظر في ما قاله «جماعة من المفسرين» من أن «معنى الآية : وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ولن تفعلوا فإن لم تفعلوا فاتقوا النار» (٢) ، وكفانا الشنواني مؤونة الرد على هذا التأويل إذ قال : «وفيه نظر لا يخفى» (٣) .

٣ ــ التعجب والتهكم في الجملة الخبرية المصدرة بأداة التشبيه الواقعة في سياق مقول القول :

ويتضح هذا المقصد بهذا النمط في قوله تعالى : (ولئن اصابكم فضل من الله ليقولَنَّ ــ كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ــ يا ليتني كنتُ معهم فأفوز فوزاً عظيماً) (٤) فهذه الآية وسابقتها تُبيّن موقف المنافقين من القتال ، فان دارت الدائرة على المسلمين ، قال المنافقون : (قد انعم الله عليَّ إذ لم اكن معهم شهيداً) أما إذا اصاب المسلمون غنيمةً او حققوا انتصاراً ، فإن هذا المنافق يقول نادماً حاسداً خائباً : (يا ليتني كنتُ معهم فأفوز فوزاً عظيماً) .

ويلحظ ان الجملة المعترضة : (كأن لم تكن بينكم وبينه مودة) وقعت بين فعل القول (ليقولَنَّ) وبين مفعوله (ياليتني) ، وهي «من كلامه تعالى» (٥) فكأنه

(١) الدلالة الزمنية في الجملة العربية : ص ٧٩ .
(٢) حاشية الشنواني ٩٦/١ .
(٣) نفسه .
(٤) النساء : ٧٣ .
(٥) روح المعاني ١٢٧/٢ .

سبحانه قاطعهم قبل ان يتموا قولهم بهذه الجملة المعترضة التي هي «في غاية الحُسن» (١) لينبه المسلمين على تلك المودّة الكاذبة التي كان يبديها المنافقون والتي انمحت آثارها عند اول موقف يُكشف فيه عن الدخائل وتُفتضح السرائر.

إنّ قيمة هذا الاعتراض ليست فيما ذكرنا فحسب ، بل هنالك ناحية أُخرى شكلية تتعلق بالنظم وهي انها «لو تأخرت جملة الاعتراض لم يَحسُن ؛ لكونها ليست فاصلة» (٢). وسورة النساء تنتهي معظم آياتها بالألف الممدودة، فاجتمعت الفائدة المعنوية واللفظية في موقع الاعتراض ، فكان ذلك من حسن النظم .

ولعل من سُمو هذا الاعتراض وثرائه ان نجد بلاغيي المفسرين يختلفون في تعليل فائدته ،فكلّ يستشف منه معنىً جديداً لا يراه الآخر ، فالزمخشري (ت ٥٣٨هـ) يقول : «والظاهر انه تهكم» لان اولئك المنافقين «كانوا اعدى عدو للمؤمنين ، وأشدّهم حسداً لهم ؛ فكيف يوصفون بالمودة إلا على وجه العكس تهكماً بحالهم» (٣).

أما ابن عطية فيقول : «قوله تعالى : (كأن لم تكن بينكم وبينه مودة) التفاتة بليغة واعتراض بين القائل والمقول ، بلفظ يظهر زيادة في قبح فعلهم» (٤) .

في حين يرى فخرالدين الرازي (ت ٦٠٦هـ) أنّ «المراد التعجب ، كأنه تعالى يقول : انظروا إلى ما يقول هذا المنافق ، كأنه ليس بينكم ايها المؤمنون وبينه مودة ولا مخالطة اصلاً» (٥) .

ورأى الشيخ محمد علي الصابوني – وهو من المعاصرين – ان هذه الجملة «اعتراضية للتنبيه على ضعف ايمانهم» لأن «هذه المودة في ظاهر المنافق لا في

(١) التفسير الكبير ١٠/١٧٩ .
(٢) البحر المحيط ٣/٢٩٤ .
(٣) الكشاف ١/٥٣٣ .
(٤) البحر المحيط ٣/٢٩٣ .
(٥) التفسير الكبير ١٠/١٨٠ .

اعتقاده» (١) وإني إذ استعرض هذه النصوص أؤكد ما قلته من سمو الاعتراض القرآني وثرائه .

وأما تركيب الجملة المعترضة (كأن لم تكن بينكم وبينه مودة) فخلاصته : (كأن) مخففة مضمنة معنى التشبيه واسمها ضمير شأن + (لم) هي من الأدوات التي تقترن بها الجملة الفعلية بعد (كأنْ) (٢) + (تكن) الناقصة + (بينكم وبينه(خبر)تكن المقدم (٣) + (مودة اسم (تكن) المؤخر . (وجملة) لم تكن بينكم وبينه مودة(خبر كأن) .

إنّ هذا التركيب المتداخل للجملة المعترضة كأنه يصف تداخل المنافقين بين المسلمين ، ذلك التداخل الذي تناساه المنافق ساعة النصر ، فتمنى ان تكون (بينكم وبينه) : (مودة) بأية صورة ولو صغرت !!

ويلاحظ هنا ان دلالة تنكير (مودة) وتأخرها عن خبرها (بينكم وبينّه) قد اعطى جملة الاعتراض معاني عميقة ، وصدق الحموي إذ قال : «وفي الاعتراض من المحاسن المكملة للمعاني المقصودة ما يتميز به على انواع كثيرة» (٤)

٤ ـ التوكل والثقة بالله في الجملة الفعلية التي قدم عليها متعلقها للاختصاص في سياق التركيب الشرطي :

ويتضح هذا المقصد بهذا النمط التركيبي في قوله تعالى : (وآتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه : يا قوم إنْ كان كَبُرَ عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله ـ فعلى الله توكلت ـ فأجمعوا امركم وشركاءكم ثم لا يكن امركم عليكم غُمّة ثم اقضوا إليَّ ولا تُنظرون) (٥) فيلاحظ ان الجملة الاعتراضية

(١) صفوة التفاسير ١١٠/٢ .
(٢) ينظر : البحر المحيط ٢٩٢/٣ .
(٣) ينظر : مشكل إعراب القرآن ٢٠٢/١ .
(٤) خزانة الأدب وغاية الأرب : ص ٣٦٦
(٥) يونس : ٧١ .

(فعلى الله توكلت) قد وقعت بين جملة الشرط وجزائه ، وقبل التعرض لجملة الاعتراض ، لابُدّ من التوقف عند مسألة اختلفت فيها الأقوال ، وهي : هل جملة (فعلى الله توكلت) معترضة حقاً ، ام انها جواب الشرط؟

ثمّة ثلاثة اقوال في ذلك ، **الأول** : قيل إن «جواب الشرط محذوف تقديره : فافعلوا ماشئتم» [1] ، اي : إن كان كبُرَ عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فافعلوا ماشئتم . وهذا القول لا نرتضيه لسببين ، الأول : إنّ الحذف خلاف الأصل ، فلا يُصار اليه الا عند الضرورة ، والثاني : إنّ في الآية نفسها ما يصلح أن يكون جواباً ويستقيم معه المعنى على أكمل وجه ، الا وهو قوله : (فأجمعوا امركم...)

القول الثاني :

إن جملة (فعلى الله توكلت) هي جملة جواب الشرط ، وجملة (فأجمعوا) معطوفة عليها [2] . وقد ردّ ابو حيان هذا الرأي إذ قال : «وهو لا يظهر» لأن نوحاً عليه السلام «متوكل على الله دائماً» [3] ، فتوكله ليس موقوفاً على الشرط المذكور .

القول الثالث :

إنّ جملة (فعلى الله توكلت) معترضة ، وجملة (فأجمعوا) هي جملة جواب الشرط ، وهذا رأي (الأكثرين) كما حكاه فخرالدين الرازي [4] ، وأبو حيان الاندلسي [5] ، وهو اختيار ابن فارس [6] . وهو الذي نرجحه ونختاره ؛ لأنه يتفق مع السياق اتفاقاً تاماً ؛ لأن نوحاً عليه السلام قال كلامه هذا بعد أن

---

(١) البحر المحيط ١٧٨/٥ .
(٢) وممن اختار هذا الرأي من المفسرين : القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٣٦٢/٨ ، والآلوسي في روح المعاني ٤٧١/٣ .
(٣) البحر المحيط ١٧٨/٥ .
(٤) التفسير الكبير ١٣٧/١٧ .
(٥) البحر المحيط ١٧٨/٥ .
(٦) الصاحبي : ص ٢٤٨ .

يئس من قومه فأخبرهم بجملة الجزاء التي ضمت قيوداً خمسةً هي : اجمعوا امركم ، ثم جمعّوا شركاءكم الذين تستنصرون بهم ، ثم اجهروا بقراركم ولا تخفوه ، ثم امضوا إليَّ بمكروهكم ، ثم لا تمهلوني بعد إعلامكم (١) .
إنّ هذه القيود الخمسة مناسبة ايَّ مناسبة لجملة الشرط المذكورة فَحُقَّ لها أن تكون جملة الجزاء الشرطي .

وهنا يأتي دور جملة الاعتراض (فعلى الله توكلت) متوسطة بين الشرط وجزائه،مؤدية معنى لايمكن تحقيقه لولا هذا الاعتراض ،إذ قيل أن يخبرهم نوح عليه السلام بجملةالجزاء الشرطي وقيودها الخمسة التي يرهب لها أي شخص ، أخبرهم أنه غير مكترث بكل مايكيدونه ، ثقة بالله الذي يحفظ أنبياءه وأولياءه من كل يد غادرة .

أما تركيب الجملة المعترضة فإنه في أعلى رتب البلاغة في تعبيره عن المعنى المقصود وتصويره لحالة نوح عليه السلام النفسية تصويراً دقيقاً ،إذ ان في جملة (فعلى الله توكلت) ،« تقديم ماحقه التأخير لإفادة الحصر ، أي : على الله لا على غيره » (٢)،إن تقديم الجار والمجرور على متعلقه في هذه الاية يعني الحصر والاختصاص ،إذ ان توكل نوح عليه السلام كان محصوراً بالله مختصاً به سبحانه ، فلذلك جاءت جملة الجزاء الشرطي مليئة بالتحدي ، تحدي الواثق من النصر .

واذا أريد استشفاف جمالية التركيب في الجملة المعترضة فلا بد من إعادة قراءة النص القرآني باعادة الجار والمجرور الى موقعه لتصبح الجملة في غير القرآن : (فتوكلت على الله) وسيتضح حينئذ سموق النص القرآني وإعجاز تركيبه .

(١) ينظر : التفسير الكبير ١٣٧/١٧ — ١٣٨ .
(٢) صفوة التفاسير ٨٠/٥ .

٥ – تعظيم المقسم به في اعتراض مركب في سياق جملة القسم

ويلحظ هذا المقصد بهذا النمط التركيبي في قوله تعالى: (فلا أقسم بمواقع النجوم – وإنه لقسم لو تعلمون عظيم – إنه لقرآن كريم)[1] حيث تبدأ الاية بقسم من رب العالمين (فلا أقسم)، وقيل في (لا) هذه انها(مزيدة مؤكدة) [2] وقيل: أصلها لام أشبعت فتحتها وهو مارجحه أبو حيان، وقيل غير ذلك [3] اذاً يقسم تعالى بمواقع النجوم إنه لقرآن كريم. ولكن مامواقع النجوم ؟ إن مواقعها « منازلها ومسايرها ، وله تعالى في ذلك من الدليل على عظيم القدرة والحكمة مالايحيط به الوصف » [4]. وما الحكمة في تخصيصها بالقسم ؟ يقول أبوحيان: لأنه « في إقسامه تعالى بمواقع النجوم سر في تعظيم ذلك لانعلمه نحن » [5]. فالعربي كان على إطلاع بمعرفة النجوم يهتدي بها في صحرائه فكانت له صوى تهديه إن ضل وترشده إن أخطأ ، ولكنها معرفة سطحية يفيد منها في تحديد مكانه هو ، ولكن أين مكانها هي ؟ الكواكب المجموعات الشمسية ، المجرات التي تسبح في كون واسع لم يكتشف العلم الحديث بأجهزته المتقدمة إلا أقل القليل مما في علمه سبحانه !!

اذاً علينا أن نذعن لهذا القسم ، ونسلم بضآلة معرفتنا تجاه مواقع النجوم ، وهنا يجيء الاعتراض : (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) ، واي نوع من الاعتراض ؟ إنه « اعتراض في اعتراض ؛ لأنه اعترض به بين المقسم والمقسم عليه ، وهو قوله : (إنه لقرآن كريم) ، واعترض بـ (لوتعلمون) بين الموصوف وصفته » [6]. فجاء الاعتراض الأول : (وإنه لقسم عظيم) جملة

---

(١) الواقعة : ٧٥ – ٧٧ .
(٢) الكشاف ٤/٤٦٨ .
(٣) ينظر التفسير الكبير ٢٩/١٨٧ ، والبحر المحيط ٨/٢١٣ .
(٤) الكشاف ٤/٤٦٨ .
(٥) البحر المحيط ٨/٢١٤ .
(٦) الكشاف ٤/٤٦٨ .

مؤكدة بـ (إن) واللام ، ودلالة كلمة (عظيم) ، كل ذلك للتعبير عن عظمة المقسم به ، ومع ذلك التعظيم فإن ادراك الإنسان لايرقى لاستكناه ذلك السر العظيم ، وعلمه مهما بلغ فإنه لايستطيع ذلك العالم حتى استطلاعه ، فجـــاء الاعتراض الثاني (لو تعلمون) متداخلا بين الاعتراض الأول ، فوقع بين الموصوف (لقسم) وبين الصفة (عظيم) .

وجملة الاعتراض الثانية (لوتعلمون) « وضعت علم الإنسان في حجمـه الطبيعي ووضعت النجوم ومايدور بها وحولها في موضعها من حيث التعظيم والتقدير » (١) . ويلاحظ تركيب (لوتعلمون) فإن (لو) محذوفة الجواب وقيل : مقدر بـ : لو تعلمون لعظمتموه ، وقيل : « الجواب محذوف بالكلية لم يقصد بذلك جواب » (٢) . ثم أين المفعول به لـ (تعلمون) ؟ قيل : محذوف وقيل : لامفعول له ، وذلك « أبلغ وأدخل في الحسن » (٣) .

إذاً فدلالة هذا الاعتراض المركب ـ إن صح التعبير ـ (٤) دلالة قوية في بيان عظمة علم الخالق وضآلة علم المخلوق ، إن الاعتراض في هذه الايـة يشكل ملمحاً للاعتراض القرآني بأنه قد يكون مركباً ، أي يدخل الاعتراض اعتراض آخر لتأدية المعنى المطلوب بأكمل وجه .

٦ ـ تخصيص أحد المذكورين بمزيد العناية والأهتمام بأكثر من جملة في سياق الإجمال والتفسير :

ويلحظ هذا المقصد بهذا النمط في قوله تعالـى :

(ووصينا الإنسان بوالديه ـ حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين ـ أن

---

(١) بلاغة الكلمة والجملة والجمل : ص ٢٣٨ .
(٢) التفسير الكبير ١٨٩/٢٩ .
(٣) نفسه .
(٤) نرى لو يأخذ الباحثون بهذا المصطلح بدل المصطلح القديم : (اعتراض في اعتراض) .

اشكر لي ولوالديك) (١) ، إذ يوصي رب العزة الأنسان بأن يشكر الله سبحانه ثم يشكر والديه اللذين كانا سبب وجوده بأمر الله .

وبين قوله : (ووصينا الانسان بوالديه) وقوله المفسر لهذه التوصية (أن أشكر لي ولوالديك) يعترض سبحانه بقوله : (حملته أمه وهناً على وهن، وفصاله في عامين) ذلك « الاعتراض الذي قد طبق مفصل البلاغة ، وفائدته أنه لما أوصى بالوالدين ذكر ماتكابده الأم من المشاق في حمل الولد وفصاله ايجاباً للتوصية بها وتذكيراً بحقها » (٢) .

وإذا امعنا النظر في الاعتراض في هذه الاية وجدناه يتكون من جملتين (٣)، أولاهما : قوله تعالى : (حملته أمه وهناً على وهن) ، والثانية : (وفصاله في عامين). والاعتراض بجملتين أو أكثر وارد في القرآن في أكثر من موضع وهو ما يشكل ملمحاً للجملة الاعتراضية القرآنية ، وكفانا هذا دليلا في الرد على أبي علي النحوي (ت٣٧٧هـ) الذي منع الاعتراض بأكثر من جملة (٤).

أما بلاغة هذا الاعتراض فظاهرة ، إذ فيه تخصيص لأحد المذكورين بمزيد من العناية والاهتمام ، فكان الاعتراض الأول : (وهناً على وهن) وهو « في موضع الحال « ومعناه أن الأم » تضعف ضعفاً على ضعف ، أي : يتزايد ضعفها ويتضاعف ؛ لأن الحمل كلما ازداد وعظم ، ازدادت ثقلا وضعفاً » (٥) . ويلحظ معنى الاستمرار والتكرار في هذا الاعتراض (وهناً

---

(١) لقمان : ١٤ .

(٢) المثل السائر ٤٣/٣ .

(٣) ينظر : مغني اللبيب ٤٣٩/٢ .

(٤) افاضت كتب النحو والبلاغة في ذكر هذا الرأي ومناقشته ، ينظر مثلا : تسهيل الفوائد ص ١١٣ ، وارتشاف الضرب ٣٧٥/٢ ، ومغني اللبيب ٤٤٠/٢ ، والبرهان ٦١/٣ .

(٥) الكشاف ٤٩٤/٣ ، وقال النحاس : «فأما نصب (وهناً على وهن) فما علمت ان احداً من النحويين ذكره ، فيكون مفعولا ثانياً على حذف الحرف ، اي : حملته بضعف على ضعف» اعراب القرآن ٦٠٣/٢ ، وهو ما اختاره مكي في مشكل إعراب القرآن ٦٥/٢• والذي يبدو لي ان ما ذهب اليه الزمخشري من النصب على الحالية ارجح .

على وهن) . وهنا جاءت الجملة الاعتراضية الثانية : (وفصاله في عامين) التي حملت دلالتين عظيمتين : الأولى : الدلالة الاعتراضية ، وهي تأكيد منزلة الأم لما تعانيه بعد الولادة من المشاق والثانية : الدلالة التشريعية ، إذ شرع سبحانه من خلال هذا الاعتراض المدة القصوى للفطام ، وهي سنتان ؛ وهذا ما اعتبره الفقهاء في هذه المسألة ، ويلحظ تأخير الجار والمجرور في قوله : (وفصاله في عامين) كم أدى من فائدة ، إذ لو قال : (وفي عامين فصاله) لامتنع فصال الطفل قبل هذه المدة ، ولكنه سبحانه أوكل ذلك للأهل ، وحدد المدة القصوى فقط .

وختاماً إن كان لابد من كلمة أخيرة ونحن نغادر الموضوع ؛ فكلمتنا هي وقفة عند قوله تعالى : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات — لانكلف نفساً إلا وسعها — أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) (١) فجعل رب العزة سبحانه الجنة جزاءً لمن آمن وعمل صالحاً ، واعترض بين الجملتين بقوله : (لانكلف نفساً إلا وسعها) فدل بذلك ان الجنة تنال بالإيمان والعمل الصالح الذي يستطيعه الإنسان ، لابما يعجز ، وما لايكون بوسع الانسان فعله ... اللهم فلا تكلفنا مالا طاقة لنا به ، وأعذنا من فتنة القول والعمل .

---

(١) الأعراف : ٤٢ .

المصادر والمراجع

١ – ارتشاف الضرب من لسان العرب، لأبي حيان الأندلسي، تحقيق: الدكتور مصطفى النماس، الطبعة الأولى، مطبعة المدني ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧ م.

٢ – إعراب الجمل وأشباه الجمل، : الدكتور فخر الدين قباوة، الطبعة الثالثة، دار الافاق الجديدة، بيروت ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م.

٣ – إعراب القرآن : لأبي جعفر النحاس، تحقيق : الدكتور زهير غازي زاهد، مطبعة العاني، بغداد ١٩٧٨ – ١٩٨٠ م.

٤ – أنوار الربيع في أنواع البديع : لابن معصوم المدني، تحقيق : شاكر هادي شكر، الطبعة الأولى، مطبعة النعمان – النجف الأشرف ١٣٨٩هـ – ١٩٨١ م.

٥ – البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، الطبعة الأولى، مطبعة السعادة – مصر ١٣٢٨ هـ.

٦ – البديع : لابن المعتز، تحقيق، أغناطيوس كراتشفوفسكي، طبع في بريطانيا ١٩٣٥ م.

٧ – البرهان في علوم القرآن : للزركشي، تحقيق، محمد أبو الفضل ابراهيم، الطبعة الثانية، دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت.

٨ – بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار : الدكتور عبد الفتاح لاشين، مطبعة دار القرآن.

٩ – بلاغة الكلمة والجملة والجمل، الدكتور منير سلطان، منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٨٨.

١٠ – تجديد النحو : الدكتور شوقي ضيف، الطبعة الثانية، دار المعارف ١٩٨٦.

١١ – تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد : لابن مالك ، تحقيق : محمد بركات ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٣٨٧ هـ – ١٩٦٧ م.

١٢ – التفسير الكبير : للإمام فخر الدين الرازي ، الطبعة الثانية ، دار الكتب العلمية – طهران .

١٣ – الجامع لأحكام القرآن : للقرطبي ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٣٨٧ هـ – ١٩٦٧ م .

١٤ – حاشية الشنواني على شرح مقدمة الأعراب ، للشنواني ، تحقيق : محمد شمام ، الطبعة الثانية – مطبعة النهضة ، تونس ١٣٧٣ هـ .

١٥ – خزانة الأدب وغاية الأرب : لابن حجة الحموي ، المطبعة الخيرية بمصر ١٣٠٤ هـ .

١٦ – خزانة الأدب ولب لباب لسان العربي ، لعبد القادر البغدادي ، تحقيق : عبد السلام هارون ، الطبعة الثانية ، مطبعة المدني – القاهرة ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٩ م .

١٧ – الخصائص : لابن جني ، تحقيق : محمد علي النجار ، الطبعة الثانية صورة عن طبعة دار الكتب ، نشر دار الهدى للطباعة والنشر – بيروت.

١٨ – الخواطر الحسان في المعاني والبيان ، جبر ضومط ، الطبعة الثانية – مطبعة الوفاء – بيروت ١٩٣٠ .

١٩ – دراسات لإسلوب القرآن الكريم : محمد عبد الخالق عضيمه ، المركز الأسلامي للطباعة – القاهرة .

٢٠ – الدلالة الزمنية في الجملة العربية : الدكتور علي جابر المنصوري ، الطبعة الأولى ، مطبعة الجامعة – بغداد ١٩٨٤ .

٢١ – روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : للالوسي ، الطبعة الأولى ، مطبعة بولاق ١٣٠١ هـ .

٢٢ – الصاحبي في فقه اللغة ، لابن فارس ، تحقيق : الدكتور مصطفى الشويمي ، مطابع أ . بدران بيروت ١٩٦٤ م .
٢٣ – صفوة التفاسير : الشيخ محمد علي الصابوني ، الطبعة الأولى ، دار القرآن الكريم – بيروت ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م .
٢٤ – الصناعتين : لأبي هلال العسكري ، تحقيق : علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم ، المكتبة المصرية – بيروت ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م .
٢٥ – الصورة الفنية في المثل القرآني : الدكتور محمد حسين الصغير ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام ١٩٨١ م .
٢٦ – غريب الحديث : لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي ، طبعة مصورة عن طبعة دائرة المعارف العثمانية ١٣٩٦ هـ – ١٩٧٦ م .
٢٧ – من الالتفات فالبلاغة العربية ، قاسم فتحي سليمان ، رسالة ماجستير مقدمة الى كلية الاداب جامعة الموصل ١٩٨٨ .
٢٨ – الكشاف : لجار الله الزمخشري ، دار الكتاب العربي – بيروت ١٣٦٦ هـ – ١٩٤٧ م .
٢٩ – لسان العرب : لابن منظور ، دار صادر – بيروت ١٩٥٦ م .
٣٠ – المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : لابن الأثير تحقيق : الدكتور أحمد الموفي ، والدكتور بدري طبانة ، الطبعة الأولى ، مطبعة النهضة ١٣٨٠ هـ – ١٩٦٠ م .
٣١ – مشكل إعراب القرآن ، مكي بن أبي طالب القيسي ، تحقيق ، الدكتور حاتم صالح الضامن ، منشورات وزارة الأعلام – بغداد ١٩٧٥ م .
٣٢ – معجم البلاغة العربية : الدكتور بدري طبانة ، الطبعة الأولى ، منشورات جامعة طرابلس ١٣٩٧ هـ – ١٩٧٧ م .

٣٣ – معجم المصطلحات البلاغية وتطورها : الدكتور أحمد مطلوب ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م .

٣٤ – مغني اللبيب عن كتب الأعاريب : لابن هشام تحقيق : الدكتور مازن مبارك ومحمد علي حمدالله ، الطبعة الثانية ، دار الفكر الفكر ١٩٦٩ م .

٣٥ – مفتاح العلوم : للسكاكي ، الطبعة الأولى ، مطبعة البابي الحلبي بمصر ١٣٥٦ هـ – ١٩٣٧ م .

« الدوريات »

١ – الجمل التي لها محل من الإعراب والتي لامحل لها : لابن أم قاسم المرادي ، تحقيق : الاستاذ طه محسن ، مجلة آداب الرافدين : العدد السابع ١٩٧٦ .



حول النشاط الفرنسي في شمال العراق (١٩٣٩-١٩٤٠) دراسة في الوثائق العراقية

عبد التواب احمد سعيد
كلية الاداب — جامعة الموصل

« مقدمة »

سعت فرنسا في اعقاب الحرب العالمية الاولى ، الى إحكام سيطرتها على اجزاء من المشرق العربي لتؤمن مصالحها وتبسط نفوذها لمدة طويلة من الزمن ، فبادرت الى اقامة كيانات ودويلات عديدة شكلت خطراً على مستقبل المنطقة.

وسوف نسلط الضوء في هذا البحث على مسعى من المساعي الفرنسية ، لنكشف بالوثائق ، محاولة خطيرة ، لم يكتب لها النجاح ، للسيطرة على الجزء الشمالي الغربي من العراق عند الحدود مع تركيا وسوريا ، وفي فترة حرجة من تأريخ العراق المعاصر .

استند البحث استناداً اساسياً الى عدد قليل من الوثائق العراقية البالغة الاهمية ، واعتمد ايضاً على مصادر اخرى توضيحية ، راجيا ان يضيف معلومات جديدة ومفيدة الى تأريخ العراق المعاصر .

انعقد مؤتمر السلام في باريس عام ١٩١٩ وحضره وفد عربي كان نوري السعيد احد اعضائه ، حيث قدم مذكرة لمندوبي الدول الأربع الكبرى . وهي الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وايطاليا ، تضمنت « شكوى عربية من محاولات فرنسية الفصل بين العراق وسوريا انطلاقاً من سياسة استعمارية محكمة » (١) . فكانت تلك المذكرة اول اشارة عربية — بعد الحرب — الى وجود خطر فرنسي على وحدة العرب .

وفي آب ١٩٢٠ ، وقع السلطان العثماني محمد السادس ، على معاهدة سيفر دون رغبة منه ، فقد تضمنت بنوداً منها إعلان استقلال ارمينية ، وحماية الاقليات او منح الحكم الذاتي للاكراد .. غير ان الوطنيين الأتراك

١) مذكرات رستم حيدر ، تحقيق نجدة فتحي صفوة ، بيروت ، ١٩٨٨ ص ٤٢٣ .

عقدوا معاهدة مع فرنسا في تشرين الأول في عام ١٩٢١ ضمنت لتركيا حدوداً مناسبة ولفرنسا حقوقاً وامتيازات اقتصادية ، مع تفرغ تام لمواجهة الحكومة العربية في دمشق برئاسة فيصل بن الحسين ، واصبحت معاهدة سيفر غير ذات شأن بعد التطورات التي حدثت في تركيا وادت الى بروز دور مصطفى كمال ، ومن ثم التوقيع على معاهدة بين تركيا والحلفاء في لوزان بسويسرا في تموز ١٩٢٤ ، وكانت لصالح تركيا (١) .

وقد حصلت فرنسا على مناطق نفوذ وامتيازات عديدة واحتلت بريطانيا أجزاء من المشرق العربي وإتفقت مع حليفتها ومنافستها فرنسا على مستقبل العراق وسوريا حيث إتفقتا على تشكيل دولة عربية في سوريا الداخلية وولاية الموصل مع أفضلية اقتصادية وسياسية لفرنسا ، ثم تنازلت عن الموصل بعد حصولها على استثمارات نفطية في العراق (٢) .

ولم تكن تلك الاتفاقات بين فرنسا وبريطانيا ، تعني ان سياساتهما واحدة ، فقد ظهرت المنافسة بينهما بعد وقت قصير وتخوفت فرنسا من مخططات بريطانيا التي سعت الى دمج سوريا بدولة عربية واسعة في المشرق تحكمها اسرة الشريف حسين بن علي الهاشمي وتكون خاضعة للنفوذ البريطاني (٣) .

---

(١) ابراهيم خليل احمد و خليل علي مراد ، ايران وتركيا دراسة في التأريخ الحديث والمعاصر (الموصل ١٩٩٢) ص ص ٢٣٤ - ٢٣٧ .
وعن مصطفى كمال اول رئيس للجمهورية التركية (ولد عام ١٨٨٠ وتوفي عام ١٩٣٨) انظر .
احمد نوري النعيمي السياسة في تركيا الحديثة ١٩١٩ - ١٩٣٨ بغداد ١٩٩٠ ص ص ١٤ - ١٨ وفيه قائمة متنوعة من المصادر عن شخصية مصطفى كمال اتاتورك .
وحول معاهدات السلام عموماً انظر فشر : تأريخ اوربا في العصر الحديث ص ٥٤٧ - ٥٨٦

(٢) علي محافظة : موقف فرنسا وايطاليا من الوحدة العربية ١٩١٩ - ١٩٤٥ (بيروت ١٩٨٥) ص ٤٢ ، ص ٧٣ .
(٣) المصدر نفسه ص ص ١٢١ - ١٢٣ .

ان نظرة إلى تلك الفترة تربنا ارتباط فرنسا بسياسة استهدفت البقاء في المشرق العربي ، والحفاظ على مصالحها في وجه منافسات القوى الاخرى ، والعمل لصالح الاقليات ، ومنع قيام وحدة بين الدول العربية (التي كان العراق من ابرز العاملين على تحقيقها) ، وضمان صداقة اطراف معينة تفيد منها مستقبلاً ، وتنفيذ سياسة راسخة تجاه سوريا بعد احتلالها وتقسيمها إلى وحدات سياسية وادارية صغيرة (١) .

وللوصول إلى تلك الأهداف سعت فرنسا إلى التفاهم مع تركيا التي ارتبطت معها بعلاقات طويلة امتدت قروناً من الزمن ،فكسبت ودها وارضتها سياسياً وعسكرياً ، واتضح ذلك بصورة كبيرة مع بداية النهوض الالماني الجديد بظهور النازية في المانيا بقيادة هتلر ،وادت تلك العلاقات المتطورة إلى استغلال تركيا للظروف وقيامها باعتداءات عسكرية ضد منطقة الجزيرة السورية بعد عام ١٩٣٥؛ تمهيداً لاتفاقها مع فرنسا بشأن لواء الاسكندرونة ذلك الاتفاق الذي تم عام ١٩٣٨ وادى بعد عام واحد إلى ضم اللواء إلى تركيا (٢).

لقد كان ضم الاسكندرونة إلى تركيا وبتأييد فرنسي ،خطوة اخرى قربت تركيا نحو الغرب ،وأساءت إلى العلاقات العربية التركية على الرغم من ان تركيا بادرت إلى اتخاذ أجراء سليم من وجهة النظر العربية تمثل في رفضها الحاسم لعرض صهيوني باسكان اعداد من اليهود في لواء الاسكندرونة كما تشير بعض المصادر (٣) .

---

(١) محافظة : لواء الأسكندرونة ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد ٢٣ (بغداد ١٩٨٣) ص ص ٨٥ – ٩٠ .

(٢) محافظة : المصدر الاسبق (موقف فرنسا ....) ص ص ١٠٥ – ١٢٠ انظر ايضاً : ابراهيم خليل احمد : المصدر السابق ص ٢٥٥ .

(٣) محافظة :فرنسا ص ١١٢ وانظر ايضاً : ناجي شوكت :سيرة وذكريات (بيروت ١٩٧٧) ص ص ٢٨٩ ، ٢٩٤ .

ان ما يهمنا من الموقفين التركي والفرنسي هو سياسات الدولتين تجاه سوريا والعراق ، فقد ادى الاجراء التركي إلى تأكيد الاطماع الفرنسية في سوريا وسعي فرنسا إلى تجزئتها ، وحماية الاقليات فيها ، وتأليف جمعيات سياسية لتلك الاقليات في حلب والجبل وشمال الجزيرة ، بهدف مقاومة الاستقلال والوحدة ومعاداة سوريا والعراق (١) .

ثانياً : العراق والتطورات العامة في المنطقة بين ١٩٣٢ – ١٩٣٩

تستوقف المهتمين بالتاريخ العراقي المعاصر ، نشاطات وتحركات الملك غازي (١٩٣٣ – ١٩٣٩) تلك النشاطات التي اتسمت بالحماس القومي ، ومحاولة الوقوف إلى جانب فلسطين وسوريا وتأييد تطلعاتهما في الاستقلال والوحدة ، مما عزز شعبيته وساهم في الوقت نفسه بالاضرار الواضح بعلاقاته مع بريطانيا وفرنسا ايضاً ، خاصة بعدما رفع شعارات ، وادلى بتصريحات تعلقت بسوريا وتعسف الفرنسيين مع شعبها ، مما ساهم في حدوث هياج شعبي عراقي ضد فرنسا في منتصف الثلاثينيات وازداد بعد التواطؤ الفرنسي مع تركيا بشأن لواء الاسكندرونة (٢) .

وقد رغبت تركيا خلال تلك الحقبة ، في ان يكون اهتمام العراق موجهاً نحو الخليج العربي وشؤونه وتطوراته ، اكثر من اهتمامه بشؤون سوريا وأوضاعها وبما يتلاءم ومصالح تركيا وتوجهاتها فقد كانت تخطط لضم الاسكندرونة اليها ، لذلك لم يكن من مصلحتها قيام اي تقارب عراقي سوري قد يؤدي إلى وحدتهما ومن ثم الاضرار بالمخطط التركي (٣) .

---

(١) دار الكتب والوثائق ، ملف رقم ٧٢٠ / ٣١١ ، تقرير الوزير المفوض العراقي في انقرة ، آب ١٩٣٦ .... انظر ايضاً ملف رقم ٧٥٣ / ٣١١ ، فيما يشير تقرير آخر الى ان تركيا رغبت في عدم تشتيت شمل سوريا لذلك انزعجت من سياسة فرنسا في سوريا .

(٢) لطفي جعفر فرج : الملك غازي (بغداد ١٩٨٧) .ص ص ٢٠٣ – ٢٠٥ .

(٣) عوني عبد الرحمن السبعاوي العلاقات العراقية التركية ١٩٣٢ – ١٩٥٨ (الموصل ١٩٨٦) ص ٣٧ – ٣٨ .

ان المتتبع للتطورات في تلك الفترة يلاحظ تنبه السياسيين والدبلوماسيين العراقيين للمخاطر التي يمكن ان تنجم عن توجهات تركيا ، وضرورة العمل الدؤوب لتحسين العلاقات معها بما ينسجم والمصالح الوطنية والقومية للعراق ، وفي هذا المجال نجد دبلوماسياً عراقياً في تركيا يحذر مبكراً من نتائج التوجهات التركية باشارته إلى ان «حصول تركيا على الاسكندرونة سيكون خطوة اولى نحو تعديل الحدود التركية الجنوبية للحصول على نفط الموصل ، او ربما الحاق لواء الموصل بتركيا ، او الاتجاه نحو علاقات متينة مع الاكراد لصالح النفوذ التركي وبما ينسجم تماماً مع (حقوق) بريطانيا في نفط الموصل» [1] .

هذا النص مهم جداً لانه يظهر الخطر الذي كان يهدد سلامة العراق وأمنه وارضه وشعبه ، كما انه يظهر طبيعة السياسة الغربية ، ومعها التركية احياناً ، تجاه العراق ، البلد المتحالف آنذاك مع الغرب والمرتبط بعلاقات حسن الجوار مع تركيا ، غير ان الظروف والتطورات جاءت لصالح العراق وحالت دون تنفيذ خطوة مؤذية بل خطيرة ، فظلت ضمن حيز محدود ، لكن الحكومة العراقية شعرت بالقلق من طرح مشاريع وخطط ضارة بالعراق وشكلت عبئاً ثقيلاً عليها مع احتمال ان يكون طرح مثل تلك المشاريع قد استهدف الضغط على العراق ليزيد من روابطه مع الغرب وتركيا ايضاً ، على ان العراق اظهر تمسكه بروابطه مع بريطانيا التي سعت إلى اقامة احلاف عسكرية في الشرق الاوسط لحماية مصالحها فتقاربت مع تركيا وشجعت دولاً اخرى على عقد ميثاق (سعدآباد) حيث تم التوقيع عليه في طهران في اليوم الثامن من تموز ١٩٣٧ وضم إلى جانب تركيا كلا من العراق وايران وافغانستان ، وقد ارضى الميثاق بريطانيا ، بطبيعة الحال ، غير ان العراقيين نظروا اليه بقلق وعدم رضا

---

(١) د. ك . و ملف رقم ٣١١/ ٧٢٠ تقرير المفوضية العراقية في انقرة بتأريخ ١/١١/ ١٩٣٧ .

بسبب الخوف ن ان يسمح لتركيا بالتوسع الاقليمي على حساب العراق وسوريا (1) .

ومن الملاحظ هنا وجود قلق عراقي مستمر على الصعيدين الرسمي والشعبي من احتمالات مواجهة تحرك تركي او فرنسي او كليهما معاً، لاحتلال او ضم اجزاء من الاراضي العراقية ضمن مد النفوذ والبحث عن المصالح ، مع استغلال عناصر معينة (قد) تقبل التعاون مع اطراف دولية لتحقيق اهدافها في ظرف معين والحاق الاذى بوحدة العراق الوطنية وابعاده عن قضايا الامة العربية .

لقد ضمت تركيا لواء الاسكندرونة استغلالاً لوجود اقلية تركية فيه وبدعم سياسي من دولة كبرى (فرنسا) ؛ وتمكنت الاقلية الألمانية في منطقة السوديت الجيكية ان تحصل على مطالبها اعتماداً على الدعم الألماني النازي القوي وذلك عام ١٩٣٨ ، وعلى الرغم من ان التطورين بعيدان عن العراق ؛ فقد زادا من القلق العراقي إذ قد يحدث ما يشبه ذلك في بلد كالعراق يضم اقليات تجد من يدعمها ويساعدها من الدول الكبرى (2) .

وقد كان تحرك العراق لدرء ذلك يقظاً وسريعاً فعندما تمرد البارزانيون في شمال العراق في آب ١٩٣٥ قام مسؤولون عراقيون باجراء اتصالات ومشاورات مع مسؤولين اتراك لدراسة الوضع والتصرف الذي تمليه المصلحة العامة كما جرت اتصالات مماثلة في نهاية ذلك العام بعد حدوث تمرد آخر قام به اليزيديون في

(1) سعاد رؤوف شير : نوري السعيد ودوره في السياسة العراقية حتى عام ١٩٤٥ (بغداد ١٩٨٨) ص ٧٨ .
وحول ميثاق سعد آباد وما احاط به من مواقف ... انظر
ناجي شوكت : المصدر السابق ص ٢٧٣ ، السبعاوي : المصدر السابق ص ٣٦ ، نوري احمد عبد القادر : الموصل والحركة القومية ١٩٢٠ – ١٩٤١ رسالة ماجستير غير منشورة (الموصل ١٩٨٨) ص ٢٢٧ .

(2) لوكا زديرزويز المانيا الهتلرية والشرق العربي : ترجمة د . احمد عبد الرحيم مصطفى (القاهرة : ١٩٦٨) ص ٦٥ – ٦٧ .

منطقة سنجار (قرب الموصل) وأخمدته القوات المسلحة العراقية بسرعة (١) .

ثالثاً : العراق وتركيا والمناورات الفرنسية

حدثت تطورات داخلية في العراق بين سنة ١٩٣٥ و ١٩٣٧ تمثلت بالتمردات العديدة التي اشرنا إلى بعضها وقيام انقلاب بكر صدقي عام ١٩٣٦ ، وقد راقبت تركيا تلك التطورات بنشاط ولم تظهر ارتياحاً لما كان يحدث ، وبادرت إلى تقديم مشورتها للعراق من اجل اعادة الهدوء والاستقرار للعراق (٢) .

ومع اقتراب العالم من الحرب عام ١٩٣٩ ؛ بدأت اوساط عراقية تتحسس مخاطر / جمة وتستجيب لها بتحرك مناسب ،من ذلك مثلاقيام الوزير المفوض العراقي في انقرة بمقابلة وزير خارجية تركيا في نيسان من ذلك العام حيث اشار المسؤول التركي إلى حالة سوريا وهي حالة سيئة كما تريد فرنسا ، وان بلاده لا تطمع باي جزء من سوريا عامة وحلب على وجه الخصوص (٣) .

واستمرت الاتصالات العراقية مع تركيا في وقت ازدادت فيه المخاوف العراقية من محاولات كانت تجري لاشاعة جو من عدم الاستقرار في شمال غرب العراق تغذيه فرنسا ، إلى جانب القلق والحذر من تحركات تركية باتجاه سوريا ، وصلة ذلك بالنشاط الفرنسي المعلن والسري في المنطقة .

وتزايد النشاط الفرنسي السيء إلى العراق ، ففي ٢٨ تشرين الاول ١٩٣٩ ، وجه ديوان مجلس الوزراء العراقي مذكرة إلى وزارة الخارجية ، اوضح فيها اهتمام رئيس الوزراء نوري السعيد بما جاء في تقرير القنصل العراقي في حلب بشأن النشاط الذي ابداه الفرنسيون هناك واستهدف اسكان الأرمن في منطقة قريبة من حدود العراق الشمالية الغربية عند تل كوجك ومدن صغيرة اخرى قريبة منها ، وان رئيس الوزراء سارع إلى توجيه تعليماته إلى وزارة الخارجية لكي تجرى اتصالات فورية مع وزير تركيا المفوض في بغداد وتبلغه بنوايـا

(١) لطفي جعفر فرج : المصدر السابق ص ١٠٧ ، ١٨٧ ، شوكت ، المصدر السابق ص ٢٧٣ .

(٢) السبعاوي : المصدر السابق ص ٣٣ .

(٣) د . ك . و ، ملف رقم ٧٢١ / ٣١١ في ٢١ / ٤ / ١٩٣٩

الحكومة الفرنسية الخاصة باسكان الأرمن والمخاطر التي قد تنجم من وضع غير مريح ليس للعراق وحده بل لتركيا أيضاً ، مع اقتراح بقيام الحكومتين العراقية والتركية بالفات نظر الحكومة الفرنسية الى نواياها السيئة (١) .

ان ذلك التحرك الفوري للحكومة العراقية من خلال رئيسها ، دليل على بعد النظر العراقي واهمية المسألة التي وجد المسؤولون العراقيون انها ذات اهمية مشتركة مع تركيا ، وعلى اي حال فان وزارة الخارجية العراقية ردت على توجيهات رئيس الوزراء خلال زمن مناسب بالتأكيد على مقابلة وزير تركيا المفوض في بغداد يوم ٣٠ تشرين الثاني ١٩٣٩ وابلاغه بانباء التحركات الفرنسية المريبة على الحدود العراقية السورية التركية ومنها اتصالات الفرنسيين بالاثوريين وبعض المشاغبين في منطقة الموصل (٢) .

ومع ان المسؤول العراقي لم يعط الدبلوماسي التركي معلومات حول هوية (المشاغبين) ؛ فإنه اطلع الوزير المفوض التركي على معلومات تشير الى قيام السلطات الفرنسية باقامة مقر لهؤلاء في منطقة الجزيرة العليا عند الحدود العراقية التركية . واستمرار الفرنسيين بارسال المزيد من العناصر المشاغبة الى المنطقة مشيراً الى ان اهدافهم سبقت الحرب العالمية الثانية ، ملمحاً الى تطور مهم وهو قيام تنسيق اعقبه عقد اتفاق بين تركيا وفرنسا وبريطانيا (٣) ،منوهاً الى ادراك بريطانيا خاصة لطبيعة الموقف العراقي منها وهو « موقف واضح ومقرر ومعروف يتسق والموقف البريطاني وبالتالي يحدد نوع العلاقة التي يجب ان تكون مع فرنسا حليفة بريطانيا » (٤) .

---

(١) د. ك . و : ملف رقم ٣١١/٨٢٠ في ١٩٣٩/١/٢٨
(٢) د . ك ، و : ملف رقم ٣١١/٨١١ في ١٩٣٩/١٢/٥
(٣) في ١٩٣٩/١٠/١٩ عقدت الدول لثلاث آتفاق للتعاون المشترك حول الدفاع عن منطقة شرق البحر المتوسط .... انظر
يشير : المصدر السابق ص ٧٨ .
(٤) د . ك . و : ملف رقم ٣١١/٨١١ في ١٩٣٩/١٢/٥

ضمن تلك المعطيات أبدى المسئول العراقي استغرابه من موقف فرنسا المعادي للعراق لانه موقف غير مبرر وينضم عن سوء النية من دولة يصادقهـا العراق وقد تتحول بفعل الحرب الى دولة حليفة (١) .

لقد ابدى المسئول العراقي تحفظه على الموقف الفرنسي، لكنه حاول إعطاء تفسير يخفف من مرامي الفرنسيين السيئة باشارته الى ان الاجراءات الفرنسية لاتمثل الموقف الفرنسي الرسمي وانما هي نتاج مخطط من صغار الموظفيـن الفرنسيين او امثالهم في سوريا (٢) .

إن التحليل الصحيح (على الأرجح) لتلك المواقف والتطورات ، هو أن فرنسا تصرفت وفقاً للظروف الخطيرة التي وجدت نفسها فيها وتمثلت بالخطر الداهم عليها من المانيا وامتداد تأثيراته الى المشرق العربي ودوله وخاصة العراق المرتبط رسمياً بمعاهدة مع بريطانيا والمعادي شعبياً للحلفاء حيث كان الرأي العام اكثر ميلا الى المانيا واكثر إعجاباً بأنتصاراتها ، وكان ذلك مثيراً للقلـق الفرنسي على سوريا واوضاعها ، لذلك ارادت فرنسا تحجيم الدور العراقي بتحريك قوى معادية داخلية ضده بهدف إرهاقه واشغاله وابعاده عن قضايـا امته ووحدتها .

وقد حاول المسؤولون العراقيون إقناع الأتراك بان التصرفات الفـرنسيـة المعادية للعراق ستصيب تركيا بالضرر واقتنع الدبلوماسي التركي واشار إلـى استمرار السلطة الفرنسية في سوريا باسكان عناصر الشغب في حلب علـى الرغم من شكوى الحكومة التركية (٣) .

ولتأكيد المسعى الرسمي العراقي بشأن ذلك التصرف المعادي فقد بـادرت وزارة الخارجية العراقية الى استدعاء وزير فرنسا المفوض في بغداد للحصول

---

(١) د . ك . و ، الملف السابق نفسه .
(٢) د . ك ، و ، الملف السابق نفسه
(٣) د . ك ، و ، الملف السابق نفسه

على تأكيدات منه بعدم نية بلاده إقامة منطقة معادية للعراق عند حدوده ، مع إظهار معرفة السلطات العراقية بالمسعى الفرنسي الدؤوب لجمع عناصر السوء عند الجزيرة العليا المحاددة للعراق ، والتعريف ببعضهم حيث كان منهم ، «يزيديون هاربون من العراق ،وارمن وضباط مفصولون من الخدمة ونزعت عنهم جنسيتهم العراقية . وغيرهم » (١) .

لقد ارادت السلطات الفرنسية ان توحد هذه المجموعات المختلفة الأنتماءات لخلق التوتر وزعزعة الاستقرار في العراق وتشتيت جهوده ، خدمة لاهداف ومصالح فرنسا في المنطقة ودعما لمشروعها الأستعماري الذي عملت على تقويته في المشرق العربي بما يشبه مشروع بريطانيا باقامة وطن قومي لليهود في فلسطين الذي اصبح فيما بعد وكراً دائماً للمعتدين .

ولم يترك العراق وسيلة الاسلكها لتقوية وتوحيد الصفوف املا في النجاح بمنع او وقف المخطط الفرنسي الطامع بالارض والنفط والمكانة التأريخية الحضارية ، لكن الفرنسيين استمروا في سعيهم السيء بدليل ماتحويه وثيقة اخرى صادرة عن وزارة الخارجية العراقية اوائل عام ١٩٤٠ حيث تشير بوضوح الى « عزم الفرنسيين على تأسيس دولة في الجزيرة العليا لاسكان العناصر المعادية للعراق من مهاجري الأرض واليزيديين والاثوريين والمسيحيين والأكراد وطبقات من البدو والأعراب ».(٢) .

وفي هذه المذكرة المهمة ، أكدت وزارة الخارجية العراقية تأكيداً واضحاً مدى الأضرار التي يمكن ان تنجم عن تأسيس وضع معاد في زاوية (حدودنا الشمالية) بين العراق وتركيا وسوريا ، مثلما اوضحت استمرار الأتصالات مع الجانب التركي حيث تبين ان الموقف الرسمي التركي قائم على تفهم

(١) د . ك . و : الملف السابق نفسه ، نفس الوثيقة
(٢) د . ك . و : الملف السابق نفسه ، في ٢٥ / ١٢ / ١٩٣٩

الاجراءات العراقية الرامية الى وقف الفرنسيين عن تنفيذ مخططهم ومشروعهم واشارت المذكرة من جانب آخر الى تأكيد فرنسا ، بالطرق الدبلوماسية ، عدم سعيها لتشكيل حكومة أرمنية آثورية عند الحدود العراقية السورية مع استمرار (عطفها) فقط على الأرمن النازحين من الأسكندرونة ومساعدتهم مالياً وفنياً (١) .

ان ذلك العطف الفرنسي على الأرمن عام ١٩٤١ يذكرنا بالعطف الأنكليزي على اليهود عام ١٩١٧ والذي ورد في تصريح بلفور في وعده لليهود بوطن قومي في فلسطين ، كما ان الأرمن لم يكونوا وحدهم الذين نزحوا عن الأسكندرونة مكرهين ، وإنما نزح العرب ايضاً ؛ لكن الفرنسيين لم يظهروا (عطفهم) الا لجانب واحد فقط من النازحين .

ومرة اخرى اتجه تفكير المسؤولين العراقيين الى الأتصال بالأتراك فتـم اطلاع ممثلهم الدبلوماسي في بغداد بالتطورات على الحدود مع تذكيره بالموقف الجيد لحكومته بشأن ذلك ، كما ان الحكومة العراقية أبلغت وزير فرنسا المفوض في بغداد ، قلق العراق مما يجري إعداده في الخفاء والعلن وعدم رد الحكومة الفرنسية على المذكرات العراقية على الرغم من الوعود التي قطعتها للوزير المفوض العراقي في باريس مما دعا مسؤولي وزارة الخارجية العراقية الى حث الأخير على اجراء اتصال مباشر بوزارة الخارجية الفرنسية لفهم النوايا الفرنسية إن امكن ذلك ، ومطالبة الفرنسيين بالكف عن محاولة تجميع العناصر المناوئة للعراق عند حدوده ، وتأكيد حرص العراق على العلاقات الحسنة مع فرنسا وهو ماأتضح بعد التأييد الذي اظهره العراق للحلفاء في حربهم ضد دول المحور (المانيا وحلفائها) (٢) .

على الرغم من الاتصالات العراقية ، استمرت السلطات الفرنسية في سوريا بمسعاها المناوىء للعراق فيما كشف المسؤولون العراقيون من اتصالاتهم

---

(١) د . ك . و الملف السابق والوثيقة نفسها

(٢) د . ك . و : الملف السابق والوثيقة نفسها

الهادئة والهادفة ، ومتابعة الاحداث وتحليلها ، وقد اوردت تقارير عراقية دبلوماسية صادرة من انقرة ، معلومات عن انشطة لعناصر فلسطينية وسورية تستهدف اغتيال عدد من الأنكليز والفرنسيين في العراق الى جانب انشطة دعائية شيوعية في الموصل وكركوك تهاجم بريطانيا وفرنسا (١) .

ولاشك ان مثل تلك الأنشطة ، لم تكن موجهة من السلطات في بغداد ، او هي جزء من السياسة العراقية ، لكنها انشطة اثارت قلق وانزعاج الفرنسيين خاصة ، وربما كانت مبرراً للسلطات الفرنسية في سوريا بتصرفها المعادي للعراق .

ظهرت في آذار ١٩٤٠ خطوة اخرى معادية للعراق من جانب الفرنسيين وتمثلت في محاولة فرنسية لانشاء (حكومة كردية) عند حدود العراق مع سوريا وتركيا ، لكن المحاولة اصطدمت بمقاومة المواطنين الاكراد ومعارضتهم لسياسة فرنسا (٢) .

وخلال ربيع وصيف عام ١٩٤٠ شهد العالم تطورات مذهلة في ساحات الحرب ، كما شهدت المنطقة تصاعداً في الدور التركي انعكس في الموقف العراقي الذي بدأ جيداً ومؤثراً وسريعاً ، فقد قرر مجلس الوزراء إيفاد نوري السعيد وزير الخارجية مع ناجي شوكت وزير العدلية إلى انقرة ، بعد ايام من سقوط باريس بيد الألمان (١٤ حزيران ١٩٤٠) ، بهدف التعرف عن قرب ، على السياسة التركية خاصة وان تركيا ارتبطت بروابط قوية مع فرنسا وبريطانيا . كما انها ارتبطت قبل ذلك بميثاق سعد آباد (كما مر بنا) حيث كان التشاور ضرورياً وممكناً بين الموقعين عليه (٣) .

---

(١) د . ك . و : ملف رقم ٧٢١ / ٣١١ في ٢٦ / ٣ / ١٩٤٠ .
(٢) د . ك . و : ملف رقم ٨٢٠ / ٣١١ في ٩ / ٣ / ١٩٤٠ .
(٣) شير : المصدر السابق ص ١٠٤ .

وفي ٢٥ حزيران ١٩٤٠ قابل الرئيس التركي عصمت اينونو ، مبعوث الحكومة العراقية نوري السعيد فبادر الأخير الى التحدث في التأريخ والسياسة وتصوره لافاق العلاقات مع تركيا فقال « ان الحالة الطبيعية في كل ادوار التأريخ ، حتمت وسوف تحتم في المستقبل ، على تركيا والعراق وسوريا ، السير في اتجاه واحد وسياسة واحدة لحفظ كيانها ومصالحها » (١) .

في خلال ذلك كانت فرنسا في طريق السقوط والانهيار لكن حكومة فيشي (٢) لم تظهر استعداداً لتغيير السياسة الفرنسية في سوريا فضلا عن استمرار اهتمامها المتزايد بالنفط العراقي (٣) .

وبالنسبة لتركيا فان دورها المتصاعد في المنطقة بدأ يتضح بعد سقوط فرنسا ،ويشير تقرير للقنصل العراقي في اسطنبول الى قيام تركيا بمد خطين للسكك الحديدية باتجاه الموصل بهدف إضعاف التأثير الاقتصادي للخط الحديدي الفرنسي الموازي للخطين التركيين ، لكن القنصل اشار الى وجود اهداف اخرى غير اقتصادية ... مع احتمال قيام تركيا باحتلال المنطقة السورية التي تمر فيها سكة القطار التي تربط تركيا بالعراق رغم النفي الرسمي التركي لمثل ذلك العمل (٤) .

لقد اسهمت زيارة نوري السعيد لتركيا في خلق جو مريح تجاه العراق خاصة فيما يتعلق بوحدة اراضيه ، لكن تركيا ظلت تبحث عن مصالحها (مثل اية دولة اخرى) كما اهتمت بابعاد الخطر الايطالي عن سوريا ، واحتمالات استقلالها عن فرنسا حيث ان تركيا رغبت في تأمين حدودها

---

(١) د . ك . و الملف رقم ٧٢١ / ٣١١ في ٢٥ / ٦ / ١٩٤٠ .

(٢) اتخذت الحكومة الفرنسية التي وقعت شروط الهدنه مع المانيا ، من فيشي مقراً لها بعد سقوط باريس ... انظر فشر : المصدر السابق ص ٦٧٣ .

(٣) د . ك . و : ملف رقم ٧٥٣ / ٣١١ تموز ١٩٤٠ .

(٤) د . ك . و : ملف رقم ٧٢٢ / ٣١١ ١٩٤٠ .

الجنوبية بقيام دولة مستقلة (سوريا) غير انها ضعيفة ، لذلك كان موقف تركيا غامضاً وحذراً خلال اللقاء الذي تم بين عصمت اينونو ونوري السعيد(١).

وفي صيف عام ١٩٤٠ تضاءلت مسألة اقامة مجمع للعناصر المعادية للعراق عند الحدود العراقية السورية التركية ، إن لم نقل انها انهارت مع انهيار فرنسا السريع أمام المانيا ، غير ان تركيا بدأت مباحثات سرية مع بريطانيا يرجح انها كانت بشأن مستقبل سوريا ، ولم يكن موضوع سوريا العامل المهم للمسؤولين العراقيين ، لان الدعم العراقي لسوريا كان مستمراً لسنين طويلة ، وانما كان المهم الحاجة الى تثبيت الاستقرار عند الحدود مع سوريا وتركيا، لذلك تخوف نوري السعيد من احتمال وجود تفاهم سري بين تركيا وبريطانيا بشأن الموصل تمت تغطيته بالحديث عن تفاهم بشأن سوريا ، وان الأنكليز ربما اقترحوا على الاتراك احتلال الموصل ودخول الحرب الى جانب الحلفاء ضد المانيا (٢).

ويبدو ان نوري السعيد احس بنوايا الانكليز وفهم مخططاتهم وتأكد ان محاولات الضغط على العراق سوف تشتد من قبلهم لكي يعلن الحرب على دول المحور (المانيا وايطاليا) ، وذلك بالتلويح مرة أخرى بموضوع الموصل، ولعل بريطانيا شعرت بشدة الضغط الألماني عليها بعد سقوط فرنسا . ولما كانت على دراية تامة باهمية العراق الستراتيجية بالنسبة لها، ولادراكها ان النشاط الالماني النازي قوي، في العراق ، فإن من المرجح جداً ان تكون قد خططت مخططاً يجعل العراق باقيا ضمن مجموعة الحلفاء ويبتعد عن المانيا .

إن الأحداث التي تلت سقوط فرنسا ، جعلت أوربا والشرق في حالة ترقب شديد ، غير ان نتائجها كانت لصالح بريطانيا في نهاية المطاف ،لكن مايهمنا هو ان تلك الاحداث لم تؤد الى تحطيم الوحدة الوطنية للعراق وتفتيت

---

(١) د . ك . و : ملف رقم ٧٢٢ / ٣١١ في ٢١ / ١٠ / ١٩٤٠

(٢) بشير المصدر السابق ص ص ١١٢ — ١١٨ .

أرضه ، بل أدت الى وحدته ارضاً وشعباً بعكس ما كانت تريد له بعض القوى الكبرى، كما أصرت تركيا على موقفها المحايد من الدول المتحاربة، واحترام علاقاتها الجيدة مع العراق ، مما فوت الفرصة على الاعداء في استغلال الجانب التركي ضد العراق ولم نعد نقرأ شيئاً عن تحركات فرنسية مريبة ضد العراق بعد سقوط باريس، كما لم تؤد الأزمة السياسية في العراق عام ١٩٤١ وماتلاها: الى تفتيت البناء الاقتصادي والأجتماعي والفكري والجغرافي للعراق كما ارادت وخططت فرنسا عام ١٩٣٩ — ١٩٤٠ .

« نتائج البحث»

تبين لنا في ختام هذا البحث استنتاج ما يأتي :

١ — اهمية الوحدة الوطنية في الصمود بوجه محاولات التفتيت التي تعمل القوى المعادية على تنفيذها .

٢ — عدم الثقة بتعهدات الدول الكبرى التي لاتلقي بالا الا لمصالحها وترسيخ نفوذها .

٣ — اهمية حسن الجوار للعراق وضرورة العمل الدؤوب والهادىء لجعل العلاقات طيبة وجيدة مع دول الجوار لأن ذلك من مصلحة العراق .

نحو ما لاحظناه من التأثير الايجابي للمسؤولين في وزارة الخارجية العراقية آنذاك وتنبههم السريع لأية مخاطر بالكتابة عنها فوراً وبصورة رصينة.

« مصادر البحث»

اولا : وثائق غير منشورة محفوظة في دار الكتب والوثائق ببغداد

ملف رقم ٧٢٠ /٣١١ تقارير المفوضية العراقية في انقرة

ملف رقم ٧٢١ /٣١١ تقارير المفوضية العراقية في انقرة

ملف رقم ٧٢٢ /٣١١ تقارير القنصلية العراقية في اسطنبول

ملف رقم ٧٥٣ /٣١١ تقارير المفوضية العراقية في باريس

ملف رقم ٨١١ /٣١١ تقارير وزارة الخارجية / مديرية الأمور الشرقية
ملف رقم ٨٢٠ /٣١١ الديوان الملكي /قرارات مجلس الوزراء /وزارة الخارجية .

ثانياً : مصادر عامة

– احمد: ابراهيم خليل ، وخليل علي مراد : ايران وتركيا–دراسة في التأريخ الحديث والمعاصر

– حيدر: رستم (مذكرات) ، تحقيق نجدة فتحي صفوة (بيروت ١٩٨٨)

– السبعاوي ، عوني ،العلاقات العراقية التركية ١٩٣٢ – ١٩٥٨ (الموصل ١٩٨٦) .

– شوكت ، ناجي ، سيرة وذكريات ، ط ٣ (بيروت ١٩٧٧)

– شبر : معاد رؤوف : نوري السعيد ودوره في السياسة العراقية حتى عام ١٩٤٥ (بغداد ١٩٨٨) .

– فرج : لطفي جعفر ، الملك غازي (بغداد ١٩٨٧) .

– فشر : هربرت ، تأريخ اوربا في العصر الحديث ،تعريب احمد نجيب هاشم ووديع الضبع ط ٦ (د . ت) القاهرة .

– محافظة : علي ، موقف فرنسا والمانيا وايطاليا من الوحدة العربية ١٩١٩ – ١٩٤٥ ط ١ (بيروت ١٩٨٥) .

– لواء الأسكندرونة ، بحث في مجلة المؤرخ العربي ، العدد ٢٣ لسنة ١٩٨٣ .

– النعيمي : احمد نوري ، ، السياسة في تركيا الحديثة ١٩١٩ – ١٩٣٨ (بغداد ١٩٩٠) .

– هيرزويز : لوكاز ، المانيا الهتلرية والمشرق العربي ، ترجمة د. احمد عبد الرحيم مصطفى (القاهرة ١٩٦٨) .

الاسرى المسلمون في الحروب الصليبية

الدكتور راغب حامد البكر

كلية الآداب – جامعة الموصل

توطئة

يعد العدوان الصليبي على المنطقة العربية من ابرز احداث التاريخ العربي الاسلامي وكانت قضايا الأسرى سواء من المسلمين ام من الصليبيين من المسائل المهمة التي برزت خلال ذلك العدوان لما لها من جوانب انسانية او عدوانية ترتبط بطبيعة المعاملة التي حظوا بها من الجانبين ، فحظي بعض الأسرى بتعامل انساني ، وعانى البعض الآخر من سوء المعاملة التي وصلت إلى حد البيع في سوق النخاسة ، بل وحتى الموت ، الأمر الذي يعبر عن اخلاقيات القائمين على الأسر ومبادئهم ، ومن الجدير بالذكر ان العرب المسلمين وبوجه عام كانوا اخلاقيين في تعاملهم مع الأسرى وذلك انطلاقاً من مبادىء الدين الاسلامي السمحاء فضلا عن النزعة الانسانية التي يتصفون بها، ولما كان التعامل الانساني مع الاسرى صفة بارزة في السلوك العربي ، مما تؤكده الأحداث وينقله الينا المؤرخون العرب المسلمون والفرنجة المعاصرون لها ، بينما كان تعامل الصليبيين مع الأسرى المسلمين على النقيض من ذلك ، فقد بدت لنا اهمية دراسة حالات الوقوع في الأسر ومعاناة الأسرى المسلمين خلال فترة اسرهم فضلا عن الصيغ والأساليب التي كانت تفضي إلى تحريرهم ومن اجل تقديم صورة واضحة ودقيقة عن هذا الموضوع لابد من تتبع هذه الظاهرة بدءاً من حالات الوقوع في الأسر وانتهاء بسبل تحرير الأسرى .

الوقوع في الأسر

اتخذت حالات الوقوع في الأسر صيغاً واشكالا متباينة فرضتها طبيعة المعارك والعلاقات التي قامت بين الصليبيين والمسلمين ، فخلال الفترة المبكرة

للعدوان الصليبي على المنطقة العربية اتصف سلوك الصليبيين بالوحشية والعداء تجاه المسلمين الذين وقعوا في اسرهم وخروجهم عما كان متعارفاً عليه آنذاك بين الأمم في معاملة الأسرى. فبعد الانتصار الذي حققه الصليبيون على القوات الاسلامية التي هرعت لانقاذ انطاكيا من ايديهم سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨م (١)، وما أعقبه من اجتياح صليبي لمدن بلاد الشام يتوضح لنا هذا السلوك الصليبي حيال الأسرى المسلمين، فعند حصارهم مدينة البارة (٢) التابعة لمدينة حلب واستسلام اهاليها بعد اخذ الأمان، نقض الصليبيون عهدهم وشرعوا بقتل اهاليها وسبيهم (٣)، ثم تابعوا زحفهم إلى معرة النعمان التي ابدى اهلها مقاومة عنيفة دفعت بوهمند حاكم انطاكيا إلى اعطاء اهلها الأمان، وحين استجابت المدينة لأمانه نقض عهده معهم وقام بعملية ابادة جماعية لسكان المدينة وأخذ من بقي منهم حياً إلى انطاكيا اسرى ليباعوا عبيداً (٤).

ان السلوك الوحشي وغير الانساني للصليبيين يتضح بشكل جلي عند تمكنهم من الاستيلاء على مدينة القدس سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م حيث تبين المذبحة التي قاموا بها تجاه سكان المدينة، والتي استسلمت لهم، عدوانيتهم وحقدهم، ومن الشهادات التي تدينهم ما ذكره شاهد عيان منهم (٥) بقوله: «فلما ولج حجاجنا المدينة جدّوا في قتل الشرقيين (العرب) ومطاردتهم حتى قبة عمر، حيث تجمعوا واستسلموا لرجالنا الذين اعملوا فيهم افضع القتل طيلة اليوم بالجملة حتى لقد فاض المعبد بدمائهم» وبلغ عدد ضحايا هذه المذبحة بحدود السبعين الفاً (٦)، وكان لها موقع أليم في نفوس المسلمين وأثر سلباً على طبيعة العلاقات بين الطرفين لاحقاً. وفسر رنسيمان (٧) السبب وراء عدم قيام علاقة ايجابية ثابتة بين الحكام المسلمين والصليبيين بانه يعود إلى ذكرى تلك المذبحة.

استمر الصليبيون بنهجهم العدواني هذا تجاه سكان المدن التي استولوا عليها في المنطقة خلال تلك المرحلة، فعندما احتلوا سروج (٨) سنة ٤٩٤هـ/

١١٠١م اصبح سكانها ما بين قتيل واسير (٩) ، وهؤلاء الأسرى عدوا عبيداً وتم بيعهم في الأسواق ، اما اهالي حيفا فقد عرض عليهم البنادقة ابان الحصار اعتناق المسيحية او الجلاء عن المدينة ، الا انهم رفضوا ذلك (١٠) ، واضروا على الدفاع عنها،الأمر الذي دفع بالصليبيين إلى اقتحام المدينة وتعرض سكانها من المسلمين للقتل (١١) ، وجرت في قيسارية سنة ٤٩٤هـ/١١٠٩م ، مذبحة فظيعة في المسجد الجامع الذي لجأ اليه عدد كبير من سكان المدينة ، ولم ينج سوى قاضي القضاة وقائد الحامية اللذين ابقى عليهما بلدوين الأول ملك بيت المقدس ليحصل على فدية كبيرة (١٢)، اما النساء اللواتي نجون من الموت فقد عشن حياة العبودية والرق (١٣)، وتعرض اهالي طرابلس سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م إلى المصير نفسه ، فعندما وجد واليها نفسه عاجزاً عن صد هجمات الصليبيين ارسل إلى بلدوين يعرض عليه التسليم مقابل شروط منها : عدم الاعتداء على حياة من يرغب في البقاء في المدينة على ان يدفع ضريبة سنوية ،وعدم التعرض لكل من يريد مغادرتها،الا ان الجنوية من الصليبيين بمجرد دخولهم إلى المدينة قاموا بنهبها واسروا رجالها وسبوا نساءها (١٤) . وحدث ايضاً عندما استولى الصليبيون على دمياط في عهد الملك الكامل محمد سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م ، ان طلب اهلها منهم الأمان،وأن يخرجوا من المدينة بأموالهم فحلف لهم الصليبيون على ذلك ، فلما فتحوا لهم الأبواب ،«دخلوها وغدروا بأهلها ووضعوا فيهم السيف ، وباتوا في الجامع يفجرون بالنساء ، ويغتصبون البنات ، وأخذوا المنبر والمصحف» (١٥) .

تطورت السياسة العدوانية للصليبيين بعد اقتحام العديد من المدن إلى الاستقرار واقامة مستوطنات لتكوين مقرات دائمة لحكمهم ، واتخاذها مواقع انطلاق لسياسة توسعية عدوانية تجاه المناطق العربية الأخرى في عموم المنطقة ، ومن الملاحظ هنا في هذه الفترة المبكرة من وجودهم في المنطقة ،حرص الصليبيين على حياة الأسرى المسلمين ، وكانت تحدوهم في ذلك عوامل شتى منها : ان

الصليبيين بقوا يشكلون أقلية وسط محيط عربي اسلامي كبير، لذا كانوا باستمرار بحاجة ماسة لليد العاملة في مجال الزراعة والخدمة ، وفي بناء القلاع والحصون ، فضلا عما تحققه عملية افتداء الأسرى من اموال طائلة إلى جانب الاستفادة من الأسرى المسلمين في مجال مبادلتهم مع اسراهم لدى المسلمين وعلى هذا نجد ان الصليبيين حرصوا على استزادة اعداد الأسرى المسلمين من خلال الغارات والحروب التي شنوها تجاه الضياع والمدن وطرق المواصلات الاسلامية المجاورة لهم .

فيما يتعلق بالموارد المالية الناجمة عن افتداء الأسرى يذكر رنسيمان (١٦) بأن بلدوين الأول ملك بيت المقدس عند اعتلائه العرش كان يعاني من ضائقة مالية تمكن من معالجتها عن طريق فدية مقدارها خمسون الف قطعة ذهبية قدمها دقاق حاكم دمشق مقابل الافراج عن اسراه . كذلك نرى بلدوين الثالث يقوم بمهاجمة قبيلة عربية كانت تجتاز نهر الأردن ، وبعد ان قتل معظم رجالها واسر من تبقى من الرجال والنساء ، حصل على فدية مقابل اطلاق سراحهم ، كما هاجم سنة ٥٠٦هـ/١١٢٠م قافلة تجارية غنم منها مايزيد عن الخمسين الف دينار وخمسين اسيراً عاد بهم إلى عكا (١٧) .

ونرى انه على الرغم من المعاهدات والاتفاقات التي كانت تعقد بين المسلمين والصليبيين وما يتمخض عنها من عقد هدن لفترات محدودة ، نجد ان الصليبيين لم يحترموا هذه المواثيق ، فعندما حصلت جماعة من الرعاة المسلمين على اذن من بلدوين الثالث ملك بيت المقدس للرعي حول مدينة بانياس ، الا ان الخيول التي كانت بحوزتهم اثارت مطامع بلدوين فهاجمهم سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م وقتل منهم من قتل واسر من اسر ونهبت اموالهم ومواشيهم (١٨) وفعل شاتيون مثل ذلك حين نقض الهدنة التي عقدت بين صلاح الدين الأيوبي وبلدوين الرابع ملك بيت المقدس كما سنرى .

استغل الصليبيون الحصون الواقعة على اطراف كياناتهم السياسية للقيام بأعمال السلب والنهب تجاه القوافل التجارية وما يتمخض عنها من اسر للتجار

والمسافرين ، فنجد ان حصني الكرك والشوبك قد لعبا دوراً كبيراً بهذا الصدد بحكم هيمنة موقعهما على الطرق التي تربط بلاد الشام بمصر والحجاز وقد وصف ابو شامة (١٩) حصن الكرك بقوله : «فيه ضرر عظيم فانه كان يقطع عن قصد مصر بحيث كانت القوافل لا يمكنها الخروج الا مع العساكر الجمة» وعلى الرغم من تشديد الحراسات على القوافل الا ان هذا لم يحل دون استمرار حوادث التعرض لها ومنها حادثة رينالد شاتيون صاحب اقطاع الكرك الذي نقض الهدنة التي ابرمت بين صلاح الدين والصليبيين سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م والمتضمنة عدم التعرض للقوافل الاسلامية التي تمر بصحراء الأردن (٢٠) والتي اصبحت بموجبها القوافل الاسلامية تسير بسلام بين مصر والشام ، ولكن هذا الأمر يبدو انه لم يكن ليرضي رينالد الذي عرف بطمعه ولؤمه وحبه للمغامرة فانقض بغتة على قافلة كبيرة كانت في طريقها من مصر إلى دمشق واستولى على مافيها من اموال وفيرة ، اما رجالها فأخذهم اسرى إلى حصن الكرك حيث «سامهم الشد والشدة» (٢١) .

لم يقتصر تعرض الصليبيين على القوافل في الطرق البرية بل تعداه إلى البحر واستغلوا هيمنتهم على معظم موانيء بلاد الشام في التعرض للمراكب الاسلامية التي كانت تجوب البحر بين الموانيء الشامية والمصرية مما جعل السلطات الاسلامية تعمل على توفير الحماية لها وذلك بارسال اسطول لمرافقتها . وعلى الرغم من ذلك فهناك اشارات عن وقوع تلك المراكب في قبضة الصليبيين ، حيث يذكر ابن القلانسي (٢٢) ضمن حوادث سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م ، ان مجموعة من التجار اضطروا إلى الاقلاع من مصر دون الأسطول فصادفتهم مراكب الصليبيين فأسرتهم ، وقد وردت اشارات عديدة حول وقوع اعداد من المغاربة في اسر الصليبيين (٢٣) ، ويذكر ان احد القادة الصليبيين اخذ مركباً من حجاج من المغاربة كانوا زهاء اربعمائة رجل وامرأة (٢٤) . ويشير ابن الأثير (٢٥) في حوادث عام ٥٦٧هـ/١١٧١م إلى ان الصليبيين نقضوا

الهدنة التي ابرموها مع نور الدين زنكي، فقاموا بالاستيلاء على مركبتين قادمتين من مصر إلى الشام عند اللاذقية واسروا التجار الذين عليها ولتحقيق اغراضهم هذه فقد انشأوا قاعدة لهم على جزيرة ارواد مقابل طرابلس (٢٦)، وعلى الرغم من الهدنة التي عقدت بين سيف الدين قلاوون وصليبيي طرابلس سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٩م فان الأخيرين قاموا بمهاجمة قافلة تجارية قادمة في البحر من مصر واسروا تجارها (٢٧).

الحياة في الاسر

كان الأسرى المسلمون يقتادون إلى المدن والقلاع، فالبعض منهم يودع في السجن لحين البت في مصيرهم، وكانوا يعاملون معاملة سيئة (٢٨). ويصف ابن جبير (٢٩) حالتهم بقوله: «من الفجائع التي يعانيها من حل بلادهم اسرى المسلمين يرسفون في القيود ويصرفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد». ويذكر ابن شداد (٣٠) ان الأسرى الذين نجوا من المذبحة التي ارتكبها الصليبيون تجاه أهالي عكا والتي سيأتي ذكرها لاحقاً كانوا من الرجال الأقوياء للاستفادة منهم في اعمال الزراعة وبناء القلاع والحصون وغيرها من الأعمال الشاقة في ضياع الملك وكبار رجال الأقطاع وبموجب قوانين مملكة بيت المقدس التي عدت الأسرى كالمواشي يباعون ويشترون وبحق للسيد ان يفعل بهم مايشاء (٣١). اما عن النساء المسلمات اللواتي وقعن في الاسر فلن يكون حالهن بأفضل حال من الرجال اذ غالباً ماكان يوضع في ارجلهن خلاخيل من الحديد ويعرضن في الأسواق (٣٢) التي اشتهرت في عكا وغيرها وعرف تجار جنوة بالاتجار بالرقيق وغالباً ماتحولت النساء الى جاريات يسخرن في ادارة الطواحين مدى الحياة (٣٣) او للخدمة في بيوت الصليبيين، ويظهر بأن المسلمين ومع مرور الوقت عرفوا مهارة النساء المسلمات بفنون الطبخ والنظافة: ويؤكد لنا اسامة بن منقذ (٣٤) كذلك عندما دعاه احد اصدقائه من

الفرنجة الى وليمة حاول الاعتذار عنها إلا أن ذلك الصليبي أخبره بأنه يمتلك جواري مصريات يشرفن على تصريف شؤون داره ومما يؤكد لنا اهتمام الصليبيين باقتناء النساء المسلمات لغرض الخدمة هي تلك الغارة التي شنوها سنة ٦٠١ هـ /١٢٠٤م على مدينة حماه وسبوا نساءها اللواتي يكن يغسلن عند بوابة المدينة على نهر العاصي (٣٥) .

تعرض الأسرى المسلمون لشتى انواع التعذيب الجسدي ، فيذكر لنا اسامة إبن منقذ في مذكراته ٣٦) ماواجهه حسنون احد الفرسان المسلمين من مدينة شيزر الواقعة في شمال سوريا الحالية ، الذي كان مشهوداً له في مجال الفروسية والقتال ، فحين وقع في أسر حاكم انطاكيا الصليبي لم يكتف بتعذيبه بل أمر بقلع عينه اليمنى ، حتى اذا حمل الترس استترت عينه اليسار فلا يبقى يبصر شيئاً» .

لم تقتصر معاناة الأسرى على حياة العبودية ومايترتب عليها من اعمال شاقة وغير ذلك بل استخدم الصليبيون رهائن للضغط على قادة المقاومة الاسلامية عندما كانوا يضيقون الخناق عليهم ، فعند حصار صلاح الدين لمدينة القدس هدد الصليبيون بقتل كافة الأسرى الموجودين اذا لم يرحل عنهم . الا ان انهيار معنوياتهم حال دون تنفيذ ذلك (٣٧) وحصلت الحالة ذاتها عند استيلائه على قلعة بزرية (٣٨) اذ رفع الصليبيون الأسرى المسلمين « وأرجلهم في القيود والخشب المنقوب » (٣٩) في محاولة منهم لدفع القوات الاسلامية من المدينة.

اما عن حادثة قتل رهائن المسلمين في عكا سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م فانها تكشف لنا عما يحمله الصليبيون من حقد وعداء تجاه سكان المنطقة ، اذ في الوقت الذي استسلمت المدينة بعد اخذ الأمان من الصليبيين عد اهاليها جميعاً اسرى (٤٠) ، وطالبوا صلاح الدين الافراج عنهم مقابل شروط قاسية وهي دفع فدية قدرها مئتا الف واطلاق سراح الف وستمائة اسير من بينهم مئة معينين من جانبهم

وصليب الصلبوت (٤١) . وعلى الرغم من وطأة هذه الشروط فقد وافق صلاح‌الدين عليها مقابل اعطائه مهلة من الوقت فأمهل ثلاثة اشهر ينجز في نهاية كل منها شرطاً وعند انتهاء الشهر الأول، جاءت ريتشارد رسالة من صلاح‌الدين يوضح فيها استعداده لتنفيذ ما يتعلق بالدفعة الأولى مقابل اعطائه بعض الرهائن ضماناً لاطلاق سراحهم جميعاً في نهاية المطاف لعلمه انهم «ان تسلمو المال والصليب والأسرى ، واصحابنا عندهم لا يؤمن غدرهم» على حد تعبير ابن شداد (٤٢) . ومما زاد في شكوك صلاح‌الدين بعدم التزام ريتشارد قلب الأسد الذي تزعم الحملة الصليبية الثالثة بعد انسحاب فيليب اوغسطين ملك فرنسا منها (٤٣) بتنفيذ الاتفاق ، هو رفض فرسان الداوية ان يتكفلوا بأن يطلق ريتشارد سراح الأسرى المسلمين عندما ينفذ صلاح الدين تلك الشروط ، وبينما كان صلاح الدين ينتظر مقترحات جديدة من ريتشارد لحل هذه المسألة قام الأخير بأخذ الأسرى المسلمين الذين كانوا زهاء ثلاثة الاف إلى تل العياضية بالقرب من عكا حيث اوثق الصليبيون ايديهم وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد وقتلوا عن آخرهم (٤٤) .

ويذكر ابن شداد (٤٥) الأسباب التي دفعت ريتشارد للقيام بهذه المذبحة منها شهوة الانتقام للخسائر التي لحقت بالصليبيين اثناء حصارهم لمدينة عكا وانه كان يروم التوجه إلى عسقلان وان بقاء هؤلاء الأسرى احياء يشكل خطراً على عكا لدى مغادرته لها ، وعلى الرغم من محاولة هارولد لامب (٤٦) ايجاد مسوغ لهذا العمل المشين الا انه يعود ويصف هذه الحادثة بقوله : «تظل الحقيقة قائمة وهي ان ريتشارد لطخ اسمه وشرفه بهذه القسوة التي لم يكن لها مبرر او ضرورة ومهما اختلفت وجهات نظر المؤرخين (٤٧) حول مذبحة عكا ، فانها اججت روح العداوة والحقد بين المسلمين والصليبيين وعرضت حياة الأسرى في كل من المعسكرين للخطر والموت ، واصبحت روح الانتقام وسفك الدماء هي السائدة ، وبلغت الوحشية مداها اذ يأمر الصليبيون مسلماً

فيقتلونه ثم يرمونه في النار وبالمقابل فعل المسلمون الشيء نفسه ايضاً ، وقد شاهد المؤرخ سبط بن الجوزي (٤٨) النار مشتعلة في المعسكرين في وقت واحد .

تحرير الاسرى

شغل موضوع تحرير الأسرى قادة المسلمين وعامتهم واهتموا به اهتماماً كبيراً لاعتبارات دينية وسياسية واجتماعية ، واصبح افتداء الأسرى من ابرز مظاهر التقرب إلى الله سبحانه وتعالى في ذلك الوقت ، ويذكر ابن جبير (٤٩) «ان ملوك اهل هذه الجهات من المسلمين والخواتين من النساء واهل اليسار والثراء انما كانوا ينفقون اموالهم في هذه السبيل» . وكان نورالدين الزنكي قد خصص جزءاً من امواله لافتداء الأسرى المسلمين ، وفي اثناء مرضه نذر ان يفرق اثني عشر الف دينار في فداء الأسرى . وكان اسامة بن منقذ (٥٠) في اثناء قيامه بمهمة السفارة بين حاكم دمشق معين‌الدين انر والصليبيين يستغل وقته في القدس لشراء الأسرى وتخليصهم من حالة الأسر ابتغاء مرضاة الله . وكذلك يذكر ابن جبير (٥١) ان هنالك تاجرين من دمشق قد اشتهرا في ذلك الوقت بافتداء الأسرى المغاربة .

واهتم القادة المسلمون بموضوع تحرير الأسرى واولوه عناية كبيرة ، ومما يذكره ابو شامة (٥٢) ان الناصر صلاح‌الدين دأب في كل «بلد يفتحه يبدأ بالأسرى فيفك قيودها» ويقربهم منه . فمنذ تحرير عكا اخرج صلاح‌الدين الذين قارب عددهم زهاء اربعة الاف اسير واعطى كل منهم نفقة (٥٣) . وعندما فتح حصني تبنين (٥٤) وسرمينية (٥٥) اطلق من فيها من الأسرى المسلمين وكان عددهم كبيراً فكساهم واعطاهم نفقات الطريق ليصلوا إلى اهلهم (٥٦) . وفعل الأمر نفسه مع اسرى المسلمين في القدس عند تحريرها (٥٧) .ومما يؤكد حرص السلطات الاسلامية على مراعاة الأسرى هو انشاء ديوان يشرف

على شؤون الأسرى من كافة النواحي وفي مقدمتها فكاكهم من الأسر فجعل التجار فائدة في كل مئة درهم شيء معلوم تشجيعاً على احضار اسرى المسلمين إلى دمشق حيث يكسون ويطعمون (٥٨) .

وتعكس لنا المفاوضات والمعاهدات التي ابرمت بين المسلمين والصليبيين مدى الاهتمام بأحوال الأسرى وتخليصهم من حالة الأسر . فعندما توجه صلاح الدين لمقاتلة الأرمن في اعالي بلاد الشام سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م ، هرع ملكهم إلى طلب الصلح من صلاح الدين مقابل اطلاق ماليده من اسرى المسلمين وما يبذله من اموال . الا ان صلاح الدين اضاف إلى هذا العرض ان يقوم ملك الأرمن بشراء خمسمائة اسير من البلاد الخاضعة للصليبيين (٥٩) ، ولما عزم صلاح الدين على مهاجمة انطاكيا سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م ارسل حاكمها يعرض على صلاح الدين ان يطلق ماليده من الأسرى المسلمين وكان عددهم كبيراً مقابل عدم التعرض لمدينته فوافق صلاح الدين وارسل احد خواصه وهو شمس الدين ابن منقذ الذي اشرف على تحرير الأسرى (٦٠) . وخلال المفاوضات التي جرت بين الملك العادل اخي صلاح الدين وريشارد قلب الأسد سنة ٥٨٧هـ/١١٩٢م اصر العادل على اطلاق الأسرى المسلمين الموجودين في مدينة صور وعكا مقابل الشروط التي عرضها الصليبيون والتي من ضمنها ان تكون لهم المنطقة الساحلية من صور إلى يافا ، وهذا ما حصل فعلا (٦١) ، ونصت المعاهدة التي عقدت بين الملك الكامل الأيوبي والصليبيين سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م في احد بنودها على ان يطلق كل طرف الأسرى الذين في حوزته (٦٢) . وتقرر بموجب الاتفاقية التي عقدت بين السلطان تورانشاه والصليبيين عند هزيمتهم في المنصورة سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م والتي وقع فيها الملك لويس التاسع اسيراً بين المسلمين ان يقوم الصليبيون باطلاق كافة الأسرى المسلمين (٦٣) .

وكان لعوائل الأسرى من المسلمين اسهام في تحرير ذويهم من الأسر فوردت اشارة بهذا الصدد في معرض حديث نورالدين زنكي عن الأسرى المغاربة اذ

جاء بقوله : «هؤلاء يفتديهم اهلوهم وجيرانهم والمغاربة غرباء لا اهل لهم» (٦٤) وتشير المعاهدة التي عقدت بين المنصور سيف الدين قلاوون وصليبيي عكا عام ٦٨١هـ/١٢٨٣م إلى ان ذوي الأسير يقومون بدفع فديته مقابل اطلاق سراحه (٦٥).

لاشك ان حياة العبودية وماترتب عليها من بؤس وشقاء ومذلــة دفعت البعض إلى ان يفضلوا الموت على الوقوع في الأسر . كما يروي لنا اسامة بن منقذ (٦٦) خبراً حول فتاة مسلمة اسرت من قبل احد الصليبيين ورمت نفسها من فوق الحصان على النهر مفضلة الموت على حياة الأسر . وهناك اشارات حول قيام عدد من الأسرى المسلمين بالهرب من الصليبيين معرضين انفسهم للموت ، وحالف البعض منهم النجاح عندما تمكنوا من الوصول إلى الضياع الاسلامية القريبة حيث ساعدهم اهاليها على الوصول إلى ذويهم (٦٧) . ومن ذلك حادثة نادرة حدثت لاحد الأسرى المسلمين وقد اعتقل في عكا ، فاخفى حبلا في وسادته وتدلى به من نافذة المرحاض وانطلق هارباً إلى تل العياضية ثم كسر قيوده واسرع إلى المسلمين (٦٨) . هذا في حين اضطر البعض من الأسرى المسلمين للقبول ظاهراً باعتناق المسيحية للتخلص من معاناة الأسر (٦٩) .

وتجدر الاشارة إلى عدم وجود قواعد ثابتة يتم بموجبها مبادلة الأسرى او افتداؤهم اذ غالباً ما كانت مكانة الأسير واهميته هي التي يتقرر بموجبهما مقدار الفدية او العدد الذي يتم مبادلته من اسرى الطرف الآخر ، فعلى سبيل المثال عرض جكرمش حاكم الموصل سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م على الصليبيين مبلغاً قدره «خمسة عشر الف بيزانت مقابل افتداء اميرة سلجوقية» (٧٠) وعندما وقع حاكم طرابلس في اسر المسلمين في عهد نورالدين افتدى نفسه بمائة وخمسين الف دينار وفكاك الف اسير من المسلمين (٧١) ، ووضع الصليبيون فدية كل من أبي المشطوب وقره قوش قادة صلاح الدين على عكا بمبلغاً قدره ثلاثون الف قطعة ذهبية ، اما عن بقية الأسرى فقد طلبوا اضافة إلى المال عدداً من اسراهم لدى صلاح الدين (٧٢) وفي بعض الأحيان كان افتداء الأسرى من عامة المسلمين لقاء مبلغ زهيد (٧٣) .

الخاتمة

يتضح لنا مما تقدم بأن الصليبيين عند اجتياحهم للمنطقة العربية وحتى استقرارهم فيها قرابة القرنين من الزمن قد خالفوا ابسط القواعد الانسانية في التعامل مع الأسرى المسلمين فاتصف سلوكهم بالوحشية وعدم احترام العهود والمواثيق التي قطعوها لسكان المدن التي استسلمت لهم مقابل الحفاظ على ارواحهم واموالهم، الا ان مصيرهم كان اما الابادة او الأسر او الضغط عليهم لتغيير معتقداتهم الدينية ، وبعد استقرارهم في المنطقة استمروا على هذا النهج على الرغم من المعاهدات والاتفاقات التي كانت تنظم العلاقة بينهم ، وبين المسلمين الا انهم كانوا هم البادئين في نقضها يدفعهم في ذلك طمعهم وجشعهم وروح التعصب والعداء تجاه المسلمين. ومن الملاحظ ان هناك تحولا قد طرأ في سياسة الصليبيين تجاه الأسرى في المرحلة اللاحقة الا وهي المحافظة على ارواح الأسرى المسلمين لتسخيرهم في اعمال الزراعة والخدمة وفي بناء القلاع والحصون وفي جني الأموال الطائلة من جراء افتدائهم من قادة المسلمين وتجارهم ومن ذويهم ، اذ كان الصليبيون باستمرار يعانون نقصاً في الكثافة السكانية . هذا فضلا عن الاستفادة من الأسرى في مبادلة اسراهم وكان لهذه المسألة دورها في تطوير العلاقات الدبلوماسية بين المسلمين والصليبيين خاصة وان السلطات الاسلامية كانت تحرص بشتى الوسائل على تحرير اسراها انطلاقاً من معتقداتها الدينية ونزعتها الانسانية التي تمجد وتعظم قيمة الانسان في المجتمع وحقه في الحياة الحرة الكريمة .

هوامش البحث

(١) ابن القلانسي ، ذيل تأريخ دمشق (بيروت ١٩٠٨) ، من ١٣٦ ، ابن العديم ، زبدة الطلب في تأريخ حلب ، (دمشق) ، ٢/ ١٣٧ .
(٢) بلدة من نواحي حلب ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ١/ ٤٦٥ .
(٣) اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة : حسن حبشي (القاهرة ١٩٥٨) ، ص ١٠٣ - ١٠٤ .
(٤) ابن القلانسي ، ذيل تأريخ دمشق ، ص ١٣٦ ، اعمال الفرنجة ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .
(٥) اعمال الفرنجة ، ص ١١٨ - ١١٩ ، وعن بشاعة هذه ينظر :
Kry, A, C. The first Crus ader, Princeton, 1958. P. 261.
(٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، (بغداد ١٩٩٠) ، ١٠ / ١٠٥ ، ابن الأثير ، الكامل فـي التأريخ ، (بيروت ١٩٦٦) ، ١٠ / ٢٨٣ ، ابن العبري ، تأريخ مختصر الـدول (بيروت ١٩٨٣) ، ص ٣٤٢ .
(٧) تأريخ الحروب الصليبية ، ترجمة : الباز العريني (بيروت ١٩٦٧) ، ١/ ٤٠٥ ،
(٨) بلدة قريبة من حران من ديار مصر ، معجم البلدان ، ٣/ ٢١٦ .
(٩) ابن القلانسي ، ذيل تأريخ دمشق ، ص ١٣٨ ، ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ٣٢٥
(١٠) Prawer, J. The settle men of the Latins in Jerusalem speculum XIVII 1952. P. 490.
(١١) ابن القلانسي ، ذيل دمشق ، ص ١٣٩ .
(١٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١٠/ ٤٧٥ - ٤٧٦ .
(١٣) محمد فتحي ، احوال المسلمين في مملكة بيت المقدس ، (بغداد ١٩٨٩) ، ص ٧٠.
(١٤) ابن الأثير ، الكامل ، ١٠/٤٧٥ .
(١٥) العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، (بيروت ١٩٧٩) ، ٥/٦٦.
(١٦) تأريخ الحروب ، ٢ / ١١٩ - ١٢٠ .
(١٧) ابن القلانسي ، ذيل دمشق ، ص ١٨٣ .
(١٨) ابن القلانسي ، ذيل دمشق ، ص ٣٣٦ - ٣٣٧ .
(١٩) الروضتين في اخبار الدولتين ، (القاهرة ١٢٨٨) ، ٢ / ٥٥ .
(٢٠) ابن واصل ، مفرج الكروب في اخبار بني ايوب (القاهرة ١٩٥٧) ١٨٥/٢.
(٢١) الروضتين ، ٧٥/٢ .
(٢٢) ذيل دمشق ، ص١٧١ - ١٧٢ .
(٢٣) ابن جبير ، رحلة جبير (بيروت ١٩٨١) ، ص ٢٥٣ .
(٢٤) اسامة بن منقذ ، كتاب الاعتبار ، (بيروت ١٩٨١) ، ص ١٠٥ .
(٢٥) ابن الأثير ، الباهر في الدولة الاتابكية ، (القاهرة ١٩٦٣) ، ص ١٥٤ .
(٢٦) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة (القاهرة ١٩٧٢) ، ٧ /٣١٥ - ٣١٧ ،
(٢٧) أبو الفدا ، المختصر في أخبار البشر ، ٢٢/٤ .
(٢٨) ابو شامة ، الروضتين ، ٧٥/٢ .
(٢٩) رحلة ابن جبير ، ص ٢٥٢ .
(٣٠) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، (القاهرة ١٩٦٩) ، ص ١٧٤ ، ابن العديم زبدة الحلب ، ٣ / ١٢٠ .

(٣١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، تأريخ العلاقات بين الشرق والغرب (بيروت ١٩٧٢) ، ص ٣٣٣ .

(٣٢) رحلة ابن جبير ، ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

(٣٣) Richard, J. le Poyaurue Latin de Jerusalem, Paris 1953, P. 123.

(٣٤) اشتهر اسامة بن منقذ بمعاشرته للصليبيين في السلم والحرب ، ويعد كتابه الاعتبار من المصادر الفريدة التي تناولت وصفاً دقيقاً لحياة الصليبيين في المنطقة العربية ، الاعتبار ص ١٨٠

(٣٥) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان في حياة الأعيان ، (حيدر آباد ١٩٥١) ، ٨ /٤٢٦ ابو شامة ، تراجم رجال القرنين (بيروت ١٩٧٢) ص ٥١ .

(٣٦) الاعتبار ، ص ٨٦ .

(٣٧) ابو شامة ، الروضتين ، ٩٧/٢ .

(٣٨) حصن قرب السواحل الشامية على جبل شاهق ، معجم البلدان ، ١/ ٣٨٣ .

(٣٩) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ١٦ .

(٤٠) النوادر ، ص ١٧٤ ، ابو الفداء ، المختصر ، ٧٩/٣ .

(٤١) ابن شداد ، النوادر ، ص ١٧٠ .

(٤٢) النوادر ، ص ١٧٣ ، ابو الفداء ، المختصر ، ٣/ ٧٩ .

(٤٣) عاشور ، الحركة الصليبية ، (القاهرة ١٩٧١) ، ٨٧١/٢ - ٨٧٢ .

(٤٤) ابو شداد ، النوادر ، ص ١٧٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ١٢٠/٣ ، ابن العبري ، تأريخ مختصر الدول ، (بيروت ١٩٨٣) ، ص ٣٨٧ .

(٤٥) النوادر ، ص ١٧٥ .

(٤٦) شعلة الاسلام ، (بغداد ١٩٦٧) ، ص ٢١٨ .

(٤٧) نظير حسان سعداوي ، التأريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين (القاهرة ١٩٥٧)، ص٢٦٢ - ٢٦٣ ، دريد عبد القادر ، سياسة صلاح الدين الأيوبي ، (بغداد١٩٧٦)، ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .

(٤٨) مرآة الزمان ، ص ١٨٢ ، نظير سعداوي ، الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي ، (القاهرة ١٩٦١) ، ص ٧٢ .

(٤٩) رحلته ، ص ٢٥٣ .

(٥٠) الاعتبار ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٥١) رحلته ، ص ٢٥٣ .

(٥٢) الروضتين ، ٢/ ٨٩ .

(٥٣) ابن شداد ، النوادر ، ص ٣٣ - ٣٤

(٥٤) بلدة في الجبال المطلة على مدينة بانياس في طريق دمشق ، معجم البلدان ، ٣٦٤/٢.

(٥٥) بلد مشهور من اعمال حلب ، ٢١٥/٣ .

(٥٦) ابن الأثير ، الكامل ، ١١ /٥٤٢ ، ١٢ / ١٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٠٦

(٥٧) العماد الأصفهاني ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، (مصر ١٣٢١ هـ) ص ٥٦ .

(٥٨) سعداوي ، الحرب والسلام ، ص ٦٨ .
(٥٩) ابو شامة ، الروضتين ، ٢ / ١٦ .
(٦٠) العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص ١١٩ – ١٢٠ .
(٦١) ابن شداد ، النوادر ، ص ١٩٥ – ١٩٦ .
(٦٢) المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، (القاهرة ١٩٣٤) ، ١/ ٢١٩ .
(٦٣) جوزيف نسيم ، العدوان الصليبي على مصر (بيروت ١٩٨١) ، ص ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢١٦ .
(٦٤) رحلة ابن جبير ، ص ٢٥٣ .
(٦٥) المقريزي ، السلوك ، ٦٨٥/١ .
(٦٦) الأعتبار ص ١٩٢ – ١٩٣ .
(٦٧) رحلة ابن جبير ، ص ٢٤٦ .
(٦٨) ابن شداد ، النوادر ، ص ١٩٤ – ١٩٥ ، ابو شامة ، الروضتين ١٩٣/٢ – ١٩٤ .
(٦٩) Prawer . op, cit p. 490.
(٧٠) رنسيمان ، الحروب الصليبية ، ٧٦/٢ – ٧٧ .
(٧١) ابو شامة ، الروضتين ، ١/ ٢٤٠ .
(٧٢) لامب ، شعلة الأسلام ، ص ٢١٨ .
(٧٣) ابن منقذ ، الأعتبار ، ص ١٠٥ – ١٠٦ .

«الوجود الاسرائيلي في البحر الاحمر»

حميد جمال الدين العلوي | د. صلاح ياسين داؤد
استاذ مساعد / كلية القانون | استاذ مساعد / كلية القانون

١٩٨٩

تمهيد

منذ فتح قناة السويس للملاحة الدولية عام ١٨٦٩ ، بدأ تحول في تاريخ الصراع على البحر الاحمر حيث حاولت الدول الاستعمارية الحصول على محطات بحرية على طريق المواصلات البحرية بين الشرق والغرب ، وعند اكتشاف البترول اصبح البحر ممراً مائياً حيوياً لناقلات البترول القادمة من الخليج العربي إلى اوربا ، وموقعاً من اهم المواقع الستراتيجية في العالم لتأمين الطاقة ، وتأسيساً على ذلك اصبح للبحر ارتباطات ، وتتمثل هذه الارتباطات بالعلاقات التي تدور بينه ومن حوله سواء كانت هذه العلاقات علاقات طبيعية او صراعات . وهناك نوعان من الارتباطات للبحر ، الاولى : ارتباطات اقليمية تدور من خلالها علاقات الوحدات السياسية القائمة حوله ، وهي عشر وحدات ، والثانية : ارتباطات دولية تشكلها اهتمامات القوى السياسية الدولية تجاهه ، ونتج عن هذه الارتباطات ان اصبح البحر موضع اهتمام مجموعتين من الدول او ثلاث مجموعات تتمثل الاولى بدول البحر العربية ، والمجموعة الثانية دول الشرق الاوسط بمفهومها السياسي لهذه العبارة فهي تهتم به اهتماماً مصلحياً ، فأثيوبيا تهتم به بحكم انه منفذها البحري الوحيد من خلال شواطىء ارتيريا ، وتهتم به ايران بوصفه المنفذ المائي لنقل بترولها ، وتهتم به تركيا باعتباره ممرها إلى الشرق ، وتهتم به (اسرائيل) لتحقيق اهدافها الستراتيجية المتمثلة : —

— تثبيت الوجود الاسرائيلي في المنطقة .
— ضمان امن الكيان الاستيطاني .
— ضمان الهجرة اليهودية من افريقيا .

-- تقوية الوضع الاقتصادي وتطويره .

— ايجاد منفذ للتخلص من الحصار الاقتصادي العربي والخروج إلى العالم الخارجي خاصة إلى الدول الا فرواسيوية .

وهناك مجموعة ثالثة من الدول تهتم بالبحر اولها فرنسا بحكم العلاقة مع جيبوتي ، والولايات المتحدة الاميريكية والاتحاد السوفياتي باعتباره منطقة ستراتيجية تتطلع كل منها ان يكون هذا البحر خاضعاً لسيادتها لضمان مصالحها من خلال العلاقة مع الدول المطلة عليه ، ومن هذا نتج ستراتيجية معادية في البحر الاحمر منها ، ستراتيجية عدوانية سافرة ومباشرة تتمثل بسياسة اسرائيل تجاه الامة العربية والتي تتصف بالاصرار والتحدي للوجود في هذا البحر والتحكم في مداخله مطوعة من اجل هذا الهدف كل الظروف والقدرات والسياسات وستراتيجية عدوانية دولية غير مباشرة لجعل البحر مناطق نفوذ وتأثير لتلك الدول .

وفي ضوء هذا التصور فقد تم اختيارنا لهذا البحث عن الوجود الاسرائيلي في البحر الاحمر ، ولمعالجة هذا الموضوع الحيوي فقد اعتمدنا سير وتطور الاحداث وتحليلها ، وأثرنا تقسيمه إلى ثلاثة مباحث ، تناول الاول ، الموقع الجغرافي والاهمية التاريخية والستراتيجية للبحر ، وتطرق الثاني ، إلى الوجود الاسرائيلي في المدخل الشمالي للبحر (خليج العقبة ومضايق تيران) ، وجاء المبحث الثالث ، موضحاً للوجود الاسرائيلي في المدخل الجنوبي للبحر وانتهينا إلى بعض من النتائج على ضوء المتغيرات التي حصلت في هذه المنطقة لغاية عقد اتفاقيات كامب ديفيد .

المبحث الاول

الموقع الجغرافي والأهمية التاريخية والستراتيجية للبحر الأحمر

اولا : الموقع الجغرافي

في لمحة موجزة عن الموقع الجغرافي للبحر الأحمر نحاول توضيح الموقع بالنسبة لخطوط العرض وتكوينه من حيث الطبيعة الجغرافية والظاهرة التي يتميز بها ،والجزر التي تتحكم في مدخليه الشمالي والجنوبي والدول التي تطل عليه فضلا عما اعطاه هذا الموقع الجغرافي من اهمية جيبوليتكية للبحر .

يقع البحر الاحمر بين خطي عرض (٤٠ ،١٢° – ٣٠ شمالا) (١) ، حيث مدخله الشمالي في قمة خليج السويس ومدخله الجنوبي في مضيق باب المندب ويبلغ الطول الاجمالي للبحر من جنوب السويس حتى باب المندب (١٩٣٠ كيلومتر) ويبلغ متوسط عرضه (٢٨٠ كيلومتر) ومساحته حوالي – ٢٣٨, كيلومتر مربع وتحيط بجانبه سلاسل من الجبال (٢) .

والبحر الأحمر من حيث التكوين يعد جزءاً من الاخدود الكبير الذي يعد احد المظاهر البارزة التي اصابت القشرة في العصر الكانيوذوي وهذا الاخدود يضم البحر الاحمر وخليج العقبة ووادي عربة والبحر الميت ونهر الاردن وبحيرة طبرية (٣) والظاهرة التي يتميز بها البحر هي كثرة الشعاب المرجانية في مياهه وعلى امتداد ساحليه(٤)وهذه الشعاب اشد كثرة عند الساحل الغربي، ونجم عن هذه الظاهرة ان اصبحت الملاحة فيه محفوفة بالمخاطر اذ تتعرض السفن إلى الغرق عند ارتطامها بالشعب المرجانية ولذلك فان الملاحة في البحر متقيدة بمسار مائي ضيق ، وللطبيعة الجغرافية والظاهرة التي يتميز بها البحر اثر على قلة الموانىء الصالحة بالنسبة لطول ساحليه .

اما عن مداخل البحر الاحمر واهم الجزر التي تتحكم فيه ، ففي المدخل الشمالي للبحر حيث يلتقي بخليج السويس والعقبة خاصة الاخير اذ يوجد ارخبيل صغير يتكون من ثلاثين جزيرة صخرية صغيرة اكبرها جزيرتا تيران وصنافير اللتان تتحكمان في مداخل خليج العقبة ، ونتيجة للشعاب المرجانية فقد انحصرت الملاحة في ممرين ، الأول (ممر الانتربرايس) والذي يبعد (١،٣) ميل بحري تقريباً عن الشاطيء المصري وعرضه الصالح للملاحة (٠،٣) ميل بحري وبه توجد علامات ارشاد ملاحية ولا يمكن عبوره الا نهاراً ، اما الممر الثاني فانه يقع خلف جزيرتي تيران وصنافير بالقرب من الشاطيء السعودي وهو غير صالح للملاحة (٥) ، كما موضح ذلك في الشكل رقم (١) .

اما اهم الجزر الموجودة في المدخل الجنوبي للبحر الاحمر فهي ، (جزيرة بريم ، مجموعة جزر حانيش ، ذاكور ، ابوعيل ، حالب ، ديمر ، مجموعة جزر دهلك ، قمران ، فاطمة) ، وتتحكم جزيرة بريم تحكماً كاملا بالملاحة عند مضيق باب المندب ، ونظراً لما تمتاز به هذه الجزر من حيث كونها ذات اهمية في الستراتيجية الاسرائيلية تجاه البحر الاحمر فقد اثرنا التعريف بالموقع الجغرافي لبعض منها وتبعيتها واهميتها في الملاحة الدولية .

قديماً عرف العرب في جنوب الجزيرة العربية جزيرة بريم بأسم (ميمون) او (ميوم) واسماها الرومان (ديودورى) وتقع في وسط مضيق باب المندب وتعد بمثابة القلعة عند المدخل الجنوبي للبحر الاحمر وتبعد هذه الجزيرة ثلاثة اميال عن اليمن و٩٦ ميلا عن عدن و٢١ ميلا تقريباً عن الساحل الافريقي ومساحتها لا تزيد عن خمسة اميال مربعة وطبيعتها جبلية عدا طرفها الشمالي حيث يوجد سهل رملي ، وهذه الجزيرة تعد مركزاً ستراتيجياً مهماً فهي لاتتحكم في مدخل البحر الاحمر فحسب بل تشطر مدخل باب المندب إلى ممرين مائيين للدخول إلى البحر ، ممر غربي بين الجزيرة والشاطيء الافريقي كثير

الشعب المرجانية وغير مستقيم فيه انحناءات وعرضه ١,٧ ميل وأقصى عمق له يصل الى ٩٦ قدماً وهو غير صالح للملاحة ، اما الممر الشرقي الذي يقع بين الجزيرة ومنطقة الشيخ سعيد عند اقصى جنوب اليمن فعرضه ١٠,٤ ميل ويصل عمقه إلى ١٠٢٠ قدم وهو الممر الصالح للملاحة الدولية ، وهذه الجزيرة كانت خاضعة لبريطانيا وعند استقلال اليمن الديمقراطية الشعبية في تشرين الثاني / ١٩٦٧ لم تسلم إلى الرئيس قحطان الشعبي خشية من استخدامها من قبل عبدالناصر ، وعندما ابعد الشعبي عام ١٩٦٩ عن الحكم تنازلت بريطانيا عنها لليمن في عهد الرئيس سالم ربيع علي ، وتعد اليمن هي المتحكمة في هذه الجزيرة .

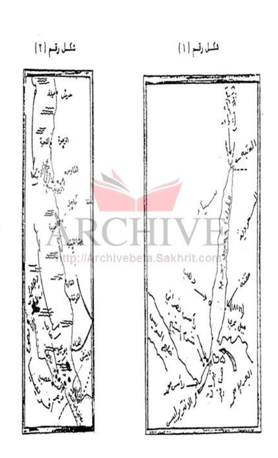
وتأتي مجموعة جزر حانيش لتشكل الخط الثاني لجزيرة بريم وتقع إلى الشمال منها ومجموعها احدى عشرة جزيرة مختلفة المساحة اشهرها حانيش الكبرى وحانيش الصغرى وهذه الجزر جبلية تضاريسها وعرة تكاد تكون غير مأهولة بالسكان وتمثل اختناقاً في المسار المائي الملاحي في البحر الاحمر من مواجهة جزيرة دهلك ، وهذه الجزر تعود اصلا إلى اليمن ، وقد قامت بريطانيا قبل استقلال اليمن الديمقراطية الشعبية (١٩٦٧) بتسليم حانيش الكبرى وحانيش الصغرى إلى اثيوبيا .

اما جزيرة ذاكور (زقر) فتعد من اكبر الجزر الموجودة عند المدخل الجنوبي للبحر الاحمر ويبلغ طولها عشرة اميال وعرضها سبعة اميال وتتميز بارتفاعها النسبي مما اتاح المراقبة البحرية لحركة السفن في المنطقة ، وهذه الجزيرة يمنية الاصل اذ تبعد (٣٢) كيلومتر عن الساحل اليمني ، وكانت تديرها سلطات ميناء عدن اثناء الوجود البريطاني في اليمن الجنوبي وقد سلمتها بريطانيا قبل استقلال اليمن الديمقراطية إلى اثيوبيا .

وبالقرب من جزيرة ذاكور تأتي جزيرة ابوعيل (ابو علي) اذ تقع شمال شرق جزيرة ذاكور على بعد خمسة اميال منها وبذلك فهي أكثر قرباً من

شكل رقم (٢)

شكل رقم (١)



الساحل اليمني وتتكون من جبلين صغيرين يبعدان عن جزيرة ذاكور بين ٣ - ٤ كيلومتر إلى الشمال الشرقي منها ، وتبعد جزيرة ابوعيل ٣٠ كيلومتر عن اليمن وحوالي ١٠٠ كيلومتر عن اثيوبيا وهي الاخرى يمنية الاصل سلمتها بريطانيا قبل استقلال اليمن الديمقراطية إلى اثيوبيا .

وتقع في مواجهة جزيرة بريم ومجموعة جزر حانيش جزيرة حالب التي تبلغ مساحتها ٤٠ كيلومتر وتبعد مسافة ٢٠ كيلومتر جنوب شرقي ميناء عصب وبحكم تضاريسها الطبيعية تصلح لانشاء محطات رادار بحرية وقواعد جوية يمكن استخدامها كميناء عسكري وتبسط اثيوبيا السيادة عليها .

اما جزيرة ديمر فانها تقع جنوب شرقي ميناء عصب مباشرة وهي اقرب الجزر الاثيوبية إلى باب المندب وتشكل مع جزيرة حالب الخط الاول في مواجهة جزيرة بريم ومجموعة جزر حانيش :

ومن الجزر المهمة في المدخل الجنوبي للبحر الاحمر مجموعة جزر دهلك التي تمثل مجموعة من الجزر الصغيرة التي تنتشر شرقي ميناء مصوع ويصل عددها حوالي مائة جزيرة اهمها هي جزيرة (دهلك الكبرى) وتكمن خطورة هذه الجزر بكونها جزراً مرجانية تشكل جزءاً من سلسلة الشعاب المرجانية الممتدة على كل من الساحلين الشرقي والغربي للبحر الاحمر ، ويبلغ طول جزيرة دهلك الكبرى (١٠٠) ميل وعرضها حوالي (١٠٠) ميل ايضاً وتبعد عن مصوع ٤٠ كيلومتر وعن عصب ٣٥ كيلومتر ، وتتميز بوجود خلجان وموانيء طبيعية في شرقها وغربها وتصلح لاقامة قواعد جوية بها وارضها صالحة للزراعة يسكنها بضعة الاف من العرب الرحل المسلمين (٦) . والشكل رقم (٢) يوضح لنا المدخل الجنوبي للبحر الاحمر والجزر التي تتحكم بالملاحة فيه .

اما الدول التي تطل على مياه البحر الاحمر فهي اقطار عربية اربعة منها تقع على الساحل الشرقي وهي : المملكة الاردنية الهاشمية ، المملكة العربية السعودية ،

الجمهورية العربية اليمنية،جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ،وثلاثة اخرى تقع على ساحله الغربي هي : جمهورية مصر العربية ، السودان ، جمهورية الصومال الديمقراطية وجيبوتي ، والبحر الاحمر هو بحيرة عربية فيما عدا الحالة الاستثنائية غير القانونية في الجزء الجنوبي من الساحل الغربي حيث تطل اثيوبيا عليه بحكم انه منفذها البحري الوحيد من خلال شواطىء ارتيريا التي ضمتها اليها وباستثناء الوجود الاسرائيلي في مدخليه الشمالي (ايلات والجنوبي (الجزر العربية المحتلة) ، الذي فرض وجوده .

من هذا العرض للموقع الجغرافي للبحر الاحمر نستنتج ان هذا البحر يعد المحور المائي الذي تلتف من حوله منطقة الشرق الاوسط بمفهومها السياسي وتعبيرها الجغرافي فهو القلب البحري لهذه المنطقة بوجه عام وللمنطقة العربية بوجه خاص ، حيث ان الخارطة الجيوبوليتكية تؤكد عروبته ، كما نستنتج بأن نقاط التحكم الاستراتيجي في مداخله الشمالية عند السويس وتيران والجنوبية عند باب المندب لها اهمية في خنق الملاحة في البحر الاحمر والسيطرة عليها ،وقد دار الصراع دائماً حول نقاط التحكم هذه سواء كان محليا او دولياً ، لذلك اكتسبت هذه المنطقة ميزة جيوبوليتكية في خارطة الصراع الدولي سواء بين الشرق والغرب ، الاقليمي بين العرب و (اسرائيل) من ناحية وبين العرب واثيوبيا من ناحية اخرى حيث اصبح الوضع في البحر الاحمر لموقعه الجغرافي هذا يشكل خطراً ستراتيجياً ضد المصالح القومية للامة العربية وعلى الاقطار العربية تقع مسؤولية ان تأخذ دورها تجاه هذا الخطر .

ثانياً : الأهمية التاريخية والستراتيجية

منذ اقدم عصور التاريخ اهتم المصريون بالملاحة في البحر الاحمر حيث قام الفراعنة سنة ٢٠٠٠ ق.م بحفر قناة بين البحر والفرع البيلوزي القديم من فروع النيل عبر البحيرات المرة والتمساح وكانت تعرف بأسم(سيزوستريس)

وعندما طمست معالمها بذلت محاولات لحفرها ثانية، حتى ان الخليفة عمر بن الخطاب (رض) امر باعادة حفرها ، ولعب البحر دوراً هاماً في التجارة واقامة العلاقات مابين العرب وافريقيا قبل ظهور الاسلام وبعده (٧) .

ولطبيعة الموقع الجغرافي للبحر وكونه مدخلا إلى المحيط الهندي اصبح موضع اهتمامات الدول الاستعمارية التي كانت في تنافس شديد حول هذا المحيط ، اذ حاول البرتغاليون في القرن السادس عشر السيطرة على باب المندب كجزء من محاولتهم للسيطرة على الخليج العربي والمحيط الهندي ، واستمر تسلل الدول الاوربية إلى المحيط الهندي خلال القرنين السادس والسابع عشر إلى ان فرضت بريطانيا في القرن التاسع عشر سيطرتها لوحدها على المنطقة واطلق على المحيط الهندي اسم (بحيرة بريطانية) ، وعند احتلال بريطانيا عدن عام ١٨٣٩ اقامت بها قاعدتها العسكرية من اجل ان تؤمن مدخلها إلى المحيط الهندي ، وعززت ذلك بوجودها في المدخل الشمالي للبحر الاحمر بعد فتح قناة السويس عام ١٨٦٩ للملاحة فأقدمت على احتلال مصر عام ١٨٨٢ (٨).

ودخل المحيط الهندي والبحر الاحمر في اهتمامات فرنسا منذ ان قام نابليون بغزو مصر عام ١٧٩٨ وعندما سيطرت فرنسا على اقليم عفار وعيسى (جيبوتي حالياً) جعلت من قاعدتها البحرية حلقة الوصل التي تربط البحر الاحمر بالمحيط الهندي ، ومازال مركز القيادة الاستراتيجية الفرنسية في شرق افريقيا والمحيط الهندي في جيبوتي حتى بعد استقلالها في (٢٧ /٦/ ١٩٧٧)، وجاء اهتمام الولايات المتحدة الامريكية في المنطقة بعد انحسار النفوذ البريطاني منها بعد الحرب العالمية الثانية ، واقامت الولايات المتحدة عند وجودها في منطقة البحر الأحمر قاعدة كاكينو في اسمرا عاصمة ارتيريا وقاعدة مصوع في الجزء الجنوبي من البحر (٩) وبدءاً من الستينات وجه الاتحاد السوفياتي اهتمامه تجاه المنطقة خاصة السيطرة على المحيط الهندي ومن اجل ذلك دعم وجوده «بالقرب من نقطة الاختناق الاستراتيجية التي تكتنف هذا النطاق المائي

وهي تتمثل على التوالي في المضايق التركية – قناة السويس وباب المندب ، وواضح ان البحر الاحمر له اهمية خاصة كخانق ستراتيجي طويل تكتنفـه نقط اختناق رئيسية تتمثل في قناة السويس وباب المندب » (١٠) ويحتفـظ الاتحاد السوفيتي بوجود عسكري (تسهيلات وقواعد بحرية) فـي هذه الممرات الستراتيجية مستفيداً مـن علاقته وارتباطاته الـوثيقة هنـاك ، واصبحت المنطقة دائرة للصراع والتأثير الدولي ، ويأتي قيام (اسرائيل) عام ١٩٤٨ على ارض فلسطين العربية ليشكل عنصراً آخر في دائرة الصراع والتأثير هذه (١١) ،وتأسيساً على ذلك اصبح البحر الأحمر اهمية ستراتيجية (١٢) تتمثل في :

١ – كونه قناة وصل بين البحار المفتوحة المحيط الاطلنطي والمحيط الهندي (لان البحر المتوسط يعد مقفلا)تزيد من اهميته الستراتيجية سواء مـن الناحية العسكرية والاقتصادية .

٢ – يعد المتحكم في مخارج ومداخل البحر المتوسط والخليج العربي .

٣ – من حيث ازمة الطاقة في العالم بالامكان اعتباره خط انابيب لنقل البترول الخام من منطقة الخليج العربي الى اوربا ، وجاءت الحرب العراقيـة الايرانية لتؤكد صحة هذه الأهمية .

٤ – له اهمية كبرى من ناحية الامن سواء كان الامن القومي العـربي او الامن العالمي اذ تتصارع فيه دوائر امنية متصلة ومتداخلة ويمثل القرن الافريقي (*) وما يجاوره مركز الثقل الستراتيجي لهذه الدوائر ويقول د . حسني محمد علي الطائي ان موقع القرن الأفريقي يمثـــل

(*) يقصد بالقرن الأفريقي في علم السياسة (الصومال ، اثيوبيا ، جيبوتي) كوحـدات سياسة قائمة تشكل رقعة ستراتيجية على الخارطة الافريقية تهددها صراعات ومنازعات حدود .

«عنصر قوة في مفهوم ستراتيجية البحر الاحمر ، فاذا كانت الاستراتيجية فن استخدام وسائل القوة لتحقيق الهدف السياسي يتبين لنا مدى خطورة ذلك الصراع على مصير البحر الأحمر ومايحيط به من شعوب ودول ، فمن يتحكم في القرن الافريقي يستطيع ان يتحكم في طرق النقل بين شرق افريقيا واوربا وبالعكس ، ويتحكم في امن البحر الأحمر والدول المحيطة به ستراتيجياً ، وذلك لايكون الا بتأمين موقع عند مدخل البحر الأحمر » (١٣) .

٥ – من ناحية الوقت والمسافة للتحركات الستراتيجية والأقتصادية فانه يوفر المسافة والوقت اذا ما قورن بالتحرك عبر الرجاء الصالح ، ولهذه الخاصية اثر كبير في التحركات الستراتيجية والعلاقات الأقتصادية الدولية .

٦ – تقع عليه كيانات سياسية مختلفة ذات مصالح متعارضة ، ويجاور كثيراً من المناطق الحساسة ذات التأثير الحيوي على دوله حيث (منابع النيل وروافده ، معبر ديني للاماكن المقدسة ، سيطرته المباشرة على مناطق البترول انتاجاً ونقلا) ، والاخطر من كل ذلك يقول امين هويدي « ان المدقق في الخريطة يرى بوضوح كيف يمكن لاي قوة تسيطر على سواحله الغربية ان تندفع غرباً خلال كريغان ودار فور في السودان لتتصل بمناطق نفوذ لها على سواحل البحر المتوسط في حركة التفاف كبرى تهدد به مركز ثقل المنطقة كلها وهي مصر ، وفي الوقت نفسه تحكم سيطرتها على السواحل الجنوبية للبحر المتوسط وهو ماعبر عنه مانشين – بأن مفاتيح البحر المتوسط تقع في البحر الأحمر » (١٤) .

ركزت الصهيونية على هذه الاهمية التأريخية والستراتيجية للبحر الاحمر ووضعتها في مخططاتها . انطلاقاً من اهمية المواقع الجغرافية (١٥) وضرورة التحكم

في المنافذ المطلة على البحار ، فالمذكرة التي قدمتها الصهيونية في ٣/شباط /١٩١٩ الى المجلس الاعلى لمؤتمر السلام بباريس ،ضمنتها نصاً يؤكد على ضمان وحرية الدخول الى البحر الأحمر وفرصة اقامة موانيء جيدة على خليج العقبة(١٦). وبعد قيام دولة (اسرائيل) اصبح ذلك هدفاً ستراتيجياً من اهدافها يتوجب العمل على تحققه .

المبحث الثاني

«الوجود الأسرائيلي في المدخل الشمالي للبحر الأحمر»

تم الوجود الاسرائيلي في المدخل الشمالي للبحر الاحمر على مرحلتين : الأولى عندما احتلت (اسرائيل)النقب من بئر سبع الى خليج العقبة ونجاح المخطط الاسرائيلي في ايجاد منفذ على شاطيء الخليج بأحتلالها قرية (أم رشرش) ، والمرحلة الثانية عند نجاح مساعي (اسرائيل) لفتح خليج العقبة ومضيق تيران امام الملاحة الاسرائيلية والملاحة الدولية كبديل عن قناة السويس.

اولا : المرحلة الأولى : (الوجود الاسرائيلي في خليج العقبة)

وفقاً للمخطط الصهيوني تم على ارض فلسطين العربية اقامة دولة (اسرائيل) في ١٥ مايس ١٩٤٨ وعلى اثر ذلك قامت حرب فلسطين واعقبها عقد الهدنة الاولى بين الجيوش العربية والقوات الاسرائيلية بناء على قرار مجلس الامن الصادر في/٢٩/ مايس/١٩٤٨ ، والهدنة الثانية التي عقدت بصورة ثنائية فيما بعد بين (اسرائيل) وبعض الأقطار العربية حتى تنفرد بالجبهات الواحدة تلو الاخرى .ونظراً لكون خليج العقبة يعد بالنسبة لـ (اسرائيل) منفذاً حيوياً الى افريقيا وآسيا ، وعلى هذا الأساس وقبل ان تعقد الهدنة بين الاردن و (اسرائيل) تم في ١٠ /آذار /١٩٤٩ استفراد الاردن اذ تحركت القوات الاسرائيلية (لوائي هنيجيف وجولاني) المكونة من سيارتين (جيب)

وناقلة جنود واحتلت قرية ام رشرش على خليج العقبة وعززت هذه القوات في ذات اليوم وطردت مراقبي الامم المتحدة وعرفت هذه العملية بحملـــة (عوفاديا) ،واضطر الاردن الى سحب قواته وتقديم شكوى الى وسيط الأمم المتحدة الدكتور رالف بانش ذات اليوم، كما قدم الاردن في يوم ١٥ /آذار /١٩٤٩مذكرة تفصيلية الى المنظمة الدولية (١٧) وقام وسيط الامم المتحدة بالتحقيق بالحادث وارسل في ٢٢ /آذار / ١٩٤٩ مذكرة الى مجلس الامن ضمنها نتائج ماتوصل اليه والتي جاء في نهايتها ما يأتي :

«أنني متأكد تمام التأكيد انه ـ ماعدا ماهو متعلق بالعقبة ذاتها ـ فـــأن المراكز التي انشأتها في هذه المنطقة القوات الاردنية والقوات الاسرائيليـــة انشئت كلها بعد الهدنة(الاولى)التي دخلت في التنفيذ في ١٨ /تموز ١٩٤٨ مع استثناء مراكز القوات الأردنية في عين عبد وكرنوب وبذلك تكون هذه المراكز جميعاً قد اقيمت خلافاً لاحكام الهدنة» (١٨) .

وقصد الدكتور رالف بانش بأنها مخالفة لاحكام الهدنة الاولى ، بينمـا الهدنة بين الاردن و(اسرائيل) قد وقع عليها في رودس في ١٣ /نيسان / ١٩٤٩ ضمن الهدنة الثانية التي جاءت اعقاب قرار مجلس الامن الصادر في ١٦ /تشرين الثاني /١٩٤٨ ، وادت الى الدخول في مفاوضات رودس والتي كان نتيجتها التوقيع على اتفاقيات هدنة ثنائية .

أن ما أقدمت عليه (اسرائيل) باحتلال قرية أم رشرش وتحويلها الى ميناء (ايلات) يعد من الوجهة القانونية الدولية امراً غير مشروع لانه عبارة عـــن وجود عسكري يشكل خطراً على جزء من شاطيء خليج العقبة (١٩) ، وشعر كل من الاردن ومصر والسعودية انهم امام خطر اسرائيلي مستفحل،وتحركت مصر لمواجهة ماحدث وكرد فعل عليه ، فاتصلت بالسعودية لمنحها عـــدة جزر على جانب كبير من الاهمية تتحكم في مداخل خليج العقبة وتم الاتفاق

بينهما على جزيرتي « تيران وصنافير »تحت تصرف مصر ؛ ومباشرة وضعت قوات مصرية في كلتا الجزيرتين وتم تحصينهما ، كما وضعت مدافع شاطئية في رأس نصراني من اجل السيطرة على الملاحة في مضيق الانتربرايس وأبلغت مصر كلا من المملكة المتحدة والولايات المتحدة الامريكية بكافة التطورات التي حصلت في الجزيرتين وسيادتها عليهما بالاضافة الى انها اتخذت اجراءات بخصوص تنظيم الملاحة والمرور في مدخل خليج العقبة وفي الخليج ذاته ، وتضمنت هذه الاجراءات منع السفن الحربية والتجارية الاسرائيلية المرور في المياه الاقليمية للخليج بما في ذلك مدخله بين جزيرة تيران وساحل سيناء (٢٠) .

وعززت مصر اجراءاتها هذه بغلق قناة السويس في وجه الملاحة الاسرائيلية ، فما كان على (اسرائيل) الا ان تتحداها بمحاولة عبور السفينة الاسرائيلية (بيت جاليم) القناة الا ان السلطات المصرية اسرت السفينة وصادرت ماكانت تحمله وعندئذ تقدمت (اسرائيل) بشكوى الى مجلس الامن ضمنتها ان منع السفن التابعة لها من المرور بقناة السويس يشكل خرقاً لاحكام اتفاقية القسطنطينية لعام ١٨٨٨ ، واصدر مجلس الأمن قراراً دعا فيه مصر الى « رفع القيود المفروضة على مرور السفن التجارية في قناة السويس وعلى مرور البضائع مهما تكن وجهتها) (٢١) ، الا ان مصر لم تلتزم بهذا القرار انطلاقاً من عدم السماح لـ (اسرائيل) بالوجود في خليج العقبة والنفاذ منه .

وفي عام ١٩٥٤ تقدمت (اسرائيل) بشكوى اخرى الى الامم المتحدة ضد مصر ، اشار فيها المندوب الاسرائيلي الى ان الاجراءات المصرية تجاه السفن الاسرائيلية هي من اجراءات الحصر ، والحصر يعد عملا عدوانياً محظوراً (٢٢) ، ونرى ان هذه الشكوى عبارة عن تظاهرة سياسية لحمل

مجلس الامن على اتخاذ قرار يضمن لها حق المرور في خليج العقبة وقناة السويس وكاد ان يتخذ مجلس الامن قراراً لهذا الا ان موقف الاتحاد السوفياتي حال دونه (٢٣) .

وبعد ان استنفذت (اسرائيل) كل محاولاتها اكتشفت ان وجودها في (ايلات) لايحقق لها اهدافها ولايسمح لسفنها بالمرور في خليج العقبة وقناة السويس ، ورأت ان البديل يكمن في القوة ، وهكذا جاء العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ليحقق لها أول اهدافها في الوجود بالمدخل الشمالي للبحر الاحمر وهو ضمان حرية الملاحة من والى ميناء ايلات عبر مضيق تيران وخليج العقبة ، واصبح هذا الوجود يهدد امن البحر الاحمر والمنطقة كلها (٢٤)

ثانياً : المرحلة الثانية

تمكنت (اسرائيل) في العدوان الثلاثي من احتلال سيناء ومنطقة شرم الشيخ ، وعند معالجة الامم المتحدة مسألة العدوان خاصة الانسحاب من سيناء رفضت (اسرائيل) الأنسحاب في البدء الا انها وافقت فيما بعد في حالة قبول الشروط التي وضعتها ومنها :

١ - مرابطة قوات الطوارىء الدولية منطقة شرم الشيخ عقب انسحاب القوات الاسرائيلية مباشرة .

٢ - قبل انسحاب قوات الطوارىء الدولية من هذه المنطقة يلتزم الامين العام للامم المتحدة بأن يخطر السلطات الاسرائيلية بالنية في اجراء هذا الانسحاب .

٣ - ان تقوم قوات الطوارىء الدولية في شرم الشيخ بكفالة حرية الملاحة الاسرائيلية في مضيق تيران وخليج العقبة » (٢٥) .

هذا فضلا عما اعلنته جولدامائيرا وزيرة خارجية (اسرائيل) آنذاك في اجتماع الجمعية العامة للامم المتحدة المنعقد في ١ /آذار /١٩٥٧ . بأنها قد

تلقت مذكرة من وزير خارجية الولايات المتحدة الاميركية بتأريخ ١١ /شباط ١٩٥٧ /يؤكد فيها « ان مضيق تيران وخليج العقبة هما – من وجهة النظر الامريكية – من المياه الدولية ، وذلك الى ان تقرر العكس هيئة قضائية دولية وان الولايات المتحدة من جانبها سوف تمارس حقوقها في الانتفاع بهذه المياه وتأمل ان ينضم اليها الاعضاء الاخرون للوصول الى الاعتراف العام بهذا الوضع ، وأن (اسرائيل) – تبعاً لذلك – سوف تقوم بسحب قواتها من منطقة شرم الشيخ وغزة » (٢٦) .

في ٤ /آذار /١٩٥٧ انسحبت القوات الاسرائيلية من منطقة شرم الشيخ وغزة وحلت محلها قوات الطوارىء الدولية وتحقق لـ (اسرائيل) النجاح في فتح خليج العقبة ومضيق تيران امام الملاحة الاسرائيلية والملاحة الدولية كبديل عن قناة السويس، كما تحقق لها النفاذ من الحصار الاقتصادي العربي المفروض عليها ، فضلا عن اقامتها العلاقات مع الدول الافروأسيوية على مدى عشر سنوات من عام ١٩٥٧ ولغاية عام ١٩٦٧ .

في شهر مايس عام ١٩٦٧ قامت (اسرائيل) بتحشيد قواتها المسلحة بهدف القيام بعمل عسكري ضد سوريا ، وعلى اثر ذلك طلبت مصر في ١٧ /مايس /١٩٦٧ من الامين العام للامم المتحدة سحب قوات الطوارىء الدولية من منطقة شرم الشيخ وفي ١٨ مايس وافق الامين العام على ذلك ،وفي الخطاب الذي القاه الرئيس الراحل جمال عبد الناصر بتأريخ ٢٢ /٥ /١٩٦٧ اعلن عن سيادة مصر على اراضيها وان القوات المصرية استعادت مراكزها في شرم الشيخ واغلقت خليج العقبة امام الملاحة الاسرائيلية (٢٧) ، ان ماقامت به مصر هو ايمان منها بأن هذا الموقف يتفق تماماً مع احكام القانون الدولي (٢٨) وعلى اثر ذلك اصدر الرئيس الامريكي بياناً اعلن فيه ان غلق خليج العقبة امام الملاحة الاسرائيلية عمل غير مشروع ويشكل تهديداً للسلام وأن الولايات

المتحدة ترى ان خليج العقبة ممر مائي دولي (٢٩) .وعلى هذا نلاحظ ان الموقف الاميريكي يتكرر بتأكيده على اعتبار خليج العقبة مياهاً دولية وان هذا الموقف يأتي دعماً لـ(اسرائيل)في وجودها في خليج العقبة وحماية للمصالح الأمريكية في المنطقة .

واتخذت (اسرائيل) من قرار مصر ذريعة للقيام بعدوانها في ٥ /حزيران /١٩٦٧ الذي انتهى بفرض سيطرتها مرة ثانية على خليج العقبة ومضايق تيران وغلق قناة السويس ومنذ حزيران ١٩٦٧ ولغاية تشرين الاول ١٩٧٣ ، ركزت اسرائيل خطتها لتطويق مثلث (القطاع الشمالي من الجبهة والبحرين الابيض والأحمر) تتوسطه هي وترتكز رؤوسه على الاسطول السادس الامريكي في الابيض المتوسط من جهة ، والدول المتحالفة مع (اسرائيل)في القرن الافريقي والخليج العربي من جهة اخرى، وداخل هذا المثلث كانت (اسرائيل)تسعى الى تحويل البحر الاحمر الى (بحيرة اسرائيلية) او بحر خاضع للسيطرة الاسرائيلية - الامريكية المشتركة »(٣٠) وعلى هذا الاساس وسعت البحرية الصهيونية استراتيجيتها في البحر الاحمر عن طريق السيطرة أو ايجار بعض جزر البحر الاحمر الواقعة في الجزء الجنوبي .

وجاءت حرب تشرين / ١٩٧٣ لتمهد الى المفاوضات بين مصر و(اسرائيل) والى عقد اتفاقيات كامب دايفيد في (٢٦ /آذار /١٩٧٩) (٣١) التي جاءت لتعزز الوجود الاسرائيلي ليس في المدخل الشمالي للبحر الاحمر فحسب بل في البحر كله كما سنوضح ذلك في نهاية البحث .

مما تقدم يتضح ان الوجود الاسرائيلي قد وظف لخدمة الستراتيجية الاسرائيلية واهدافها وحقق لها عدداً من المكاسب نأتي على ذكر اهمها :

١ ـ ان عام عدوان عام ١٩٥٦ جاء دعماً للمرتكزات الرئيسة لاهداف السياسة الخارجية الاسرائيلية اذ حقق لها التخلص من الحصار الاقتصادي العربي الذي خلق لها صعوبات امام اقامة وتطوير الصلات الاسرائيلية مع الدول الاسيوية وفعلا حققت الاتصال عمليا بدول آسيا بعد فتح طريق الملاحة في خليج العقبة خلال فترة عشر سنوات بدءاً من عام ١٩٥٧ .

٢ ـ توجه (اسرائيل) بعد عام ١٩٥٧ نحو افريقيا لاقامة العلاقات مع دول شرق وجنوب القارة خاصة التي حصلت على استقلالها آنذاك (٣٣) وبعد غلق قناة السويس عام ١٩٦٧ وثقت العلاقات بين (اسرائيـــل) والدول الافريقية وبالاخص الشرقية (*) ، وذلك لان الـوجـود الاسرائيلي في البحر الاحمر زاد من اهميته بالنسبة لدول شرق افريقيا «حيث ان الطريق الذي يصل بين البحرين الابيض والاحمر عبر الطريق البري الاسرائيلي يوفر لهذه الدول ١٥ ٪ من تكاليف النقل عبـر رأس الرجاء الصالح ، بالاضافة إلى ذلك قرب هذه المنطقة للمواقـع الاسرائيلية» (٣٤) ، وان دول شرق افريقيا تحتل مكان الصدارة في الاوليات الجغرافية للوجود الاسرائيلي في افريقيا ككل .

٣ ـ ان فتح خليج العقبة ومضايق تيران مكن (اسرائيل) من الملاحة في البحر الاحمر حتى باب المندب والاستفادة من قصر المسافة بمعناها الاقتصادي والجغرافي وادى ذلك إلى زيادة صادرات (اسرائيل) من المنتجات الصناعية إلى الاسواق الافريقية وبالمقابل استيراد المواد الاولية من هذه الاسواق ونتج عن كل ذلك تنشيط الحركة الصناعية لها وتطوير منطقة النقب (٣٥) .

(*) المقصود بدول افريقيا الشرقية التي اقامت (اسرائيل) علاقات معها هي : اثيوبيا ، كينيا ، تنزانيا ، اوغندا) .

٤ — عند غلق قناة السويس بعد حرب حزيران ١٩٦٧ ورفض (اسرائيل) التعاون بتطهير القناة من السفن التي غرقت فيها مكن ذلك (اسرائيل) من نقل البترول عبر خليج العقبة إلى الابيض المتوسط عن طريق خط (ايلات — عسقلان) وبالاخص البترول الايراني (٣٦) .

ومن الاهداف الستراتيجية الاخرى التي حققتها (اسرائيل) من وجودها في المدخل الشمالي للبحر الاحمر ، تفتيت وحدة الصف العربي والانفراد بكل قطر عربي على حدة ، التعاون مع الكيان الاستيطاني العنصري في جنوب القارة الافريقية ضد السكان الاصليين في كل من فلسطين وجنوب افريقيا ، فضلا عن كون هذا الوجود قد مهد ومكن(اسرائيل) من وجودها في المدخل الجنوبي للبحر .

المبحث الثالث

«الوجود الاسرائيلي في المدخل الجنوبي للبحر الاحمر»

اعتمد بحث ودراسة الوجود الاسرائيلي في المدخل الجنوبي للبحر على مرحلتين : الاولى ، من خلال العلاقة الاميريكية الاسرائيلية ، والثانية ، من خلال التعاون الاثيوبي الاسرائيلي ودعم الولايات المتحدة الاميريكية .

المرحلة الاولى :

إن جزر البحر الاحمر الجنوبية كما رأينا ذات اهمية ستراتيجية ،اذ انها تكون المفتاح الرئيس للملاحة في البحر ، ويعود الوجود الاسرائيلي في هذه الجزر بالتحديد إلى عام ١٩٥٣ عندما عقدت الحكومة الامريكية اتفاقية مع اثيوبيا للمساعدات العسكرية والاقتصادية مقابل انشاء قاعدة (كاكينو) (٣٧) بالقرب من مدينة اسمرا في ارتيريا للاتصالات اللاسلكية لخدمة الستراتيجية الاميريكية وكذلك الاتفاقية الثانية بين الطرفين عام ١٩٦٠ والتي تضمنت قيام

الولايات المتحدة بتدريب وتسليح الجيش الاثيوبي ومقابل ذلك ان تقوم الولايات المتحدة بتوسيع واستغلال ميناء «مصوع» في ارتيريا والسماح لها باقامة قاعدة بحرية بالقرب من هذا الميناء (٣٨).

وهدف الولايات المتحدة من هاتين الاتفاقيتين يكمن في الوجود بالمنطقة من جهة واعتبار القاعدة والميناء نقاطاً ستراتيجية لتحركاتها واتصالاتها من جهة اخرى، فقاعدة (كاكينو) (٥) زادت اهميتها بعد عام ١٩٧١، اذ اصبحت المحطة الاخيرة لشبكة الاتصالات الاميركية من الفيليبين عبر المحيط الهندي، وميناء (عصب) اصبح المرفأ الاخير لرحلة الاسطول السابع الاميركي من جنوب شرقي آسيا حيث تقوم قطع هذا الاسطول كل شهر بتظاهرات عسكرية في البحر الاحمر، ولتنفيذ هاتين الاتفاقيتين فان الولايات المتحدة قد استعانت (باسرائيل) وجرى تنسيق وتعاون بينهما كان نتيجته تزايد الوجود العسكري الاسرائيلي في ارتيريا، ومن خلال هذا الوجود تمكنت (اسرائيل) من اقامة محطة للرصد الجوي والرادار في شمال ارتيريا لغرض رصد الطائرات العربية في شمال السودان والتحكم في تنقل طائراتها فوق مياه البحر الاحمر، فضلا عن حـــماية حقها في الملاحة في البحر الذي حصلت عليه بمساعدة الولايات المتحدة دولياً عام (١٩٥٧) (٣٩) وان استخدام (اسرائيل) كأداة لتحقيق اهـــداف الستراتيجية الاميركية، خاصة وان تنفيذ الاتفاقيتين قد مهد إلى المرحلة الثانية من وجودها في المدخل الجنوبي.

المرحلة الثانية

جاءت المرحلة الثانية للوجود الاسرائيلي من خلال العلاقة بين اثيوبيا و(اسرائيل) تلك العلاقة التي قامت على التقاء الاهداف والمصالح بين الطرفين،

(٥) في عام ١٩٧٧ وبعد تدهور العلاقات بين اثيوبيا والولايات المتحدة الاميركية بسبب تغير نظام الحكم في اثيوبيا ومجيء الشيوعيين (حكومة مانقستو)، الغيت معاهـــدة الدفاع المشترك بين اثيوبيا والولايات المتحدة ونقل مركز الاتصالات الموجود فـــي قاعدة (كاكينو) في ارتيريا الى قاعدة (دياغو كارسيا) في المحيط الهندي.

ومن المفيد في هذه الدراسة ان نشير إلى علاقة اثيوبيا باليهود ، اذ عرفت ما يسمى : (اليهود السود — الفلاشا Falasha) او الأغراب الذي يرجع تاريخ اصولهم إلى بني (اسرائيل) واختلف بموضوع مجيئهم إلى اثيوبيا، فرواية تذكر انهم ينسبـــون انفســـهم إلى «بيت اسرائـــيل Beta Israel » كما يدعون بأنهم من بقايا اليهود الذين رافقوا منليك الاول(ابن الملك سليمان وملكة سبأ) من بيت المقدس إلى اكسوم في الحبشة ،ورواية اخرى تشير إلى انهم من المهاجرين اليهود الذين جاءوا من اليمن ، ورواية ثالثة تشير إلى انهم جاءوها بعد الشتات وتشرد اليهود ، وموطن سكن اليهود الفلاشا هو شمال وشرق بحيرة تانا ، وفي القرن العاشر الميلادي (سنة ٩٦٠) ظهرت منهم ملكة تدعى يوديـــث او جديـــث (Judith او Gudith)نـــاصبت العـــداء لمملكة اكسوم (Axum) المسيـــحية واحرقت ودمرت كنائسهم خاصة كنيسة بيت مريم (القديسة مريم) الا ان عهد هذه الملكة لم يدم اذ قضت عليها اسرة (زاجوه) المسيحية (٤٠) .

ويحدثنا الاستاذ تورنيه (*) ، عن اليهود والنظام السياسي الاثيوبي في زمن هيلاسيلاسي قائلا : «ان دستور (اثيوبيا) يتضمن بنداً (ينص على) ان هيلا سيلاسي هو الوريث الشرعي رقم (٢٤٥) للملك سليمان والملكة سبأ بالاضافة إلى ان احد الالقاب الرسمية التي حازها الامبراطور لقب(الاسد المنتصر لقبيلة يهوذا) وتقول الارستقراطية الحبشية بانها تنحدر من مجموعة الفتيان اليهود الذين رافقوا الامبراطور مينلك الاول خلال عودته من (اسرائيل)إلى بلاد الحبشة ، كما ان الطقوس الدينية والعادات الاجتماعية الحبشية تحتوي عناصر عبريـة متعددة ...» (٤١) .

(*) الأستاذ جان مارك بروس تورنيه ، اخصائي في الشؤون الاثيوبية قضى اكثر من ثلاث سنوات في اثيوبيا دارساً اوضاعها السياسية والأقتصادية والأجتماعية والجغرافية وزارها سنوياً للاطلاع على تطور الأوضاع فيها عندما كان مستكمل اطروحة الدكتوراه عنها.

وتمثل وضع اثيوبيا تجاه العرب بالعداء المستحكم الذي تبطنه اثيوبيا للاسلام بوصفها حاضرة مسيحية قديمة وبسبب كل حملاتها لاحتلال المناطق العربية في اليمن ومكة المكرمة وغيرها ، واستغل وضعها تجاه العرب من قبل القوى الاوروبية لجعلها مركز ثقل على المنطقة العربية والاسلامية وهذا ما يفسر لنا السماح لها دون غيرها من افريقيا بعد مؤتمر برلين ١٨٨٤ /١٨٨٥ ، ومؤتمر بروكسل ١٨٩٠ بشراء الاسلحة من الدول الاوربية (٤٢) .

اما العلاقة بين اثيوبيا والكيان الصهيوني فقد حكمتها منذ قيام هذا الكيان النظرة الاسرائيلية التي ترى في اثيوبيا اهم الدول الافريقية التي يمكن التحالف معها من الناحية السياسية والستراتيجية. فهي خير حليف لدعم حركة الانفصال في السودان ومناوأة الصومال العربي وابعاد خطر وجود الاتحاد السوفيتي عن منطقة البحر الاحمر آنذاك والقضاء على الثورة الارتيرية ومنع استقلال ارتيريا وعن ذلك تقول الدكتورة (سوزان جتلسن) استاذة الدراسات الافريقية في الجامعة العبرية : —

«... كلا البلدين متعاطف ومتفهم لمشاكل البلد الآخر مع جيرانه ، مشاكل (اسرائيل) مع الدول العربية ، ومشاكل اثيوبيا مع الصومال والسودان وجبهة التحرير الارتيرية» (٤٣) .

ان اسرائيل تؤيد الحركة الانفصالية في السودان وتدعم زعماءها عن طريق فتح ابواب سفاراتها في الدول الافريقية ومنها اثيوبيا ، وذلك لاشغال السودان عن قضية العرب المركزية في فلسطين وعزله قطرياً في مشاكله الداخلية وابقائه في حالة تخلف (٤٤) ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فالنزاع بين اثيوبيا والصومال على اقليم «اوجادين» (٤٥) ، وتأييد العرب للصومال العربي دعا اثيوبيا ان تجد في (اسرائيل) حليفاً لها للاستفادة من الخبرات باقامة المستعمرات السكانية الشبيهة بالكيبوتزات الاسرائيلية (٤٦) في هذا الاقليم .

وهدف ابعاد خطر الوجود السوفياتي عن منطقة البحر الاحمر وخاصة الجزء الجنوبي منه ، فان كلا من (اسرائيل) واثيوبيا كانت تعده هدفها الستراتيجي اذ تقول الدكتورة سوزان جتلسن : «ان للبلدين هدفاً ستراتيجياً واحداً هو ابعاد الاتحاد السوفياتي عن البحر الاحمر» (٤٧) ، ونرى ان موقف اثيوبيا من الاتحاد السوفياتي قد اختلف عند تغير نظام الحكم (١٩٧٧) فيها .

اما بالنسبة لارتيريا وجبهة التحرير الوطني الارتيرية ، فكما هو معروف ان ارتيريا خضعت للاستعمار الايطالي للفترة من عام ١٨٨٥ إلى أن تم طرد ايطاليا من قبل الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤١ ، واصبحت آنذاك خاضعة للادارة البريطانية احد عشر عاماً حتى عام ١٩٥٢ ، وخلال هذه الفترة كانت القضية الارتيرية تفرض نفسها على الحلفاء والامم المتحدة(٤٨) واقرت الجمعية العامة للامم المتحدة بقرارها(٣٩٠/١) بتاريخ ٢/١٢/١٩٥٠ انشاء اتحاد فيدرالي بين اثيوبيا واقليم ارتيريا ، واقيم هذا الاتحاد عام ١٩٥٢ الا انه في عام ١٩٦٢ قررت حكومة اديس ابابا الغاء الاتحاد من جانب واحد وضم الاقليم اليها بالقوة (٤٩) ، وعلى الرغم من قرار المجتمع الدولي فان الولايات المتحدة دعمت اجراءات اثيوبيا بضم ارتيريا من اجل تأمين مصالحها الاستراتيجية في البحر الاحمر ، من خلال الاتفاقيات مع اثيوبيا والسماح لها باستخدام الموانىء الارتيرية وبقاء السيطرة الاثيوبية على الشعب الارتيري ، وجاء هذا الوجود الاثيوبي في ارتيريا ليمهد للوجود الاسرائيلي في الجزء الجنوبي من البحر الاحمر ونرى ان (اسرائيل) قد ابدت اهتمامها في دوام سيطرة اثيوبيا واعلن موشي ديان عام ١٩٥٢ «ان امن اثيوبيا وسلامتها هو ضمان (لاسرائيل) ، وان هذا لم يتحقق الا بخضوع ارتيريا خضوعاً كاملا ومباشراً لاثيوبيا وهذا هو سبب تأييدنا القوى للمصالح الاثيوبية في ارتيريا» (٥٠) .

وبعد قيام الاتحاد الفيدرالي مباشرة حصلت (اسرائيل) من اثيوبيا على

امتيازات في الميدان الاقتصادي خاصة في الصناعة والزراعة واقامة شركات لها وارسلت الخبراء ومن اهم الشركات التي اقيمت شركة (اميران) التجارية (سيا) للزراعة ، (سوليل بوتيه) المختصة باعمال البناء فضلا عن هيمنة شركة (انكودا) الاسرائيلية على تصنيع اللحوم في ارتيريا ، وفضلا عن ذلك فقد دعمت (اسرائيل) اثيوبيا عسكرياً عن طريق ارسال الخبراء لتدريب الجيش الاثيوبي على الحرب ضد العصابات وتدريب القوة البحرية حديثة النشأة ، ولعب المستشارون العسكريون الاسرائيليون دوراً في تدريب قوات الامن الاثيوبية (٥١) ضد ثوار ارتيريا .

وتطور التعاون مابين (اسرائيل) واثيوبيا عندما استأجرت (اسرائيل) بعض الجزر الارتيرية لاقامة القواعد العسكرية عليها لتعزيز وجودها في الجزء الجنوبي من البحر ، ففي نيسان عام ١٩٧٠ تم استئجار جزيرة دهلك واقيم فيها قاعدة جوية وبحرية وعدد من الرادارات الحديثة لمراقبة حركة السفن العربية وتسهيل حركة القوات الاسرائيلية اذ استخدمتها (اسرائيل) من اجل التسرب إلى الجزر الاخرى حيث كان الكوماندوز الاسرائيلي يصل إلى جزيرة دهلك ومن ثم يتسلل إلى الجزر غير المأهولة في السكان ،وفي شهر تموز من ذات العام قام هيلا سلاسي مع وفد اسرائيلي بزيارة جزيرة (ديمر) واعلن ان الهدف من الزيارة هو اختيار مكان لانشاء فندق سياحي بالجزيرة (٥٢) .

ويلاحظ انه عند قيام زورق مسلح تابع للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في شهر حزيران ١٩٧١ بضرب ناقلة البترول الليبيرية (كورال سي) المؤجرة لـ (اسرائيل) والمتجهة لتفريغ حمولتها في خط بترول ايلات — عسقلان ، ان لهذا الحادث اثره على تطور العلاقة مابين اثيوبيا و (اسرائيل) كما يلاحظ نتيجة لهذا الحادث دعوة ايران إلى سيادة جماعية على مضيق باب المندب (٥٣) من جهة ، ومن جهة اخرى اكد الفكر الاسرائيلي على ضرورة الوجود الاسرائيلي في الجزء الجنوبي من البحر الاحمر ، حيث علقت صحيفة

(معاريف) الاسرائيلية في ١٤/٦/١٩٧١ على الحادث «لن تستطيع سلطات اليمن الجنوبية التهرب من مسؤوليتها ، ان باستطاعة الجيش الاسرائيلي الوصول إلى مكان الشغب وسيصل اليه اذا ماتعرضت ملاحتنا الحرة للخطر» (٥٤) .

واعقب ذلك قيام (اسرائيل) باجراء عملية مسح طبوغرافية لجميع جزر البحر الاحمر وفي ١١/٩/١٩٧١ قام الجنرال حاييم بارليف – رئيس اركان الجيش الاسرائيلي برفقة بعض الضباط الاسرائيليين بزيارة إلى كل من المدن (اسمرا ، كرن ، اغوردات ، تشين) وتفقدوا جزيرة دهلك وحالب ، وعلى اثر هذه الزيارة خططت (اسرائيل) لاحتلال بعض الجزر ، وفعلا تم عام ١٩٧٢ احتلال كل من جزيرة ذقور وحانيش ونشرت هذا الحدث مجلة التايم الاميريكية في حزيران عام ١٩٧٢ ، وتمثل الموقف العربي من هذه العملية بان ذكرت كل من القاهرة وصنعاء وعدن هذا الخبر مؤيدة مانشرته مجلة التايم (٥٥) دون اي اجراء يتخذ ضد (اسرائيل) .

وفي ذات العام ذاع سر خبرين كتمت عليهما (اسرائيل) الاول ، «ان اسرائيل طلبت من ترسانة فيكرز البريطانية ان تبني لها غواصتين جديدتين» والثاني ، «ان ترسانات اسرائيل تجتاز مرحلة متقدمة من بناء سفن مزودة بالمدافع ستوضع في البحر الاحمر» ، وعلق ملحق صحيفة (هارتس) الاسرائيلية في ١٤/٤/١٩٧٢ على هذين الخبرين «يدل هذان الخبران على ان الجيش الاسرائيلي يتطلع إلى جبهتين بحريتين البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر – ويكيف نفسه في كل واحد منهما مع الظروف الجغرافية» (٥٦) .

وفي ١٨ / تموز /١٩٧٢ نشرت جريدة الاهرام المصرية بعددها (٣١٢٦٦) خبراً عن اكتشاف شبكة تجسس صهيونية في منطقة المدخل الجنوبي للبحر الاحمر وتكمن مهمة هذه الشبكة في :

١ – جمع المعلومات عن المنطقة .

٢ – مراقبة المنظمات الفدائية في صنعاء وعدن والاقطار العربية ومعرفة نواياها تجاه السفن الاسرائيلية العابرة لمضيق باب المندب (٥٧) .

وفي ١٢ /آذار /١٩٧٣ اعلنت وكالات الانباء بأن القوات الاسرائيلية احتلت مجموعة جزر صغيرة قرب مضيق باب المندب وعززت وجودها في الجزر التي سبق ان احتلتها واقامت القوات الاسرائيلية محطة للاتصالات اللاسلكية ومحطة رادار في جزيرة ذقور وكذلك في جزيرة حالب ، فاطمة ، دهلك ، مع وضع قوات للكوماندوز في جزيرةحانيش واضافة إلى ذلك اقامت اسرائيل وجود لها في جزيرة (ابو علي - ابو عيل) (٥٨) .

هذا الوجود الاسرائيلي في المدخل الجنوبي وخاصة احتلال الجزر العربية تم في غياب اي اجراء عربي منفرد او موحد، حتى تنبهت مصر إلى خطورته في عملية الصراع العربي الاسرائيلي ، فوضعت ذلك في ستراتيجيتها عند مواجهة (اسرائيل) في حرب تشرين عام ١٩٧٣ اذ قامت مدمرتان مصريتان بالمرابطة في جزيرة بريم المطلة على باب المندب بعد اشعار كل من جمهورية اليمن الشمالية والجنوبية واغلقت باب المندب في وجه الملاحة الاسرائيلية المتجهة نحو ايلات او المتجهة في الطريق إلى خليج عدن والمحيط الهندي وقطعت الطريق على اي امدادات تخدم (اسرائيل) في الحرب ، وفعلا ان عملية حصار باب المندب اثرت على اسرائيل ، وتعد هذه العملية اول حصار بحري في الحرب العربية مع (اسرائيل) وساهمت الولايات المتحدة الاميريكية بتدخلها الدبلوماسي والعسكري لفك هذا الحصار وكاد ان يرافق ذلك تدخل ايراني لحماية ناقلات البترول الايرانية المتجهة عبر باب المندب إلى ميناء ايلات (٥٩) .

ونستنتج بأن الوجود في المدخل الجنوبي حقق ((اسرائيل) عدداً من المكاسب نأتي على ذكر اهمها :

١ - تأمين التجارة الاسرائيلية وحمايتها في حرية الحركة من ميناء ايلات حتى المحيط الهندي ، اذ ان السفن الاسرائيلية اصبحت تسير بحراسة وتزود بالوقود من المحطات التي انشئت في ميناء عصب وجزيرة حالب

وفاطمة وذهلك وبعض الجزر العربية المغتصبة من اليمن (ذقور ، ابو عيل) .

٢ — خلق عمق ستراتيجي (لاسرائيل) عن طريق تشتت الجهد العسكري العربي على طول البحر الاحمر .

٣ — استكمال الخروج من العزلة السياسية والاقتصادية .

٤ — تأمين ملاحة ناقلات البترول خاصة البترول الايراني المتجه نحـو ايلات .

٥ — باحتلال اسرائيل بعض الجزر في المدخل الجنوبي للبحر الاحمر والسيطرة عليها أرادت ان تثبت بأنها قوة ضاربة في المنطقة وأستغلت وجودها في عملية مطار عنتيبه في ٣ / تموز / ١٩٧٦ .

٦ — تعاونها مع اثيوبيا اثر على نشاط الثورة في ارتيريا واصبح يشكل عائقاً امام استقلالها .

٧ — استطاعت التحالف مع دولة كبرى لها مصالح في المنطقة وربطت وجودها مع وجود الولايات المتحدة الامريكية ، وهذا التحالف امن لها حرية الملاحة في البحر الاحمر خاصة عندما فرض عليها الحصار البحري في باب المندب خلال حرب تشرين ١٩٧٣ وتدخل الولايات المتحدة العسكري والدبلوماسي لفك الحصار عنها .

وفضلا عن المكاسب التي حصلت عليها اسرائيل نتيجة وجودها في المدخل الشمالي والجنوبي للبحر الاحمر فإن اتفاقيات كامب دايفيد (٢٦ / آذار / ١٩٧٩) جاءت لتحقق لها اخطر المكاسب ، فقد اشير صراحة في الفقرة (٢) من الاتفاقية الثانية إلى «حق مرور السفن الاسرائيلية في خليج العقبة وقناة السويس على اساس معاهدة القسطنطينية لعام ١٨٨٨ والتي تنطبق على جميع الدول وتعتبر مضايق تيران وخليج العقبة ممرات مائية دولية ، على ان تفتح امام كافة الدول للملاحة او الطيران دون اعاقة او تعطيل» (٦٠) كما اعطيت اسرائيل حرية الملاحة في البحر الاحمر كله وحق الدخول بالمجال الجوي

فوق خليج العقبة وشرم الشيخ ومضايق تيران وتسيير الدوريات البحرية والجوية .

ويمكن اجمال النتائج التي تمخضت عنها تلك الاتفاقيات :

١ — وضع كافة المواقع المهمة في البحر الاحمر والساحل الشرقي لسيناء تحت اشراف القوات متعددة الجنسية تحت سيطرة الولايات المتحدة وبما ان (اسرائيل) تقع ضمن دائرة النفوذ والتأثير للولايات المتحدة في المنطقة فان لها الحق في الاستفادة من هذه المواقع .

٢ — اعطاء (اسرائيل) حق مرور السفن عبر قناة السويس جعل القوة البحرية الاسرائيلية تجوب البحر الاحمر كله وتستطيع التنقل إلى البحر المتوسط وفعلا تم نقل بعض القطع البحرية الاسرائيلية من البحر المتوسط إلى البحر الاحمر وتعامل هذه القطع عند عبورها القناة معاملة الدول الصديقة .

٣ — عززت الاتفاقيات الوجود الاميركي في البحر الاحمر من اجل مراقبة التزام الطرفين مصر و (اسرائيل) بالاتفاقيات ، الامر الذي عزز الوجود الاسرائيلي في البحر بهدف تحويله إلى بحيرة امريكية صهيونية مشتركة وتجريده من صفته العربية .

ان اتفاقيات كامب دايفيد جاءت ثمرة للاجراءات العسكرية والديبلوماسية الاسرائيلية المنسقة مع الولايات المتحدة الاميريكية لخدمة الستراتيجية في البحر الاحمر واهمها تأمين حركة الاسطول التجاري وكذلك الوسائل العسكرية والبحرية والجوية وضمان امنها المشروط بوجودها في البحر الاحمر ، ومنذ عقد اتفاقيات كامب دايفيد وحتى الآن فان اسرائيل مستمرة في تعزيز وجودها العسكري في البحر الاحمر واضفاء الشرعية عليه في ضوء اقرار تلك الاتفاقيات للمطالب الاسرائيلية (٦١) .

«الخاتمة»

ان نشاط الحركة الصهيونية اقترن منذ البدء بالتخطيط الدقيق لعملية انشاء دولة لليهود على الارض العربية في فلسطين ، واستند زعماء الحركة عند وضع مخططاتهم إلى النظريات الجيوبوليتكية التي تركز على اهمية الموقع الجغرافي وضرورة التحكم في المنافذ المطلة على البحار لضمان وجود الدولة وامنها وان لاتكون معزولة ومحاصرة ومعرضة للضغوط الاقتصادية والسياسية من قبل العرب ، وانطلاقاً من هذا فقد وضعت الصهيونية في مخططها اهمية البحر الاحمر ومداخله .

بعد قيام (اسرائيل) مباشرة (١٩٤٨) نفذت إلى خليج العقبة من خلال ميناء ايلات واستغلت حالة الصراع بينها وبين العرب خاصة مصر للوجود تدريجياً في المدخل الشمالي والجنوبي للبحر الاحمر ، وكذلك الصراع الدولي والمتغيرات في المنطقة من اجل الوجود في البحر كله وجاءت اتفاقيات كامب ديفيد بين مصر و (اسرائيل) عام ١٩٧٩ لتخدم الاهداف الاسرائيلية في البحر الاحمر ومداخله وتضمن لها حق الملاحة واستخدام المجال الجوي حتى عبور قناة السويس باعتبارها من الدول الصديقة .

ان الوضع الذي احدثته اتفاقيات كامب ديفيد وخضوع الوحدات السياسية المطلة على البحر الاحمر لدوائر النفوذ والتأثير الدولي للولايات المتحدة الاميريكية والاتحاد السوفياتي سيمكن (اسرائيل) من تعزيز وجودها في البحر والمحافظة عليه ، الا ان المتغيرات في المنطقة خاصة عودة مصر إلى الصف العربي وقيام الدولة الفلسطينية والتقارب بين الاقطار العربية ونجاح الثورة في ارتيريا ستؤدي إلى زعزعة هذا الوجود مستقبلاً .

الهوامش

(١) انور عبد العليم ، البحار والمحيطات ، مطبعة المصري ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ١٢٦.

(٢) د. حسنى محمد علي الطائي ، البحر الأحمر في الستراتيجية الدولية ، مجلة آفاق عربية العدد ٣ السنة ١٢ آذار ١٩٨٧ ، ص ٣٠ .

(٣) د . حامد سلطان ، المشكلات القانونية المتفرعة على قضية فلسطين ، معهد البحـوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٣٥ .

(٤) عبد الباري عبد الرزاق النجم ، خليج العقبة ومضايق تيران ، مطبعة الجمهورية ، الموصل ١٩٦٨ ، ص ١٢ .

(٥) د. حامد سلطان ، المرجع السابق ، ص ٣٦ .

(٦) للتفصيل عن الجزر في المدخل الجنوبي للبحر الأحمر انظر :

- علي عجيل منهل ، ممرات النفط (جزيرة بريم والأطماع الأمبريالية والصهيونية) مجلة النفط والتنمية ، العدد ٩ السنة ١٩٧٨ ، ص ص ٥١ – ٥٣ ، ص ٥٥ .
- علي عجيل منهل ، ممرات النفط (البحر الأحمر .. والجزر العربية المحتلة) ، مجلة النفط والتنمية العدد ٢ السنة ١٩٧٨ ، ص ص ٥٠ – ٥١ .
- محمد عبد المولى ، حركات التحرر الأفريقية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشـر بيروت ، د . ت ، ص ١٥٩ .

Najid Khadhuri and Herbert Dixon, "Major Middle Eastern Problems International Law" U.S.A. 1972. P. 86.

(٧) انظر :

- عبد الباري عبد الرزاق النجم ، المرجع السابق ، ص ص ١٣ – ١٤ .
- د. ابراهيم قصمي ، تأريخ مصر في عهد الفراعنة ، مكتبة الأنجلو المصريـة ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، – جـ٣ ، ص ص ٦٠ – ٦١ .

(٨) للتفصيل عن ذلك انظر :

- صلاح الدين حافظ ، صراع القوى العظمى حول القرن الأفريقي ، مطبعـة الاتباع ، الكويت ، ١٩٨٢ ، ص ٢٥٦ .
- د. أجيه يونان جرجيس ، البحر الاحمر ومضائقه بين الحق العربي والصراع الدولي ، دار غريب للطباعة ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٣٨ .

(٩) د . حسنى محمد علي الطائي ، المرجع السابق ، ص ٣١ .

(١٠) المرجع نفسه .

(١١) محمد عبد المجيد حسون ، ستراتيجية صراع القوى الكبرى في الوطن العربي ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٨٢ ، ص ١٠ .

(١٢) للتفصيل عن ذلك انظر :
أمين هويدي ، البحر الاحمر والامن العربي ، الاهمية الستراتيجية ، مجلة المستقبل العربي مركز دراسات الوحدة العربية ، العدد ١١ ، السنة الثانية ، ك ٢ / ١٩٨٠ ، ص ص٢٣ — ٢٦ .

(١٣) د. حسني محمد علي الطائي ، المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(١٤) أمين هويدي ، المرجع السابق ، ص ٢٦ .

(١٥) حلمي عبد الكريم الزعبي ، الاستراتيجية الصهيونية للسيطرة على البحر الأحمر في الماضي والحاضر والمستقبل ، مجلة شؤون عربية ، العدد ٤٧ ايلول / ١٩٨٦ . ص١٨٩.

(١٦) القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني ، قيادة الجيش اللبناني ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ٤٩٧ ، ص ٥٠٠

(١٧) د. حامد سلطان ، المرجع السابق ، ص ص ٤٢ — ٤٣ .

(١٨) المرجع نفسه ، ص ٤٣ .

(١٩) للتفصيل عن التكييف السليم للمركز القانوني لخليج العقبة ومضيق تيران والوجود العسكري الاسرائيلي على شاطئ الخليج انظر ، المرجع نفسه ، ص ص ٥٠ — ٥٣ .

(٢٠) للتفصيل عن ذلك انظر :
— المرجع نفسه ، ص ص ٤٣ — ٤٥ .
— حلمي عبد الكريم الزعبي ، المرجع السابق ، ص ص ١٩٤ — ١٩٥ .

(٢١) علي عجيل منهل ، ممرات النفط (قناة السويس واتفاقية كامب دايفيد) ، مجلة النفط والتنمية ، العدد ٥ ، شباط /١٩٧٩ ، ص ص ٧٦ — ٧٧ .

(٢٢) المرجع نفسه .

(٢٣) د. حامد سلطان ، المرجع السابق ، ص ٤٧ .

(٢٤) اللواء . محمد كمال عبد الحميد ، أمن الخليج وأمن البحر الأحمر .مجلة الهلال المصرية تموز ، ١٩٧٧ ، ص ١٤ .

(٢٥) وردت هذه الشروط بالخطابات التي ارسلها ألمندوب الدائم ل (اسرائيل) لدى الأمم المتحدة في (٤ ، ٥ ، ٦ ، ١٠ ، ٢٥ / شباط / ١٩٥٧) انظر :
د. حامد سلطان ، المرجع السابق ، ص ٤٨ .

(٢٦) المرجع نفسه ، ص ٤٩ .

(٢٧) د. جورج طعمة ، القضية الفلسطينية والصراع العربي الأسرائيلي في الأمم المتحدة ١٩٧٤ — ٦٥ ، مجلة شؤون فلسطينية ، العدد ٤١ ، ٤٢ ، شباط ١٩٧٥ ، ص ١٢٢ .

(٢٨) كمال سعد ، ماذا حدث عند اغلاق باب المندب ، مجلة قضايا عربية ، العدد ٧ ، ٨ السنة ١٩٧٥ ، ص ١٦٤

(٢٩) د. حامد سلطان ، المرجع السابق ، ص ٥٤ .

(٣٠) علي عجيل منهل ، قناة السويس واتفاقيات كامب ديفيد ، المرجع السابق ، ص ٨٠ .

(٣١) المرجع نفسه .

(٣٢) سهيل الناطور ، التمثيل الدبلوماسي الاسرائيلي ١٩٦٥ – ١٩٧٥ ، مجلة شؤون فلسطينية ، العدد ٤١ – ٤٢ ، ك ٢ ، شباط ١٩٧٥ ، ص ص ٢٨٨ – ٢٨٩ .

(٣٣) د. غسان عطية . ابعاد التحرك الاسرائيلي في افريقيا ، مجلة شؤون فلسطينية ، العدد ١٣ ايلول ١٩٧٢ ، ص ٣٢ .

(٣٤) محمد نعمان كنعاني ، اسرائيل واوغندة ، مجلة شؤون فلسطينية ، العدد ١٨ شباط ١٩٧٣ ص ١٠٥ .

(٣٥) د. محمد احمد صقر . دراسات في الأقتصاد الاسرائيلي ، معهد البحوث والدراسات العربية . القاهرة ١٩٧٥ . ص ٥١ .

(٣٦) المرجع نفسه .

(٣٧) د. عبد الحميد القيسي ، عبد علي الخفاف . البحر الاحمر (اهميته الأقتصادية والأستراتيجية ، مركز دراسات الخليج العربي ، جامعة البصرة ١٩٨٦ . ص ص ٩٨ – ٩٩ .

(٣٨) علي نعمة الحلو ، الوجود الأمريكي الصهيوني في البحر الأحمر . النجف ، ١٩٧٤ . ص ص ٤٥ – ٤٦ .

(٣٩) د. عبد الحميد القيسي ، المرجع السابق ، ص ص ٩٨ – ٩٩ .

(٤٠) ممتاز العارف ، الأحباش بين مأرب وأكسوم ، بيروت ١٩٧٥ ، ص ص ١٥ – ١٦ ، ٤٨ – ٤٩ .

– د. أحمد ابراهيم ذياب ، البحر الأحمر والأطماع الأثيوبية الصهيونية ، مركز الدراسات الفلسطينية ، جامعة بغداد ، ١٩٨٦ ، ص ٥ .

(٤١) جان مارك بروس – تورنيه ، مستقبل النظام الأثيوبي من خلال ثورة ارتيريا المسلحة مجلة الصياد (ملف خاص عن الثورة الأرترية) العدد ١٥٥٨ (تموز ، آب ٧٤ ١٩) ، ص ٧١ .

(٤٢) د. احمد ابراهيم ذياب ، المرجع السابق ، ص ص ٥ – ٨ .

(٤٣) د. غسان العطية ، المرجع السابق ، ص ٣٤ .

(٤٤) محمد علي العويني ، سياسة اسرائيل الخارجية في افريقيا ، المطبعة الفنية الحديثة ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ص ٢٢١ – ٢٢٣ .

(٤٥) د . عبد الحميد القيسي ، المرجع السابق ، ص ص ١٠٤ – ١٠٥ ، د. حسني محمد علي الطائي ، المرجع السابق ، ص ٣٤ .

(٤٦) جان مارك بروس ، المرجع السابق ، ص ٧١ .
(٤٧) د. غسان عطية ، المرجع السابق ، ص ٣٤ .
(٤٨) للتفصيل عن ثورة ارتيريا ، انظر :
محمد عبد المولى ، المرجع السابق ، ص ص ٨٣ — ١٠٢ .
وللتفصيل عن ارتيريا والاستعمار الايطالي ، انظر :
د. السيد رجب حراز ، ارتيريا الحديثة ١٥٥٧ — ١٩٤١ . معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ص ١١٤ — ٢٣٤ .
(٤٩) دومنيكو ساسول ، ارتيريا جزائر جديدة ، مكتب جبهة التحرير الارتيرية ، دمشق ١٩٦٧ ص ص ٦ — ٩ .
(٥٠) ملف خاص عن الثورة الأرتيرية (ارتيريا ، فلسطين اخرى على ساحل البحر الأحمر). المرجع السابق ، ص ٤٨ .
(٥١) د. غسان عطية ، المرجع السابق ، ص ص ٣٤ — ٣٥ .
(٥٢) انظر :
— علي عجيل منهل ، (البحر الأحمر والجزر العربية المحتلة) ، المرجع السابق ، ص ٥٠ .
— محمد عبد المولى ، المرجع السابق ، ص ١٥٤ .
(٥٣) جون ديوك انطوان ، البحر الأحمر والسيطرة على مدخله الجنوبي ، مجلة دراسات في الخليج والجزيرة العربية ، الكويت ، العدد ٥ ، ١٩٧٦ ، ص ٩٢ .
(٥٤) محمد عبد المولى ، المرجع السابق ، ص ١٥٣ .
(٥٥) لتفصيل انظر المرجع نفسه ، ص ص ١٥٣ — ١٥٤ .
(٥٦) المرجع نفسه ، ص ١٥٧ .
(٥٧) علي عجيل منهل ، (جزيرة بريم والاطماع الأمبريالية والصهيونية) المرجع السابق ، ص ٥٤ .
(٥٨) علي عجيل منهل ، (البحر الاحمر والجزر العربية المحتلة)، المرجع السابق ص ٥٠
(٥٩) علي عجيل منهل ، (جزيرة بريم ...) المرجع السابق ، ص ص ٥٤ — ٥٥ .
ود . عبد الحميد القيسي ، المرجع السابق ، ص ٩٩ .
(٦٠) علي عجيل منهل ، قناة السويس واتفاقيات كامب ديفيد ، المرجع السابق ، ص ٨٠ .
(٦١) حلمي عبد الكريم الزعبي ، المرجع السابق ، ص ص ٢٠٣ — ٢٠٤ .

دوافع قريش لرفض دعوة الرسول (ص) وقبول الاوس والخزرج لها

رياض هاشم هادي
مدرس
مركز الدراسات التركية

قبل الدخول في معالجة الدوافع التي حالت دون دخول رجال الملأ في مكة في الاسلام على الرغم من ان الرسول (ص) من قريش وقبول الأوس والخزرج لها وهم لاينتمون من حيث الانتماء القبلي الى اي من القبائل القرشية ان نقدم نبذة موجزة عن طبوغرافية كل من مكة ويثرب ثم عرضاً لاحوالهما الأقتصادية والأجتماعية والسياسية .

تقع مدينة مكة في واد منبسط غير ذي زرع ، تحيط به الجبال من كل الجوانب في وسط بلاد الحجاز ، وقد ساعد على نشأة الحياة في هذه المدينة وجود بعض الابار فيها وابرزها بئر زمزم ، لقد عاشت مكة في ظل مناخ صحراوي حار ، ولم تكن تسقط فيها الامطار الا قليلا وبصورة غير منتظمة في فصل الشتاء واوائل الربيع ، وكان طبيعيا الا تساعد هذه النسبة من الأمطار على نشأة الزراعة في مكة (١) . لذا فقد عرفت بأنها واد « غير ذي زرع » (٢). لولا ان الطبيعة حبتها ببعض المياه الجوفية التي يمكن استخراجها من خلال حفر الابار فيها ، لذا عرف عن اهلها عنايتهم الكبيرة بحفر الابار حتى غدا مظهراً من مظاهر الشرف والرئاسة فيها ، ووجود هذه النسبة من المياه ساعد على ظهور بعض النباتات والأعشاب البرية خلال مدة قصيرة من السنة، مما يوفر بعض الكلأ لرعي المواشي .

(١) الملاح : ———— هاشم يحيى : الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة ، جامعة الموصل ، ١٩٩١ ، ص ٢١ .
(٢) انظر سورة ابراهيم ، الآية : ٣٧ .

كما اصبح لمكة مركزها الديني لوقوع المسجد الحرام فيها ومحطة تجارية حيث توسطها لطريق التجارة المار من اليمن الى الشام (لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف) ، وزعامة سياسية قوية متمثلة بقريش .

تمتعت مكة بأستقرار سياسي ووحدة في اتخاذ القرار ، منذ بناء دار الندوة الذي حرص قصي بن كلاب على جعل بابه الى المسجد الحرام من اجل منح هذه الدار وما يدور فيها من امور نوعاً من الحرمة والقدسية فكانت هذه الدار بمثابة دار حكومة تدار فيها الامور العامة والخاصة لقريش، كما كان يتم في دار الندوة الأعلان عن بلوغ ابناء القبيلة وبناتها سن الرشد وكانت هذه الدار المركز الوحيد في مكة لادارة الأمور السياسية والأقتصادية والدينية (١) .

لقد ساعدت هذه العوامل زعماء قريش على اقامة علاقات تجارية مع القبائل العربية في الجزيرة واطرافها والدول المجاورة لها فكانت النتيجة هي استثمارهم لمركز مكة الديني بين العرب ، حيث الكعبة بيت الله الحرام، الذي يحج اليه العرب من مختلف انحاء الجزيرة العربية للتبرك ولتقديم النذور والقرابين .

كانت القبائل العربية تنظر الى قريش نظرة اكبار واجلال ، فيعدونهم اهل الله وحماة بيته المقدس، الأمر الذي سهل على قريش عقد احلاف تجارية مع القبائل التي تقع مواطنها على طرق القوافل التجارية لضمان سلامة هذه القوافل من الأعتداءات التي قد تتعرض لها .

وهكذا استطاعت مكة منذ اواخر القرن الخامس الميلادي ان تتحول إلى مركز روحي وثقافي للعرب بسبب ضعف وتلاشي تأثير دول الاطراف في اليمن والعراق والشام بسبب التسلط الاجنبي (٢) .

---

(١) للمزيد انظر : الملاح : الوسيط ، ص ٢٣ .
(٢) الملاح : ——— : هاشم : المرجع السابق ، ص ٦٣-٦٥ .

كما نجح المكيون إلى حد كبير في اجتذاب الناس إلى مكة لغرض التجارة والحج من خلال عهود الايلاف. وتأمين حياة الناس واموالهم خلال الاشهر الحرام ، وجعل مكة حرماً آمناً : وعليه ازدهرت اسواق مكة الموسمية مثل سوق عكاظ ومجنة وذى مجاز (١) وشهدت هذه الاسواق مختلف اشكال المناظرات والمساجلات بين ممثلي القبائل من زعماء وشعراء وغيرهم كما غدا انعقاد هذه الاسواق مناسبة للتحكيم وحل المنازعات بين المتخاصمين فضلاً عن عقد المحالفات السياسية بين القبائل العربية وممارسة بعض النشاطات التجارية (٢) .وكان للاحلاف القرشية مغزى اخر . ان هذه الاحلاف شجعت ابناء القبائل العربية على الاشتراك في المعاملات التجارية مع اهل مكة ، وانهم

---

(١) راجع: ضيف : شوقي : العصر الجاهلي ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧١، ص٥٠ وما بعدها .

(٢) ضيف شوقي : نفس المرجع ، ص ٦٥ - ١٣٢ .

الايلاف : او الامان او العصام، او الحبل «وكلها تعني الاحلاف والاتفاقات والعهود وذكر ابن حبيب : ان قريشاً كانت تجاراً وكانت تجاراتهم لا تعدو مكة ،انما يتقدم عليه الاعاجم بالسلع فيشترون منهم ثم يبادلونه بينهم ويبيعون من حولهم من العرب ، فكانت تجاراتهم كذلك حتى ركب هاشم بن عبد مناف الى الشام فنزل قيصر .... فلما رأى مكانه منه قال له هاشم: ايها الملك ان لي قوماً وهم تجار للعرب فان رأيت ان تكتب لهم كتاباً تؤمنهم وتؤمن تجاراتهم فيقدمون عليك بما يستظرف من ادم الحجاز وثيابه فيكونوا يبيعونه عندكم فهو ارخص عليكم فكتب له كتاباً بأمان من اتى منهم ، فاقبل هاشم بذلك الكتاب فجعل كلما مر بحي من العرب بطريق الشام أخذمن اشرافهم ايلافاً .والايلاف ان يأمنوا عندهم في ارضهم بغير حلف وانما هو امان الناس وعلى ان قريشاً تحمل لهم بضائع فيكفونهم حملانها ويردون اليهم رأسمالهم وربحهم فأخذ هاشم الايلاف ممن بينه وبين الشام حتى قدم مكة فأتاهم بأعظم شيء اتوا به فخرجوا بتجارة عظيمة.ثم ان هاشماً ارسل اخاه عبد شمس فأخذ لهم عصما من صاحب الحبشة واليه كان متجره.واخذ لهم المطلب بن عبدمناف عصما من ملوك اليمن واخذ لهم نوفل بن عبدمناف عصما من ملوك العراق وفارس . فألفوا الرحلتين في الشتاء الى اليمن والحبشة والعراق ، وفي الصيف الى الشام» .

للمزيد : انظر :ابن حبيب : محمد بن حبيب بن امية البغدادي : المنمق في اخبار قريش تصحيح : خورشيد احمد فاروق ، ط ، دائرة المعارف العثمانية، الهند ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م ، ص ٣١ -٣٣ ، وانظركذلك البلاذري : احمد بن يحيى : انساب الاشراف : تحقيق: ماكس شياصنك ، مطبعة القدس ، ١٩٧١.ط ١ ص ٥٩؛ كستر برقسور ب ج: الحيرة ومكة : ترجمة:يحيى الجبوري د/ط ، دار الحرية ، بغداد ، ١٩٧٦ . ، ص ٧١ .

كانوا يستطيعون التعامل على قدم المساواة معهم وكان يرحب بهم (١) في مكة دائماً وبمقدورهم دخولها من غير خوف على الاطلاق وعلى خلاف وضعيتهم مع حكام الحيرة (٢) او غيرهم من الحكام في الجزيرة والشام .

أما مدينة يثرب فهي تقع الى الشمال من مكة على مسافة تقدر بحدود ثلاثمائة ميل تقريباً .(٣) وتشغل المدينة مساحة من الأرض يبلغ طولها حوالي إثنـي عشر ميلا وعرضها حوالي عشرة أميال . وهي تقع بين جبل أحد شمالا وجبل عير جنوباً . ويخترق المدينة وادي بطحان الذي يجري من الجنوب الشرقـي الى الشمال الغربي ثم يجتمع في وادي العقيق . وتصب في وادي بطحان عدة وديان فرعية تجري من الجنوب ، وأهمها رانونا ومذينب ومهزوز ، وتروى المياه التي تجري في هذه الوديان عدداً من المزارع الكثيرة (٤) .

وساعدت خصوبة الأرض وتوافر المياه التي تجري في الوديان أو التي يتـم الحصول عليها من الآبار أهل المدينة على الإشتغال في الزراعة والإقامة فـي مواضع متباعدة من أجل إنشاء المزارع قرب مصادر المياه التي تجري في وديان المدينة أو شعابها . لذا نجد أن المدينة تتألف مثل مكة من شعاب تسكنها بطون الأوس والخزرج : أي أن الأوس في شعاب والخزرج في شعاب ، واليهود في شعاب ، وفي كل من هذه الشعاب توجد بساتين صغيرة وفي كل بستان يوجد بئر يستقون منها للشرب وللسقي وللغسل (٥) .

---

(١) الملاح : الوسيط ، ص ٢٣ .

(٢) كستر : نفس المكان .

(٣) الملاح : الوسيط ، ص ٣٣ .

(٤) علي : جواد: المفصل في تأريخ العرب قبل الاسلام: دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٧، ج ٤ ، ص ١٣١ .

(٥) السمهودي: نور الدين: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، ط ١، مطبعة الاداب، مصر ، ١٣٢٦هـ ، ج١ ، ص ١٣٩ وانظر كذلك .
ياقوت : شهاب الدين الحموي : معجم البلدان ، د/ط، دار صادر ، بيروت ١٩٥٧م، ج ٥، ص٨٤ وانظر كذلك ولفنسون: اسرائيل: تاريخ اليهود، ترجمة لجنة التأليف والترجمة د/ط في مطبعة الاعتماد ، مصر ١٩١٤م ، ص ١١٦ .

اما مناخ المدينة بسبب توافر المياه التي ساعدت على زراعة البساتين والحدائق فيها فهو افضل من مناخ مكة الجاف وهذا مما ترك اثراً واضحاً في طباع اهل المدينة فجعلهم الين عريكة واشرح صدراً من غيرهم (١) .

يتألف سكان يثرب قبل الاسلام من قبيلتي الاوس والخزرج ويهود بني قريظة والنضير وقينقاع . فسكن الاوس وهم اقل عدداً من الخزرج منطقة العالية من يثرب الجيدة التربة الوافرة المياه وسكن الخزرج وهم الاكثر عدداً منطقة السافلة من يثرب وهي اقل جودة ومياهاً (٢) . وسكن يهود بني قريظة والنضير في ضواحي يثرب (٣) .

عمل الاوس والخزرج ويهود بني قريظة والنضير في الزراعة اما يهود بني قينقاع فقد احترف معظمهم بعض الحرف اليدوية كالصياغة وتعاطي التجارة . وهكذا يظهر ان اغلبية اهل المدينة كانوا يعملون في مجال الزراعة (٤) .

وتمثلت الزراعة في يثرب بصورة رئيسة بمزارع النخيل التي كان محصولها يكفي لسد احتياجات اهل المدينة من الغذاء (٥) ، والفائض منه يباع في اسواقها (٦) .

---

(1) Taylor : John. B. The world of Islam. Friend shippress, Inc. New York, 1979. P. 20- 22

(٢) للمزيد انظر النعيمي : رياض هاشم : دور الأنصار السياسي في بناء الدولة العربية (رسالة ماجستير غير منشورة) كلية الآداب ، جامعة الموصل ، ١٩٨٦ ، ص ٧١ وما بعدها .

(٣) ابن النجار : أبو عبد الله : أخبار مدينة الرسول « الدرة الثمينة من أخبار المدينة » منشور ضمن كتاب شفاء الغرام ، لابي الطيب تقي الدين الفاسي) د / ط ، مكتبة النهضة الحديثة ، مكة ، ١٩٥٦ ج ٢ ، ص ٣٢٧ .

(٤) الملاح ، الوسيط ، ص ٣٤ .

(٥) البخاري : أبو عبد الله : صحيح البخاري : تقديم وتعليق : محمود النواوي ، الفجالة مصر ، ١٩٧٦ ج ٣ ، ص ١٥٣ — ١٥٤ .

(٦) ابن عبد البر : أبو عمر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب : تحقيق : على محمد البخاري د / ط ، مكتبة النهضة ، بمصر ، القاهرة د / ت ، ج ١ ب ص ٣٤ .

الا ان الانتاج الزراعي كان قاصراً عن تلبية حاجات سكان مدينة يثرب ولا سيما قبل هجرة الرسول (ص) اليها . مما حملهم على جلب العديد من الحاصلات الزراعية كالحنطة وغيرها (١) من خارج مدينة يثرب .

وقد قام في مدينة يثرب فضلا عن النشاط الزراعي والصناعي نشاط تجاري واضح اذ كان من الضروري ان يقوم المزارعون ببيع الفائض من حاصلاتهم الزراعية في السوق من اجل شراء احتياجاتهم من السلع والمواد الغذائية التي يحتاجونها (٢) .

ومن الناحية السياسية لم يكن بوسع الاوس والخزرج ان ينشئوا لهم سلطة موحدة تمكنهم من تنظيم انفسهم وتدبير شؤون مدينتهم ، كما فعل رجال الملأ في مكة وذلك لان سكان يثرب لم يكونوا ينتمون إلى قبيلة واحدة كما كان الامر بالنسبة لاهل مكة ، بل كانوا يتألفون من خمس قبائل : اثنتان منها عربية وثلاث يهودية ولم تكن العلاقات بين هذه القبائل علاقات ود ووئام بسبب تناقض المصالح الاقتصادية ولا سيما سيطرة الاوس وهم الاقل عدداً على العالية من يثرب . وسيطرة الخزرج وهم الاكثر عدداً على منطقة السافلة من يثرب ، فضلا عن حدة العصبية القبلية المتناقضة (٣) .

فقد حفلت المصادر التاريخية بأخبار الصراعات والحروب التي كانت تنشب بين القبائل اليهودية أو بين القبائل اليهودية والأوس والخزرج في أحيان أخرى،

---

(١) مالك بن أنس : الموطأ : تقديم : فاروق سعد ، ط ١ دار الآفاق الجديدة : بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٥٣٦ .

(٢) راجع : السمهودي : المصدر السابق ، ط ١ ، ص ٥٣٩ - ٥٤٠ ، ج ٢ ، ص ٣٢٥. وكذلك انظر الشريف : أحمد ابراهيم : مكة والمدينة ، ط ٢ : دار الفكر العربي ، مصر ، ١٩٦٥ ، ص ٣٦٥ .

(٣) كرنكوف : الخزرج (دائرة المعارف الإسلامية) مجلد ٨ ، ص ٣١٢ وانظر كذلك الملاح : هاشم يحيى : المنافقون في مدينة الرسول (مجلة كلية الدراسات الإسلامية) العدد ٥ ، بغداد ، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م ص ٤٧٢ .

أو بين الأوس والخزرج أنفسهم كما حصل في بعاث قبل هجرة الرسول (ص) الى المدينة بخمس سنين (١) .

كان الطابع العام الذي يطبع علاقات الأوس والخزرج من جهة واليهود من جهة أخرى هو فقدان الثقة المتبادلة بينهم (٢) . لذا عهد كل بطن أو عشيرة منهم الى العيش في دائرة منفصلة عن بعضها البعض وكان زعماء هذه البطون يشيدون لانفسهم قلاعاً للإستفادة منها في تخزين الموءن والأعتدة الحربية وإستخدامها في أوقات الحروب طالما كانت هذه الحروب كثيرة وقائمة بين الحين والاخر (٣) وهذا يفسر أسباب فشل سكان يثرب من الأوس والخزرج واليهود من تكوين(دولة المدينة)لهم، على غرار ما فعل أهل مكة على الرغم من أن عدد سكان يثرب بفئاتها المتعددة يفوق عدد أهل مكة كثيراً وان أرض يثرب كانت أفضل من أرض مكة من حيث الخصوبة وتدفق المياه .

إن عجز أهل يثرب عن تكوين حكومة ملأ أو مجلس ملأ يمثل مجموع القبائل الساكنة بها ، تستطيع الإتفاق على حد أدنى من النظام الذي يضمن سيادة الأمن والإستقرار في مدينة يثرب . هو الذي حال دون نشوء دولة مدينة في يثرب .

وكان يهود المدينة يمثلون بالنسبة للاوس والخزرج تحدياً عقائدياً وسياسياً من خلال تهديدهم لهم بصورة مستمرة في كل مناسبة بقرب ظهور نبي من بني اسرائيل وانهم سيتبعونه ويقاتلون به العرب (٤) .

---

(١) الشريف : المرجع السابق ، ص ٣١٥ – ٣٢٣ ، وانظر كذلك : ماجد : عبد المنعم التاريخ السياسي للدولة العربية ، ط ٤ ، مطبعة الانجلو المصرية ، القاهره ١٩٦٧ . ج ١ ، ص ١٠٧ وما بعدها .

(٢) الملاح : الوسيط ، ٢٣ .

(٣) ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين : لسان العرب ، د / ط ، دار صادر، بيروت ، ١٩٥٦ ، ١٣٧٥ ﻫ ، ج ١٢ ، ص ١٩ ، السمهودي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١١٦ .

(٤) ابن هشام : أبو محمد عبد الله : سيرة النبي : تحقيق : محمد محي الدين ، د / ط ، دار الفكر ، بيروت ، ج ٢ ، ص ٣٨ .

بعد هذه المقدمة الموجزة عن احوال مكة ويثرب ، يمكن القول اذن ان رجال الملأ في مكة ادركوا ان الايمان بعقيدة التوحيد التي جاء بها محمد (ص) قد يكلفهم كثيراً من الامتيازات (١) . فلقد كانت مكة عند ظهور الاسلام مركز العبادة الوثنية في شبه الجزيرة العربية ، وكان مشركو العرب يحجون اليها في موسم معين من السنة لتقديم النذور والقرابين لاصنامهم ولاداء مناسك الحج ، لذا فقد خشي زعماء مكة ان تفقد مدينتهم مركزها الديني المتميز في حالة انتشار عقيدة التوحيد خاصة ان مناسك الحج الاسلامي إلى مكة لم تفرض الا في مرحلة متأخرة من الفترة المدنية .

كان موسم الحج الوثني بالنسبة لزعماء مكة ذا فائدة اقتصادية واجتماعية لكثير من افراد الاسر القرشية الذين يشرفون على تنظيم عبادة الاصنام (٢) ، واقامة مناسك الحج . وهو بالنسبة لهم مناسبة طيبة لانتعاش المبادلات التجارية وتحقيق ارباح كبيرة لاهل مكة ولاسيما رجال الملأ المكيين — وهم في العادة ممثلو الوظائف الدينية والمدنية ، التي استحدثها قصي ، واستمر العمل بها حتى فتح مكة — فقد رأوا ان تحولهم من الشرك إلى التوحيد قد يقضي على هذا الموسم وهذه المكانة الرفيعة ويصيب مصالحهم التجارية بالكساد (٣) .

كانت اغلب القبائل العربية تعامل اهل مكة بصورة متميزة عن غيرهم لانهم حماة بيت الله الحرام والقائمون على رعاية الاماكن المقدسة ، ومن ثم فقد منحت قوافلهم التجارية الحماية والامان ، لذا مكنهم من التجارة بين اليمن

---

(١) الملاح : هاشم يحيى : دور العقيدة الاسلامية في تحقيق وحدة العرب الأولى ، مجلة اداب المستنصرية ، العدد الثامن ، بغداد ، ١٩٨٤) ص ٦٢٧ .

(٢) الأصنام : ظهرت عبادة الأصنام والأوثان وهي ما يكون على صورة التماثيل وبعضها يرمز الى آلهة يونانية ، فلعل هذه العبادة جاءت من الشام أو أنها اخذت من بني اسرائيل الذين كانوا يعبدون الأصنام من وقت لاخر ، فلكل جماعة بدوية صنم أو وثن ، مثل يعوق والعزى ويغوث . واللات وود ومناة . الصنم يكون على صورة إنسان من خشب أو ذهب أو فضة ، الوثن ، يكون من حجر : انظر ابن الكلبي : الأصنام : تحقيق : زكي باشا القاهرة ، ١٩١٤ ، ص ٨ وما بعدها .

(٣) الملاح : دور العقيدة ، ص ٦٣٨ .

والعراق والشام بحرية ، وكان من شأن تحول اهل مكة عن عبادة الاوثان ان يؤدي إلى نشوب المنازعات بينهم وبين القبائل العربية المشتركة فيما ينفقدهم المعاملة المتميزة التي كانوا يحظون بها والامان الذي كانت تتمتع به قوافلهم التجارية (١) .

وقد اشار القرآن الكريم إلى الامان والرفاهية التي كان يوفرها البيت الحرام لقريش ، : «او لم يروا انا جعلنا حرماً امناً ويتخطف الناس من حولهم» (٢). لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي اطعمهم من جوع وامنهم من خوف» (٣) . كما نقل القرآن تخوف المشركين من ان قبولهم قد يؤدي بهم إلى فقدان الامان الذي كانوا يتمتعون به من قبل في ظل العقيدة الوثنية . وقالوا : «ان نتبع الهدى معك نتخطف من ارضنا» (٤).

من هنا نلاحظ ان خوف رجال الملأ في مكة من اعتناقهم الاسلام راجع إلى شعورهم بأن مكانتهم الحالية نابعة من هيمنتهم على قدسية مكة ورعاية احوالها الدينية والاقتصادية وما يتعلق بها من اصنام واوثان حيث ان لكل قبيلة في مكة وحول الكعبة صنماً او وثناً تعبده وتتقرب اليه في كل سنة ومن المؤكد ، ان الملأ من قريش الذين كانت مصالحهم مرتبطة بالعبادة في المعابد الخاصة ، وقد وجدوا انفسهم تحت وابل الهجوم على عبادة الاصنام ، فلم يعجبهم ذلك (٥) . وتذكر المصادر التاريخية ان الاوثان والاصنام والصور التي كانت منصوبة حول الكعبة وفي داخلها ما يزيد عددها عن ثلاثمائة (٦) .

---

(١) النعيمي : رياض هاشم : نفس المرجع ، ص ٨٠ وما بعدها .
(٢) القرآن سورة : القصص الآية : ٥٨ .
(٣) القرآن سورة : قريش : ١ – ٤ .
(٤) القرآن سورة : القصص الآية : ٥٧ – ٥٨ .
(٥) وات مونتجمري : محمد في مكة : ترجمة : شعبان بركات ، د/ط ، المكتبة المصرية ، ١٩٥٢ ص ١٥١ .
(٦) ابن هشام : المصدر السابق ج٢، ص ٣٢ – ٣٧ ، وانظر : كذلك المقريزي : تقي الدين : امتاع الاسماع بما للرسول من الابناء والاموال والحفدة والمتاع : تصحيح محمود محمد شاكر د/ط ، القاهرة ، (٩٤) ، ج١ ، ص ٣٨٢ – ٣٨٤ .

وكانت قريش تبعاً لذلك لاتفضي امراً الا في دار الندوة فهي اشبه بمجلس الشيوخ ، تجري فيها المناقشات والمباحثات في الامور المهمة (١).

وعليه نجد ان فكرة الدعوة التي جاء بها الرسول (ص) كانت تشكل في حقيقتها ثورة على النظام السياسي القبلي السائد آنذاك ، ومن هنا نجد انه كان اشبه بالمستحيل ان يؤمن رجال الملأ برسالة الاسلام التي جاء بها محمد (ص) لأن مقتضيات هذا الايمان كانت تكلفهم كثيراً ،فلا غرابة ان يتشبثوا بشتى الحجج والوسائل في معارضتهم للدعوة (٢) . ويبدو ان اصرار رفض قريش لدعوة الرسول (ص) فضلا عما سبق عرضه معزو الى بعد ادبي لاسيما ان القرآن الكريم هاجم عبادة الأصنام هجوماً شديداً واكد ان مصير الاجداد والاباء هو النار ، ويرتبط احترام الأجداد والاباء ارتباطاً وثيقاً بتقديس العادات والتقاليد القديمة .

«وان تعجب فعجب قولهم إذا كنا ترابا أءنا لفي خلق جديد اولئك الذين كفروا بربهم واولئك الاغلال في اعناقهم واولئك اصحاب النار هم فيها خالدون » ... (٣)

«وادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين » ... (٤)

« نحشرهم يوم القيامة على وجوهم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا ، ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أإذا كنا عظاماً ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً » (٥) .

ولكن هل العاملان الاقتصادي والديني هما اللذان حملا رجال الملأ المكيين ومن شايعهم على معارضة دعوة الرسول (ص) للأسلام ، أو ثمة عوامل سياسية وأجتماعية وادبية كانت تقف الى جانب ذينك العاملين ؟

---

(١) العلي : صالح احمد: محاضرات في تاريخ العرب ،ط٢ ، مطبعة جامعة الموصل ،١٩٨١ ج١،
(٢) الملاح : دور العقيدة ، ص ٦٣٨ .
(٣) القرآن الكريم : سورة الرعد : الاية — ٥ .
(٤) القرآن الكريم : سورة النحل : الاية — ٢٩ .
(٥) القرآن الكريم : سورة الاسراء : الاية ٩٧—٩٨ .

لو ذهب بنا الظن الى ان معارضة قريش لدعوة الرسول (ص) معزوة الى العاملين الديني والاقتصادي فحسب لكان ايجاد تسويات أو حلول وسط أمراً ممكناً يسمح للرسول (ص) بالمضي في دعوته بين العرب مع بقاء قريش على دينها(١) . وحاولت قريش فعلا مساومة الرسول (ص) ، أو ايجاد حل وسط معه ، فأرسلت له أحد زعمائها النضر بن الحارث ، ألا أن الرسول (ص) كلمه حتى أفهمه (٢) ، وحاول المشركون مجدداً مع الرسول (ص) (٣) ، فقالوا له ، وكان يطوف في الكعبة : « يامحمد، هلم ، فلنعبد ماتعبد ، فنشترك نحن وانت في الأمر فأن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد اخذنا بحصتنا منه ، وأن كان ما نعبد خيراً مما تعبد، كنت قد اخذت منه بحظك منه (٤) ، فأنزل الله تعالى « قل يا أيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون ، ولاأنتم عابدون ما اعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ،ولاأنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم ولي ديني » (٥) .

ولم يكف مشركو مكة عن مساومة الرسول (ص) على عقيدته من خلال تقديم بعض الامتيازات المادية والسياسية له ، بعد ان شعروا ان وسائل الضغط الأجتماعي والأقتصادي لم تعد تجدي في حمل الرسول (ص) على تغيير موقفه او التخلي عن دعوته ،(٦) وذكر لنا أبن أسحاق ان رجال الملأ من قريش اجتمعوا ... بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، فقال بعضهم لبعض : أبعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه ، فبعثوا اليه ، إن اشراف قومك قد أجتمعوا لك ليكلموك ، فجاءهم الرسول (ص) سريعاً وهو يظن أن قد بدا لهم في أمره بدأ وكان عليهم حريصاً يصب رشدهم،

---

(١) الملاح : نفس المكان .
(٢) ابن هشام : نفس المصدر ، ق ١ ، ص ٣٥٨ -- ٣٥٩ .
(٣) أبن هشام : نفس المصدر ، ق ١ ، ص ٣٦٢ .
(٤) نفس المصدر والمكان .
(٥) القرآن الكريم سورة الكافرون : ١-٦ .
(٦) الملاح : هاشم : الوسيط ، ص ١٥٧ وما بعدها .
وانظر كذلك : داويدار : اسماعيل : صور من حياة الرسول (ص) ص ١٧١ وكذلك العلي : صالح أحمد : المرجع السابق ، ص ٣٤٣ ، وما بعدها .

ويعز عليه عنتهم ، حتى جلس اليهم ، فقالوا له : يامحمد ، قد بعثنا اليك ، لنعذر فيك .وانا والله ما نعلم رجلا من العرب ادخل على قومه مـاأدخلـت على قومك ، ولقد شتمت الأباء وعبت الدين ، وسفهت الأحلام، وشتمت الاله وفرقت الجماعة ،فما بقى امر قبيح الا قد جئته فيما بينا وبينك . فـأن كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت انما تطلب به شرفاً فينا ، سودناك علينا، وان كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ،وان كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك به رئي تراه قد غلب عليك ، فربما كان ذلك ، بذلنا اموالنا في طلب الطب لك حتـــى نبرئك منه او فعذر فيك ،فقال رسول الله (ص) : ما أدري ما تقولون : ما جئتكم به لطلب اموالكم ، ولا الشرف فيكم ،ولا الملك عليكم ، ولكـن الله بعثني اليكم رسولا ، وأنزل عليّ كتابا ، وأمرني ان اكون لكم بشيـــراً ونذيراً فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ، فأن تقبلوا مني ماجئتكم به فهو حظكم في الدنيا والأخرة .وان تردوا علي اصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم (١) .

وعليه أفصح عتبة بن ربيعة أحد سادات قريش وزعمائها عن حل وسـط فخاطبهم قائلا ، « يامعشر قريش ، أطيعوني وأجعلوها بي وخلوا بين هـــذا الرجل وبين ما هو فيه فأعتزلوه فوالله ليكون لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم فأن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وان يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم ، وكنتم اسعد الناس به ، قالوا: سحرك والله يا ابا الـوليـــد بلسانه ، قال هذا رأيي فيه فأصنعوا مابدا لكم »(٢) .

---

(١) ابن هشام، المصدر السابق ص ١٧٨ – ١٧٩ .
(٢) ابن هشام : نفس المكان .

ويلاحظ على اقتراح عتبة انه كان قد استشعر البعد الوحدوي للرسالة الاسلامية وانه من المحتمل في حالة نجاحها ان تقود الى وحدة العرب تحت زعامة الرسول (ص) ، وبذلك سيفقد رجال الملأ زعامتهم وهو ما لاتريده قريش ان يحصل ابدا . وبين القرآن . ان اختيار الرسول ليس شأناً من شؤون البشر ... وانما هو أمر خطير أختص الله به نفسه ، فهو الذي يختار من يشاء من عباده لحمل الرسالة الى الناس .

قال تعالى : « وما كان الله ليطلعكم على الغيب ، ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وان تؤمنوا وتتقوا فلكم اجر عظيم » (١) .

وقد بين القرآن الكريم : ان سنة الله قد جرت على ان يبعث لكل امة رسولا منهم يبين لهم سبل الرشاد(٢) . وان هؤلاء الرسل قد جاؤا متتابعين منذ عهد آدم حتى الرسول محمد (ص) قال تعالى : « انا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح والنبيين من بعده ، ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك ... » (٣) .

فالغاية من ارسال هؤلاء الرسل الى قومهم هي ان يطاعوا بأمر الله ، وقال تعالى : « وما ارسلنا من رسولا الا ليطاع بأذن الله ، من يطع الرسول فقد اطاع الله » (٤) .

وعليه نجد ان الرسول (ص) لما فاتحه جده ابو طالب بشأن التفاوض مع رجال الملأ قال له: والله ياعم ، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ، ماتركت هذا الأمر حتى يظهره الله ، او اهلك في طلبه) (٥) .

فأذن الأمر ليس بيد الرسول(ص) انما هو امر الهي لامساومة فيه كما مر بنا سابقاً .

---

(١) القرآن الكريم : سورة آل عمران : الآية : ١٧٩ .
(٢) راجع سورة النحل : ٣٦ .
(٣) القرآن الكريم : سورة النساء : الآية : ١٦٣ — ١٦٤ .
(٤) القرآن الكريم : سورة النساء : الآية : ٦٣ — ٨٠ .
(٥) ابن اسحاق : المصدر السابق ، ص ١٣٥ — ١٣٦ .

اذن من اسباب معارضة قريش الاسلام ورفضه ، الخوف من نتائجه السياسية والأقتصادية والنزعة في المحافظة على قيم الاباء والأجداد والدفاع عنها بكل وسيلة ،وعليه كانت المشكلة التي جابهها الرسول (ص) لها جوانب اجتماعية واقتصادية وسياسية وفكرية (١) — لذا فقد اخذ الرسول(ص) يركز جهده لكسب المستضعفين وغيرهم ممن لايقفون منه ومن دعوته موقف التعالي والأستكبار .

وبعد هذا العرض لأهم الأسباب التي دفعتقريشاً الى رفض دعوة الرسول (ص) ومقاومتها بكل الطرق والأساليب المتاحة لديها كما مر بنا انفا ، نستطيع ان نلقي الان الضوء على دوافع سكان يثرب من الأوس والخزرج الى قبول الاسلام والدفاع عنه ، ودعوه نبيه محمد (ص) الى مدينتهم والتعهد له بالدفاع عنه وعن المؤمنين بدعوته والقتال من أجل نصرته وهذا ما سنوضحه لاحقاً .

ومما سبق عرضه وجدنا ان مدينة يثرب كانت قد افتقدت الزعامة البارزة على المستوى الذي يؤهلها لمنافسة مكة التي احسنت الاستفادة من العقيدة الوثنية لنمو اقتصادها (٢).والتي نجح رجال الملأ — كما مر بنا سابقاً — في فرض النظام والأستقرار فيها (٣) . كما ان غياب التنظيم الحكومي في ابسط صوره في مدينة يثرب ، فسح المجال للخلافات والمنازعات القبلية الشديدة التي مزقت المدينة وملأت جوها بالخصومات والاحقاد (٤) .وان هذه المنازعات التي عرفت عند المؤرخين بـ « الايام »استمرت على نحو متقطع زهاء قرن من

---

(١) راجع وات : نفس المرجع ، ٣٨٤ ص ٣٨٣ — ٣٨٤ .

(٢) الملاح : هاشم يحيى : المنافقون في مدينة رسول الله ، مجلة كلية الدراسات الإسلامية ، العدد الخامس ، بغداد ١٣٩٣ هـ — ٧٣ م ، ص ٤٧٢ .

(٣) الملاح : نفس المكان

(٤) فلهوزن : المرجع السابق ، ص ١٠٧ وما بعدها .

الزمان [١] والتي ابتدأت بيوم سمير [٢] وانتهت بيوم بعاث [٣] ، وقيل انها وقعت قبل الهجرة بخمس سنوات اي حوالي ٦١٧ [٤].

ويبدو ان الحرب الاهلية التي عاشتها مدينة يثرب ولمدة طويلة كانت من العوامل المباشرة في قبول الاوس والخزرج لدعوة الرسول محمد(ص) وكان من نتائج الحرب الأخيرة « بعاث» ان تعمقت الاحقاد بين سكان المدينة واخذ عقلاؤهم يتطلعون الى الوسائل التي تنقل يثرب الى حالة الهدوء والاستقرار وللتدليل على فقدان الامن واضطرابه في يثرب آنذاك ماقاله رسول الله (ص) للانصار عندما خطب بهم يوم حنين « يامعشر الانصار إني آيتكم لاتركبون فرساً ولا تخرجون من المدينة الا بخفير » [٥] .

وما ذكره النفر الاوائل الذين دعاهم الرسول (ص) للاسلام « انا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر مابينهم »[٦] كما شعر الأوس والخزرج بالدور الخطير الذي كان يقوم به اليهود من تمزيق وحدتهم ، فنجد ان الخزرج ، لما هزموا و كادت الأوس ان تقضي عليهم، صاح احدهم قائلا لهم ان يحسنوا ولا يهلكوا اخوانهم فجوارهم خير من جوار الثعالب « اليهود » .

---

(١) العامري : عماد الدين : بهجة المحافل وبغية الاماثل ، مطبعة الجمالية ، القاهرة ١٣٣٠ هـ ج ١ ، ص ١٢٠ . Taylor: The Warld of Islam. P.22.

(٢) ابن الأثير : عز الدين : الكامل في التاريخ ، د / ط ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٥ ، ج ١ ، ص ٦٥٨ .

(٣) ابن الأثير : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٦٨٠ .
انظر تفاصيل ذلك : جاد المولى : محمد احمد : أيام العرب في الجاهلية د/ط دار الفكر بيروت ، ١٩٦١ ، ص ٧٣ وما بعدها .

(٤) الذهبي : شمس الدين محمد : تاريخ الاعلام ، د/ط ، مكتبة القدس ، القاهرة ، ١٣٦٧ ج ١ ، ص ١٧١ .

(٥) ابن طرخان : أبو المعتمر سليمان : السيرة الصحيحة : تحقيق : فون كريمر (منشور ضمن كتاب المغازي للواقدي) ط ١ ، كلكتا ١٨٥٦ ص ٤٢١ ، ٤٢٢ .
المغازي : تحقيق : د . مارسدن جونس د / ط عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٦٦ ج ١ ، ص ٩٥٨

(٦) ابن هشام : المصدر السابق ج ٢ ، ص ٣٨ .

وتقول السيدة عائشة[1] ان يوم « بعاث إصطنعها الله لخير الاسلام » [2].

كما قام اليهود بدور غير مباشر في تهيئة اذهان العرب وعلى الأخص الأوس والخزرج لتقبل الدعوة الى الاسلام من خلال حديثهم المستمر عن الايمان بأله واحد والايمان ، بالأنبياء ، والرسل والبعث بعد الموت »[3].

فكان يهود المدينة كلما وقع بينهم وبين الأوس والخزرج شجار ونزاع يقولون لهم « ان نبياً سيبعث وقد اظل زمانه فسنقتلكم معه » .[4] وهذا سهل على الأوس والخزرج قبول دعوة الرسول محمد (ص) والايمان به قبل غيرهم من العرب في الجزيرة ، وقد ذكر ابن هشام حين تشاور الخزرج فيما بينهم قال بعضهم لبعض « تعلمون والله انه النبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقنكم اليه » [5] .

ويبدو ان اول اتصال للرسول (ص) مع سكان يثرب كان مع سويد بني الصامت اخي بني عمرو بن عوف ، حيث قدم مكة حاجا او معتمراً وكان قومه يسمونه الكامل فيهم لسنه وجلده وشعره فتصدى له الرسول(ص) ودعاه الى الاسلام [6] ، فكان رجال من قومه يقولون اننا لنرى انه قتل وهو مسلم [7] . ثم لقي رسول الله (ص) بعد ذلك ابا الحيسر ابن رافع في مكة ومعه نفر من بني عبد الاشهل فيهم اياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج ، فأتاهم الرسول (ص) ثم ذكر لهم الاسلام ، ثم

(١) ابن الاثير : الكامل ، جـ ١ ، ص ٦٨١ .

(٢) الذهبي : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٧١

(٣) انظر : ارنولد : توماس : الدعوة الى الاسلام : ترجمة : حسن ابراهيم ، ط٣ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٤٢ و ما بعدها .

(٤) ابن هشام : المصدر السابق ص جـ ٢ ، ص ٣٨ .

(٥) ابن هشام : نفس المكان ، الذهبي : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٧٢ السمهودي : الوفاء ، جـ ١ ، ص ١٥٨ .

(٦) ابن هشام : نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ٣٦ – ٣٧ ، الذهبي : نفس المصدر جـ ١ ، ص ١٧٠ – ١٧١

(٧) البلاذري : أحمد بن يحيى : انساب الاشراف : تحقيق : محمد حميد الله ، د/ط ، دار المعارف ، وهو ١٩٥٩ ، جـ ١ ، ص ٢٣٨ . الذهبي : نفس المكان .

عادوا الى يثرب وكانت وقعة (بعاث) ، فمات اياس وكان اهله لايشكون في انه مات مسلماً (١) .

وذكرت المصادر التأريخية : ان اسعد بن زرارة وذكوان بن عبد القيسي كانا اول من قدم بالأسلام الى يثرب. وكانا قد خرجا الى مكة يتنافران الى عتبة بن ربيعة فسمعا برسول الله (ص) ولم يقربا عتبة ورجعا الى يثرب (٢).

ان هذه الروايات التأريخية تعطي لنا انطباعاً عن مدينة يثرب انها كانت بيئة عرفت مستوى من النضج في الوعي الديني والسياسي (٣) .

وان إسلام اهل يثرب من الأوس والخزرج جاء بدوافع دينية وسياسية معا فنضجهم الديني كان نابعاً من ايمانهم بحقيقة الاسلام ووحدانية الله ، مما جعلهم يؤمنون بدعوة الاسلام ، ونرى ذلك واضحاً في حوارهم مع الرسول (ص) عند لقائه بهم في العقبة الاولى ، فقال : لهم .. من انتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج ، قال : امن موالي يهود ؟ قالوا : نعم ، قال : افلا تجلسون اكلمكم قالوا : بلى ، فجلسوا معه ، فدعاهم الى الله عز وجل وعرض عليهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن ، .... قال : بعضهم لبعض : ياقوم تعلمون والله انه للنبي الذي تدعو كم به يهود ، فلا تسبقكم اليه ، فأجابوه فيما دعاهم اليه ، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام ، وقالوا له : انا تركنا قومنا ولاقوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى ان يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم الى امرك ، ونعرض عليهم الذي اجبناك اليه من هذا الدين ، فأن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك (٤) .

---

(١) ابن هشام : نفس المكان ، الذهبي : نفس المكان

(٢) ابن الأثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة ، د/ط ، انتشارات اسماعيليان طهران ، د/ت ، ج ١ ، ص ٧١ .

(٣) الحديثي : نزار عبداللطيف : محاضرات في التاريخ العربي ، د/ط ، مطبعة بغداد ١٩٧٩ ، ص ٨١ - ٨٤ - ٨٥ .

(٤) ابن هشام : نفس المصدر ، ج٢ ، ص ٣٨ ، الذهبي : المصدر السابق ، ط ، ص ١٧٢ ، وانظر كذلك : النعيمي : رياض هاشم : المرجع السابق ، ص ٨٥ - ٨٦ .

ان هذا الحوار دليل على ان الأوس والخزرج كانوا منشغلين بقضيتيـــن مهمتين ، التحدي العقائدي والسياسي الذي كان يفرضه اليهود على عـرب المدينة من الأوس والخزرج وعمق الانقسام السياسي ومحاربة بعضهم بعضا(١) وعليه ادرك الاوس والخزرج ان الاسلام يشكل حلا جذرياً لمسألة التحدي اليهودي لهم والانقسام على انفسهم، بما تؤكد عليه رسالة الاسلام بوحدانية الله ، وكان قبولهم بتعاليم القرآن كفيلا بتوحيد المجتمع على اسس تتجاوز الاسس القبلية المفرقة وتمنح ابناءه رسالة دينية موحدة تقضي على تعالي اليهود وادعاءاتهم حول تفوقهم العقائدي بصفتهم اصحاب ديانة سماوية .

ونجد ان عمق ايمانهم بالاسلام وعقيدة التوحيد قد اصبح اكثر نضجـاً عند لقاء الرسول (ص) بوفد المدينة في العقبة الثانية ، ونجد ذلك واضحاً في الحوار الذي دار بين الرسول (ص) وبين وفد المدينة ، مما يشير الى حماسة المبايعين واستعدادهم الكامل للاستجابة لشروط الرسول (ص) للهجرة الى مدينتهم ،وينقل لنا ابن هشام ذلك بقوله، فتكلم رسول الله (ص) فتلا القرآن ودعا الى الله ورغب في الاسلام، ثم قال : ابايعكم على ان تمنعوني ممـــا تمنعون منه نساءكم وابناءكم فأخذ البراء بن معرور (وهو من الخزرج) بيده ثم قال : نعم والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعنك مما تمنع منه ازرنا ، فبايعنـــا يارسول الله ، فنحن والله ابناء الحروب واهل الحلقة ورثناها كابراً عـــن كابرا (٢) . فقاطعه ابن الهيثم بن التيهان من الاوس فقال : يارسول الله : ان بيننا وبين الرجال حبالا ، وانا قاطعوها يعني -- اليهود -- فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم اظهرك الله ان ترجع الى قومك وتدعنا ، .... فتبسم رسول الله ، ثم قال : بل الدم الدم ، الهدم الهدم ، انا منكم وانتم مني احارب من حاربتم واسالم من سالمتم (٣) .

(١) ابن هشام : نفس المكان، الذهبي : نفس المكان .

(٢) ابن هشام : نفس المصدر ج٢ ، ص ٣٨ ، الذهبي : المصدر السابق ج١ ، ص ١٧١ - ١٧٢ - ١٧٣ .

(٣) انظر ابن هشام : نفس المكان: الذهبي : نفس المكان .

مما تقدم نفضي الى ان الاوس والخزرج كان ايمانهم بدعوة الأسلام نابعاً عن فهم كامل لطبيعة الدعوة الاسلامية ، ولذلك نجدهم يتعهدون للرسول (ص) بالدفاع عنه حينما يصل الى مدينتهم كما يدافعون عن انفسهم وفي مقابل ذلك عد الرسول (ص) نفسه واحداً منهم ، يتضامن معهم في جميع الاحوال (١) .

ومن العوامل الاخرى التي جعلت الاوس والخزرج يسرعون بالدخول في الاسلام ونصرة رسوله ومبايعته ، والتعهد له في الدفاع عنه والقتال في سبيل نصرته، هو ما كان حاصلا عندهم من التنافس والتفاخر القبلي بين احياء الاوس والخزرج ، وان خوف الخزرج من ان تسبقهم الأوس في الدخول في الاسلام جعلهم يتقطعون على اخوانهم من الأوس ويعلنون عن استعدادهم لمحالفته (٢) .

ويمكننا ملاحظة ذلك بشكل واضح من تحليلنا للجدول في ادناه :

النسب	اللقاء الأول	لقاء العقبة	العقبة الأولى	العقبة الثانية	النقباء
خزرج	/	٦	٩	٦١ + ٢ = ٦٣ امرأتان	٩
اوس	٥	/	٣	١٠	٢
المجموع	٥	٦	٧٢	٧٣	١٢ (٣)

نلاحظ على الجدول في اعلاه ان اللقاء الأول كان مع الأوس فقط وفي لقاء العقبة بعد عام من ذلك كان مع الخزرج فقط وبعد سنة من ذلك نجد

(١) راجع حول هذا الموضوع : الملاح : الوسيط ، ص ١٧٣ – ١٧٧ ، العلي : صالح احمد : المرجع السابق ص ٢٤٠ ومابعدها وانظر كذلك داويدار : اسماعيل المرجع السابق ص ١٧١ ، انظر كذلك النعيمي : المرجع السابق ، ص ٩٣ وما بعدها .

(٢) ابن هشام : نفس المكان ، الذهبي : نفس المكان .

(٣) انظر : ابن سعد : نفس المصدر وجـ١ ص ٢١٩ – ٢٢٣ ، البلاذري الانساب ، جـ١ ، ص ٢٣٩ – ٢٥٣ .
ابن قدامة : موفق‌الدين : الاستبصار في نسب الصحابة من الانصار : تحقيق : علي نويهض ، ط١ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٢هـ – ١٩٧٢م ، ص ٢٣ – ٣٢٣ .
وانظر كذلك : النعيمي : المرجع السابق : قسم الملاحق والجداول .

نسبة الخزرج ٣ / ١ من الأوس وفي العقبة الثانية نجد نسبة الخزرج ٦،١ / ١ من الاوس وعند اختيار النقباء نجد نسبة الخزرج ٣ /١ من الأوس .

الا اننا يمكن ان نرى ان الدافع المباشر الذي دفع اهل يثرب من الأوس والخزرج لقبول دعوة الرسول (ص) هو ماذكره النفر الاوائل الذين دعاهم الرسول (ص) للاسلام (١) .

اذ قالوا : انا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر مابينهم فعسى ان يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم الى امرك ونعرض عليهم الذي اجنباك اليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل اعز منك (٢) .

فالدافع الحقيقي لاقبال الأوس والخزرج على الايمان بدعوة الاسلام هو البحث عن رجل قيادي ينهي حالة اللاحرب واللاسلم التي تعيشها يثرب منذ فترة زمنية طويلة والتي ادت الى تدهور الاحوال الامنية والأقتصادية فيها والرغبة في الوحدة والتوحيد ، لهذا اعطوا ولاءهم تحت قيادة الرسول (ص) وكيف يترددون في اعطاء ولائهم لشخصية الرسول (ص) المحايدة بين مختلف الأطراف المتنازعة في المدينة ، فهي تتيح المجال لاجتماع اهل المدينة كافة تحت قيادتها وبخاصة ان قيادة الرسول (ص) لاتقوم على اساس الأعتبارات القبلية المفرقة ، وانما تستند الى رسالة السماء الموحدة لكل من يؤمن بها (٣) .

فأخذ عقلاؤهم يتطلعون الى الوسائل الكفيلة التي يمكن ان تنقل يثرب الى حالة الهدوء والأستقرار (٤) . وكان دافعهم غير المباشر هو الرد على التحدي العقائدي المستمر الذي يواجههم به يهود المدينة (من بني قريظة والنضير وقينقاع) (٥) .

---

(١) الملاح : دور العقيدة ، ص ٦٥٠ .
(٢) ابن هشام : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٣٨ ، السمهودي : الوفاء ، ج١ ص ١٥٨ .
(٣) فلهوزن : المرجع السابق ، ص ٦ — ٧ .
(٤) الملاح : المنافقون ، ص ٤٧٣ — ٤٧٤ .
(٥) الملاح : دور العقيدة ، ٦٥١ ، الحديثي : نزار ، المرجع السابق ، ص ٨٥

من خلال هذه الاسطر المتواضعة تبين لنا على نحو واضح الدوافع التي حالت دون دخول قريش ورجال الملأ الاسلام ومحاربتهم له بكل الوسائل المتاحة لديهم عندما كان الرسول (ص) بين ظهرانيهم ومحاربته عسكرياً عندما انتقل الى يثرب واسس دولته في المدينة .

وعرفنا بوضوح دوافع الأوس والخزرج التي ساعدت الرسول (ص) على نجاح دعوته في مدينة يثرب دون غيرها من حواضر الحجاز والجزيرة. الاوهو الايمان الكامل بعقيدة التوحيد التي جاء بها عليه الصلاة والسلام .



حكمة (١) الشارع في تفاوت سهام الوارثين بحكم الرابطة النسبية

د. عبدالرزاق قاسم الصفار
كلية القانون – جامعة الموصل

توطئة البحث

عرفت الانسانية صوراً من التصرف بتركة المتوفى ، فكان منها ما درجت عليه المجتمعات البدائية المتنقلة التي كانت تلتزم بفكرة استحواذ الملكية الشائعة على الملكية الفردية كي تبقى القبيلة قوية بوسائل انتاجها وسلاحها واموالها .

وحين مال الانسان إلى الاستقرار بفلاحة الارض ورعاية الماشية وبناء المأوى المناسب له ولماشيته كان نظام الاسرة يعتمد على الاب واعوانه من ابنائه الذين يخلفونه بعد وفاته ، فظهرت نماذج مما تألفه هذه المجتمعات في انتقال اموال المتوفى إلى اسرته ، فكان قدماء المصريين يجعلون الارث للابن الأكبر الذي يرعى معيشة سائر إخوته بمعرفته ، وكانت عادة عدم توريث البنات وذوي الارحام بقصد بقاء الاموال في عشيرة الأب سائدة لدى سكان بابل وآشور والعرب قبل الاسلام (٢) ، وكان لكل مجتمع او قبيلة نظام في تفضيل مَن

---

(١) الحكمة : كلمة مشتقة من الفعل حكم وهو بمعنى قضى ، واشتق منه لفظ الحكمة وهي معرفة أفضل الاشياء بأفضل العلوم ، وتأتي بمعنى العلم والتفقه ، ومنه قوله تعالى(ولقد آتينا لقمان الحكمة...) سورة لقمان ١٢ . وتأتي بمعنى العدل ، فيقال : حكمة التشريع ويقال : وماالحكمة في ذلك . وتطلق على الكلام الذي يقل لفظه ويجل معناه ، ويراد بالحكمة في مفهوم الفقه مايترتب على ربط الحكم بعلته اوسببه من جلب مصلحة أو دفع مضرة .
(المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية بالقاهرة – مطبعة مصر .
والاستاذ علي حسب الله : اصول التشريع الاسلامي ١٩٦٤ ط٣ ص ١٢٨

(٢) د. احمد الخطيب : شرح قانون الأحوال الشخصية ، القسم الثاني ١٩٨٢ – مطبعة جامعة الموصل ص ٣ عن الاستاذ احمد محمد غنيم : تطور الملكية الفردية – مطبعة الدار القومية بالقاهرة ص ٨، ١٩٨٢ والأستاذ صوفي ابو طالب : مبادىء تأريخ القانون، المطبعة العالمية ١٩٦١ بالقاهرة ص ٨٧ .

يَرونه الأفضل او المقدم عندهم في الحصول على التركة ، وصار اغلبهم يفضلون استئثار الذكور بالاموال لأنهم يتولون الحماية والنصرة للاسرة ، وكان هذا منهج قدماء اليونان ، ومنحت شريعة الألواح الاثني عشر للرومان الحق لرب العائلة في توزيع الارث كما يشاء ... ودرج عرب الجزيرة قبل الاسلام على نظام التوارث المعتمد على الرجولة والقوة ، وتوريث الكبار دون الصغار ، وحرمان النساء (٣) ، ولم تستقر احكام الارث عند اتباع التوراة ، فهي بين حصر التركة للذكور وحرمان البنات الا في حالة فقدان الذكور بشرط ان لا يكون زوج البنت من غير سبط ابيها (٤) .

وأنّ الزوجة لا ترث من تركة زوجها اذا توفي قبلها ، وهو يرثها إن توفيت قبله ، وأن الأم لا ترث من ابنها ولا من بنتها ، وإن توفيت يكون ميراثهما لابنها إن كان لها ابن ، وإلا كان ميراثها لابنتها ، واذا لم يكن لها ابن ولا بنت فميراثها لأصولها من الذكور ، ويكون ميراث الابن البكري عندهم مثل حظ اثنين من إخوته .

وحيث ان الديانة المسيحية قد اقتصرت على معالجة النواحي الخلقية والروحية لذا فإن الكتاب المقدس عندهم لم يتضمن احكاماً خاصة بالميراث ، ولهذا عمد رجال الكنيسة إلى استنباط بعض القواعد الارثية من احكام التوراة ، ومن القوانين الاخرى . وقد نقلوا عن السيد المسيح عليه السلام انه رفض ان يقوم بدور القاضي او المشرع حينما جاءه شخص يلتمس منه ان يأمر اخاه بمقاسمته الميراث فقال له : «ومَن اقامني عليكما قاضياً او مُقَسِّماً» (٥) .

(٣) فخر الدين محمد بن عمر الرازي: التفسير الكبير – ط ١ – ١٩٣٨ – المطبعة البهية المصرية ج٩ ص ١٩٤.

(٤) (السبط) عند اليهود كالقبيلة من العرب ، ومنه قوله تعالى : (وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً) الاعراف ١٦٠ (المعجم الوسيط – ج ١ ص ٤١٥).

(٥) د. احمد علي الخطيب، المرجع السابق .

والذي يبدو للباحث أنّ في تفاوت سهام الوارثين حكمة يستشفها اهل هذا العلم في الشريعة الاسلامية، وهي قد تخفى على غير اصحاب الدراسة القانونية، لذلك كان من المفيد ان يتلمس البحث هذه الحكمة الشرعية. وقد جاء البحث بمقدمة وفرعين وخاتمة، عرض الاول منهما تفضيل من يكونون مسئولين عن النفقة من اقرب الأقارب من العصبات إلى اسرة المتوفى كالابن والاب. وكان الثاني في آثار قانوني التعديل الثاني والتعديل الثالث على الوارثين بحكم الرابطة النسبية. ونظراً لكون الشريعة الاسلامية ترى ان رابطة الاسرة لكل انسان تمنحه الكثير من الحقوق المالية في تركة اصوله او فروعه او اطرافه فان ذلك يشير إلى ما يلتزم به الوارث من مقتضيات مبدأ التكافل والرعاية الحميمة بحكم صلات المتوارثين في الارحام والنسب والمصاهرة، وقد اكد القرآن الكريم هذا المبدأ بقوله تعالى: (واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله ...) سورة الانفال (٧٥). وإن هذه الرابطة تعطي كل من ينتسب إلى المتوفى حقه في الشريعة من التركة حسب درجة قرابته (٦) وموقعه في المسئولية عن الاسرة بالنسب (٧) او السبب (٨).

وإن اولويته في التركة تتناسب مع مقدار عطائه ومشاركاته في المسئولية عن الاسرة، ولما كان في وضوح هذه الحقوق المالية الموروثة من بيان الاطمئنان للمكلفين بها، ولما لهذا العلم من اهمية في حسم الخصومة بين ذوي القربى،

---

(٦) للقرابة مراتب يطلق عليها اسم طبقات، وهي مصنفة بالتعاقب حسب استحقاقها فلا ترث الطبقة المتأخرة مع وجود أحد من الطبقة المتقدمة عليها وهي:
١ - الابوان والاولاد ذكوراً أو اناثا وإن نزلوا.
ب - الاخوة والاخوات، والاجداد والجدات.
جـ - الاعمام والعمات، والاخوال والخالات.
راجع الأستاذ محمد صادق الفرضي: التحفة البهية في المواريث الشرعية سنة ١٩٤١ مطبعة النجاح، بغداد ص ٤١ وقانون الاحوال الشخصية العراقي رقم (١٨٨) لسنة ١٩٥٩ وتعديلاته - المادة (٨٩).

(٧) النسب: صلة الانسان بأسرته بالبنوة اوالأبوة او الأخوة او الرحم.

(٨) السبب: صلة الانسان بأسرته بالمصاهرة الشرعية، وهي الرابطة الزوجية بين الزوجين.

واستقرار نفسي في الرضا بتقسيم الشرع ، فقد حثّ الشرع على العناية بهذا العلم لأهميته ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعلموا الفرائض وعلموها الناس ، فإني امرؤ مقبوض ،وإن العلم سيقبض حتى يختلف الاثنان في الفريضة (٩) ، فلا يجدان من يفصل بينهما»(١٠) وحسب هذه النظرة في المسئولية وتبعاً لدرجاتها فقد صنف الفقهاء اصحاب الفروض على مراتب او طبقات ،فالأبوان المباشران والأولاد وفروعهم ذكوراً وإناثاً يحجبون الاجداد والجدات والإخوة والاخوات واولادهم وإن نزلوا ،وهؤلاء يحجبون الاعمام والعمات وأولادهم والاخوال والخالات وأولادهم ، كما أن الوارث الأقرب درجة إلى المتوفى في اي مرتبة يحجب الأبعد منه حَجْبَ حرمان ايضاً ، فلا يرث مع الابن او البنت اولادهما لأنهما اقرب إلى المتوفى منهم .

وإن العلة في هذه الأولوية -التي يدرك العقل حكمتها - راجعة إلى ما بين افراد الاسرة من صلات المعايشة والمسئولية المشتركة اللتين تتحققان من المصاحبة الطبيعية (١١) .والتناصر بينهم بحكم هذه الرابطة التي ينتسب جزئياً كل إنسان اليها في النسب(١٢).او السبب سواء كان أصلاً او فرعاً او من ذوي الارحام.

والشريعة الاسلامية حين تُعنى بتوزيع الميراث حسب هذه المحاور تجعله خاضعاً لمقاصد حكيمة يتحقق منها التكافل الاجتماعي بين الذين يتصلون مع بعضهم بروابط النسب او السبب بعد ان كان نظام الإرث عند العرب قبل الاسلام يعتمد قاعدة الولاية لأقرب الأبناء الذكور الذين يحمون الاسرة بالسلاح ، ويقوم مقامه - عند فقده - اقرب الاولياء كالاب ثم الأخ ثم العم . ولما جاء الاسلام ابقى قاعدة الولاية ، الا انه جعل اساسها الاسلام

(٩) الفريضة : من الفعل فرض ومن معانيها أوجب وقدر ، وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى في بيان سهام الوارثين (نصيباً مفروضاً) النساء ٧ . وقوله تعالى (يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ... فريضة من الله ..) النساء ١١

(١٠) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ط١ - ١٩٥٩ - القاهرة جـ١٥ ص٥ .

(١١) احمد الدهلوي / حجة الله البالغة - تحقيق السيد سابق - دار الكتب الحديثة بالقاهرة جـ٢ ص ٦٧١.

(١٢) الجزئية : وصف للعلاقة الرحمية بين الانسان ومورثه بأعتباره جزءاً منه كالولد من أبيه او امه .

والقرابة المعتمدة على تدرج المسئولية عن الاسرة في النفقة ، وحسب الحاجة الحقيقية لكل طبقة فيها ، وذلك من قبيل العدالة وإسناد المكلفين باستمرار لتحمل المسئولية في الاسرة (١٣).

وغير خاف ان اولي الارحام من النسب اقرب إلى الانسان بصلة الجزئية، ولما كان هؤلاء يرجعون إلى صلة السببية بالمصاهرة الزوجية كان ينبغي ان يتوارث الزوجان من تركة بعضهما ايضاً بما لكل منهما من اعتبارات قوية في حق احدهما على الآخر حتى في حال عدم إنجاب طفل منهما ، وذلك يعود إلى اسرار حكيمة تعدها الشريعة ذات اعتبار مقصود .

الفرع الاول : — من يكونون مسئولين عن النفقة

المطلب الاول : في حال الوارثين المكلفين بالنفقة على من يعولون

نراعي الشريعة الاسلامية حالة الوارث المسئول عن النفقة على غيره فَتُخَصِّصُ له من الارث قدراً يتناسب وموقعه في هذه الواجبات ، إضافة إلى حاجاته الذاتية ، ومن هؤلاء المسئولين عن النفقة على الغير الأب والابن والاخ والجد والعم .

آ — فمثال حالة الاب — وهو المسئول عن الأم — فإنه حين يرث من ولده فان نصيبه من الارث يتأثر بحالة ولده المتوفى من حيث إنجابه فرعاً وارثاً ام لا ، فان لم يكن له فرع وارث فان الاب يرث من تركته اعلى سهام الارث بعد اصحاب الفروض ، ففي صورة اجتماع الاب والام وزوجة الولد المتوفى نلاحظ ان نصيب الاب يتأثر بموقعه في المسئولية عن اسرته واسرة ابنه فعند توزيع السهام الاولية يعطي الشرع لزوجة الولد المتوفى الربع ، ثم يجعل للأم ثلث الباقي وهو ربع التركة ، ويكون الباقي — وهو النصف — للأب.

(١٣) الأستاذ محمد ابوزهرة : في المجتمع الأسلامي — دار الفكر العربي بالقاهرة ص ٧٢ والأستاذ محمد الخضري — تأريخ التشريع الإسلامي — مطبعة الأستقامة — ١٩٦٠ ط ٧ ص ٩٠ .

فالملاحظ عند توزيع التركة ان الباقي بعد نصيب اصحاب الفروض يعود إلى الاب لأنه مرجع الاسرة في المسئولية عن اسرته واسرة ابنه ، فالاب يبقى مسئولا عن النفقة عن زوجته ـ ام المتوفى ـ ولو انها قد نالت من التركة السدس ، وهو ايضاً مسئول عن سائر اولاده سواء كانوا اخوة اشقاء للمتوفى أو اخوة له من ابيه لانهم لم يستحقوا إرثاً من اخيهم لحجبهم بأبيهم . فهذه النظرة إلى الوارث ـ من حيث المسئولية ـ صارت مبدأ في الشريعة الاسلامية لتقرير قاعدة شرعية ثابتة وهي : إن اجتماع الذكر مع الانثى إذا كانا من درجة واحدة يراعى في نصيبهما من الارث جانب المسئولية في لزوم إنفاق الذكر على الانثى كالحالة المذكورة حيث كان للاب ضعف ما للأم حتى تكون هذه الزيادة دعماً لموقعه في النفقة على الام وعلى من يكون في إعالته ، اما في حالة إنجاب المتوفى ولداً فان الاب لا يفضل على الأم ، بل يكون لكل منهما السدس والباقي للولد او الاولاد للذكر مثل حظ الانثيين بعد نصيب الزوجة ، لأنهم اكثر حاجة إلى الانفاق.

ب ـ وكالابن مع البنت حينما يكون نصيبه ضعف نصيب اخته من الميراث مراعاة لمسئوليته عنها وعن مَن في مسئوليته كزوجته واولاده ، وإن كان غير متزوج فتكون هذه الزيادة عوناً له على تكوين اسرة وتوفير مجالات عمل له اضافة عن مسئوليته عن اخته في النفقة عليها حتى تتزوج ، مع انها كانت ذات نصيب من الارث . وذلك لتبقى وشائج الرحم بينهما موصولة إلى ان تستقل اخته بحياتها الخاصة مع زوج ينفق عليها ، كما انه ملزم بالنفقة عليها إذا فارقها زوجها او توفي عنها ولم يكن لها نفقة او كفاية مالية لحياتها .

وقد تنوعت تعليلات المفسرين في بيان حكمة التفاوت في نصيب الذكر والانثى من الميراث كالابن مع البنت او الاخ مع الأخت ، وكان من احسنها ايجازاً وموضوعاً ما قاله صاحب تفسير المنار « والحكمة

في جعل حظ الذكر كحظ الانثيين هي : إن الذكر يحتاج إلى الانفاق على نفسه وعلى زوجه فكان له سهمان ، وأما الانثى فهي تنفق على نفسها ، فان تزوجت كانت نفقتها على زوجها ، وبهذا الاعتبار يكون نصيب الانثى من الارث اكثر من نصيب الذكر في بعض الحالات بالنسبة إلى نفقاتهما» (١٤) .

جـ — وكالاخ مع الاخت من الدرجة الواحدة ، فان لم يكن لأخيهما ولد عوملا معاملة الابناء ، فيأخذ الذكر ضعف الانثى ، وذلك لأن الاخوة اقرب شبهاً بالأولاد عند عدم وجود الولد في دخول النسب والحماية والمسئولية فصاروا مثلهم في الحكم (١٥) .

المطلب الثاني : حكم العصبات (١٦) في المسئولية عامة عن الاسرة

إن العصبات المنتمين إلى الاسرة بروابط النسب مسئولون بحكم موقعهم عن النفقة على افراد الأسرة عند فقد مَن يتولى الإنفاق عليها ، إلا أن العصبات الوارثين ينالون الإرث بعد ان يأخذ اهل الفرائض نصيبهم من التركة : فإن كان في التركة زيادة فاضلة بعد سهام أصحاب الفريضة كانت للعصبة ، وإن لم يكن فيها باق فليس للعصبة شيء. والعصبة حين يكون لها الباقي فإنها مشروطة بأقرب رجل في درجته إلى المتوفى ،وقد رتب الفقهاء تسلسل العصبات حسب

---

(١٤) شالتخ محمد رشيد رضا : تفسير المنار ، مطبعة دار المنار بالقاهرة ط ٢ ج ٤ ص ٤٠٦ الرازي، المرجع السابق ج ٩ ص ٢١٧ .

(١٥) بدران ابو العينين : احكام التركات والمواريث – مؤسسة شباب الجامعة في الأسكندرية ١٩٧١ ص ٣٥١ .

(١٦) العصبات : هم قرابة الانسان من أبيه الذين يتعصبون له وينصرونه ، وهم في علم الميراث من ليست لهم فريضة مسماة ، وانما يأخذون الباقي بعد أصحاب الفروض ، وسند إرثهم الحديث النبوي الصحيح : « ألحقوا الفرائض بأهلها ، فما بقي فهو لأولى رجل ذكر » (المعجم الوسيط ج ٢ ص ٦١٠ » .
والفقهاء يستعملون العصبة في الواحد والجمع والمذكر والمؤنث لأنه يقوم مقام جماعة في إحراز المال عند عدم مستحق معه (الفرضي : المرجع السابق ص ١٠٥) .

التعاقب ، فالأقرب إلى المتوفى هم الأبناء ثم الأب ثم الجد ثم الاخوة ثم الاعمام ، فلا يستحق العصبة الثاني بوجود الأول ولا ينال الثالث بوجود الثاني وهكذا .

والذي يظهر أن موقعهم يشبه محور الرحى الذي يرتبط به افراد الاسرة ، فالعصبة في كل اسرة تناط اليها المسئولية لتضمن متطلباتها وتماسكها بأواصر الرحم ، وهي في تجاوبها بأداء النفقة والشعور العملي بالالتزام بأفرادها في كل الظروف تتفق مع القاعدة الشرعية والقانونية «كل حق ينبغي ان يتعلق به التزام» او «الغُنم بالغرم» .

والعصبة نوعان : الأول : تعصيب يستقل بنفسه بالإرث دائماً كالاب والجد ، والثاني : تعصيب يؤثر في غيره كالابن مع اخته البنت او ابن الابن مع اخته بنت الابن ، او الأخ الشقيق مع اخته الشقيقة .

وتظهر مسئولية هذه العصبة في التوضيح الآتي :

آ — فالنوع الاول الذي يمثل الأصل للمتوفى يحتفظ الشرع بنصيبه من الارث مع فروع المتوفى (الاولاد) ، لأن البنوة والابوة من الطبقة الأولى بين الوارثين ، ويحتفظ للاب او الجد بشخصيته بإرثه المتميز به ليكون في موقع الأصالة والإشراف في الاسرة .

١ — فالاب يأخذ السدس فرضاً إذا كان لولده المتوفى فرع وارث مذكر (ابن او ابن ابن) واحداً كان او متعدداً ، او كان له بنت صلبية او اكثر حسب المادة الحادية والتسعين من القانون العراقي — التعديل الثاني — .

٢ — يأخذ السدس فرضاً والباقي بعد اصحاب الفرض — إن بقي شيء — تعصيباً ، إذا كان للمتوفى بنت مجازية (بنت ابن) واحدة كانت او اكثر ، ولم يكن للمتوفى ابن او ابن ابن ، ولم يكن له بنت صلبية يرد اليها الباقي بعد فرضها .

٣ – يأخذ الباقي من التركة بعد اصحاب الفروض او كل التركة إن لَمْ يوجد صاحب فرض بطريق التعصيب إذا لم يكن للمتوفى فرع وارث مطلقاً ، ودليل ميراث الاب بالفرض قوله تعالى (ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إنْ كان له ولد ، فإن لم يكن له ولد وورثه ابواه فلأمه السدس) سورة البقرة ١١ ودليل استحقاقه التعصيب من الحديث النبوي «الحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فهو لأوْلى رجل ذكر» رواه البخاري (١٧) .

فالملاحظ في نصيب العصبة الأصلية أن المشرع راعى فيها توجيهات حكيمة متعددة منها :

الاولى : إن عصوبة الأب تمثل الأصل المعتمد في اسرة ابنه المتوفى الذي لم يعقبه فرع وارث مذكر ، فاستبقى الشرع له هذه المسئولية على اسرة ولده المتوفى لكي يواصل معها مسيرة الحياة بمعاونته لها في الإشراف والنفقة وتعويضها بالرعاية الحانية عن الظروف الموحشة التي اصيبت بها بفقد عائلها المتوفى ، فيكون ما حصل له من التركة مشجعاً لشعوره بالابوة الباقية فيجعله مع بعض امواله في الإنفاق عليها ويكون هذا الشعور حافزاً له على المسئولية والتكافل الذاتي ، فكانت هذه العصوبة النسبية عامل شدٍّ قوي لرعاية اسرة ولده وتعاهدها في العسر واليسر دائماً .

الثانية : إن حالة حصول الاب على الارث بالتعصيب يجعله في موقع التمكن والاستطاعة حين تكون معه زوجته التي قد تكون أُماً لولده المتوفى وقد حصلت هي على السدس من تركة ولدها فيعزز التعصيب موقفه في المسئولية عن اسرته واسرة ولده المتوفى بالتزام جاد .

الثالثة : إن الأب والأم في حالة الإرث من ولدهما الذي له فرع وارث يكون

---

(١٧) العسقلاني : المرجع السابق جـ ١٥ ص ١١ .
والأمام مسلم : صحيح مسلم – مطبوع بهامش شرح النووي – مطبعة محمد صبيح بالقاهرة جـ ٥ ص ٥٩ .

لكل منهما السدس فقط ، فلا يزيد نصيب الاب على الام بالرغم من كونه يتحمل نفقة الأم لأن عصوبته صارت محجوبة بالفرع الوارث .

وهكذا يبدو لنا أن التعصيب للأصل — وهو الأب — لم يزده في سهام الارث عن نصيبه المماثل للأم — وهو السدس — إلا في حال مقابلة المسئولية الإضافية عن اسرة ولده المتوفى وذلك للابقاء على رابطة النسب بوشائج الرحم وتماسك اطرافها . ومما تجدر الإشارة اليه أن هذه الملاحظة تتفق مع ما ذهب اليه الفقه السني عندما يجعل للاب الحق في الباقي من التركة لأنه عصبة المتوفى حينما يكون له فرع مؤنث — بنت او بنات — ولكن قانون التعديل الثاني قد جعل الباقي مردوداً على البنت او البنات ، وهذا مما يتسبب في قطع شعور الأب بالمسئولية عن حفيداته او يضعف هذا الشعور عند البنات بوجود صلة العصوبة بهن من جدهن .

ب — اما النوع الثاني وهو العصبة الذي يؤثر في غيره — كالابن والاخ فان له حالتين :

الاولى : إذا كان معه أنثى من درجته فإنه يكسبها التعصيب ، كالبنت مع الابن ، والاخت مع الاخ ، فهي لا تأخذ نصيبها المفروض — وهو النصف بل إنها تكون مع اخيها في الباقي من التركة بعد اصحاب الفروض للذكر مثل حظ الانثيين عملاً بقوله تعالى في شأن الأولاد (يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين ...) سورة النساء ١١ ، وفي الاخ والاخت بقوله تعالى (وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين) سورة النساء ١٧٦

الثانية : اما لو كان الابن او الاخ من غير اخت فان له باقي التركة بعد اصحاب الفروض ، او كل التركة عند عدم وجود صاحب فرض .

والذي تجدر الإشارة اليه أن الشريعة الاسلامية تعطي الوارث الرجل حسب عبائه ، وتعطي المرأة وفق أعبائها ، فليست المسألة مسألة محاباة جنس على حساب جنس ، فالرجل يتزوج امرأة فيكلف بإعالتها ، اما هي فإما ان تقوم بنفسها

فقط ، وإما أن يقوم بها رجل عند الزواج ، فالرجل مكلف أكثر من ضعف تكاليفها في الحقيقة (١٨).

المطلب الثالث

« حكمة تفضيل الابن على الأب في مقدار الارث مع انهما عصبة »:

إن الوارثين الذين يدخلون في عمود النسب يستوون في حق الارث لأنهم من طبقة واحدة كالأولاد والوالدين ، ولكنْ مَن وجد منهم وفيه معنى زائد من الرفق والمصلحة في الحفاظ عليه فيقدم على غيره كتقديم الابن على الأب . وبالرغم من كون البنوة والأبوة من الطبقة الأولى فإن الأبناء مقدمون في العصوبة على الآباء ، فقد جعلت الشريعة للأب فرضاً معيناً مع الاولاد — وهو السدس — ، ولم تجعل للابن او الأبناء فرضاً ، بل جعلت لهم الباقي ، فدل هذا على ان الولد المذكر مقدم على الأب في التعصيب (١٩) .

وإن حالة انفراد الاولاد الذكور بالتركة يلزم منها ان يشتركوا فيها على التساوي من غير تمييز بينهم عملاً بالحديث النبوي «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فهو لأولى رجل ذكر» وحين يكون الابن مع الأب ويجعل الشرع للأب السدس يجعل الباقي كله للابن إنْ كان وحده ، وإن كانوا ابناء فلهم الباقي بالتساوي ؛ لأن قيام الابن مقام ابيه وضع طبيعي جرت عليه سُنة العالم من انقراض جيل ومقام جيل بعده (٢٠) ،فصار الابن مقدماً في مقدار الارث على سهم الاب لأنه احوج اليه ، وكذلك الأولاد عموماً تكون سهامهم اكثر من سهام الاب لأنهم احوج اليها .

وقد شخص الفخر الرازي هذه الحكمة عند تفسيره قول الله تعالى «ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد» سورة النساء ١١ وذكر

---

(١٨) سيد قطب : في ظلال القرآن ، مطبعة البابي الحلبي ط ٢ ج ٤ ص ٩٠ .
(١٩) الفرضي ، المرجع السابق ص ١٠٦ .
(٢٠) الدهلوي : المرجع السابق ج ٢ ص ٦٧٣ .

تعليلات حكيمة فقال في المسألة الاولى : «لاشك أن حق الوالدين على الإنسان أعظم من حق ولده عليه، وقد بلغ حق الوالدين إلى أن قرَن الله طاعته بطاعتهما فقال : (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلاّ إياه وبالوالدين إحسانا ...) الإسراء ٢٣، وإذا كان كذلك فما السبب في أنه تعالى جعل نصيب الأولاد اكثر ، ونصيب الوالدين اقل ؟ والجواب عن هذا في نهاية الحسن والحكمة، وذلك لأن الوالدين ما بقي من عمرهما إلا القليل ، فكان احتياجهما إلى المال قليلا ، اما الأولاد فهم في زمن الصبا فكان احتياجهم إلى المال كثيراً فظهر الفرق» (٢١) . ويزيد صاحب المنار فيقول (٢٢) : «وإنما كان حظ الوالدين من الارث اقل من حظ الأولاد — مع عِظَم حقهما على الولد لأنهما يكونان في الغالب اقل حاجة من الأولاد ، إمّا لكبرهما وقلّة ما بقي من عمرهما ، وإمّا لاستقلالهما وتمولهما ، وإما لوجود مَن تجب عليه نفقتهما من اولادهما الأحياء ، وأما الأولاد فإما أنْ يكونوا صغاراً لا يقدرون على الكسب ، وإمّا أنْ يكونوا على كبرهم محتاجين إلى نفقة الزواج وتربية الأولاد ، فلهذا وذاك كان حظهم من الإرث اكثر من حظ الوالدين» .

إن النظام الاسلامي يرعى معنى التكافل العائلي كاملاً ، فكل ذوي القرابة اصحاب حق في الإرث ، كما ان عليهم واجب الكفالة عند الحاجة ، والذي يتضح من نظر الشريعة الاسلامية إلى إرث الأولاد والوالدين هو أن الأولاد يكون الإرث لهما من الوالدين هو المصدر الأساسي لإرثهما ، بينما للوالدين قد توجد جهات اخرى وموروثون آخرون ، فضلاً عن أن الإرث العائد عليهما من اولادهما هو فضلة زائدة في حياتهما لم تكن منتظرة في حسابهما ، فالمنتظر عادة أن يرث الاولاد ابويهم ، كما ان الوالد — ولو انه هو العائل لزوجته (الأم) فانه غير معتمد على هذا الارث في معيشتهما ، فليس من موجب لأن يعطى ضعف نصيبها ، وهما في آخر حياتهما في العادة (٢٣) .

(٢١) الرازي : المرجع السابق ص ٢١٢ .
(٢٢) محمد رشيد رضا : المرجع السابق ج ٤ ص ٤١٦ .
(٢٣) سيد قطب / المرجع السابق ، ج ٤ ص ٩١ .

وعند التأمل في التفاضل بين الذكر والأنثى من زاوية النظر إلى العصوبة ـ سواء كانا ابناً وبنتاً او اخاً واختاً، او الابوين عندما لا يكون لولدهما المتوفى فرع وارث، تبدو تعليلات حكيمة يَعُدّها الشارع ذات اعتبار وآثار في الحقوق المالية والاجتماعية، وذلك لكي يتسنى للعصبة الاضطلاع بالمسئولية المناطة بها، فالعصبة قد اوكل اليها الشارع مسئولية الإشراف على ذوي قرابتها لتنهض بمهمتها ورعايتها بعد فقد عائل الاسرة.

إن مهمة العصبة هنا سواء كان ابناً او اخاً او أباً تأتي بموقع الوظيفة الشرعية للعصبة الذكور لتبعث الاطمئنان للأسرة بوجود العائل المسئول بعد وفاة عائلها،

وهذه النظرة الشرعية يراعيها التشريع الاسلامي الذي يستدل لها بالنص القرآني الكريم الذي يُحَمِّل العصبة واجب القيام بشئون الأسرة من النساء والقاصرين من جانب التوجيه الاجتماعي والتربوي إلى جانب الإنفاق بصورة طوعية وتكليفية. فالله تعالى يقول: (الرجال قوّامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من اموالهم ...) سورة النساء ٣٤. يقول الفخر الرازي في معنى «القوامون» «القوّام: اسم لمن يكون مبالغاً في القيام بالأمر، يُقال: هذا قيم المرأة وقوامها للذي يقوم بأمرها ويهتم بحفظها ...» (٢٤). فالمعنى الذي وصف الله تعالى به الرجال المسئولين عن نسائهم فأخبر عنهم بأنهم قوّامون يُقَصِّهم منه اداء مهمتهم العائلية الكاملة بكل صدق وأمانة، لأن الرجل في الأسرة بمقام شق للكائن الحي، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم «النساء شقائق الرجال». فليس مما ينقص من مقام المرأة أن يكون زوجها القائم بالمسئولية عنها وعن اولاده لما وهبه الله من طاقة وقدرة على العمل خارج البيت، كما وهبها الله من طاقة وموهبة في رعاية الطفل وشئون البيت تفوق ما للرجل من كفاءة، وهكذا كانت القوامة للرجل على الأسرة تقابل الوظيفة الأمينة والادارة الناجحة لتوفير طلبات الأسرة من خارج البيت، وكانت المرأة فيه

(٢٤) الرازي، المرجع السابق جـ ٩ ص ٨٨.

سيدة البيت ومنشئة الجيل ، وهكذا كان الرجل والمرأة في تعاونهما عماد الأسرة بكل مقتضيات حياتها .

الفرع الثاني

(المطلب الاول)

(قانون التعديل الثاني مع عصوبة الاب والجد او العم وغيرهم)

إن حالة وجود البنت او البنات المنفردات بالارث اللواتي ليس معهن اخ (ابن المتوفى) قد قرر فيها فقهاء السنة استحقاق البنت الصلبية للنصف وللبنتين الصلبيتين فأكثر الثلثان ، عملا بظاهر حكم النص القرآني في قوله تعالى (يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين ، فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وإن كانت واحدة فلها النصف....) النساء ١١ واستدلالا بما جاءت به السنة النبوية في احكام الميراث في بيانها التفصيلية التي خولها الله لرسوله فقال تعالى (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم) سورة النحل ٤٤ فقد اورد المفسرون وأهل الحديث في اسباب نزول الآية المذكورة التي قررت ميراث البنات برواية عطاء قال : «استشهد سعد بن الربيع وترك ابنتين وامرأة وأخا ، فأخذ الأخ المال كله ، فأتت المرأة وقالت يا رسول الله : هاتان ابنتا سعد ، وإن سعداً قُتِل ، وإن عمهما اخذ مالهما ، فقال عليه الصلاة والسلام : «ارجعي فلعل الله سيقضي فيه» ، ثم إنها عادت بعد مدة وبكت فنزلت هذه الآية ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمهما وقال : أعط ابنتي سعد الثلثين ، وامهما الثمن ، وما بقي فهو لك» فهذا اول ميراث قُسم في الإسلام» (٢٥) .

فاستدل الفقهاء بقضاء النبي صلى الله عليه وسلم . في هذه الحادثة وجعلوا ما بقي بعد نصيب البنات واصحاب الفروض للعصبة . قال ابن حجر : قال.

---

(٢٥) الرازي ، المرجع السابق جـ ٩ ص ٢٠٣ — ٢٠٤ .
والعسقلاني ، المرجع السابق — جـ ١٥ ص ٤ .

النووي : «اجمعوا على ان الذي يبقى بعد الفروض للعصبة ، يُقَدم الأقرب فالأقرب ، فلا يرث عاصب بعيد مع عاصب قريب . والعصبة كل ذكر يُدْلي بنفسه بالقرابة ليس بينه وبين الميت انثى ، فمتى انفرد اخذ جميع المال ، وإن كان مع ذوي فروض غير مستغرقين اخذ ما بقي ، وإنْ كان مع مستغرقين فلا شيء له» (٢٦) .

وهذا الإجماع من الفقهاء يعتمد — بالطبع — على الحديث الآتي ايضاً والذي رواه البخاري في صحيحه وغيره عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «ألحقوا الفرائض بأهلها ، فما بقي فهو لأولى رجل ذَكَر» (٢٧). وقد فهم الفقهاء أحقية العصبة بالباقي من التركة من ظاهر الحديث المذكور ايضاً إضافة إلى قضائه السابق في إعطائه الباقي لعم بنتي سعد بن الربيع. وفسر الكرماني — وهو من شراح صحيح البخاري — كلمة الأولى بمعنى القريب الأقرب ، فكأن الحديث قال : فهو لقريب الميت الذَكَر من جهة رجل وصُلْب لا من جهة بطن ورحم (٢٨) .

أما المذهب الجعفري الذي يتخذ قاعدة في الميراث وهي «كلّ مَن كان اقرب للمتوفى في درجة هو اولى بالميراث» كالابن والاب ، ثم الجد والأخ وهكذا (٢٩) ، يقول الحلي : «فلا ميراث لولد ولد مع ولد ذَكَراً كان او انثى ، حتى إنه لا ميراث لابن ابن مع بنت ، ومتى اجتمع اولاد الاولاد وإن سفلوا — اي نزلت درجتهم فالأقرب منهم يمنع الأبعد ، ويمنع الولد مَن يتقرب بالأبوين او بأحدهما كالإخوة وبنيهم والاجداد وآباءهم والاعمام والأخوال وأولادهم ......» (٣٠) .

(٢٦) العسقلاني : المرجع السابق جـ ١٥ ص ١٤ .
(٢٧) العسقلاني : المرجع السابق جـ ١٥ ص ١١ .
(٢٨) المرجع السابق جـ ١٥ ص ١٤ .
(٢٩) الفرضي ، المرجع السابق ص ١١٤ .
(٣٠) جعفر الحلي : شرائع الأسلام — تحقيق محمد جواد مغنية ، منشورات مكتبة الحياة — بيروت . ٩٧٨ جـ ٢ ص ١٨٣ .

وإن المشرع العراقي قد اصدر قانون التعديل الثاني رقم (٢١) لسنة ١٩٧٨ ونص في الفقرة الثانية من المادة (٩١) على ان البنت بحكم الابن تماماً ، فهي تَحْجُبُ الورثة جميعاً عدا الأب والأم وأحد الزوجين ، بصرف النظر عن كون الورثة يرثون بالفرض او بالتعصيب او بالقرابة ، إذْ يُعْطِي لمن وُجد معها من الأبوين او احد الزوجين فرضه فقط وتأخذ هي واحدة كانت او أكثر فرضها جميع الباقي .

ويتفق قانون التعديل الثاني مع ما ذهب اليه الفقه الجعفري في حجب البنت او البنات مَنْ هم دونهن في الدرجة كأولاد الابن وغيرهم من العصبات كالجد والعم ، ولكن المشرع العراقي حين اكتشف بعض الحالات السلبية التي لحقت بأحفاد المتوفى الذين توفي ابوهم قبل جدهم ، اصدر قانون التعديل الثالث لقانون الاحوال الشخصية رقم (١٨٨) لسنة ١٩٥٩ برقم (٧٢) لسنة ١٩٧٩ وقد جاء القانون الجديد في واقع الأمر إنصافاً لجميع اولاد الأولاد الذين يتوفى اصلهم قبل اصله من جهة، وتلافياً لما قد احدثه نص الفقرة الثانية مِنْ المادة (٩١) المضافة بموجب قانون التعديل الثاني من حَيْف بحق بعض اولئك الفروع من جهة اخرى .

وإن من المتفق عليه عند جمهور فقهاء اهل السنة ان بنت المتوفى واحدة او اكثر لا تحجب ابناء الأبناء من الميراث ، بل تأخذ هي نصيبها (النصف للواحدة والثلثان للأكثر) بالفرض ، ويكون الباقي لابن او ابناء الابن بالتعصيب ، كما أن البنت الواحدة عندهم — جمهور فقهاء اهل السنة — لا تحجب بنت الابن فأكثر بل يكون للأخيرة سدس التركة تكملة للثلثين ، فرض البنات المتعددات ، وفي هذا الحكم نوع من تحقيق العدالة في عدم حرمان بعض اولاد الاولاد من أنْ يستحقوا في تركة اجدادهم او جدّاتهم ، وتخفيف لهم من الم اليتم وفجيعتهم بفقد احد الأبوين .

وحيث ان قانون التعديل الثاني — كما سبق بيان حكمه — حجب اولاد الأولاد جميعاً بالبنت وإن كانت واحدة ، لهذا عمل المشرع العراقي على رفع

ذلك الحيف بصورة اعم وأشمل فعمد إلى إنصاف كافة الفروع الذين يفقدون آباءهم وامهاتهم فجعل لهم نصيباً في تركة اجدادهم او جداتهم مستنداً فيما ذهب اليه إلى رأي معروف في الفقه الاسلامي (٣١) . فقد نقل المفسرون في تفسير قوله تعالى : (كتب عليكم اذا حضر احدكم الموت إن ترك خيراً ، الوصية للوالدين والاقربين بالمعروف حقاً على المتقين) سورة البقرة ١٨٠ إجماعاً للعلماء على ان الوصية للوالدين اللذين لا يرثان — كأن يكونا كافرين — وللاقرباء الذين لا يرثون قد ندب اليها النص القرآني ودعا اليها ،ونسبوا هذا الرأي إلى الامام علي وابن عباس والحسن البصري وطاوس والضحاك ومسروق وغيرهم (٣٢) . ويتناسب هذا الرأي الذي يدعو إلى الوصية لمن لا يرث من الاقارب ،وأولاد الأولاد هم من اقرب القريبين إلى اجدادهم او جداتهم ، وأحق بالصلة (٣٣) .

وحين كان قانون التعديل الثالث قد شرَّع لهم هذه الوصية التي سماها بالواجبة وجعلها في حدود الثلث يكون قد اخذ بما يدعو اليه روح التشريع الإسلامي في استلهام دعوة الآية الكريمة بالوصية لهم بتعصيب اصلهم من التركة وفي حدود الثلث كما اشارت اليه المادة الاولى من القانون المذكور ونصها : المادة الاولى — تحل (المادة التالية) محل (المادة الرابعة والسبعين — الملغاة) من قانون الاحوال الشخصية رقم (١٨٨) لسنة ١٩٥٩ المعدل .

(المادة الرابعة والسبعون : ١ — إذا مات الولد ذكراً كان ام انثى قبل وفاة أبيه او امه فانه يعتبر بحكم الحي عند وفاة اي منهما ، وينتقل استحقاقه من

---

(٣١) د. احمد علي الخطيب — المرجع السابق ص ٧٧ .

(٣٢) الفخر الرازي : المرجع السابق حـ ٥ ص ٦٩ وايضاً ابو عبد الله القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن — مطبعة كتاب الشعب بالقاهرة ، حـ ٢ ص ٣٦٥ رشيد رضا: المرجع السابق حـ ٢ ص ١٣٧ .

(٣٣) يرى القانون المصري في الاحفاد من اولاد متعددين أنهم شركاء جميعاً في ثلث التركة، ويرى القانون السوري ان اولاد البنت غير مشمولين بالوصية الواجبة لانهم من ذوي الأرحام ويذهب الى مثل رأيه القانون المغربي ، (هشام قبلان : الوصية الواجبة في الأسلام ط ١ — بيروت ١٩٨١ منشورات عذيران ص ٥٧) .

الارث إلى اولاده ذكوراً كانوا أم إناثاً حسب الأحكام الشرعية باعتباره وصية واجبة ، على ان لا تتجاوز ثلث التركة .

٢ — تُقدَّم الوصية الواجبة بموجب الفقرة (١) من هذه المادة على غيرها من الوصايا الأخرى في الاستيفاء من ثلث التركة .

المادة الثانية : ينفذ هذا القانون من تاريخ نشره في الجريدة الرسمية ، وتسري احكامه على وفيات الأجداد والجدات التي تقع بعد نفاذه .

المطلب الثاني : — آثار التعديل الثاني في مسئولية العصبة

سبقت الاشارة إلى حكم قانون التعديل الثاني لقانون الاحوال الشخصية بمنح البنت عند وفاة احد الوالدين — حين لم يكن له ولد مذكر — ما يبقى من التركة بعد اخذ الزوج الآخر والوالدين فروضهم إضافة إلى فرض البنت او البنات ، وحين لا يكون مع البنت احد من اصحاب الفروض فان باقي التركة يعود اليها رداً وإن كان للمتوفى عصبة .

إن هذا القانون يتحمل النقاش والملاحظة لما فيه من التعارض مع حكمة الشارع في الميراث ، ومن صور هذا التعارض ما تناوله البحث الجاد في مناقشته الموضوعية (٣٤) برجاء ان يلاحظها المشرع بعين الاعتبار للنظر في تداركها في المستقبل ، وإن البحث سيشير إلى هذه الصور بخلاصة مع التحليل .

آ — إن استحقاق البنت او البنات لباقي التركة في حالة عدم وجود ابن للمتوفى بعد اخذ الابوين والزوج الآخر فروضهم منها حسبما جاء في قانون التعديل الثاني يترتب عليه حجب الجد عن الميراث ، مع أنه من أصحاب الفروض ، بينما نجد ان وجود ابن المتوفى لا يترتب عليه حجب الجد عن فرضه ، فكيف يجوز أن يحجبه وجود البنت

(٣٤) د. ليلى عبد الله سعيد : تشريعات الثورة لواقع المرأة الاسري وآفاقهما المستقبلية : بحث في مجلة التربية والعلم الصادرة من كلية التربية بجامعة الموصل — العدد ٨ — ايلول السنة ١٩٨٩ ص ٤٣١ .

إذا لم يكن معها اخوها — ابن المتوفى — الذي يعصبها ؟ وهذا تعسّف واضح للجد لا مبرر له ، وهو مخالف لأحكام الشريعة الاسلامية ، ولا يحقق حكمة الشارع في توظيف كل صاحب حق بواجب يتعلق بمسئوليته .

ب — على فرض أن والد البنت لو كان فقيراً معسراً غير قادر على الكسب فإن من الواجب في الشريعة ، وفي قانون الأحوال الشخصية في المادة (٦٢) أن تكون نفقتهم جميعاً على من يرث الأب من اقاربه (العصبات) الموسرين بمقدار إرثهم منه ، فاذا مُنعت العصبات من الميراث مع البنت عند وفاة ابيها حين لم يكن معها ابن فليس من التكافؤ العادل أنْ تُكلف العصبة بالنفقة على اسرة الاب عند عجزه ، وسوف لا يجد مَنْ يُنفق عليه استناداً لتلك المادة ، وعندئذ يكون التعديل قد أغفل حق الفقراء على الاغنياء من العصبة ، وهذا مخالف للعداله التي يقصدها المشرع

جـ — إن هذا التعديل قد يكون — في اغلب الاحوال — فيه إجحاف للبنات أيضاً ، وذلك إذا كان للمتوفى اكثر من بنت ، ويظهر هذا في القسام الشرعي الذي نعرض منه وجهين : احدهما في سهام البنات واصحاب الفروض معهن قبل التعديل ، والثاني في حالة التعديل ليتضح الفرق بينهما وبيان ما هو الأفضل للبنات لإبقاء المسئولية على العصبة ، وهو الوجه الخاص — بحالة وفاة الزوج عن زوجة وأم وأب وبنتين او اكثر :

آ — قبل التعديل	زوجة	أم	أب	بنتان او أكثر	
١ —	١	١	١	٢	
اصل المسألة	٨	٦	٦	٣	(صورة البنات في الارث قبل التعديل)
٢٤	٣	٤	٤	١٦	

ثم تعول المسألة إلى اصل جديد للمسألة وهو مجموع السهام البالغ (٢٧).
ولما لم يكن في المسألة باق فان العصبة – وهو الاب – لا يكون له الا سهمه فقط (٣٥).

– اما حالة البنت الواحدة فهي كالآتي :

٢ –

	زوجة	أم	أب	بنت	
	١	١	١	١	صورة البنت
اصل المسألة	٨	٦	٦	٢	الواحدة في الارث
٢٤	٣	٤	٤	١٢	قبل التعديل

وبعد توزيع السهام يبقى سهم واحد ، فيرد إلى العصبة وهو الاب

ب– بعد التعديل – إن نفس الوارثين لنفس المسألة تكون حسب منطوق المادة (٩١) الفقرة (٢) بإخراج سهام الابوين والزوجة اولاً وإعطاء الباقي للبنات .

١ –

	زوجة	أم	أب	بنتان او فأكثر	
	١	١	١	الباقي	صورة البنات
اصل المسألة	٨	٦	٦		في الارث
٢٤	٣	٤	٤	١٣	بعد التعديل

---

(٣٥) العول : نقصان أصل المسألة عن مجموع سهام اصحاب الفروض، او زيادة كسور اصحاب الفروض . وهو مأخوذ من المعنى اللغوي للعول الذي يأتي بمعنى الزيادة والأرتفاع . (د . الخطيب : المرجع السابق ص ١٣١ .)

أما حالة البنت الواحدة فهي كالآتي :

	زوجة	ام	أب	بنت	
٢ —					
	١	١	١	الباقي	(صورة ارث
اصل المسألة	٨	٦	٦	١٣	البنت الواحدة
٢٤	٣	٤	٤		بعد التعديل)

فالملاحظ في قسام هذه المسألة هو :أن إرث البنات في حالتي قبل التعديل وبعده متقارب ، وان إرث البنت الواحدة قبل التعديل والبالغ نصف التركة قد بقي منها بعد سهام اصحاب الفروض سهم واحد من ٢٤ فكان للأب الذي يتصدر المسئولية عن الأسرة. وأما بعد التعديل فكان نصيب البنت ما بقي بعد اصحاب الفروض وهو نفس ما كان لها قبل التعديل مع اضافة السهم الباقي اليها .

ثانياً : الوجه الخاص بوفاة الزوجة (ام البنت او البنات) وتظهر فيه صورة الغبن في نصيب البنات خاصة .وقسامها كالآتي ولنفس الوارثين في المسألة السابقة :

آ — قبل التعديل	زوج	ام	اب	بنتان او اكثر	
١ —	١	١	١	٢	
	٤	٦	٦	٣	
اصل المسألة					١—(صورة إرث البنتين
١٢	٣	٢	٢	٨	فأكثر قبل التعديل)

ثم تعول المسألة إلى (١٥) وهو مجموع سهام الوارثين فيكون

نصيب البنات ٨/١٥ وهو اكثر من نصف التركة . وليس فيها باق

٢ –

زوج	ام	اب	بنت	
١/٤	١/٦	١/٦	١/٢	٢ – (صورة إرث البنت الواحدة)

أصل المسألة

١٢	٣	٢	٢	٦

ثم تعول إلى (١٣) وهو مجموع سهام الوارثين . وليس فيها باق .

ب – بعد التعديل : –

(١)

زوج	ام	أب	بنتان فأكثر
١/٤	١/٦	١/٦	الباقي

اصل المسألة – (صورة ارث البنات بعد التعديل)

١٢	٣	٢	٢	٥	١

(٢) — زوج ام اب بنت

	زوج	ام	اب	بنت
— (صورة إرث البنت الواحدة) —	١/٤	١/٦	١/٦	الباقي

اصل المسألة

١٢	٣	٢	٢	٥

فالملاحظ ان نصيب البنات بعد التعديل $\frac{٥}{١٣}$ وهو اقل من نصف التركة

وكان قبل التعديل $\frac{٨}{١٥}$ وهو اكثر من نصف التركة

ولعل الصورة الراجحة التي يعينها التعديل هي حالة العصوبة بالجد ومعه الأم وأحد الزوجين والبنت فيُحجب الجد بالبنت . وصورتهما كالآتي :

	زوجة	أم	جد	بنتان أو اكثر
آ– قبل				
التعديل : ١ –	$\frac{1}{8}$	$\frac{1}{6}$	$\frac{1}{6}$	$\frac{2}{3}$

١ – (صورة إرث البنات قبل التعديل)

اصل المسألة				
٢٤	٣	٤	٤	١٦

ثم تعول المسألة إلى ٢٧ وهو مجموع سهام الوارثين فيكون نصيب البنات $\frac{16}{27}$

٢ –	زوجة	أم	جد	بنت واحدة
	$\frac{1}{8}$	$\frac{1}{6}$	$\frac{1}{6}$	$\frac{1}{2}$

٢ – (صورة إرث البنت الواحدة)

اصل المسألة				
٢٤	٣	٤	٤	١٢

ثم ترد إلى (٢٣) وهو مجموع سهام الوارثين فيكون نصيب البنت $\frac{١٢}{٢٣}$

ب – بعد التعديل :

١ –

زوجة	أم	جد	بنتان او أكثر
$\frac{١}{٨}$	$\frac{١}{٦}$	محجوب بالبنات	الباقي

اصل المسألة					١ – (صورة ارث البنات بعد التعديل)
٢٤	٣	٤	لاشيء	١٧	البنات

فيكون نصيب البنات $\frac{١٧}{٢٤}$

٢ –

زوجة	أم	جد	بنت واحدة
$\frac{١}{٨}$	$\frac{١}{٦}$	محجوب بالبنت	الباقي

اصل المسألة					٢ – (صورة إرث البنت الواحدة)
٢٤	٣	٤	لاشيء	١٧	البنت الواحدة

فيكون نصيب البنت $\frac{١٧}{٢٤}$

وحسب هذا الاجراء في حجب الجد من فريضته ومن نصيبه في العصوبة صار مُبْعَداً مما افترضه فيه التشريع الاسلامي ووكله اليه من تحمل المسئولية عن الاسرة ليقوم مقام ابنه (أب المتوفى) . وهذا الإجراء سيؤدي في الغالب إن لم يكن على وجه التأكيد إلى دفع العصبة المحجوبة إلى التخلي عن واجب النفقة على من يُسأل عنها في حياة المتوفى الذي يكون عاجزاً عن الكسب او محتاجاً مع اسرته إلى النفقة عملاً بالمادة (٦٢) من قانون الأحوال الشخصية رقم (١٨٨) لسنة ١٩٥٩ ، وسيؤدي أيضاً – ومن باب الأولى– إلى أن تُعْفِي العصبةُ نفسَها من واجب النفقة بعد وفاة رب الأسرة الذي تتصل به العصوبة المباشرة .

وبموجب هذا الإجراء تصير هذه المادة معطلة او ملغاة في مجال التطبيق. فالجد قد اصابه الغبن مرتين : حيث حُجِب عن فرضه اولاً ، ثم حُجِب عن نصيبه من العصوبة ثانياً إذا كان في التركة باق . وكذلك اب المتوفى ، وأخ المتوفى – وهو عم البنت – عندما لا يوجد الأب سوف يحجبان ، ولا يجدا نفسيهما في موضوع الشعور بالمسئولية عن اسرة المتوفى ، ولو أنّ الأب له فرضه الخاص به وهو السدس مع الفرع الوارث ، وأن الاخ ليس له فريضة مع البنت ولكن له الباقي بعد فرضها وفروض سائر الوارثين إن بقي في التركة بقية .

إن الابقاء على مرتبة العصوبة التي اجمع عليها فقهاء اهل السنة في اعطائها الباقي من التركة يحفظ التماسك في الأسرة ، ويشعر العصبة بمسئوليته عنها ، وهذا حق شرعي ثابت في السنة النبوية الصحيحة في قوله صلى الله عليه وسلم: «الحقوا الفرائض بأهلها ، فما بقي فهو لأولى رجل ذكر» (٣٦) .

إن حرمان العصبة من باقي التركة يتسبب في تفكك الرابطة الأسرية ، ويتعارض مع القاعدة الفقهية «الغنم بالغرم» وقاعدة : «كل حق يقابله التزام وواجب» .

---

(٣٦) العسقلاني . المرجع السابق جـ ١٥ ص ١١ .

والذي يبدو للبحث أن توجه المشرع في حجب الجد بالبنت بموجب قانون التعديل الثاني قد تأثر برأي بعض الفقهاء من غير اهل السنة ، ومنهم الفقه الزيدي الذي يرى احد فقهائه المعتمدين انه لا يجب اعطاء الباقي للجد العصبة ولكنه لا يحجبه عن نصيبه المفروض . فقد جاء في نيل الاوطار – وهذا اجتهاد منه ، فقد نظر في الحديث الذي رواه عمران بن حصين ان رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إنّ ابنَ ابني مات فمالي من ميراثه ؟ قال «لك السدس» فلما ادبر دعاه فقال : «لك سُدُسٌ آخر» فلما ادبر دعاه فقال : «إنّ السدسَ الآخر طُعُمَةٌ» (٣٧) يقول الشوكاني ، وحديث عمران يدل على أنّ الجد يستحق مافرض له رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وصورة هذه المسألة ان المتوفى ترك بنتين وهذا السائل (الجد) فللبنتين الثلثان ، والباقي ثلث دفع صلى الله عليه وسلم منه إلى الجد سُدساً بالفرض لكونه جدّاً ،ولم يدفع اليه السدس الآخر الذي يستحقه بالتعصيب لئلا يظن ان فرضه الثلث ، وتركه حتى ولى – أي ذهب – فدعاه وقال لك سدس آخر ، ثم اخبره أن هذا السدس طعمة زائدٌ على السهم المفروض ، وما زاد على المفروض فليس بلازم كالفرض (٣٨) .

فقول الشوكاني في آخر كلامه « ومازاد على المفروض فليس بـــلازم كالفرض » قد يكون في نظر المشرع العراقي محمولا على جواز حرمان الجد وحجبه عند هذه الزيادة –وهي الباقي من التركة – إلا ان قانون التعديل الثاني قد حجب الجد عن الفرض والباقي ، وهو حكم لايراه الشرع ولا القانـــون قبل التعديل أو بعده في حال اجتماع الابن مع الجد ، حيث يأخذ الجد السدس بالفرض ، ويكون الباقي للابن تعصيبا .

ولو ان المشرع لهذا القانون قد اكتفى بحجب نصيب الجد من العصوبـــة لكان التعديل أهون ضرراً بالجد ، فيتقرر له الحد الأدنى وهو سهم الفريضة

(٣٧) ابن حجر العسقلاني ،بلوغ المرام من ادلة الاحكام، طبعة مصطفى محمد ، القاهرة ص١٩٦ رقم ٩٧٥ .

(٣٨) محمد علي الشوكاني : نيل الاوطار ، المطبعة العثمانية المصرية، القاهرة ج ٦ ص ٩١ .

عملا بما ذهب اليه بعض الفقهاء كالمذهب الجعفري (٣٩) – في تقرير علـو الطبقة في الميراث دائماً ، وعندئذ يكون هذا المنهج موافقاً لاتجاه قانـون التعديل الثاني ومقاصده العامة .

المطلب الثالث : حالة إرث الوالدين من ولدهما ومعهما احد الزوجين

إن نصيب الوالدين يتأثر في حال إرثهما من ولدهما المتوفي الذي لم ينجب فرعاً وارثاً وكان للمتوفي زوج ، فبعد إعطاء الزوج نصيبه المفروض يكون باقي التركة للوالدين أثلاثاً ، ثلث للأم، وثلث للأب ، وذلك لأنه وجد بالإستقراء أن الأم لو أعطيت ثلث كل التركة في هذه الحالة لقارب سهمها سهم الأب أو لزاد عليه ، في حين أن الأبوين لو انفردا وحدهما لكان للام الثلث وللأب الثلثان ؛ لصراحة قوله تعالى «فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث» سورة النساء ١١ ؛ ولأن الأبوين في أصول المتوفي كالابن والبنت في فروعه ، إذ كل منهما يتصل بالمتوفي مباشرة بلا واسطة ، وبما ان الابن والبنت عند اجتماعهما يأخذان التركة أو الباقي منها بعد أصحاب الفروض للذكر مثل حظ الأنثيين ، فكذلك الابوان . ويرى الفقهاء ايضاً ان القيد الوارد في نص الاية في ميراث الأبوين « وورثه أبواه » يدل على أن الأم إنما تستحق ثلث كل التركة عنـد اجتماعهما – الأم والأب – وانفرادهما بالتركة ؛ إذ لو كانت تأخذ ثلث الكل عند وجود وارث آخر لما كان لهذا القيد معنى ، أي أن هدف القيد هو أنها لاتأخذ ثلث الكل إلا عند اجتماعها بالإب وانفرادهما وحدهما بالتركة قطعا وهذا مايفيد استدلالا على ان الأم تأخذ ثلث الباقي (٤٠) .

ويورد الفخر الرازي في تنسير قوله تعالى (فان لم يكن له ولد وورثه ابواه فلأمه الثلث) النساء ١١ حجة جمهور الفقهاء ، على ان للام ثلث الباقي بعـد نصيب الزوج فيرى أنها على وجوه :

(٣٩) الحلي : المرجع السابق ج ٢ ص ١٨٥ .
(٤٠) ابن قيم الجوزية : إعلام الموقعين عن رب العالمين – المطبعة الفنية بالقاهرة ج ١ ص ٣٥٧ – (بتصرف) وابن قدامة الحنبلي : المغني ، مطبعة الإمام بالقاهرة ج ٦ ص ٢٣٧.

الأول — إن قاعدة الميراث « إنه متى اجتمع الرجل والمرأة من جنس واحد كان للذكر مثل حظ الأنثيين ، ألا ترى أن الأبن مع البنت كذلك؟ قال تعالى (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين) النساء ١١ . وايضاً الأخ مع الأخت كذلك ، قال تعالى : (وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين) سورة النساء ١٧٦ ، وأيضاً الأم مع الأب كذلك، لأ نا بينا أنه إذا كان لاوارث غيرهما فللأم الثلث ، وللأب الثلثان ، إذا ثبت هذا فنقول : إذا اخذ الزوج نصيبه وجب أن يبقى الباقي بين الابوين أثلاثا ، للذكر مثل حظ الأنثيين .

الثاني — إن الأبوين يشبهان شريكين بينهما مال ، فاذا صار شيء منه مستحقاً بقي الباقي بينهما على قدر الأستحقاق الأول .

الثالث — إن الزوج إنما أخذ سهمه بحكم عقد النكاح لابحكم القرابة ، فأشبه الوصية في قسمة الباقي .

الرابع — إن المرأة إذا خلفت زوجا وأبوين فللزوج النصف ، فلو دفعنا الثلث الى الأم والسدس الى الأب لزم ان يكون للانثى مثل حظ الذكرين ، وهذا خلاف قوله تعالى (للذكر مثل حظ الأنثيين) (٤١) .

وقد استدل الفقهاء لهذا الحكم بالقاعدة المعروفة في الميراث وهي « إن الرجل مفضل على المرأة عند تساويهما في القرابة وسبب الإرث مادامآ في مسألة واحدة » كحالة وجود الأم مع الأب في مسألة فيها زوجة ، أو مسألة فيها زوج ، إذ جعلوا فرض الأم في هاتين المسألتين ثلث الباقي من التركة بعد نصيب احد الزوجين وليس ثلث التركة كلها . وقد تعارف الفقهاء على تسمية هذه الحالة بالغراوين او العمريتين لشهرتهما كالكوكب الأغر ، ولقضاء عمر إبن الخطاب فيهما بذلك (٤٢) .

(٤١) الرازي : المرجع السابق — ج ٩ ص ٢١٣ .
(٤٢) الخطيب : المرجع السابق ص ٩٧ .

وفيما يلي صورة هاتين المسألتين : الأولى بتركة الزوج والثانية بتركة الزوجة

١ – توفى عن زوجة وأم وأب .

	زوجة	أم	أب		زوج	أم	أب
	١/٤	الباقي			١/٢	الباقي	
أصل المسألة		١/٣ الباقي	الباقي	أصل المسألة		١/٣ الباقي	الباقي
٤	١	١	٢	٦	٣	١	٢

وقد نقل المفسرون مخالفة ابن عباس للجمهور في إرث الام ،في هاتيسن المسألتين فقال : إن للأم ثلث الأصل وللأب الباقي ،وعلى رأيه يكون الأرث للأبوين عكس القاعدة ، إذ يكون للأنثى مثل حظ الذكرين وستكون صورة المسألتين حسب رأيه كالاتي وهو مذهب الإمامية (٤٣)

	زوجة	ام	اب		زوج	أم	اب
١ –	١/٤	١/٣ الأصل	الباقي	٢ –	١/٢	١/٣ الأصل	[الباقي]
اصل المسألة ١٢	٣	٤	٥	اصل المسألة ١٢	٦	٤	٢

فيتضح عن هاتين الصورتين ان نصيب الأب في حالة وفاة ابنهما – الزوج –

(٤٣) رشيد رضا ، المرجع السابق ح ٤ ص ٢١٣ ، والرازي المرجع السابق ح ٩ ص ٢١٣ الشيخ احمد ابراهيم : بحث مقارن في المواريث في الشريعة الاسلامية – منشور في مجلة

كان ٥/١٢ ونصيب الأم ٤/١٢ ونصيب الزوجة ٣/١٢ . فلم تتحقق القاعدة المذكورة في النص القرآني الصريح في قوله تعالى(فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث) النساء ١١ . وفي المسألة الثانية في حالة وفاة بنتهما – الزوجة – كان نصيب الاب ٢/١٢ ونصيب الأم ٤/١٢ ونصيب الزوج ٦/١٢ فكان نصيب الأم ضعف نصيب الأب ، ولأجل ذلك كان رأي جمهور الفقهاء الموافق لقضاء عمر – رضي الله عنه – بإعطاء الأم ثلث الباقي هو الموافق للقاعدة المقررة في نص القرآن الكريم في كل من الأولاد والإخوة وفي الوالدين والأخوة .(٤٤)

ولقد أشار ابن قيم الجوزية الى حكمة هذا الحكم فقال : «وقواعد الفرائض تشهد أنه اذا اجتمع ذكر وانثى في طبقة واحدة كالابن والبنت والجد والجدة والاب والأم والأخ والأخت فأما ان يأخذ الذكر ضعف ماتأخذه الأنثى أو يساويها ،فإما أن تأخذ الأنثى ضعف الذكر فهذا خلاف قاعدة الفرائض التي أوجبها الله . وحكمته ، وقد عهدنا الله سبحانه أعطى الأب ضعف ما أعطى الأم إذا انفرد الأبوان بميراث الولد وساوى بينهما في وجود الولد ، ولم يفضلها عليه في موضع واحد ، فكان جعل الباقي بينهما بعد نصيب أحد الزوجين أثلاثاً هو الذي يقتضيه الكتاب والميزان فإن مايأخذه الزوج أو الزوجة من المال كأنه مأخوذ بدين أو وصية إذ لاقرابة بينهما ، ومايأخذه الأبوان يأخذانه بالقرابة فصارا مستقلين بميراث الدار بعد فرض الزوجين ، وهما

(٤٤) القانون والاقتصاد في كلية الحقوق في القاهرة – السنة الثالثة – العدد السادس سنة ١٩٣٣ – ١٣٥٢ ص٨٣٦ .

من طبقة واحدة فتقسم الباقي بينهما أثلاثاً ، فالقياس المحض والميزان الصحيح ان الأم مع الأب كالبنت مع الأبن ، والأخت مع الأخ .

فالحكمة الملاحظة في هذا القسام هي النظر الى القاعدة المعتمدة في العطاء الشرعي للأم ليكون نصيبها ثلث الباقي بعد سهم أحد الزوجين ، وهي «المسئولية عن النفقة » والأم قد استوفت نفقتها من زوجها وهو أب المتوفى وليست في حاجة الى زيادة من الإرث ، بل إن الأب أولى بها لأداء مهمة المسئولية في النفقة على الأم وسائر أفراد الأسرة (٤٥) .

(المطلب الرابع) حكمة حَجْب النقصان في نصيب الأم بسبب الإخوة (٤٦) :

عندما يكون من بين الوارثين أم وعدد من الإخوة نجد نصيب الأم من الإرث يتأثر بالنقص من الثلث إلى السدس – وتسمى مثل هذه الحالة حجب نقصان ويشترط في الإخوة ان يكونوا اثنين أو أكثر ، سواء كانوا منها أو من أشقاء ، أو من الأب ، أو من الأم ، أو ذكوراً ، أو إناثاً ، أو خليطاً منهما ، وقد جاء النص القرآني ببيان هذا الحجب في قوله تعالى (ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فان كان له إخوة فلأمه السدس) النساء ١١ .

وقد تلمس الفقهاء حكمة حجب نصيب الأم من الثلث الى السدس عندما يكون للمتوفى إخوة حتى لو كانوا محجوبين من الميراث بسبب وجود الأب

---

(٤٥) ابن قيم الجوزية، المرجع السابق ج ١ ص ٣٦١ – ٣٦٢ .

(٤٦) لفظ (الأخوة) الوارد في الاية يطلق على الذكور خاصة ، ويطلق بطريق التغليب على الذكور والاناث ، كما تدل عليه الاية الأخيرة من سورة النساء « وإن كانوا إخوة رجالا ونساء » ولا يطلق على الاناث خاصة ، بل يسمين أخوات ، ولكن المراد من الأخوة هنا هو اسم الجنس ، اي كل من تجمعه با لمتوفي صلة الأخوة ، وينطبق لفظ الأخوة عند أكثر أهل اللغة على الأثنين ، فصاعداً ، أي مازاد على الواحد من أي جنس ، كانوا ، لأن أقل الجمع أثنان ، ولهذا نظير في القرآن الكريم في قوله تعالى (إن تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما) سورة التحريم (٤) وقوله تعالى (هذان خصمان اختصموا في ربهم) سورة الحج (٣٩) د. احمد علي الخطيب ص ٩٦ وينظر الرازي ج٩ ص ٣١٥ .

فيرون ان الحكمة في هذا الحجب ترجع الى ان هؤلاء الأخوة يتحملون من المسئولية عن الأم بقدر ما يجب عليهم تجاهها شرعاً كما كان يتحمله أخوهم المتوفي الموروث ، فهم إن كانوا إخوة اشقاء فإنهم مسئولون عنها، وإن كانوا لأم فهم مسئولون عنها قطعاً، وإن كانوا إخوة من الأب فان قرابتهم من أخيهم المتوفي تجعلهم ينظرون إلى امه مثل نظره إليها من حيث الرحم، فكان حكمهم تغليباً تابعاً لحكم الاشقاء والأخوة لأم (٤٧) .

ويعلل صاحب تفسير المنار حجب نصيب الام من الثلث الى السدس فيقول في تفسير الاية(وإن كان رجل يورث كلا لة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس، فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث..)النساء١٢: « يدل على أنهم إنما يأخذون فرض الأم ، فانه اما السدس وإما الثلث ...» ثم يقول : « والحاصل إن الأخ من الأم يأخذ في الكلالة السدس وكذلك الأخت لافرق بين الذكر والأنثى لإن كلا منهما حل محل أمه فأخذ نصيبها ، وإذا كانوا متعددين أخذوا الثلث وكانوا فيه سواء لافرق بين ذكرهم وأنثاهم لما ذكرنا من العلة » (٤٨) .

ويوضح ابن قيم الجوزية هذا الحكم فيقول : وإن زيادة ميراثهم على ميراث الواحد يستدعي نقصان نصيبها من الثلث إلى السدس . ولهذا لو كانت الأخت واحدة أو كان الأخ واحداً لكان للأم الثلث ، فإذا كان الإخوة ولد ام كان فرضهم الثلث اثنين كانا أو مائة ، ثم يقول : وهذا الفهم في غاية اللطف وهو من أدق فهم القرآن » (٤٩) .

— ميراث الأخوة مع الأم استثناء من القاعدة :

والإخوة من الأم ينفردون بحالة استثنائية من القاعدة المعروفة في الميراث وهي : « إن كل من ينتسب إلى المتوفي بوارث يحجب عند وجود هذا الوارث »

(٤٧) ابن قيم الجوزية : المرجع السابق ح ١ ص ٣٦١ .
(٤٨) رشيد رضا : المرجع السابق ج ٤ ص ٤٢٤ .
(٤٩) ابن قيم الجوزية : المرجع السابق ح ١ ص ٣٦١ .

فالإخوة من الأم – وهم اولادها – يرثون من تركة أخيهم المتوفي إذا كان كلالة مع وجود الأم التي يتصلون بالمتوفي عن طريقها . وجاء هذا الأستثناء بدليل عموم الاية الخاصة بالكلالة المذكورة آنفاً ، ولإجماع فقهاء المسلمين على ذلك بعد إجماع الصحابة ، وتكرر قضاء عمر – رضي الله عنه – بذلك من غير نكير من أحد ، كالمسألة المشتركة التي يشارك فيها الإخوة الأشقاء مع الإخوة لأم ... (٥٠) .

– التسوية بين الأخوة في الارث :

يتفق الفقهاء على ان نصيب الإخوة لأم من التركة يستوي فيه الذكر والأنثى ويعللون هذه التسوية بينهم بوحدة الصلة التي يتصلون بها مع اخيهم المتوفي وهي صلة الأمومة ، والأصل في هذه الرابطة انها ثانوية في رابطة الأسرة لأنها من جانب واحد ، وغير مسئولة بالمباشرة عنها فيقول الدهلوي : « وأولاد الأم ليس للذكر منهم حماية للبيضة ، ولاذب عن الذمار ، فإنهم من قوم آخرين ، فلم يفضل على الأنثى ، وايضاً فإن قرابتهم مشعبة من قرابة الأم فكأنهم جميعاً إناث (٥١) فكانوا سواء (٥٢) .

(المطلب الخامس) – الحكمة في المسألة المشتركة

تُعَد المسألة المشتركة صورة من صور العناية بالعصبة النسبية ، وتتحقق هذه الحالة حين كان الوارثون عدداً من اصحاب الفروض وهم زوج، وأم وإخوة لأم وكان له اخوة اشقاء ،فاستغرقت الفروض التركة ولم يبق شيء للإخوة الأشقاء ، وكان هذا قضاء عمر – رضي الله عنه – فقال العصبة الأشقاءلعمرهَبْأنّ أباناحجراً مُلْقَىً في اليم اليست أُمُّناواحدة؟فعدل عمر عن رأيه السابق وأشركهم مع اولاد الأم في الثلث ، ومن هنا جاءت تسمية هذه

(٥٠) محمد ابو زهرة : المرجع السابق ص ١٥٥ .
(٥١) شمس الدين السرخسي : المبسوط – دار المعرفة ، بيروت – ط ٣ – ٢٩ ص ١٤١ الدهلوي : المرجع السابق ص ٦٧٤ .
(٥٢) الفرضي . المرجع السابق ص ٦١ ، بدران : المرجع السابق ص ٣٥١ .

المسألة بالمشتركة او الحجرية ...وبهذا القضاء الذي يشترك فيه الإخوة الأشقاء مع الإخوة لأم في الثلث نَستَشِف الحكمة التي يقصدها المشرع والمعتمدة على المصلحة في تواصل رابطة المودة بين الاخوة وتوثيق صلة الرحم بينهم وإقرار جمهور الصحابة ، وهذا القول اوثق الاقوال بقوانين الشرع (٥٣) .
وصورة المسألة كالآتي :



فيكون للزوج ثلاثة اسهم من ستة .
ويكون للأم سهم من ستة .

ويكون للاخوة لأم والاخوة الاشقاء سهمان يُقسمان على عددهم بالتساوي وقد اعتمد المالكية والشافعية هذا العطاء ، وكان اعتمادهما على دليل القياس ، حيث قال اصحاب الشافعي : إن اشتراك الأشقاء مع الإخوة لأم في الأُخُوَّة من الأم مع المتوفى فيه زيادة توثيق مع المتوفى ، فكانت هذه الفريضة (وهي الثلث) قد جمعت ولد الاب والأم مع ولد الأم ، وهم من أهل الميراث ، فإذا ورث ولدالام وجب أن يرث ولدالأب والأم كما لو لم يكن فيها زوج. أما الحنفية والحنابلة فقد وقفوا عند النص بإعطاء الثلث للإخوة لأم وحرمان

(٥٣) احمد بن عبد الرحيم الدهلوي : المرجع السابق ص ٦٨ .

الأشقاء لأنهم ليسوا اصحاب فرض ، بل إنهم عصبة لهم الباقي ، ولما لم يكن في المسألة باق فليس لهم شيء (٥٤) . ويبدو للبحث ان ما قرره عمر هو الأقرب إلى مقصد الشارع وأكثر توثيقاً لصلة الرحم .

ـ الخاتمة ـ

إن من المعلوم لدى الفقهاء أن التشريعات التي يصدرها كل مشرع لابُدّ وانها ترتبط بدواع باعثة لها، او مقاصد يبتغيها صاحب التشريع من احكامه الموجهة إلى المكلفين (٥٥) . وهذه الإرادات الباعثة إلى الأحكام يصوغهـا الانسان المشرع باسم الاسباب الموجبة ؛ ويعبر عنها فقهاء الشريعة بالحكمة او الباعث على الأحكام . ومن ذلك ماتبعه القرآن الكريم في التشريعات العملية فيذكرها احياناً صراحة ويرغب في الوصول اليها كقوله تعالى (ولكم في القصاص حياة يا اولي الالباب لعلكم تتقون) البقرة ١٧٩ فالغرض المهم من حكم القصاص هو الظفر بالحياة الآمنة المطمئنة للمجتمع وتطبيق هذا الحكم هو هدف الحريصين الذين يخافون من فوضى وتعديات المجرمين . ومنها قوله تعالى (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم) الاحزاب ٣٧ فقد افادت أن المقصود بها هو رفع الحرج عن المسلمين في زواج نساء ادعيائهم ـ اي ابنائهم بالتبني ـ كما يستعمل القرآن الكريم اسلوب الترجي والتعليل لتنبيه المخاطب إلى اهمية الحكمـة المعقولة للصالح العام كما في قوله «لعلكم تتقون» و (لعلكم تعقلون) . الانعام ١٥٣

وقد بدا للباحث أن يشير إلى بعض هذه البواعث الشرعية في احكام الميراث لانها تصور حكمة الحكم لإظهار اهميته وعدالته، ولفهم مقاصد الشرع حين يربط

---

(٥٤) ابن قدامى : المرجع السابق ج ٦ ص ٢٣٨ .

(٥٥) عبد الكريم زيدان : الوجيز في اصول الفقه ط ١ ـ دار النذير ـ بغداد ـ ١٩٦٢ ص ١٨٩ .

للأحكام بحكمتها وبواعثها ، ثم يجعل لهذا الباعث او الحكمة علة منضبطة ، او سبباً كاشفاً للحكم هو مناطه المعول عليه والمتعلق به ،وكثيراً ما يدرك العقل هذه الحكمة في التشريعات العملية في نصوص الشريعة فتكون للمكلف مبْعث اطمئنان ، وعاملاً مهماً على تحقيق القناعة بالأحكام والتشريع لدى الذين تربطهم رابطة النسب او المسئولية في تعايش الأسرة.وقد اوضح البحث حكمة تشريع عدد من احكام الميراث بسبب الرابطة النسبية ، وتعليلها حسبما اشار اليها فقهاء الشريعة لأجل البيان والتعريف بحكمة الشارع في احكامه لأنها تمثل المصلحة الحقيقية التي يقصدها المشرع ، وسواء كانت مفهومة صراحة او تلميحاً بدلالة الإشارة .

آمل أن يكون البحث موفقاً لخدمة العلم الشرعي والله ولي التوفيق .



الاختلاف في رد الوديعة

دراسة مقارنة في الفقه الاسلامي
والقانونين المدني والاثبات العراقيين

د. ليلى عبدالله سعيد
كلية القانون / جامعة الموصل

مقدمة

الوديعة عقد عيني ينظمه القانون المدني في المواد(٩٥٠ – ٩٧٤) وهو من العقود المسماة المهمة في الواقع العملي اليومي .

والاصل في الوديعة ان تكون عقداً مدنياً مالم تكن من اعمال التجارة فتعتبر عندئذ عقداً تجارياً،وقد تكون تجارية من جانب ومدنية من جانب آخر. فاذا كانت الوديعة عقداً مدنياً فان القواعد المقررة في قانون الاثبات هي التي تسرى عليه ، اما اذا كانت الوديعة عقداً تجارياً فان قانون الاثبات اجاز اثباتها بجميع طرق الاثبات .

والقواعد المقررة في اثبات عقد الوديعة وانقضائه تكون فيما بين المودع والوديع اما بالنسبة إلى الغير اذا تعدى على الشيء المودع فليس للوديع او المودع حاجة إلى اثبات الوديعة ، لان اثبات التعدي واقعة مادية يجوز اثباتها بجميع طرق الاثبات .

وقد يختلف المودع مع الوديع في رد الوديعة فيدعي الاخير الرد إلى المودع فينكر هذا .او يدعي الرد إلى من يمثل المودع او ورثته ، كما يمكن ان يدعي ورثة الوديع رد مورثهم الوديعة او انهم هم الذين قاموا بهذا الرد .

ولعدم اهتمام الشراح العراقيين بدراسة وشرح هذا العقد المهم والمستنبطة احكامه من الفقه الاسلامي الذي اسهب في شرحه ،فورد مفصلا في مختلف مذاهبهم ، فضلا عن ان القانونين المدني والاثبات لم يشيرا إلى احكام رد

الوديع للوديعة بصورة واضحة ، قررت بعد الاتكال على الله بحث حالة الاختلاف في رد الوديعة بين المودع والوديع وخلفهما جاعلة الاصل هو ماورد في الفقه الاسلامي ثم ما جاء في القانونين المدني والاثبات العراقيين وذلك في ثلاثة مباحث متوالية وخاتمة .

المبحث الاول : اختلاف المودع والوديع في رد الوديعة إلى المودع
المبحث الثاني : اختلاف المودع والوديع في رد الوديعة إلى الغير .
المبحث الثالث : اختلاف وارث الوديع مع المودع وورثته في رد الوديعة.
الخاتمة : وتتضمن الاستنتاجات والتوصيات .

المبحث الاول

اختلاف المودع والوديع في رد الوديعة إلى المودع

قد لايختلف المودع والوديع في رد الوديعة ، وقد يختلفان ، فاذا طولب الوديع بالوديعة ، فادعى انه ردها ، فان الحكم الشرعي يميز بين ما اذا كان قد ادعى الرد على من ائتمنه (١) – وهو المودع – او على من لم يأتمنه .

فاذا ادعى ردها على من ائتمنه ولم يكن قد اشهد عليه بالايداع ، او شهد عليه به لغرض اخر غير التوثيق (٢) ، فان الفقهاء المسلمين قد اتفقوا على تصديقه في ذلك بيمينه (٣) .

---

(١) سواء اكان مالكا ام حاكما ، أم وليا ، أم وصيا ، أم قيما ، أم كان الوديع قد اعطاه الوديعة عند سفره فادعى ردها اليه بعد عودته فانه يصدق في ذلك بيمينه ولكن بشرط ان يكون المردود عليه اهلا للقبض ، حاشية الرملي على أسنى المطالب ، ط ١٣٨٦ هـ ؛ ج ٣ ؛ ص ٥٨ .

(٢) شهادة التوثق هي التي قصد بها المودع عدم قبول قول الوديع في الرد الا اذا اشهد عليه به . اما اذا قصد المودع باشهاده على الاقباض بمعنى اخر فانه تقبل دعوى الوديع الرد اليه بيمينه ، الخرشي ، شرح الخرشي على مختصر خليل ، ط ٢ ، المطبعة الأميرية، بولاق ، ١٣٠٠ هـ ، ج ٦ ، ص١١٦.

(٣) ابن رجب ، القواعد ، ط ١ ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٩٧٢م، القاهرة ، ص ٦٣.

واستدل الفقهاء على ذلك بالكتاب والمعقول ،اما الكتاب فقول الله سبحانه وتعالى « ان الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات الى اهلها » (١) . وقوله تعالى « فأن امن بعضكم بعضاً فليؤد الذي اؤتمن أمانته » (٢) .في هاتين الايتين الكريمتين يأمرالله سبحانه وتعالى باداء — رد — الامانه ، ولم يأمر بالاشهاد عليه فدل ذلك على ان الوديع مصدق في دعواه رد الوديعة بيمينه ان كذبه المودع اذ لو لم يكن كذلك لارشد اليه الاشهاد (٣)، كما ارشد في قوله تعالى « فاذا دفعتم اليهم اموالهم فاشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا » (٤) .

اما المعقول فأمران :

الأمر الأول : ان الوديع متبرع ببذل منفعة لغيره ، اذ أنه قابض لمصلحة المودع فهو محسن ، ولا سبيل على المحسنين ، ونفي السبيل عنه يقتضي قبول قوله اذا اخبر برد الوديعة،والا فلو الزم بالبينة لكان للمودع سبيل عليه بالزامه بالضمان عند عجزه عن اقامتها (٥) .

الأمر الثاني : ان المودع بانكاره لدعوى الرد ينسب الوديع الى التعدي المستوجب للضمان ، والأصل عدم التعدي ، وبقاء الامانة ، وبراءة الذمة من الضمان .

هذا ولافرق في تصديق الوديع بيمينه في رد الوديعة للمودع (٦) بين ان يدعي ذلك في حال حياته ، او بعد مماته ، ولا بين أن يقول ، رددتها عليه

(١) النساء / ٥٨ .
(٢) البقرة / ٢٨٣ .
(٣) ابن رشد ، بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، طبع دار الفكر ، القاهرة ، ج ٢ ص ٢٣٣.
(٤) النساء / ٦
(٥) لا يتعارض ذلك مع الحديث الشريف الموجب للبينة على المدعي واليمين على من انكر لا نه عام مخصوص بما ورد اويقال : ان المودع بانكاره لما قاله الوديع مما هو من حكم المسلم به جعل كأنه مدع فظاهر الوديع الصدق اذ انه امين ومن ينكر الظاهر يصير كأنه مدع خلاف الواقع ، فضلا عن ذلك فأن الفقهاء قد اتفقوا على تخصيص عموم هذا الحديث بما اذا ادعى الوديع تلف الوديعة ، حيث قالوا : انه يصدق بيمينه فتقاس دعوى الرد على دعوى التلف .
(٦) البهوتي ، كشاف القناع ، طبعة انصار السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٣٦٦ هـ ، ج ٤ ، ص ١٥٠ .

بنفسي ، او بوكيلي ووصلت اليه،أو خليت بينه وبين الوديعة فأخذها (١) فانه مصدق في كل ذلك بيمينه .

فاذا اشترط الوديع عند تسليمه الوديعة نفي وجوب اليمين عليه عند تكذيبه من دعوى الرد ، فان ذلك لايفيده ولا يعفيه منها ، بل انه يؤكد وجوبها عليه لان هذا الشرط يحمل دليل اتهامه ، كما انه يشترط سقوط امر قبل وجوبه فلا يقبل منه اذ ان اليمين انما ينظر فيها حين وجوب تعلقها ، وهي لم تجب بعد حين شرط سقوطها عنه (٢) .

واذا كان الفقهاء قد اتفقوا على تصديق الوديع بيمينه فيما اذا كان قد قبض الوديعة من المودع بدون اشهاد ، او باشهاد لم يقصد به التوثق فانهم على العكس من ذلك قد اختلفوا في اشتراط البينة لتصديق الوديع اذا كان المودع قد اشهد عليه عند الايداع ،وقصد بذلك التوثق وعلم الوديع بهذا القصد على قولين : —

القول الأول : — يصدق الوديع في دعوى الرد بلابينة مطلقاً ،سواء اقصد المودع ببينته التوثيق ام لا،وسواء أعلم الوديع بهذا القصد ام جهله . ذهب الى ذلك ، الشافعي ، وابو حنيفة ، واحمد في رواية راجحة عنه ، والثوري واسحاق وابن القاسم وابن سليمان والأمامية والزيدية والظاهرية (٣).

---

(١) اما لو ادعى ان المالك قد اخذها من الحرز وانكر المالك ذلك فالمصدق هو المالك بيمينه لا نه هنا يدعي فعل المالك ، اما فيما تقدم فانه يدعي فعل نفسه ، ولو ادعى انه رد الوديعة على يد عبد للمودع او زوجته او ولده صدق بيمينه عند الجمهور لا ن ايديهم كيده .ابن رجب ، المصدر السابق ص ٦٥ .

(٢) الخرشي ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١١٧ .

(٣) الرملي / نهاية المحتاج ، ط ١٠٨٦هـ ، ج ٥ ، ص ١٠١ ، ابن قدامه ، المغني ط ١ ، المنار ، ١٣٤٨هـ ، ح ٧ ، ص ٢٩٢ ، ٣١٦ ، ابو القاسم نجم الدين جعفر المختصر النافع ، ط ٢ ، الأوقاف ، ص ١٧٤ ، ابن نجيم ، الأشباه والنظائر ط ١ الحسينية المصرية ١٣٢٢هـ، ص ١٠٩ ، ابن حزم ، المحلى ، الطبعة المنيرية ، ١٣٥٠ هـ، ح ٨ ، ص ٢٧٦ .

القول الثاني : — لايصدق الوديع في دعوى الرد الا ببينه ، اذا كان المودع قد اشهد عليه عند الايداع (١) ، وقصد بذلك التوثق (٢) ، وعلم الوديع بهذا القصد (٣) ذهب الى ذلك مالك واصحابه ، ورواية عن احمد (٤).

وقد استدل اصحاب القولين بالادلة الاتية : —

أ — استدل اصحاب القول الأول على تصديق الوديع في دعوى الرد بـــلا بينة (٥) سواء اقصد المودع ببينته التوثق ام لا ، وسواء اعلم الوديـــع بهذا القصد ام جهله بوجهين : —

الوجه الاول : — ان المودع قد ائتمن ،ومقتضى ذلك ان يصدقه فيما يخبر به عن الوديعة دون حاجة الى اشهاد به ، لانه لامعنى للامانة الا هذا (٦) .

الوجه الثاني : — قياس دعوى الرد على دعوى التلف،فان كلا منهما اخبار بأمر متعلق بالوديعة ومؤداها واحد . اذ ان الوديع في كل منهما يدعي خلـــو طرفه من الوديعة ،فكما انه لايفرق في تصديق الوديع في دعوى التلف ، بين كونه قد قبض الوديعة ببينه او بغير بينة ، ولا بين كونها قد قصد بها التوثق

(١) مثال اشهاد المودع على الوديع بقبض الوديعة ، اخذ ايصال عليه بتسليمها .

(٢) فاذا قصد بها غير ذلك كدفع ادعاء الوديع عليه بان ما اعطاه له كان هبة او صدقة . او الرجوع في تركة الوديع خوفاً من انكار الورثة لها ، وكذلك اذا لم يقصد باشهـــاده شيئاً كأن يقع اقباض الوديع للوديعة امام جماعة من الناس دون قصد بأشهادهم عليه،فلا يقصد بذلك التوثق ، الخرشي ، ج ٦ ، ص ١١٧ .

(٣) اذا تنازعا من ان البينة كانت للتوثق ام لا ، فالقول للوديع لان الاصل عدم ذلك .

(٤) ابن رجب ، ص٦٥ المقدسي ، الشرح الكبير ، ط. ١ مطبعة المنار ، ١٣٤٨ هـ . ج٧ ص ٣١٦ .

(٥) عدم وجوب البينة عليه لا ينفي مطالبته باليمين .

(٦) لجنة من الاساتذة ، المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، مطبعة مصر ، ١٣٨٠ هـ ح ١ ، ص٢٨ ، يقال ائتمن فلان فلاناً على الشيء : اي جعله امينا عليه ، وهـــذا يستلزم تصديقه فيما يخبر به من تلفه اورده . وقد اعترض على هذا الوجه بأن الامانة صفة ، والصفات قابلة للتغيير ، بسبب ظهور عوامل ومؤثرات ، ولذا فان من المحتمـــل ان تحل الخيانة محل الامانة . هذا فضلا عن ان المودع قد ائتمن الوديع حسب ظنـــه وكثيراً مايخطيء الظن وبالتالي فلا يصح ان يبنى عليه حكم .

أولاً ، ولا بين علم الوديع بها أو جهله لها ، فكذلك دعوى الوديع الرد لايفرق فيها بين شيء من ذلك .

وعلى هذا فان الوديع يصدق في دعوى الرد بلا بينة مطلقاً (١) ، اذ يبعد ان تنتقض الامانة فتأخذ حكماً بالنسبة للتلف وحكماً مغايرا بالنسبة للرد ويؤيد ذلك انه لم يوجد في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية الشريفة ،مايدل على التفرقة ، بين التلف والرد .

ب ـ واستدل اصحاب القول الثاني على عدم تصديق الوديع في دعوى الرد الا بينة اذا كان المودع قد اشهد عليه عند الايداع ، وقصد بذلك التوثق وعلم الوديع بهذا القصد ، بثلاثة اوجه . (٢)

الوجه الاول : ـ ان اقامة المودع البينه على الوديع عند دفع الوديعة اليه ،دليل على انه انما ائتمنه على الحفظ دون الرد ،فيصدق الوديع بيمينه من دعوى التلف والضياع لاتصالهما بالحفظ ، ولا يصدق في دعوى الرد الا ببينه لانه لم يأتمنه عليه .

الوجه الثاني : ـ انه مما لاشك فيه ان المودع انما اختار الوديع ليحفظ له ماله بناء على ماظنه من امانته ، وهذا الظن غالباً مايظهر خطؤه ، كما قد تحصل للمودع ظروف يضطر معها الى ايداع ماله عند من يجهل حاله ، فليس من العدل ـ والحالة هذه ـ ترتيب حكم على اختيار ظهر خطؤه ، او تم في وقت لم يكن بوسع المودع فيه الا دفع ماله لمن وجده امامه .

---

(١) ويجري ذلك على كل امين سواء اكان وكيلا ام شريكاً مستأجراً لجباية الأموال ام شخصاً سلمه الوديع الوديعة فادعى ردها اليه . وقد وضع الشافعية ضابطاً لمن يصدق من دعوى التلف والرد ، ومن لا يصدق فيهما فقالوا ، كل من ادعى التلف صدق ولو كان غاصباً ، ومن ادعى الرد فأن كانت يده ، يد ضمان كالمستلم لا يقبل قوله الا ببينة وان كان امينا فان ادعى الرد على غير من ائتمنه فكذلك او على من ائتمنه صدق بيمينه الا المكترى او المرتهن .

(٢) ابن حزم ، المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٢٧٦ .

الوجه الثالث: — قد يدقق المودع في اختيار من يودعه ماله فيراعي فيه كونه اميناً ولكن الصفات عموماً ، ومنها الأمانة ، قابلة للتغيير ، فقد تحل الخيانة محل الامانة عندما تسول نفس الوديع له ادعاء الرد كذباً وافتراء ، ولذلك فان الزام المودع بتصديق الوديع فيما يدعيه من الرد بدون بينة يكون ظلماً لما فيه من تضييع ماله عليه .

وبناء على ذلك فأنه اذا كانت الوديعة قد سلمت للوديع ببينه (١) ، فأنـــه لايقبل ادعاؤه ردها الا ببينة ،فان لم يقمها حلف المودع انه لم يقبض الوديعة منه ، وحينئذ يلتزم الوديع بضمانها فاذا امتنع المودع عن اليمين ردت علـــى الوديع فان حلف برىء . وان نكل كان عليه ضمانها .

ان ماذهب اليه المالكية من انه لايقبل قول الوديع في الرد على من ائتمنه الا ببينة ؛ اذا كانت الوديعة قد سلمت اليه باشهاد قصد به التوثق ، وعلـــم الوديع بهذا القصد هو الراجح لقوة ما استدلوا به ،ولان هذا يعطي للمـــودع نوعاً من الأطمئنان على ماله ، فلا يساوره شك او يعتريه خوف من ناحيـــة جواز استيلاء الوديع عليه وادعاء رده اليه اعتماداً على ماهو ثابت من الحكم بتصديقه فيما بقوله له ، وهذا الأحتياط لن يقلل من امانه الوديع ،او يشكك فيها ، بل انه سيزيدها ، وما دام واثقاً من صحة دعواه فلم يضيره ان يشهد على قيامه بالرد الى من ائتمنه خصوصاً وقد ظهر له من تصرف المودع معـــه منذ البداية انه يحتاط من الأمر ؛ وينبهه الى مايجب عليه فعله مستقبلا من ناحية الصفة التي يجب ان يكون عليها رده للوديعة فينزل ذلك منزلة مالو شرط عليه ومن ثم يجب الوفاء به .

---

(١) ليس المراد بالبينة خصوص الشهادة ، وانما هي كل مايشعر بالرغبة من التوثق كأخـذ سند كتابي على الوديع بمقدار الوديعة ، واشتراط المودع عليه ان لا يردها الا امام شهود ، وان كان الوديع هو الذي اشهد على نفسه بالا يداع فقد اختلف فقهاء المالكية فذهب بعضهم الى اعتباره بمثابة الأشهاد من المودع ، وذهب اخرون الى عدم اعتباره لذلك تقبل عندهم دعوى الوديع الرد بدون بينة . الخرشي ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١١٧

وقد خرج ابن عقيل (١) ، القول بوجوب اقامة الوديع للبينة على الرد من تلك الصوره ،على ان الأشهاد على دفع الحقوق الثابتة بالبينة واجب ، فيكون تركه تفريطاً موجباً للضمان . وهو توجيه حسن يؤيد مارجحناه .

وقد نظم المشرع العراقي احكام رد الوديع للوديعة الى المودع في المـــواد (٩٦١ ، ٩٦٣ ، ٩٦٤ ، ٩٦٥)من القانون المدني ،ومن استقراء هذه النصوص يتبين لنا الاتي : —

١ — ان الاصل في رد الوديع للوديعة تكون الى من ائتمنه وهو المودع ،سواء كان موجوداً ام كان غائباً ،وان الرد الى غيره لاتبرىء ذمة الوديع ،الا اذا وجد اتفاق بينه وبين المودع على تسليم الوديعة الى غير المودع عند انتهاء عقد الوديعة (٢) .

٢ — لم يشترط المشرع ان يكون المودع هو المالك ،فقد يكون كذلك ، وقد لايكون مالكا(٣) ،كالمستأجر والمستعير والوديع والمرتهن رهنا حيازياً . كما لم يشترط ان يكون المودع حائزاً للشيء حيازة مشروعة ، فقد يكون كذلك وقد لاتكون الحيازة مشروعة كالسارق والغاصب (٤) .

٣ — اذا كان المال المودع مملوكاً على الشيوع ، وقام الملاك بايداعه عند آخر فان الرد لاحدهم لايبرىء ذمة الوديع منه ، الا اذا كان ذلك المال من الاموال المثلية وكان الرد لاحدهم بقدر حصته فقط . اما اذا كان المال

---

(١) ابن رجب ، ص ٦٢ ، قاعدة ٤٤ .

(٢) انظر نص المادة (٩٦١) من القانون المدني العراقي .

(٣) اكدت المادة (٧٠٥) من قانون الموجبات والعقود اللبناني على هذا الموقف ايضاً ،انظر د. عبد الرزاق السنهوري ، الوسيط ، ط ١٩٦٤ ، مطبعة احياء التراث العربي ، لبنان ج ٧ ، المجلد الاول ، ص ٧٢٧ .

(٤) انظر نص الفقرة الاولى من المادة (٩٦١) مدني عراقي . اما الفقرة الثانية من المـادة (١٩٣٨) مدني فرنسي فقد نصت على ان الوديع اذا علم بأن الشيء المودع مسروق يجب عليه ان يخطر المالك وان يحدد له ميعاداً معقولا يطالب فيه بملكه ، فاذا لم يفعل كان للوديع تسليم الشيء المسروق للمودع ، ولا يوجد مقابل لهذا النص في القانـون المدني العراقي .

من الاموال القيمية فان الرد لاحد الملاك لا يبرىء ذمة الوديع من ذلك الجزء ، وان كان بقدر حصة من تسلم المال الشائع [1] .

٤ — اذا كان المال المودع محل نزاع بين اثنين واودعاه عند آخر، فان على الوديع عدم رد المال لاي منهما دون اذن الاخر، او قرار من المحكمة، فان فعل فان ذمته لا تبرأ بهذا الرد لتعلق حق الاخر به [2] .

٥ — استناداً إلى ان الاصل في الرد لا يكون الا للمودع ، لذلك لا يجوز ردها إلى غيره وان كان غائباً غيبة منقطعة ، او مفقوداً ، او اسيراً ، إلى ان يثبت موته او حياته حقيقة او حكماً ، وعلى الوديع حفظ الوديعة ، فان كانت مما يتلف بالبقاء فللوديع بيعها باذن المحكمة وحفظ ثمنها امانة عنده [3] .

هذه الاحكام المستنبطة من النصوص المذكورة سابقاً والمتعلقة برد الوديع للوديعة إلى المودع لا تشكل جميع الاحكام القانونية اللازمة لتنظيم رد الوديع للوديعة ، فمثلا نجد ان هذه المواد لم تحدد حكم رد الوديع للوديعة إلى المودع اذا اعترض على الرد شخص آخر مدعياً ملكيته للوديعة ، او صاحب حق عليها [4] . كما لم تبين حكم ما اذا كانت شخصية المودع غير معروفة للوديع ، كما في حالة ايداع الاموال في المحلات العامة ، وايداع المركبات في الساحات المعدة لوقوفها ، فان المودع يتلقى عادة تذكرة معينة يسترد بها الشيء المودع ،

---

(١) انظر نص المادة (٩٦٣) مدني عراقي .

(٢) انظر نص المادة (٩٦٤) مدني عراقي .

(٣) انظر نص المادة (٩٦٥) مدني عراقي ، وعلى الرغم من ان عقد الوديعة من العقود المسماة في القانون المدني العراقي وله تطبيقات كثيرة في الحياة العملية والواقع الا ان شراح القانون لم يهتموا بدراسته وشرحه مطلقاً.

(٤) السنهوري ، مرجع سابق ، ج ٧ ، ص ٧٣٠ .

ولا مسؤولية على الوديع اذا حمل هذه التذكرة غير المودع وتسلم بموجبها الشيء المودع (١) .

وبالرجوع إلى قانون الاثبات نجد ان المشرع العراقي يميز في طرق الاثبات بين التصرفات القانونية وانقضائها وبين الوقائع المادية ، فقد نصت المادة (٧٧) من قانون الاثبات على انه :

«اولا : يجوز اثبات التصرف او انقضائه بالشهادة اذا كانت قيمته لا تزيد على خمسين ديناراً . ثانياً : اذا كان التصرف القانوني تزيد قيمته على خمسين ديناراً ، او كان غير محدد القيمة ، فلا يجوز اثبات هذا التصرف او انقضائه بالشهادة مالم يوجد اتفاق او قانون ينص على خلاف ذلك . ثالثاً : تقدر قيمة الالتزام وقت تمام التصرف القانوني لا وقت الوفاء به .....» . وجاء في المادة (٧٨) مانصه «لا يجوز الاثبات بالشهادة في التصرفات القانونية حتى لو كان التصرف المطلوب لا تزيد قيمته على خمسين ديناراً : اولا : فيما يخالف أو يجاوز ما اشتمل عليه دليل كتابي ...» .

يتبين من هذين النصين ان الاصل في اثبات رد الوديع باعتباره انقضاء لعقد الوديعة ، وجود محرر كتابي يثبت استلام المودع او من ينوب عنه قانوناً أو اتفاقاً الوديعة اذا كانت قيمتها تزيد على خمسين ديناراً . او كانت غير محددة القيمة ، واستثنى المشرع العراقي من هذا الاصل ما يأتي :

١ — وجود اتفاق بين طرفي التصرف او نص قانوني يعفي من تقديم المحرر الكتابي على الرغم من توافر شروطه القانونية ، فيتحول عندئذ الاثبات إلى القواعد العامة فيمكن اثبات التصرف او انقضائه بجميع طرق الاثبات على الرغم من زيادة قيمته على الخمسين ديناراً .

المرجع اعلاه ، ج ٧ ، ص ٧٢٨ . وقد حدث مؤخراً في بغداد سرقة سيارة من ساحة لوقوف السيارات تابعة الى احد الفنادق ، وعند مطالبة صاحب السيارة بها طلب منه الحارس التذكرة المخصصة لتسليم السيارة الى حاملها اعتذر عن فقدها ايضاً لكونه وضعها داخل السيارة المسروقة مما ترتب عليه براءة ذمة حارس الساحة من ضمان الرد لفقد دليل اثبات عدم الرد .

٢ — اذا كانت قيمة الالتزام لاتزيد على خمسين ديناراً فان اثبات التصرف القانوني او انقضائه يكون بالبينة والقرائن ، الا اذا خالف او تجاوز ما اشتمل عليه دليل كتابي فعندئذ يرجع إلى الاصل فلا يجوز اثبات عكسه الا بمحرر كتابي على الرغم من ان قيمة الالتزام دون الخمسين ديناراً .

من ناحية اخرى يعد رد الوديعة ، وفاء لالتزام الوديع ، والوفاء واقعة مختلطة يقوم فيها التصرف القانوني إلى جانب الواقعة المادية ، الا ان صفة التصرف القانوني هي الغالبة فيها عند فقهاء القانون (١) والمشرع العراقي ، فقد ورد في المادة(٣٧٧)من القانون المدني ان المدين اذا كان صغيراً مميزاً او كبيراً معتوهاً او محجوراً عليه لسفه او غفلة ودفع الدين الذي عليه صح دفعه مالم يلحق الوفاء ضرراً به . وجاء في المادة(٣٨٣)مدني انه يصح دفع الدين للدائن او وكيله اذا كان غير محجور ، فاذا كان محجوراً فلا يصح دفع الدين اليه بل يدفع لمن له حق قبضه من ولي او وصي او قيم ، فاذا دفع المدين الدين إلى الدائن المحجور فلا يعد دفعه مبرئاً ذمته من الدين بل اذا هلك ما دفعه او ضاع من المحجور فللولي او الوصي او القيم مطالبة المدين بالدين .

وعليه فالوفاء تصرف قانوني يخضع لجميع احكام التصرفات القانونية الواردة في القانونين المدني والاثبات العراقيين فاذا كانت قيمة الوديعة عند

---

(١) انظر : د . عبد المنعم البدراوي ، النظرية العامة للالتزامات ، دار النهضة العربية، بيروت، ج ٢ ص ٣٤٩ . د . عبد المجيد الحكيم ، الموجز في شرح القانون المدني ، ط ٢ ، ١٩٦٧ م ، بغداد ، ج ٢ ، ص ٣٥٩ — ٣٦٠ .

وقد ذكر د . السنهوري ان (الوفاء اذا كان واقعة مختلطة فانه يغلب فيه عنصر التصرف القانوني ولذلك يلحق عادة بالتصرفات القانونية ، وقد يكون من الممكن ان نكيفه بأنه تصرف قانوني عيني اذ هو تصرف لا يتم الا بعمل مادي هو التنفيذ» . الوسيط ، ج ٣، ص ٦٣٦ .

اما محكمة تمييز العراق فانها تعتبر انقضاء الالتزام بالوفاء واقعة مادية يمكن اثباتها بجميع طرق الأثبات ، هذا ماأكده قرارها المرقم ٨٩٧ / حقوقية . والقرار رقم ٦٠١/ م ٤ / ٧١ . والقرار رقم ٧٥٩ / تمييزية ٧٨ . ان هذا التوجه لمحكمة التمييز يعد مأخذ عليها لمخالفته لنص المادة (٧٧) اثبات .

ابرام عقد الوديعة تزيد على خمسين دينار او كانت غير محددة القيمة فان اثبات رد الوديع الوديعة يكون بمحرر كتابي يثبت استلام المودع الوديعة من الوديع الا اذا اتفق الطرفان على ان يكون اثبات الرد بغير ذلك الدليل، فاذا فقد الوديع المحرر الكتابي ، او لم يحرر عند التسليم محرراً يثبت انقضاء عقد الوديعة فان قانون الاثبات يجيز للوديع ان يتحول إلى اليمين الحاسمة (١) .

لان الخصم اذا فقد الدليل الذي ينظمه القانون لاثبات دعواه ولم يقر له خصمه بصحة ما يدعيه لا يبقى امامه الا طريق واحد يلجأ اليه ، وهو ان يحتكم إلى ضمير هذا الخصم فيوجه اليه اليمين الحاسمة ويطلب منه حلفها لحسم النزاع ، فان حلفها المودع بقيت ذمة الوديع مشغولة بالوديعة ، وان نكل برىء الوديع من الوديعة (٢) .

واذا كان الاصل في اثبات التصرفات القانونية وانقضائها – م٧٧ اثبات – لا يكون الا بمحرر كتابي فان المشرع قد استثنى من هذا الاصل حالتين، اجاز فيهما اثبات التصرفات القانونية وانقضائها بجميع طرق الاثبات على الرغم من ان قيمة التصرف القانوني تزيد على الخمسين ديناراً ، او كانت غير محددة المقدار ، ولم يكن هناك اتفاق او نص قانوني يعفي من المحرر الكتابي . فقد نصت المادة (١٨) من قانون الاثبات على انه : (يجوز ان يثبت بجميع طرق الاثبات ما كان يجب اثباته بالكتابة في حالتين اولا : اذا فقد السند الكتابي بسبب لا دخل لارادة صاحبه فيه . ثانياً : اذا وجد مانع مادي او ادبي حال دون الحصول على دليل كتابي) . في هاتين الحالتين يمكن اثبات رد الوديعة بجميع طرق الاثبات دون اللجوء إلى اليمين الحاسمة عند انعدام الدليل الكتابي.

(١) انظر نص المادة (١٢٨) اثبات .

(٢) د. ادم وهيب النداوي ، شرح قانون الأثبات ط ٢ ، ١٩٨٦ ، ص ١٩٩ . واليمين الحاسمة هو قسم بالله يوجهه الى الخصم لحسم النزاع كله عند عجز من كان عليه الأثبات عن اثبات ادعائه ودفعه و يميز القانون بين هذه اليمين واليمين المتممة لاكمال ادلة الأثبات انظر ص ٢٤٢ ، ٢٥٦ .

وقد يثور السؤال ،على من يقع عبء اثبات عدم الرد في القانون ، اهو المودع ، ام الوديع ؟وللاجابة على هذا السؤال نرجع إلى قانون الاثبات فيتبين لنا وجود ثلاث قواعد (١) تحدد لنا على من يقع عبء الاثبات وهي :

القاعدة الاولى : الاصل براءة الذمة : (٢) نصت على هذه القاعدة المادة (٦) من القانون ، وتعني ان ذمة الشخص تعد في الاصل بريئة غير مشغولة بحق للاخرين مهما كانت طبيعة هذا الحق،وعلى من يدعي خلاف هذا الاصل يتوجب عليه اثباته .

القاعدة الثانية : البينة على من ادعى واليمين على من انكر (٣) : وردت هذه القاعدة في نص الفقرة الاولى من المادة (٧) من القانون ، فالاثبات على المدعي المطالب بخلاف الاصل الظاهر ، (٤) فان لم تكن له بينة وجه اليمين على المدعي عليه المنكر .

---

(١) انظر المرجع اعلاه ص ٧٤ .

(٢) نقلت هذه القاعدة من المادة (٨) عن مجلة الأحكام العدلية ، وهي من القواعد الفقهية ، وميدانها الحقوق الشخصية – الدين – انظر السيوطي فالاشباه والنظائر ، ط عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ص ٠٥٩ ابن نجيم ، الأشباه والنظائر ، ط مؤسسة الحلبي وشركاه ، ١٩٦٨ القاهرة ص ٠٥٩ د . محيي هلال السرحان ، القواعد الفقهية ، نشر جامعة بغداد ١٩٨٧ ، ص ٣٨ .

(٣) نقلت هذه المادة من المادة (٧٦) من المجلة . وهو حديث نبوي شريف رواه الترمذي سنن الترمذي، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ، مطبعة المدني ، ١٩٦٤ ، ج ٢ ، ص ٣٩٩ . وانظر د – د. محيي هلال السرحان ، المرجع اعلاه ، ص ٦١ .

(٤) والظاهر على ثلاثة انواع : ١ – الظاهر اصلا . ٢ – الظاهر عرضا . ٣ – الظاهر فرضا . انظر د . ادم وهيب ، المرجع السابق ص ٧٦ ، ٧٧ . وانظر في تعارض الاصل والظاهر السيوطي ، المرجع السابق ، ص ٧٠/ ٧٥ . وتعارض الاصلين ، وتعارض الظاهرين ص ٧٥ / ٨٤ .
ويعتبر ميدان الاصل هو الظاهر الحقوق العينية ، ومنها قاعدة الحيازة في المنقول سند الملكية .

القاعدة الثالثة : تحديد المدعي والمدعى عليه : بينت الفقرة الثانية من المادة (٧) من القانون من هما المدعي ، والمدعى عليه ، فالمدعي هو من يتمسك بخلاف الظاهر ، ويكون عليه عبء الاثبات ، اما المدعى عليه — المنكر — فهو من يتمسك بالاصل ، وهو براءة الذمة ، وقد تنتقل هذه الصفات بتغير هذا الاصل وينتقل معه عبء الاثبات .

وقد اخذ المشرع العراقي هذه القواعد الثلاث من الشريعة الاسلامية الغراء ، فهما لا يختلفان في القواعد التي تحدد على من يقع عبء الاثبات وانتقاله ، والاصل ان على المودع المطالب بالوديعة اثبات عدم رد الوديع للوديعة ، الا ان اثبات رد الوديعة يجب ان يسبقه اثبات وجود الويعة عند الوديع فاذا استطاع المودع اثبات عقد الوديعة انتقل عبء اثبات الرد من المودع إلى الوديع ، لان الصفات تنقلب بتغير الأصل (١) ، فيكون على الوديع اثبات براءة ذمته المشغولة بالوديعة ، وعليه ان يقدم محرراً كتابياً يتضمن المخالصة من الوديعة اذا كانت قيمتها تزيد على الخمسين ديناراً او غير محددة القيمة ، ولم يكن هناك اعفاء ارادي او قانوني من تقديم المحرر الكتابي ، ويمكن اثبات الرد بجميع طرق الاثبات اذا انتفت الشروط اللازمة لتقديم المحرر الكتابي للاثبات ،

---

(١) فقد ينقلب عبء الاثبات لانقلاب الظاهر اصلا الى الظاهر عرضاً ، وينقلب المدعى عليه الى مدع اذا دفع دعوى المدعي ، وعندئذ يقع عليه عبء الاثبات ، فاذا دفع المدين الملتزم بأنه قد وفى دينه فيقع عليه عبء اثبات هذا الوفاء ، انظر د . ادم وهيب ، المرجع السابق ، ص ٧٦ — ٧٧ .

د السنهوري ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٦٩ . ويقع عبء الاثبات في القانون المدني المصري على الوديع ايضاً استنادا الى نص المادة (٣٨٩) مدني وهو :(على الدائن اثبات الالتزام ، وعلى المدين اثبات التخلص منه) اي ان على المودع الدائن بالوديعة اثبات عقد الوديعة — مصدر الالتزام — لان الاصل في الانسان براءة الذمة وعلى من يدعي بخلاف الاصل ان يقيم الدليل على دعواه ، وان على الوديع اثبات الرد للتخلص من التزامه . والمادة (٣٨٩) مدني مصري مأخوذة من المادة (١٣١٥) مدني فرنسي وهي تنص : (من يطالب بتنفيذ التزامه يجب عليه اثباته ، كذلك من يدعي التخلص من التزامه يجب عليه ان يثبت الوفاء به ، او ان يثبت الواقعة التي ادت الى انقضائه) .

فاذا استحال على الوديع اثبات الرد لجأ إلى اليمين الحاسمة، فان حلفها المودع كان الوديع ضامناً للوديعة، وان نكل بريء الوديع. وبهذا اخذت محكمة استئناف منطقة البصرة بصفتها التمييزية فقد جاء في قرارها رقم ٥٠/ت/ب ١٩٨٤ في ٢٩/١٠/١٩٨٤ (....ان دفع المميز المدعى عليها تسديد مبلغ قدره (١٧٨/٥٣٣) ديناراً على حساب المبالغ المطالب بها في هذه الدعوى غير وارد اذا لم يتأيد بوصولات او مستندات تؤيد استلام المبلغ المذكور وانما مجرد اقوال من وكيل المدعى عليها لم تؤيد بمستند تحريري ... فكان المقتضى اعتبارها عاجزة عن اثبات دفعها ومنحها حق تحليف خصمها اليمين الحاسمة، من انه لم يستلم اي مبلغ اكثر مما جاء في استدعاء الدعوى وذلك تطبيقاً لاحكام المادة (١١٨) من قانون الاثبات فعدم ملاحظة ذلك مما اخل بصحة الحكم لذا قرر نقضه ...) [١].

وبالمقارنة بين موقف الفقه الاسلامي والقانون يتبين لنا الآتي: —

١ — لم يميز الفقه الاسلامي في ادلة الاثبات بين التصرفات القانونية والوقائع المادية. اما القانون فقد ميز بينهما، فجعل الاصل في اثبات التصرفات القانونية وانقضائها وجود محرر كتابي بينما يمكن اثبات الوقائع المادية بجميع طرق الاثبات.

٢ — اخذ المشرع العراقي قواعد عبء الاثبات وانتقاله من الشريعة الاسلامية، وان عبء اثبات الرد على الوديع في الفقه الاسلامي وقانون الاثبات.

٣ — استثنى جمهور فقهاء المسلمين الوديع من تقديم البينة لاثبات رد الوديعة للمودع اذا لم يُشهد [٢] المودع عليها عند الوديعة، وذهبوا إلى تصديق الوديع بيمينه لأبراء ذمته منها، مستندين في ذلك إلى ان شخصية

---

(١) القرار غير منشور، ذكره الدكتور آدم وهيب في المرجع السابق، هامش ص ٩٦.

(٢) لايراد بلفظ الشهادة حصر دليل الاثبات عند الفقهاء في هذا المجال، بحيث اذا وجد دليل اخر من ادلة الأثبات يمكن ان يقال ان المودع لم يشهد على الوديعة وعليه يصدق الوديع بيمينه، وان ذكر الشهادة في اغلب الاحوال كدليل لاثبات الحق وتنفيذه في كتب الفقه الأسلامي قد ورد لشيوعه وغلبته في الحياة الواقعية العملية على باقي ادلة الأثبات.

الوديع هي شخصية امينة في نظر المودع لذلك فهو لا يحتاج الأشهاد عليه (١) ، ويجب تصديقه بيمينه . بينما لم يعتبر المشرع العراقي وصف الأمانة في الشخص للاعفاء من الاثبات ، فيستوي عنده ان يكون الشخص اميناً ام غير امين ، فعلى كل منهما واجب الاثبات، الا ان المشرع قد اعفى الوديع من تقديم المحرر الكتابي وقبول الاثبات بجميع طرق الاثبات في اربع حالات هي : — آ — وجود اتفاق على ذلك . ب — وجود نص قانوني يعفي منه . ج — اذا كانت القيمة بسيطة (تافهة) وهي دون الخمسين ديناراً . هـ — استثناء ان وردا على الاصل في المادة (١٨) إثبات .

المبحث الثاني

اختلاف المودع والوديع في رد الوديعة إلى الغير

اذا ادعى الوديع رد الوديعة إلى غير من ائتمنه ، فان في ذلك تفصيلا في الفقه والقانون ، لان المدفوع له اما ان يكون اجنبياً عن المودع ، او ممن تعتبر يدهم كيده ، كالوكيل ، او احداً ممن يعولهم المودع كزوجته وولده وعبده او شخصاً له ولاية عامة او مستحقاً للخلافة عن المودع كالقاضي والوارث فهذه صور اربع ابينها على التوالي :

الصورة الاولى ... دعوى الوديع رد الوديعة إلى شخص اجنبي عن المودع : —

اتفق الفقهاء المسلمون على عدم قبول دعوى الوديع رد الوديعة إلى شخص اجنبي عن المودع (٢)وضمانة لها اذا كذبه المودع في دعوى الدفع ، ولم يدع الوديع الاذن له بذلك ، لانه يكون متصرفاً في مال غيره بدون اذنه، الا انهم فيما اذا ادعى الوديع اذن المودع له بدفع الوديعة للاجنبي وكذبه المودع على

---

(١) تضمنت الا ية القرآنية الكريمة — ٢٨٣ عن سورة البقرة ادلة اثبات المداينات وهي الكتابة والا شهاد والرهان المقبوضة .

(٢) المقصود بالا جنبي انه ليس وكيلا عنه ولا ممن ساكنه .

قولين : الاول لا تقبل دعوى الوديع الأذن له بدفع الوديعة لاجنبي عنه الا بينه (١) . ذهب إلى ذلك ابو حنيفة ومالك والشافعي واحمد في رواية عنه والامامية والزيدية والثوري (٢) .

القول الثاني: تقبل دعوى الوديع الاذن بدفع الوديعة لمن هو اجنبي عن المودع بيمينه. ذهب إلى ذلك الامام احمد في رواية اخرى وابن ابي ليلى وابن حزم (٣)

واستدل اصحاب القول الاول على عدم قبول دعوى الوديع الاذن له برد الوديعة إلى الاجنبي الا ببينة ، السنه والمعقول . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لو يعطى الناس بدعواهم لادعى رجال اموال قوم ودماءهم لكن البيّنة على المدعي واليمين على من انكر» اخرجه البيهقي في سننه عن ابن عباس رضي الله عنهما (٤) فالحديث صريح في ايجاب البينة على المدعي واليمين على المنكر والوديع هنا يدعى رد الوديعة للاجنبي والاذن له فيجب عليه ان يقيم البينة على صحة ما يدعيه اما المودع فانه منكر للرد وصدور الاذن منه بدفع الوديعة لغيره فيصدق في انكاره بيمينه .

اما المعقول فهو ان الكثير الغالب (٥) عدم حصول الاذن من المودع بدفع الوديعة للاجنبي فيكون الوديع معتدياً بهذا الدفع وملزماً بالضمان الا ان يقيم البينة على ثبوت الاذن له فيه او ينكل المودع عن يمينه .

---

(١) اي بينه بالدفع ، اذ انه كان يجب على الوديع الأشهاد على من دفع الوديعة اليه وقيل ان ضمان الوديع يترك الا شهاد مرجعه الى انه ليس اميناً لمن ادى الدفع له ولذا لا يقبل قوله في الرد اليه .

(٢) اين نجيم ، ص ١١٠ . ابن عرفة ، حاشية الدسوقي ، ط التجارية ، ح ٣ ، ٩ ص ٤٢٨ . ابن رجب ، ص ٦٢ . ابن قدامه ، مرجع سابق ، ح ٧ ص ٢٩٢ وص ٣١٥ .

(٣) ابن قدامه ح ٧ ، ص ٢٩٢ ، ابن نجيم ص ١١٠ ، ابن حزم ح ٨ ، ص ٢٧٨ مسألة ١٣٩٢ .

(٤) سنن البيهقي ح ١٠ ص ٢٥٢ .

(٥) محمد البغدادي ، مجمع الضمانات ، المطبعة الخيرية ، ١٣٠٨ هـ ، ص ٨٠ .

واستدل اصحاب القول الثاني على قبول دعوى الوديع الاذن له في دفع الوديعة لمن هو اجنبي عن المودع اذا حلف على ذلك بان الوديع امين فيقبل قوله في رد الوديعة (١) إلى اجنبي قياساً على مالو ادعى ردها إلى المودع .

وبالنظر إلى القولين وادلتهما يتبين ان الراجح ما ذهب اليه اصحاب القول الاول وهو عدم قبول دعوى الوديع رد الوديعة للاجنبي الا ببينة ، لقوة ما استدلوا به وموافقته لما قرره الفقهاء من ان من ادعى شيئاً فعليه ان يثبته بالدليل(٢). ولان القول بغير ذلك يؤدي إلى تضييع اموال الناس واكلها بالباطل اذ قد تسول للوديع نفسه امتلاك الوديعة فيدعي ردها لغير المودع كذباً ويحلف على ذلك .

اما المشرع العراقي فانه لم ينظم احكاماً خاصة لحالة رد الوديع الوديعة إلى اجنبي عن المودع وبالرجوع إلى القواعد العامة في التنفيذ نجد ان الذمة لا تبرأ الا بالتسليم إلى صاحب الحق او من ينوب عنه اتفاقاً او قانوناً او ان يقر الدائن هذا الدفع او كان الدفع إلى شخص اجنبي اصبح صاحب الحق ظاهراً كالوارث الظاهر وكان الدافع حسن النية (٣) .

ويعتبر الاذن توكيلاً في القانون المدني (٤) وعليه اذا ابرز المأذون توكيلا له من المودع لتسليم الوديعة برئت ذمة الوديع والا يجب على الوديع الامتناع عن الرد (٥) . هذا ودفع الوديع الوديعة إلى اجنبي واقعة مختلطة يغلب فيها صفة التصرف القانوني عند بعض فقهاء القانون، والواقعة المادية عند البعض الاخر(٦).

---

(١) الشربيني ، مغني المحتاج ، ط مصطفى الحلبي ، ١٣٥٢ هـ ، ج ٣ ، ص ٩١ .

(٢) والمراد به هنا الشاهدان اوالشاهد واليمين . الخرشي . على مختصر خليل ج ٦ ص ١١٥

(٣) انظر المادة (٣٨٤) مدني . ويذهب الدكتور عبد المنعم فرج الصدة الى ان دفع غير المستحق هو تصرف قانوني يجب اثباته فيما زاد عن النصاب بالكتابة فأذا فقد الدائن سند الدين وهو حسن النية فله الرجوع على غير المستحق بدعوى الا ثراء بلا سبب وفي هذه الحالة يعتبر انشغال ذمة المدين الحقيقي بالدين واقعة مادية يجوز اثباتها بجميع طرق الأثبات نقلا عن السنهوري ج ٢ ص ٣٤٨ .

(٤) انظر المادة (٩٢٨) مدني .

(٥) في هذه الحالة يكون الوديع ضامناً الوديعة للمودع على الرغم من وجود محرر كتابي يثبت الدفع للاجنبي .

(٦) السنهوري ،ج٢ ، ص٣٤٩ و٤٠٤ ، د. عبدالمنعم فرج الصدة ، ص٢٣٩.

الصورة الثانية ... دعوى الوديع رد الوديعة إلى من تعتبر يده كيد المودع : —

اذا طالب المودع رد وديعته فادعى الوديع انه ردها إلى وكيله وكذبه المودع فاما ان يكون المودع قد اذن لهذا الوكيل في قبض الوديعة او لا. فاذا كان قد اذن له وثبت ذلك بالبينة فقد اتفق الفقهاء على تصديق الوديع بيمينه في رد الوديعة اليه وبراءته بهذا الرد ، لان يد الوكيل كيد الموكل ، فكما يصدق في الرد إلى الموكل — المودع — يصدق في الرد إلى وكيله .

اما اذا كان من ادعى الوديع رد الوديعة اليه ليس وكيلا عن المودع في قبض الوديعة كأن يكون وكيلاعاماً ، او وكيلا له في عمل اخر غير القبض فان الفقهاء قد اختلفوا في وجوب البينة لتصديق الوديع في دعوى الرد اليه على قولين ، الاول : لا يصدق الوديع في دعوى الرد إلى الوكيل الا ببينة . ذهب إلى ذلك المالكية والحنفية والشافعية والزيدية (١) .

القول الثاني : — يصدق الوديع بيمينه في دعوى الرد إلى الوكيل ، ذهب إلى ذلك الحنابلة والامامية (٢) .

وقد استدل اصحاب القول الاول على عدم تصديق الوديع في دعوى الرد إلى الوكيل الا بالبينة بانه قد ادعى الرد على من لم يأتمنه فلا يجب تصديقه . ثم ان المودع لم يأذن له في دفع الوديعة لمن ذكر ، فيكون الدفع — مع التسليم بحصوله — تعدي موجب للضمان .

واستدل اصحاب القول الثاني على تصديق الوديع بيمينه في دعوى الرد إلى الوكيل بانه قد ادعى رد الوديعة إلى من تعتبر يده كيد المالك فيصدق فيه كما يصدق في دعوى الرد إلى المالك .

وبالنظر في القولين وادلتهما يتبين ان الراجح هو القول الاول لان الوديع بتسليم الوديعة لوكيل المودع ربما يفوت عليه ما قصده من اخفائها عن غيره ثم

---

(١) بدائع الصنائع ، ج ٦ ، ص ٢١١ — ابن رجب ص ٦٢ .

(٢) ابن رجب ص ٦٢ ، البهوتي ، ج ٤ ، ص ١٥٠ .

ان الوكيل قد ينكر تسلمها فتضيع على صاحبها فضلا عن ذلك فان الوكيل في هذه الحالة كالاجنبي اذ انه لم يؤذن له في قبض الوديعة من الوديع . كما ان الوديع وكيل في حفظ الوديعة فقط ويجب عليه ردها لمن ائتمنه (١) . او من اذن له في دفعها اليه من وكيل او غيره فكل تصرف دون ذلك يكون ممنوعاً منه وضامناً له .

ولم ينظم المشرع العراقي ضمن عقد الوديعة احكام رد الوديعة إلى من تعتبر يدهم كيد المودع كالوكيل والولي والوصي والقيم الا ان القواعد العامة توجب الرد إلى المودع اذا كان كامل الاهلية عند الايداع والرد، وان اناب عنه وكيله في الايداع او كان محجوراً عليه عند الايداع واصبح كامل الاهلية عند الرد (٢) .

اما اذا كان المودع تحت الولاية (٣) او كان وكيله موكلا باستلام الوديعة عند انتهاء العقد فان الرد إلى الوكيل (٤) او الولي او الوصي او القيم يكون مبرئاً لذمة الوديع وعليه يجب على الوديع ان يتأكد من صفة من يرد له الوديعة منهم. فاذا تعذر عليه ذلك وجب عليه عدم الرد ، او ايداع الوديعة خزانة المحكمة(٥) وقد يعين المودع شخصاً لتسلم الوديعة (٦) فاذا كانت الوديعة لصالح هذا الشخص وجب عليه رد الوديعة له دون المودع او بترخيص منه اما اذا كانت الوديعة لصالح المودع نفسه فتعيين هذا الشخص دليل على انه وكيل من المودع

(١) يراد بالرد التخلية والتمكين من الوديعة لا الحمل .

(٢) انظر المادتين (٣٨٣ ، ٣٨٤) مدني وانظر نص المادة (٧٠٩) من تقنين الموجبات والعقود اللبناني« اذا قام بالايداع وصي بصفته وصيا و وليا ولم تبق له هذه الصفة في وقت الأسترداد فلا يجوز ان ترد الوديعة الا الى الشخص الذي كان المودع بمثله اذا كان هذا الشخص اهلا للاستلام او الى الشخص الذي خلف الوصي او الولي » .

(٣) لاتبرأ ذمة الوديع اذا دفع الوديعة الى المودع المحجوز عليه . انظر نص المادة (٣٨٣) مدني .

(٤) انظر المادتين (٩٢٧ ، ٩٣٩) والفقرة الثانية من المادة (٩٥٦) مدني .

(٥) انظر المادتين (٣٨٥ ، ٣٨٦) مدني وانظر د . السنهوري – مرجع سابق – ج ٧ . ص٧٢٨ ، ٧٢٩ .

(٦) انظر الفقرة الاولى من المادة (٩٥٨) مدني عراقي وانظر نص المادة (٧٠٦) من تقنين الموجبات والعقود اللبناني .

فيجوز رد الوديعة اليه كما يجوز ردها للمودع نفسه . فاذا عزل الموكل هذا الوكيل فعندئذ لايجوز الرد الاللمودع فان ردها إلى الوكيل فلاتبرأ ذمته اما اذا مات الموكل انعزل الوكيل بموته فاذا علم الوديع بالوفاة وجب عليه عدم الرد الا للورثة والا كان رده للوكيل مبرئاً للذمة (١) .

ورد الوديع الوديعة إلى من ينوب عن المودع قانوناً او اتفاقاً تصرف قانوني يجب اثباته بالكتابة .

الصورة الثالثة ... دعوى الوديع رد الوديعة إلى شخص ممن يعولهم المودع : —

اذا ادعى الوديع بعد مطالبته بالوديعة انه قد ردها إلى شخص ممن يعولهم المودع كزوجته او ولده او عبده او اجيره . وكذبه المودع فان الفقهاء قد اختلفوا في تصديقه إلى قولين : — الاول : يصدق الوديع بيمينه في دعوى رد الوديعة إلى من يعوله المودع ويجزئه هذا الرد ويبرأ به . ذهب إلى ذلك ابو حنيفة ومالك واحمد (٢) . واستدلوا على قولهم بان المودع يحفظ ماله مع هؤلاء فتكون يدهم كيده فكما يصدق الوديع في الرد على المودع يصدق في الرد إلى من يعول .

القول الثاني : لا يصدق الوديع في دعوى رد الوبعة إلى من يعوله المودع الا ببينة ذهب إلى ذلك الشافعي والكاساني من الحنفية (٣) واستدلوا على قولهم بان المودع لم يرضى بامانة هؤلاء ولا يدهم بدليل انه اودع ماله عند غيرهم، فاذا كان لم يرض بذلك فانه لا يرضى بالرد اليهم من باب اولى .

ان ماذهب اليه اصحاب القول الثاني من عدم تصديق الوديع في دعوى رد الوديعة إلى من يعولهم المودع الا بالبينة هو الاصح لقوة دليله وتمشيه مع ارادة المودع بما يحقق احترام رغبته .

---

(١) انظر نص المادة (٧٠٧) من تقنين الموجهات والعقود اللبناني وانظر السنهوى مرجم سابق — ج ٧ ، ص ٨ و ٧٢٩ وانظر المادة (٩٤٨) عراقي .

(٢) البهوتي ، ج ٤ ص ١٥٠ ، ابن رجب ص ٦٢ . شرح فتح القدير ج ٧ ، ص ٩٧ .

(٣) بدائع الصنائع ج ٦ ، ص ٢١١ .

ولم يميز القانون بين التسليم إلى شخص ممن يعولهم المودع او ممن لا يعولهم فالجميع هم من الغير وان ايديهم لا تعد كيد المودع او من يمثله قانوناً او اتفاقاً الا اذا كانوا يحملون هذه الصفة كالوكيل او الولي او الوصي او القيم .

الصورة الرابعة ... دعوى الوديع رد الوديعة إلى الحاكم او وارث المودع : تبين مماسبق أن الراجح عدم سماع دعوى الوديع رد الوديعة إلى غير من ائتمنه الا ببينة ، وان من ذهب إلى تصديقه في ذلك بيمينه فانما اعتبر ان من ادعى الوديع الرد اليه في حكم المودع لانه اما وكيله او زوجته أوولده او عبد او اجيره . اما هنا فان المدعي الرد اليه اما وارث للمودع او حاكم وكلاهما لا تعتبر يده كيد المودع وعليه فلا يقال بتصديق الوديع في الرد إلى احدهما[1] لان الاصل عدم الرد فاذا مات المودع فطالب الورثة بوديعة مورثهم فادعى الوديع ردها إلى الوارث المطالب بها او إلى الحاكم فانه لا يصدق في دعواه لانهما لم يأتمناه فلا يكلفان بتصديقه وكذلك المودع لانه لم يدع الرد اليه .

وقد وضع الفقهاء ضابطاً لذلك فقالوا [2] : ان كل امين ادعى رد الامانة على من لم يأتمنه وانكر المدعي عليه ذلك كان القول قوله — اي المنكر — مع يمينه وقد يبدو هذا مسلماً به ومنطقياً في حالة ما اذا كانت دعوى الرد في حياة المودع [3] اما اذا مات المودع فعلا وكانت الوديعة ماتزال في يد الوديع لسبب ما يبيح له ابقاءها في يده بعد مطالبته بردها [4] . فادعى ردها

---

(١) الا ببينة ، حاشية الدسوقي ح ٣ ص ٤٢٩ .

(٢) تصنيف محمد الحسيني ، مفتاح الكرامة ، مطبعة الفيحاء دمشق ١٣٣١ هـ ، ج ٦ ص ص ٤٧ .

(٣) ولا يعترض على ذلك بأن الشخص لا يصير وارثاً الا بعد موت المورث لانه يجاب بأن هذا التعبير مجازى بأعتبار ماسيكون كان يكون المودع مريضاً بمرض الموت أو مصاباً بجرح او مقتل يتوقع معه الهلاك فادعى الوديع الرد الى مورثه .

(٤) كأن يكون مشغولا باداء صلاة أو اتمام اكل . او حبس لضمان النفقات على الوديعة او لان الوارث لم يحضر بعد لاستلامها منه .

إلى الوارث او الحاكم عند عدم وجود الوارث او عند استغراق الديون للتركة فان تطبيق الضابط السابق على الوديع يمنع قبول قوله في الرد اليه لانه غير امين لهما . الا ان ذلك غير مسلم به ومن الممكن مناقشته لانهما — الوارث والحاكم وان كانا لم يأتمناه ولم يسلما الوديعة له ابتداء الا انهما بموت المودع قد حلا مكانه . اذ اصبح الوارث مالكاً للوديعة والحاكم نائب عن الورثة الغائبين والقاصرين او المستغرقة تركتهم ديونهم لذلك فالواجب على الوديع بعد موت المودع ان يقوم برد الوديعة إلى احدهما وعلى هذا فانه اذا ادعى قيامه بذلك فالواجب تصديقه لانه يدعي القيام بما لزمه من هو مستحق له الدفع فالحاكم والوارث حكمها حكم المودع (١) وتأكيداً لهذا المعنى فقد صرح ابن رجب بترجيحه فقال (٢) : «ويتوجه في دعوى الرد إلى الحاكم والوارث بعد موت المورث القبول لقيامهما مقام المؤتمن وهو رد مبرىء» .

وينظم القانون المدني رد الوديعة في هذه الحالة فيجعل وجوب الرد إلى الولي او الوصي او القيم اذا كان المودع تحت الولاية ويوجب القانون على الوديع التأكد من صفة من يرد له الوديعة من هؤلاء فاذا تعذر عليه ذلك وجب عليه ان يودع الوديعة خزانة المحكمة (٣) .

فاذا كان المودع وقت الرد قد مات فيكون الرد لوارثه (٤) فاذا تعدد الورثة فان الرد يكون لكل منهم بمقدار نصيبه اذا كان الشيء المودع قابلا للتجزئة وليس محل نزاع . فاذا لم يقبل التجزئة او كان محل نزاع وجب على الورثة

---

(١) ابن رجب ص ٦٢ ، ابن عرفه ، ح ٣ ص ٩١ ، الخرشي ح ٦ ، ص ١١٦ .
الدردير الشرح الكبير حاشية الدسوقي ، ط التجارية ، ح٣ ، ص٤٢٩
الكاساني ، بدائع الصنائع ، المطبعة الجماليه ، ١٣٢٨ هـ ح ٦ ، ص ٢١١ .

(٢) ابن رجب في فواعده ، ص ٦٢ .

(٣) انظر المادة (٠٦١) مدني عراقي .
والمادة (٧٠٧) موجبات لبناني ، والوسيط ح ٧ ص ٧٢٩ .

(٤) انظر نص المادة (٩٦١) مدني عراقي .

والمتنازعين ان يتفقوا فيما بينهم ليتسلموا الوديعة جميعاً او ليتسلمها واحد فهم يعينونه (١) . فاذا لم يتفقوا جاز للوديع ان يودعها على ذمتهم خزانة المحكمة وفقاً لاحكام الايداع او الانتظار لصدور قرار المحكمة . ويجوز الرد للوارث الظاهر مادام الوديع حسن النية يعتقد ان من تسلم الوديعة هو الوارث الحقيقي ويكون الرد مبرئاً لذمته ثم يرجع الوارث الحقيقي على الوارث الظاهر الذي تسلم الوديعة (٢) .

المبحث الثالث

اختلاف وارث الوديع مع المودع وورثته في رد الوديعة

في الصور السابقة كان الاختلاف بين المودع والوديع بشأن الرد فالثاني منهما يدعي قيامه به بينما ينكر الاول ذلك. اما في حالة رد وارث الوديع فان المدعي بالرد شخص اخر لم يكن طرفاً في العقد ولم تسلم الوديعة اليه . وانما جاء التزامه بالرد ومطالبته به من حيث انه قد وضع يده على الوديعة (٣) بحلوله محل المورث فيما كان تحت يده من اموال .

وعلى هذا فانه اذا مات الوديع قبل ان يرد الوديعة فطولب وارثه بها فادعى ردها وكذبه المودع في ذلك فهل يصدق الوارث في دعواه قياساً على تصديق مورثه – الوديع – ام انه يكون لدعواه حكم اخر لكونه لم يكن طرفاً في العقد ولم يحصل له ائتمان على الوديعة من قبل المودع ؟

للاجابة على هذا التساؤل يميز الفقه الاسلامي بين حالتين : الاولى : ادعاء الوارث حصول الرد من مورثه قبل موته إلى المودع . والثانية : ادعاء الوارث انه هو الذي قام بالرد .

الحالة الاولى ... دعوى وارث الوديع قيام مورثه برد الوديعة للمودع :-

(١) انظر المادة (٩٦٤) مدني عراقي .
(٢) انظر احكام الايداع المواد (٣٨٥ ، ٣٨٩) مدني عراقي .
(٣) ذهب الفقهاء الى ان يد الوارث على الوديعة امانة الا ان عليه ردها الى صاحبها بمجرد موت الوديع فأن اخرها بعد التمكن منه تحولت يده الى ضمان .

اذا ادعى وارث الوديع ان مورثه قد رد الوديعة قبل وفاته إلى المودع وانكر المودع ذلك فان الفقهاء اختلفوا في تصديقه على دعواه في قولين :

الاول : — يصدق وارث الوديع بيمينه فيما ادعاه من قيام مورثه برد الوديعة إلى المودع . ذهب إلى ذلك المالكية والحنفية وجمهور الشافعية والامامية(١)

القول الثاني : لا يصدق وارث الوديع فيما ادعاه من قيام مورثه برد الوديعة إلى المودع الا ببينة . ذهب إلى ذلك الحنابلة والمتولي من الشافعية(٢) .

وقد استدل اصحاب القول الاول على تصديق وارث الوديع بيمينه فيما يدعيه من قيام مورثه برد الوديعة إلى المودع بانه قد ادعى حصول الرد من مورثه إلى اليد التي سبق ان ائتمنه فيصدق لان الاصل عدم حصول الوديعة في يده وتصديقه في ذلك متفق مع ما قاله الفقهاء من ان« كل امين ادعى الرد إلى من ائتمنه صدق بيمينه »لان الوارث وان لم يكن اميناً للمودع الا انه بموت المورث قد حل محله في وضع يده على ما كان الغير قد اودعه عنده وذلك إلى ان يتمكن من رده إلى صاحبه ثم ان الوارث لم يدع حصول الرد منه بل من مورثه الذي هو امين للمودع (٣) .

ويصرح بعض فقهاء المالكية بانه اذا حصل نزاع بين الوديع والمودع وورثته بشأن الرد فان القول للوديع بيمينه فاذا مات قبل الحلف ناب عنه وارثه ، وتنقطع المطالبة بحلفه ومعنى هذا انه لا فرق في دعوى حصول الرد من الوديع إلى المودع بين ان تكون تلك الدعوى صادرة من الوديع نفسه او

---

(١) الخرشي ح ٦ ص ١١٦ . وقد ذهب المالكية الى ابعد من ذلك حين قالوا بتصديق وارث الوديع اذا ادعى على وارث المودع ان مورثه قد ردها على المودع قبل وفاته . الدسوقي على الشرح الكبير ح ٣ ص ٤٢٩ . الشربيني ، ح ٣ ص ٩١ . محمد الحسيني في مفتاح الكرامة ، ح ٦ ، ص ٤٧ .

(٢) البهوتي ، مرجع سابق ح ٤ ص ١٥٣ ، ابن رجب ، مرجع سابق ، ص ٦٢ . الشربيني مرجع سابق ح ٣ ص ٦١ ص٩١ .

(٣) البهوتي ، مرجع سابق ، ح ٤ ص ١٥٣ .

من وارثه في مواجهة المودع او ورثته فالحكم في ذلك كله هو تصديق الوديع او وارثه بيمينه (١) .

واستدل اصحاب القول الثاني على عدم تصديق وارث الوديع فيما يدعيه من قيام مورثه برد الوديعة للمودع الا ببينة بثلاثة اوجه.الاول : — ان دعوى الرد صادرة من وارث الوديع في مواجهة المودع وهو لم يستأمنه وانما استأمن مورثه ولذا فانه لا يجب عليه تصديقه فيما يدعيه وعلى الوارث ان يقيم الدليل على صحة ما يقول ولا يعفيه من ذلك ادعاؤه بان مورثه قد قام برد الوديعة قبل موته إلى من ائتمنه عليها لانه في الدعوى ينظر إلى المدعي نفسه من ناحية كونه اميناً للمدعي عليه فيصدق في دعواه ام انه ليس اميناً له فلا يصدق ووارث الوديع ليس اميناً للوديع ومن ثم فانه تطبق في شأنه القاعدة القاضية بوجوب البينة على المدعي .

الوجه الثاني : — ان وارث الوديع متهم في دعوى الرد من مورثه اذ انه قد يهدف بذلك إلى الاستيلاء على الوديعة ومنع المودع من مطالبته بردها او الزامه بضمانه خصوصاً اذا ثبت وجودها ضمن التركة بعد وفاة الوديع وكانت مما يمكن اخفاؤه كالنقود والثياب وما دام الامر كذلك فان اليمين لا تكون كافية في دفع التهمة عن الوارث ولا توفر الاطمئنان إلى قوله فتعين اقامة البينة .

الوجه الثالث : — ان المعنى الذي من اجله وجب على المودع تصديق الوديع في دعوى الرد اليه (٢) غير موجودة بالنسبة لوارثه اذ انه لم يأتمنه كما انه لم يقم بتسليم الوديعة اليه .

---

(١) الخرشي ح ٦ ص ١١٦ . الدسوقي على الشرح الكبير ح ٣ ص ٤٢٩ ، يقول الدسوقي في حاشيته بعد ان عدد بعض صور رد الوديعة (والحاصل ان صاحب اليد المؤتمنة اذا كانت دعوى الدفع منها لليد التي ائتمنها فلا ضمان على المدعي سواء اكانت الدعوى صادرة من ذي اليد المؤتمنة او من وارثه على ذي اليد التي ائتمنته او على وارثه وفيما عدا ذلك الضمان » .

(٢) وهو انه مادام المودع قد ائتمن شخصاً فان عليه ان يصدقه .

فضلا عن ذلك فان الالتزام بتصديق الوديع قد يكون له ما يبرره من جهة ان الانسان عادة لا يعهد بحفظ ماله الا لمن يعلم تحليه بصفات معينة كالامانة والصدق وحسن مراعاة المال وصيانته . اما الالتزام بتصديق وارث الوديع فيما يخبر به عن الوديعة فانه لا يستند إلى اساس منطقي او واقعي اذ قد لا يتوفر فيه شيء مما تقدم ولو فرض اتصافه بمثل ذلك فان الوديع قد لا يثق به ولا يأنس اليه .

مما تقدم يتبين ان الراجح ما ذهب اليه اصحاب القول الثاني من عدم تصديق وارث الوديع في دعوى الرد من مورثه الا ببينة . وذلك لقوة ما استدلوا به ولانه يحقق للمودع نوعاً من الاطمئنان على ماله اذ ان الوديع قد يموت فجأة قبل ان يتمكن من رد الوديعة او الوصية بها اليه في الوقت الذي لا يكون له فيه بينة على الايداع وقد يطمع وارث الوديع في الوديعة فيدعي رد مورثه لها ، فلو قيل بتصديقه بدون بينة لادى ذلك إلى تعريض الوديعة لخطر الفوات على صاحبها ومما يضاعف من هذا الخطر ان المودع غالباً ما يعجز عن تكذيب دعوى الرد باقامة البينة على نقيضها — عدم الرد — الامر الذي يضيع عليه امكان الوصول لحقه ولا مخرج له من ذلك الا بمنع قبول دعوى الوارث رد مورثه للوديعة الا ببينة .

ولم ينظم القانون المدني احكاماً خاصة بهذه الحالة . ووفقاً للاحكام العامة نجد ان حق المودع بعد وفاة الوديع يتعلق بالعين المودعة ان وجدت عيناً او بالتركة اذا كانت مجهولة ولم يتعرف عليها الورثة فاذا لم تكن موجودة عيناً وادعى الورثة قيام مورثهم برد الوديعة للمودع قبل الوفاة فان الرد في هذه الحالة هو تصرف قانوني يجب اثباته بمحرر كتابي وينطبق على هذه الحالة ماورد في المبحث الاول من البحث لان الرد كان من الوديع إلى المودع وعليه اذا قدم الورثة محرراً يثبت تسليم مورثهم الوديعة للمودع فان ذمة المتوفى تبرأ ، اما اذا انعدم المحرر الكتابي فان على المحكمة ان تحلف المودع اليمين بعدم الاستلام ،

فقد نصت المادة (١٢٤) اثبات عراقي على ان للمحكمة الحق في تحليف من ادعى حقاً في التركة على انه لم يستوف هذا الحق بنفسه ولا بغيره من المتوفي ولا ابراه ولا احالة المتوفي إلى غيره ولا استوفى دينه من الغير وليس للمتوفي في مقابل هذا الحق دين اورهن لديه وللمحكمة ان تحلف صاحب الحق المدعى به من تلقاء نفسها .

من ناحية اخرى نجد (١) ان الوارث الذي يدعي قيام مورثه برد الوديعة هو شخص يعد من الغير في التصرف القانوني – الرد – وعليه يجوز اثبات ادعائه بجميع طرق الاثبات لكونه ليس طرفاً فيه ، فهو بالنسبة اليه واقعة مادية وحتى فيما بين المتعاقدين قد يقع لبس فيما اذا كان المطلوب اثباته تصرفاً قانونياً فلا يثبت الا بالكتابة او واقعة مادية فتثبت في جميع الطرق .

الحالة الثانية ... دعوى وارث الوديع قيامه هو برد الوديعة

اذا مات المودع والوديع ، وطالب وارث الاول وارث الثاني برد وديعة مورثه اليه، فاذا ادعى وارث الوديع بان الوديعة قد ردت وانكر وارث المودع ردها فلها صورتان : الاولى : اذا ادعى وارث الوديع بان مورثه قد قام بردها على المودع نفسه فقد اختلف الفقهاء المسلمون في تصديقه في تلك الدعوى على قولين : القول الاول :

يصدق وارث الوديع بيمينه في دعوى رد الوديعة من مورثه على المودع ذهب إلى ذلك الحنفية – والمالكية – وجمهور الشافعية – والامامية (٢) . وحجتهم في ذلك ان الوارث قد ادعى حصول الرد من مورثه إلى من سبق ان ائتمنه .

---

(١) السنهوري ، مرجع سابق ، ح ٢ ص ٣٤٥ .

(٢) محمد الحسيني في مفتاح الكرامة ، ح ٦ ص ٤٧ ، البهوتي ، مرجع سابق ج ٤ ص ١٥٣ .
الشربيني مرجع سابق ، ح ٣ ص ٩١ .

القول الثاني : لا يصدق وارث الوديع في دعوى رد الوديعة من مورثه على المودع الا ببينة . ذهب إلى ذلك الحنابلة وبعض الشافعية (١) . وحجتهم في ذلك ان الوارث ليس اميناً للمودع فلا يصدق في دعواه ، كما انه متهم فيما يخبر به اذ قد يهدف من ذلك إلى اعفائه من رد الوديعة او بدلها .

والراجح هو ما ذهب اليه اصحاب القول الثاني من عدم تصديق وارث. الوديع الا ببينة وذلك لما فيه من دفع ما قد يظن به من حجز الوديعة لنفسه او تفويتها على وارث المودع .

الصورة الثانية : — اذا ادعى وارث الوديع انه ردها بنفسه على وارث المودع ، فقد ذهب الفقهاء إلى ان قوله لا يقبل الا ببينة لان الاصل عدم الرد ولان وارث الوديع يدعي الرد على من لم يأتمنه فلا يجب عليه تصديقه (٢) .

وبالرجوع إلى القانون نجد ان القانون المدني يلزم الوارث بتسديد دين ، المورث استناداً إلى القاعدة المعتمدة من الحديث النبوي الشريف «لا تركة الا بعد سداد الديون» وتسديد الدين هو انقضاؤه ، وهو تصرف قانوني وفق نص (م/٧٧) من قانون الاثبات وعليه يكون الوارث ملزماً بتقديم محرراً كتابي يثبت قيامه برد الوديعة إلى المودع او ورثته لابراء ذمته والا كان ضامناً اذا حلف المودع او ورثته على عدم الرد .

بهذا يكون المشرع العراقي قد ذهب إلى ما ذهب اليه الفقه الاسلامي بالزام الوارث اثبات الرد على الرغم من اختلاف ادلة الاثبات .

اما بالنسبة إلى الصورة الاولى وهي ادعاء وارث الوديع ان مورثه قد قام بردها على المودع نفسه او ورثته ، فان الوارث هنا شخص اجنبي عن التصرف

---

(١) الشربيني ، المرجع السابق ، ح ٣ ص ٩١ . الرملي ، مرجع سابق ح ٥ ص ٩٤ . الكاساني ، مرجع سابق ، ح ٦ ص ٢١١ .

(٢) الشربيني ، ح ٣ ص ٩١ . الرملي ، ح ٥ ص ٩٤ . الكاساني ، ح ٦ ص ٢١١ . [illegible] ح ٦ ص ١١٦ . محمد [illegible] ، في مفتاح الكرامة ح ٦ ص ٤٧ . السرخسي ، المبسوط ، مطبعة السعادة ، ١٣٢٤ ﻫ ، ح ٢١ ص ٦٠ .

القانوني — رد الوديعة — لذلك يكون بامكانه اثبات هذا التصرف بجميع طرق الاثبات — البينات والقرائن — فهو بالنسبة اليه واقعة مادية (١) .

الخاتمة

نختتم بحثنا بالاستنتاجات والتوصيات الآتية : —

اولا : — الاستنتاجات : — يستنتج مما تقدم الاتي :

١ — لا يميز الفقه الاسلامي بين التصرفات القانونية والوقائع المادية في ادلة الاثبات بينما نجد القانون يميز بينهما، فيجعل الاصل في اثبات التصرفات القانونية وانقضائها وجود دليل كتابي ، اما الوقائع المادية فيمكن اثباتها بجميع طرق الاثبات .

وعليه يكون الاصل في اثبات رد الوديع إلى المودع في الفقه الاسلامي بالبينة خاصة اذا اشهد المودع على الايداع بقصد التوثق ، فان لم يقم الوديع البينة حلف المودع على انه لم يقبضها منه ، فان حلف ضمنها الوديع ، فاذا امتنع المودع عن اليمين ردت إلى الوديع فان حلف على الرد بريء ، وان نكل كان عليه ضمانها .

اما اذا لم يشهد المودع على الايداع او اشهد دون قصد التوثق فان الوديع يصدق في دعوى الرد ببينة دون حاجة إلى بينة لكونه شخصاً اميناً في نظر المودع .

اما في القانون فان اثبات رد الوديع الوديعة إلى المودع يوجب تقديم دليل كتابي يثبت استلام المودع الوديعة ، اذا كانت قيمتها تزيد على

---

(١) فقد قضت محكمة النقض المصرية ان مايخلفه المورث لورثته مما كان في حيزته مادياً من عقار او منقول او نقد ، كذلك استيلاء الوارث على شيء من مال التركة عقاراً كان او منقولا كل ذلك من قبيل الوقائع التي لا سبيل لاثباتها الا بالبينة . الوسيط ح ٢ هامش ص ٣٤٦ . وعليه فان على القاضي ان يتبين ما اذا كان المطلوب اثباته تصرفاً قانونياً او واقعة مادية ثم يجري بعد ذلك حكم القانون .

خمسين ديناراً ، او كانت غير محددة القيمة ، الا اذا وجد اتفاق او نص في القانون يقضي بخلاف ذلك (م ٧٧ قانون الاثبات) .

فاذا كانت القيمة دون الخمسين ديناراً او وجد اتفاق بين المودع والوديع او نص قانون يقضي باثبات الرد بغير المحرر الكتابي ، فان اثبات ردها يكون بجميع طرق الاثبات ، فان لم يقمها الوديع يتحول إلى اليمين الحاسمة وهي تحليف المودع على انه لم يقبضها منه فان حلف ضمنها الوديع ، وان امتنع عن اليمين برىء الوديع منها .

٢ — اذا ادعى الوديع رد الوديعة إلى غير المودع فان الفقه الاسلامي يميز بين حالتين، الاولى: اذا ادعى الوديع الرد إلى شخص اجنبي وكذبه المودع ولم يدع الوديع الاذن له بذلك فانه ضامن . اما الثانية : اذا ادعى الاذن له بذلك فان الراجح عندهم ان دعوى الوديع الاذن له بدفع الوديعة للاجنبي لا تقبل الا ببينة . وقد وضع جمهور الفقهاء ضابطاً لهذه الحالة هي ان (كل امين ادعى الرد على من ائتمنه صدق بيمينه) . اما الرد على من لم يأتمنه فاذا انكر المدعى عليه ذلك كان القول قول المنكر مع يمينه .

اما في القانون فان المشرع اوجب اثبات الشخصية التي تنوب عن الغير قانوناً او اتفاقاً بمحرر كتابي (وفق قانون كتاب العدول) فان وجد كان الرد اليه صحيحاً باعتباره نائباً عن المودع ، اما اذا انعدم فتميز بين اقرار المستلم للوديعة وانكاره ، فان اقر فان ذمة الوديع لا تبرأ لكونه دفع الوديعة إلى غير المستحق للاستلام وهي امانة في يده فتتحول إلى يد ضمان ، فيكون هو والمدفوع له ضامنين للمودع ، فان انكر كان الوديع ضامناً لاعتدائه عليها .

٣ — اما اذا ادعى وارث الوديع قيام مورثه برد الوديعة فان الراجح في الفقه الاسلامي انه لا يصدق الوارث في دعوى الرد الا ببينة ، وذلك لقوة ما استدل به اصحاب هذا القول .

ولم ينظم قانون الاثبات احكاماً لهذه الحالة و.الرجوع الى (م/١٢٤) منه يتبين لنا ان من يدعي حقاً في تركة ، وانه لم يستوفه بنفسه او بغيره ، وان ذمة المتوفى ما زالت ملتزمة به فان على المحكمة ان تحلف صاحب الحق المدعى به من تلقاء نفسها فان حلف استحق ذلك الحق من التركة .

٤ — اما اذا ادعى وارث الوديع قيامه هو برد الوديعة فان اثبات الرد في الفقه الاسلامي لا يكون الا ببينة لان الوارث ليس اميناً للمودع فلا يصدق في دعواه الا ببينة .

اما في القانون فان الرد هو انقضاء للتصرف واجب الاثبات بدليل كتابي ، ويستوي في ذلك ان يكون الرد من الوديع او من ورثته استناداً إلى (م ٧٧ من قانون الاثبات) .

ثانياً : التوصيات : — يمكن جمع التوصيات بما يأتي :

١ — اعادة تنظيم احكام رد الوديع الوديعة الواردة في المواد (٩٦١ ، ٩٦٣ ، ٩٦٤ ، ٩٦٥) . من القانون المدني لعدم شمولها جميع صور رد الوديع الوديعة المعروفة في وقتنا الحاضر . ويفضل تنظيم قاعدة قانونية تحكم جميع صور الرد .

٢ — استثناء الازواج والاصول والفروع والقرابة إلى الدرجة الرابعة من وجوب الدليل الكتابي لاثبات التصرفات القانونية وانقضائها بينهم ، بجميع طرق الاثبات ، وذلك لما بينهم من علاقات ادبية تمنع مطالبة احدهم للاخر بالمحرر الكتابي مما قد يؤدي إلى اضاعة الكثير من الحقوق بينهم خاصة عند وفاة احد طرفي التصرف .

٣ — لعدم تنظيم المشرع العراقي لاحكام الحراسة كما ورد في القانون المدني المصري ، والتي هي صورة خاصة من صور الوديعة ذات انتشار واسع في الواقع العملي لذلك يجب على المشرع تنظيم احكام رد الحارس للاشياء

بشكل يشمل جميع صور الحراسة ، سواء اكانت على اموال متنازع عليها ام كانت على غير ذلك .

فقد وقعت مؤخراً حادثة سرقة لسيارة من كراج مخصص لوقوف السيارات مقابل تذكرة يقدمها حارس الكراج يتم تسليم المركبة بها وكان صاحب السيارة قد وضع التذكرة داخل السياره مما ترتب فقدان التذكرة دليل اثبات وجود السيارة واستلامها فهل تبرأ بذلك ذمة الحارس من الرد؟ ان هذه الصورة لم ينظمها المشرع ضمن احكام رد الوديع الوديعة .



المصادر

١ -- القرآن الكريم

٢ -- لجنة من الاساتذة ، المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية، مطبعة مصر ، ١٣٨٠هـ .

٣ -- ابن رجب ، القواعد ، ط١ ، مكتبة الكليات الازهرية ، ١٩٧٢ ، القاهرة .

٤ -- ابن رشد ، بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، طبع دار الفكر ، القاهرة .

٥ -- ابن حزم الاندلسي ، المحلي ، المطبعة المنيرية ، ١٣٥٠هـ .

٦ -- ابن قدامة ، المغني ، ط ١ ، مطبعة المنار ، ١٣٤٨هـ . وبهامشه الشرح الكبير للمقدسي .

٧ -- ابن عرفة الدسوقي ، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ، الطبعة التجارية .

٨ -- ابن نجيم ، الاشباه والنظائر ، الطبعة الحسينية المصرية ، ١٣٢٢هـ .

٩ -- ابو القاسم نجم الدين جعفر بن الحسن، المختصر النافع في فقه الامامية، ط٢ ، طبع وزارة الاوقاف .

٩ -- الترمذي ، سنن الترمذي ، تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف . مطبعة المدني ، ١٩٦٤ .

١٠ -- البهوتي ، كشاف القناع ، طبعة السنة المحمدية بالقاهرة ، ١٣٦٦هـ .

١١ -- الدردير ، الشرح الكبير على مختصر خليل ، الطبعة التجارية .

١٢ -- الرملي ، نهاية المحتاج ، طبعة ١٣٨٦هـ .

١٣ -- الخرشي ، شرح الخرشي على مختصر خليل ، الطبعة الثانية ، المطبعة الكبرى الاميرية ، ١٣٠٠هـ .

١٣ – السيوطي ، الاشباه والنظائر ، طبع دار احياء الكتب العربية ، مصطفى البابي الحلبي وشركاه .

١٤ – الشربيني ، مغني المحتاج إلى معرفة الفاظ المنهاج ، مطبعة مصطفى الحلبي ، ١٣٥٢هـ .

١٥ – السرخسي ، المبسوط ، مطبعة السعادة ، ١٣٢٤هـ .

١٦ – الكاساني، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع المطبعة الجمالية ، ١٣٢٨هـ.

١٧ – محمد بن غانم بن محمد البغدادي ، مجمع الضمانات ، المطبعة الخيرية ، ١٣٠٨هـ .

١٨ – تصنيف محمد الحسيني ، مفتاح الكرامة في شرح قواعد العلامة ، مطبعة الفيحاء ، دمشق مصطفى شورى واخوته ، ١٣٣١هـ .

١٨ – د. محي هلال السرحان ، القواعد الفقهية ودورها في اثراء التشريعات الحديثة ، نشر جامعة بغداد – ١٩٨٧ .

١٩ – د. ادم وهيب النداوي ، شرح قانون الاثبات ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦م .

٢٠ – د. عبدالمجيد الحكيم ، الموجز في شرح القانون المدني ، الطبعة الثانية ١٩٦٧م بغداد .

٢١ – د. عبدالرزاق السنهوري ، الوسيط ، مطبعة احياء التراث العربي ، لبنان .

٢٢ – عبدالمنعم البدراوي ، النظرية العامة للالتزامات ، دار النهضة العربية ، بيروت .

«ضمانات الوفاء بالحوالة التجارية»
بحث في التشريع العراقي

نسيبة ابراهيم حمو
مدرسة – فرع القانون الخاص
كلية القانون – جامعة الموصل

بسم الله الرحمن الرحيم

«المقدمة»

تنشأ الحوالة التجارية ابتداء وهي لاتحمل غير توقيع الساحب والتزامه تجاه المستفيد ، حيث يكون المستفيد قد منح مدينه الساحب ثقته وائتمانه وتصرف اليه بأموال حاضرة في نقوذ غائبة ، وعندما يأمر الساحب مدينه المسحوب عليه بدفع قيمة الحوالة للمستفيد في موعد معين وعندها يكون هناك ضرورة لاحاطة الثقة التي اولاها هذا الدائن المستفيد للساحب بقدر من الضمانات التي ابتدعها التجار شيئاً فشيئاً ، وطورها العرف التجاري الصرفي ثم قننها المشرع في صورة قواعد ملزمة . هذه الضمانات التي اساسها القواعد العامة لقانون المصرف المعتمدة على التشديد على المدينين وضمان حقوق الدائنين بضمانات تفوق مايمنحه القانون المدني والتجاري بشكل عام يمكن حصرها في اربعة ضمانات . فالمسحوب عليه المبين اسمه وعنوانه في الحولة التجارية لايكون ملتزما ابتداء . فلابد من ان يتقدم اليه المستفيد الدائن بالحوالة بطلب القبول ، فاذا ماوقع على الحوالة بالقبول ، فهو قد وفر اول ضمان للمستفيد كما ان المشرع احاط حق الحامل بضمان آخر ، بأن قرر له حقوقاً ثابتة على مقابل الوفاء ، وهو الدين النقدي الذي يمثل علاقة المديونية بين الساحب والمسحوب عليه ، ثم ان الحوالة اذا تم تداولها بالتظهير وقع عليها المظهرون فالتزموا بموجب توقيعاتهم هذه تجاه المستفيد الحامل الاخير للحوالة التجارية فيكون التزام هؤلاء الموقعين وتضامنهم ، ضماناً ثالثاً للمستفيد ، ثم ... بعد هذا وذاك . هناك الضمان الأتفاقي المتمثل بالضمان الأحتياطيء مع امكانية ضمان الدين الثابت بالحوالة التجارية بالرهن ايضاً .

وهكذا سيكون موضوع بحثنا في عرض هذه الضمانات وتحليلها و كما يأتي :

المبحث الاول : القبول

المبحث الثاني : مقابل الوفاء

المبحث الثالث : التضامن بين الموقعين

المبحث الثالث : التضامن بين الموقعين

المبحث الرابع : الضمان الاتفاقي

خاتمة

« والله ولي التوفيق»

«المبحث الاول»

«القبول»

يمكن تعريف القبول بأنه تعهد من المسحوب عليه بتنفيذ امر الساحب في دفع قيمة الحوالة الى الحامل في تأريخ الأستحقاق (١) .وبتوقيع المسحوب عليه بالقبول يصبح امام الدائن المستفيد من الحوالة التجارية ملتزم جديد ، يشكل التزامه هذا ضماناً لاداء الحق الثابت بالحوالة في تأريخ الأستحقاق . فاذا ما كانت ثقة الحامل بيسار الساحب ضعيفة ، فأن توقيع المسحوب عليه بالقبول يعني انضمام مدين جديد اليه ، وتقوية هذه الثقة فالتوقيع على الحوالة بالقبول يعني الالتزام صرفياً .

وقد تساءل الفقه حول طبيعة التوقيع بالقبول ، هل هو تعهد بالارادة المنفردة ام اتفاق بين الساحب والمسحوب عليه بعد فيه الساحب ايجاباً ، وتوقيع المسحوب عليه بالقبول قبولا ؟ ويرى الأستاذ صلاح الدين الناهي انه على الأرجح ارادة منفردة ، وهو تام بمجرد وقوعه ولايخضع بذلك لقواعد التعاقد بين غائبين في المدة التي تمر بين سحب الحوالة وبين موعد الاداء (٢) .

ونحن نرى ان التوقيع بالقبول بذاته يخلق التزاماً صرفياً مجرداً في ذمة المسحوب عليه لمصلحة المستفيد ، وان هذا الالتزام من الاستقلال والتجريد بحيث يصعب صبه في قالب من القوالب الجامدة المعروفة في القانون المدني فهو التزام ليس له جذور ولايتعلق بخلفيات العلاقات القانونية المسببة له ، انما هو يستمد قوته الدافعة من التوقيع على هذه الورقة الشكلية بحد ذاته ، فحق الحامل تجاه المسحوب عليه لايمكن ان يفسر باللجوء الى فكرة حوالة الحق مثلا : أو فكرة الانابة او نظرية الاشتراط لمصلحة الغير أو فكرة الألتزام القانوني

أو ربما فكرة التجريد ، اوالارادة المنفردة وهي افكار ونظريات حاول الفقهاء اللجوء اليها في تفسير هذا الالتزام الصرفي وحدوده (٣) ، وهي محاولات عقيمة ، تصطدم بالحقيقة الساطعة المتمثلة بأصالة الالتزام الصرفي الذي استمد ضوابطه وقوته من ابداعات التجار ، وتطبيقاتهم العملية على مر العصور .

والقبول من حيث الاساس رخصة منحها المشرع للحامل ، فقد جاء نص المادة (٧٠) من قانون التجارة الناقد كما يأتي « يجوز لحامل الحوالة ولأي حائز لها حتى ميعادا الأستحقاق ، تقديمها الى المسحوب عليه لقبولها . » فهو امر جوازي ولكنه استثناء يصبح واجباً على عاتق الحامل اذا كانت الحوالة تحتوي على بيان اختياري بوجوب تقديمها للقبول ، اوكانت الحوالة الاداء بعد مدة معينة من الأطلاع .

والقبول تصرف ارادي شكلي يستلزم لصحته الشروط العامة لصحة التصرفات الأرادية ، المتمثلة بالاهلية والرضا والمحل والسبب ، فلابد ان يكون المسحوب عليه القابل ، متمتعاً بهذه الشروط . بالاضافة الى الشروط الشكلية المتمثلة بالكتابة فلايمكن تصور وقوع القبول مشافهة مثلا . او عبر وسيلة من وسائل الأتصال وتبليغ المعلومات الحديثة كالتلفون والتلكس مثلا . فلابد من الكتابة المتسمة بالجدية والثبات بالاضافة الى ضرورة ايراد الكتابة على متن الورقة التجارية ذاتها . فلا يمكن ان ينشأ في ذمة المسحوب عليه التزام صرفي بالمعنى الصحيح لو اعطى القبول على ورقة مستقلة مثلا . نصت المادة (٧٠) اولا من قانون التجارة على انه « يكتب القبول على الحوالة ذاتها بلفظ (مقبول) او اية عبارة أخرى تفيد معناه ويوقعه المسحوب عليه » كما يمكن ان يستفاد القبول ويفهم من مجرد التوقيع الصادر من المسحوب عليه على وجه الحوالة التجارية كما جاء في الفقرة ثانياً من المادة (٧٥) انفة الذكر .

والقبول كالتزام صرفي ، اقتضى المشرع ان يجعله ضماناً اضافياً لحق الحامل بالحوالة التجارية ، يجب ان يكون مطلقاً ، غير معلق على شرط ،

وذلك لجعل التزام المسحوب عليه باتا ، لارجعة فيه وحق الحامل مضموناً بالدرجة الكافية ، ولكن يمكن ان يكون القبول جزئياً ، فقد اجاز المشرع في المادة (٧٦) للمسحوب عليه أن يقبل الحوالة قبولا جزئيا ، والوفاء بعد ذلك قد يكون جزئياً وفي هذا تيسير على الدائن ، وهو على كل حال افضل من الأمتناع عن القبول ، فقد يتقدم مسحوب عليه احتياطي بقبول الجزء المتبقي من مبلغ الحوالة ، أو ربما قابل بالتدخل فيتوفر للحامل الدائن عدد من المدينين المتضامنين الضامنين لاداء حقه .

ولعل مايعنينا من القبول هنا ونحن بصدد ضمانات الوفاء بالحوالة التجارية ، هو الاثر القانوني المترتب على قبول الحوالة التجارية ، وذلك ما وضحته المادة (٧٨) من قانون التجارة . فقد جاء فيها « اولا – اذا قبل المسحوب عليه الحوالة كان ملزماً بوفاء قيمتها في ميعاد استحقاقها. ثانياً – وفي حالة عدم الوفاء يكون للحامل – ولو كان هو الساحب ذاته – مطالبة المسحوب عليه القابل بدعوى مباشرة ناشئة عن الحوالة بكل ماتجوز المطالبة به...... » ولعل في نص هذه المادة . جوهر حق الحامل بالحوالة التجارية تجاه المسحوب عليه القابل حيث يترتب على توقيع المسحوب عليه بالقبول جملة آثار، تتمثل بما يأتي : –

١ – سقوط ضمان القول ، حيث تبرء ذمم الموقعين على الحوالة من ضمان القبول الذي يلتزم به كل منهم بمقتضى التوقيع على الحوالة .

٢ – ان توقيع المسحوب عليه على الحوالة ملتزم التزاماً صرفياً واصلياً عن الحوالة . فهو بالقبول قد اصبح المدين الصرفي الأصلي اما الساحب فانه ينقلب الى مجرد ضامن ، ومع ذلك لايكون له التمسك بسقوط حق الحامل المهمل الا اذا كان قد قدم مقابل الوفاء [٤] .

٣ – يعد قبول المسحوب عليه قرينة على وجود مقابل الوفاء لديه ، حيث ينشيء قبول الحوالة حسب نص المادة ٦٤ اولا تجارة « قرينة على وجود مقابل الوفاء لدى القابل ولايجوز نقض هذه القرينة في علاقة المسحوب

عليه بالحامل. « فالمسحوب عليه القابل هنا لايقدم عادة على قبول الحوالة الا بعد ان يتأكد من مديونيته للساحب وانه سبق ان تلقى مقابل الوفاء فالمشرع قد اقام قرينة بمقتضاها ان قبول المسحوب عليه للكمبيالة يدل على انه تلقى مقابل الوفاء. ويعد هذه القرينة قاطعة لاتقبل الدليل العكسي من جانب المسحوب عليه في مواجهة الحامل. فلا يستطيع المسحوب عليه القابل ان يدفع على انه تلقى مقابل الوفاء ويعد هذه القرينة قاطعة لاتقبل الدليل العكسي من جانب المسحوب عليه في مواجهة الحامل. فلا يستطيع المسحوب عليه القابل ان يدفع في مواجهة الحامل بأنه لم يتلق مقابل الوفاء مـــــن الساحب. فهذا القبول يؤكد حق الحامل على مقابل الوفاء كما سنرى لاحقاً: ولكنه يشكل في الوقت ذاته قرينة بسيطة قابلة لاثبات العكـــس في علاقة الساحب بالمسحوب عليه.

٤ – يشكل القبول ضماناً كافياً للحامل في مواجهة المسحوب عليه القابل، حيث لا يستطيع المسحوب عليه القابل ان يتمسك في مواجهة الحامل بالدفوع المستمدة من علاقته بالساحب للطعن بحق الحامل في مبلغ الحوالة، فالمسحوب عليه القابل التزام بمجرد توقيعه بالقبول التزاماً صرفياً لا رجعة فيه بمقتضى قاعدة استقلال التواقيع في ميدان الاوراق التجارية.

ان الامتناع عن القبول، يعطي الحامل الحق بالرجوع على الساحب والموقعين قبل موعد الاستحقاق، ويكون الرجوع وفق المادتين (١٠٧) و (١٠٨) من قانون التجارة، ويشمل مبلغ الرجوع اصل مبلغ الحوالة غير المقبولة والفوائد القانونية مطروحاً منها ما يساوي سعر الخصم الرسمي في تاريخ الرجوع بالمكان الذي يقع فيه مقام الحامل مع المصاريف التي انفقها الحامل في الاحتجاج والاخطارات.

ويعد رفضاً للقبول وامتناعاً عنه ادخال اي تعديل في بيانات الحوالة يرد في صيغة القبول حسب نص الفقرة ثانياً من المادة (٧٦) من قانون التجارة، وهو مبرر للرجوع قبل موعد الاستحقاق.

كما يعد افلاس المسحوب عليه بعد القبول بمثابة رفض القبول ،لان القبول من ضمانات الوفاء وإفلاس المسحوب عليه القابل يقلل من وجود هذا الضمان ولذلك اجاز المشرع للحامل الرجوع قبل ميعاد الاستحقاق . (المادة ١٠٢ / ثانياً) حيث تنص على «ب - صدور حكم باعسار المسحوب عليه سواء كان قابلا للحوالة ام غير قابل لها او وقوفه عن الدفع ولم يثبت ذلك بحكم او حجز امواله حجزاً غير مجد» .

ولا يختلف الحل اذا افلس المسحوب عليه من قبل القبول ، لأن الافلاس يمنعه من القبول فيكون بمثابة رفض للقبول، في حين لا تأثير من افلاس الساحب بعد القبول لأن الساحب يكون بعد القبول مجرد ضامن ، فقد اصبح المسحوب عليه القابل هو المدين الاعلى ، اما اذا افلس الساحب قبل القبول فان افلاسه يرتب سقوط الاجل لأنه مازال هو المدين الاصلي . ولذلك يكون للحامل الرجوع قبل ميعاد الاستحقاق . وهذا ما اقرته المادة (١٠٢ ثانياً في فقرتها ج) .

وهكذا نجد ان القبول هو ضمان من ضمانات الوفاء بالحوالة التجارية

«المبحث الثاني»

مقابل الوفاء

لا يقتصر ضمان الحامل للحوالة التجارية على مجرد الحق في الرجوع على الساحب والمسحوب عليه القابل بالدعوى الصرفية الناجمة عن توقيع كل منهم على الحوالة التجارية ، وانما قرر له المشرع في قانون حقاً على مقابل الوفاء الموجود للساحب لدى المسحوب عليه. فقد اقام المشرع قرينة غير قابلة لاثبات العكس على ان قبول المسحوب عليه للحوالة التجارية يعني توفر مقابل الوفاء.

ويقتضي الامر ابتداء تعريف مقابل الوفاء وماهيته ، ثم شروط وجوده ثم تحديد وتوضيح ماهية حق الحامل عليه . فقد اختلفت التشريعات ، والاراء الفقهية بشأنه (٥) ، ولكن ما يعنينا هنا هو موقف المشرع العراقي .

ان سحب الحوالة التجارية لا يأتي من فراغ ،حيث يفترض ان تكون علاقة مديونيه بين الساحب والمسحوب عليه ،سابقة على سحب الحوالة التجارية ، تبرر للساحب هذا الامر المطلق غير المعلق على شرط بدفع مبلغ نقدي معين، الذي يصدره للمسحوب عليه في صيغة الحوالة التجارية . ولم يعرف المشرع العراقي مقابل الوفاء بشكل مستقل ولكن ، جاء نص المادة (٦٣)من القانون ليوضح ماهية مقابل الوفاء حيث نصت على «يعتبر مقابل الوفاء موجوداً اذا كان المسحوب عليه مديناً للساحب او للامر بالسحب في ميعاد استحقاق الحوالة بمبلغ من النقود مستحق الاداء ومساو على الاقل لمبلغ الحوالة» . فمقابل الوفاء اذن هو الدين النقدي الذي يكون للساحب لدى المسحوب عليه ويدفع منه هذا الاخير قيمة الحوالة التجارية ولا اهمية لطبيعة هذا الدين ، فقد يكون مدنياً وقد يكون تجارياً ، وقد يكون مقابل الوفاء منذ البداية في صورة مبلغ من النقود مستحقة للساحب لدى المسحوب عليه ، ولا اهمية لمصدر تلك المديونية ، فقد تنشأ من وديعة او قرض او بيع .فقد يتسلم المسحوب عليه بضائع من الساحب تتحول إلى مبلغ من النقود قبل ميعاد استحقاق الحوالة ، فقد ترسل البضائع مثلا من الساحب البائع إلى المسحوب عليه المشتري ، ويتم سحب حوالة من الساحب على المسحوب عليه بثمن تلك البضائع ، فيصبح ثمن البضائع الموجودة لدى المسحوب عليه مقابل وفاء الحوالة التجارية ، وليس البضائع بذاتها .

كما قد ينشأ مقابل الوفاء عن تسليم الساحب للمسحوب عليه اوراق تجارية او سندات دون معينة لغرض تحصيلها ،ويحدث ذلك عادة اذا كان المسحوب عليه مصرفاً ، فيقوم المسحوب عليه بتحصيل قيمة الاوراق المستلمة من قبله ويسحب الساحب حوالة تجارية بهذه القيمة ، مقابل وفاء هذه الحوالة ، هو الدين النقدي المتمثل بقيمة الاوراق ، وليس الاوراق ذاتها .

مقابل الوفاء اذن هو الدين النقدي الموجود للساحب لدى المسحوب عليه . ويشترط في مقابل الوفاء الصحيح ان يكون موجوداً ، ومستحق الاداء وقت استحقاق الحوالة التجارية ، ومساوياً في الاقل لمبلغ الحوالة .

اولا : ان يكون مبلغاً نقدياً موجوداً وقت استحقاق الحوالة .

ان حق الحامل يتلخص في استحصال قيمة الحوالة التجارية ، المتمثلة بمبلغ نقدي معين ،سحبت به فلا يمكن القول بأن مقابل وفاء هذه الحوالة موجود مالم يوجد المبلغ النقدي لدى المسحوب عليه فعلا ،لاحظنا سابقاً ، أن الحياة العملية زاخرة بالامثلة الكثيرة حول علاقات المديونية التي يمكن ان تنشأ بين الساحب والمسحوب عليه ، ويصبح فيها المسحوب عليه فعلا مديناً للساحب ،ولكن هل يمكن اعتار مقابل وفاء الحوالة التجارية موجوداً بمجرد كون المسحوب عليه مديناً للساحب ؟ لابد لاعتبار مقابل الوفاء موجوداً من ان يكون الدين الذي عليه منصباً على مبلغ نقدي معين.فالامثلة المذكورة سابقاً، تعطي افتراضات لحالة مديونية ناشئة عن استلام بضاعة مثلا — الساحب من قبل المسحوب عليه،أو استلام اوراق تجاريةاو اوراق مالية أو أية أموال قابلة للاسترداد ، ولكن هل ينصب حق الحامل على هذه الاموال ذاتها أم على ثمنها ؟ ليس هناك مجال للشك بأن حق الحامل انما ينصب على قيمة هذه الاموال مقومة بالنقود ،حق الحامل اذن لايتعلق بالأموال، ولا يتميز على غيره من دائني الساحب بالنسبة لثمنها (٦) إلا اذا اتضح من الظروف والملابسات ان الساحب قد خصصها كغطاء لمقابل وفاء الحوالة التجارية : فهنا يجب التمييز من مقابل الوفاء ذاته ،الدين النقدي ، وبين غطاء مقابل الوفاء (٧) ، الذي قد يكون تلك البضاعة أو هذه الأوراق المالية أو التجارية أو أي مال آخر يمكن ان يقوم بنقود .

شرط الوجود بالنسبة لمقابل الوفاء هنا غير متحقق اذا لم يكن التزام المسحوب عليه مبلغاً من النقود،فلا يصلح ذلك الالتزام لأن يكون مقابلا للوفاء بالحوالة لأن مقابل للوفاء اصلا علاقة قانونية خارجة عن إطار العلاقات القانونية الخاصة بالحوالة ،ولا شأن لعلاقات الحوالة بالعلاقة الأولى إلا في جانب واحد منها ، وهو الجانب النقدي الذي تسفر عنه هذه العلاقة في ذمة المسحوب عليه (٨).

ثانياً : ان يكون مستحق الاداء وقت استحقاق الحوالة التجارية

ومعنى هذا ان وجود مقابل الوفاء لدى المسحوب عليه وقت سحب الحوالة ليس ضرورياً ، فهو ضمان من ضمانات الحامل المستفيد وليس شرطاً لصحة سحب الحوالة . فاذا كان الساحب دائناً للمسحوب عليه بدين لم يحل اجله بعد عند حلول ميعاد استحقاق الحوالة فان هذا الدين لا يصلح اساساً لمقابل الوفاء: اذ لما كان المسحوب عليه القابل هو الذي يقوم بدفع قيمة الحوالة اعتماداً على الدين الذي في ذمته للساحب فانه يتعين ان يكون هذا الدين مستحق الاداء حتى لا يحرم المسحوب عليه من اجل منحه اياه الساحب. وهذا ما نجده واضحاً في نص المادة (٦٣) من قانون التجارة . ولكي يكون دين الساحب لدى المسحوب عليه مستحق الوجود ومعين المقدار ، بمعنى ان لا يكون معلقاً على شرط او متنازعاً في قيمته ، ويجب ملاحظة التزامن بين ميعاد استحقاق الدين النقدي الممثل لمقابل الوفاء ، فاذا كان هذا الدين النقدي موجوداً وقت سحب الحوالة ولكنه انقضى بالمقاصة او اتحاد الذمة او الابراء مثلاً مثل حلول ميعاد استحقاق الحوالة ، فانه ينتفي شرط استحقاقه وقت استحقاق الحوالة، وينفي بذلك وجود مقابل وفاء الحوالة .

ثالثاً : يجب ان يكون دين الساحب مساوياً بالاقل لقيمة الحوالة .

ويعني هذا الشرط انه اذا كان دين الساحب لدى المسحوب عليه اقل من مبلغ الحوالة فان مقابل الوفاء يعد غير موجود ، لصراحة نص المادة(٦٣) تجارة والذي جاء فيه «يعتبر مقابل الوفاء موجوداً اذا كان المسحوب عليه مديناً للساحب او للامر بالسحب في ميعاد استحقاق الحوالة بمبلغ من النقود مستحق الاداء ، مساو على الاقل لمبلغ الحوالة» . فمقابل الوفاء يوجد متى كان دين الساحب مساوياً على الاقل لمبلغ الحوالة ، وإلا اعتبر المقابل الجزئي المتحقق في حكم غير الموجود (٩) .

ومتى اعتبر مقابل الوفاء غير موجود بهذا الشكل ، سقط حق الساحب بدفع رجوع الحامل عليه بدعوى كونه حاملا مهملا ، ولكن اعتبار مقابل الوفاء الجزئي في حكم المعدوم ، فيه تضحية بحق الحامل ، فقد قرر المشرع العراقي للحامل في الفقرة ثانياً من المادة (٦٥) حقوقاً على مقابل الوفاء الجزئي تعادل الحقوق التي قررها في الفقرة اولا من المادة ذاتها للحامل على المقابل الكامل .

إن وجود مقابل الوفاء بشكل جزئي إذن لا يخلو من اثر . ذلك ان المسحوب عليه يستطيع ان يقبل الحوالة قبولاً جزئياً في حدود المقابل الناقص ومعلوم ان القبول الجزئي جائز (١٠) ، وفيه من المنافع والفوائد الكثير بما يسهل على الحامل اقتضاء ولوجزء من حقه ، بالاضافة إلى تخفيف عبء الدين عند كاهل المدين الاول بالحوالة ، الساحب ، اضافة إلى ان المشرع منع على الحامل رفض الوفاء الجزئي (١١) .

وخلاصة القول ان مقابل الوفاء هو دين بمبلغ من النقود للساحب في ذمة المسحوب عليه موجود او مستحق في ميعاد استحقاق الحوالة ومساوٍ على الاقل لمبلغ الحوالة ، ولا يهم بعد ذلك طبيعة هذا الدين مدني او تجاري ، ولا سبب منشئه ، شرط ان يكون هذا السبب مشروعاً (١٢) .

اما اثبات وجود مقابل الوفاء فهو امر قد تقتضيه مصلحة الحامل في علاقته بالمسحوب عليه ، او مصلحة الساحب في علاقته بالحامل او بالمسحوب عليه . فقد اقام المشرع العراقي في المادة (٦٤) من قانون التجارة قرينة قانونية قاطعة غير قابلة لاثبات العكس على وجود مقابل الوفاء في حالة قبول الحوالة .

نصت المادة (٦٤) تجارة على «اولا — يعتبر قبول الحوالة قرينة على وجود مقابل الوفاء لدى القابل . ولا يجوز نقض هذه القرينة في علاقة المسحوب عليه بالحامل . ثانياً — وعلى الساحب وحده ان يثبت في حالة الانكار سواء حصل قبول الحوالة او لم يحصل ، ان المسحوب عليه كان لديه مقابل الوفاء في ميعاد

الاستحقاق ، فاذا لم يثبت ذلك كان ضامناً للوفاء ولو عمل الاحتجاج بعد الميعاد المحدد قانوناً . فاذا اثبت الساحب وجود المقابل واستمرار وجوده حتى الميعاد الذي كان يجب فيه عمل الاحتجاج برئت ذمته بمقدار هذا المقابل مالم يكن قد استعمل في مصلحته» .

فالمسحوب عليه لا يقبل الحوالة عادة الا اذا كان قد تلقى مقابل الوفاء من الساحب فعلا ، وهكذا اقام المشرع على هذا القبول قرينة قانونية قاطعة غير قابلة لاثبات بالنسبة لعلاقة الحامل بالمسحوب عليه ، فبعد القبول لا يستطيع المسحوب عليه ان يمتنع عن الوفاء للحامل بحجة انه لم يتلق مقابل الوفاء من الساحب ، والمسحوب عليه بتوقيعه بالقبول كما لاحظنا في المبحث السابق يصبح ملتزماً صرفياً وشخصياً تجاه الحامل بوفاء قيمة الحوالة في تاريخ الاستحقاق والتزامه هذا مستقل عن وجود مقابل الوفاء .

اما في علاقة الساحب بالمسحوب عليه فالقبول لا يشكل الا قرينة بسيطة قابلة لاثبات العكس . فيجوز للمسحوب عليه رغم قبوله ، إثبات عدم وجود مقابل الوفاء إما لاسترداد قيمة الحوالة التي دفعها على المكشوف ، من الساحب وإما لدفع دعوى رجوع الساحب عليه بعد ان يكون قد دفع قيمة الحوالة للحامل منه ، ويمكن للمسحوب عليه ان يتوصل إلى هذا الاثبات بكافة طرق الاثبات .

ونلاحظ اخيراً ، انه لا اهمية للقبول في اثبات وجود مقابل الوفاء بالنسبة لعلاقة الحامل بالساحب ، حيث يقع على الساحب إثبات وجود مقابل الوفاء لدى المسحوب عليه بالضوابط التي لاحظناها سابقاً من كونه ديناً نقدياً مستحق الاداء وقت استحقاق الحوالة ، مساو في الاقل لمبلغ الحوالة ، وسواء حصل القبول ام لم يحصل ، وبعكسه فانه يكون ضامناً للوفاء ولو عمل الاحتجاج بعد الميعاد القانوني المحدد . وقد يستطيع الساحب التوصل إلى هذا الاثبات ، بمعنى وجود المقابل واستمرار وجوده إلى تاريخ استحقاق الحوالة ، ولكنه مع ذلك

يبقى مشغول الذمة تجاه الحامل ، ولاتبرأ ذمته إذا ما كان هذا المقابل قد استعمل في مصلحة الساحب ، لوفاء حوالات اخرى مثلا .

حقوق الحامل على مقابل الوفاء .

اقر المشرع العراقي في المادة (٦٥)حقاً للحامل على مقابل الوفاء حيث نصت الفقرة الاولى من المادة (٦٥) على انه« ينتقل الحق مقابل الوفاء بحكم القانون الى حملة الحوالة المتعاقبين » ويتضح من هذا النص أن المشرع أقر للحامل الحق في مقابل الوفاء، ومقتضى هذا الحق منع الساحب من ان يسترد المقابل من المسحوب عليه أو يتصرف فيه . ومن ملاحظة نصوص المواد ٦٥ بفقرتيها و ٦٦ و ٦٧ و ٦٨بفقرتيها تتضح لنا حدود حق الحامل على مقابل الوفاء كما يأتي :

١ — يخلق القبول للحامل حقوقاً ، على مقابل الوفاء الموجود للساحب لدى المسحوب عليه فطالما ان القبول يشكل قرينة على وجود مقابل الوفاء، فان هذا المقابل يصبح من حق الحامل ولا يجوز للساحب استرداده أو التصرف فيه .

٢ — في حالة كون مقابل الوفاء غير كامل ،أو كان ديناً متنازعاً فيه أو غير مستحق الأداء عند استحقاق الحوالة ، فأن حقوق الحامل على هذا المقابل الناقص هي نفس الحقوق التي اقرها المشرع للحامل على المقابل الكامل . (م /٦٦ /ثانياً) .

٣ — ان افلاس الساحب بعد القبول وقبل استحقاق الحوالة لايؤثر على حقوق الحامل على مقابل الوفاء الموجود لدى المسحوب عليه ، حيث يكون للحامل حق استيفاء قيمة الحوالة من مقابل الوفاء هذا دون بقية دائني الساحب . (المادة ٦٧) (تجارة) .

٤ — اوجب المشرع على الساحب أن يسلم الحامل المستندات اللازمة للحصول على مقابل الوفاء والمتمثلة بأدلة علاقة المديونية القائمة بين الساحب

والمسحوب عليه، فاذا أفلس الساحب وجب على المصفي تمكين الحامل من الحصول على مقابل الوفاء بتسليمه المستندات اللازمة (المادة ٦٦ تجارة).

٥ — فيما يتعلق بأفلاس المسحوب عليه، فأن مبلغ مقابل الوفاء يدخل في تفلسية المسحوب عليه، وقد لايسهل فرزه عن بقية أموال التفلسية، وتثبيت حقوق الحامل عليه، ولكن اذا كان للساحب لدى المسحوب عليه بضائع او اوراق تجارية او اوراق مالية أو غير ذلك من الأموال التي يجوز استردادها طبقاً لاحكام الأفلاس وكانت هذه الأموال مخصصة صراحة او ضمناً لوفاء الحوالة فللحامل الاولوية في استيفاء حقه من قيمتها

فالتخصيص هنا حماية لحق الحامل على المقابل النقدي للاموال التي هيأها الساحب كغطاء لمقابل وفاء الحوالة. فاذا ما ارسل الساحب الى المسحوب عليه بضاعة ماليبعها مثلا وطلب منه تخصيص ثمنها للوفاء بحوالة معينة يسجلها عليه، ثبت حق الحامل على هذا المبلغ من لحظة التخصيص دون انتظار بيع البضاعة وتحولها الى مبلغ نقدي : ووفقاً لجانب كبير من الفقه يتأكد ايضاً حق الحامل على مقابل الوفاء اذا ما أخطر الحامل المسحوب عليه بالحوالة وتأريخ استحقاقها فيمتنع على المسحوب عليه رده الى الساحب.

٦ — في حالة عدم قبول المسحوب عليه للحوالة التجارية فأن حق الحامل على مقابل الوفاء لايكون الافي ميعاد الأستحقاق اذ أنه بدون القبول لايتحدد حق الحامل على المقابل ولا يستقر. ولكن عندما يحل ميعاد الأستحقاق ويكون المقابل متحققاً لدى المسحوب عليه فأن للحامل حقوقاً على هذا المقابل من لحظة تحققه. وبناء على ذلك فأن الساحب له كامل الحرية في سحب أو استرداد المقابل من المسحوب عليه قبل حلول ميعاد الأستحقاق كما له حق التصرف فيه او تخصيصه للوفاء بحوالة

أخرى وليس للمسحوب عليه في هذه الحالة رفض أوامر الساحب اذا ما أراد استرداد المقابل لان المسحوب عليه هنا غير ملتزم صرفياً ، طالما كان غير قابل .

٧ — في حالة سحب عدة حوالات على مقابل وفاء واحد ، وهو مايعرف بالتزاحم على مقابل الوفاء فقد رسمت المادة (٦٩) من قانون التجارة اسلوباً لاداء هذه الحوالات ، قدمت فيه الحوالة المقبولة على الحوالة غير المقبولة ؛ واذا كانت الحوالات جميعها مقبولة فتكون العبرة في تأريخ القبول ، فاذا كانت كلها مقبولة في تأريخ واحد اقتسم الحملة مقابل الوفاء قسمة غرماء . اما عند عدم وجود حوالة مقبولة فالأولوية للحوالة التي خصص لها مقابل وفاء لأدائها واذا كانت الحوالات كلها قد خصص لها مقابل الوفاء في نفس التأريخ اقتسم حاملوها المقابل قسمة غرماء ، اما عند عدم وجود اية حوالة مقبولة وعدم وجود وتخصيص مقابل وفاء أي منها فتكون الأولوية للأسبق منها في تأريخ الأستحقاق . والا اقتسم الحملة المقابل قسمة غرماء .

حوالات المجاملة او الاعارة

هي حوالات صورية تسحب بين اطراف لاتربطهم علاقات حقيقية ولا ينوي الموقعون فيها الالتزام بدفع قيمتها في تأريخ الأستحقاق (١٣) . وعادة مايلجأ الساحب الى اسلوب حوالة المجاملة في محاولة للحصول على ائتمان وهمي يدفع به مطالبه دائنه ، المستفيد من هذه الحوالة ، كما يمكن ان تكون حوالة المجاملة وسيلة بيد الساحب لضمان حركة النقد وسيولته بيده ، فقد يقوم التاجر الذي اضطربت اعماله التجارية بسحب حوالة على تاجر آخر غير مدين له ويرجوه قبولها لاعتبارات مهنية او علاقات اجتماعية معينة دون ان يوفر لديه مقابل الوفاء ، على ان يرسله له بعد حين ، وقبل ميعاد الأستحقاق

فيقبل المسحوب عليه الحوالة مجاملة للساحب ودون ان يقصد الالتزام بهـا ودفع قيمتها ، ثم تقدم الحوالة الى المصرف للخصم ، فيحصل الساحب على حاجته من النقود ، واذا ماعجز الساحب عن تدبير مقابل الوفاء اللازم في ميعاد الأستحقاق ، عمد الى سحب حوالة جديدة على مسحوب عليه آخر مجامل ايضاً ، وهكذا تتكرر العملية بضع مرات قبل استحقاق كل حوالة ويتحرك النقد بأستمرار في يد الساحب .

وعادة ما يكون المجامل ، المسحوب عليه . قد قدم توقيعه بالقبول مقابل عمولة معينة ، بل قد يكون هناك اتفاق بين الساحب والمسحوب عليه على اقتسام حصيلة العملية بعد خصم الحوالة ، وقد يتفقان على تبادل المجاملة بأن يسحب كل منهما حوالة على الاخر ، ومن النادر ان يكون المجامل مغفلا يقدم توقيعه دون مقابل معقول !

ويبدو من الصعوبة بمكان كشف حقيقة حوالات المجاملة طالما كانت من الناحية الشكلية الظاهرية مستجمعة البيانات التي يفرضها القانون كما لو كانت حوالات جدية حقيقية ، ولكن خبرة المصرف القائم بالخصم ومهارته التجارية قد تساعد على كشف هذه الحوالات من خلال تكرار نفس التوقيعات او صلة القرابة التي تجمع بين الساحب والمسحوب عليه ، او يكون الساحب والمسحوب عليه هما مدير الشركة والشركة ذاتها مثلا ، او ربما اختلاف موضوع تجارة الساحب عن تجارة المسحوب عليه .

موقف القانون العراقي من حوالات المجاملة

نادى الفقه دوماً بتجريد الالتزام الصرفي عن العلاقات الخارجية عن الورقة التجارية . وهكذا ، يمكن ان تكون حوالة المجاملة حوالة صحيحة ، ولكن الحكم قد يكون عكسياً بالضبط ، أي تقرير بطلان حوالات المجاملة إذا ما راجعنا نصوص القانون واستوحينا قواعده واهدافه .

ولو رجعنا الى نصوص قانون التجارة الخاصة بمقابل وفاء الحوالة التجارية لوجدنا ان المشرع العراقي قد استلزم توفر مقابل الوفاء كدين نقدي مستحق الاداء في ذمة المسحوب عليه للساحب كاف لاداء قيمة الحوالة التجارية في تأريخ الأستحقاق ، بمعنى ان سحب الحوالة بدون تحقق وجود مقابل الوفاء بالضوابط التي بيناها سابقاً امر يبيحه القانون فلا اثر ولا تأثير لمقابل الوفاء على سحب الحوالة التجارية ، إذن ، لايمكن الأستناد الى انعدام مقابل الوفاء عند سحب حوالة المجاملة للتوصل على الحكم ببطلانها .

ولكن يمكن القول بأن حوالات المجاملة هي حوالات باطلة فعلا لانهـا مخالفة للنظام العام ، فالمعروف ان صحة التصرفات القانونية لاتتحقق مالـم تكن لهذه التصرفات اسباب صحيحة باعثة ودافعة الى تقرير الالتزام في ذمة الملتزم ، فالسبب الصحيح ينتج تصرفاً صحيحاً والسبب الباطل بالتأكيد ينتج تصرفاً باطلا ، وعليه فأن من يوقع على حوالة المجاملة في موقع المسحوب عليه انما يستهدف تمكين الساحب او المستفيد من الحصول على ائتمان وهمي وهو امر مخالف للنظام العام ومناف للامانة التجارية ، وقد يشكل سحب هـذا السند جريمة يعاقب عليها القانون ويكون سبباً من اسباب الأفلاس التقصيري.

ان الحوالة التجارية لم يقرر المشرع العراقي الجنائي ، شمولها بما يشمـل الصك من تجريم وعقاب في حالة سحبه دون مقابل وفاء ، فنص المـادة (٤٥٩) من قانون العقوبات العراقي صريح في حصر الجريمة بحالة اعطـاء الصك دون رصيد ، ولكن يمكن الأستناد الى نصوص قانون العقوبات المتعلقة بجريمة الافلاس التدليسي ، حيث نصت المادة ٤٦٨ – الفقرة ثالثاً على انـه « يعد مفلساً » بالتدليس كل تاجر حكم نهائياً بأشهار افلاسه في احد الحالات التالية ... ثالثاً – اذا اعترف بدين صوري او جعل نفسه مديناً بمبلغ ليس فـي ذمته حقيقة سواء اكان ذلك في دفاتره او ميزانيته او غيرها من الأوراق او بأقراره بذلك شفوياً « وهكذا نجد ان سحب حوالة المجاملة من قبل الساحب

سيء النية الذي يروم الحصول على ائتمان وهمي ، وقبولها من المسحوب عليه المجامل الذي يشترك في الأحتيال ، وهدر الأئتمان التجاري سيكون سبباً في تجريم كل منهما بجريمة الأفلاس التدليسي .

ان ربط التصرفات القانونية السليمة والصحيحة باطار عام من مشروعية السبب واحترام النظام العام ومجمل القواعد القانونية يجعلنا نقر ببطلان حوالات المجاملة لانتفاء مقومات التصرفات الصحيحة و المشروعة فيها .

المبحث الثالث

«التضامن بين الموقعين»

يمكن اعتبار التضامن بين الموقعين من الضمانات الأكثر فاعلية لحماية حق الحامل بالحوالة التجارية ، وقد نص المشرع العراقي على هذا التضامن في المادة (١٠٦) من قانون التجارة والتي جاء فيها اولا – الأشخاص الملتزمون بموجب الحوالة مسؤولون بالتضامن تجاه حاملها .ثانياً – للحامل الرجوع على هؤلاء الملتزمين منفردين او مجتمعين دون ان يلزم بمراعاة ترتيب التزاماتهم . ويثبت هذا الحق لكل موقع على الحوالة اذا ادى قيمتها. ثالثاً – الدعوى المقامة على احد الملتزمين لا تحول دون الرجوع على الباقين ولو كانوا لاحقين للملتزم الذي اقيمت عليه الدعوى ابتداء (١٤).

فالتضامن بين الموقعين على الحوالة التجارية ، على مختلف مراكزهم يشكل ضمانة اكيدة لحق الحامل ، تتلخص في امكانية رجوعه على سلسلة من الموقعين لاينقسم الالتزام بينهم فالتضامن بين المدينين وهوما يطلق عليه احياناً بالتضامن السلبي ، تمييزاً عن التضامن الايجابي وهو مايقع بين الدائنين هو احد التصورات القانونية التي يتوحد بمقتضاها محل الالتزام رغم تعدد روابطه بحيث يكون للدائن اكثر من مدين او ملتزم يقع الالتزام الواحد على عاتقهم مجتمعين او منفردين (١٥) .

والتضامن بين المدينين هو أعلى مراتب الكفالة الشخصية ، اذ يستطيع الدائن مطالبة اي مدين متضامن بكل الدين دون اتباع ترتيب معين ، ويستطيع المدين ايضاً الوفاء بكل الدين والحلول محل الدائن في مطالبة زملائه الاخرين ومرد ذلك كله الى وحدة محل الالتزام .

اما نطاق هذا التضامن الصرفي بمقتضى كونه وارداً على حوالة تجارية فهو نطاق شمولي يضم كل الموقعين على الحوالة التجارية . فلم يميز المشرع العراقي في الفقرة الأولى آنفة الذكر بين هؤلاء الموقعين ، وانما جعلهم جميعاً متضامنين تجاه حاملها الاخير ، ثم حرص المشرع في الفقرة الثانية آنفة الذكر على التأكيد على حق الحامل في مباشرة حقه بالرجوع على هؤلاء الملتزمين منفردين او مجتمعين دون التزام بأتباع ترتيب معين . مع ملاحظة يجب ان لاتغيب عن الأذهان ، وهي ان المدين الصرفي الاصلي بالحوالة التجارية هو المسحوب عليه القابل ، فيتوجب على الحامل مطالبته في تأريخ الأستحقاق بقيمة الحوالة التجارية ، ثم اذا امتنع المسحوب عليه القابل عن الوفاء كان للحامل حق الرجوع بالضمان على الموقعين المتضامنين ويرى بعض الفقهاء(١٦) ان الحامل ملزم بأتباع طريق معين في الرجوع ، فلو رجع على الساحب مباشرة سقط حقه في الرجوع على باقي الموقعين على باقي المظهرين ، وكذلك اذا اختار ضامناً بعينه ، سقط حقه في الرجوع على الاخرين ، ولانستطيع الاتفاق مع هذا الرأي أمام صراحة نص الفقرة ثانياً من المادة (١٠٦) تجارة .

ولايقتصر التضامن بين الموقعين على الحوالة على التزامهم بالمبلغ الثابت فيها بل ايضاً بكافة ملحقاته من فوائد ومصاريف ، كما ان هذا التضامن لايستفيد منه الحامل فقط وانما كل مدين او اي شخص آخر قام بالوفاء وحل محل الحامل الدائن ولأن هذا التضامن قانوني ، اقره المشرع بنص القانون فلا يمكن استبعاده بورقة منفصلة لخصوصية القواعدالقانونية للورقة التجارية .

طبيعة التضامن الصرفي

يقوم التضامن بين المدينين على فكرة وحدة الدين من جهة وتعدد الروابط من جهة اخرى (١٧)، فالدين واحد ومحل الالتزام الذي ينصب عليه تضامن المدينين واحد، ولكن روابط كل مدين من هؤلاء المدينين مختلفة ومستقلة عن روابط الاخرين بالدائن الحامل. كما يمكن ان ينظر الى التضامن السلبي بين المدينين على انه قائم على فكرة النيابة التبادلية، وتفترض هذه الفكرة أن يعرف المتضامنون بعضهم بعضاً. ويختار بعضهم بعضاً، بينما يكون تضامن الموقعين على الحوالة بحكم القانون بحيث يجهل بعضهم البعض الاخــــر، ولهذا عبر بعض الفقهاء (١٨) عن هذا التضامن بكونه تضامناً ناقصاً وليـس تضامناً كاملا.

كما ان هذا التضامن لايتعلق بالنظام العام، ومن ثم يجوز استبعاده بشرط صريح في الحوالة. بأضافة بيان اختياري بعدم الضمان، فالساحب لايستطيع إعفاء نفسه من ضمان الوفاء، ولكنه يستطيع أعفاء نفسه من ضمان القبـول، فاذا اشترط الساحب الشرط، سرى على كافة الموقعين على الحوالة. أما اذا اشترطه المظهر فلا يسري الا عليه ولايستفيد منه الموقعون السابقون ولا الموقعون اللاحقون تطبيقاً لمبدأ استقلال التواقيع.

ويلاحظ أخيراً، ان المركز القانوني لهؤلاء المدينين المتضامنين متبايـن، ففي حين يكون الضامن الاحتياطي والقابل بالتدخل كفلاء متضامنين عمـن تدخلوا لمصلحتهم نلاحظ أن المسحوب عليه القابل مدين صرفي أصلي بالحوالة والساحب والمظهرين مدينون صرفيون ولكن احتياطيين فقط، فالقواعـد القانونية تلزم الحامل بمطالبة الحامل المسحوب عليه القابل اولا، وفي حالة امتناعه عن الدفع اثبات هذا الأمتناع باحتجاج عدم الوفاء ثم ممارسة حقـه بالرجوع على المدينين المتضامنين دون اتباع ترتيب معين، وبكل الديـن، فالمسحوب عليه القابل اذن هو المدين الصرفي الاصلي، والساحب قبل القبول يكون ايضاً بمنزلة المدين الصرفي الاصلي ولكنه بعد القبول يصبح في مركز واحد مع المظهرين وهو المدين الأحتياطي.

المبحث الرابع

«الضمان الاتفاقي»

يمكن اعتبار الضمان الاحتياطي ضماناً اتفاقياً يتم في النهاية لمصلحة الحامل وضمان حقه في وفاء قيمة الحوالة ، ومع الضمان الاحتياطي قد يكون هناك ضمان اتفاقي اخر كالرهن مثلا ، فقد يشترط حامل الحوالة على الساحب المدين بها تقرير رهن على عقار او منقول ضماناً للوفاء بقيمة الحوالة ، ولكن هذا الامر نادر الحدوث (١٩) في الحياة العملية نظراً لما تتطلبه اجراءات رهن العقار من بطء وعدم مرونه . وكذلك رهن المنقول الذي يشترط انتقال حيازته للحامل حتى يصبح سارياً في مواجهة الغير .

والضمان الاحتياطي من وجهة نظر الفقه قد ينظر اليه ككفالة لاحد الموقعين على الورقة التجارية او التزام بالارادة المنفردة لمصلحة الحامل الاخير بالحوالة و غير ذلك ومهما يكن من امر الاراء والافكار الفقهية فان الضمان الاحتياطي تصرف صرفي ، يتضمن كفالة احد الموقعين على الحوالة التجارية ، تقوية لضمان حق الحامل وزيادة للثقة والائتمان بالحوالة ككل والموقعين عليها وتسهيلا لسهولة وسرعة تداول الحوالة التجارية (٢٠) .

والضمان الاحتياطي يتميز عن التظهير والقبول ، فكل من المظهر والقابل والضامن الاحتياطي هم موقعون على الحوالة التجارية ولكن مقتضى وغاية وهدف كل موقع منهم يختلف عن هدف الموقع الاخر ، ففي حين يهدف التظهير إلى تداول الحوالة التجارية نلاحظ بان المظهر ضامن ايضاً ، جاء في قرار لمحكمة تمييز العراق رقم ٨١٨ /حقوقي /ثالثة /١٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ٧ /١٩٧٠ (٢١) «ان المظهر ضامن لتأدية بدل السند مالم يوجد شرط يخالف ذلك» وقد يكون هدف التظهير الوحيد منصباً لا على تداول الحوالة التجارية كما يدل عليه هدفه الظاهري ، وانما إلى اعطاء ضمان قوي للحامل خاصة عندما

يكون توقيع الساحب غير كاف فيضمن المظهر بتوقيعه هذا اداء قيمة الحوالة لمصلحة الحامل الاخير (٢١) .

والأصل ان يكون الضمان الاحتياطي من شخص غير ملتزم بالحوالة ، لان الغاية من الضمان الاحتياطي زيادة ضمان الحامل والحال ان الموقع بمقتضى توقيعه الاول هو ضامن فتوقيعه ثانية باعتباره ضامناً احتياطياً لا يزيد شيئاً في ضمان الحامل ، ولكن نلاحظ ، ان المشرع العراقي في المادة (٨٠) قد اجاز ان يقع الضمان ممن وقع على الحوالة مسبقاً . تحت هذه المادة من قانون التجارة على «يجوز ضمان وفاء مبلغ الحوالة كله او بعضه من اي شخص ولو كان ممن وقعوا عليها» .

اما المضمون فيمكن ان يكون اي موقع ملتزماً بالحوالة كالساحب او المسحوب عليه القابل او المظهر ، كما يجوز ان يقدم الضمان الاحتياطي عن واحد من الموقعين او عنهم جميعاً ، فالضمان الاحتياطي لمصلحة الساحب يمتد باثاره ليشمل كل الموقعين على الحوالة التجارية باختلاف مراكزهم .ولتعيين الملتزم المضمون اهمية كبيرة لان مركز الضامن الاحتياطي يتحدد بمركز الملتزم المضمون وحجم التزامه فاذا لم يذكر المضمون اعتبر الضمان لمصلحة الساحب وفق المفروض بالتطبيق لمبدأ الكفاية الذاتية،ان يقع الضمان كتابة على ذات الحوالة شأنه في ذلك شأن التصرفات الاخرى التي ترد عليها كالقبول والتظهير .ولكن حرصاً على أئتمان الملتزم المضمون ، يجوز ان يكون الضمان الاحتياطي في ورقة مستقلة حتى لا يكون في ظهوره على الحوالة ذاتها ما يثير الشك في يسار المضمون وقدرته على الوفاء ، وبالتالي زعزعة الثقة فيه واضعاف ائتمانه (٢٣)

وقد اجاز المشرع العراقي اعطاء الضمان الاحتياطي على ورقة مستقلة ، وذلك في سياق المادة (٨١ اولا) وفي نص المادة (٨٣) التي جاء فيها «يجوز اعطاء الضمان على ورقة مستقلة يبين فيها المكان الذي تم فيه» .والغاية هنا من ذكر المكان الذي تم فيه اعطاء الضمان الاحتياطي على ورقة مستقلة ، هو

لمعرفة مدى صحة هذا الضمان في قانون الدولة التي اعطى فيها، حيث تباينت التشريعات المقارنة في امر الضمان الاحتياطي على ورقة مستقلة بين موافق ومعارض .

اما آثار الضمان الاحتياطي فقد اوجزتها المادة (٨٢) من قانون التجارة ، والشق الثاني من المادة (٨٣) منه. نصت المادة (٨٢) على انه : «اولا -- يلتزم الضامن بالكيفية التي التزم بها المضمون ، ويكون التزام الضامن صحيحاً ولو كان الالتزام الذي ضمنه باطلا لاي سبب اخر غير عيب في الشكل ٢ — اذا اوفى الضامن الت اليه الحقوق الناشئة عنها قبل المضمون وقبل كل ملتزم بمقتضى الحوالة تجاه المضمون «اما المادة (٨٣) التي اجازت إعطاء الضمان الاحتياطي على ورقة مستقلة فقد حددت اثار الضمان بنصها «ولا يلزم الضامن في هذه الحالة الاتجاه من اعطى له الضمان» .

وهكذا نجد ان التزام الضامن الاحتياطي المعطى على الحوالة ذاتها هو التزام تبعي من حيث الاساس ، فهو يدور وجوداً وعدماً مع التزام المضمون ،حكمه في هذا حكم التزام الكفيل في الكفالة الشخصية،ولكن كون الضمان الاحتياطي يمثل توقيعاً على حوالة تجارية ، وبالتالي التزاماً صرفياً ، فهو خاضع لما تخضع له الالتزامات الصرفية من ضوابط وقواعد ، اهمها ما يتعلق بقاعدة استقلال التواقيع ، حيث يبقى التزام الضامن الاحتياطي صحيحاً ولو بطل التزام المضمون لاي سبب كان ، وهنا نجد ان التزام الضامن الاحتياطي يبدو اصلياً ، يستمد قوته من التوقيع على ذات الحوالة التجارية ، ولا يخفى ان الورقة التجارية عموماً ورقة شكلية ، ولذلك فان سلامة الشكل القانوني لها لازم لصحتها وصحة كل التزام ناشيء عنها ، وعلى هذا فان عيب الشكل الذي يترتب عليه بطلان التزام المضمون يجر بالتالي إلى بطلان التزام الضامن ايضاً .

وربما يثور التساؤل بشأن الطبيعة القانونية للضمان الاحتياطي المعطى على ورقة مستقلة ؟ وهل يشكل التزاماً صرفياً ام لا ؟ ونحن نجد ان الالتزامات

الصرفية لا تتمرر في واقع الحال الا على اوراق تجارية صحيحة ، وان مبدأ الكفاية الذاتية في الورقة التجارية مبدأ لابد من رعايته واحترامه ، ولذلك فان الضمان المعطى على ورقة مستقلة لايعدو ان يكون كفالة تجارية متى كان الضامن تاجراً وله مصلحة في الدين المضمون ، وبذلك فهو بعيد عن ميدان قانون الصرف وقواعده الاساسية وخصوصاً قاعدتي التطهير من الدفوع في نطاق الاوراق التجارية واستغلال التواقيع . وفي المادة (٨٣) تجارة آنفة الذكر اقر بأن التزام الضامن على ورقة مستقلة ذو اثر محدود، وليس ذا اثر شمولي كما هو الحال في الضمان على ذات الحوالة التجارية، فلا يلتزم الضامن الاتجاه من اعطى له الضمان، ولم يحدد المشرع بعد ذلك طبيعة هذا الالتزام هل هو التزام عادي ام صرفي ، ونحن نرى انه ليس الا التزاماً عادياً لا يتمتع بخصوصيات قانون الصرف .

واذا اوفى الضامن الاحتياطي آلت اليه الحقوق التي كانت للحامل تجاه المضمون وهذا تطبيق للقاعدة العامة في الوفاء مع الحلول ، ونلاحظ جيداً بأن حق الضامن الموفى يكون تجاه المضمون والموقعين السابقين عليه ، اما الموقعون اللاحقون للمضمون فلا يكون للضامن الموفى حق تجاههم لانه يتمتع بنفس مركز المضمون ، وهو مركز الضامن لهم وليس المضمون من قبلهم .

«الخاتمة»

في بحثنا هذا تناولنا ضمانات الوفاء بالحوالة التجارية ، ولاحظنا ان هذه الضمانات بمجموعها تسهم في حماية حق الحامل من افلاس المدين وعجزه عن اداء حق الحامل الاخير ، وان هذه الضمانات لا تخص شخص المستفيد الاول من الحوالة التجارية الذي تربط بالساحب علاقة وصول القيمة ، وانما تنتقل لتحمي الحق الثالث في هذه الحوالة ولمصلحة الحامل الاخير .

ان ضمانات الوفاء بالحوالة التجارية قد تكون قانونية ، وقد تكون اتفاقية فقبول المسحوب عليه وتهيئة الساحب لمقابل الوفاء ، والتزام الموقعين وتضامنهم معاً تجاه الحامل الاخير ، يمكن اعتبارها ضمانات قانونية جاءت بنص القانون في حين ان هناك ضمانات اتفاقية متمثلة بالضمان الاحتياطي ، الذي هو كفالة صرفية ان صح التعبير ، وما يمكن ان يتفق عليه الحامل مع الموقع الملتزم من تقرير ضمانات اخرى كالرهن الوارد على العقار او المنقول لحماية حق الحامل في مبلغ الحوالة التجارية .

ان عرض هذه الضمانات وبحثها لا يخلو من فائدة علمية وعملية ، تعكس بالدليل الملموس ، قوة الحق الصرفي وميزته عن الحق المدني والتجاري العادي ومستوى ضمانه الحالي .

(١) يستخدم الدكتور فوزي محمد سامي لفظ « طلب الساحب» والحال ان الساحب لا يطلب من المسحوب عليه ، او يرجوه دفع قيمة الحوالة وانما يأمره لأن صيغة الأمر المطلق غير المعلق على شرط بيان الزامي لا بد منه لصحة الحوالة .
راجع : د. فوزي محمد سامي – شرح قانون التجارة العراقي الجديد في الاوراق التجارية – الطبعة الثانية – مطبعة الزهراء – بغداد – ١٩٧٤ – ص ١٣٤ .
كذلك : د. فوزي محمد سامي و د. فائق الشماع – القانون التجاري – الأوراق التجارية – بغداد – مطبعة جامعة بغداد – ص ٢٧٥ .

(٢) د. صلاح الدين الناهي – المبسوط في الأوراق التجارية – بغداد، شركة الطبع والنشر الأهلية – ١٩٦٥ – ص ٢٨

(٣) د. ابو زيد رضوان – الأوراق التجارية – دار الفكر العربي – القاهرة السنة بلا ص ٣٠.

(٤) د. علي حسين يونس – الأوراق التجارية – دار الفكر العربي – القاهرة – ١٩٧٨ ص ١٩١ .

(٥) القانون التجاري – الأوراق التجارية – د. فوزي محمد سامي و د. فائق الشماع – المصدر السابق – ص ٢٥٢ .

(٦) د. حسين محمد سعيد – التزامات وحقوق حامل الورقة التجارية – عالم الكتب – القاهرة – السنة بلا – ص ٩٤ .

(٧) د. ابو زيد رضوان – المصدر السابق – ص ٢١٥ .

(٨) د. رضا عبيد – القانون التجاري – القاهرة – مطبعة السعادة – ١٩٨٨ – ص ١٥١ .

(٩) د. مصطفى كمال طه – مبادىء القانون التجاري – مؤسسة الثقافة الجامعية – الأسكندرية – ص ٤٥٥ .

(١٠) راجع نص المادة (٧٦) الفقرة اولا من قانون التجارة النافذ.

(١١) نصت المادة (٩٠) الفقرة ثانياً من قانون التجارة على انه « لايجوز للحامل الأمتناع عن الوفاء الجزئي » .

(١٢) د. مصطفى كمال طه ، و د. مراد منير فهيم – القانون التجاري – الدار الجامعية – بيروت – ص ٩٢ .

(١٣) د. سميحة القليوبي – الموجز في القانون التجاري – دار النهضة العربية – القاهرة ١٩٧٨ – ص ١١١.

(١٤) المحامي الياس ناصيف – الشامل في قانون التجارة – مكتبة الفكر الجامعي – بيروت – ص ١٦١ .

(١٥) د. عبد الرزاق السنهوري – الوجيز في شرح القانون المدني – نظرية الالتزام – جـ ١ – ١٩٦٦ – القاهرة – ص ١٠٠٠ وما بعدها .

(١٦) د. رضا عبيد – المصدر السابق – ص ١٥٧ .

(١٧) د. مصطفى كمال طه و د. مراد منير فهيم – المصدر السابق – ص ١٢٥ .

(١٨) المحامي الياس ناصيف – المصدر السابق – ص ١٨٦ .

(١٩) د. سميحة القليوبي – المصدر السابق – ص ١١٦ .

(٢٠) د . علي سلمان العبيدي – الأوراق التجارية في التشريع العراقي ط ١ – دار السلام – بغداد – ص ٣٨٩ – ٣٩١ .

(٢١) القرار منشور في النشرة القضائية – عدد ٣ – السنة الأولى – أيار ١٩٧١ – ص ١٥٤ .

(٢٢) د. اكرم ياملكي – القانون التجاري – الأوراق التجارية – ط ٢ بغداد – ١٩٧٨ – ص ٢٢١ .

(٢٣) د . محمد فريد العريني – القانون التجاري – الأوراق التجارية والأفلاس – دار المطبوعات الجامعية – الأسكندرية – ١٩٨٥ – ص ٢٩



المراجع

اولا : الكتب

١ – الدكتور اكرم ياملكي – القانون التجاري – الاوراق التجارية – ط٢ – بغداد ١٩٧٨ .

٢ – المحامي الياس ناصيف – الكامل في قانون التجارة – مكتبة الفكر الجامعي – بيروت .

٣ – الدكتور ابو زيد رضوان – الاوراق التجارية – دار الفكر العربي القاهرة – السنة بلا .

٤ – الدكتور حسين محمد سعيد – التزامات وحقوق حامل الورقة التجارية – عالم الكتب – القاهرة .

٥ – الدكتور رضا عبيد – القانون التجاري – القاهرة – مطبعة السعادة – ١٩٨٨ .

٦ – الدكتورة سميحة القليوبي – الموجز في القانون التجاري – دار النهضة العربية – القاهرة – ١٩٧٨ .

٧ – الدكتور صلاح الدين الناهي – المبسوط في الاوراق التجارية – بغداد – شركة الطبع والنشر الاهلية – ١٩٦٥ .

٨ – الدكتور علي حسين يونس – الاوراق التجارية – دار الفكر العربي القاهرة – ١٩٧٨ .

٩ – الدكتور علي سلمان العبيدي – الاوراق التجارية في التشريع العراقي ط١ – دار السلام – بغداد .

١٠ – الدكتور عبدالرزاق السنهوري – الوجيز في شرح القانون المدني – نظرية الالتزام ج ١ – القاهرة – ١٩٦٦ .

١١ – الدكتور فوزي محمد سامي – شرح قانون التجارة العراقي الجديد في الاوراق التجارية – ط٢ – مطبعة الزهراء – بغداد – ١٩٧٤

١٢ — الدكتور فوزي محمد سامي والدكتور فائق الشماع — القانون التجاري الاوراق التجارية — مطبعة جامعة بغداد — بغداد ١٩٨٢ .
١٣ — الدكتور مصطفى كمال طه — مبادىء القانون التجاري — مؤسسة الثقافة الجامعية — الاسكندرية .
١٤ — الدكتور مصطفى كمال طه والدكتور مراد منير فهيم — القانون التجاري — الدار الجامعية — بيروت .
١٥ — الدكتور محمد فريد العريني — الاوراق التجارية والافلاس — دار المطبوعات الجامعية — الاسكندرية — ١٩٨٥ .

ثانياً : القوانين

قانون التجارة رقم ٣٠ لسنة ١٩٨٤
قانون العقوبات رقم ١١١ لسنة ١٩٦٩

ثالثاً : مجموعة القرارات القضائية

النشرة القضائية — وزارة العدل — بغداد

الطريقة الاحتمالية في اعداد الكشافات اعتمادا على علاقة التشابه الموضوعي مابين الوثائق المشيرة والمشار اليها .

د. نعيمة حسن رزوقي
كلية الاداب /الجامعة المستنصرية

المقدمة

كثيراً مايهمنا في دراسة استرجاع المعلومات علاقة التشابه مابين طلب المستفيد وكل وثيقة بضمن مجموعة معينة من الوثائق وعندما يكون مقياس التشابه عالياً عندئذ نقول بأن الوثيقة ملائمة للطلب وقد تم استرجاعها . وقد يكون مقياس التشابه هذا قائماً على مقدار احتمالية ملاءمة الوثيقة للطلب او على اساس الترتيب التنازلي للوثائق بحسب ملاءمتها حيث تكون الوثائق في الرتبة الاعلى هي الأكثر ملاءمة مقارنة بالرتبة الادنى .

وفي الغالب تعتمد العبارات الدالة او الواصفات كوحدات تتمركز حولها الوثائق المتشابهة للطلبات المتشابهة ، ومن هنا فقد اكد عدد من الباحثين (١ ، ٢) على ان الغرض من دراسة علاقة التشابه مابين الوثائق ضمن مجموعة معينة هو تحقيق نتائج افضل في عملية الأسترجاع ، وقد عبر عن هذه العلاقة بالفرضية العنقودية (Clustering Hypothesis) [3] والتي تنص على انه في الغالب تكون الوثائق المتشابهة ملائمة لنفس الطلبات .
وعليه فقد سعت الدراسة الحالية على تطبيق الطريقة الاحتمالية في اختيار العبارات الدالة التي تؤلف الكشاف او الدليل لمجموعة الوثائق وذلك اعتماداً

على علاقة التشابه مابين الوثائق المصدرية (Source Documents) ومجموعة الوثائق المشار اليها . ولتحقيق ذلك فقد اعتمدت مستخلصات المقالات كبديل عن المقالات في اختيار العبارات الدالة التي تمثل محتوى المقالة كما اعتمدت عناوين الوثائق المشار اليها كمصادر للبحث لنفس الغرض وكانت النتيجة لهذا التحليل الحصول على قائمة من العبارات الدالة ومن ثم اجريت المطابقة مابين :

١ — مجموعة العبارات الدالة في عناوين الوثائق المشار اليها في المقالة الواحدة وعبارات مستخلص المقالة بغية التوصل الى عدد العناقيد التي تكونت من تجانس عدد من العناوين ومستخلص المقالة من حيث تشابه العبارات الدالة فيها .

٢ — مجموعة العبارات الدالة في عناوين الوثائق المشار اليها في المقالة الواحدة لغرض التوصل الى عدد العناقيد التي تتكون من تجانس عدد من العناوين فيما بينها من حيث تشابه العبارات الدالة في عناوينها .

ومن ثم احتساب مجموع العناقيد التي بموجبها يتم قياس درجة التشابه مابين الوثائق في المقالة الواحدة التي تمثل طلباً وجواباً للطلب ، ولانجاز هذه الدراسة تم اختيار فرضيتين هما :

١ — ان الوثائق المتشابهة ملائمة على وجه العموم لنفس الطلب .
٢ — ان الوثائق المتشابهة تتجمع بشكل عناقيد حول نفس العبارات الدالة .

هذا وقد اقتصرت الدراسة على احدث الاعداد التي تم الحصول عليها في مجال علم المعلومات وللدورتين الاتيتين :

1. Journal of the American Society for Information Science (JASIS). vol.36 (1985)
2. Journal of Information Science (JIS) vol. 14 (1988) ·

حيث بلغ مجموع الاعداد التي تم تحليلها لاغراض الدراسة (10) اعداد ، ستة منها لمجلة (JASIS) والأربعة الأخرى لمجلة JIS) وكانت الحصيلة الحاصلة من هذه الاعداد العشرة (69) مقالة متضمنة مجموعة من

الوثائق التي تمت الاشارة اليها وحجمها (1497) عنواناً وقد اسفر التحليل لاختيار العبارات الدالة عن مجموع كلي مقداره (2267) عبارة دالة من المستخلصات و (2116) عبارة دالة من عناوين الوثائق المشار اليها ، يمثل الجدولان (1) و (2) خلاصة تفصيلية للبيانات المتعلقة بالعينة والتي تدل الرموز فيها على مايأتي :

1 — رق « رقم العدد»

2 — مج م « مجموع المقالات المصدرية في العدد الواحد

3 — مج و « مجموع الوثائق المشار اليها في مجموع مقالات العدد الواحد»

4 — مج مس « مجموع العبارات الدالة في مجموع مستخلصات المقالات في العدد الواحد .»

5 — مج وثق « مجموع العبارات الدالة في مجموع الوثائق المشار اليها في مجموع مقالات العدد الواحد»

6 — مج ع م « مجموع العناقيد المتكونة من ترابط عدد من الوثائق مع المستخلص بعباراتها الدالة»

7 — مج ع و « مجموع العناقيد المتكونة من ترابط عدد من الوثائق في قائمة المراجع بعباراتها الدالة »

8 — **مهملة** « مجموع عناوين الوثائق المشار اليها والتي اسقطت من التحليل واحتساب التشابه للاسباب الاتية :

أ — تكرارها في مراجع المقال الواحد

ب — عدم دلالة عباراتها

ج — كونها بلغة غير الانكليزية كالفرنسية والالمانية

رق	مج م	مج و	مج مس	مج وثق	مج ع م	مج ع و	مهملة
1	7	96	38	171	23	21	2
2	6	213	34	243	20	46	13
3	9	256	62	311	33	57	18
4	6	170	21	205	11	47	7
5	9	218	47	314	25	54	9
6	9	135	44	171	26	19	16
6	46	1088	246	1415	128	199	65

الجدول رقم (1)

البيانات التفصيلية لمجلة (JASIS)

رق	مج م	مج و	مج مس	مج وثق	مج ع	مج ع و	مهملة
1	7	214	37	284	21	51	5
2	6	161	34	218	1	48	1
3	5	37	23	58	218	3	10
4	5	97	27	141	15	22	/
4	23	509	121	701	55	124	16

الجدول رقم (2)

البيانات التفصيلية لمجلة (JIS)

تعريفات Definition

نظراً لمتطلبات الدراسة في استخدام عدد من المصطلحات وبمعنى محدد توجب اعطاء تعريف مختصر لكل منها على النحو الآتي .

العنقدة (Clustering)

هي عملية تكوين مجموعات متجانسة (Homogeneous groups) من الوثائق بالشكل الذي تكون فيها كل وثيقة في المجموعة الواحدة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً ببقية الوثائق اقرانها في تلك المجموعة ويقل ارتباطها بالوثائق الاخرى في المجموعات الاخرى ويطلق على كل مجموعة متجانسة بالعنقود [4] كما ان وحدة الارتباط هنا هي العبارة الدالة .

الوثيقة المصدر (Source Document)

هي الوثيقة المتوفرة والمعتمدة في التحليل والتي بدورها قد اشارت الى عدد من الوثائق ، وفي مجال الدراسة الحالية فان الوثيقة المصدر تمثل المقالة في الدورية المتضمنة بالتحليل .

الوثيقة المشار اليها (Cited Document)

هي الوثيقة التي تظهر في قائمة المصادر او المراجع والتي تمت الاشارة اليها من قبل الوثيقة المصدر .

الافتراضات Assumptions

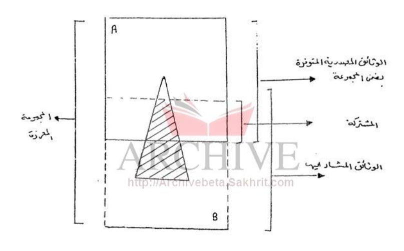
من خلال تفحص ادبيات الموضوع وخصوصاً الدراسات السابقة المتعلقة بطرق قياس درجة التشابه بين الوثائق (Documents) والطلبات (queries) تم استخلاص ثلاثة افتراضات ينص الاول منها على ان علاقة التشابـــه بين الوثائق المشيرة الى (Citing) والمشار اليها (Cited) تشكـــل مجموعات (عناقيد) من المواد المترابطة والتي يمكن بدورها ان تحقق نظـام استرجاع كفء وفعال (7, 6) وعليه فقد دعت تلك الـدراسـات الى عنقدة الوثائق من اجل تحسين الاسترجاع .

اما الافتراض الثاني فانه يؤكد على ان الوثائق المشاراليها من قبل الوثيقـــة المصدر تؤلف عينة ملائمة لطلب المؤلف على افتراض سابق مفاده انه غالبـــاً مايشير المؤلف الى الوثائق ذات العلاقة بموضوع الوثيقة المصدر التي اعـدها والتي بدورها جميعاً تشكل عنقوداً ملائماً من الوثائق المتشابهة لحاجته مـــن المعلومات ، بعبارة اخرى تمثل اجابات ملائمة لمتطلبات الوثيقة المصدر التي يمكن التعامل معها هنا بمثابة طلب (query) من منطلق ان ارضاء حاجة المستفيد المرتبطة بطلب محدد [7] .

ومن هنا يتبين لنا ان مجموعة الوثائق المتوفرة معززة اساساً بجميع الوثائق التي تمت الاشارة اليها من قبلها فهي بذلك قابلة للزيادة ليس على اســـاس اضافة مصدر فعلي للمجموعة فحسب بل مع المصدر المضاف قائمة مـــن المصادر الاخرى التي تسند الوثيقة وتعززها وبالتالي تعزز المجموعة ككـــل والتي يمكن لنا ان نطلق عليها بالمجموعة المعززة او القابلة للزيادة ، ثمّ هـــو واضح بالشكل (١) الذي يشير فيه المربع (B) بالخطوط المتقطعة الـــى مجموع الوثائق التي تمت الاشارة من قبل الوثائق المصدر التي يمثلها المربـع (A) اما المثلث في الوسط فأنه يعني مجموع الاجابات لطلب معين . كمـــا يشترك المربعان في جزء منهما ليمثل الوثائق المتوفرة ضمن المجموعة وقـــد

ظهرت في نفس الوقت ضمن الوثائق المشار اليها . فاذا ماعبرنا عن مجموع الوثائق المصدرية ب (×٤)ومجموع الوثائق المشار اليها لكل وثيقة مصـــدر ب (٤٢) فان المجموعة المعززة (N)تساوي :

N = ٤ (× + ٤ ٢)



الشكل رقم (١)

المجموعة المعززة والعلاقة مابين المتوفر والمشار اليه للطالب

اما الافتراض الثالث والاخير فأنه يشير الى ان نجاح مؤلف مافي البحـــث العلمي لها مدلول على ان ذلك المؤلف قد راجع ادبيات الموضوع واعمـــال ذات العلاقات المنجزة حديثاً او قديماً ،وان درجة الشمول لتغطية تلك الأعمال من خلال الاشارة اليها في البحث تعتمد على المؤلف نفسه ، ومع ذلك فمـــن الطبيعي ان تظهر في نهاية البحث او هوامشه قائمة من الوثائق ذات العلاقة

والملائمة التي يراها مناسبة فاشار اليها . وهذا بدوره يعني ان علاقة التشابه قائمة ويمكن ان ينظر اليها على اساس ان بحث المؤلف بمثابة طلب وان الوثائق المشار اليها بمثابة استرجاع وبأي طريقة يختارها المؤلف [8] . وعليه فان خلف كل وثيقة مصدر (x) هناك مجموعة من الوثائق الملائمة (٤٢) والتي يكون محتواها الموضوعي هو مايبحث عنه المؤلف ويرغب الكتابة والبحث عليه . هذا وقد اعتبر كووك (kwok) [9] ان مستخلص الوثيقة وعنواها بدائل عن النص الاصلي في تمثيلها للطلبات وبناء على ذلك فان العبارات الدالة الواصفات التي يتم اختيارها من المستخلص او العنوان يمكن لها ان تمثل تلك الوثائق ليعتمد عليها كروابط تجمع حولها الوثائق المتشابهة لتكون عناقيد وكل عنقود بحد ذاته يؤلف عينة عشوائية لجميع الوثائق الملائمة للطلب بضمن المجموعة المعززة التي اشرنا اليها سابقاً .

نتائج التحليل

بعد تحليل مستخلصات المقالات عينة الدراسة وعناوين الوثائق الملحقة بكل مقالة وتبويب البيانات وجد الاتي :

١ – بالرغم من اختلاف في مجموع الاعداد التي تم تحليلها للدورتين وماتبعه من اختلاف في المجموع النهائي للمقالات والوثائق المشار اليها الا ان هناك توافقا في المعدلات النهائية للعبارات والعناقيد في المقال الواحد حيث كان :

ا – معدل عدد العبارات الدالة في المستخلص الواحد هو (5) عبارات لكلتا الدورتين .

ب – معدل عدد العناقيد المتكونة من مستخلص كل مقالة مصدرية والوثائق التي اشيرت اليها (3) عناقيد في كلتا الدورتين تتمثل بثلاث عبارات دالة .

ج – معدل عدد العناقيد المتكونة من الوثائق المشار اليها في المقال الواحد مابين (10) عنقوداً .

وعليه تم الاعتماد في التحليل على المجموع الكلي للبيانات حـول الدوريتين ولم نجد جدوى من التمييز بينهما .

٢ ـ وجد ان هناك ترابطاً موضوعياً بين قائمة العبارات في المقالة الواحدة لتكون عناقيد فرعية صغيرة يمكن ربطها باحالات لتمثل مجموعـة متجانسة اكبر ذات علاقة بموضوع اساسي . ففي المقالة المنشورة في مجلة علم المعلومات (Jis) [10] هناك ست عبارات دالة تعـدد استخدامها في عناوين الوثائق ومستخلص المقالة وبالتالي فانها مرتبطة موضوعياً بالنظم الصوتية وهذه العبارات هي :

- Speech technolojy
- Voice Systems
- Speech Interface
- Man Machine interface
- Speech recognition
- Human Factor

٣ ـ كما وجد انه كلما زاد عدد الوثائق المشار اليها في المقالة الواحدة تعددت العناقيد وكثرت فيها المترادفات او الصيغ المختلفة للعبارات مثل المفـرد والجمع والمختصرات التي يمكن لها ان ترتبط مع بعضها .

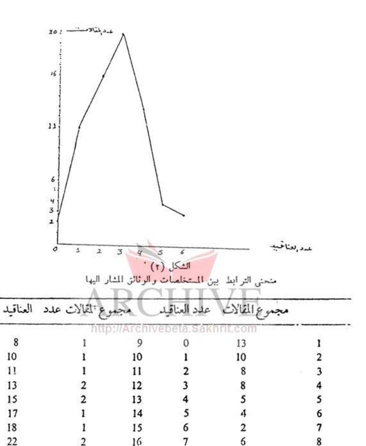
٤ ـ افتقار عدد من المقالات الى الأرتباط مابين عبارات المستخلص والوثائق المشار اليها وقد وجد ان هذا مرتبط بطبيعة المقالة فاذا كانت من المقالات الأستعراضية العامة كان مقدار التشتت في الموضوعات واضحاً لمحاولة موقف المقالة تغطية الموضوع المدروس لكل جوانبه مما يحدث انعـدام الترابط بين العناوين من خلال العبارات الدالة المتشابهة حيث يكـون عدد العناقيد فيها صفراً او التشتت الواضح لعناوينها وتناثرها في مجموعات صغيرة جداً لاتتعدى ثلاثة عناوين فقط بسبب تعدد العبارات المستخدمة .

ولاثبات ذلك تم احتساب الوسط الحسابي والانحراف المعياري للبيانات الواردة في الجدول (3) الذي يمثل الحقل الاول فيه مجموع المقالات التي يحصل او لايحصل فيها ترابط مابين عبارات مستخلصاتها وعناوين الوثائق المشار اليها في حين يمثل الحقل الثاني منه عدد العناقيد المتنوعة من الترابط او التشابه في العبارات المستخدمة ، كما احتسب الوسط الحسابي والانحراف المعياري للبيانات الواردة في الجدول(4)الذي يمثل الحقل الاول فيه مجموع المقالات التي تشترك عناوين الوثائق التي اشارت اليها كل مقالة بأستخدام عبارات متشابهة تتمثل بعدد العناقيد في الحقل الثاني . ومن ثم تم تمثيل هذه البيانات في الشكلين (2، 3) حيث تظهر الحالات المتطرفة في طرفي المنحني لكل منها ففي الجدول (3) والشكل (2) يبدو ان هناك مقالتين لم يحصل ترابط فيها بين عبارات المستخلص وعبارات العناوين التي اشارت اليها في حين ان هناك ثلاث مقالات تجاوز فيها عدد العناقيد الستة وهو يبعد عن الوسط الحسابي ويقع على طرف المنحني .

مجموع المقالات	عدد العناقيد
2	0
11	1
16	2
20	3
13	4
4	5
3	6
69	21
المجموع 69	21
الوسط الحسابي لعدد العناقيد = 3	
ألانحراف المعياري = ٢	

الجدول رقم (3)

تمثيل مجموع المقالات وعدد العناقيد مع العناوين



الشكل (٢)
منحنى الترابط بين المستخلصات والوثائق المشار اليها

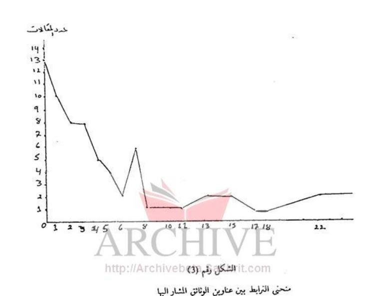
	مجموع المقالات	عدد العناقيد	مجموع المقالات	عدد	العناقيد
1	13	0	9	1	8
2	10	1	10	1	10
3	8	2	11	1	11
4	8	3	12	2	13
5	5	4	13	2	15
6	4	5	14	1	17
7	2	6	15	1	18
8	6	7	16	2	22
			17	2	30

مجموع المقالات =69 مجموع العناقيد = 172

الوسط الحسابي لعدد العناقيد =10

الانحراف المعياري =8

الجدول رقم (٤) تمثيل مجموع المقالات وعدد العناقيد مع العناوين



الشكل رقم (3)

منحنى الترابط بين عناوين الوثائق المشار اليها

التوصيات

١ ـ لغرض تقليص عدد العناقيد المتشتتة في المقال الواحد يقترح وضع عدد من الصيغ التي يعمل بموجبها على تعديل قائمة العبارات الدالة الحـرة وتتضمن هذه التعديلات الاتي :

ا ـ الاتفاق على استخدام صيغة الجمع بدلا عن المفرد .

ب ـ الابتعاد عن المختصرات مثل (SDI) والتعبير عن العبارة كاملة ((Selective Dissemination of Information)

وان كانت مطولة .

ج — توحيد استخدام بعض العبارات التي تعطي مدلولا موضوعياً واحداً على سبيل المثال

- Technical Technological
- Aging Elderly
- Developing Countries / Third World / Less developed Countries

د — استخدام المضاف والمضاف اليه بدلا من الجملة .

Gathering of Information

تصبح

- Information gathering

٢ — لقد اقترح في دراسة سابقة (11) وتؤكد الاقتراح هنا الى استخدام النص الكامل للمقالة بدلا عن المستخلص في اختيار العبارات الدالة ومما يساعد على تحقيق هذا المقترح هو التطورات الواسعة في تقنيات الخزن والمعالجة الحديثة التي تسهل هذه العملية مثل استخدام الأقراص المكتنزة (D-ROM) وعليه فان شيوع استخدام هذه التقنية قد يدفع بطريقة اختيار العبارات الدالة من عنوان المقالة او مستخلصها نحو الزوال . اما بالنسبة الى عناوين الوثائق المشار اليها فانها استخدمت في الأساس لتغذية نظام الأسترجاع ولذا يبقى اعتمادها مفيدا لتحسين الأسترجاع ، وقد اكد على هذه الاهمية لعناوين الوثائق المشار اليها كليفلند (Cleveland) (12) حيث اوضح ان لعناوين الوثائق المشار اليها دوراً لايختلف عن النص الكامل للوثيقة في انجازها لتغذية النظام وتكامله بأرتباطها مع الوثيقة المصدرية .

1. Van Rijsbergen, C.J. Information Retrieval. 2nd ed. London: Butterworths, 1979.

2. Salton, G. and Megill, M.J. Introduction to Modern Information Retrieval .New York: mc graw Hill, 1983.

3. Ibid.

4. Can, Fazli and Ozkarahan, Esen A. "Similarity and Stability Analysis of the Tow Partitioning Type Clustering Algorithms," Jasis. 36: 1 (1985) 3–14.

5. Van Rijsbergen. OP. Cit.

6. Salton, G. Dynamic Information and Library Processing. Englwood. Cliffs, N.J.: Prentic-Hall, 1975.

7. Saracevic, T. "Relevance;a Review of and a Framework for the Thinking on the Notion in Information Science." JASIS. 26 (1975) 321–343.

8. Goffman, W. "An Indirect Method of Information Retrieval." Information Storage and Retrieval-4 (1969) 361–373".

9. Kwok, K.L"A Probabilistic Theory of Indexing and Similarity Measure Based on Cited Citing Documents. JASIS. 36: 5 (1985) 342–351.

10. Philip, G; Smith, F.J. ;and Crookes, D. Voice Input/ Output Interface for Online Searching: Some Design and Human Factor Consideration. JIS. vol 14: 2 (1988) 93–93.

11. Kwok, K.L."A Probabitistic Theory of Indexing and Similarity Measure Based on Cited and Citing Documents. "JASIS. 36:5 (1985) 350.

12. Cleveland, D.B.; Cleveland, A.B.; and wise, O.B. "Less then Full text Indexing Using a Non-Boolean Searching Model." JASIS. 35 (1984) 19–28.

بحث في المشكلات الاجتماعية

د. نايف عودة كايد البنوي
جامعة اليرموك — اربد
الاردن

المشكلات الاجتماعية

المشكلات الأجتماعية مرافقة للوجود الانساني فاينما وجد الانسان وجدت المشكلات لارتباطها الوثيق به اساساً . فوجود الانسان سواء كفرد او عضو في جماعة او مجتمع يعني وجود المشكلات . وفي الوقت الذي يرى فيــه خطورة المشكلات على الانسان والمجتمع من زاوية المسلمين بخطورتها فانها قد تكون على العكس من ذلك تماماً عند آخرين ومثل هذه النظرة ترتبــط بطبيعة المشكلة والظروف المنتجة لها ولاتخفى الصعوبة على اي باحث في هذا المجال عندما يلمس مثل هذا التداخل الشائك والمعقد .

لقد احتلت المشكلات الاجتماعية جانباً واسعاً وكبيراً من اهتمامات علماء الاجتماع في الوقت الراهن في حين ان المشكلات لم تكن حكراً على مجال دون آخر ، فنجد ان البعض يربط بين الحضارة الانسانية والمشكلات الاجتماعية الى الحد الذي يرون فيه ان تأريخ الحضارات البشرية يمثل تأريخاً للنجــاح والفشل في مواجهة المشكلات .

وعلى هذا نستطيع القول بأن المشكلات الأجتماعية وكل ماله علاقة بها قد تساهم في تحفيز الفكر البشري للعمل على ايجادصيغ وحلول لما يواجهــه الانسان من عقبات كانت المحصلة النهائية هي تطور المعرفة وارتقاءها . وهنا تتضح العلاقة الجدلية بين الفكر والمشكلات ففي الوقت الذي ساعدت فيــه المشكلات على تطور الفكر فقد ساعد التطور الفكري والمعرفي على دراسة المشكلات ومحاولة فهمها بشكل اكبر واعمق ضمن مراحل تعاقبية ابتـدأت بالفلسفة الى ان وصلت في الوقت الراهن الى حقل علم الاجتماع .

ومن هنا يتضح لنا ان موضوع المشكلات الاجتماعية موضوع معقد متعدد الجوانب كثير التداخل يجعل الباحث فيه امام اشكالية . تبرز في عدم القدرة على تحديده بشكل دقيق وواضح المعالم، ويرجع السبب في ذلك إلى ان المختصين في هذا المجال لم يتوصلوا إلى رأي قاطع حول نقطة الانطلاق الاساسية ونعني بها تعريف المشكلة الاجتماعية . وإلى هذا يمكن ان نضيف لعنها صعوبة اخرى تتمثل في اتساع الموضوع بشكل عام مما جعل الخلاف بين المعنيين واضحاً حول امور منها انواع المشكلات الاجتماعية واسبابها ونتائجها واهميتها وكيفية معالجتها او التصدي لها .

ومهما كان الحديث عن الخلاف والصعوبات فهذا لا يعني استحالة دراستها. لاننا نعتقد بان مثل هذه الامور طبيعية لانها ترتبط اساساً بمجتمعات متعددة يختلف الواحد منها عن الاخر من حيث ثقافاتها وحضاراتها واهتماماتها وتطلعاتها . والمشكلات الاجتماعية ترتبط بهذه الاختلافات ارتباطاً وثيقاً لا يمكن عزله بأي شكل من الاشكال ، ولهذا نجد ان المشكلات الاجتماعية تمثل اهمية بالغة عند علماء الاجتماع ، فهي تشكل حقلاً مهماً من حقول علم الاجتماع ،لا بل نجد ان بعض الباحثين يصل به الامر إلى حد القول بأن واجب علم الاجتماع ودوره يرتبطان بشكل اساسي بدراسة المشكلات الاجتماعية نظراً لارتباطها بشكل مباشر بحياة المجتمع وافراده ولما لها من انعكاسات على القيام بادوارهم ونشاطاتهم واحتلال مواقعهم في المجتمع عندما يكون هناك توافق مع المجتمع وانسجام بين الهدف والطريقة مما يحقق التوازن والاستقرار الذي يتعرض للاختلال عند حدوث المشكلات الاجتماعية في المجتمع .

ومهما تعددت الرؤى والتصورات وتشعبت الاراء حول المشكلات الاجتماعية والعوامل المؤدية إلى ظهورها وانتشارها فان هذا لا يعني ان المشكلات الاجتماعية تظهر في مجتمع دون آخر ،فالمشكلات الاجتماعية توجد في كافة

المجتمعات . غير ان حدة المشكلة وحجمها وخطورتها تختلف باختلاف المجتمعات ، ففي المجتمعات التي تتعرض إلى حركة تغيير سريع اياً كان نوع هذا التغيير وحجمه ، تبدو المشكلة اكثر وضوحاً وصعوبة واشد تعقيداً . ففي المجتمعات الصناعية الحديثة والتي تتعرض إلى موجات من المهاجرين الريفيين الذين يحملون معهم منظومة من القيم والاعراف والتقاليد المختلفة عن تلك التي تشيع في مجتمع المدينة يتوفر فيها احتمال ظهور المشكلات الاجتماعية بشكل اكبر .

وبما ان حركة المجتمعات الانسانية متواصلة وعملية التغيير مستمرة والانتقال من شكل إلى اخر هو قانون يصدق على كل المجتمعات الانسانية ، فإن بروز عدد من مظاهر السلوك الجديدة عملية حاصلة ولا يمكن توقفها في كل المجتمعات الانسانية على حد سواء ، بغض النظر عن حجم وشكل هذا النمط السلوكي او ذاك ، الا ان من المؤكد ان السلوك الجديد يتعارض مع انماط السلوك القديم الذي يشكل سلوكاً متعارفاً ومتوقعاً من الافراد والجماعات ، ومهما تكن اراء العلماء حول حتمية هذا التغيير السلوكي ، او ضرورته لكي يحصل توازن يتوافق وطبيعة التحولات المادية والمعنوية او النظر إلى هذا النمط السلوكي على انه يشكل مشكلة او خطراً يتهدد المجتمع وقيمه فإن ما يمكن قوله هو ان هذا النمط السلوكي يحتوي في آن واحد معاً على الابعاد الثلاثة المار ذكرها ، ولهذا يتوجب علينا البحث عن الآلية التي تنتج المشكلات الاجتماعية ، والوصول إلى قوانينها لكي تتمكن من توجيه تلك المشكلة او تلافيها او وضع الحلول المناسبة لها قدر الامكان ومثل هذا القول لا يعني بأننا نعتقد ان بامكاننا القدرة على القضاء على المشكلات الاجتماعية قضاءاً مبرماً بشكل كامل وقطعي . لاننا نعتقد بأن صعوبة الموضوع وتعقيده وتشابكه من الامور التي تحول دون ذلك . فالكثير من العوامل المؤدية او المسببة للمشكلات الاجتماعية لم تكتشف لحد الان . كما ان ما يمكن ان ينظر اليه على انه ايجابي قد يكون سبباً مهماً في

بروز مشكلة معينة ضمن العلاقات الترابطية من خلال المنظور البعيد المدى .
في حين ان بعض المعضلات او الظروف التي يمكن النظر اليها على انها مشكلات قد تكون في ظرف معين ذات فوائد اجتماعية تساعد على توازن المجتمع واستقراره. على الرغم من ايماننا بان الصراع هو القانون الاكثر صدقاً وثباتاً، في حين ان التوازن هو حالة طارئة . ولهذا فان المشكلات الاجتماعية ترتبط اساساً بالتركيبة الطبيعية للبشر وما هي الا حصيلة اساسية لتنازل الفرد لصالح الجماعة الذي يبقى دوماً ينشد تطلعاته واهدافه حتى وان كانت على حساب الاخرين .

وخلاصة القول ان المشكلات الاجتماعية تختلف باختلاف المجتمعات وهذا الاختلاف يحصل بفعل العديد من العوامل والظروف كتلك التي تتعلق بما يتعرض له المجتمع من تغير اجتماعي. وكذلك نوع البناء الاجتماعي، وحجم المصادر الطبيعية التي يعتمد عليها وكذلك مكانة المجتمع العلمية وموقعه التكنولوجي . ويضاف إلى ذلك نوع التنظيم الاجتماعي والاطار الايديولوجي الذي يرسم للافراد والجماعات حدود علاقاتهم . وكل هذه الامور تفعل فعلها باختلاف المجتمعات في منظورها للمشكلات الاجتماعية من حيث خطورتها ونوعها وطريقة علاجها .

تعريف المشكلة الاجتماعية **Social Problem**

ان اولى الصعوبات التي يواجهها الباحث في هذا المجال هي اشكالية تحديد مفهوم المشكلة الاجتماعية. حيث ان الباحث يواجه مشكلة بالغة الصعوبة عند التطرق إلى مفهوم المشكلة الاجتماعية لانه لا يوجد تحديد علمي مقنع وشامل لهذا المفهوم والسبب في ذلك يعود إلى خصائص وسمات ومجالات وتنوع المشكلات الاجتماعية التي المحنا اليها في المقدمة .

ولهذا فان صعوبة مفهوم المشكلة الاجتماعية يفرض صعوبات جمة على مستوى التحليل نظراً لما تحتاجه هذه الصعوبات من قدرات فائقة وجهود كثيرة

لا يمكن القيام بها من قبل باحث لوحده . فهي اذن تحتاج إلى جهود عدد كبير من العلماء والباحثين يقوم كل واحد منهم بتناول جانب معين من هذه الوضعية الاجتماعية . وفي النهاية تتكامل الجهود المبذولة في تكوين صورة واضحة وشاملة عن هذه الوضعية مما يعطي بعداً واضحاً في فهم المشكلة الاجتماعية هذا من جانب النظرة للمشكلة الاجتماعية الواحدة (١) .

وبما ان المجتمع الانساني كل متكامل ومترابط ولا يمكن ان يقتصر على وضعية معينة لذلك تعددت المشكلات الاجتماعية او الوضعيات المشكلة وهذا يجعل امكانية عزل المشكلة الاجتماعية امراً من الصعوبة بمكان .

ومع كل هذا وعلى الرغم من تعدد واختلاف اراء العلماء حول مفهوم المشكلة الاجتماعية فاننا لا نجد امامنا سوى محاولة البحث عن عدد من تعاريف المشكلة الاجتماعية حسبما قال به العلماء ولعل هذا يفيدنا في معرفة منطلقات العلماء في فهم المشكلة الاجتماعية وكذلك في توضيح اسباب الاختلاف حولها وعواملها ومضامينها .

المشكلة الاجتماعية ظاهرة تحدث في كافة المجتمعات البشرية ولكن اياً كان نوع المشكلة الاجتماعية فهي تمثل اضطراباً او تعويقاً لسير الامور وهذا يولد نوعاً من الفارقات بين المكانات والمستويات المرغوبة من قبل الافراد في المجتمع وبين الظروف الواقعية (٢). وهذا يتطلب من افراد المجتمع وجماعاته على حد سواء ان يبحثوا عن الوسائل والاساليب الكفيلة بمعالجة المشكلة التي تواجههم (٣) .

فالمشكلة الاجتماعية تكون اداة ضغط تفرض نوعاً من الالزام يدفع الافراد والجماعات الواقعين تحت تأثير المشكلة والاساليب لحلها. كما انها تكون ذات اسباب متنوعة ومتشابكة يصعب التفريق فيما بينها . فالذي قد ينظر له على أنه السبب المباشر قد لا يكون كذلك او قد يكون على العكس تماماً . كما ان المشكلة الاجتماعية مشكلة نسبية فما قد ينظر له على انه مشكلة في مجتمع ما قد

لايكون كذلك في مجتمع آخر وينظر للمشكلة الاجتماعية من قبل بعض الباحثين والعلماء على أنها مظهر من مظاهر التفكك الاجتماعي قد تكون ذات تأثير واسع وكبير على الفرد والمجتمع فهي ظاهرة سلبية تعمل على تخلف المجتمع ؛ وتقف كعائق حيال اتساع المجال امام افراده للتقدم (٤) . وذلك من خلال كونها تتصف بالصفة الجمعية التي تشمل عدداً كبيراً من الاشخاص في المجتمع تحول دون انجازهم للادوار الاجتماعية الموكلة اليهم من قبل الجماعة وضمن ما هو متفق عليه داخل الجماعة (٥) .

في حين يعرف العلامة فيرتشايلد المشكلة الاجتماعية على انها موقف يحصل بفعل عوامل وظروف تتعلق بالبيئة الاجتماعية ويستلزم معالجة إصلاحية تتطلب تجميع الوسائل والاساليب الاجتماعية للتصدي له ومعالجته (٦) .

«وهاتان الخاصيتان تتلاقيان وتمتزجان في اغلب الاحيان . ففي الحالة الاولى يمكن ان تدخل تحتها كل النقائص والفشل في التوافق الذي يصيب الافراد والاسر والجماعات الصغيرة والتي يمكن ردها إلى ظروف البيئة التي يعيشون فيها . ونضرب مثلا لذلك بالبطالة او المرض او الرذيلة او الجريمة وما إلى ذلك. اما المشاكل التي تظهر في الحالة الثانية اي تلك التي تتطلب وسائل اجتماعية عاجلة لمواجهتها . فهي مثل الفشل في التوافق الذي يصيب البناء الاجتماعي وتأدينه لوظائفه والذي تعلو مواجهته مستوى فرد او جماعة صغيرة مثل الحرب او البطالة الدورية او الفساد السياسي (٧) .

كما وتعرف المشكلة الاجتماعية بكونها موقفاً مختلفاً يحتاج إلى تغيير من الحالة التي هو عليها إلى حالة افضل ومن هنا تتضح على انها ظاهرة اجتماعية مرتبطة بموقف اجتماعي غير مألوف يتطلب تغييراً لما هو افضل . كما ان المشكلة الاجتماعية ذات انواع واشكال مختلفة منها ما هو ناتج عن ظروف المجتمع او البيئة الاجتماعية ضمن مستوياتها المختلفة (٨) .

وكذلك تعرف المشكلة الاجتماعية على انها نقص متزايد في القيم الاجتماعية التي يتمسك بها المجتمع ولا يرغب في التفريط بها. ولهذا ترى اختلاف المشكلات

الاجتماعية في المجتمعات حسب اختلاف النسق القيمي فما يعد مشكلة في الوطن العربي قد لا يعد كذلك في أوربا مثلاً (٩) .

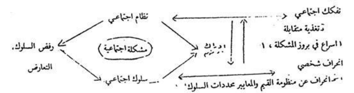
في حين ينظر للمشكلة الاجتماعية على انها خروج عن القواعد الاجتماعية التي يعتز بها عدد كبير من الافراد (١٠) وتسترعي انتباه عدد كبير من المتخصصين وتتطلب عملاً جماعياً لعلاجها والتغلب عليها (١١) .

ويعرف العلامة فرانك المشكلة الاجتماعية على انها كل صعوبة او تصرف سيء لعدد كبير من الناس يرغبون في ازالته او اصلاحه الذي يتطلب اكتشاف الوسيلة الكفيلة بهذا الحل او الاصلاح (١٢) .

اما العلامة ليمرت «فينظر للمشكلة الاجتماعية على انها انحراف يتم داخل اطار المجتمع . ويدور في دوائر تبدأ من الفرد وتنتهي إلى الجماعة» (١٣) .

فالمشكلة الاجتماعية هي طريقة السلوك التي ينظر اليها النظام الاجتماعي على انها تمثل تعدياً على المعايير الاجتماعية المتعارف عليها والتي تشكل نقطة ارتكاز عامة يقبلها الجميع . وهذا فهي تحتاج إلى جهد جماعي من اجل حلها لقصور الجهود الفردية عن امكانية التصدي لها .

ولهذا نلحظ الترابط بين النظام الاجتماعي والسلوك وان اي اختلال في احدهما ينعكس على الاخر مما يولد المشكلات الاجتماعية ويمكن ان نصوغ ذلك في الترسيمة التالية .



اذن : نظام اجتماعي ـــــ تغير ـــــ سلوك متعارض ـــــ ادراك جمعي ـــــ رفض ـــــ مشكلة اجتماعية

نظام اجتماعي ـــــ تخلف عن مواكبة التغير = تضاد بين الافراد والنظام ـــــ خروج على النظام ـــــ يولد مشكلة اجتماعية .

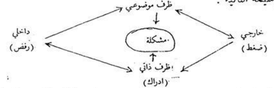
هذا على مستوى العلاقة بين النظام الاجتماعي والافراد او بين التفكك الاجتماعي والانحراف الشخصي كمؤثرات للمشكلة الاجتماعية .

واذا كان شكل المشكلة الاجتماعية يرتبط بالسلوك اسلوباً او طريقة يمكن على ضوئها تحديد موضوع المشكلة الاجتماعية فإن الجانب المهم الذي يمكن ان يضاف هنا هو ان السلوك يبقى مبهماً وغامضاً لا يعطي اي مدلول حتى وان كان مختلا في بعض الاحيان . عندما لا يحصل على تغذية ذاتية اي نابعة من تصور عدد من افراد المجتمع لهذا السلوك على انه مشكلة .

وهنا نود الاشارة إلى ما قال به الدكتور معن خليل عمر في كتابه عـــن المشكلات الاجتماعية . حيث يشير إلى بعدين مهمين مترابطين يعتبران اساس الحكم على كون هذه الظاهرة أو تلك تشكل مشكلة اجتماعية حيث يقـــول إن أساسيات تحديد المشكلة الاجتماعية هنا تكون واقعية . اي بمعنى انها حاملة فعلا ولها وجودها في الواقع الاجتماعي وعلى اتصال مباشر مع حياة افـــراد المجتمع وليست شكلا من اشكال التصور الخيالي البعيد عن الواقع هذا مـــن جانب توفر الشرط الموضوعي . اما الجانب الاخر فهو الجانب الذاتـــي او الادراكي للمشكلة الاجتماعية اي لابد من توفر عنصر الشعور بتلك الظاهرة على اساس انها تكون مشكلة اجتماعية. وحضور مثل هذا العامل مهم جداً لأن غيابه يعني انعدام اعتبار الظاهرة او الوضعية الاجتماعية على انها مشكلة. وهنا يتقدم لنا الأستاذ الدكتور معن امثلة على ذلك منها ظاهرة الفقر علـــى سبيل المثال . فاذا كان الشعور السائد لدى افراد المجتمع عن ظاهرة الفقـــر مرتبطاً بتصور ديني ينظر للمشكلة على انها قدر محتوم ولايمكن لهم تغييرها او التخلص منها فان هذا التصور يلغي كون الفقر مشكلة اجتماعية وكذلك الحال بالنسبة للتعصب العنصري ، فالجانب الذاتي هو المقياس الاجتماعـــي الذي من خلاله يمكن تحديد الحكم على الظرف الموضوعي على انه مشكلة ام لا ونحن نؤيد مثل هذا الرأي لانه يدل على تحليل جدلي موضوعي يرتبط

بشكل واضح في طبيعة المشكلة الاجتماعية التي تمتاز بالترابط والتداخــــل وتعددية الجوانب (١٤) .

وعليه فالمشكلة الاجتماعية لاتكون الا ببعديها اللذين سنحاول صياغتهما في الترسيمة التالية .



اذن ظرف موضوعي ــــ← ضغط + انعدام الادراك = لاتعارض او لامشكلة

بعد ذاتي ادراكي ــــ← دون وضع مشكل = وهم او خيال

ظرف موضوعي ضاغط + شعور ادراكي رافض = رد فعل رافض ــــ← تصور واضح للتحدي ــــ← مشكلة اجتماعية ــــ← حل او بحث عن حل ــــ← تصور واقعي

خصائص المشكلة الاجتماعية (١٥)

لقد تبين لنا ان المشكلة الاجتماعية متشعبة ومتعددة الاتجاهات والمحــاور واسعة النطاق كثيرة الانواع ليس لها حد معين تتقف عنده بحيث يمكـــن القيام عليه ، كما انها تحتاج الى الانتباه الدائم والترقب الحذر المتواصل وتوسيع الرؤى والتصورات لادراكها بشكل اكثر عمقاً . ان مثل هذه الصعوبات التي تواجه اي باحث في حقل المشكلات الاجتماعية قد تتعدى قدرة الباحث في السيطرة عليها او التمكن من حصرها .ومع هذا فاننا سنحاول على قدر الامكان ان نعطي بعضاً من خصائص المشكلة الاجتماعية والتي نجملهـا فيما يأتي :

١ ـ تمتاز المشكلة الاجتماعية بأنها مدركة اومحسوسة وهذا يعنـي ان الناس يدركون الأوضاع التي تشكل خروجاً عن المألوف او تعديـاً

على المرغوب لديهم ، وكلما زاد ادراك الناس للظروف الخارجة عن متعارفاتهم او المتعدية على غاياتهم وتطلعاتهم ادى ذلك الى زيادة في وضوح المشكل الاجتماعي. فالمشكلة او الظرف المشكل هي التي تشكل تناقضاً مع تطلعات ورغبات واهداف الافراد او الجماعات او المجتمعات مما يولد نوعاً من التضاد والمواجهة بينها (اي المشكلة) وبين الرافضين لها .

٢ ــ لاتتوقف المشكلة الاجتماعية عند الرفض الذهني او العقلي لانها تحتاج الى ربط الادراك والوعي بالمشكلة وخطورتها الى التصميم او الارادة الهادفة الى العمل على حل هذه المشكلة ومواجهتها من اجل ازالة آثارها السلبية من حياة المتعرضين لها اي بمعنى آخر نستطيع القول ان المشكلة الاجتماعية تشكل نوعاً من التحفيز لتحريك السلوك المضاد واتخاذ المواقف لمواجهتها لانها اذا لم تحفز السلوك فلا يمكن لنا ان نعد ان هناك مشكلة .

٣ ــ تمتاز المشكلة الاجتماعية بعدم الثبات على وتيرة واحدة من حيث قدرتها على التأثير . فقد تبدأ المشكلة وهي تشكل خطراً داهماً تعم المجتمع واجزاء كبيرة منه ثم تبدأ بالاضمحلال والنضوب وتقل درجة خطورتها عبر الزمن ، فعلى سبيل المثال مشكلة التحلل المعياري او اختلاف المقاييس السلوكية تختلف من جيل الى جيل آخر فمنظور جيل الاباء يختلف في تصوره او قبوله لها عن جيل الابناء فالمقاييس او المعايير التي قد ينظر اليها الاباء على انها مشكلة قد تكون على العكس تماماً بالنسبة للابناء .

٤ ــ نسبية المشكلة الأجتماعية : تمتاز المشكلة الأجتماعية بخاصية النسبية وهذه الخاصية تنبع بالأساس من الاختلافات بين المجتمعات الأنسانية حيث ان لكل مجتمع من المجتمعات ظروفه الحضارية والثقافية

والتأريخية وكل ما يمكن ان ينفرد به عن غيره من المجتمعات ولهذا نجد ان بعض الظروف التي قد تكون مشكلة في مجتمع معين قد لاتكون كذلك في مجتمع آخر . وعليه فالمشكلة الأجتماعية ترتبط بالمنظور الأجتماعي الخاص بكل مجتمع من المجتمعات ، فعلى سبيل المثال لو اخذنا ظاهرة الثأر لوجدنا انها تختلف من مجتمع لاخر ففي في المجتمع العربي تشكل بعداً قيماً ثقافيا ايجابيا في حين انها في منظور المجتمعات الغربية تشكل جريمة اجتماعية .

٥ — تخضع المشكلة الاجتماعية في حجمها وتنوعها وتأثيرها الى الظروف التي يخضع لها المجتمع ، فكلما زاد حجم الكثافة السكانية في مجتمع ما وزاد تعقيده بنائياً ادى ذلك الى زيادة في المشكلات الاجتماعية وتنوع في اسبابها ومصادرها وزيادة في اشكالها وانواعها . وهذا يدل لنا دلالة واضحة على العلاقة الترابطية بين حجم المجتمع وتعقده وبين المشكلة الاجتماعية . ويوضح لنا ذلك ان العلاقة طردية في جانب وعلاقة عكسية في جانب آخر ففي الوقت الذي يزيد حجم المجتمع وتعقده من حجم مشكلة اجتماعية معينة فهو بالوقت نفسه يحد او يقلل من مشكلات اجتماعية اخرى .

٦ — المشكلة الاجتماعية تمتاز بأنها نواتج للحياة الاجتماعية او يعززها نسيج العلائق الأجتماعية بين افراد المجتمع وبالتالي فان المشكلة الأجتماعية ليست انجازاً للطبيعة . لأن عوامل الطبيعة قد تساهم في افرازات داخل الحياة الأجتماعية تولد مشكلات ولكن اذا عزل الجانب الطبيعي على حدة دون التداخل مع الجانب الاجتماعي فلا يمكن ان يؤدي الى مشكلة اجتماعية .

٧ — تمتاز المشكلات الاجتماعية بالديمومة والأستمرار مع استمرارية الحياة الاجتماعية . بمعنى ان المشكلات الأجتماعية ملاصقة للمجتمعات

الانسانية . ومع هذا فان المشكلة الأجتماعية تتعرض للتغير ولكنها كمشكلة او كمفهوم باق لا يمكن تجاوزه بأي شكل من الأشكال . ومـن هنـا نستدل على ان المشكلة الأجتماعية تمتاز بالحتمية في وجودها وليس في اشكالها وصورها ، والمشكلة الاجتماعية الواحدة قد تكون على شكلين متضادين فهي قد تشكل خطورة او صعوبة تعترض حياة جماعة معينة وبالوقت ذاته قد تكون ضرورية وايجابية لجماعة اخرى وبالتالي فالمشكلة الأجتماعية قد تكون صمام امان في المجتمع ، وقد نستشهد هنا بالقول التالي « مصائب قوم عند قوم فوائد » .

٨ – تمتاز المشكلة الاجتماعية بأنها تغيرية اي ان المشكلة نابعة مـن حدوث تغيير في اي وجه من وجوه الحياة الأجتماعية او في المؤسسات الأجتماعية ولمواجهتها وعلاجها تحتاج الى احداث تغيير في المؤسسات ومـن هنـا تتضح لنا العلاقة الجدلية بين المؤسسات الاجتماعية والمشكلة الأجتماعية وحركة التغيير فيها .

العوامل والاسباب المؤدية لظهور المشكلات الاجتماعية (١٦) .

ان ما سبق الحديث عنه حول صعوبة تحديد المشكلة الأجتماعية من حيث خصائصها وابعادها وتعريفها ... الخ ليصدق بشكل واضح على اسباب المشكلة الاجتماعية فنحن لايمكن ان نحدد عاملا واحداً لظهور المشكلة الأجتماعية فهي ترتبط بشكل او بآخر بالعديد من الامور المتعلقة بمنظور المجتمع وبطبيعة الزمن التأريخية وهذا ما يولد اختلافاً في اسبابها على صعيد المجتمع الواحد وهذا بدوره خلق نوعاً من التفاوت والأختلاف على مستوى الدراسات التي تعرضت للمشكلات الأجتماعية في الدراسة والبحث ومن كل ذلك فأننـا سنحاول ان نجد بعض العوامل التي تحظى بتأييد العديد من الباحثين والتـي يتفقون على انها تشكل اسباباً مهمة في خلق المشكلة الأجتماعية .

١ — يحصل في كل مجتمع من المجتمعات حدوث تغييرات وبروز وضعيات اجتماعية جديدة ومثل هذه الوضعيات لاتشكل مشكلة اجتماعية الا عندما يرى فيها افراد المجتمع على انها تشكل معوقات لاهدافهم او عوائق في وجه حياتهم كما ان افراد المجتمع قد لايتفقون على تحديد واضح او تعريف مشترك للوضعية الاجتماعية .

٢ — كل حضارة انسانية تتكون من جانبين الجانب المادي والجانب المعنوي ولكن الجانب المادي على الأغلب يكون اسرع في التغيير من الجانب المعنوي ومثل هذا التفاوت الذي يسميه اوكبرن بالتخلف الحضاري نوعاً من التقاطع بين الجانب المادي وبين الجانب المعنوي المتمثل في قيم وعادات وعقائد وافكار المجتمع وهذا من الأسباب المهمة في خلق المشكلات الأجتماعية .

٣ — حصول نوع من التصادم او التصارع بين انماط سلوكية جديدة وبين متعارفات المجتمع التي تحدد السلوكيات في داخله . فمثل هذا التصادم هو ذاته ناتج عن الرفض للجديد من قبل فئات او شرائح معينة وبنفس الوقت قبوله من قبل فئات او شرائح اخرى ومثل هذا الرفض او القبول هو مشكلة اجتماعية .

٤ — حصول نوع من الضعف في وسائل الضبط الأجتماعي وخاصة تلك التي تشكل الضمير الاجتماعي للافراد ، مما يجعل هناك نوعاً من التسليم بضعف وقصور قواعد السلوك القائمة عن تلبية احتياجات الافراد او الجماعات مما يولد نوعاً من الرفض لها وهذا دليل على ضعف المؤسسات الأجتماعية وانحسار قدرتها على السيطرة على سلوكيات الافراد وهذه بداية لظهور المشكلة الاجتماعية .

ومهما كان الحديث عن العوامل والأسباب المؤدية للمشكلات الأجتماعية فأننا لانستطيع ان نلم بها بشكل كامل لتعدد هذه العوامل وتداخلها مع بعضها البعض .

واضافة لما تقدم يمكن لنا هنا ان نذكر وبشكل موجز ما قدمه لنا الدكتور معن خليل من تحديد العوامل واسباب المشكلات الأجتماعية وهي كما يلي (١٧).

١ — الهجرة

والهجرة سواء اكانت هجرة داخلية ام خارجية فانها تعمل على تحويل افراد من مكان الى آخر وهم يحملون معهم قيمهم وعاداتهم وكذلك ظروفهم الصعبة التي قد تضطرهم الى عدم التوافق وهنا قد تسهم الهجرة في خلق المشكلات الاجتماعية .

٢ — صعوبة تكيف الفرد في مواجهة متطلبات التغيرات الأجتماعية .

٣ — عدم مسايرة النظم الاجتماعية مع تطورات المجتمع الحديثة . ان عجز النظم الأجتماعية عن استيعاب التغيرات الجديدة يحدث نوعاً من الافتراق بين الافراد والنظم الاجتماعية وهذا يؤدي الى حدوث مشكلات اجتماعية .

٤ — الاحترام القائم بين المتطلبات والتوقعات الاجتماعية للمجتمع مع قدرات شريحة عمرية معينة . اي حصول تناقض بين متطلبات المجتمع وادوار الافراد .

٥ — عجز المؤسسات الأجتماعية عن تحقيق الاهداف وتنفيذ المسؤوليات التي وجدت من اجلها . هذا يقلل من التزام الافراد بأنظمتها وبالتالي تؤدي الى خلق نوع من القلاقل والمشاكل الأجتماعية .

٦ — التغير الاجتماعي

التغير الاجتماعي عملية مستمرة بشكل دائم ومتواصل وفي المجتمع حيث توجد اجيال مختلفة عن بعضها البعض كل واحد جاء في مرحلة من مراحل التغير وبالتالي يحصل هناك نوع من الرفض للقديم والاخر تمسك به ،وهذا يولد بدوره سلوكيات متناقضة .

٧ — الحرب

اذا كانت الحرب بحد ذاتها مشكلة اجتماعية فهي في الواقع تعد اقل خطورة من المشاكل الناجمة عنها ، فالحرب هي التي تؤدي إلى الهجرة والتعصب والتفكك والفقر والبطالة ... الخ من المشاكل الاجتماعية .

٨ — تفكك عمارة (هيكل) التنظيم الاجتماعي : عندما يتحول المجتمع من مرحلة إلى اخرى ضمن العملية التطويرية يحصل قصور في النظم السابقة فيعطل في بعض الاحيان فاعليتها .

٩ — التصنيع : يؤثر التصنيع في المحيط والبيئة وكذلك الانسان ويولد انماطاً جديدة من العلاقات المبينة على العمل بحد ذاته وهذا ينكر ثقافة المجتمعات ومواقع ومكانات الافراد وقبل التصنيع وهذا يخلق نوعاً من الارباك .

١٠ — العمل : وترتبط مشكلة العمل هنا بالاغتراب عند الافراد الناتج عن العزلة بين الفرد والعمل وهذا يولد مشاكل نفسية واجتماعية خطيرة

انواع المشكلات

ليس المعنى هنا ان المشكلة اجتماعية او غير اجتماعية وانما نعني بهذا ان مصدر المشكلة الاجتماعية قد يختلف كما ان حجم المشكلة قد يختلف هو الاخر ايضاً . فالمشكلة الاجتماعية قد تكون واسعة النطاق او ضيقة النطاق فالمشكلات الواسعة النطاق بالنسبة للمجتمع هي تلك التي تدخل في المجتمع بشكل عام في حين تجد ان المشكلات الضيقة بالنسبة للمجتمع هي تلك المشكلات التي تصيب فئة او شريحة معينة من المجتمع .

ونظراً لما قلنا به سابقاً نجد ان المشكلات الاجتماعية لها مصادر متعددة فقد يكون المصدر طبيعي فما تخلقه الزلازل والبراكين والجفاف والاعاصير وما شابه ذلك من الظروف لا يمكن ان تشكل مشكلة اجتماعية الا عند مواجهة اضرارها والتصدي لها لانها تشكل خطراً يتهدد وجودهم من هنا تبدأ المشكلة

الاجتماعية فهي تظهر في تفكير الناس وتأخذ طابعاً اجتماعياً يؤدي إلى التضامن والتكاتف لمواجهة التحدي الطبيعي .

ويضيف الدكتور فاروق العادلي : إن المشكلات الاجتماعية على النحو التالي (١٨) .

اولا : مشكلات اساسية

وتتعلق هذه المشكلات بعدم كفاية الخدمات المتوفرة في المجتمع في اشباع الحاجات بالنسبة لافراد المجتمع بشكل متكامل مثل نقص المدارس او المستشفيات عن الحاجات الفعلية للمجتمع .

ثانياً : مشكلات تنظيمية

ان مثل هذه المشكلات لا تقوم بسبب قصور الخدمات او نقصها لانها متوفرة بشكل يعني باحتياجات المجتمع ولكن المشكلة هنا تتعلق بأن هذه الخدمات تتركز في مناطق بما يزيد عن حاجتها وتقل في مناطق اخرى عن الحاجات . اذن المشكلة هنا ترتبط بغياب العدالة في التوزيع للخدمات .

ثالثاً : مشكلات مرضية

مثل الاجرام ، السرقة ، التسول ، تشرد الاحداث ، البغاء .... الخ .

رابعاً : مشكلات مجتمعية

من امثلة هذه المشكلات سوء العلاقات بين الجماعات المختلفة في المجتمع وعدم اهتمام المواطنين بمشكلاتهم وترك امر هذه المشكلات للظروف . وبما ان نوع المشكلة الاجتماعية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتناقض الاجتماعي الذي يحتل اهمية خاصة لدى الافراد او الجماعات التي تحس بهذا التناقض وترى فيه تهديداً لوجودها ، كما ان اهمية هذه التناقضات تختلف من جماعة إلى جماعة اخرى ومن مجتمع إلى اخر وهذا بدوره يساهم في وجود انواع مختلفة من المشكلات الاجتماعية والتي يمكن تمييزها في ضوء الجماعات التي تشكل اقطاب

العملية الاجتماعية وتساهم في تحديد الظواهر التي تشكل مشكلات اجتماعية لهذه الجماعات .

على هذا فقد حدد لنا كليردراك خمسة انواع من المشكلات الاجتماعية هي (١٩) .

أ — المشكلات التي تتضمن الاهتمام المتزايد الذي ينبثق عن الخبرة الجماهيرية ومثال ذلك مشكلة البطالة التي سادت في ثلاثينيات هذا القرن .

ب — المشكلات التي تتضمن مجال اهتمام واسع المدى وتنبثق من خلال وسائل الاتصال الجمعي مثل انحراف الاحداث .

ج — المشكلات التي تتضمن اهتمام جماعات اقتصادية خاصة يهددها المجتمع الأكبر وهنا يمكن النظر في التنظيمات الالية التي تتناقض مع نظام الحوافز على انها مشكلات اجتماعية .

د — المشكلات التي تتضمن اهتمام جماعات صغيرة ذات اهداف انسانية .

هـ — المشكلات التي تتضمن انشطة جماعات الصفوة المختارة والمديرين الذين تصل اليهم المعلومات عن طريق اوضاعهم الاستراتيجية في البناء الاجتماعي ومن ثم يستطيعون صياغة المشكلة الاجتماعية .

لماذا ندرس المشكلات الأجتماعية

تزايد الاهتمام بالمشكلات الاجتماعية بشكل كبير خاصة بعد الحروب العالمية وما اضافته من ابعاد تعقيدية ادت إلى ظهور العديد من المشكلات الجديدة والمعقدة على كافة المستويات وفي مختلف المجتمعات الانسانية .

ونظراً لهذا التغيير الواسع في الجوانب المادية والمعنوية في المجتمعات الانسانية وتعقدها فقد سعى العلماء الى فهم المشكلات التي تعاني منها تلك المجتمعات من اجل مواجهتها والتصدي لها . من اجل الوصول بالأفراد

والجماعات والمجتمع الى اهدافهم ولهذا فان دراسة المشكلات تعد ضرورة اساسية لفهم المجتمع ومعاناته وبالتالي الارتقاء به بعيداً عن الاعتلال ، ومن الأمور التي تهدف دراسة المشكلات الاجتماعية الوصول اليها هي (٢٠).

اولا : الأدراك

من الامور المهمة التي يجب الوصول اليها قبل كل شيء هي ادراك ومعرفة واضحة للمشاكل الأجتماعية الأساسية . وهذا لايتم الا عندما يقوم الباحث بمتابعة كل الامور التي لها علاقة بالمشكلة الأجتماعية وهذا يوفر تغذية دائمة تزيد من معرفتنا عن المشكلة الأجتماعية ومدى وضوح ومصداقية احكامنا وتصوراتنا لها .

ثانياً : معرفة الحقيقة

يستطيع الباحث من خلال الدراسة العلمية المتعمقة ان يحصل على فهم الحقيقة كما هي على ارض الواقع وهذا بدوره يساعدنا على تشخيص الطرق السليمة والكفيلة بحل المشكلة الأجتماعية .

ثالثاً : فهم المشاكل الأجتماعية

المقصود هنا الوصول الى فهم اسباب المشاكل وكيفية نشوئها ومدى درجة تأثر الناس بها ، والعوامل الاجتماعية التي تتضمنها في تناولها ، وهذا الفهم هو الذي يشكل الاطار المعرفي الذي يمكن من خلاله ان ترجع الى دراسة المشاكل وبالمعرفة الدقيقة والموضوعية لاجتماعية المشاكل يمكننا عند دراسة شكل معين من المشكلات ان نعطي التحديد الدقيق وبالتالي نصنف المعطيات الجديدة لطريقة صائبة وان نضعها في موضعها المناسب وان تبقى دائماً على اتصال مع حركة المجتمع والعصر وافرازاته الجديدة .

رابعاً : الترابط الوثيق بين الادراك النظري والجانب العملي

فهما غير قابلين للانفصال لان كلا منهما ما يستند على الاخر فالدراسة النظرية تغذي الجانب التطبيقي من خلال تحديدها لمجالاته وطبيعة حركته وتوجهاته

فهما يعتبران بمثابة التشخيص والعلاج لاقيمة لاحدهما دون الاخر.
امور يجب مراعاتها عند دراسة المشكلات الاجتماعية .
ويلخصها لنا الدكتور عاطف غيث بما يأتي : (٢١)
١ — النظم الاجتماعية مترابطة ترابطاً عضوياً .
٢ — المشاكل الاجتماعية مترابطة ترابطاً عضوياً كذلك .
٣ — حل المشاكل يمكن ان يؤدي الى تغيير كلي لطابع الحياة الأجتماعية .
٤ — الحل الأشتراكي ليس حلا مثالياً كما يذهب الى ذلك علماء الغرب .
٥ — المشاكل الأجتماعية تعكس التوجه القيمي للمجتمع ولذلك تعد دراسة القيم مدخلا اساسياً لفهم طابع المشكلة وامتدادها ومبلغ عمقها .
٦ — يجب ان يميز بين المشاكل الأجتماعية ومشاكل علم الأجتماع .
٧ — تتغير مقاييس الخطأ والصواب والخير والشر في الزمان والمكان .
٨ — دراسة المشكلات الاجتماعية يجب ان لا تتم بمعزل عن قيم الارتباط الوثيق بين الثقافة والمجتمع . باعتبار ان المجتمع جسم تتكامل وظائفه بناءاً على وجود حاجات ضرورية وان ثقافة المجتمع هي هذا الرداء الذي يتغير بتغير العلم عاكساً باستمرار ابعاد التغيير التكنولوجي .
٩ — تؤدي الحياة الاجتماعية الى إنحرافات في ادوار الناس ومراكزهم نتيجة للتقلقلات التي تصيب البناء الاجتماعي وبذلك فان التغلب عليها يعيد تصحيح وضع الاجزاء في البناء على اساس اطار مختلف يؤدي الى اخراج ادوار ومراكز جديدة .
١٠ — ليست هناك حتمية في ان المشكلة الاجتماعية ذات صفة عمومية في كل ارجاء المجتمع لتكون اهلا للدراسة ذلك لاننا نعلم ان اتساع نطاق المجتمع الحديث يمكن ان يؤدي الى وجود مجتمعات محلية ذات روابط مختلفة ، ويمكن ان يترتب عليها مشاكل مختلفة ايضاً . ولهذا

فان الباحث في المجتمع له ان يدرس المشاكل الاجتماعية اما على المستوى المحلي او الاقليمي او على مستوى المجتمع بأسره .

اتجاهات تفسير المشكلات الاجتماعية

١ — التفسير التأريخي

من ابرز سمات المجتمع الانساني خضوعه لظاهرة التغير المستمر و هذا ما جعله يمر بمراحل من التطور على مدى العقود والعهود الطويلة التي مر بها . فالمجتمع الانساني بدأ بسيطاً واخذ بالتعقد بفعل العديد من العوامل . وهذه التطورات ادت إلى ظهور العديد من الوضعيات الاجتماعية الجديدة المختلفة مع الوضعيات السابقة . وهذه قد تكون بداية لظهور مشكلات اجتماعيـة جديدة . فمثل هذا التوالد للوضعيات التابع عن التطور او التغير يعني ان هناك علاقة وثيقة بين المراحل السابقة والمراحل اللاحقة وبين تلك المراحل وما ينبع عنها من وضعيات اجتماعية . فما تعرض له المجتمع من تغير في المراحل السابقة هو من العوامل المهمة في حدوث مشكلات اجتماعية اذ ان هناك علاقة ترابطية بين المراحل التاريخية والمشكلات الاجتماعية التي يعاني منها المجتمع (٢٢).

٢ — التفسير النفسي (٢٣).

يتكون المجتمع اساساً من الافراد وبنفس الوقت هناك اختلافات واضحة بين الافراد وبالتالي فان اختلافات الافراد النفسية تؤدي الى الاختلاف في اتجاهاتهم السلوكية ومواقفهم . وقد تكون هذه الاختلافات من العوامل التي تؤدي ان يتجه بعضهم الى الخروج على متعارفات المجتمع وبالتالي اتخاذهم سلوكيات منحرفة عن القواعد والقيم والمعايير الاجتماعية ولهذا يرى بعض العلماء وخاصة علماء النفس ان المشكلات الاجتماعية تظهر بفعل الفروق الفردية وانعكاس ذاتية الفرد على المجتمع وبالتالي فهم يعطون الاولوية للعوامل النفسية في حصول المشكلات الاجتماعية .

٣ — التفسير الأجتماعي

هنالك ترابط وثيق بين المؤسسات الاجتماعية وبالتالي فان حدوث اي تغير في اي مؤسسة اجتماعية لا بد ان يؤثر في حدوث تصادم بين المؤسسات الاجتماعية مما يولد نوعاً من الاختلافات حول القديم والجديد يعطل قدرة المجتمع على تنظيم العلاقات لان الافراد يرفضون القواعد التي تشكل منظمات للسلوك وجماعات امان للمجتمع . مما يؤدي إلى تحلل الجماعات الاجتماعية . حصول صراع بين القواعد الاجتماعية التي تنظم السلوك وبين الاهداف والتطلعات الجديدة التي وجدت مع التغيير (٢٤) .

نماذج من المشكلات الأجتماعية

الجريمة

مقدمة

نظراً لتزايد الصعوبة والتعقيد في الظروف الاجتماعية والحياتية بشكل كبير ومتعاظم . الامر الذي خلق مجالاً رحباً لزيادة السلوك الاجرامي وخاصة من قبل اولئك الافراد الذين لديهم استعدادات وميول لذلك . ولهذا نجد ان علماء الاجتماع وعلماء النفس بدأوا يركزون في دراساتهم وبحوثهم في هذا الحقل بالذات على دراسة الظروف التي تحيط بالشخص المجرم بغض النظر عن كون هذه الظروف داخلية او خارجية .

ولهذا فقد تزايد الاهتمام بشكل واضح في دراسة الجريمة من كل جوانبها في علم الاجتماع المعاصر . حيث اصبح هناك حقل متخصص في هذا المجال وقد اصبح علم الاجرام موضوعاً اساسياً للدراسة في اقسام علم الاجتماع في الجامعات الامريكية . ونجد ان اغلب النظريات والمؤلفات في هذا المجال قد برزت في الغرب وخاصة بعد الحربين العالميتين وما ولدته من مشكلات اجتماعية ساهمت في ارتفاع منسوب الجريمة .

ولم تقف الامور عند هذا الحد بل ان الدارس لعلم الاجتماع يستطيع ان يلمس مدى التطور الحاصل في هذا الحقل ومدى ما يحتله من اهتمام خاص لدى

الباحثين من خلال ظهور العديد من الاتجاهات والمدارس الفكرية التي تعمل من اجل الوصول إلى تحليل السلوك الاجرامي وان مثل هذا التشعب والتعدد في المدارس الفكرية والنظريات العلمية التي تعمل على تفسير السلوك الاجرامي وتحليله لهي دليل واضح على ان الجريمة لا يمكن ان تفسر في ضوء عامل واحد وبالتالي فإن انعدام النظرة الشمولية للجريمة هي التي ولدت مثل هذا الخلاف بين اصحاب الاتجاهات النظرية .

تعريف الجريمة

لم تكن النظرة للجريمة قديمها وحديثها نظرة متطابقة بل لقد اختلفت على مر العصور وفي مختلف المجتمعات . هذا الاختلاف حدا بالعلامة ماكسويل Maxweel إلى القول بأن السلوك الاجرامي هو عمل نسبي لايقبل التعريف المطلق حيث ان نسبيته تمنع او تعيق ايجاد تعريف محدد وثابت له (٢٥).

ومع ان الجريمة لها العديد من التعريفات التي اضفاها عليها المختصون على حسب حقولهم سواء منها ما يرتبط بالمفهوم اللغوي او الديني او القانوني ... الخ الا اننا سوف نركز اهتمامنا على المفهوم الاجتماعي للجريمة .

يشير جان جاك روسو صاحب نظرية العقد الاجتماعي إلى ان الجريمة تشمل كل فعل مخالف او مضاد للارادة العامة الناجمة عن العقد الاجتماعي ، او هي كل فعل او عمل يسهم في تفكيك روابط العقد الاجتماعي .(٢٦) اما بالنسبة للعالم دوركايم فهو يعتبر الجريمة ظاهرة اجتماعية ضرورية وسليمة مادامت مكروهة او ممقوتة.(٢٧)لانها ستعمل على استثارة الوعي الجماعي الذي يدفع بالجماعة للعمل من اجل الدفاع عن تقاليدها ومثلها وما يشيع بينها من اعراف وتقاليد .(٢٨)

اما بالنسبة للعالم رادكلف براون فيشير إلى ان الجريمة تشكل خرقاً للعادات والتقاليد مما يساعد على المطالبة بتطبيق العقوبات الجنائية على هذا السلوك .(٢٩) ويعرفها توماس على انها فعل مضاد للجماعة يشكل تناقضا مع كون الجماعة وحدة متجانسة متضامنة يعدها الفرد خاصة به .(٣٠)

والجريمة حسب التعريف الاجتماعي هي الفعل الذي ترى فيه الجماعة ضرراً بمصلحتها الاجتماعية ومهدداً لكيانها وبعبارة اخرى تعتبر الجريمة كل انحراف عن المعايير والضوابط المتعارف عليها جميعا بغض النظر عن وجود نص قانوني او عدمه في تجريم هذا السلوك . اي ان الجريمة عبارة عن سلوك مخالف للسلوك المرغوب ويعود بالضرر على المجتمع (٣١).

الجريمة مشكلة اجتماعية (٣٢).

المشكلة الاجتماعية نمط من انماط السلوك الخارج على ما تعارف عليه المجتمع او الناس من منظمات سلوكية تعتبر هي المحدد لاشكالية الفعل او عدمها . اي ان المشكلة الاجتماعية هي خروج على النظم الاجتماعية التي تعتبر اساس الانجاز الانساني لخلق الاستقرار في المجتمع . وتشكل المشكلة تحديا وإضراراً بمصالح الناس قد يضيق هذا الاضرار او يتسع على حسب حجم المشكلة ونوعها اي قد تكون على صعيد افراد او فئات معينة وقد تكون على المجتمع بشكل عام .

والجريمة باعتبارها نمطاً من انماط السلوك الخارج على نظم المجتمع يولد نوعا من التضاد بينه وبين المجتمع . فهي بالتالي تعد احدى المشكلات الاجتماعية الهامة على اعتبار انها تشكل خروجا على متعارفات المجتمع من قيم وعادات وتقاليد والذي بدوره يصبح خطراً يتهدد حياة الافراد والجماعات والمجتمع ويعرض استقراره وامنه للخطر .

وعليه فالجريمة تعد احدى المشكلات الاجتماعية التي وجدت في كافة المجتمعات البشرية بغض النظر عن حجم هذا المجتمع او ذاك او بساطته وتعقيده الا انها تتسم بالزيادة والخطورة في المجتمعات الحديثة نظرا لتعقد الحياة الاجتماعية وسوء الاحوال الاقتصادية وانتشار البطالة ... الخ .

الجريمة ظاهرة اجتماعية

الجريمة ظاهرة من الظواهر المرتبطة بشكل اساسي بالاجتماع الانساني.

فأينما وجدت التجمعات الانسانية وجدت الجريمة . مع مراعاة خصائصها على حسب خصائص المجتمع ذاته اي ان حجمها ونوعها يرتبط بحجم المجتمع ونوعه قديم او حديث بدائي او متحضر بسيط او معقد ... الخ . ان مثل هذا القول يعني ان الجريمة موجودة في كل المجتمعات الانسانية الا انها تختلف من مجتمع لاخر (٣٣).

وهناك بعض العلماء الذين يؤيدون كون الجريمة امراً طبيعياً يرتبط بوجود الاجتماع الانساني بل يرون الجريمة ضرورية من اجل التطور ومن اشهر المؤيدين لهذا الرأي العلامة اميل دوركايم الذي يبرر رأيه هذا بالقول بأن الرقي والتقدم يحتاج إلى الحرية وكل مجتمع يسعى للتطور لايمكن ان يصل إلى غايته الاعندما يوفر لافراده نوعا من الحرية . ويربط دوركايم بين اعطاء الحرية للافراد وكيفية التعامل معها فهو يرى بأن بعض الناس يفهم الحرية فهما خاطئا وقد يترتب عليه استغلال خاطيء للحرية فيرتكب الجريمة .وإذا كانت الحرية احد عوامل التطور من خلال وقوع جريمة في مجتمع ما فان دوركايم يستدل على ان هذه احدى علامات التطور لانها دليل على وجود قدر من الحرية . اما انتهاء الجريمة او توقفها في اي مجتمع من المجتمعات فهو في نظره دليل على جمود المجتمع وتصلبه ويعتبره – اي المجتمع – في طريقه للفناء لان دوركايم يربط اختفاء الجريمة بزيادة عوامل الضغط والقوة والفقر والاكراه إلى اعلى حد مما يساهم في شل حركة المجتمع . وبالتالي فان دوركايم يقول بطبيعية الجريمة وضروريتها لانها تشكل ضريبة التطور واحد انجازاته لانها في نظره تشكل تضحية بجزء من تماسك المجتمع من أجل تطوره وارتقائه .(٣٤)

ولهذا نجد ان الجريمة تمتاز بكل خصائص وصفات الظاهرة الاجتماعية ومع ما تشكله من اهمية في حياة المجتمع الا انها يجب ان تقف عند حدود معينة لانها اذا تجاوزتها فسوف تصبح تدميرية لتطور المجتمع وتقدمه .

أتجاهات تفسير الجريمة(٣٥)

تمتاز الجريمة بالتشعب وتعدد العوامل المسببة لها . ولهذا نجد ان الباحثين في هذا المجال لم يتوقفوا عند تفسير واحد لظاهرة الجريمة بل لقد عملوا على تقصي اسبابها والبحث عن اتجاهاتها . مما ساهم في تعدد الاتجاهات التي حاولت تفسير الجريمة وهنا نحاول ان نحدد هذه الاتجاهات كما حددها العلماء في اتجاهات ثلاثة هي :—

اولاً : — الاتجاه الفردي

وينصب اهتمام هذا الاتجاه في تفسير الجريمة على عوامل تختص بالشخص نفسه وما يمتلكه من خصائص وسمات قد تكون ذات طابع ثابت لايقبل التحوير او التبديل وقد تكون مكتسبة في بعض جوانبها وينقسم هذا الاتجاه بدوره إلى قسمين .

أ — اتجاه فردي بايولوجي

ويحاول هذا الاتجاه تفسير السلوك الاجرامي باعادته إلى خصائص وسمات بايولوجية يمتلكها الافراد المجرمون ولم يكن هذا الاتجاه حديثا بل نجد ان جذوره ضاربة في القدم عند العديد من المفكرين القدامى .

ب — اتجاه فردي نفسي

وفي هذا الاتجاه يحاول العلماء تفسير السلوك الاجرامي في ضوء بعض الخصائص النفسية او الدوافع المحركة للسلوك الانساني والتي تعمل بشكل او بآخر على تحريك السلوك الاجرامي لدى الافراد ويحدد بعض العلماء هذه التصرفات بالعوامل الاتية : —

١ — الدوافع الغريزية

٢ — مكونات الجهاز النفسي

٢ — التخلف العقلي

ثانياً : الاتجاه الاجتماعي لتفسير الجريمة

وفي هذا الاتجاه يحاول العلماء ربط السلوك الاجرامي بعوامل خارجة عن الفرد ومكوناته الذاتية بل يربطونها بعوامل خارجية تحيط بالفرد وتعمل على تكوين السلوك الاجرامي ومن امثلة هذه العوامل العامل الاقتصادي وما ينتج عنه من اثار مختلفة يؤدي إلى السلوك الاجرامي وكذلك المحيط الطبيعي والتنشئة الاجتماعية .... الخ من العوامل .

ثالثاً : الاتجاه التكاملي في تفسير الجريمة

ان هذا الاتجاه لايرتكز على عامل واحد او علم واحد بل يأخذ من جميع العلوم ويبحث عن كل ما يتصل بحياة الفرد ومن النواحي العضوية والنفسية والاجتماعية وينظر اليها على انها متفاعلة مع بعضها البعض في بروز الجريمة وان اي عامل من العوامل له اهميته الخاصة في هذا الشأن .

عوامل واسباب الجريمة (٣٦)

من الحديث السابق عن الاتجاهات التي تعمل على تفسير السلوك الاجرامي نجد انه من المستحيل تفسير الجريمة في ضوء عامل واحد وبالتالي فأن للجريمة عواملها وأسبابها المختلفة والتي تمتاز بالترابط والتشابك مع بعضها البعض . ومع هذا يمكن تقسيم هذه العوامل إلى نوعين .

١ — عوامل داخلية

٢ — عوامل خارجية

العوامل الداخلية

العوامل الداخلية هي مجموعة المؤثرات المرتبطة بشخص المجرم ذاته والتي تعمل على دفعه لارتكاب السلوك الاجرامي وقد تنقسم هذه العوامل إلى قسمين عوامل ثابتة وعوامل متغيرة أو مكتسبة ومن العوامل التي تسهم في ظهور السلوك الاجرامي والوراثة والسلالة والجنس والذكاء والتكوين البايولوجي والنفسي.....الخ.

العوامل الخارجية

هذه العوامل نابعة عن الظروف المحيطة بالفرد على الرغم من ارتباطهما بتكوين شخصيته والتأثير في سلوكه سواء . اكانت هذه العوامل طبيعية او اجتماعية . فقد تسهم العوامل الجغرافية والبيئية والطقس والمناخ وكذلك الاوضاع الاقتصادية والسياسية والعادات والتقاليد ... الخ في السلوك الأجرامي عند الافراد .



المصادر والمراجع

(١) عمر . د . معن خليل وعبد اللطيف عبد الحميد العاني . المشكلات الأجتماعية . مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر ، ١٩٩١ ، ص ١٢ .

(٢) بدوي د . احمد زكي . معجم مصطلحات العلوم الأجتماعية . مكتبة لبنان، بيروت ، ١٩٧٧ ص ٣٩٣ .

(٣) Frank L.K Social Problems, The American. Journal of Socielogy, 1925. P٧

عن العاني . عبد اللطيف واخرون . مدخل الى علم الأجتماع مطابع التعليم العالي ، بغداد ١٩٩٠ ، ص ١٥٧ - ١٥٨ .

(٤) الحسن . د . احسان محمد . دراسة نظامية في تأريخ نظريات ومناهج ومجال علم الأجتماع الصرف ، جامعة بغداد ١٩٧٥ - ١٩٧٦ ، ص ٣٧ .

(٥) نور . د . عبد المنعم . المجتمع الانساني . مكتبة القاهرة الحديثة ، ص ١١٢ .

(٦) Fairchild . Dictionary of sociology Newyork, 1944, pp ٢٨٨ - ٢٨٩

(٧) غيث د . محمد عاطف - المشاكل الأجتماعية والسلوك المنحرف - دار المعرفة الجامعية ١٩٨٢ ، ص ١٤ .

(٨) نخبة من الأساتذة المصريين والعرب المختصين ، معجم العلوم الأجتماعية ، تصدير ومراجعة ابراهيم مدكور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٦ ، ص٥٤٧ .

(٩) ضود . د . ستوارت . العلاقات الأجتماعية في الشرق العربي ترجمة فريد جبرائيل نجار ، دار الكتاب ، بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٤٧ ، ص ٢٣٤ .

(١٠) الطاهر . د . عبد الجليل ، المشكلات الأجتماعية في حضارة متبدلة - مطبعة دار المعرفة بغداد - الطبعة الاولى : ١٩٥٣ ، ص ٢٣ .

(١١) Sils, David, L. international, Encyclobed. of the social sciences, vol. 14 Newyork, 1972, P

(١٢) العاني عبد اللطيف عبد الحميد ، واخرون : المدخل الى علم الأجتماع مصدر سابق ص ١٥٧ .

(١٣) Lemert, social pathology, London, 1951, pp. ٢٢ - ١٩

(١٤) عمر . د . معن خليل ، المشكلا ت الأجتماعية ، مصدر سابق . ص ١٣ - ١٤ .

(١٥) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٦ - ٣٧ .

(١٦) العاني عبد اللطيف عبد الحميد ، المدخل الى علم الأجتماع ، مصدر سابق ، ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

(١٧) عمر . د . معن خليل : المشكلا ت الأجتماعية ، مصدر سابق ، ص ٣٩ - ٧٨ .

(١٨) العادلي ، د . فاروق ، علم الأجتماع ، القاهرة . ١٩٨٣ . ص ٢٦٠ - ٢٦٣ .

(١٩) تيمز . نويل ، علم الأجتماع في دراسة المشكلا ت الأجتماعية ، ترجمة وتعليق د . غريب محمد سيد احمد . دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية ، ١٩٨١ ، ص ٣٥ .

(٢٠) خليفة . د . ابراهيم . مفاهيم في علم الأجتماع ، المكتب الجامعي الحديث ، ١٩٨٣ ، ١٩٨٤ ، ص ١٠٧ – ١١١ .

(٢١) غيث . د . محمد عاطف . علم الأجتماع دراسات تطبيقية، دار النهضة العربية ، بيروت. ١٩٧٤ ، ص ٦٦ – ٦٧ .

(٢٢) العاني ، عبد اللطيف عبد الحميد ، مصدر سابق ، ص ١٦١ .

(٢٣) تيمز ، نويل ، المشكلات الأجتماعية ، مصدر سابق ، ص ١١ .

(٢٤) العاني عبد اللطيف عبد الحميد . مصدر سابق ، ص ١٦٢ – ١٦٣ .

(٢٥) ابو عامر . د . محمد زكي – دروس في العلم الجنائي (الجريمة والمجرم) مؤسسة نوفل ، بيروت ،الطبعة الأولى ، ١٩٨٠ ، ص ١٤٩ .

(٢٦) الخطيب . د . عدنان . المباديء العامة في مشروع قانون العقوبات الموحد ، مطبعة جامعة دمشق ، الجزء الأول . ١٩٦١ . ص ١٥٢ .

(٢٧) دور كايم ، قواعد المنهج في علم الأجتماع ، ترجمة د . محمود قاسم ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٦ .

(٢٨) كريم . عبد الجبار . نظريات علم الأجرام ، مطبعة المعارف . بغداد . الطبعة الخامسة ، ١٩٧٠ ، ص ٣٦ .

(٢٩) سذر لاند . ادوين . هـ . ودونالد . ر كريسي . مباديء علم الأجرام . ترجمة اللواء محمود السباعي والدكتور حسن صادق ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة . ١٩٦٨ ص ١٨ .

(٣٠) المصدر السابق نفسه ، ص ١٨ .

(٣١) المغربي . د . سعد والسيد احمد الليثي – المجرمون . مكتبة القاهرة الحديثة ، ص ١١٣ – ١١٤ .

(٣٢) المصدر السابق نفسه ، ص ١١٠ – ١١٢ .

(٣٣) ماركيزيه ، جان ، الجريمة – ترجمة عيسى عصفور ، منشورات عويدات ، بيروت– باريس ،الطبعة الأولى ، ١٩٨٣ – ص ١٣٦ ، ١٤٢ .

(٣٤) محمد . د . عوض . مباديء علم الاجرام وعلم العقاب – دار النجاح للطباعة . ١٩٧١ ص ٨ – ٩ .

(٣٥) المغربي . د . سعد مصدر سابق ، ص ١١٧ – ٣٠٤ .

(٣٦) عمر . د . معن خليل ، المشكلات الأجتماعية . مصدر سابق ص ٢٦٠ – ٢٦٢ .

وسائل وقاية الشباب من الانحراف والجريمة

الدكتور هادي صالح محمد
قسم الخدمة الأجتماعية – كلية الاداب
جامعة الموصل

المقدمة

حظي موضوع وقاية الشباب من الانحراف والجريمة بأهتمام علماء الاجرام والاجتماع الجنائي . وذلك لأن تحصين الشباب في سن مبكرة يعد الدعامة التي نحد بواسطتها من ارتكاب الشباب للجرائم في سني عمرهم اللاحقة ، فقد اكدت الدراسات ان الحدث الذي يرتكب السلوك الاجرامي في سن مبكرة غالباً مايستمر في طريق الاجرام مستقبلا (١) ، وانطلاقاً من هذه الاهمية (٥) هدف هذا البحث الى تسليط الأضواء على الوسائل الواجب اتباعها لوقاية الشباب من الانحراف والجريمة ، ومن أجل الوصول الى هذا الهدف فقد اعتمدنا في عرض هذا البحث تدرجاً يبدأ بتحديد المفاهيم الأساسية للبحث . وبما ان الوقاية لايمكن ان تكون فعالة مالم يتم تحديد عوامل الانحراف والاجرام، عليه فقد تبعنا تحديد المفاهيم بمفردات لدراسة تلك العوامل والتي تتضمن عوامل انحراف الشباب ، وعوامل اجرام الشباب والعوامل المؤدية الى العود الى الجريمة عند الشباب ، والتداخل بين العوامل المؤدية لجرائم الشباب ، وصور من جرائم الشباب في العراق واسبابها ، ثم

---

(٥) تبدو أهمية هذا البحث اكثر شخوصا اذا وضعنا بنظر الأعتبار حجم هذه المشكلة ، فقد اشارت احدى الا جصائيات الى ان نسبة المتهمين الشباب الواقعين في الفئة العمرية (١٥ – ٣٠) سنة الى مجموع المتهمين في العراق عام ١٩٨٨ بلغت (١ , ٤٩ ٪) ارتفعت الى (٢ , ٥٠ ٪) في عام ١٩٩٠ ، وذلك يعني ان حوالي ربع السكان وهم الشباب يرتكبون نصف الجرائم تقريباً ، (انظر : الأتحاد العام لشباب العراق ، المكتب التنفيذي الهيئة الأستشارية ، بعض الظواهر السلبية المدانة في أوساط الشباب والسبل المقترحة لمعالجتها ، ورقة مقدمة للورقة النقاشية – بغداد ١٩٩٢ ، ص ٣٨ – ٣٩ .

تبعنا هذه المفردات بمفردة عن وسائل وقاية الشباب من الأنحراف والجريمة تناولنا فيها وسائل وقاية الشباب من الأنحراف ، ووسائل وقاية الشباب من الاجرام ، ووسائل الوقاية من تداخل العوامل المؤدية لجرائم الشباب، ووسائل الوقاية من العود الى الجريمة عند الشباب ، وتضمن هذا البحث كذلك الخاتمة التي عرضنا فيها اهم النتائج التي توصلنا اليها والتوصيات ، فضلا عن تضمنه قائمة بالمصادر المساعدة في عملية انجازه .

وأخيراً أود القول ان المنهجية التي اتبعناها لانجاز هذا البحث قد اعتمدت بشكل اساسي على المعلومات المكتبية ، مضافاً اليها ملاحظاتنا المكتسبة من اهتمامنا بالدراسات الجنائية . وزياراتنا الميدانية في عدة مناسبات لدائرة اصلاح الكبار ودائرة ملاحظة الأحداث في محافظة نينوى سواء جاءت تلك الزيارات بشكل منفرد، ام جاءت مع طلبة قسم الخدمة الأجتماعية في كلية الاداب-جامعة الموصل فضلا عن لقاءاتنا بالمختصين بالشؤون العلمية المختلفة ومنهم بشكل خاص الذين كتبوا عن مشكلات الشباب – والتحاور معهم في الكيفية الواجب اتباعها للوقاية من انحراف واجرام الشباب ،واذكر هنا على وجه التحديد تلك اللقاءات التي تمخضت من خلال حضوري مؤتمر نقابة المعلمين الذي عقد حول هذا الموضوع أواسط عام ١٩٩٢ .

أولا : المفاهيم الأساسية للبحث :

يعد تحديد المفاهيم من الأمور البالغة الأهمية في العلوم الانسانية والطبيعية فالظاهرة موضوع الدراسة لابد لها من تحديدعلمي دقيق حتى يسهل ادراك معناها وابعادها (٢) ، وكلما اتسم هذا التحديد بالدقة والوضوح سهل على الذين يتابعون البحث ادراك المعاني والأفكار التي يريد الباحث التعبير عنها بدقة ووضوح (٣) ، والمفاهيم التي تضمنها هذا البحث هي : الجريمة الانحراف ، الشباب ، الوقاية .

١ — مفهوم الجريمة

الجريمة من الناحية القانونية هي كل عمل مخالف لأحكام قانون العقوبات الذي يتضمن الأفعال المحرمة ومقدار عقوباتها (٤) . اما مفهوم الجريمة من الناحية الأجتماعية فتشير — المصادر كما يذهب روسو Roussueau — الى اعتبارها كل فعل من شأنه فصم عرى العقد الأجتماعي (٥) ، ويعد دوركايم Dureimkh الجريمة ظاهرة سليمة متى مابقيت بغيضة(٦)،لانها ستثير وعي الجماعة للذود عن تقاليدها ومثلها والعرف الشائع فيها (٧) ، في حين تعد الجريمة في المفهوم النفسي تعبيراً عن طاقة انفعالية لم تجد لهـا مخرجاً اجتماعيا فأدت الى سلوك لايتفق والأوضاع التي يسمح بها المجتمع (٨) وهذه الطاقة المكبوتة عند فرويد Freud هي طاقة الغريزة الجنسية ، حيث يعبر عن ذلك بقوله « ولو حرمنا الغريزة الجنسية عن غذائها الطبيعـي لجاءت العواقب وخيمة » (٩) ، في حين يذهب ادلر Adler الى اعتبـار الجريمة تعويضاً عما يشعر به الانسان من نقص او تفوق ولكنه تعـويض ملتو غير موفق (١٠) .

اما مفهوم الجريمة ، بموجب هذا البحث فأنها تعني كل فعل ينتهك الشاب بموجبه القاعدة القانونية مما يستوجب ايقاع العقوبة المقررة على ذلك الفعـل بموجب قانون العقوبات العراقي .

٢ — مفهوم الانحراف

الانحراف هو خروج على قواعد اجتماعية ، ولكن ذلك الخروج لايعد عملا اجراميا بموجب القانون ، بمعنى آخر هو تصرفات تتنافى مع الـذوق العام والاداب الاجتماعية إلا أن المشرع لم يضع لها نصوصاً قانونية لاعتبارها افعالا اجرامية ومثال على ذلك ان عدم طاعة الشاب لوالديه يعد انحرافاً لكنه ليس فعلا اجرامياً (١١) . وتجدر الاشارة الى ان هناك مصطلحاً يتزامـن استخدامه مع مصطلح الانحراف إلا أنه يختلف عنه وهو مصطلح الجنوح ،

و هذا المصطلح خاص بالأحداث (٥) الذين ينتهكون قاعدة قانونية تؤدي بهم للوقوع تحت طائلة قانونية . في حين ان مصطلح الأنحراف هو خروج على الاداب الأجتماعية – كما ذكرنا – غير انه لايعد فعلا اجرامياً من وجهة النظر القانونية ، وعليه يمكن القول ان كل جنوح هو انحراف ،لكن العكس ليس صحيحاً دائماً (١٢) .

اما مفهوم الانحراف وفق هذا البحث فنعني به المفهوم السابق نفسه اي كل فعل ينتهك الاداب الاجتماعية غير ان ذلك الانتهاك لأيعد عملا اجرامياً بموجب القانون .

٣ – مفهوم الشباب

تتاين الاراء حول مفهوم الشباب ، فالبعض يعتقد بأنه لايرتبط بفئةعمرية معينة بل يرتبط بأسس جسمية ونفسية وعقلية (١٣) ، ولكن مع ذلك فالتعاريف الشائعة غالباً ماتدور حول تحديد مفهوم الشباب من خلال ربطه بفئة عمرية معينة ، وعليه فهناك من يعرف الشباب«بأنه تلك الفئة العمرية من الناس التي تنحصر اعمارها مابين سن الثالثة عشر حتى سن السابعة والعشرين » (١٤) . وحدد الأتحاد العام لشباب العراق ثلاث فئات عمرية للشباب موزعة على ثلاث منظمات هي (١٥) :

أ – الطلائع : ٩ – ١٣ سنة

ب – الفتوة : ١٤ – ١٨ سنة

جـ – الشباب – : ١٩ – ٣٠ سنة

ونحن نتفق ومن خلال بحثنا هذا مع تحديد الاتحاد العام لشباب العراق لمفهوم الشباب من خلال تلك الفئات العمرية.

---

(٥) الحدث بموجب المادة (الثالثة) من قانون رعاية الأحداث العراقي رقم(٧٦) لسنة ١٩٨٣ هو من اتم التاسعة من عمره ولم يتم الثامنة عشرة .

٤ ـ مفهوم الوقاية

الوقاية معناها تفادي الجريمة قبل ان تقع ولو للمرة الأولى (١٦) . وعبارة (ولو للمرة الأولى) تشير الى ان الوقاية تعني وبموجب هذا البحث السبل الواجب اتخاذها لمنع الشاب من ان يرتكب الجريمة ولو للمرة الأولى ، كما تعني بموجب هذا البحث منع الشاب الذي دخل الأصلاحية من العود للجريمة مرة أخرى، وان كان الدكتور رمسيس بهنام يفضل استخدام مصطلح التقويم للدلالة على منع العود للجريمة عن طريق تقويم الشاب داخل الاصلاحية ، وبهذا الخصوص يؤكد الدكتور بهنام ان « علم الوقاية والتقويم هو فرع من علم الاجرام يحدد انجح الوسائل الكفيلة بمنع الجريمة من الوقوع ولعدم تكرارها ممن اقترفها ، فتحاشي الاجرام من الوقوع هو الوقاية وتفادي العود اليه هو التقويم » (١٧) ، ولكن على الرغم من اتفاقنا مع وجهة نظر الدكتور بهنام حول ذلك التحديد لمعنى الوقاية والتقويم الا اننا ـ وكما ذكرنا ـ وبموجب هذا البحث سنستخدم مصطلح الوقاية للتعبير سواء عن منع وقوع الجريمة ولو للمرة الأولى او سواء منع العود اليها ،وذلك لأن مصطلح التقويم غير شائع في الدراسات الجنائية .

ثانياً : عوامل انحراف الشباب

ذكرنا عند تحديد مفهوم الانحراف ، بأن الانحراف هو عبارة عن أفعال تنتهك الاداب الاجتماعية غير ان ذلك الانتهاك لايعد جريمة ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، نذكر منها عدم احترام الوالدين والتسكع في الأماكن العامة ولفترات طويلة وبلا هدف محدد سوى قتل الوقت او عدم الحفاظ على الممتلكات العامة ، وتجاوز نظام الدور (السره) من قبل الشباب من أجل حصولهم على بضاعة ما او للصعود الى واسطة النقل قبل غيرهم ، وقد يبدو من الوجهة الظاهرية ان تلك التصرفات خطرها قليل ، ولكن في الحقيقة ان مثل تلك التصرفات قد تكون المحطة الأولى ـ بالنسبة للشباب ـ للسير في طريق الجريمة وذلك لأنها تخلق حالة من عدم الاستقرار النفسي وحالة من

الضياع اللذين يقودان بدورهما الى العنف او السرقة ، وهما صورتان من صور السلوك الأجرامي ، والان نتساءل لماذا تحدث تلك الصور من الأنحرافات ؟ والجواب على ذلك ليس سهلا ، لأن الخيوط الفاصلة بين الأنحراف والجريمة هي من الشفافية بمكان بحيث يتلاشى معها تأشير عوامل الأنحراف وعوامل الاجرام بالنسبة للشباب ، ولكن مع ذلك سنحاول جاهدين ان نستخلص عوامل الأنحراف بمعزل عن عوامل الجريمة ، وهنا نقول انه اذا حاولنا ان نتبين الأسباب التي تقف وراء تلك الصور من صور الأنحراف يظهر لنابالنسبة لعدم احترام الكبير والتسكع في الأماكن العامة قتلا للوقت انه من اسبابهما الأساسية هي الأسرة ، فالتطرف في الشدة من خلال عملية التنشئة الأجتماعية قد يدفع الشاب الى عدم احترام والديه وبالتالي عدم احترامه لأي شخص كبير لأنه يمثل بوجهة نظره صورة من صور والديه ، كما ان اضافة عامل عدم تنظيم الأسرة لوقت فراغ ابنائها الى عامل التنشئة القاسية ، قد يؤدي بالشباب المنضوين تحت لواء تلك الأسر الى التسكع في الأماكن العامة ، وهنا قد تساهم بعض المدارس في الدفع لذلك التسكع بشكل غير مباشر اذا لم تستطيع ان تستوعب مثل تلك الأسباب التي يعاني منها بعض طلبتها ، حيث ان غياب مثل ذلك الأستيعاب من قبل المدرسة قد يؤدي بالطلبة الى التغيب عنها والتسكع في الأماكن العامة ، والان لنعود لبحث الأسباب التي تقف وراء الصور الأخرى من صور الأنحراف لدى البعض من الشباب وهي صور عدم المحافظة على الممتلكات العامة ، وتجاوز نظام الدور (السرة) من اجل حصولهم على مادة ما او صعودهم لواسطة النقل قبل غيرهم من الأفراد ، وهنا نقول ان الأسباب الحقيقة التي تقف وراء مثل تلك الصور من الأنحرافات هي اسباب عميقة وبعيدة في تشكلها الأجتماعي ، فهي ترجع لأساليب التنشئة الأجتماعية وخصوصية هذه الفئة العمرية التي تتميز بروح التحدي والتمرد الذي نماه واقع التنشئة الأجتماعية في مراحل سابقة ، حيث تعمل على انماء الذاتية الفردية واعتبارها نوعاً من الرجولة المطلوبة على حساب القيم الوطنية والأخلاقية .

وعليه يقومون بتلك الانحرافات اعتقاداً منهم ان اي شيء (عدم المحافظة على الممتلكات العامة ، تجاوز نظام الدور ....) لايرتبط بتلك الولاءات فهو بالتالي لايخصهم ولايخص جماعتهم بمعنى آخر ان قيمة الشيء الايجابي الذي يرتبط بالمصلحة العامة غير متبلور لدى اولئك الشباب، ومثل هذا السبب ترتبط به بطبيعة الحال ، طبيعة التنشئة الأسرية باتجاه مثل تلك المفاهيم الضيقة وقد يتصور البعض بأننا ندعو الى نبذ تلك الولاءات (العشيرة ، القبيلة ، المحلة) ومثل هذا التصور غير صحيح ، فنحن نؤمن بأن الانسان يجب ان يعتز بأصله ونسبه ومحلته ، ولكن على شرط ان لايتقاطع ذلك الاعتزاز مع مصلحة الوطن والإمة ، واذا استثنينا تلك الحالات السلبية لبعض الشباب فأن بقية الصورة الغالبة للشباب العراقي هي صورة مشرقة سواء في دفاعه عن وطنه وأمته ، او سواء في مساهمته الكبيرة في حملة اعادة اعمار مادمره العدوان الثلاثيني على قطرنا ، مع ذلك فأن هذه الصورة المشرقة هي غير متنكرة لو لاءاتها الضيقة ولكن على نحو معتدل ولم يتقاطع — كما ذكرنا — مع المصلحة العليا للوطن والأمة .

ثالثاً : عوامل إجرام الشباب

قلنا في الفقرة التي بحثنا فيها عن عوامل انحراف الشباب ان الخيوط الفاصلة بين عوامل انحراف الشباب وعوامل اجرامهم دقيقة جداً ، وذلك لأن الاعمال المنحرفة قد تتطور الى صور مختلفة من السلوك الاجرامي ، فقد ذكرنا ان عدم احترام الكبير والتسكع في الأماكن العامة هي انحرافات يقف وراءها القسوة العائلية وعدم تنظيم العائلة لوقت فراغ ابنائها ، وتلك الانحرافات قد تتطور الى صور من العنف والسرقة وهي صور من صور السلوك الاجرامي . كما ان عوامل اجرام الشباب تلتقي على نحو او آخر مع عوامل انحرافهم ، ولكن بشكل اكثر كثافة وعمق بالنسبة لعوامل اجرام الشباب ، فالعلماء يؤكد ون ان هنا ان عوامل الاجرام تتنوع ولكنها تجتمع بعوامل محددة ، هي بايجاز :

١ – العوامل الفردية(١٨)

تتضمن العوامل الفردية المؤدية للجريمة العوامل البايولوجية المعتلة (اضطرابات عضوية في المخ ، اختلالات الغدد الصم ، اختلالات التركيب العقلي ...) وتتضمن كذلك العوامل النفسية المعتلة (الاختلالات الغريزية ، العقد النفسية – عقدة النقص مثلا – ، الأمراض النفسية) .

وتجدر الاشارة ان العوامل البايولوجية المعتلة وصلتها بالاجرام كانت مثار إهتمام العلماء منذ القدم وخاصة الطبيب الايطالي سيزار لومبروزو ؛ غير ان تلك العوامل تعرضت لنقد عنيف من قبل العلماء الاخرين وخاصة العالم البريطاني كورنك ، الذي انتقد نظرية لومبروزو التي تذهب الى ان المجرمين يمكن ان نستدل عليهم من خلال هيأتهم غير الطبيعية ، فقد وجد كورنك ان هناك اشخاصاً معتدلين في سلوكهم ولم يرتكبوا اية جريمة ومع ذلك كانت تنطبق عليهم الصفات التي وسمها لومبروزو بالمجرمين (الجبهة غير المعتدلة بروز عظام الوجه ...) .

اما بخصوص العوامل النفسية المعتلة فأن لها تأثيراً في دفع الشباب صوب السلوك الاجرامي ، فالشباب الذين يعانون من عقد (عقدة النقص مثلا) ، قد يندفعون للتعويض عن هذه العقدة باتجاهين أحدهما قد يكون اجرامياً ، والأخر قد يكون سوياً للتعويض عن تلك العقدة ، غير ان العوامل النفسية لايمكن ان نفهمها على نحو صحيح اذا جردناها من العوامل الأجتماعية التي سببتها .

٢ – العوامل الأجتماعية المؤدية لجرائم الشباب

مهما تعددت العوامل الأجتماعية المؤدية للجرائم سواء كانت الجرائم التي يرتكبها الكبار ام الشباب ، فانها تنحصر في مجموعة من العوامل منها البيئة العائلية المضطربة ، فعدم الوفاق بين الأبوين يعد من أسباب الجرائم ، فقد تبين ان ٢٥ , ٣٠ ٪ من حالات الأحداث التي عرضت على المحاكم للسنوات ١٩٥٦ – ١٩٥٧ كانت ترجع لعوائل تفتقر للوفاق (١٩). وكذلك وجد ان

هناك صلة بين التصدع العائلي (الطلاق ، الهجر ، وفاة احد الوالدين اوكليهما ...) وجنوح الأحداث ،وقد أكدت ذلك دراسة كل من د . احسان محمد الحسن والدكتور حسن الساعاتي اللذين وجدا ان هناك علاقة بين التصدع العائلي والجنوح ، حيث كانت نسبة تأثير هذا العامل على الجنوح بموجب دراستهما كالاتي ٦٦ ٪ (٢٠) ، و ٦٧,٤٪ (٢١) ، على التوالي .

ومن العوامل الاجتماعية الاخرى هي الأحياء المتخلفة ، ففي مثل هذه الأحياء تكثر نسبة الجرائم ، وقد أكدت ذلك دراسةفتحية الجميلي من العراق خلال الاحصائية التي عملتها على الحالات التي عرضت على المحاكم للسنوات ١٩٦٦ - ١٩٦٩ (٢٢) ، وكذلك وجدت نتائج تؤكد وجود علاقة بين ارتفاع نسبة الجرائم والمناطق المتخلفة سواء في الدراسة المقارنة التي قام بها سيد عويس بين حي روكسبرى بأمير كا وحي بولاق بالقاهرة ، او سواء في الدراسة التي قام بها العلامة شو show في مدينة شيكاغو (٢٣)، ويعتقد العلماء ان البيئة المدرسية وبيئة العمل المعتلين تعدان من البيئات المساعدة على الاجرام اذا لم تستطيعا ان تقوما سلوك الشباب الذين يعانون من اضطرابات عائلية وتكشف عما يعتلج في دواخلهم من احباطات ، وذلك لان المدرسة تصبح في هذه الحالة وبالا على الطالب فيتركها او يتغيب عنها ، وهنا قد يقع في شباك احدى العصابات الاجرامية (٢٤) ، وكذلك الحال بالنسبة لبيئة العمل اذا لم تكن ملائمة لرغبات وميول مثل اولئك الشباب فأنهم قد يتعرضون للاحباط في تلك البيئة ولربما يدفعهم هذا الاحباط لترك العمل مما يوقعهم ذلك في البطالة والتي تعرضهم بدورها للسلوك الأجرامي (٢٥) . ومن العوامل الأجتماعية الأخرى المؤدية لجرائم الشباب ، هي رفقة السوء (الزمرة) فالشباب الذين لايستطيعون الأنسجام عائلياً ويتغيبون من المدرسة ولايتكيفون

لوسطهم الاجتماعي ، يتعاضدون فيما بينهم ضمن جماعات او زمر تجمعهم فيها المعاناة المتشابهة التي تعرضوا لها . وعليه فهم يساندوا بعضهم البعض فترضي الزمرة حاجة كل شاب الى الطمأنينة والارتواء العاطفي الذي فقده ضمن عائلته او مدرسته او وسطه الأجتماعي ، غير ان ذلك الارتواء سلبي ، فالمغامرة التي يقدموا عليها تمنح كلا منهم فرصة الشعور بالذات التي تساندها الذات الجماعية للزمرة (٢٦) ، غير انه تأكيد سلبي – كما ذكرنا – هدفه زعزعة الطمأنينة في المجتمع ، تلك الطمأنينة التي افتقدوها في حياتهم العائلية والأجتماعية .

وأخيراً يضاف الى تلك العوامل الاجتماعية ، انشطة الفراغ الضارة ، فقد دلت الدراسات على ان الشباب المجرمين غالباً مايقضون وقت فراغهم بأنشطة ضارة ، مثل التردد على دور البغاء والمطالعة غير الموجهة ، ومشاهدة أفلام العنف والاثارة الجنسية (٢٧) ، ويبرز من بين هذه الأنشطة ، النشاط الأكثر ضرراً على الشباب وهو المشاهدة للأفلام غير الموجهة تربوياً وذلك لان الشباب غالباً مايتولد لديهم ميل نحو تقليد تلك الأفلام غير انه تقليد سلبي لأن ملكة النقد لم تنضج لديهم الى الحد الذي يمكنهم بموجبها من وزن الفكرة التي يشاهدونها تمهيداً لمناقشتها ودحضها (٢٨) .

رابعاً : عوامل العود الى الجريمة عند الشباب

اذا كانت الوقاية لاتعني فقط منع ارتكاب الجريمة للمرة الأولى ، وانما تعني كذلك منع من ارتكبها من العودة اليها ، فعليه جاءت هذه الفقرة لتكشف بايجاز عن اسباب عودة الشباب الى الأجرام ، ففضلا عن الأسباب الفردية والأجتماعية المؤدية للجريمة – السالفة الذكر – فهناك عوامل تؤدي لعودة الشباب الى الجريمة منها نقص وسائل الاصلاح داخل دور الاصلاح مثل نقص برامج تصنيف المجرمين على أساس العمر ومدة المحكومية ونوع الجريمة (٢٩) ، فلا يخفى بأن اختلاط المجرمين بعضهم بالبعض الاخر دون مراعاة لأسس التصنيف العلمية داخل دور الاصلاح سيحول تلك الدور الى

مؤسسات لتعليم السلوك الأجرامي بدلا من تهذيب المجرم ومنع عودته للجريمة (٣٠).
كما ان رفض المجتمع لمطلقي السراح - ومنهم الشباب المجرمون - سيؤدي الى زيادة الشعور بالعزلة لدى اولئك الشباب عن دائرة الجماعة المحترمة للقانون وسيؤدي ذلك الى ارتكابهم للسلوك الاجرامي انتقاماً عما يعانون من اهمال (٣١) ، وقد أكدت ذلك نتائج الدراسة التي قام بها معد هذا البحث ، حيث وجد ان نقص وسائل الاصلاح ورفض المجتمع لمطلقي السراح كانت من أسباب العودة للجريمة عند الكبار ومنهم الشباب (٣٢).

خامساً : التداخل بين العوامل المؤدية لاجرام الشباب

قبل البدء بتحديد التداخل بين العوامل المؤدية لاجرام الشباب ، لابد من القول بأن العوامل المؤدية للانحراف هي الأخرى يوجد بينها تداخل ، فعدم احترام الكبير من اسبابه التنشئة القاسية ، وذكرنا كذلك ان التسكع في الأماكن العامة قتلا للوقت من اسبابه عدم تنظيم العائلة لوقت فراغ ابنائها ، وهنا يكون التداخل بين ذينك العاملين ، فعلى الأغلب نجد ان العائلة التي تفتقد لأساليب التنشئة السليمة لاتمتلك التصور او مقومات تنظيم وقت الفراغ على أسس علمية وكذلك ذكرنا عند استعراض عوامل انحراف الشباب ان عدم احترام الكبير والتسكع في الأماكن العامة قد يتطور الى صور اجرامية منها جرائم العنف والسرقة ، وفي الحقيقة فان عوامل اجرام الشباب ماهي الا صورة اكثر تجسداً او كثافة لعوامل الانحراف ، فالتنشئة القاسية تكون اكثر بروزاً عند الشباب المجرمين مقارنة بالشباب المنحرفين .

والان لنعد لنؤشر التداخل بين العوامل المؤدية لاجرام الشباب ، ولنأخذ مثالا على ذلك التداخل بين العوامل الفردية (بايولوجية ونفسية) والأجتماعية فأصحاب العاهات (عامل بايولوجي) قد لايندفعون الى الجريمة في وسط اجتماعي (عامل اجتماعي) لاينظر نظرة ازدراء الى اصحاب تلك العاهات ونتيجة لذلك يتحول الشعور بالنقص (عامل نفسي) الى شعور بالتفوق يدفع

صاحبه الى العمل بأسلوب فعال لدرجة ان كل تيار حياته النفسية يتصاعد من أدنى الى اعلى (٣٣) ، وعليه فالجريمة عند الشباب هي نتاج كل تلك العوامل غير ان ذلك القول لايمنع من التأكيد ان هناك درجة مختلفة في نسبة تأثير هذا العامل مقارنة بالعوامل الأخرى (٣٤) ، فقد يكون للعامل الاجتماعي نسبة تأثير قد تصل مثلا الى ٦٠٪ مقابل ٣٠ ٪ للعامل النفسي و ١٠ ٪ للعامل البايولوجي ، وقد تكون هناك انواع معينة من الجرائم يكون لعامل واحد نسبة تأثير عالية جداً مقارنة بالعوامل الأخرى ، مثل الجرائم التي يرتكبها المجنون نجد هنا ان العامل الأساسي هنا هو عامل بايولوجي يتجسد باختلال التركيب العقلي عند المجنون ،في حين في جرائم الثأر يكون هنا للعامل الأجتماعي المتمثل بالعادات والتقاليد التي تدفع باتجاهه ، هو العامل الحاسم في احداث هذا النوع من الجرائم .

سادساً : صور من جرائم الشباب في العراق وأسبابها

بما أننا ذكرنا عدداً من الأمثلة عن الأنحرافات السلوكية عند الشباب وأسبابها عند بحثنا في عوامل انحراف الشباب عليه سنخصص هذه الفقرة للحديث عن نماذج أو صور عن جرائم الشباب في العراق واسبابها ، وتجدر الاشارة الى انه لربما يعتقد البعض بأن كلمة (اسبابها) توحي ان المبحث الذي سبق ان خصصناه للبحث في عوامل اجرام الشباب كان مبحثاً لاحاجة له ، ولكن في الحقيقة ان الأسباب التي سبق ان ذكرناها عن الجرائم هي اسباب مهمة تنطبق على الجرائم بصورة عامة بما فيها الجرائم المرتكبة من قبل الشباب وعليه جاءت هذه الفقرة لتعالج من باب اكثر تخصيصاً لصور من جرائم الشباب في العراق واسبابها ، ومن خلال ماعبرت عنه بعض الأحصائيات او من خلال ماتم تأشيره في الندوات التي عقدت للبحث في انحرافات واجرام الشباب وسبل الوقاية منها ،وخاصة الندوتين التي عقدتهما نقابة المعلمين والاتحاد العام لشباب العراق خلال العام ١٩٩٢ عن ذلك الموضوع ، وبعد

ذلك نقول ومن خلال الرجوع الى احدى الاحصائيات عن جرائم الطلبة باعتبارها شريحة كبيرة من شرائح الشباب في المجتمع العراقي ، انه قد تبين ان عدد الجرائم المرتكبة من قبلهم خلال شهر شباط من عام ١٩٩٢ بلغ (٢٢٩) جريمة — بأستثناء محافظات الحكم الذاتي — اتهم بها (٢٦٥) متهماً أما عن نوعية الجرائم واعدادها فيمكن حصرها بـ : القتل العمد (٦) ، الشروع بالقتل (١٣) ، القتل الخطأ (٣) ، السرقات والشروع فيها (٥٦) ، حوادث المرور المميتة (٧) ، حوادث المرور غير المميتة (٢٥) ، الايذاء العمد (٦٢) ، الخطف (٢) ، الأغتصاب واللواطة (٥) ، التهديد (١٠) ، اعتداء على موظف (٧) ، التخريب والاتلاف (١) ، مخالفة قانون الأسلحة (٤) ، مخالفة قانون المرور (٣) ، السب والشتم (٤) ، قرارات مجلس قيادة الثورة (١) مخالفة قانون التجارة (١) ، التزوير (١) ، اخفاء اشياء مستحصلة من جريمة (٣) ، المساس بسيرة القضاء (٢)، خيانة الأمانة (٢) انتحال صفة (٣) ، الفعل المخالف للاداب (٢) ، الحريق ، (٣) ، اغتصاب السندات والأموال (٣) (٣٥) .

وعن احصائية أخرى عن جرائم الشباب بصورة عامة ولمدة عشر سنوات (١٩٧٩ — ١٩٨٨) تبين ان نسبة المتهمين الشباب بارتكاب الجرائم الى المجموع العام للمتهمين تراوحت مابين ١٩٪ كحد ادنى الى ٣٣ ٪ ، وتبين كذلك ان أكثر الجرائم شيوعاً بين الشباب هي : السرقة ، التهديد ، الاعتداء على الموظفين ، القتل العمد ، الأغتصاب ، اللواطة وهتك العرض .... (٣٦) .

ويتبين من المؤشرات الأخيرة عن جرائم الشباب انها تلتقي تقريباً ولدرجة مامع مؤشرات جرائم الطلبة ، والان ماهي الأسباب التي تقف وراء تلك الجرائم ؟ في الحقيقة ان الأسباب متعددة وهي تتراوح مابين قضاء الشباب لوقت فراغهم بأنشطة ضارة وخاصة في مشاهدة ماتعرضه بعض دور السينما لأفلام تتسم بالعنف ومشاهدة الأثارة الجنسية الرخيصة ، والبطالة بين صفوف الخريجين ، والضغوط الأقتصادية التي يتعرض لها الشباب ، والأنبهار بالحياة التي يعيشها الشباب في الخارج (٣٧) ، وعليه نجد هناك ميلا لدى بعض الشباب

لاقتناء الملابس ذات الألوان الصارخة والمكتوب عليها عبارات بـاللغـات الأجنبية وخاصة الأنكليزية ، كما ان لأفلام الفديو غير الموجهة تربوياً تأثيراً سلبياً على تفسية وميول الشباب نحو الحياة الأجتماعية السليمة ، يضاف الى ذلك ضعف الوازع الديني وانتشار البارات ، وعدم قيام بعض الأسر بواجباتها التربوية السليمة تجاه ابنائها ، كما ان التحولات السريعة التي شهدها مجتمعنا وخاصة في الجوانب المادية وتعرضه لظروف الحصار الأقتصادي الظالم وميل البعض من ذوي النفوس الضعيفة للكسب السريع قد اثر هو الاخر سلباً على توجهات بعض الشباب وموقفهم من الثراء فألتجأ البعض منهم الى مختلف الوسائل للحصول عليه وخاصة عن طريق السرقة ، وقد يكون هذا هو السبب في ارتفاع نسبة تلك الجرائم بين صفوف الشباب بما فيهم الطلبة .

سابعاً : وسائل وقاية الشباب من الانحراف

بعد ان حددنا عوامل الانحراف والاجرام فإن الوسائل التي سنقترحها لمجابهتها تنطلق اساساً من تلك العوامل اي وسائل مقترحة لمعالجة عوامل الانحراف والاجرام لدى الشباب .

١ – وسائل وقاية الشباب من الأنحراف

أ – ذكرنا بأن من صور الانحراف عند الشباب هي عدم احترام الكبير والتسكع في الأماكن العامة قتلا للوقت وبما أن من أسباب تينك الصورتين هو التنشئة القاسية ، وعدم تنظيم العائلة لوقت فراغ أبنائها ، عليه نقترح أن تقوم العائلة باتباع الطرق التربوية السليمة في التنشئة الاجتماعية ، وتنظيم وقت فراغ أبنائها ، وقد يسهل تنفيذ هذا المقترح هو قيام وسائل الاعلام ومجالس الشعب ، والاتحاد العام لشباب العراق بتنظيم حملة للتثقيف بذلك .

ب – وبما أن من صور الانحراف عند بعض الشباب هي عدم المحافظة على الممتلكات العامة ، وتجاوز نظام الدور (السرة) من أجل الحصول على

البضائع أو الصعود الى وسائط النقل قبل الغير ، وبما أن من أسباب تلك الانحرافات هو عدم الشعور بأهمية الممتلك العام وأهمية النظام بسبب الولاء للجماعات المحلية (العشيرة، المحلة ، ...) مقارنة بالولاء للوطن والامة عند البعض من الشباب ، عليه نقترح أن نعمق عند الشباب ومن خلال المدارس والمعاهد والجامعات والاتحادات والمنظمات الجماهيرية والشعبية أهمية الولاء للوطن والأمة ، وأن نعمق لديهم الشعور بـأن الممتلك العام والنظام هما أساس المجتمع المتطور والمتحضر ، وهنـا نقترح أيضاً توصية سبق أن تم التوصية بها من خلال لجنة مختصة في جامعة الموصل — كاتب هذا البحث أحد أعضائها — وهي استحداث درس في المدرسة الإبتدائية بعنوان (تعلم النظام) يكون هدفه ارشادياً في كيفية المحافظة على ممتلكات الشعب واتباع تعليمات المرور (٣٨).

٢ — وسائل وقاية الشباب من الأجرام

أ — تبين ان من عوامل إجرام الشباب هو التأثير السلبي الذي تمارسه العوامل البايولوجية المعتلة على المصابين بها من الشباب ، لذلك نقترح التوسع في انشاء المستشفيات لمعالجة مختلف العاهات المزمنة والعوق لكي نبعد المصابين بها عن أي شعور بالنقص من الممكن أن يدفعهم لارتكاب السلوك الاجرامي .

ب — والشيء نفسه ينطبق على تأثير العوامل النفسية المعتلة من عقد وأمراض نفسية وسايكوباثية (اضطراب الشخصية) حيث أن التوسع في انشاء المصحات المتخصصة بتلك العلل وزيادة التخصص في مجال التحليل النفسي من الممكن أن يساعدنا في تطويق نطاق تلك العلل .

جـ — وبالنسبة للعوامل الإجتماعية المؤدية لجرائم الشباب ، نقترح الارتفاع بالمستوى الاقتصادي للعائلة وتمتين الصلات العائلية ، وعمل المدرسة على متابعة مشكلات الطلبة ضعيفي التكيف للجو المدرسي والعمل على

حل مشكلاتهم لمنع عملية هروبهم من المدرسة ، والعمل على تطويق نطاق الأحياء المتخلفة بهدمها بعد توفير السكن الملائم لأصحابها، وعلى العائلة أن تلعب دوراً فعالا في متابعة نوعية الأصدقاء الذين يلتقي بهم أبناؤها لتجنب أصدقاء السوء ، وأخيراً فان وسائل الاعلام يجب أن تكون تحت رقابة الدولة لتتماشى فلسفتها مع فلسفة الدولة في إعداد النشء الاعداد السليم .

٣ — الوقاية من عوامل العود الى الجريمة عند الشباب

بما أن من عوامل العود للجريمة عند الشباب هو نقص برامج الاصلاح داخل دور الاصلاح ، عليه نقترح تكثيف العمل بتلك البرامج من قبيل تطوير اجراءات تصنيف الشباب المجرمين حسب نوعية الجريمة ومدة المحكومية ، ومنح الاجازات العائلية ، وتكثيف برامج التأهيل المهني والتربوي داخل تلك الدور ، وبما أن من عوامل العود للجريمة عند الشباب هو رفض المجتمع لمطلقي السراح منهم، لذلك نقترح هنا تطوير برامج الرعاية اللاحقة على اطلاق السراح ،ان مثل تلك الرعاية التي يجب ان يقوم بها متخصصين بتلك الرعاية تسهل عملية اندماج المفرج عنهم بالمجتمع وبالتالي تحد من نسبة عودتهم للجريمة .

٤ —الوقاية من تداخل العوامل المؤدية لاجرام الشباب

أشرنا الى أن العوامل المؤدية لإجرام الشباب ، هي عوامل متداخلة ، لذلك يجب أن يكون هناك تنسيق بين المتخصصين في الأمراض البايولوجية والنفسية والبرامج المعدة للوقاية من العوامل الاجتماعية لإجرام الشباب ، ان مثل ذلك التنسيق سيجعل من اجراءات الوقاية أكثر فعالية في التصدي لتلك المشكلة .

٥ — وهناك جملة من المقترحات تتعلق بشكل أكثر تخصيصاً بالجرائم المرتكبة من قبل الشباب في العراق ، والتي كشفت عنها الاحصائيات والأسباب التي عرضنا لها — وهي غير منفصلة عن المقترحات السالفة الذكر — وهي :

أ ـ العمل قدر المستطاع على ايجاد فرص العمل للخريجين للحد من البطالة بين صفوفهم .

أشارت الدراسات الى إرتفاع نسبة قدوم الشباب المجرمين من المناطق المكتظة بالسكان ، لذلك نقترح تكثيف الرقابة السرية من قبل قوى الأمن الداخلي وخاصة في الأسواق الشعبية لتطويق نطاق الجريمة والسيطرة عليها قبل وقوعها(٣٩) .

جـ ـ هناك مناطق كثيرة في بغداد وبعض الأسواق المكتظة في المحافظات بدأت تتعامل مع أفلام الفيديو بشكل لافت للنظر ، وأصبحت أعداد المقاهي التي تتعامل مع تلك الأفلام في تزايد ، لذلك نقترح تشديد الرقابة على تلك المناطق للسيطرة على أفلام العنف والإثارة الجنسية .

د ـ عدم التوسع في وسائل الترفيه غير الضرورية والتي تتطلب الإنفاق عليها الكثير من الأموال مثل الملاهي والبارات لأن أكثر المجرمين ومنهم المجرمون الشباب يترددون على هذه المناطق .

هـ ـ كشفت الاحصائيات أن أكثر الجرائم إنتشاراً بين الشباب هي جرائم السرقة ، وبما أن هناك إجراءاً وقائياً بدأ العمل به ـ وكان له دور إيجابي في تقليل تلك الجرائم ـ الا وهو الاجراء المتعلق بتكثيف الحراسة الليلية من قبل المتعهدين الأهليين ، وهنا نطالب بتوسيع نطاق هذا الاجراء (٤٠) .

الخاتمة

يتبين من العرض السابق لمفردات هذا البحث تعدد الآراء حول مفاهيم الجريمة والانحراف والشباب والوقاية ، ومع ذلك فقد حاولنا ألا نأتي بالآراء الأكثر تداولا بين المتخصصين عن تلك المفاهيم ، فضلا عن صياغتنا لمفاهيم خاصة بهذا البحث يستدل من خلالها على ما نعنيه بتلك المفاهيم بموجب هذا البحث .

واتضح كذلك ان العوامل المؤدية لانحراف واجرام الشباب متعددة فبالنسبة لصور الانحراف المتعلقة بعدم احترام الكبير والتسكع في الأماكن العامة قتلا للوقت كان من اسبابها التنشئة العائلية القاسية للأبناء وعدم تنظيم العائلة لوقت فراغ ابنائها، وبالنسبة لصور الانحراف المتعلقة بعدم المحافظة على الممتلكات العامة، وتجاوز نظام الدور (السره) من اجل الحصول على بضاعة ما او الصعود الى واسطة النقل قبل الغير كان من أسبابها ضعف الولاء والانتماء للوطن والأمة من قبل بعض الشباب مقارنة بولائهم لجماعتهم المحلية (مثل العشيرة) وعليه لايشعر بأهمية المصلحة العامة. وقد اقترحنا للوقاية من صور تلك الانحرافات عدة مقترحات منها ضرورة قيام وسائل الاعلام والمنظمات الجماهيرية والشعبية بالتوعية بأهمية التنشئة العائلية السليمة، وأهمية تعميق الولاء للوطن والأمة مقارنة بالولاء للجماعة المحلية.

وتبين لنا من خلال مراجعة عوامل اجرام الشباب ان تلك العوامل تتباين مابين عوامل فردية (بايولوجية ونفسية) وعوامل اجتماعية (عدم الوفاق العائلي، الاحياء المتخلفة، عدم قدرة البيئة المدرسية وبيئة العمل على حل مشكلات الشباب ضعيفي التكيف لوسطهم الاجتماعي، وأصدقاء السوء، « الزمرة »، وقضاء وقت الفراغ بأنشطة ضارة ...) واقترحنا هنا ضرورة التصدي لتلك العوامل سواء من خلال زيادة عدد المستشفيات والمصحات النفسية لمعالجة العوامل الفردية، او سواء الأرتقاء بالبيئة الأجتماعية التي يعيش فيها الشباب. ووجدنا من العرض السابق ان هناك عوامل تؤدي لعودة الشباب الى الجريمة مثل نقص وسائل الاصلاح داخل دور الاصلاح ورفض المجتمع لمطلقي السراح من الشباب وطالبنا بضرورة تكثيف البرامج الاصلاحية داخل تلك الدور وتكثيف العمل بنطاق الرعاية اللاحقة لتسهيل مهمة اندماج مطلقي السراح بالمجتمع.

ومن النتائج التي توصلنا اليها كذلك ان هناك تداخلا بين العوامل المؤدية لاجرام الشباب ، واقترحنا التنسيق بين المتخصصين لمعالجة ذلك التداخل .

وأشارت النتائج ايضاً الى ان من أكثر الجرائم شيوعاً بين الشباب في العراق هي السرقة ، وقد أوصينا بضرورة البحث عن فرص عمل للخـــريجيــن ، وتكثيف نطاق العمل بالشرطة السرية في اماكن تداول أفلام الفديو والأسواق الشعبية .



المصادر

(١) د. احمد عبد العزيز الألفي ، العود الى الجريمة والاعتياد على الأجرام ، دراسة مقارنة ، رسالة دكتوراه ، المطبعة العالمية ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٨٣ .

(٢) هادي صالح محمد ، عوامل العود الى الجريمة ، دراسة نظرية مع بحث ميداني في دائرة اصلاح الكبار في ابي غريب ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة بغداد ، ١٩٨٤ ، ص ١١ .

(٣) د. عبد الباسط محمد حسن ، اصول البحث الأجتماعي ، ط ٣ ، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ١٧٢ .

(٤) عبد الجبار عريم ، نظريات علم الاجرام ، ط د ، مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٧٠ ، ص ٣٦ .

(٥) د. عدنان الخطيب ، المبادىء العامة في مشروع قانون العقوبات الموحد ، ج ١ ، مطبعة جامعة دمشق ، ١٩٦١ ، ص ١٥٢ .

(٦) أميل دور كايم ، قواعد المنهج في علم الاجتماع ، ترجمة : د. محمود قاسم ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ١٦ .

(٧) عبد الجبار عريم ، مصدر سابق ، ص ٨٩ — ٩٠ .

(٨) عن احمد محمد خليفة ، أصول علم الأجرام الأجتماعي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ٣١ .

(٩) سيغموند فرويد ، خمسة دروس في التحليل النفسي ، ترجمة : جورج طرابيشي ،ط ١ دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٦٦ .

(١٠) عبد الجبار عريم ، مصدر سابق ، ص ١٩٨ — ١٩٩ ، وللمزيد عن مفهوم الجريمة ، ينظر : هادي صالح محمد ، مصدر سابق ، ص ١١ — ١٧ .

(١١) ناهدة عبد الكريم حافظ ، بعض الأطر التفسيرية لمشكلة جنوح الأحداث ،مجموعة بحوث وأعمال الحلقة الدراسية الخاصة بوقاية الأحداث من الأنحراف ، (بغداد ، تشرين الثاني ١٩٨١) ، وزارة الداخلية ، مديرية الشرطة العامة ، مركز البحوث والدراسات بغداد ، ١٩٨٣ ، ص ١٠٤ .

(١٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٤ .

(١٣) عبد الحسين محمود طريخ ، أثر منظمات الشباب في شخصية المنتمين ، دراسة ميدانية مقارنة للمنتمين وغير المنتمين الى منظمة شباب بابل ، رسالة ماجستير غير منشورة ، بغداد ١٩٨٣ ، ص ٢١ .

(١٤) منيرة احمد حلمي ، مشكلات الفتاة المراهقة ، وحاجاتها الأرشادية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ١٧ .

(١٥) د. عادل عبد الحسين شكارة ، الأتحاد العام لشباب العراق وتنشئة الشباب ، مطبعة اتحاد الشباب ، ١٩٨٠ ، ص ١٢ ، وللمزيد حول مفهوم الشباب ، ينظر : عبد الحسين محمود طريخ ، مصدر سابق ، ص ٢١ — ٢٦ .

(١٦) د. رمسيس بهنام ، علم الوقاية والتقويم ، الأسلوب الأمثل لمكافحة الأجرام ، منشأة المعارف. الأسكندرية ، ١٩٨٦ ، ص ٢٥ .

(١٧) المصدر نفسه ، ص ٩ ، ٢٥ .

(١٨) لمزيد من هذه العوامل ، ينظر : د . اكرم نشأت ابراهيم ، جنوح الأحداث ، عوامله والرعاية الوقائية والعلاجية لمواجهته ، مجموعة بحوث واعمال الحلقة الدراسية الخاصة بوقاية الأحداث من الأنحراف (تشرين الثاني ١٩٨١) ، وزارة الداخلية ، مديرية الشرطة العامة ، مركز البحوث والدراسات ، بغداد ، ١٩٨٣ ، ص ٣٦ – ٤٥ .

(١٩) سعد المغربي ، انحراف الصغار ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ١٥٤ .

(٢٠) د . احسان محمد الحسن ، اثر تفكك العائلة في جنوح الأحداث ، مجموعة بحوث . وأعمال الحلقة الدراسية الخاصة بوقاية الأحداث من الأنحراف ، (تشرين الثاني ١٩٨١). وزارة الداخلية ، مديرية الشرطة العامة ، مركز البحوث والدراسات ، بغداد ، ١٩٨٣ ، ص ١٧٩ .

(٢١) د . محمد عارف ، الجريمة في المجتمع ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٥ ، ص ٥٤٧ .

(٢٢) فتحية الجميلي ، الأحياء الشعبية والمشاكل الأجتماعية ، مجلة البحوث الأجتماعية والجنائية ، السنة الأولى ، العدد الأول ، بغداد ١٩٧٢ ، ص ٥٤ .

(٢٣) عن عبد اللطيف عبد الحميد العاني ، اثر المناطق المتخلفة في جنوح الأحداث ، مجموعة بحوث واعمال الحلقة الدراسية الخاصة بوقاية الأحداث من الأنحراف ، (تشرين الثاني ١٩٨١) ، وزارة الداخلية ، مديرية الشرطة العامة ، مركز البحوث والدراسات ، بغداد ١٩٨٢ ، ص ٢٦٦ – ٢٦٩ .

(٢٤) سعدي بسيسو ، قضاء الأحداث علما وعملا ، ط ٢ ، مطبعة الشرق ، دمشق ، ١٩٥٨ ، ص ٦١ .

(٢٥) د . مصطفى العوجي ، الجريمة والمجرم ، ط ١ ، مؤسسة نوفل ، بيروت ١٩٨٠ ، ص ٣٩٠ . وكذلك ينظر : د . اكرم نشأت ابراهيم ، مصدر سابق ، ص ١٦٢ – ١٦٨ .

(٢٦) جان شازال ، الطفولة الجانحة : ترجمة : انطوان عبده ، ط ٣ ، منشورات عويدات بيروت – باريس ، ١٩٨٣ ، ص ٣٨–٣٩ . وكذلك ينظر : د . سامح السيد احمد جاد ، مبادىء علم الأجرام وعلم العقاب ، الناشر دار الكتاب الجامعي ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ١٢٥ .

(٢٧) د . رؤوف عبيد ، أصول علمي الأجرام والعقاب ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ١٤٨ . وكذلك ينظر : ادوين سذرلاند ودونالد كريسي ، مبادىء علم الأجرام . ترجمة : محمود السباعي و د . حسن صادق المرصفاوي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٢٧٢ – ٢٧٣ .

(٢٨) د . رمسيس بهنام ، المجرم تكويناً وتقويماً ، الناشر ، منشأة المعارف . الأسكندرية ، بلا تأريخ ، ص ١٤٧ .

(٢٩) عبد القادر حسن فهمي ، تطور برامج رعاية المسجونين ، المجلة الجنائية القومية ، المجلد ١٦ ، ج ٢ ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ٢١٥ .

(٣٠) عبد العزيز فتح الباب ، دور الأخصائي الأجتماعي في المؤسسات العقابية ، بحوث المؤتمر الدولي العربي الرابع للدفاع الأجتماعي ، ج ٤ ، بغداد ١٩٧٤ ، ص ٢٥٤ .

(٣١) سذرلاند وكريسي ، مصدر سابق ، ص ٧٩١ وكذلك ينظر : جندي عبد الملك ، الموسوعة الجنائية ، ج ٥ ، ط ١ ، مطبعة الاعتماد ، القاهرة ١٩٤٢ ، ص ١٧٥ .
(٣٢) هادي صالح محمد ، مصدر سابق ، ص ١٣٦ – ١٤٠ .
(٣٣) الفرد ادلر ، العصاب ، بحث في علم النفس ، ترجمة : احمد الرفاعي وفارس ظاهر ط ١ ، دار محيو للنشر والطباعة ، لبنان ، ١٩٧٨ ، ص ١٨ .
(٣٤) هادي صالح محمد ، مصدر سابق ، ص ٥١ – ٥٢ .
(٣٥) الأتحاد العام لشباب العراق ، مصدر سابق ، ص ٤١ – ٤٢ .
(٣٦) قاسم حسين صالح ، وسائل الأعلام والأنحراف السلوكي لدى الشباب ، جمهورية العراق ، نقابة المعلمين ، المركز العام ، لجنة شؤون التربية والتعليم العالي ، الندوة العلمية حول تحصين الشباب ضد الأنحراف (ملخص الدراسات) بغداد ، ١٩٩٢ ، ص ١ – ٢ .
(٣٧) المصدر نفسه ، ص ١ – ٣ .
(٣٨) لجنة مختصة في جامعة الموصل ، آراء ومقترحات للحد من السلوك الأجرامي ، (ورقة معنونة الى وزارة التعليم العالي والبحث العلمي – امانة المجلس الأستشاري – بتأريخ ١٩٩٢/١/٢) ، ص٤ .
(٣٩) المصدر نفسه ، ص٣ .
(٤٠) المصدر نفسه ، ص ٥ .



الادراك الاجتماعي لدى الاطفال العدوانيين وغير العدوانيين دراسة مقارنة

سمير يونس محمود
قسم العلوم التربوية والنفسية
كلية التربية / جامعة الموصل

المشكلة واهميتها

يعد الادراك الاجتماعي احد الموضوعات المعقدة التي تضم العديد من الموضوعات الفرعية الأخرى منها، اخذ الدور والادراك الحسي ومشاطرة وجهات نظر الاخرين والاتصال والاخلاقية ، اما العامل المشترك بين جميع هذه الموضوعات فهو ألافتراض الذي يرى ان الطفل بصفته فرداً يفكر ويسهم بفاعلية في تطوره الأجتماعي الخاص . حيث تفضي قدراته المعرفية ومهاراته الى استنتاج كثير من المعاني والأعتبارات الأجتماعية من خلال تفاعلاته الأجتماعية مع الاخرين (Youniss, 1978, p. 174) .

كما يعد العدوان احدى المشكلات الاجتماعية التي تحدث بأستمرار بين الأطفال في مواقف الحياة المدرسية المختلفة . لذا فان ادارات المدارس تواجه الكثير من المشكلات السلوكية ذات الطابع العدائي بين الأطفال في المدارس ولعل احد الأسباب التي تمهد لهذه المشكلات هو نقص كفاية القدرات المعرفية لبعض الأطفال وعجزهم في ادراك وتفسير المواقف السلوكية لاقرانهم المسببة للإستفزاز بقصد او غير قصد ، ونتيجة لذلك فقد تحصل العديد من المواجهات العدائية التي ينجم عنها اضرار نفسية وبدنية لعدد من الأطفال .

ان مهمات الادراك الأجتماعي التي يقوم بها الطفل عبر تطوره ترتبط بتوضيح سلوكيات الافراد الاخرين وتمثلها ، اذ يكتسب المعرفة والخبرات الأجتماعية عن طريق التفاعل معهم بفعالية تؤهله على تصور انماط ونماذج

سلوكية يظهرها الاخرون تشكل اسساً لوضع استنتاجات بشأنها ، هذه المهارة المعرفية – الأجتماعية تسمح له بالوصول الى ماوراء الملامح الخارجيـــة للسلوك ، اي الى الدوافع الداخلية للافراد – افكارهم ومشاعرهم الخفيـة – ولكي يتوصل الطفل الى انجاز هذه المهارة بكفاءة عليه ان يتعامل مع سلوكيات الافراد الاخرين المقبولة وغير المقبولة اجتماعياً بوصفها مفاتيح مهمة توصله الى استنتاجات معقولة . ومن هنا تتضح العلاقة المهمة التي تربط بين قدرات الطفل المعرفية – الأجتماعية وسلوكه الأجتماعي سواء كان سلوكاً مقبولا ام عدوانياً . (Shantz 1983, *P* 497, Youniss, 1978, *PP*182, 189)

وفي دراسة اجراهـــا (بوركـــا وكلينويلـــك (Burka & Glinwick) قارنا فيها قدرات اخذ الدور (اخذ وجهات نظر ومشاعر الاخرين بنظـــر الأعتبار) لدى مجموعتين من الأطفال ، عدوانيين وغير عدوانيين ، ظهـر ان الأطفال العدوانيين يتصفون بضعف قدرات اخذ الدور ، فيما اظهـرت دراسة (كوردك Kurdek)ان القدرات العالية في مهمات اخـذ الدور لدى اطفال الصفين الأول والرابع الابتدائيين وخاصة الذكور قـــد ارتبطت بكثرة الخصام مع التلاميذ والمشاكسة في الصف ، فضلا عـن المشكلات السلوكية الأخرى (Shantz, 1983, P. 525)

واباـنـــت دراســـات (Brendt & Brendt 1975; piaget, 1977) ان لقدرات الـــطفل المعرفية الأجتماعية المكتسبة عبر النمو دوراً هاماً في استيعاب وتحليل القصد (نيات الاخرين)فيما اشارت دراسة (Dodge & Frame 1982) الى ان الأطفـــال الذيــن يتصفـــون بـالعـدوانيـة يظهرون توقعات متحيزة عن نيات اقرانهم تتجلى في التفسيرات المخطوءة للاشارات السلوكية الصادرة عنهم التي تسبب عرضاً بعض النتائج السلبيـة ؛

إذ تستند هذه التوقعات على طبيعة العمليات المعرفية التي عالج بها هؤلاء الأطفال تلك الأشارات .

أن نتائج هذه الدراسات والبحوث تثير تساؤلات جديرة بالاعتبار يمكن أن تشكل الإطار الموضوعي لأهمية البحث الحالي ومشكلته ، حيث يمكن تحديد هذه التساؤلات بما يأتي :

هل يختلف إدراك الأطفال العدوانيين عن إقرانهم غير العدوانيين في فهم قصد الاقران المعروفين بالعدائية الذين يسببون نتائج سلبية لاولئك الأطفال في موقف غامض من حيث النية (التقصد) ؟

وهل يظهر الأطفال العدوانيون ردود فعل إنتقامية(أخذ الثار) تجاه هؤلاء الاقران أكثر من الأطفال غير العدوانيين ؟

وماذا عن توقع الأطفال العدوانيين وغير العدوانيين أنفسهم بشأن إستمرار العداء من الاقران العدوانيين ، هل يختلفون في توقعاتهم؟

وفضلا عما تقدم فإن أهمية البحث الحالي تكمن فيما يأتي :

١ — ان الدراسات والبحوث السابقة في القطر العراقي — على حد علم الباحث لم تتناول موضوع الإدراك الإجتماعي وعلاقته بالعدوان ، بل ان موضوع العدوان ذاته لم يلق اهتماماً كافياً حتى الآن «فيما هناك تزايد في عدد الدراسات والبحوث التي تركز على دور الإدراك الإجتماعي في النمو الإجتماعي للأطفال وبخاصة في موضوع العدوان» (Park & Slaby, P. 619)

٢ — اعطاء تصور عام لطبيعة الإدراك الإجتماعي للأطفال العدوانيين وغير العدوانيين ، قد يسهم في تقديم فائدة للمعلمين تساعدهم في توجيه هؤلاء الأطفال ، والارتقاء بمستوى الإدراك الإجتماعي لديهم بما ينسجم والقيم الإيجابية لمجتمعنا .

٣ — معرفة ما إذا كان الإدراك الإجتماعي يتطور بتقدم الأطفال في الصف الدراسي (من الرابع الى السادس الإبتدائي) بعد تثبيت أعمارهم في كل من الصفين المذكورين .

ان هذه الإعتبارات تظهر الأهمية الموضوعية للبحث ومبرر القيام به .

هدف البحث

يهدف البحث الى الاجابة عن السؤالين الآتيين :

١ — هل هناك فروق ذات دلالة إحصائية في الإدراك الإجتماعي مقاساً بالأسئلة الأربعة المستخدمة في أداة قياس الإدراك الإجتماعي بين الأطفال العدوانيين وغير العدوانيين؟

٢ — هل هناك فروق ذات دلالة إحصائية في تطور الإدراك الإجتماعي — الموضح آنفاً — بين الأطفال العدوانيين وغير العدوانيين تبعاً لمتغير الصف الدراسي (الرابع والسادس الإبتدائيين) ؟

حدود البحث

اقتصر البحث الحالي على عينة من الاطفال الذكور فقط من تلاميذ الصف الرابع والسادس الابتدائيين من مدارس الذكور في مركز محافظة نينوى للسنة الدراسية ١٩٩١ — ١٩٩٢ .

تحديد المصطلحات

١ — الادراك الاجتماعي Social Cognition

يعرفه تايلور وفيسك على انه: «الكيفية التي تؤثر فيها البيئة الاجتماعية على فكر ومعتقدات وادراك الفرد ، فضلا عن العمليات المعرفية الاخرى له» (Wade, 1990, P. 658)

وتعرفه شانتز من جهة ارتباطه بالسلوك الاجتماعي على انه : «القدرات الاجتماعية المتطورة (بانواع مختلفة) التي ترتبط ايجابياً بتكرار السلوك المقبول اجتماعياً، وسلبياً بتكرار السلوك غير المقبول اجتماعياً . (Shantz, 1983,P. 526)

ويعرفه ولمان : «بانه ادراك سلوكيات الفرد الاخر ، التي توضح مشاعره ونياته ، واتجاهاته» . (Wolman, 1973, PP. 243-274)

اما التعريف الاجرائي للبحث الحالي فيتمثل بـ : نمط الاستجابات المناسبة التي يظهرها اطفال عينة البحث (عدوانيون ، غير عدوانيين) سلباً او ايجاباً في ادراكهم للاسئلة المستثارة في اداة قياس الادراك الاجتماعي .

٢ ــ الطفل العدواني

يعرف اجرائياً على انه : الطفل الذي يحصل على درجة (٤٨) فما فوق في اداة تقدير السلوك العدواني الخاصة بالمعلمين وباتفاق(٥)معلمين او اكثر من العدد الكلي البالغ (٨) معلمين لكل صف دراسي ، ملحق (١) .

الاطار النظري

لقد اعتمد النموذج المعرفي ــ الإجتماعي إطاراً نظرياً مرجعياً للبحث،وقبل عرض هذا النموذج بشيء من التفصيل لابد من الاشارة الى بعض الاتجاهات النظرية المفسرة لنشوء وتطور العدوان ، التي يمكن تقسيمها الى مجموعتين كما يأتي :

أولا : الإتجاهات النظرية التي تنظر الى داخل الفرد (عوامل بايولوجية) :

من الاتجاهات النظرية التي تبحث في الاسباب الداخلية للعدوان ، وجهة نظر لورينز Lorenz المعروفة « بالاتجاه الايثولوجي» الذي يحدد العدوان على أنه غريزة الدفاع عند الإنسان و الحيوان وبتعبير آخر أن العدوان نظام غريزي يتمثل بالطاقة المتولدة داخل الكائن الحي ، مستقلة عن مثيرات البيئة الخارجية .

(Berkwitz, 1982, PP. 15–18; Park & Slaby, 1983, PP. 550–552)

وترى وجهة النظر الأخرى الممثلة بفرويد هي ان في داخل كل إنسان طاقة عدائية تظهر بثبات على الدوام ، واذا سمح لها بالنمو (التعاظم) فإنها ستفضي الى أعمال عنف ،والكابح الوحيد لهذه الطاقة هو الانـا الأعلى (الضميـر)

الذي يمثل النواهي ، والانا الأعلى بنظر فرويد لا يولد مع الطفل ولكنه يتطور خـــلال سنوات الطفولة المتوسطة (Sacks & krupat, 1988, P. 295

فضلا عن هذين الاتجاهين هناك وجهتا نظر اخريين هما الاتجاه الفسيولوجي واتجاه الشذوذ الجيني (الكروموسومي)، حيث يهتم الأول بدراسة كيميائية الدم والدماغ ، وقد أظهرت العديد من الدراسات الكلاسيكية التي أجريت على الحيوانات دور العوامل العصبية وبخاصة (الهايبوثلاموس الجانبي)في استثارة وكف العدوان، بيد ان المشكلة التي ما تزال مثيرة للجدل هي عدم وجود الأدلة الكافية التي تؤيد وجود مركز عنف في الدماغ الإنساني .
(Sacks & Krupat , 1988, P. 298;Park & Slaby, 1983, PP. 558–562) .

فيما يرى الاتجاه الثاني « الشذوذ الجيني » ان لدى بعض الأفراد زيادة في كروموسوم Y بحيث يصبح النمط الجيني XYY بدلا من النمط الاعتيادي XY ، ويتصف هؤلاء الأفراد بطول الاجسام وضخامتها ، وبارتكاب أعمال عنف وجريمة أكثر من الأفراد الطبيعيين . وتعد المعالجة التي قدمها ويلسون وهيرنشتاين (١٩٨٥) في كتابهما « الجريمة والطبيعـــة الانسانية)من أكثر الأعمال حداثة في هذا الإتجاه، حيث إستند هذان الباحثان على مجموعة كبيرة من الدراسات الارتباطية حول هذا الموضوع ،ومن بينها دراسات التوائم المتطابقة ،والأطفال الذين تم تبنيهم ،وقد استنتجا بأن العامل الوراثي يعد أحد المسببات الرئيسة المؤدية لإستخدام العنف وأعمال الجريمة على وفق ما أظهرته الإرتباطات الوراثية بين الأفراد الذين تمت دراستهم
(Sacks & krupat, 1988 P. 297)

ثانياً : الاتجاهات النظرية التي تنظر الى خارج الفرد (عوامل بيئية)

من هذه الاتجاهات نظرية الحافز لدولارد وميلر (Dollared &Miller)
ومن ثـــم وجهة النظر الاكثر حداثة في هــــذا الاتجاه التي قدمهـــا

بيركوتز (Berkowitz) ، ونظـرية التعلـم الاجتمـاعي لباندورا (Bandura) اذ ترى الاولى ان العدوان لا يستثار لدى الفرد بوساطة الغرائز فقط وانما بتأثير الحوافز التي تستثيرها مثيرات البيئة الخارجية . اما التعبير الاكثر دقة و تأثيراً لهذا الاتجاه الذي قاد البحوث لاكثر من اربعة عقود ، هو افتراض الاحباط — العدوان ،وعلى وفق هذا الافتراض يحدث السلوك العدواني بافتراض مسبق دائماً يرتبط بوجود الاحباط ، والعكس صحيح ان الاحباط يقود إلى انماط من العدوان .

اما النظرية الثانية : «التعلم الاجتماعي» فقد اكدت على عاملين رئيسيين هما :

١ — التأثيرات البيئية

٢ — تأثير الجانب المعرفي ، وستراتيجية تنظيم الذات لدى الفرد .

تفترض هذه النظرية ان جزءاً كبيراً من السلوك العدواني يتم اكتسابه بوساطة تقليد النماذج مثل الآباء والاقران ، فضلا عن النماذج الاخرى التي تلاحظ من خلال التلفزيون والوسائل الاخرى ، ويطلق على عملية الاكتساب هذه اسم «التعلم بالملاحظة»

(Park & Slaby, 1983, PP. 554–556; Sacks &Krupat, 1988 P. 302)

النموذج المعرفي الاجتماعي Social-Cognitive Model

تم طرح هذا النموذج الوظيفي من دوج (Dodge, 1981) ، حيث يشير هـــــذا النموذج — الـــذي يسمى ايضاً بنموذج معالجة المعلومـــات Information Proeessing Model إلى اهمية العمليات الوسيطة الداخلية Mediators مثل: القواعد الداخلية المضمرة المتعلقة بالتصرف المطلوب

والاحكام الاجتماعية وتفسير الاشارات الاجتماعية والتبريرات واستنتاج مرامي دوافع الاخرين واقرار الردود السلوكية ... الخ .

يفترض هذا النموذج ان هناك مساراً تطورياً لدى الاطفال كلما تقدموا في السن فيما يتعلق بوضع تفسيرات اجتماعية حول السلوكيات المختلفة ، كالمنازعات والشجار واشكال الاستفزاز العدائي الاخرى ، ومن ثم تقرير الرد السلوكي المناسب ، وتؤثر نتيجة الاحكام التي يتوصل اليها الطفل في اسلوب التصرف الذي سيقوم به في حالات مشابهة في فترات لاحقة اخرى ، وعلى وفق هذا النموذج ينبغي على الطفل ان يعالج الاشارات (التي قد تكون اعتداءات لفظية او بدنية) استناداً إلى نموذج مؤلف من خطوات خمس ، والفشل في ذلك يزيد من احتمال حدوث السلوك المنحرف ، والخطوات هي ما يأتي :

١ — عملية حل الرموز Decoding Process

عند استلام الطفل الاشارات الاجتماعية من البيئة خلال العمليات الحسية ، عليه ان يدرك هذه الاشارات ،وتكمن في هذه الخطوة قدرة الطفل في البحث عن الاشارات ، والاهتمام والتركيز على المناسب منها ، فمثلا عندما يواجه استفزازاً من احد الاقران كأن يضربه على مؤخرته يبدأ الطفل بالبحث عن اشارة ترتبط بقصد القرين الذي قام بهذا الفعل .

٢ — عملية التفسير Interpretation Process

بعد ادراك الاشارة في الموقف يقوم الطفل بربطها مع الاحداث الماضية في خزين ذاكرته ، ثم يبدأ بالبحث عن تفسير ممكن لهذه الاشارة التي تم ذكرها في الخطوة الاولى ، اي ان يفسر اذا ما كان القرين الذي ضربه يقصد الاساءة ام المودة او ان الفعل كان عرضياً ، بعد ذلك يقارن الطفل بين المعلومات البيئية المتعارف عليها ،والقواعد المختزنة في ذاكرته فقد تكون قاعدة الطفل اذا ضحك القرين الذي قام بضربه ، فإن ذلك يعني ايذاءاً مقصوداً .

٣ — عملية البحث عن الاستجابة Response Search Process

بعد تفسير الموقف ، يبدأ الطفل بالبحث عن استجابات سلوكية ممكنة ، وتدخل في هذه الخطوة مهارات وقدرات الطفل المعرفية التي تعد محددات رئيسة في تكوين العديد من الاستجابات او الحلول للمواقف ، وبمعنى اخر قدرته على تطبيق قواعد الاستجابة التي قد تكون على النحو الاتي : اذا كان القرين يقصد ايذائي فانا استطيع الرد عليه .

٤ — عملية اتخاذ قرار الأستجابة Response Decision Process

يقوم الطفل في هذه الخطوة بتقويم النتائج المحتملة لكل استجابة كي يتسنى له تقويم كفاية الاستجابات الممكنة التي كونها . وتتطلب هذه المهارة تمثيلا معرفياً عالي المستوى يساعده على ان يقرر الاستجابة السلوكية المناسبة .

٥ — عملية تكوين الرموز Encoding Process

تتمثل ابرز ملامح هذه الخطوة بالمهارات الحركية التي اكتسبها الطفل من خلال الممارسة عبر التطور ، ولهذه المهارات دور حاسم في اظهار الاستجابة السلوكية المناسبة المختزنة في ذاكرة الطفل ، التي يمكن استدعاؤها وقت الحاجة . والطفل الذي قرر الاستجابة لفظياً إلى الاستفزاز الموجه من القرين في المثال السابق ، ينبغي عليه امتلاك المهارة اللفظية لانجاز هذا العمل .

(Dodge, 1981, PP0 3–4; Park & Slaby, 1983, PP. 556–558)

ويرى بارك وسلابي ان هذا النموذج يقترح طرائق جديدة في دراسة العدوان تعد على جانب كبير من الاهمية وذلك بتركيزه على التغير الذي يحصل في مهارات الاطفال في معالجة المعلومات Information Processing من اجل الابتعاد عن المواجهة العدائية مع الاخرين قدر الامكان ، بمعنى اخر تأكيده على الفروق الفردية والتطورية بين الاطفال المتعلقة بقدراتهم المعرفية — الاجتماعية التي يظهرونها تحت ظروف موقفية مختلفة . فضلا عن ذلك يطرح

هذا النموذج مجموعة جديدة من التصورات والتفسيرات لموضوع العدوان التي تقدم خدمة جديرة بالاعتبار تساهم في توجيه البحوث المستقبلية في هذا الميدان

دراسات سابقة

سيتم عرض عدد من الدراسات السابقة بقدر صلتها بموضوع البحث الحالي وفيما يأتي عرض ملخص لهذه الدراسات مرتبة على وفق تاريخ اجرائها :

اجرت شانتز وفيدانوف دراسة استهدفت التعرف على ردود افعال مجموعة من الاطفال باعمار ٧ ، ٩ ، ١٢ سنة تجاه مواقف عدائية مفترضة يقوم فيها طفل بايذاء اطفال اخرين بدنياً ، قصداً او عرضياً . وقد قاست الباحثتان بعد ذلك حدة الانتقام العدائي ، فيما لو كان الطفل الذي تتم مقابلته هو الضحية (المعتدى عليه) اظهرت النتائج تغيرات تطورية لصالح الاطفال الاكبر سناً ومن الفئة العمرية ٩ ، ١٢ سنة الذين ابدوا ردود افعال اقل عدائية تجاه المواقف التي تحصل عرضاً ، فيما اظهر اطفال عمر ٧ سنوات ردود فعل انتقامية متشابهة ازاء الموقف العدائي المقصود والعرضي (Shantz & Voydanoff, 1973).

وقام رول واخرون بدراسة استهدفت معرفة ما اذا كانت ردود افعال الاطفال من الجنسين ومن اعمار ٦ ، ٩ ، ١٢ سنة تختلف تبعاً لاختلاف القصد الذي يكمن وراء السلوك العدائي . وقد تم توجيه اسئلة للاطفال يطلب منهم فيها تقويم عمل عدائي يقوم به اقران لهم من نفس جنسهم تحت الظروف الثلاثة الاتية : اما بدافع شخصي (عدائي) ، او وسيلي للحصول على اشياء معينة ، اوسلوك وسيلي مقبول اجتماعياً (كأن يتم استرجاع اشياء خطفها طفل معتد من احد اقرانه). اشارت النتائج إلى ان معظم الاطفال ومن كلا الجنسين قد اكّدوا على ان العدوان المرتكب بقصد مقبول اجتماعياً يعد اقل سوءً من

النمطين الاخرين ، واظهر جميع الاطفال احكاماً مختلفة تجاه المعلومات الغامضة حول القصد الذي يتضمنه العدوان (Rule & Others, 1974).

واجرى فيركسون ورول دراسة مقارنة بين مجموعتين من الاطفال في المرحلتين الدراسيتين الثانية والثامنة ، حيث يطلب من كل طفل تقويم افعال عدائية عرضت عليها باسلوب قصصي ، او يتضمن كل فعل عدائي مستويات مختلفة من المسؤولية . ابانت النتائج ان اطفال المرحلة الدراسية الثامنة يظهرون تمييزات مختلفة وفقاً لطبيعة الفعل العدائي ، فالعدوان المقصود يستحق التوبيخ والعقاب بدرجة اكبر من العدوان غير المقصود . فيما فشل اطفال المرحلة الدراسية الثانية عموماً في تغيير معاييرهم التقويمية وفقاً للمستويات المختلفة المتعلقة بمسؤولية الفرد المعتدي (Ferguson and Rule, 1980).

واجرى دوج دراسة استهدفت التعرف على الادراك الاجتماعي المتمثل بردود الفعل الانتقامية (العدوان المقابل) لعينة من الاطفال العدوانيين وغير العدوانيين من ثلاثة صفوف دراسية ، الثاني ، الرابع ، السادس ، واستخدم في الدراسة فلما يعرض امام الأطفال يظهر فيه طفل يقوم بأسقاط لعبة خشبية اثناء قيام قرينه بتركيبها ، جرت بعدها مقابلات الأطفال بصورة فـرديـة ، وقد تم تصنيف ردود افعال الاطفال على اساس نوع العداء ، عداء مقصود ، عداء غير مقصود (نية طيبة) ، عداء في قصد غامض ، ابانت النتـائـج ان ان جميع الاطفال العدوانيين وغير العدوانيين، قد اظهروا ردود فعل عدوانية تجاه العدوان المقصود من القرين، فيما كانت ردود افعال الاطفال العدوانيين تميل الى الانتقام من القرين في القصد الغامض مقارنة بالاطفال غير العدوانيين (Dodge, 1988) .

اجراءات البحث

١ ـ عينة البحث وطريقة اختيارها

تكونت عينة البحث من (٥٦) طفلا من الذكور فقط ، اختيروا عشوائياً

– على وفق جداول الاختيار العشوائي – من مدرستين ابتدائيتين تم اختيارها بالطريقة العشوائية ايضاً من المدارس الابتدائية الخاصة بالذكور في مركز محافظة نينوى والبالغ عددها(٣٧)مدرسة ، وقد كان نصف العينة من الصف الرابع ، والنصف الاخر من الصف السادس الابتدائيين ، بواقع (١٤) طفلا عدوانياً و (١٤) طفلا غير عدواني من كل صف دراسي ، وقد اختيرت عينةالبحث من تلاميذ الصفين الرابع والسادس الابتدائيين دون غيرهما وذلك لقدرة هؤلاء التلاميذ على الاجابة المكتوبة في اداة الاختيار السوسيومتري ، فضلا عن قدراتهم في استيعاب اداة قياس الادراك الأجتماعي ، وكذلك لمعرفة اذا ما كانت هناك فروق تطورية بين اطفال الصفين المذكورين . وقد استبعد كل طفل زاد عمره عن ٥ : ١١ سنة ، احدى عشرة سنة وخمسة اشهر في الصف الرابع او ٥ : ١٣ سنة ، ثلاث عشرة سنة وخمسة اشهر في الصف السادس عند بدء تطبيق الدراسة في تأريخ ٢٠–١١–١٩٩١ وذلك بالاعتماد على السجلات المدرسية .

وقد اختيرت عينة البحث طبقاً لاداتين اعدهما الباحث (سيتم وصفهما لاحقاً) استخدمنا لتصنيف الاطفال الى مجموعتين (عدوانيون وغير عدوانيين) حيث كانت الاداة الأولى مقياس تقدير للسلوك العدواني خاصا بالمعلمين او الاداة الثانية طريقة الأختيار السوسيومتري(العلاقات الاجتماعية) التي شملت جميع التلاميذ البالغ عددهم الكلي (٢٨٢) طفلا ، اذ بلغ عددهم في مدرسة الحدباء (٦٥) طفلا في الصف الرابع و (٧٠) طفلا في الصف السادس ، فيما بلغ عدد التلاميذ في مدرسة الرشيد (٦٨)طفلا في الصف الرابع و (٧٩) طفلا في الصف السادس .

بعد ذلك جرى اختيار عينة التطبيق النهائي للبحث بالأستناد الى جداول الأختيار العشوائي ، وكما موضح في الجدول (١) .

الجدول (١)

عدد الأطفال في المدرستين المشمولتين بالدراسة وعدد افراد العينة المختارة منهما

الأطفال المدارس	تصنيف الأطفال الى عدواني وغير عدواني				عدد افراد العينة المختارة			
	الصف الرابع		الصف السادس		الصف الرابع		الصف السادس	
	عدواني	غير عدواني	عدواني	غير عدواني	عدواني	غير عدواني	عدواني	غير عدواني
مدرسة الحدباء	١٢	٥٣	١٣	٥٧	٨	٤	٩	٧
مدرسة الرشيد	٧	٦١	٨	٧١	٦	١٠	٥	٧
المجموع	١٩	١١٤	٢١	١٢٨	١٤	١٤	١٤	١٤
	١٣٣		١٤٩		٢٨		٢٨	
	٢٨٢				٥٦			

٢ — ادوات البحث

لغرض تحقيق اهداف البحث فقد اعتمد على الأدوات الاتية :

١ — اداة لتقدير السلوك العدواني للاطفال خاصة بالمعلمين :

اعد الباحث اداة لتقدير السلوك العدواني للاطفال خاصة بالمعلمين ، وقد مر بناء الاداة بخطوات كان اولها توجيه سؤال مفاده « ماابرز الصفات السلوكية التي يتصف بها الطفل العدواني ؟» الى عينة مؤلفة من(١٤) معلماً اختيروا عشوائياً من اربع مدارس ابتدائية ، وبعد تفريغ اجابات المعلمين ، والاطلاع على

الادبيات والدراسات السابقة (ابراهيم ١٩٨٨ ، طه ١٩٨٩ ، Wielkiewicz, 1986, P.9) تم وضع (١٦) فقرة للاداة بصيغتها النهائية، ولغرض احتساب درجة الأستجابة على كل فقرة واستخراج الدرجة الكلية لكل طفل فقد وزعت الدرجات على كل فقرة من فقرات المقياس طبقاً لبدائل خمسة : وهي : تنطبق بدرجة كبيرة جداً، تنطبق بدرجة كبيرة، تنطبق بدرجة متوسطة تنطبق بدرجة قليلة ، لاتنطبق .

اما الأوزان فقد حددت من ٥ درجات الى درجة واحدة ، اذ تتراوح الدرجة الكلية لكل طفل من (٨٠) درجة حداً اقصى الى ١٦ درجة حداً ادنى اما المتوسط المعياري الذي اعتمد حداً فاصلا بين الطفل العدواني وغير العدواني فقد بلغ (٤٨) درجة ، اي ان الطفل الذي يحصل على ٤٨ درجة فما فوق يصنف ضمن الاطفال العدوانيين . وقد اختير (٨) معلمين من كل صف دراسي في المدرستين للاجابة على الاداة ، حيث وضع لكل طفل استمارة خاصة به ملحق (١) يجيب عليها المعلمون على انفراد ، ويعد الطفل عدوانيا اذا حصل على (٤٨) درجة فما فوق ، وبأتفاق اكثر من نصف المعلمين الذين اجابوا على الاداة من كل صف دراسي .

٢ — اداة الاختيار السوسيومتري (العلاقات الأجتماعية)

تكونت هذه الاداة من سؤالين رئيسين يجيب عليهما جميع الأطفال في الصفين الدراسيين وهما .

١ — اذكر اسماء ثلاثة من زملائك ممن يتصفون بـ : التعاون والتسامح ، الطيبة ، وعدم الاعتداء على الاخرين .

٢ — اذكر اسماء ثلاثة من زملائك ممن يتصفون بـ : الاعتداء على الاخرين اتلاف لوازم وممتلكات المدرسة والأطفال ، شتم التلاميذ .

جرى بعد ذلك حساب التكرارات التي حصل عليها كل طفل وقد اعتبرت هذه الاداة محكا اخر للكشف عن الاطفال العدوانيين ، فضلا عن اهمية

التعرف على اسماء الأطفال العدوانيين التي حددها الاطفال انفسهم من افراد عينة البحث لغرض الأستفادة منها اثناء المقابلات الفردية التي تجري معهم كشخصيات تقوم بالفعل الغامض من حيث النية (القصد) في القصة الافتراضية المستخدمة في اداة قياس الأدراك الأجتماعي .

(٣) اداة قياس الادراك الاجتماعي وطريقة التصحيح

تم اختيار الاداة التي وضعها دوج (Dodge, 1988 ,p.604) اداة للبحث الحالي في قياس الأدراك الأجتماعي للاطفال ، تتكون الأداة في الأصل من قصتين إفتراضيتين تصف كل منهما حدثاً غامضاً ، تعقبهما اربعة اسئلة رئيسة ، قام الباحث بترجمتها(•) ، وحيث ان القصتين تؤديان نفس الغرض فقد اختار الباحث احداهما ، وفيما يأتي عرض للقصة المستخدمة في البحث والأسئلة المستثارة حولها وطريقة التصحيح .

تتضمن القصة الأفتراضية حدثاً غامضاً يواجه الطفل ، وذلك بأن يطلب منه الباحث ان يتخيل نفسه وهو يلعب في ساحة المدرسة يطبطب في الكرة وعندما حصل زميله (اسم حقيقي لطفل عدواني) على الكرة رماها بقسوة ، وقد ادى ذلك الى ارتطامها بظهره مما سبب له الماً شديداً .

وبعد ان يتم التأكد من استيعاب الطفل للقصة اثناء المقابلة يبدأ توجيه الأسئلة الاربعة الرئيسة الاتية :

١ – بماذا يمكن ان تفسر قصد الزميل من السلوك الذي قام به ، هل هو سلوك عدائي مقصود ام غير مقصود ؟

(•) عرضت الترجمة على مجموعة من الخبراء للتأكد من صحتها وهم :
١ – الدكتور عدنان خالد / قسم اللغة الانكليزية / كلية التربية/جامعة الموصل .
٢ – المدرس السيد سعد قاسم الاسدي / قسم اللغة الانكليزية / كلية التربية/جامعة الموصل
٣ – السيد صلاح سليم علي/ماجستير ترجمة / مركز الدراسات التركية/جامعة الموصل .

يحصل الطفل على درجة واحدة ، اذ عزا هذا السلوك الى قصد عدائي واذا اجاب بأنه سيفكر في قصد الزميل قبل اصدار الحكم، أو ان سلوكه عرضي وغير مقصود فأنه يحصل على درجتين .

٢ - بماذا سترد على هذا الزميل ، هل ستنتقم منه ام لا ؟
درجة واحدة اذا قرر الأنتقام (اخذ الثار) ودرجتان اذا رفض الـرد الأنتقامي (العدوان المقابل) .

٣ - هل تتوقع ان سلوك هذا الزميل سيتكرر مستقبلا بعد هذه النتيجة السلبية؟
درجة واحدة اذا اجاب بأن هذا الزميل سيستمر بالاعتداء ، ودرجتان اذا اجاب بالنفي (عدم توقع تكرار مثل هذا السلوك) - .

٤ - هل ستقوم بالفعل نفسه الذي قام به الزميل ،اذا كنت في مـوقـف مشابه ؟

درجة واحدة اذا اجاب بنعم،ودرجتان اذا عبر عن رفضه القيام بالفعل.

جرت جميع مقابلات الأطفال بالأسلوب العيادي الفردي(في غرفة معاون المدرسة ،او المكتبة) فقد وضعت استمارة خاصة مؤشر فيها اسماء الأطفال الذين ستتم مقابلتهم على وفق نظام يستدعى فيه طفل عدواني ثم يليه طفـل غير عدواني وهكذا ،وقد كان توجيه الأسئلة يجري بأسلوب واحد لجميع الاطفال وبلهجة شعبية سهلة الأدراك وقريبة من فهم الأطفال لها ، وذلـك عملا بنتائج التطبيق الأستطلاعي على عينة عشوائية مؤلفة من (١٢) طفـلا ، حيث اشارت هذه النتائج الى صحة هذا الأمر فضلا عن استخدام عدد مـن الاسئلة الأستكشافية للتأكد من ثبات اجابات الطفل التي تنم عن الثقة بنفسـه وقدراته ، انظر ملحق (٢) .

٤ ـ الصدق

استخدم الصدق الظاهري للتحقق من صدق الأدوات المستخدمة في البحث لذا فقد تم عرض اداة تقدير السلوك العدواني للاطفال الخاصة بالمعلمين، واداة قياس الادراك الأجتماعي على مجموعة من الخبراء (*) للتأكد من صدقها وملاءمتها لاهداف البحث الحالي، وفي ضوء ملاحظات الخبراء تم تعديل (٥) فقرات في الأداة الأولى، واعادة صياغة سؤال واحد من اسئلة الأدراك الأجتماعي الأربعة دون احداث تغيير في المعنى الأصلي للسؤال.

٥ ـ الثبات

استخرج معامل ثبات اداة قياس الادراك الأجتماعي بطريقة اعادة الأختبار على عينة مؤلفة من (١٥) طفلا، سبعة منهم عدوانيون وثمانية غير عدوانيين وقد كان طول الفترة الفاصلة بين التطبيقين (١٤) يوماً، استخرجت بعدها معاملات الثبات بأستخدام معادلة بيرسون (البياتي واثناسيوس ١٩٧٧)، حيث بلغ معامل الأرتباط في السؤال الاول (٠,٨١) وفي السؤال الثاني (٠,٧٢) فيما بلغ معامل الأرتباط في السؤالين الثالث والرابع (٠,٨١) و (٠,٩٠) على التوالي.

٦ ـ الأسلوب الاحصائي

اعتمد البحث الحالي تصميم القطاعات المجتزأة Split-Plot Design وهو تصميم تجريبي عاملي يعالج اثر متغيري البحث المستقلين

(*) تألفت مجموعة الخبراء من السادة:

١ ـ الاستاذ المساعد السيد يوسف حنا ابراهيم / كلية التربية / جامعة الموصل
٢ ـ = = السيد صباح حنا هرمز / = = =
٣ ـ = = السيد فاضل محسن الازيرجاوي/ = = =
٤ ـ = = السيد عاصم محمود الند ا/ = = =
٥ ـ الدكتور المدرس قصي توفيق غزال / = = =
٦ ـ الدكتور المدرس كامل عبد الحميد عباس / = = =

(الصف الدراسي : رابع ، سادس ،والأطفال : عدواني وغير عدواني ضمن كل صف دراسي) – على كل سؤال من اسئلة الأدراك الأجتماعي الأربعة (المتغيرات التابعة) ، التي يمثل كل منها وحدة قطاع متكامل Whole plot في المعالجة الاحصائية . (Steel &Torrie, 1960. P.232)

كما استخدم اختبار دنكن البعدي لمقارنة الفروق بين المتوسطات (المصدر نفسه : ص ١٠٧ ، ١٠٨) .

عرض النتائج ومناقشتها

استجابة للهدفين الرئيسين الاول والثاني في هذا البحث اللذين اثار ا التساؤل عن دلالة الفروق في الادراك الاجتماعي بين الاطفال العدوانيين وغير العدوانيين ؛ وكذلك الفروق بينهما تبعاً لمتغير الصف الدراسي ، فقد استخدم تصميم القطاعات المجتزأة Split-Plot Design للاجـابة على هذين الهدفين على حد سواء ، وقد استخرج متوسط درجات الأطفال في كل مجموعة من المجموعات الأربع (عدواني ، وغير عدواني ضمـن كل صف دراسي) ، وكذلك تم ايجاد الأنحرافات المعيارية لهذه المتوسطات انظر جدول (٢) .

وبما ان المعالجة الاحصائية لاثر المتغيرين المستقلين ، الصف الدراسي (الرابع والسادس الابتدائيين) ؛ والأطفال عدواني ، وغير عدواني في كل صف) قد تمت بوساطة تصميم القطاعات المجتزأة ، اذ تعد كل معالجة لاثر هذين المتغيرين على كل سؤال من اسئلة الأدراك الأجتماعي (المتغيرات التابعة) بمثابة قطاع متكامل ضمن القطاع الكلي الذي يضم جميـع الأسئلة وبهذا تصبح المعالجة الأحصائية مؤلفة من (٤) قطاعات رئيسـة تم إجراؤها على برنامـــج (R.C.B.D) فـــي الحاســـب الالي

جدول (٢)

متوسط درجات افراد عينة البحث في اسئلة الأدراك الأجتماعي الأربعة وانحرافاتها المعيارية في كل من الصفين الرابع والسادس

الصف الدراسي	الأطفال	المتوسط والأنحراف المعياري	اسئلة الأدراك الأجتماعي (المتغيرات التابعة): عزو الطفل لنوع القصد	رد الفعل الأنتقامي (اخذ الثار)	توقع تكرار السلوك نفسه في المستقبل	اخذ دور الصديق او القيام بالفعل نفسه
الرابع	عدواني	م	١,٧١	١,٣٥	١,٥٧	١,٧٨
		ع	٠,٤٥	٠,٤٧	٠,٤٩	٠,٤١
	غير عدواني	م	١,٧٨	١,٧٨	١,٧٨	١,٩٢
		ع	٠,٤١	٠,٤١	٠,٤١	٠,٢٥
السادس	عدواني	م	١,٥٧	١,٤٢	١,٦٤	١,٧١
		ع	٠,٤٩	٠,٤٩	٠,٤٧	٠,٤٥
	غير عدواني	م	١,٨٥	١,٧٨	١,٧١	١,٩٢
		ع	٠,٣٤	٠,٤١	٠,٤٥	٠,٢٥

وفيما يأتي عرض لنتائج التحليل .

اولا : تحليل درجات السؤال الاول

اظهرت النتائج عدم وجود اثر دال احصائياً لمتغيري الصف الدراسي (رابع ، سادس) ونمط الاطفال (عدواني وغير عدواني) ، حيث كانت القيم الفائية المحسوبة اقل من القيم الجدولية البالغة (٤,٦٧) و (٤,٢٤) عند مستوى دلالة ٠,٠٥ ودرجات حرية (١ ,١٣) و (١ , ٢٦) على التوالي ؛ انظر جدول (٣) .

جدول (٣)

تحليل التباين لدرجات السؤال الاول

مصدر التباين	مجموع المربعات	درجات الحرية	معدل مجموع المربعات	القيم الفائية	مستوى الدلالة
التكرار	٤,٢٣٢١	١٣	٠,٣٢٥٥	١,٨٩	غير دالة
(أ) الصف الدراسي (رابع ، سادس)	٠,٠١٧٩	١	٠,٠١٧٩١	٠,١٠	غير دالة
الخطأ بسبب العامل (أ)	٢,٢٣٢١	١٣	٠,١٧١٧	ـــــ	ـــــ
(ب) : نمط الأطفال (عدوانيون ، غيرعدوانيين)	٠,٤٤٦٤	١	٠,٤٤٦٤	٢,٩٨	غير دالة
تفاعل (ا) × (ب)	٠,١٦٠٧	١	٠,١٦٠٧	١,٠٧	غير دالة
الخطأ بسبب العامل (ب)	٣,٨٩٢٩	٢٦	٠,١٤٩٧	ـــــ	ـــــ
الكلي	١٠,٩٨٢١	٥٥			

ثانياً : تحليل درجات السؤال الثاني

ابانت نتائج التحليل وجود اثردال احصائياً لمتغير نمط الطفل (عدواني ، غير عدواني) ، فيما لم يظهر اثر دال لمتغير الصف الدراسي ، وقد بلغت القيمة

الفائية المحسوبة (٨,٨٨) وعند مقارنتها بالقيمة الغائبة الجدولية البالغة (٤,٦٧) عند مستوى دلالة ٠,٠٥ ودرجات حرية (١٣,١) يظهر ان القيمة الفائية المحسوبة كانت اعلى من القيمة الجدولية ، وهذا مما يدل على وجود أثر لمتغير نمط الطفل، انظر جدول (٤) .

جدول(٤)

تحليل التباين لدرجات السؤال الثاني

مصدر التباين	مجموع المربعات	درجات الحرية	معدل مجموع المربعات	القيم الفائية	مستوى الدلالة
التكـــرار	١,٨٠٣٦	١٣	٠,١٣٨٧	٠,٥٥	غير دالة
(أ) الصف الدراسي (رابع ، سادس)	٠,٠١٧٩	١	٠,٠١٧٩	٠,٠٧١	غير دالة
الخطأ بسبب العامل (أ)	٣,٢٣٢١	١٣	٠,٢٤٨٦	ـــ	ـــ
(ب) نمط الاطفال (عدوانيون ، غيرعدوانيين)	٢,١٦٠٧	١	٢,١٦٠٧	٨,٨٨	دالة *
تفاعل (أ) × (ب)	٠,٠١٧٩	١	٠,٠١٧٩	٠,٠٧٣	غير دالة
الخطأ بسبب العامل (ب)	٦,٣٢١٤	٢٦	٠,٢٤٣١	ـــ	ـــ
الكـــلي	١٣,٥٥٣٦	٥٥			

ولمعرفة اي المتوسطات تختلف عن غيرها بفروق ذات دلالة احصائية ولصالح اي من مجموعات الاطفال الاربع (عدواني وغير عدواني في كل

(*) دالة عند مستوى ٠,٠٥

صف دراسي) فقد استخدم اختبار دنكن البعدي للمقارنات المتعددة Steel&torrie,1960·pp·107–108 وظهر ما يأتي :

١ – ظهرت فروق دالة احصائياً بين متوسط درجات الاطفال غير العدوانيين في الصف الرابع البالغ (١,٧٨) ، ومتوسط درجات الاطفال العدوانيين البالغ (١,٣٥) في الصف ذاته ،حيث بلغ الفرق بين متوسطيهما (٠,٤٣) وهو اعلى من القيمة المحسوبة لاقل مدى معنوي L.S.R البالغة (٠,٣٠) وان هذا الفرق بين القيمتين دال احصائياً عند مستوى دلالة ٠,٠٥ . ولصالح الاطفال غير العدوانيين ، انظر جدول (٥):

جدول (٥)

نتائج المقارنات المتعددة باختيار دنكن بين

متوسطات درجات السؤال الثاني

متوسط درجات مجموعات الاطفال الاربع	١,٧٨	١,٧٨	١,٤٢	١,٣٥
الفرق بين المتوسطات	صفر	٠,٣٦•	٠,٠٧	
	٠,٣٦ •			
	٠,٤٣ •	٠,٤٣ •		
القيم المحسوبة لاقل مدى معنوي L·S·R	٠,٢٩	٠,٣٠	٠,٣٤	

وبالطريقة نفسها تمت مقارنة متوسطي درجات الاطفال غير العدوانيين والاطفال العدوانيين في الصف السادس ، اذ بلغ الفرق بينهما (٠,٣٦) وهو اعلى من القيمة المحسوبة لاقل مدى معنوي L.S:R البالغة (٠,٣٤) وان هذا الفرق دال احصائياً عند مستوى دلا لة ٠,٠٥ ولصالح الاطفال غير العدوانيين كما اظهرت المقارنة بين متوسط درجات الاطفال غير العدوانيين في الصف

(•) مستوى دلالة ٠,٠٥ درجة حرية (٢٦)'قيم دنكن الجدولية (٢,٩١) ، (٣.٠٦) ، (٣,٤) .

الرابع البالغ (١,٧٨) ومتوسط درجات الاطفال العدوانيين في الصف السادس البالغ (١,٤٢) وجود فرق دال احصائياً ولصالح الاطفال غير العدوانيين ، انظر جدول (٥)فيما لم تظهر المقارنة بين مجموعتي الاطفال غير العدوانيين في الصفين الرابع والسادس وجود فرق ذا دلالة احصائية بسبب تساوي متوسطي درجاتهما .

ثالثاً : تحليل درجات السؤال الثالث

ابانت النتائج عدم وجود اثر دال احصائياً لمتغيري البحث المستقلين ، الصف الدراسي (رابع ، سادس) ونمط الاطفال (عدواني ، غير عدواني) اذ كانت القيم الفائية المحسوبة اقل من القيم الجدولية البالغة (٤,٦٧) و (٤,٢٤) عند مستوى دلالة ٠,٠٥ ، درجات حرية (١,١٣) و (١,٢٦) على التوالي ، انظر جدول (٦)

جدول (٦)

تحليل التباين لدرجات السؤال الثالث

مصدر التباين	مجموع المربعات	درجات الحرية	معدل مجموع المربعات	القيم الفائية	مستوى الدلالة
التكرار	٤,٧١٤٣	١٣	٠,٣٦٢٦	٣,١٤	غير دالة
(أ) الصف الرابع (رابع ، سادس)	صفر	١	صفر	صفر	صفر
الخطأ بسبب العامل (أ)	١,٥٠٠٠	١٣	٠,١١٥٤	——	——
(ب) نمط الاطفال (عدوانيون ، غير عدوانين)	٠,٢٨٥٧	١	٠,٢٨٥٧	١,٣١	غير دالة
تفاعل (أ) × (ب)	٠,٠٧١٤	١	٠,٠٧١٤	٠,٣٢	غير دالة
الخطأ بسبب العامل(ب)	٥,٦٤٢٩	٢٦	٠,٢١٧٠	——	——
الكلي	١٢,٢١٤٣	٥٥			

رابعاً : تحليل السؤال الرابع

اظهرت النتائج عدم وجود اثر دال احصائياً لمتغيري البحث المستقليـن ، الصف الدراسي (رابع ، سادس) ونمط الأطفال (عدواني ، غيرعدواني) اذ كانت القيم الفائية المحسوبة اقل من القيم الجدولية البالغة (٤,٦٧) و (٤,٢٤) عند مستوى دلالة ٠,٠٥ ودرجات حرية (١٣,١) و (١ ، ٢٦) على التوالي ، انظر جدول (٧) .

جدول(٧)

تحليل التباين لدرجات السؤال الرابع

مصدر التباين	مجموع المربعات	درجات الحرية	معدل مجموع المربعات	القيم الفائية	مستوى الدالة
التكرار	١,٨٠٣٦	١٣	٠,١٣٨٧	١,٤٦	غير دالة
(١) الصنف الدراسي (رابع ، سادس)	٠,٠١٧٩	١	٠,٠١٧٩	٠,١٨	غير دالة
الخطأ بسبب العامل (أ)	١,٢٣٢١	١٣	٠,٠٩٤٨	——	——
(ب) : نمط الأطفال (عدوانيون ، غير عدوانيين)	٠,٤٤٦٤	١	٠,٤٤٦٤	٢,٨٧	غير دالة
تفاعل (أ) × (ب)	٠,٠١٧٩	١	٠,٠١٧٩	٠,١١	غير دالة
الخطأ بسبب العامل (ب)	٤,٠٣٥٧	٢٦		——	——
الكلي	٧,٥٥٣٦	٥٥			

بناء على النتائج التي تم التوصل اليها ، الموضحة انفا يظهر عدم وجـــود فروق دالة احصائياً بين الأطفال العدوانيين وغير العدوانيين في السؤال الأول المتعلق بالقصد العدائي للقرين وتتفق هذه النتيجة مع نتائج دراســـــات (Dodge' 1988rF ,eguson and Rule, 1980; Rule and others, 1979).

التي لم تظهر فروقاً دالة احصائياً بين الأطفال من اعمار ٨ سنوات فما فوق ، ولكنها اشارت الى وجود فروق عند مقارنة الأعمار المذكورة بالأطفال الأصغر سناً من اعمار ٥ – ٧ سنوات ، فيما اقتصر البحث الحالي على عينة من اطفال الصفين الرابع والسادس الابتدائيين تتراوح اعمارهم بين ٥ : ٩ سنة حداً ادنى و ٥ : ١٣ حداً اقصى وفي هذا العمر يتسم تفكير الطفل الأجتماعي بالتبادلية مع الاخرين ، فضلا عن تطور قدراته في استنتاج القصد (نيات الاخرين) الذي يصعب رؤيته مباشرة لمعرفة ما اذا كان الفعل قصدياً او عرضياً.

وابانت النتائج وجود فروق دالة احصائياً في السؤال الثاني الذي يتعلق برد الفعل الأنتقامي (أخذ الثأر) بين الأطفال العدوانيين وغير العدوانيين في كلا الصفين ولصالـــح الأطفال غير العدوانيين ، اذ رفض اغلبيتهم اخـذ الثـأر ، وتتفق هـذه النتيجة مع نتائج دراسة (Dodge ,1988) التي اظهرت ان الأطفال العدوانيين اكثر استعداداً لرد الفعل العدائي (عـدوان مقابل) وربما يعود السبب في هذا الفرق الى اساليب التنشئة الأجتماعية ، سيما ان بعض الاباء والأمهات يشجعون ابناءهم على رد الفعل واخذ الثأر ، اذ يعد هذا السلوك من قبيل الشجاعة ، كما ان ضعف الكفاءة المعرفية في معالجـــة الأشارات الأجتماعية تحت ظروف موقفية مختلفة ، كالاثارة الانفعاليـــة العالية والأندفاع السريع يعدان من الأسباب المهمة التي تعطل الوظيفة المعرفية للاطفال (Park & Slaby, 1983, P. 558-) ، ومـــع ان عـدداً من الأطفال وخاصة العدوانيين قد اشار الى اهمية معرفة القصد إلا انهم اكدوا على رد الفعل بالوقت نفسه .

واما السؤال الثالث عن توقع الأطفال ماذا كان القرين الذي قام بالفعـل السلبي سيكرر ذلك مستقبلا ،لم يظهر فرق دال احصائياً بين الأطفال العدوانيين وغير العدوانيين ، اي لم يتوقع اي من اطفال المجموعات الأربع ان الأفعال العدائية ستستمر للاقران الذين يتصفون بالنزعة العدائية ، فيما اشارت دراسة

(Dodge, 1988,) الى ان الأطفال العـدوانيين يتوقعون بدرجة اكبر من الأطفال غير العدوانيين ان سلوك الطفل العدواني سيستمر وعلى نحـو عدائي ايضاً .

وفيما يتعلق بالسؤال الرابع عن مدى استعداد الطفل في القيام بسلوك القرين في مواقف اخرى مشابهة ، لم تظهر النتائج فروقاً دالة بين مجموعـات الأطفال ، وقد يعود السبب في ذلك الى ادراك الأطفال ان الأفعال التي تسبب نتائج سلبية لاتحظى بقبول المجتمع ، على الاقل من الناحية الظاهرية ، فضلا عن العقوبة او التوبيخ الذي سيواجهونه جراء مثل هذه الأفعال .

وبالنسبة للهدف الثاني الذي اثار التساؤل حول ماااذا كانت هناك فـروق تطورية في الأدراك الأجتماعي بين الأطفال العدوانيين والأطفال غيـر العدوانيين في كل من الصفين الرابع والسادس ، اذ لم تظهر النتائج أية فروق دالة احصائياً ، بل ان الأطفال غير العدوانيين من الصف الرابع اظهروا تقدماً في السؤال الثاني المتعلق برد الفعل الأنتقامي اعلى من الأطفال العدوانيين فـي الصف السادس ، ومن الجدير بالملاحظة ان هذه النتائج قد لاتتفق مـع المسار التطوري الذي يراه النموذج المعرفي – الأجتماعي ، وقد لايرجع السبب في هذا الى عدم وجود فروق بين الأطفال العدوانيين وغير العدوانيين فـي الصفين الدراسيين اصلا ، بقدر مايعود ذلك الى محددات اخرى يتعلق بعضها بالبحث الحالي مثل ، قلة عدد افراد عينته ، واقتصارها على فئتين عمريتين تمثلان الصفين الرابع والسادس الأبتدائيين ، وعدم امتدادها الى الفئات العمرية الأصغر سناً ، ان هذين المحددين قد يساهمان في تقليل درجة التبايـن بيـن اطفال عينة البحث التي تؤثر بدورها على احتمال ظهور فروق دالة بينهم فضلا عما تقدم قد يكون للعامل الأقتصادي الأجتماعي وطبيعة التنشئة الأجتماعيـة تأثير في هذه النتائج .

التوصيات

في ضوء النتائج التي تم التوصل اليها يوصي الباحث بما يأتي :

ضرورة التعاون بين ادارات المدارس وهيئاتها التعليمية مع اولياء امور التلاميذ عن طريق مجالس الآباء والمعلمين ، او القنوت الأخرى فيما يتعلق بتوجيه الأطفال على تجنب الممارسات السلوكية السلبية مثل اخذ الثار ، والأعتداء على حقوق الاخرين ، والتأكيد على القيم والتقاليد والسلوكيات المقبولة اجتماعياً كالتعاون والتسامح ... الخ بغية ترجمتها الى ممارسات وانشطة سلوكية في حياتهم اليومية .

المقترحات

بما ان البحث الحالي قد اقتصر على عينة صغيرة نسبياً من تلاميذ الصفين الرابع والسادس الأبتدائيين ، واستكمالا للفائدة من الدراسات العلمية اللاحقة يقترح الباحث ما يأتي .

اجراء دراسات اخرى لعينات تضم فئات عمرية اخرى ، تستقصي العلاقة بين الأدراك الأجتماعي للاطفال العدوانيين وغير العدوانيين والمتغيرات الاتية : النمو الخلقي ، اساليب التنشئة الأجتماعية ، الريف والمدينة ،المستوى الأقتصادي الأجتماعي .

المضادر

١ – ابراهيم ، يوسف حنا « تقديم المواقف السلوكية للاطفال في دار الحضانة» مجلة العلوم التربوية والنفسية ، العدد العاشر ، (١٩٨٨) .

٢ – البياتي ، عبد الجبار توفيق ، واثناسيوس ، زكريا ، الأحصاء الوصفي والاستدلالي في التربية وعلم النفس ، مطبعة مؤسسة الثقافة العمالية بغداد ، (١٩٧٧) .

٣ – طه ، مضر عباس ، النمو الخلقي للاحداث الاسوياء والعدوانيين . جامعة بغداد ، كلية الاداب ، رسالة ماجستير غير منشورة (١٩٨٩) .

4- Berekwitz, L. simple view of aggression. In Kerbs, D. (Ed)., *Reading in Social Psychology, Contemporary perspectives,* 2th ed, Harper Row, Newyork, (1982)

5- Brendt.T.J.& Brendt, E.C."Children's use of Motives and Person intentionality in perception and moral judgment." *Child Developments* 1975, 46, 904-912.

6- Dodge, K.A. & Frame, C.I. "Social Cognitive biases and deficits in aggressive boys." *Child Development*, 1982, 53, 620-635.

7- Dodge, K.A. "Social cognition and children's aggressive behavior." In Hetherington, E.N., & Parke R.P., (Eds.), *Contemp orary Reading In Child Psychology*. 3th ed, Mc Graw-Hill, Newyork, (1988).

8- Dodge, K.A. "Behavioral antecedents of peer rejection and isoaltion." *Paper presented at the meeting of the society for research in child development.*, Boston, April, 1981, PP. 1-33.

9- Feryuson, T.J. & Rule, B.G. "Effects of inferential set, out-Come Severity, and basis of responsibility on Children's evaluations of aggressive acts." *Developmental psychology*, 1980, 16, 141-146.

10- Park, D.R. & Slaby, G.R. "The development of aggression." In Mussen, P. (Ed), *Carmichaels Manual of Child Psychlology,* vol4, 4th ed. wiley, Newyork, 1983, pp. 548-641.

11- Piaget, Jean. *The Moral J udgment of the Child,* Penguin book, England, (1977).

12- Rule, B.G.; Nescale, A.R.; Mc Ara, M. "Children Reactions to information about the intxntions underlying on aggressive act.". *Child Development*, 1974, 45, 794-798.

13- Sacks, M.J.; Krupat, E. *Social Psychology amd its Application* Harper and Row, Newyork, (1988).

14- Shantz, C.U. "Social Cognition." In Mussen, P. (Ed), *Carmichaels Manual of Child Psychoglogy* vol.3, 4th ed., wiley, Newyork, 1983, PP. 495-555 .

15- Shantz, D.W.; voydanoff, D.A "Situational effects on retaliatory aggression at three agelevels. " *Child Development*, 1973, 44, 149-153.

16- Steel R.; Torrie, J.H. *Principles and Procedure of Statistics*. Mc Graw-Hill, Newyork, (1960).

17- Wade, C.; Tavris,C.*Psychology*. 2th ed, Harper and Row, Newyork (1990).

18- Wielkiewicz, Z,R.M. Behavior Management in the School. Pergamon Press, Newyork, (1986).

19- Wolman, B. *Dictionary of Behavioral Science*, Van Nostrand, Newyork, (1973).

20- Youniss, J. "*Anther Perspective on Social cognition*." In A. Pick (Ed.,) Minnesota Symposia on Child Psychology (vol.9) Minneapolis : University of Minnesota apress, (1975).

ملحق (١)

اداة تقدير السلوك العدواني لدى الأطفال الخاصة بالمعلمين

الأستاذ الفاضل :

في هذه الأستمارة عبارات تضم صفات سلوكية تتعلق بتشخيص ملسوك التلاميذ المدرجة اسماؤهم في ادناه ، وقد وضع امام كل عبارة اختيـــارات خمس وهي : « بدرجة كبيرة جداً » « بدرجة كبيرة » « بدرجة متوسطة » «بدرجة قليلة » « لاتنطبق » يرجى وضع اشارة « √ » تحت الأختيار الذي تراه مناسباً .

وتقبلوا فائق الشكر والتقدير

أسم التلميذ   مدى انطباق الصفة

ت	الصفات	بدرجة كبيرة جداً	بدرجة كبيرة	بدرجة متوسطة	بدرجة قليلة	لاتنطبق
١	يضرب التلاميذ الاخرين					
٢	يستخدم التهديد ضد بقية التلاميذ					
٣	يستخدم كلمات بذيئة تجاه زملائه					
٤	يتلف ادوات ولوازم غيره من التلاميذ					
٥	يصرخ بوجه التلاميذ					

٦ — يتحدى زملاءه
التلاميذ

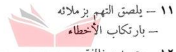
٧ — يحرض زملائه
التلاميذ للاعتداء
على الاخرين

٨ — يلعب بخشونة

٩ — يتهكم على زملائه

١٠ — يفسد العاب التلاميذ

١١ — يلصق التهم بزملائه
— بارتكاب الأخطاء



١٢ — يتعمد مخالفة
الأنظمة والتعليمات
المدرسية

١٣ — يسلب حاجات
التلاميذ

١٤ — يخرب ممتلكات
المدرسة

١٥ — يبصق بوجه
زملائه التلاميذ

١٦ — يتشاجر مع
التلاميذ الاخرين

ملحق (٢)

اسئلة قياس الادراك الاجتماعي باللهجة الشعبية المحلية
في محافظة نينوى مع عدد من الاسئلة الاستكشافية

س١ أشتفسر هذا العمل الي قام بينه زميلك على القسط لوماعل القسط ؟
ج١ — ماعل القسط
س — أشون تعرف ؟ ج — يجوز بالصدفة صار ت
ج٢ — أفكر اغشع على القسط لولا .
ج٣ — هذا على القسط لأن هذا الطالب يعمل هاكذ دائماً ..

س٢ اشتعمل تضربه بالطبي(الكرة)نفس الشي لوما تضر به؟يعني ماتأخذ ثارك منه؟
ح — اشتكي علين عند المدير . س — اذا المديرماهوني اشتعمل ؟
ح — اشتكي علين عند المعلم . س — واذا المعلم ماموجود أشراح تعمل ؟
ح — اضربه مثل ماضربني .
ح — او اتركه لان ماما وبابا قالولي ابتعد عن اللي يعتدون عليك .

س٣ اشتقول هذا زميلك يظل يعمل هكذ دايماً بالمستقبل (يعني الأيام الجاية؟)
ج — لا
س — اشون تعرف
ح — لان يجوز ضرب الطبي هذه المرة بالصدفة .
ج — أو ، نعم هذا مدلوع يضرب ويسب (يشتم) الطلاب دائماً.

س٤ انت لو كنت بمكانه وهو يلعب طبي ، وجتك الطبي تضربها شوت مثل ماعمل لولا ؟
ج — لا
س — ليش (لماذا) ؟
ج — لان يجوز يتأذى او يزعل وهذا ماමليح .
ج — (أو اذا كانت اجابته نعم) فيبرز ذلك بكون هذا العمل يحصل دائماً في الساحة .

نشاط الكلية

جريا على منهجها جرت كليتنا في سنتها الراهنة على توثيق نشاطها العلمي بما يكشف عن ديمومة حركتها في عقد الندوات العلمية واقامة الدورات وموا صلة الأنجاز العلمي كتباً وبحوثاً ورسائل دراسات عليا ، مما يرافق نشاطها في التدريس الأكاديمي المعهود بمستوياته المرموقة في حقل الدراسات الأولية والدراسات العليا ، وفيما يأتي خلاصة مايمكن ان يسجل ليبقى في الذاكرة ، ويخضع للحصر والمتابعة :

تطوير الهيكل

١ – استحداث مكتب استشاري بعنوان « المكتب الأستشاري للغات والترجمة » مهمته الأضطلاع بالعمل اللغوي باللغتين الأنكليزية والفرنسية ترجمة وتدريباً لخدمة الجامعة ومؤسسات الدولة.

تديره هيئة مؤلفة من السادة المدرجة أسماؤهم ادناه :

١ – الدكتور صلاح الدين أمين طه رئيساً لمجلس الأدارة
٢ – الدكتور امين حسين احمد مديراً
٣ – الدكتور عاصم اسماعيل الياس عضواً
٤ – الدكتور توفيق عزيز عبد الله عضواً
٥ – السيد محمد باسل قاسم العزاوي عضواً

٢ – استحداث قسم للفلسفة في الكلية ابتداء من العام الدراسي المقبل ٩٣/ ١٩٩٤

الدراسات العليا

في ادناه جدول بأسماء الطلبة الذين نالوا شهادة الماجستير والدكتوراه خلال العام الدراسي : ٩٢/١٩٩٣ .

اسم الطالب	اسم المشرف	عنوان الرسالة	الدرجة العلمية	التخصص	تاريخ المناقشة
١ – أحمد بشير حسن	د. دنحا طوبيا كوركيس	Lexical Relation in English and Arapic a contrastive study of superordinate concepts	ماجستير	اللغة الأنكليزية	١٩٩٣/٣/٢٧
٢ – بدر مصطفى عباس	د. ميار كوكب الجميل	دراسات في ادخال تدريس العلوم في المدارس والكليات الأنكليزية للفترة من ١٨٦٠ – ١٨٨٠ مع اشارة خاصة الى نظام الأمتحانات.	ماجستير	التأريخ الحديث	١٩٩٢/١٠/٢١
٣ – جعفر حسن صادق	د. ناطق صالح مطلوب	كتاب التكملة لأبن الأبار – دراسة في المنهج والمفهوم والدلالات علمية .	دكتوراه	التأريخ الأسلامي	١٩٩٣/٢/٢٠
٤ – جمعة حسين محمد	د. محيي الدين توفيق ابراهيم	اثر الأحتمالات الأعرابية في توجيه المعنى – دراسة في كتب اعراب القرآن حتى نهاية القرن الرابع للهجرة	دكتوراه	اللغة العربية	١٩٩٣/٣/٢٠
٥ – صالح حسين علي	د. عبد الرضا علي	الشعر في الصحافة الموصلية ١٨٨٥ – ١٩٥٨	دكتوراه	الأدب العربي	١٩٩٢/١٠/٣

اسم الطالب	اسم المشرف	عنوان الرسالة	الدرجة العلمية	التخصص	تاريخ المناقشة
٦- صفوت هاوار البزاز	د. امين حسين احمد	Problems of teaching intonation in a multilingual situation	ماجستير	اللغة الأنكليزية	١٩٩٣/٣/٣
٧- عبد الجبار حسن علي	د. عمر الطالب	ظاهرة الصراع في النص الشعري قبل الأسلام	دكتوراه	الأدب العربي	١٩٩٢/١٢/١٢
٨- عبد الستار عبدالله صالح	د. فائق مصطفى	القناع في الشعر العراقي الحديث ١٩٤٥ - ١٩٨٨	دكتوراه	الأدب العربي	١٩٩٣/١/٢٤
٩- عبد الله محمود طه	د. عبد الوهاب العدواني	عصام الدين العمري الموصلي حياته وشعره وديوانه مجموعاً محققاً	دكتوراه	الأدب العربي	٩٩٢/١٢/٢٦
١٠- علي شاكر علي	د. ابراهيم خليل	ولاية الموصل في القرن السادس عشر - دراسة في اوضاعها السياسية والأدارية والأقتصادية	دكتوراه	التاريخ الحديث	١٩٩٢/١/٩
١١- منتصر عبد القادر	د. محمد تاسم مصطفى	النزعة القصصية في الشعر العباسي	دكتوراه	الأدب العربي	١٩٩٣/١/٢٤
١٢- نهال خليل يونس	د. هاشم يحيى الملاح	بنو عبد شمس حتى نهاية الحكم الأموي.	دكتوراه	التاريخ الأسلامي	١٩٩٣/٥/٦
١٣- هالة خالد نجم	د. عاصم اسماعيل الياس	Negation in English and Arabic texts	ماجستير	اللغة الأنكليزية	١٩٩٣/٢/٢٥
١٤- هلال محمد جهاد	د. عمر الطالب	الحركة والسكون في الشعر الجاهلي	ماجستير	الأدب العربي	١٩٩٣/٤/٢٩

الاصدارات

١ – المذاهب النقدية – دراسة وتطبيق ،تأليف الأستاذ الدكتور عمرمحمد مصطفى الطالب –

٢ – تأريخ اليونان والرومان – تأليف كل من الأستاذ الدكتور عادل نجم عبو والدكتور عبد المنعم رشاد محمد – .

٣ – تأريخ العرب ماقبل الأسلام ، من تأليف الأستاذ الدكتور هاشم يحيى الملاح – قيد الأنجاز .

الندوات

١ – مؤتمر دراسات تطبيقية في علم اللغة وعلم الأدب – اقامه قسم اللغة الأنكليزية للمدة من٢٤/ – ٢٥/ ٤/ ١٩٩٣ شارك فيه باحثون منجامعة تكريت والقادسية وبغداد والمستنصرية واستاذان في جامعة مؤتة واليرموك من الأردن والقي في المؤتمر (٢٤) بحثاً .

٢ – ندوة التضامن الأجتماعي في المجتمع العراقي : اقامها قسم الخدمة الأجتماعية للمدة من ٥/٨ – ١٩٩٣/٥/٩ شارك فيهاباحثون من وزارة العمل والشؤون الأجتماعية ومن كلية الأداب / جامعة بغداد القي في الندوة (١٤) بحثاً .